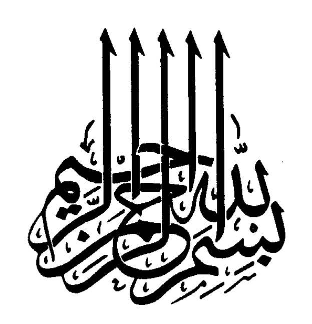
فتح المجيد

شرح كتاب التوحيد

تأليف
الشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ

خرّج أحاديثه وعلّق عليه
حامد بن أحمد الطاهر البسيوني

الناشر
دار البيان العربي



فتح المجيد

شرح كتاب التوحيد

اسم الكتاب : فتح المجيد شرح كتاب التوحيد

اسم المؤلف : عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ

اسم المحقق : محمد بن إبراهيم بن عبد الله

مقاس الكتاب : ١٧ x ٢٤

عدد الصفحات : ٥٤٤ صفحة

عدد الأجزاء : جزء واحد

رقم الإيداع : ٥٢٧٢ / ٢٠٠٦ م



دار البيان العربي

الأزهر / درب الأتراك ت: ٥١١٨٠٩٧



مقدمة المحقق

انتصار المنهج السلفي

الحمد لله رب العالمين وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير، نحمده حمد الشاكرين، ونشكره شكر الحامدين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين.

أما بعد... كان ميدان العقيدة - وما زال - هو ذلك المعترك الفسيح الذي يستفرغ فيه الأئمة جهدهم وطاقاتهم لإعادة المسلمين إلى جادة الصواب، وطمس دولة البدع، وإحياء العقيدة السليمة داخل القلوب بعد هدم وتقويض الجمود والتقليد، ومظاهر الشرك داخل القلوب.

ولقد حفل تاريخ الإسلام بالأئمة المصلحين الذين خاضوا معركة الدفاع عن العقيدة ببراعة واقتدار، فوهبوا الحياة لكل كلمة كتبوها يوم ارتضوا الدفاع عن التوحيد، فما زالوا يقودون الصحوة من بطن الثرى، كانت البداية بـ (أحمد بن حنبل) إمام أهل السُّنة الذي خاض المعركة بالحكمة والموعظة الحسنة، وبالصبر والثبات، ثم برز ابن تيمية - رحمه الله- سيفًا قويًّا، وصخرة راسية تتكسر عليها أمواج البدع والشرك والفتن المتتالية.

ثم تتابع المصلحون من بعده حتى عادت أرض الحجاز التي طهرتها الشريعة تُدر ينابيعها بالعطاء، فكان ابن عبد الوهاب الإمام المصلح الذي برز كموحد خالص، ليصلح ما أفسده الآخرون، حتى قدّم العقيدة سليمة صحيحة نقية لا غبار عليها، فلله درّه من مُوحِّد! أحيا سير السابقين، فخاض معترك العقيدة، فأحيا الله به الأمة، ونقلها من ظلمات الشرك إلى عالم من النور، وكانت قد أوشكت أن تكبكب في هوة الشرك السحيقة كان الوضع مخزيًا، فاضحًا، هذا قبر (فحل النخل) في بلدة منفوحة بشد العوانس إليه الرحال يدعونه مبتهلات: (يا فحل ارزقني زوجًا قبل الحول)!!

وهذي شجرة الذيب تؤمها النساء ويعلقن عليها خرقًا بالية علّ العوانس منهن أن يُرزقن الأزواج، والعواقر أن يرزقن الأولاد، والوالدات أن يبقى لهن ذكورهن!!

وذا قبر زيد بن الخطاب رضي الله عنه في (الجُبَيْلة) يحج إليه الناس ملتمسين تفريج كروبهم.

أمّا غار (بنت الأمير) في (الدّرعية) فيُهدى إليه خبزٌ ولحمٌ.

وفي (الخرج) رجل اسمه (تاج) يقدمون له النذور في انتظار نفعه واتقاء ضُرّه.

وفي الصحراء تقدم القرابين للشياطين لترضى، وصاحب النذر يلطخ جسده بدمائه ليُقبل نذره، والمدين عند صاحب القبر يذرف دمعه ليساعده على قضاء دينه، وفي الجنازات تلطم النسوان خدودهن بينما وضعن الأحجبة والتمائم والخرز مع ظلف الحيوان على البيوت، وعلقنها في رقاب الصغار!!

وهنا يستفتح الشيخ جهاده فيقول بنبرة هادئة مطمئنة: (إني لم آت بجهالة بل أقولها ولله الحمد: إن ربي هداني إلى صراط مستقيم، دينًا قيمًا ملة إبراهيم حنيفًا وما كان من المشركين، ولست أدعو إلى مذهب صوفي أو غيره، بل أدعو إلى الله وحده لا شريك له، وأدعو إلى سنة رسوله ﷺ التي أوصى بها أول أمته وآخرهم).

وانطلق يتلقى بيعة الجمهور له: (على دين الله ورسوله، وعداء أهل الباطل) ثم تراه وهو يحتاط مَنْ للدين من فلتات الأمراء وانحرافاتهم، ويرفع من شأن الدعوة إلى الله على الولاء للحكام، فتكون تكملة حملة البيعة (. . كما تبايع على عداء كل من عادى الشيخ وموالاة كل من والاه ولو أنه أميرنا عثمان بن معمر).

ثم يؤكد أمية عبد الله هذه السبيل فيقول: (مذهبنا في الأصول مذهب أهل السُّنة والجماعة، وطريقنا طريق السلف، فلم يأت ببدعة جديدة، ولا فكرة مبتدعة مبتكرة، أو طريقة مخترعة، إنما هو سبيل السلف لإحياء الدين، والدفاع عن السُّنة وقتل البدعة، دون تقليد لأحد.

وهكذا قُدِر لـ(نجْد) أن تنجب هذا الفحل ابن عبد الوهاب - رحمه الله - الذي أرادها حنيفية سمحاء لا تعرف تصوفًا، ولا زندقة، ولا تشبيهًا ولا تعطيلاً، ولا تعلقًا

بغير الله تعالى .

ولأنه التوحيد : فلابد أن تفتح له قلوب ، وأن تقف في وجهه قلوب أخرى ، فقد حرص كثيرٌ من أهل زمانه العبيد ليقتلوه ، وكمنوا له في جوف الليل ليتسوروا داره ، لولا أن ربه قيّض له بعض السيّارة من البدو ، فانفض الكمين ونجا الشيخ .

لقد هجر الشيخ (حريملا) بلدته حتى ذهب إلى (العيينة) فبزغ نجمه وعلا ، حتى صار أميرها (عثمان بن حمد بن عبد الله بن معمر) تابعًا له ، وتأييد السلطة للفكرة ينعشها ، ويختصر لها الطريق في أمدٍ يسير ، وأجل قصير ، فانتشرت الدعوة وعرفت الانتصار .

بيد أن العثمانيين من أصحاب الأطماع آنذاك في الحجاز كانت لهم اليد الطولى في معارضة الشيخ وفكرته فأطلقوا على أتباعه اسم (الخوارج) وتارة أخرى (الروافض) مع اختلاف الطائفتين بل إن كلًّا منهما لنقيض للآخر ، وهما فيما بينهما عدوان خصمان لدودان ، فإنما خرج الخوارج على علي رضي الله عنه ، وبايع له الشيعة ثم ضلوا بعد موته ، والشيخ - ابن عبد الوهاب يدعو الأمة إلى منهج أهل السُّنة والجماعة ، لا يستخدم تزويرًا في عباراته ولا تزويقًا ، إنما هو التوحيد في سهولته وجزالته كما جاء به الأنبياء والمرسلون ، وهكذا ترى مخالفي الشيخ من أصحاب المصالح والمطامع في السلطة أو المتزلفين إلى أهلها ممن غلبت عليهم الغفلة ، وهو الحال في أيامنا هذه فلا عدو للسلفية إلا عُشَّاق البدع والمنكرات ، ممن تملكت البدعة أنفسهم وقلوبهم من القبوريين ، وأهل القصعة الطوافين حول كل قبر ، السابحين في كل نهر ، أحدهم أجهل من دابة ، خاب وخسر ، وذُرِّي وفرِّي وحُرِّق لقد انتصرت دعوة الشيخ ابن عبد الوهاب لأن مستندها الوحي ، وقد وسعه ما وسع غيره من سلف الأمة ، ورحم الله الأوزاعي يوم قال : اصبر نفسك على السُّنة ، وقِف حيث وقف القوم ، وقل بما قالوا ، وكُفّ عما كفوا عنه ، واسلك سبيل سلفك الصالح ، فإنه يسعك ما وسعهم[1] .

لقد فهم ابن عبد الوهاب مذهب السلف فهمًا صحيحًا :

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السُّنة والجماعة (١/ ١٥٤) للالكائي .

-فعلم أن السلامة في طلب الخير من الله تعالى دون تعويل على قوى مجهولة مضللة، ففي هذا إهدار للإنسانية، وتخريب لمرافق الدنيا .

-وفهم أن الخوف من العفاريت والشياطين والموتى ما هو إلا توريث للجبن والقلق والوهم، فتصاب النفوس ساعتها بالشلل، والقلق، والوهم .

-فهم أن التوحيد حربٌ حقيقية على الأصنام مهما كان شكلها : تماثيل أو دُمى، أو أشخاصًا أو أفكارًا، أو موتى، فهي كلها تقف حائلاً دون توحيد الواحد القهار، وتقف مانعًا دون تحقيق إنسانية الإنسان التي لا كيان لها إلا بتحقيق العبودية لله، ولن يكون ثمة عبودية إلا بما جاء به الوحي عن الله إلى رسول الله وهو ما نقله إلينا السلف، وأراد ابن عبد الوهاب إحياءه .

إن بقاء الدعوة السلفية حتى هذه اللحظة لهو أدلّ دليل على أن هذه الدعوة محفوظة بحفظ الله تعالى فقد تخبو لكنها لا تنطفئ، وقد تتعرض للاضطهاد لكنها لا تموت، فهي حية بإحياء الله تعالى لها، تتفتح لها القلوب، فتسري داخل العروق، فما زال الإمام أحمد، وابن تيمية، وابن عبد الوهاب وغيرهم من أئمة السلف يقودون الصحوة بكلماتهم الحية التي ارتبطت بكيان التوحيد، بينما تموت كل يوم فكرة أو دعوة ضلّ أصحابها ضلالاً مبينًا مهما كانت كثرتهم فإنما هي غُثائية لا تعرف إلا الوهن وتلك لا تحتاج إلا إلى القليل من الوقت لتموت .

وسيظل التوحيد دأبنا وديدننا ندندن به ما بقينا - ونسأل الله الثبات على ذلك - وستبقى الكلمة الأخيرة التي ألقتها السلفية في القلوب والأذهان : إن المسلمين أمة صنعتها العقيدة والشريعة، ويوم يخرج المسلمون عن عقيدة التوحيد، وعن الشريعة التي تمت واكتملت فتتبع أقوال المزخرفين والمزوقين، فالهزيمة ستقع تحقيقًا حتى يعود المسلم إلى عقيدته وشريعته .

والله من وراء القصد

أبو أنس الدمنهوري

حامد بن أحمد الطاهر البسيوني

ترجمة موجزة للشيخ صاحب الشرح

العلامة: عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب

المولد والنسب:

هو العلامة المجدد الثاني: أبو الحسن، عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب، المولود في «**الدِّرعية) شمال الرياض عام (١١٩٣ هـ) وذلك قبل وفاة جده المجدد الشيخ محمد بن عبد الوهاب بثلاث عشرة سنة**.

النشأة:

وقد تُوفي والده وهو صغير، فقام برعايته، واعتنى به جده - عليه سحائب الرحمات- ومن هنا توجه جهده إلى العلم وطلبه، فأتم حفظ القرآن الكريم في التاسعة من عمره، وحضر القراءة عليه في كتب التفسير، والحديث والأحكام، وما زال مع جده ينهل من علمه حتى جمع - بفضل الله تعالى - علمًا غزيرًا في مدة قصيرة، وذلك لما حباه ربه به من الذكاء، وسرعة الفهم وجودته، والصبر على العلم الذي لا يُنال براحة الجسد.

مشايخه:

وكان - رحمه الله - قد أخذ العلم من طائفة من علماء زمانه في نجد، ومصر التي انتقل إليها بعدُ، ومنهم:

- جده : ابن عبد الوهاب - رحمه الله. (ت ١٢٠٦ هـ).
- العلامة الشيخ : عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب (ت ١٢٤٣ هـ).
- الشيخ : حمد بن ناصر العمر (ت ١٢٢٥ هـ).
- والمؤرخ المصري : عبد الرحمن الجبرتي (ت ١٢٤٠ هـ).
- والنحوي المؤرخ حسين بن غنام (ت ١٢٢٥ هـ).
- والشيخ الباجوري شيخ الأزهر (ت ١٢٧٧ هـ).

أعماله:

- كان قاضيًا للدرعية إبان إمارة الأمير سعود بن عبد العزيز (ت ١٢٢٩ هـ) ثم نقله إلى مكة الأمير عبد الله بن سعود (ت ١٢٣٤ هـ).

- ولما استطاع (محمد علي باشا) اجتياح الدرعية (١٢٣٣ هـ) (١٨١٨م) انتقل إلى مصر مع أفراد أسرته، حتى تمكن من العودة سنة (١٢٤١ هـ) إلى نجد، فأعاده الإمام تركي بن عبد الله بن محمد بن سعود (ت ١٢٤٩ هـ) إلى القضاء، وعينه له مستشارًا بعد أن قامت للدعوة قائمة أخرى، وتحت راية التوحيد قاتل وحارب في غزوات الدعوة حتى عهد الإمام فيصل (ت ١٢٨٢هـ) وعهد الإمام عبد الله (ت ١٣٠٦ هـ) حتى فارق الدنيا.

أبناؤه وطلابه:

أنجب - رحمه الله - خمسة أولاد هم: محمد، وإسماعيل، وعبد اللطيف، وإسحاق، وعبد الله. ولآخر ثلاثة منهم عقب، وقد أخذوا عنه.

كما أنه قد أخذ عنه العلم ما لا يحصى عدده من الخلق، ومنهم:

- نجله العلامة عبد اللطيف بن عبد الرحمن.
- والقاضي حسن بن حسين بن محمد بن عبد الوهاب.
- والشيخ عبد الرحمن بن عدوان.

وغيرهم من أكابر علماء المملكة وأعيانها.

وفاته:

وتوفي رحمه الله بعد أن امتد به العمر حتى عام (١٢٨٥ هـ) وتحديدًا عشية سبت الحادي عشر من ذي القعدة في الرياض وصُلي عليه بجامعها الكبير، ودُفن بمقبرة العود. فأصيب الناس بفقده، ورثَوْه رثاءً كثيرًا.

من كتبه:

- فتح المجيد وهو الكتاب المعني هنا.

- قرة عيون الموحدين .

- المحجة .

- القول الفصل .

- المقامات في تاريخ الدعوة .

- بيان كلمة التوحيد، وغيرها .

وقد أثنى عليه علماء عصره فقال ابن بشر .

الشيخ العالم النحرير، والبحر الزاخر الغزير، مفيد الطالبين، ومرجع الفقهاء والمتكلمين المحفوف بعناية رب العالمين، جامع العلوم الشرعية، ومحقق العلوم الدينية، والأحاديث النبوية، والآثار السلفية، وارث العلم كابرًا عن كابر، الذي قصرت عن استنباطاته العلماء والأكابر، وصارت الأصاغر بإفاداته شيوخًا أكابر، ورجع العلم به غضًا بعدما كان دابرًا . ناصر شريعة سيد المرسلين، الموفق للصواب في الجواب، الحافظ المتقن .

فرحمة الله الواسعة عليه، ونفعنا الله به وبعلمه[1] .



(١) انظر الأعلام (٣/ ٣٠٤) للزّركلي، ابن بشر (١/ ١٩١) (٢/ ٤١ - ٤٦) في عنوان المجد في تاريخ نجد، هداية العارفين (١/ ٥٥٨).



وبه نستعين وعليه التكلان

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والعاقبةُ للمتقين، ولا عُدوان إلا على الظالمين، كالمبتدعة والمشركين، وأشهد أنْ لا إله إلا الله وحده لا شريك له، إله الأولين والآخرين، وقَيُّوم السموات والأرضين، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله، وخِيرتُه من خلقه أجمعين.

اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

فإن كتاب التوحيد الذى ألفه الإمام شيخ الإسلام: محمَّد بن عبد الوهَّاب أجزل الله له الأجر والثواب، وغفر له ولمن أجاب دعوتَه إلى يوم يقوم الحساب - قد جاء بديعًا فى معناه: من بيان التوحيد ببراهينه، وجمِع جُملٍ من أدلته لإيضاحه وتبيينه؛ فصار علمًا للموحِّدين، وحجة على الملحدين. فانتفع به الخلقُ الكثير، والجمُّ الغفير.

فإن هذا الإمام رحمه الله فى مُبتدأ نشأته قد شرح الله صدره للحق المُبين، الذى بَعث الله به المرسلين: من إخلاص العبادة بجميع أنواعها لله رب العالمين، وإنكار ما عليه الكثير من شرك المشركين.

فأعلى الله همَّته، وقوَّى عزيمته، فتصدى لدعوة أهل نجد إلى التوحيد، الذى هو أساسُ الإسلام والإيمان، ونهاهم عن عبادة الأشجار والأحجار والقبور، والطواغيت والأوثان، وعن الإيمان بالسَّحرة والمنجِّمين والكُهَّان.

فأبطل الله بدعوته كل بدعة وضلالة يدعو إليها كلُّ شيطان، وأقام الله به عَلَمَ

الجهاد، وأدْحَض به شُبَه المعارضين من أهل الشرك والعناد، ودانَ بالإسلام أكثرُ أهل تلك البلاد، الحاضر منهم والباد، وانتشرت دعوته ومؤلفاتُه فى الآفاق، حتى أقر له بالفضل من كان من أهل الشقاق إلاّ من استحوذ عليه الشيطان، وكرّه إليه الإيمان، فأصرّ على العناد والطغيان.

وقد أصبح أهل جزيرة العرب بدعوته، كما قال قتادةُ رحمه الله عن حال أول هذه الأمة: إن المسلمين لما قالوا: (لا إله إلا الله) أنكر ذلك المشركون، وكبرت عليهم، وضاق بها إبليس، وجنوده فأبى الله إلاَّ أنْ يُمضيها ويظهرها، وينصرها على من ناوأها، إنَّها كلمةٌ من خاصم بها فَلَج [١]، ومن قاتل بها نُصر، إنما يعرفها أهلُ هذه الجزيرة التى يقطعها الراكب فى ليالٍ قلائل، ويسير من الدهر في فئام [٢] من الناس، لا يعرفونها ولا يُقرُّون بها [٣].

وقد شرح الله صدورَ كثير من العلماء لدعوته، وسرُّوا واستبشروا بطلعته، وأثنوا عليه نثرًا ونظمًا.

فمن ذلك ما قاله عالمُ صنعاء: محمد بن إسماعيل الأمير فى هذا الشيخ رحمه الله تعالى شعرًا:

وقد جاءت الأخبارُ عنه بأنه ... يعيد لنا الشرعَ الشريف بما يُبدي
وينشر جهرًا ما طَوى كلُّ جاهل ... ومُبتدع منه فوافق ما عندي
ويَعمُر أركان الشريعة هادمًا ... مشاهد ضلَّ الناس فيها عن الرشد
أعادوا بها معنى سُواع ومثله ... يغوث وَودٌّ بئس ذلك من وَدِّ
وقد هتفوا عند الشدائد باسمها ... كما يهتفُ المضطر بالصَّمد الفردِ
وكم عقروا فى سُوحها من عَقيرةٍ ... أُهلَّت لغير الله جهرًا على عمد
وكم طائفٍ حول القبور مقبِّل ... ومُستلم الأركان منهن بالأيدي

---

(١) فَلَج: انتصر على خصمه كما في «الصحاح» (١/ ٢١٣)، والمعنى: غلب. كما في «النهاية» (٣/ ٤٦٨).

(٢) فئام: الجماعة من الناس كما في «اللسان» (١٢/ ٤٤٨).

(٣) ذكره الطبري في تفسيره (١٥/ ٩٤) - ط دار الفكر - بيروت.

وقال شيخُنا عالم الإحساء أبو بكر حُسين بن غَنَّام رحمه الله تعالى فيه :

لقد رفع المولى به رُتبة الهدى ... بوقت به يُعلى الضلالُ ويرفعُ
سقاه نميرَ الفهم مولاه فارتوى ... وعام بتيّار المعارف يقطعُ
فأحيا به التوحيدَ بعد اندراسه ... وأوهى به من مطلع الشرك مهيع [١]
سما ذِرْوة المجد التى ما ارتقى لها ... سواه ولا حاذَى فناها سميدع [٢]
وشمر فى منهاج سُنّة أحمد ... يُشيد ويحيي ما تعفّى ويرفع
يُناظر بالآيات والسُّنة التى ... أُمرنا إليها فى التنازع نرجع
فأضحت به السمحاءُ يبسم ثَغرها ... وأمسى محياها يضيء ويلمع
وعاد به نهجُ الغواية طامسًا ... وقد كان مسلوكًا به الناس ترتع
وجرّت به نجدٌ ذبول افتخارها ... وحُقّ لها بالألمعيّ ترفّع [٣]
فآثاره فيها سوامٍ سوافر ... وأنواره فيها تضيء وتلمع [٤]

وأما كتابه المذكور فموضوعه فى بيان ما بعث به الله رسله : من توحيد العبادة، وبيانه بالأدلة من الكتاب والسنة، وذكرِ ما ينافيه من الشرك الأكبر، أو ينافي كماله الواجب من الشرك الأصغر ونحوه، وما يقرب من ذلك أو يوصل إليه .

وقد تصدَّى لشرحه حفيد المصنِّف، وهو الشيخ سليمان بن عبد الله رحمه الله تعالى فوضع عليه شرحًا أجاد فيه وأفاد، وأبرز فيه من البيان ما يجب أن يطلب منه ويراد، وسماه (تيسير العزيز الحميد فى شرح كتاب التوحيد) .

وحيث أطلق : شيخ الإسلام فالمراد به : أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية، والحافظ فالمراد به : أحمد بن حجر العسقلانى .

ولما قرأتُ شرحه رأيته أطنب فى مواضع، وفى بعضها تكرار يُستغنى بالبعض منه عن الكل، ولم يكمله .

---

(١) اندراسه : انمحاؤه وزواله . والمهيع : الطريق الواسع .
(٢) سميدع : فرس جيد «لسان العرب» (٥/ ١٤٢) .
(٣) الألمعي : الذكي المتوقد كما في «الصحاح» (١/ ٢٥٢) .
(٤) سوام : هي الهوام كما في «النهاية» (٢/ ٤٠٤) .

فأخذت في تهذيبه وتقريبه وتكميله، وربما أدخلت فيه بعضَ النقول المستحسنة تتميمًا للفائدة وسمّيتُه: «**فتح المجيد بشرح كتاب التوحيد**».

والله أسأل أن ينفع به كلَّ طالب للعلم ومُستفيد، وأن يجعله خالصًا لوجهه الكريم وموصلاً مَنْ سعى فيه إلى جنات النعيم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (بسم الله الرحمن الرحيم).

ش: ابتدأ كتابَهُ بالبسملة؛ اقتداء بالكتاب العزيز، وعملاً بحديث «**كلُّ أمرٍ ذي بال لا يُبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم فهو أقطع**» [١].

أخرجه ابن حبان من طريقين. قال ابن الصلاح: والحديث حسن. ولأبي دواد وابن ماجه «**كلُّ أمر ذي بال لا يُبدأ فيه بالحمد لله -أو بالحمد- فهو أقطع**» [٢] ولأحمد «**كلُّ أمر ذي بال لا يفتتح بذكر الله فهو أبتر -أو أقطع-**» [٣] وللدارقطني عن أبي هريرة مرفوعًا «**كلُّ أمر ذي بال لا يبدأ فيه بذكر الله فهو أقطع**» [٤].

والمصنف قد اقتصر في بعض نسخه على البسملة؛ لأنها من أبلغ الثناء والذكر، وللحديث المتقدم.

وكان النبيُّ ﷺ يقتصر عليها في مراسلاته، كما في كتابه لِهرقْلَ عظيم الروم [٥]،

---

(١) **ضعيف جدًا**: رواه الخطيب (٢/ ٦٩) في الجامع لأخلاق الراوي، وعزاه الألباني إلى عبد القادر الرهاوي في الأربعين عن أبي هريرة رضي الله عنه وضعَّفه كما في الإرواء (١)، وضعيف الجامع (٤٢١٧).

(٢) **ضعيف**: ابن ماجه (١٨٩٤) في النكاح عن أبي هريرة رضي الله عنه وأبو داود (٤٨٤٠) في الأدب وضعفه الألباني هناك ط الرياض، وفي الإرواء (٢).

(٣) **ضعيف**: أحمد (٢/ ٣٥٩) في المسند عن أبي هريرة رضي الله عنه، وانظر التخريج التالي.

(٤) **ضعيف**: الدارقطني (١/ ٢٢٩) في سننه والأسانيد السابقة كلها اجتمع فيها علة ألا وهي وجود (قرة بن عبد الرحمن) وهو ضعيف.

وقال الدارقطني: ورواه صدقة عن محمد بن سعيد عن الزهري عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه مرفوعًا، وصدقة، ومحمد بن سعيد ضعيفان، والمرسل هو الصواب. اهـ.

(٥) الحديث طويل رواه البخاري (٧) في بدء الوحي، ومسلم (١٧٧٢/ ٧٤، ٧٤ مكرر) في الجهاد والسير عن ابن عباس رضي الله عنهما.

ووقع لي نسخة بخطه رحمه الله تعالى بدأ فيها بالبسملة، وثنَّى بالحمد والصلاة على النبى ﷺ وآله.

وعلى هذا فالابتداء بالبسملة حقيقي، وبالحمدلة نسبيٌّ إضافي، أى بالنسبة إلى ما بعد الحمد يكون مبدوءًا به.

والباء فى (بسم الله) متعلقة بمحذوف، واختار كثير من المتأخرين كونه فعلاً خاصًا متأخرًا.

أما كونه فعلاً، فلأن الأصل فى العمل للأفعال.

وأما كونه خاصًا، فلأن كل مبتدئ بالبسملة فى أمر يُضمرُ ما جعل البسملة مَبدأ له، وأما كونه متأخرًا، فلدلالته على الاختصاص، وأدخل فى التعظيم، وأوفق للوجود، ولأن أهم ما يُبدأ به ذِكْر الله تعالى.

وذكر العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى لحذف العامل فوائد:

منها: أنه موطن لا ينبغي أن يتقدم فيه غير ذكر الله.

ومنها: أن الفعل إذا حُذف صح الابتداء بالبسملة في كل عمل وقول وحركة؛ فكان الحذف أعم. انتهى ملخصًا.

وباء (بسم الله) للمصاحبة. وقيل: للاستعانة. فيكون التقدير: بسم الله أؤلف حال كوني مستعينًا بذكره، متبركًا به.

وأما ظهوره فى ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق:١] وفي ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرِىٰهَا﴾ [هود:٤١] فلأن المقام يقتضى ذلك كما لا يخفى.

والاسم: مشتق من السمو، وهو العلو. وقيل: من الوَسْم وهو العلامة؛ لأن كل ما سُمي فقد نُوِّه باسمه ووُسِم.

قوله: (الله) قال الكِسائي والفراء: أصله الإله، حذفوا الهمزة، وأدغموا اللام فى اللام، فصارتا لامًا واحدة مشددة مفخمة.

قال ابن القيم رحمه الله: الصحيح: أنه مشتق، وأن أصله الإله، كما هو قول

سيبويه وجمهور أصحابه إلا من شذ . وهو الجامع لمعاني الأسماء الحسنى والصفات العلى .

والذين قالوا بالاشتقاق إنما أرادوا أنه دالٌّ على صفة له تعالى ، وهى الإلهية كسائر أسمائه الحسنى ، كالعليم والقدير ، والسميع ، والبصير ، ونحو ذلك . فإن هذه الأسماء مشتقة من مصادرها بلا ريبٍ ، وهى قديمة ، ونحن لا نعني بالاشتقاق إلا أنها ملاقية لمصادرها فى اللفظ والمعنى ، لا أنها متولدة منه تولُّد الفرع من أصله .

وتسمية النحاة للمصدر والمشتق منه : أصلاً وفرعًا ، ليس معناه أن أحدهما متولِّد من الآخر ، وإنما هو باعتبار أن أحدهما يتضمن الآخر وزيادة [(١)] .

قال أبو جعفر بن جرير : الله أصله الإله ، أُسقطت الهمزة التى هى فاء الاسم . فالتقت اللام التى هى عين الاسم واللام الزائدة وهى ساكنة فأدغمت فى الأخرى ، فصارتا فى اللفظ لامًا واحدة مشددة . انتهى .

وقال : وأما تأويل الله فإنه على معنى ما رُوي لنا عن عبد الله بن عباس قال : هو الذى يألهه كل شيء ويعبده كل خَلْق .

وساق بسنده عن الضحاك عن عبد الله بن عباس قال : الله ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين [(٢)] .

فإن قال لنا قائل : وما دل على أن الألوهية هى العبادة وأن الإله هو المعبود ، وأن له أصلاً فى فعِل ويفعَل؟

قيل : لا تمانع بين العرب في الحكم وذكر بيت رؤية بن العجاج

---

(١) انظر بدائع الفوائد ص (١٩)، والصواعق المرسلة ص (٧٤٩) لابن قيم الجوزية وقد جزم ابن كثير (١/ ٥٢، ٥٣) بعدم اشتقاق (لفظ الجلالة) وهو قول الشافعي، والخطابي وإمام الحرمين، والغزالي، وغيرهم.

(٢) **هذا إسناد منقطع** : الضحاك لم يدرك ابن عباس رضي الله عنه، كما أن الطبري نقله بسنده عن بشر بن عمارة عن أبي رَوْق عن الضحاك، وبشر، وأبو روق ضعيفان (الطبري في تفسيره (١/ ٥٤).

لــلــه دَرُّ الـغـانِـيــات الـمُـدَّهِ سَبَّحْنَ واسْتَرْجَعْنَ مِنَ تَألُّهي

يعنى : من تعبدي وطلبي الله بعملي .

ولا شك أن التأله التفعل ، من ألِه يألَه . وقد جاء منه مصدر ، ويدل على أن العرب قد نطقت منه بفعِل يفعَل بغير زيادة .

وذلك ما حدثنا به سفيان بن وكيع - وساق السند إلى ابن عباس «**أنه قرأ** ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ [الأعراف :١٢٧] قال : عبادتك . ويقول : إنه كان يُعبد ولا يَعبد» (١) .

وساق بسند آخر عن ابن عباس «**ويذرك وإلاهتك**» . قال : إنما كان فرعون يُعبد ولا يَعبد (٢) . وذكر مثله عن مجاهد (٣) .

ثم قال : فقد بيَّن قولُ ابن عباس ومجاهد هذا : أن ألِه عبد وأن الإلاهة مصدره وساق حديثًا عن أبي سعيد مرفوعًا : «**أن عيسى أسلمته أمه إلى الكتّاب ليعلّمه . فقال له المعلم : اكتب بسم الله . فقال عيسى : أتدري ما الله؟ الله إله الآلهة**» (٤) .

قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى : لهذا الاسم الشريف عشر خصائص لفظية وساقها . ثم قال : وأما خصائصه المعنوية فقد قال : أعلم الخلق به ﷺ : «**لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك**» (٥) وكيف نحصي خصائص اسم لمسماه كل كمال على الإطلاق ، وكل مدح وحمد ، وكل ثناء وكل مجد ، وكل إجلال وكل كمال ، وكل عزٍّ وكل جمال ، وكل خير وإحسان ، وجود وفضل وبر فله ومنه .

فما ذُكر هذا الاسم في قليل إلا كثّره ، ولا عند خوف إلا أزاله ، ولا عند كرب إلا

---

(١) ضعيف الإسناد : الطبري (١/ ٥٤) في تفسيره عن سفيان بن وكيع وهو ضعيف .

(٢) ضعيف : الطبري (١/ ٥٤) في تفسيره وفيه العلة السابقة .

(٣) ضعيف : الطبري (١/ ٥٤) في تفسيره وفيه انقطاع بين ابن جريج ومجاهد، وابن جريج لم يسمع من مجاهد إلا حرفين أو ثلاثة من التفسير ، وفيه الحسين بن داود وهو ضعيف .

(٤) موضوع : فيه إسحاق بن بشر الكاهلي وهو كذاب ، وفيه جويبر وهو تالف الإسناد وفيه انقطاع بين الضحاك وابن عباس كما عند ابن كثير (٢/ ٢١٣) في البداية والنهاية ورواه الطبري مرفوعًا (١/ ٥٤) في تفسيره، وانظر تنزيه الشريعة (١/ ٢٣١) لابن عراق .

(٥) قطعة من حديث رواه مسلم (٤٨٦/ ٢٢٢) في الصلاة عن عائشة رضي الله عنها .

كشفه، ولا عند همٍّ وغمٍّ إلا فرَّجه، ولا عند ضيق إلا وسَّعه، ولا تعلق به ضعيف إلا أفاده القوة، ولا ذليل إلا أناله العز، ولا فقير إلا أصاره غنيًّا، ولا مستوحش إلا آنسه، ولا مغلوب إلا أيده ونصره، ولا مضطر إلا كشف ضُرَّه، ولا شريد إلا آواه.

فهو الاسم الذى تُكشف به الكربات، وتُستنزل به البركات، وتجاب به الدعوات، وتقال به العثرات، وتُستدفع به السيئات، وتُستجلب به الحسنات.

وهو الاسم الذى قامت به السموات والأرض، وبه أُنزلت الكتب، وبه أُرسلت الرسل، وبه شرعت الشرائع. وبه قامت الحدود، وبه شُرع الجهاد، وبه انقسمت الخليقة إلى السعداء والأشقياء، وبه حقَّت الحاقة. ووقعت الواقعة. وبه وُضعت الموازين القسط ونُصب الصراط، وقام سوق الجنة والنار. وبه عُبد رب العالمين وحُمد، وبحقِّه بُعثت الرسل، وعنه السؤال في القبر ويوم البعث والنشور وبه الخصام وإليه المحاكمة، وفيه الموالاة والمعاداة، وبه سَعِد من عرفه وقام بحقه، وبه شقي من جهله وترك حقه، فهو سرُّ الخلق والأمر، وبه قاما وثبتا، وإليه انتهيا.

فالخلق به وإليه ولأجله. فما وجد خلقٌ ولا أمر، ولا ثواب ولا عقاب إلا مبتديًا منه ومنتهيًا إليه، وذلك موجبه ومقتضاه ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١] إلى آخر كلامه رحمه الله تعالى.

قوله: (الرحمن الرحيم) قال ابن جرير: حدثني السَّري بن يحيى حدثنا عثمان بن زُفَر سمعت العرزمي يقول: الرحمن بجميع الخلق، والرحيم بالمؤمنين [(١)].

وساق بسنده عن أبي سعيد - يعني الخدري - قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن عيسى ابن مريم قال: الرحمن: رحمن الآخرة والدنيا. والرحيم: رحيم الآخرة**» [(٢)].

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: واسمه: الله تعالى دالٌّ على كونه مألوهًا معبودًا، يألهه الخلائق: محبة وتعظيمًا وخضوعًا، ومفزعًا إليه فى الحوائج والنوائب.

---

(١) **ضعيف الإسناد**: العرزمي هذا ضعيف، وهو عند الطبري (١/ ٥٥) والقرطبي (١/ ١٠٥) في تفسيره - ط دار الشعب بالسند والمتن سواء.

(٢) **موضوع**: وانظر ما قبل تخريجين من الآن.

وذلك مستلزم لكمال ربوبيته ورحمته، المتضمنتين لكمال المُلك والحمد، وإلهيته وربوبيته ورحمانيته، وملكه مستلزم لجميع صفات كماله؛ إذ يستحيل ثبوت ذلك لمن ليس بحي، ولا سميع، ولا بصير، ولا قادر، ولا متكلم، ولا فعال لما يريد، ولا حكيم فى أقواله وأفعاله.

فصفات الجلال والجمال أخص باسم «الله»، وصفات الفعل والقدرة والتفرد بالضر والنفع والعطاء والمنع ونفوذ المشيئة وكمال القوة وتدبير أمر الخليقة: أخص باسم «الرب».

وصفات الإحسان والجود والبر والحنان والمنة والرأفة والعطف أخص باسم «الرحمن».

وقال رحمه الله أيضًا:

الرحمن: دالٌّ على الصفة القائمة به سبحانه والرحيم: دال على تعلقها بالمرحوم. وإذا أردت فهم هذا فتأمل قوله تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب :٤٣] ﴿إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة :١١٧] ولم يجئ قط رحمان بهم.

وقال: إن أسماء الرب تعالى هي أسماء ونعوت، فإنها دالة على صفات كماله، فلا تنافي فيها بين العلمية والوصفية، فالرحمن اسمه تعالى ووصفه.

فمن حيث هو صفة جرى تابعًا لاسم الله، ومن حيث هو اسم ورد في القرآن غير تابع، بل ورد الاسم العَلَم، كقوله تعالى ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه :٥] انتهى ملخصًا.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (الحمد لله).

ش: ومعناه الثناء بالكلام على الجميل الاختياري على وجه التعظيم.

فمورده: اللسان والقلب، والشكر: يكون باللسان والجَنان والأركان.

فهو أعم من الحمد متعلَّقًا، وأخص منه سببًا؛ لأنه يكون في مقابلة النعمة.

والحمد: أعم سببًا وأخص متعلَّقًا؛ لأنه يكون فى مقابلة النعمة وغيرها.

فبينهما عموم وخصوص وجهى : يجتمعان فى مادة ، وينفرد كل واحد عن الآخر فى مادة .

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وصلى الله على محمد وعلى آله وسلَّم) .

ش: أصحُ ما قيل فى معنى صلاة الله على عبده : ما ذكره البخاريُّ رحمه الله تعالى عن أبى العالية قال : «**صلاة الله على عبده : ثناؤه عليه عند الملائكة**» (١) .

وقرره ابن القيم رحمه الله تعالى ونصره فى كتابيه «**جلاء الأفهام**» و«**بدائع الفوائد**» .

قلت : وقد يُراد بها الدعاء ، كما فى (المسند) عن عليٍّ مرفوعًا «**الملائكة تصلي على أحدكم ما دام فى مصلاه : اللهم اغفر له ، اللهم ارحمه**» (٢) .

قوله : (وعلى آله) أى أتباعه على دينه ، نص عليه الإمام أحمد هنا .

وعليه أكثر الأصحاب ، وعلى هذا : فيشمل الصحابة وغيرهم من المؤمنين .

قال المصنف رحمه الله تعالى: (كتاب التوحيد) .

ش: كتاب : مصدر كتب يكتب كتابًا وكتابة وكَتْبًا ، ومدار المادة على الجمع . ومنه : تكتّب بنو فلان ، إذا اجتمعوا . والكتيبة : لجماعة الخيل ، والكتابة بالقلم لاجتماع الكلمات والحروف . وسُمى الكتاب كتابًا ؛ لجمعه ما وُضع له .

والتوحيد نوعان : توحيد فى المعرفة والإثبات . وهو توحيد الربوبية والأسماء والصفات ، وتوحيد فى الطلب والقصد ، وهو توحيد الإلهية والعبادة .

قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى : وأما التوحيد الذى دعت إليه الرسلُ ، ونزلت به الكتب فهو نوعان : توحيد فى المعرفة والإثبات ، وتوحيد فى الطلب والقصد :

فالأول هو : إثبات حقيقة ذات الرب تعالى وصفاته وأفعاله وأسمائه وتكلُّمه بكتبه

---

(١) علقه البخاري - باب (٣٣) في كتاب التفسير - ووصله الحافظ (٨/ ٥٣٣) في الفتح وعزاه لابن أبي حاتم في تفسيره وإسناده : حسن .

(٢) حديث المسند حسن (١/ ١٤٤) وقد حسنه العلامة شاكر هناك ، وإنما قبلت تحسينه لوجود شاهد له في البخاري (٦٥٩) ومسلم (٦٤٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

وتكليمه لمن شاء من عباده، وإثبات عموم قضائه وقدره وحكمته، وقد أفصح القرآن عن هذا النوع جِدَّ الإفصاح، كما فى أول سورة «الحديد»، وسورة «طه»، وآخر «الحشر»، وأول تنزيل السجدة، وأول «آل عمران»، وسورة «الإخلاص» بكمالها، وغير ذلك .

النوع الثانى: ما تضمنته سورة «قل يا أيها الكافرون» وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤] .

وأوَّلُ سورة «تنزيل الكتاب»، وآخرها. وأول سورة «المؤمن»[(١)] ووسطها وآخرها.

وأول سورة «الأعراف» وآخرها. وجملة سورة «الأنعام»، وغالب سور القرآن بل كل سورة في القرآن فهي متضمنة لنوعي التوحيد، شاهدة به داعية إليه :

فإن القران: إما خبر عن الله تعالى وأسمائه وصفاته وأفعاله وأقواله، فهو التوحيد العلميّ الخبريّ، وإما دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له، وخلع ما يُعبد من دونه، فهو التوحيد الإراديُّ الطلبي .

وإما أمر ونهي، وإلزام بطاعته وأمره ونهيه، فهو حقوق التوحيد ومكمِّلاته .

وإما خبر عن إكرام أهل التوحيد وما فعل بهم فى الدنيا وما يكرمهم به فى الآخرة، فهو جزاء توحيده .

وإما خبر عن أهل الشرك وما فعل بهم فى الدنيا من النكال وما يَحُلّ بهم في العقبى من العذاب، فهو جزاء مَنْ خرج عن حكم التوحيد، فالقرآن كله فى التوحيد، وحقوقه وجزائه، وفى شأن الشرك وأهله وجزائهم. انتهى .

قال شيخ الإسلام: التوحيدُ الذى جاءت به الرسلُ إنما يتضمن إثبات الإلهيةِ لله وحده بأن يشهد أن لا إله إلا هو، لا يعبد إلا إياه، ولا يتوكل إلا عليه، ولا يوالي إلا

---

(١) يقصد سورة غافر .

له، ولا يعادي إلا فيه، ولا يعمل إلا لأجله.

وذلك يتضمن إثبات ما أثبته لنفسه من الأسماء والصفات. قال تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة:١٦٣]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ [النحل:٥١]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [المؤمنون:١١٧]، وقال تعالى: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف:٤٥].

وأخبر عن كل نبي من الأنبياء أنهم دعوا الناس إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وقال: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ [الممتحنة:٤]، وقال عن المشركين: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ۝ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ [الصافات:٣٥-٣٦] وهذا في القرآن كثير.

وليس المرادُ بالتوحيد: مجرد توحيد الربوبية، وهو اعتقاد أن الله وحده خلق العالم، كما يظن ذلك من يظنه من أهل الكلام والتصوف، ويظن هؤلاء أنهم إذا أثبتوا ذلك بالدليل فقد أثبتوا غاية التوحيد، وأنهم إذا شهدوا هذا وفنوا فيه فقد فنوا في غاية التوحيد.

فإن الرجل لو أقر بما يستحقه الرب تعالى من الصفات، ونزهه عن كل ما ينزه عنه، وأقر بأنه وحده خالق كل شيء، لم يكن موحدًا حتى يشهد أن لا إله إلا الله، فيقر بأن الله وحده هو الإله المستحق للعبادة. ويلتزم بعبادة الله وحده لا شريك له. والإله هو المألوه المعبود الذي يستحق العبادة. وليس هو الإله بمعنى القادر على الاختراع. فإذا فسر المفسر الإله بمعنى القادر على الاختراع واعتقد أن هذا المعنى هو أخص وصف الإله، وجعل إثبات هذا هو الغاية في التوحيد - كما يفعل ذلك من يفعله من متكلمة الصفاتية. وهو الذي يقولونه عن أبي الحسن [1] وأتباعه - لم يعرف حقيقة

(١) يقصد رأس المذهب الأشعري أبا الحسن الأشعري (ت ٣٢٤هـ) وكان من أهل الاعتزال حتى تاب الله عليه، ومضى على أصول أهل السُّنة حتى جاء الجويني، والغزالي، والرازي والآمدي=

التوحيد الذى بعث الله به رسوله ﷺ؛ فإن مشركي العرب كانوا مقرين بأن الله وحده خالق كل شيء. وكانوا مع هذا مشركين. قال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦].

قالت طائفة من السلف: تسألهم: من خلق السموات والأرض؟ فيقولون: الله وهم مع هذا يعبدون غيره.

قال تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۞ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۞ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ۞ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۞ قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۞ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٤-٨٨] فليس كل من أقر بأن الله تعالى رب كل شيء وخالقه يكون عابدًا له، دون ما سواه. داعيًا له دون ما سواه راجيًا له خائفًا منه دون ما سواه. يوالي فيه ويعادي فيه. ويطيع رُسله ويأمر بما أمر به، وينهى عما نهى عنه.

وعامة المشركين أقروا بأن الله خالق كل شيء، وأثبتوا الشفعاء الذين يشركونهم به وجعلوا له أندادًا. قال تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ۞ قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٤٣-٤٤] وقال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٤] وقال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

ولهذا كان من أتباع هؤلاء من يسجد للشمس والقمر والكواكب ويدعوها.

=وذهبوا إلى جهة الاعتزال حسين أسرفوا في استخدام العقل قبل النقل حتى تشابه كثيرٌ من أقوالهم مع أقوال المعتزلة كمن انتقل من زاوية من الضلال إلى زاوية أخرى من الضلال. فاحذر يرحمك الله!

ويصوم وينسك لها ويتقرب إليها، ثم يقول: إن هذا ليس بشرك! إنما الشرك إذا اعتقدتُ أنها المدبرة لي! فإذا جعلتُها سببًا وواسطة لم أكن مشركًا!!

ومن المعلوم بالاضطرار من دين الإسلام أن هذا شرك. انتهى كلامه رحمه الله تعالى.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (**وقولِ الله تعالى:** ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]).

ش: [وقولِ] بالجر عطف على التوحيد، ويجوز الرفع على الابتداء.

قال شيخ الإسلام: العبادة هي طاعة الله بامتثال ما أمر الله به على ألسنة الرسل.

وقال أيضًا: العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة.

قال ابن القيم: ومدارها على خمس عشرة قاعدة، من كملها كمَّل مراتب العبودية.

وبيان ذلك: أن العبادة منقسمة على القلب واللسان والجوارح. والأحكام التي للعبودية خمسة: واجب ومستحب وحرام ومكروه ومباح، وهن لكل واحد من القلب واللسان والجوارح.

قال القرطبي: أصل العبادة: التذلل، والخضوع.

وسُميت وظائف الشرع على المكلفين عبادات؛ لأنهم يلتزمونها ويفعلونها خاضعين متذللين لله تعالى. ومعنى الآية: أن الله تعالى أخبر أنه ما خلق الجن والإنس إلا لعبادته، فهذا هو الحكمة في خلقهم.

قلت: وهي الحكمة الشرعية الدينية.

قال العماد ابن كثير: وعبادته: هي طاعته بفعل المأمور وترك المحظور. وذلك هو حقيقة دين الاسلام؛ لأن معنى الإسلام: الاستسلام لله تعالى، المتضمن غاية الانقياد والذل والخضوع. انتهى.

وقال أيضًا فى تفسير هذه الاية : ومعنى الآية : أن الله تعالى خلق الخلق ليعبدوه وحده لا شريك له . فمن أطاعه جازاه أتم الجزاء، ومن عصاه عذّبه أشد العذاب . وأخبر أنه غير محتاج إليهم بل هم الفقراء إليه فى جميع أحوالهم وهو خالقهم ورازقهم (١) .

وقال علي بن أبى طالب رضى الله عنه فى الآية : إلا لآمرهم أن يعبدونى وأدعوهم إلى عبادتى (٢) . وقال مجاهد : إلا لآمرهم وأنهاهم (٣) . اختاره الزجاج وشيخ الإسلام .

قال : ويدل على هذا قوله : ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾[القيامة :٣٦] قال الشافعى : لا يؤمر ولا ينهى؟! (٤) .

وقال فى القرآن فى غير موضع : ﴿ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ﴾[البقرة :٢١] ﴿ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ﴾[النساء :١] فقد أمرهم بما خلقوا له . وأرسل الرسل بذلك . وهذا المعنى هو الذى قُصد بالآية قطعًا، وهو الذى يفهمه جماهير المسلمين ويحتجون بالآية عليه .

قال : وهذه الآية تشبه قوله تعالى : ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [النساء :٦٤] ثم قد يطاع وقد يعصى، وكذلك ما خلقهم إلا لعبادته، ثم قد يعبدون وقد لا يعبدون .

وهو سبحانه لم يقل : إنه فعل الأول وهو خلْقهم ليفعل بهم كلّهم الثانى وهو عبادته ولكن ذكر أنه فعل الأول ليفعلوا هم الثانى؛ فيكونوا هم الفاعلين له؛ فيحصل لهم بفعله سعادتهم ويحصل ما يحبه ويرضاه منه ولهم . انتهى .

ويشهد لهذا المعنى : ما تواترت به الأحاديث :

---

(١) تفسير ابن كثير (٧/ ٣٢٧).

(٢) رواه القرطبي (١٧/ ٥٧) في تفسيره.

(٣) وهو ما أثبته شيخ الإسلام ابن تيمية في «درء تعارض العقل والنقل» الجزء الرابع ص (٤٧٨) ط الرياض.

(٤) ذكره الشافعي في «الأم» (٧/ ٢٩٨) ط دار المعرفة. وابن حزم الظاهري في «الإحكام» (١/ ٥٧) ط دار الحديث.

فمنها: ما أخرجه مسلم فى (صحيحه) عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**يقول الله تعالى لأهون أهل النار عذابًا: لو كانت لك الدنيا وما فيها ومثلها معها أكنت مفتديًا بها؟ فيقول: نعم. فيقول: قد أردت منك ما أهون من هذا وأنت فى صلب آدم: أن لا تشرك بي - أحسبه قال: ولا أدخلك النار - فأبيت إلا الشرك**»[(١)].

فهذا المشرك قد خالف ما أراده الله تعالى منه: من توحيده وأن لا يشرك به شيئًا، فخالف ما أراده الله منه فأشرك به غيره. وهذه هى الإرادة الشرعية الدينية كما تقدم.

فبين الإرادة الشرعية الدينية، والإرادة الكونية القدرية عموم وخصوص مطلق يجتمعان فى حق المخلص المطيع، وتنفرد الإرادة الكونية القدرية فى حق العاصى. فافهم ذلك تنجُ من جهالات أرباب[(٢)] الكلام وتابعيهم.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]).

ش: الطاغوت: مشتق من الطغيان، وهو مجاوزة الحد. قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: الطاغوت: الشيطان[(٣)].

وقال جابر رضى الله عنه: الطواغيت: كهان كانت تنزل عليهم الشياطين[(٤)]. رواهما ابن أبى حاتم.

---

(١) رواه البخاري (٦٥٥٧) في الرقاق، (٢٨٠٥/ ٥١) في صفة القيامة.

(٢) يقصد أهل علم الكلام وهم (المتكلمون) عليهم من الله ما يستحقون، أفنوا أعمارهم فيما لا يفيد، وما منهم إلا وقد ندم على ما ضيّع وهو على فراش الموت كالرازي الذي جزم بذلك فقال:

وأكثر سعي العالمين ضلال

والجويني الذي قال: (ليتني ميت على عقيدة أمي) ثم إنهم أورثوا الأمة ضلالاً كبيرًا فاحذر منهم يرحمك الله.

(٣) قوي الإسناد: علقه البخاري - باب (٤) في التفسير - ووصله الحافظ في الفتح وقوى إسناده وعزاه لابن رصتة في الإيمان (٨/ ٢٥١).

(٤) صحيح الإسناد: علقه البخاري في التفسير، ووصله الحافظ (٨/ ٢٥٢) في الفتح من طريق وهب بن منبه عن جابر.

وقال مالك : الطاغوت : كل ما عُبد من دون الله [١] .

قال العمادُ ابن كثير : الطاغوت : الشيطان ، وما زيَّنه من عبادة غير الله [٢] .

قلت : وذلك المذكور بعض أفراده ، وقد حده العلاّمة ابن القيم رحمه الله تعالى حدًّا جامعًا فقال : الطاغوت كل ما تجاوز به العبد حده : من معبود أو متبوع أو مطاع . فطاغوت كل قوم : من يتحاكمون إليه غير الله ورسوله ، أو يعبدونه من دون الله أو يتبعونه على غير بصيرة من الله أو يطيعونه فيما لا يعلمون أنه طاعة لله .

فهذه طواغيت العالم . إذا تأملتها وتأملت أحوال الناس معها رأيت أكثرهم أعرض عن عبادة الله تعالى إلى عبادة الطاغوت وعن طاعة الله ورسوله ﷺ إلى طاعة الطاغوت ومتابعته .

وأما معنى الآية : فأخبر تعالى أنه بعث فى كل طائفة من الناس رسولاً بهذه الكلمة ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل :٣٦] أي اعبدوا الله وحده واتركوا عبادة ما سواه ، كما قال تعالى : ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا﴾ [البقرة :٢٥٦] وهذا معنى : لا إله إلا الله فإنها هي العروة الوثقى .

قال العماد ابن كثير فى هذه الآية : وكلهم - أى الرسل - يدعو إلى عبادة الله ، وينهى عن عبادة ما سواه ، فلم يزل سبحانه وتعالى يرسل إلى الناس الرسل بذلك منذ حدث الشرك فى قوم نوح الذين أرسل إليهم ، وكان أول رسول بعثه الله تعالى إلى أهل الأرض إلى أن ختمهم بمحمد ﷺ ، الذى طبقت دعوته الإنس والجن فى المشارق والمغارب ، وكلهم كما قال الله تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء :٢٥] وقال تعالى فى هذه الآية الكريمة : ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل :٣٦] ، فكيف يسوغ لأحد من المشركين بعد هذا أن يقول : «لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء»؟!!

---

(١) صحيح الإسناد : ابن أبي حاتم (٥٤٥٦) في تفسيره .
(٢) تفسير ابن كثير (١/ ٤٠٩) .

فمشيئة الله تعالى الشرعية عنهم منفية ؛ لأنه نهاهم عن ذلك على ألسن رسله ، وأما مشيئته الكونية - وهي تمكينهم من ذلك قدرًا - فلا حجة لهم فيها ؛ لأنه تعالى خلق النار وأهلها من الشياطين والكفرة ، وهو لا يرضى لعباده الكفر .

وله في ذلك حجة بالغة وحكمة قاطعة ، ثم إنه تعالى قد أخبر أنه أنكر عليهم بالعقوبة في الدنيا بعد إنذار الرسل ، فلهذا قال : ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَـٰلَةُ﴾ [النحل :٣٦] انتهى .

قلت : وهذه الآية تفسر الآية التي قبلها . وذلك قوله تعالى : ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَـٰلَةُ﴾ [النحل :٣٦] فتدبر !

ودلت هذه الآية على أن الحكمة في ارسال الرسل : دعوتهم أممهم إلى عبادة الله وحده ، والنهي عن عبادة ما سواه ، وأن هذا هو دين الأنبياء والمرسلين ، وإن اختلفت شريعتهم كما قال تعالى : ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة :٤٨] وأنه لا بد في الإيمان من عمل القلب والجوارح .

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وقوله تعالى : ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ [الإسراء :٢٣-٢٤]) .

ش: قال مجاهد : قضى : يعني : وصى [١] ، وكذا قرأ أُبيّ بن كعب [٢] وابن مسعود [٣] وغيرهم .

ولابن جرير عن ابن عباس : ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ يعني : أمر [٤] .

(١) منقطع الإسناد : بين ابن جريج ومجاهد، وفيه الحسين بن داود وهو ضعيف تفسير الطبري (١٥/ ٦٢).

(٢) ضعيف : فيه يحيى بن عيسى وهو ضعيف، الطبري (١٥/ ٦٢) في تفسيره.

(٣) منقطع بين قتادة وابن مسعود رضي الله عنه كما في الطبري (١٥/ ٦٢).

(٤) منقطع : علي بن أبي طلحة وهو الوالبي لم يسمع من ابن عباس رضي الله عنهما، وفي الإسناد عبد الله بن صالح «أبو صالح» المصري كاتب الليث وهو : ضعيف انظر تفسير الطبري (١٥/ ٦٢).

وقوله تعالى: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣] المعنى، أن تعبدوه وحده دون ما سواه، وهذا معنى لا إله إلا الله.

قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى: والنفي المحض ليس توحيدًا، وكذلك لإثبات بدون النفي، فلا يكون التوحيد إلا متضمنًا للنفي والإثبات، وهذا هو حقيقة التوحيد.

وقوله: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء: ٢٣] أي وقضى أن تحسنوا بالوالدين إحسانًا، كما قضى بعبادته وحده لا شريك له. كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤]، وقوله: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ [الإسراء: ٢٣] أي: لا تُسمعهما قولاً سيئًا، حتى ولا التأفيف الذي هو أدنى مراتب القول السيئ.

﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ [الإسراء: ٢٣] أي: لا يصدر منك إليهما فعلٌ قبيح، كما قال عطاء بن أبي رباح: لا تنفض يديك على والديك [(١)].

ولما نهاه عن الفعل القبيح والقول القبيح أمره بالفعل الحسن والقول الحسن فقال: ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [الإسراء: ٢٣] أي لينًا طيبًا بأدب وتوقير. وقوله: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الإسراء: ٢٤] أي: تواضعْ لهما.

﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا﴾ [الإسراء: ٢٤] أي: في كبرهما وعند وفاتهما ﴿كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٤].

وقد ورد في بر الوالدين أحاديث كثيرة.

منها: الحديث المروي من طرق عن أنس وغيره أن رسول الله ﷺ لما صعد المنبر قال: «آمين، آمين، آمين» فقالوا: يا رسول الله، على ما أمنت؟ قال: «**أتاني جبريل فقال: يا محمد رغم أنف امرئ ذكرتَ عنده فلم يصل عليك قل: آمين، فقلت: آمين ثم قال: رغم أنف امرئ دخل عليه شهر رمضان ثم خرج ولم يغفر له، قل: آمين**

---

(١) **الأثر ضعيف**: وفيه واصل الرقاشي عن عطاء وهو -أي الرقاشي- ضعيف. الطبري (١٥/ ٦٥) في تفسيره.

فقلت : آمين ، **ثم قال : رغم أنف امرئ أدرك أبويه أو أحدهما فلم يدخلاه الجنة قل** : آمين ، **فقلت** : آمين»[١] .

وروى الامام أحمد من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ «**رغم أنف ، ثم رغم أنف ، ثم رغم أنف رجل أدرك والديه ، أو أحدهما ولم يدخل الجنة**»[٢] قال العماد ابن كثير : صحيح من هذا الوجه .

وعن أبى بكرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «**ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟» قلنا** : بلى يا رسول الله ، قال : «**الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين**» وكان متكئًا فجلس ، فقال : «**ألا وقول الزور ، ألا وشهادة الزور**» فما زال يكررها حتى قلنا : ليته سكت[٣] . رواه البخارى ومسلم .

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : «**رضا الرب فى رضا الوالدين ، وسخطه فى سخط الوالدين**»[٤] رواه الترمذي ، وصححه ابن حبان والحاكم .

وعن أبي أُسَيْد الساعدى رضى الله عنه قال : بينا نحن جلوس عند النبى ﷺ إذ جاء رجل من بني سلمة فقال : يا رسول الله ، هل بقي من بر أبوي شيء أبرهما به بعد موتهما؟ فقال : «**نعم ، الصلاة عليهما والاستغفار لهما ، وإنفاذ عهدهما من بعدهما ، وصلة الرحم التى لا توصل إلا بهما ، وإكرام صديقهما**»[٥] . رواه أبو داود وابن ماجه .

والأحاديث فى هذا المعنى كثيرة جدًّا .

---

(١) **صحيح بطرقه وشواهده**: البزار (٣١٦٨) كشف بسنده ومتنه، ورواية الترمذي عن أبي هريرة ليس فيها (آمين) وصححها الألباني (٣٥٤٥) في الدعوات - من سنن الترمذي ط- الرياض.

(٢) رواه مسلم (٢٥٥١/ ٩-١٠) في البر والصلة والآداب.

(٣) رواه البخاري (٢٦٥٤) في الشهادات، ومسلم (٨٧/ ١٤٣) في الإيمان.

(٤) **صحيح الإسناد**: الترمذي (١٨٩٩) في البر والصلة، و(١٨٩٩ مكرر) وصححه الشيخ ناصر الدين هناك وفي الصحيحة (٥١٥).

(٥) **ضعيف الإسناد**: أبو داود (٥١٤٤) في الأدب باب (١٢٩) وضعفه الألباني هناك. وفيه علي بن عبيد الأنصاري مولى بني ساعدة وهو مجهول.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وقوله : ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾[النساء:٣٦]) .

ش: قال العماد ابن كثير رحمه الله تعالى في هذه الآية : يأمر تعالى عباده بعبادته وحده لا شريك له ، فإنه الخالق الرازق ، المنعم المتفضل على خلقه في جميع الحالات ، وهو المستحق منهم أن يوحدوه ولا يشركوا به شيئًا من مخلوقاته . انتهى .

وهذه الآية هي التي تسمى آية الحقوق العشرة ، وفي بعض النسخ المعتمدة من نسخ هذا الكتاب تقديم هذه الآية على آية الأنعام ، ولهذا قدمتُها لمناسبة كلام ابن مسعود الآتي لآية الأنعام ؛ ليكون ذكره بعدها أنسب [(١)] .

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وقوله تعالى : ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١-١٥٣]) .

ش: قال العماد ابن كثير رحمه الله : يقول تعالى لنبيه ورسوله محمد ﷺ : ﴿قُلْ﴾ لهؤلاء المشركين الذين عبدوا غير الله ، وحرموا ما رزقهم الله ﴿تَعَالَوْاْ﴾ أي هلموا وأقبلوا ﴿أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام:١٥١] أي : أقص عليكم ﴿مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام:١٥١] حقًّا ، لا تخرصًا ولا ظنًا ، بل وحيًا منه وأمرًا من عنده ﴿أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [الأنعام:١٥١] وكأن في الكلام محذوفًا دل عليه السياق تقديره : وصاكم ألا تشركوا به شيئًا ، ولهذا قال في آخر الآية : ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾ [الأنعام:١٥١] انتهى [(٢)] .

قلت : فيكون المعنى : حرم عليكم ما وصاكم بتركه من الإشراك به .

وفي (المغني) لابن هشام في قوله تعالى : ﴿أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ سبعة أقوال ،

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٢١٣) .
(٢) السابق (٣/ ٢٦٠) .

أحسنها: هذا الذى ذكره ابن كثير، ويليه: أبين لكم ذلك لئلا تشركوا، فحذفت الجملة من أحدهما، وهى ﴿وَصَّىٰكُم﴾ وحرف الجر وما قبله من الأخرى.

ولهذا إذا سئلوا عما يقول لهم رسول الله ﷺقالوا: يقول: اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا، واتركوا ما يقول آباؤكم. كما قال أبو سفيان لهرقل [١]وهذا هو الذى فهمه أبو سفيان وغيره من قول رسول الله ﷺلهم «**قولوا: لا اله إلا الله تفلحوا**» [٢].

قوله: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الأنعام: ١٥١]قال القرطبى: الإحسان إلى الوالدين: برهما وحفظهما وصيانتهما وامتثال أمرهما، وإزالة الرق عنهما، وترك السلطنة عليهما [٣]، و﴿إِحْسَٰنًا﴾ [الأنعام: ١٥١] نصب على المصدرية، وناصبه فعل من لفظه تقديره: وأحسنوا بالوالدين إحسانًا.

وقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١] الإملاق: الفقر، أى: لا تئدوا بناتكم خشية العَيْلة والفقر، فإنى رازقكم وإياهم، وكان منهم من يفعل ذلك بالإناث وبالذكور خشية الفقر [٤]. ذكره القرطبى.

وفى (الصحيحين) عن ابن مسعود رضى الله عنه: قلت: يا رسول الله، أى الذنب أعظم؟ قال: «**أن تجعل لله ندًا وهو خلقك**». قلت: ثم أيّ؟ قال: «**أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك**». قلت: ثم أيّ؟ قال: «**أن تزاني بحليلة جارك**». ثم تلا رسول الله ﷺ« ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الفرقان: ٦٨]» [٥].

وقوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأنعام: ١٥١]قال ابن عطية: نهي عام عن جميع أنواع الفواحش، وهى المعاصى. و﴿ظَهَرَ﴾ [الأنعام: ١٥١]

---

(١) سبق تخريجه في الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما.
(٢) **صحيح الإسناد**: أحمد (٣/ ٤٩٢) في المسند عن ربيعة بن عباد الديلي والبيهقي (٢/ ١٨٥) في الدلائل عنه أيضًا.
(٣) القرطبي (٧/ ١٣١) في تفسيره.
(٤) القرطبي (٧/ ١٣١) في تفسيره.
(٥) رواه البخاري (٤٤٧٧) في التفسير، ومسلم (٨٦) في الإيمان.

و﴿بَطَنَ﴾ [الأنعام:١٥١] حالتان تستوفيان أقسام ما جعلنا له من الأشياء. انتهى.

وقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الأنعام:١٥١] في الصحيحين: عن ابن مسعود رضى الله عنه مرفوعًا: «**لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزانى، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة**»[1].

قوله: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ﴾ [الأنعام:١٥١] قال ابن عطية: (ذلكم) إشارة إلى هذه المحرمات والوصية: الأمر المؤكد المقرر.

قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام:١٥١] (لعل) للتعليل أى: إن الله تعالى وصانا بهذه الوصايا لنعقلها عنه ونعمل بها.

وفى تفسير الطبري الحنفي: ذكر أولاً (تعقلون) ثم (تذكرون) ثم (تتقون) لأنهم إذا عقلوا تذكروا فإذا تذكروا خافوا واتقوا.

قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ [الأنعام:١٥٢] قال ابن عطية: هذا نهى عام عن القرب الذى يعم وجوه التصرف وفيه سد الذريعة، ثم استثنى ما يحسنُ وهو السعى فى نمائه، قال مجاهد: ﴿بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾: التجارة فيه.

قوله: ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ [الأنعام:١٥٢] قال مالك وغيره: هو الرشد وزوال السفه مع البلوغ، روي نحو هذا عن زيد بن أسلم والشعبى وربيعة وغيرهم.

قوله: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ [الأنعام:١٥٢] قال ابن كثير: يأمر تعالى بإقامة العدل فى الأخذ والإعطاء ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [الأنعام:١٥٢] أي: من اجتهد بأداء الحق وأخذه، فإن أخطأ بعد استفراغ وسعه وبذل جهده فلا حرج عليه.

قوله: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [الأنعام:١٥٢] هذا أمر بالعدل فى القول والفعل على القريب والبعيد.

قال الحنفي: العدل فى القول فى حق الولي والعدو ولا يتغير فى الرضى والغضب

---

(١) رواه البخاري (٦٨٧٨) في الدِّيات، مسلم (١٦٧٦/ ٢٥ - ٢٦) في القسامة والمحاربين.

بل يكون على الحق وإن كان ذا قربى فلا يميل إلى الحبيب والقريب ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨] .

قوله: ﴿وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟﴾ [الأنعام: ١٥٢] قال ابن جرير: وبوصية الله تعالى التي وصاكم بها فأوفوا . انقادوا لذلك بأن تطيعوه فيما أمركم به ونهاكم عنه، وتعلموا بكتابه وسنة رسوله ﷺ وذلك هو الوفاء بعهد الله . وكذا قال غيره .

قوله: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٢] أي: تتعظون وتنتهون عما كنتم فيه .

قوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣] قال القرطبي: هذه آية عظيمة عطفها على ما تقدم . فإنه لما نهى وأمر، حذر عن اتباع غير سبيله على ما بينته الأحاديث الصحيحة وأقاويل السلف . و(أن) في موضع نصب . أي: أتلو أن هذا صراطي، عن الفراء والكسائي . قال الفراء: ويجوز أن يكون خفضًا . أي وصاكم به وبأن هذا صراطي .

قال: والصراط: الطريق الذي هو دين الإسلام . ﴿مُسْتَقِيمًا﴾ نصب على الحال ومعناه مستويًا قويمًا لا اعوجاج فيه .

فأمر باتباع طريقه الذي طرقه على لسان محمد ﷺ وشرعه ونهايته الجنة وتشعبت منه طرق، فمن سلك الجادة نجا، ومن خرج إلى تلك الطرق أفضت به إلى النار . قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣] أي: تميل . انتهى .

وروى أحمد والنسائي والدارمي وابن أبي حاتم والحاكم - وصححه - ورواه محمد بن نصر المروزيّ في كتاب «**الاعتصام**» بسند صحيح عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: خط رسول الله ﷺ خطًّا بيده، ثم قال: «**هذا سبيل الله مستقيمًا**»، ثم خط خطوطًا عن يمين ذلك الخط وعن شماله ثم قال: «**وهذه السبل ليس منها سبيل إلا وعليه شيطان يدعو إليه**»، ثم قرأ: « ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣] الآية» [(١)] .

---

(١) **صحيح الإسناد**: أحمد (١/ ٤٣٥، ٤٦٥) والنسائي (١١١٧٤) في الكبرى والحاكم (٢/ ٢٣٩) وصححه ووافقه الذهبي، وصححه الألباني.

وعن مجاهد: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾[الأنعام:١٥٣] ، قال: البدع والشهوات[1] .

قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى: ولنذكر في الصراط المستقيم قولاً وجيزًا؛ فإن الناس قد تنوعت عباراتهم عنه بحسب صفاته ومتعلَّقاته، وحقيقته شيء واحد، وهو طريق الله الذي نصبه لعباده موصلاً لهم إليه ولا طريق إليه سواه، بل الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا طريقه الذي نصبه على ألسن رسله، وجعله موصلاً لعباده إليه وهو إفراده بالعبودية، وإفراد رسوله بالطاعة، فلا يشرك به أحدًا في عبوديته ولا يشرك برسولهﷺ أحدًا في طاعته. فيجرد التوحيد، ويجرد متابعة الرسولﷺ .

وهذا كله مضمون شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله فأي شيء فسر به الصراط المستقيم فهو داخل في هذين الأصلين.

ونكتة ذلك: أن تحبه بقلبك وترضيه بجهدك كله، فلا يكون في قلبك موضع إلا معمورًا بحبه، ولا يكون لك إرادة إلا متعلقة بمرضاته.

فالأول: يحصل بتحقيق شهادة أن لا إله إلا الله.

والثاني: يحصل بتحقيق شهادة أن محمدًا رسول الله.

وهذا هو الهدى ودين الحق، وهو معرفة الحق والعمل به، وهو معرفة ما بعث الله به رسوله والقيام به، فقل ما شئت من العبارات التى هذا آخيتها وقطب رحاها.

قال: وقال سهل بن عبد الله: عليكم بالأثر والسنة، فإنى أخاف أنه سيأتي عن قليل زمان إذا ذكر إنسان النبىﷺ والاقتداء به فى جميع أحواله، ذموه ونفروا عنه وتبرءوا منه، وأذلوه وأهانوه.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (قال ابن مسعود: من أراد أن ينظر إلى وصية محمدﷺ التى عليها خاتمه فليقرأ قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾[الأنعام:١٥١] **- إلى قوله -** ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾[الأنعام:١٥٣] **الآية).**

ش: قوله: (ابن مسعود) هو عبد الله بن مسعود بن غافل - بمعجمة وفاء - ابن حبيب الهذلى أبو عبد الرحمن، صحابي جليل من السابقين الأولين، ومن أهل بدر

(١) **حسن الإسناد:** الطبري (٨/ ٨٨) في تفسيره.

وأُحُد والخندق وبيعة الرضوان ومن كبار علماء الصحابة، أمّره عمر على الكوفة، ومات سنة اثنتين وثلاثين رضي الله عنه.

وهذا الأثر رواه الترمذي وحسنه، وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبراني بنحوه[١].

وسببُ هذا القول والله أعلم: ما رواه البخاريُّ في (صحيحه) عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: لما اشتدَّ بالنبيﷺ وجعه، قال: «**ائتوني بكتاب أكتُبْ لكم كتبًا لا تختلفوا بعده**» قال عمر: إنَّ النبيﷺ غَلَبُه الوجع! وعندنا كتابُ الله حَسْبُنا. فاختلفوا، وكثُرَ اللَّغط، قال: «**قوموا عنِّي ولا ينبغي عندي التَّنازع**» فخرج ابنُ عباسٍ يقول: إنَّ الرَّزيَّة كلَّ الرزية ما حال بين رسول الله وبين كتابه[٢]. فقال ابن مسعود: من أراد أن ينظر إلى وصية محمدﷺ التي عليها خاتمه... الحديث.

قال بعضهم: معناه: من أراد أن ينظر إلى الوصية التى كأنها كتبت وختم عليها فلم تغير ولم تبدل فليقرأ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا﴾[الأنعام:١٥١] إلى آخر الآيات.

شبهها بالكتاب الذى كتب ثم ختم فلم يزد فيه ولم ينقص. فإن النبىﷺ لم يوص إلا بكتاب الله تعالى.

كما قال فيما رواه مسلم: «وإني تاركٌ فيكم ما إن مسَّكتم به لن تضلُّوا: كتاب الله»[٣].

وقد روى عبادة بن الصامت قال: قال رسول اللهﷺ: «**أيكم يبايعنى على هؤلاء الآيات الثلاث؟**» ثم تلا قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾[الأنعام:١٥١] حتى فرغ من الثلاث الآيات. ثم قال: «**من وفى بهن فأجره على الله، ومن انتقص منهن شيئًا فأدركه الله به فى الدنيا كانت عقوبته، ومن أخره إلى الآخرة كان**

---

(١) ضعيف الإسناد: الترمذي (٣٠٧٠) في التفسير وقال: حسن غريب وفيه داود الأودي وهو ضعيف، وضعفه الألباني هناك ط الرياض ص (٦٨٨).

(٢) رواه البخاري (١١٤) في العلم، مسلم (١٦٣٧/ ٢٢) في الوصية.

(٣) قطعة من حديث حجة النبيﷺ المروي عند مسلم (١٢١٨) في الحج عن جابر رضي الله عنه.

أمره إلى الله إن شاء آخذه وإن شاء عفا عنه» [(١)]. رواه ابن أبي حاتم والحاكم وصححه ومحمد بن نصر فى **«الاعتصام»**.

قلت: ولأن النبي ﷺ لم يوص أمته إلا بما وصاهم به الله تعالى: على لسانه وفى كتابه الذى أنزله ﴿تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل:٨٩] وهذه الآيات وصية الله تعالى ووصية رسوله ﷺ.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وعن معاذ بن جبل قال: كنت رديف النبى ﷺ على حمار فقال لى: «يا معاذ أتدري ما حق الله على العباد، وما حق العباد على الله؟». قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئًا»، قلت: يا رسول الله أفلا أبشر الناس؟ قال: «لا تبشرهم فيتكلوا» [(٢)]**. أخرجاه فى الصحيحين)**.

ش: هذا الحديث فى الصحيحين من طرق. وفى بعض رواياته نحو مما ذكره المصنف.

ومعاذ: هو ابن جبل بن عمرو بن أوس الأنصاري الخزرجي أبو عبد الرحمن صحابي مشهور من أعيان الصحابة، شهد بدرًا وما بعدها. وكان إليه المنتهى فى العلم والأحكام والقرآن رضي الله عنه.

وقال النبى ﷺ: **«معاذ يحشر يوم القيامة أمام العلماء برتوة»** [(٣)] أي: بخطوة، قال فى **«القاموس»**: والرتوة: الخطوة وشرف من الأرض، وسويعة من الزمان، والدعوة، والقطرة، ورمية بسهم أو نحو ميل أو مدى البصر. والراتي: العالم الرباني. انتهى.

---

(١) **ضعيف**: من أجل سفيان بن حسين فهو ضعيف في روايته عن الزهري وانظر المستدرك (٢/ ٣١٨) للحاكم، والسطر الأخير (إن شاء الله آخذه وإن شاء عفا عنه) صحيح.

(٢) رواه البخاري (١٢٨ في الإيمان) مسلم (٣٠) في الإيمان.

(٣) **صحيح لمجموع طرقه وشواهده**: أبو نعيم (١/ ٢٢٨) في «حلية الأولياء» عن شهر بن حوشب عن عمر، لكن للحديث شواهد مرسلة تقويه، وصححه الشيخ ناصر الدين الألباني (١٠٩١) في الصحيحة، وكذلك العدوي حفظه الله ص (٣٤٢) «الصحيح المسند من فضائل الصحابة».

وقال في «النهاية»: إنه يتقدم العلماء برتوة أي: برمية سهم. وقيل: بميل [١] وقيل: مدى البصر. وهذه الثلاثة أشبه بمعنى الحديث.

مات معاذ سنة ثماني عشرة بالشام في طاعون عمواس. استخلفه النبي ﷺ على أهل مكة يوم الفتح يعلمهم دينهم [٢].

قوله: (كنت رديف النبي ﷺ) فيه جواز الإرداف على الدابة، وفضيلة معاذ رضي الله عنه.

قوله: (على حمار) في رواية اسمه عفير [٣].

قلت: أهداه إليه المقوقس صاحب مصر. وفيه: تواضعه ﷺ لركوب الحمار والإرادف عليه، خلافًا لما عليه أهل الكبر.

قوله: «**أتدري ما حق الله على العباد؟**» أخرج السؤال بصيغة الاستفهام؛ ليكون أوقع في النفس وأبلغ في فهم المتعلم.

وحق الله على العباد: هو ما يستحقه عليهم.

وحق العباد على الله معناه: أنه متحقق لا محالة؛ لأنه وعدهم ذلك؛ جزاء لهم على توحيده ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ [الروم: ٦].

قال شيخ الإسلام: كون المطيع يستحق الجزاء هو استحقاق إنعام وفضل، ليس هو استحقاق مقابلة، كما يستحق المخلوق على المخلوق، فمن الناس من يقول: لا معنى للاستحقاق إلا أنه أخبر بذلك ووعْده صدْق، ولكن أكثر الناس يثبتون استحقاقًا زائدًا على هذا، كما دل عليه الكتاب والسنة قال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧] لكن أهل السنة يقولون: هو الذي كتب على نفسه الرحمة وأوجب على نفسه الحق، ولم يوجبه عليه مخلوق.

---

(١) النهاية (٢/ ١٩٥) لابن الأثير.

(٢) صفة الصفوة (١/ ٢٢٥).

(٣) رواه البخاري (٢٨٥٦) في الجهاد.

والمعتزلة يدّعون أنه واجب عليه بالقياس على المخلوق وأن العباد هم الذين أطاعوه بدون أن يجعلهم مطيعين له، وأنهم يستحقون الجزاء بدون أن يكون هو الموجب، وغلطوا في ذلك.

وهذا الباب غلطت فيه الجبرية والقدرية أتباع جهم والقدرية النافية.

قوله (قلت: الله ورسوله أعلم) فيه حسن الأدب من المتعلم، وأنه ينبغي لمن سئل عما لا يعلم أن يقول ذلك، بخلاف أكثر المتكلفين.

قوله: «أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا» أي: يوحدوه بالعبادة. ولقد أحسن العلّامة ابن القيم حيث عرّف العبادة بتعريف جامع فقال:

وعبادة الرحمن غاية حبه ... مع ذل عابده هما قطبان
وعليهما فلك العبادة دائر ... ما دار حتى قامت القطبان
ومداره بالأمر أمر رسوله ... لا بالهوى والنفس والشيطان

قوله: «ولا يشركوا به شيئًا» أي يوحدوه بالعبادة، فلابد من التجرد من الشرك فى العبادة، ومن لم يتجرد من الشرك لم يكن آتيًا بعبادة الله وحده، بل هو مشرك قد جعل لله ندًا، وهذا معنى قول المصنف رحمه الله: وفيه أن العبادة هى التوحيد؛ لأن الخصومة فيه.

وفى بعض الآثار الإلهية: إنى والجن والإنس فى نبأ عظيم، أخلق ويُعبد غيري، وأرزق ويُشكر سواي، خيري إلى العباد نازل، وشرهم إليّ صاعد، أتحبب إليهم بالنعم، ويتبغضون إليّ بالمعاصى [(١)].

قوله: «وحق العباد على الله ألا يعذب من لا يشرك به شيئًا» قال الحافظ: اقتصر على نفي الإشراك؛ لأنه يستدعي التوحيد بالاقتضاء، ويستدعي إثبات الرسالة باللزوم، إذ من كذّب رسول الله ﷺ فقد كذَّب الله، ومن كذَّب الله فهو مشرك أو هو مثل قول القائل: من توضأ صحت صلاته، أى: مع سائر الشروط. انتهى.

(١) **ضعيف جدًا**: البيهقي (٤٥٦٣) في الشُّعب وفي سنده بقية بن الوليد وهو مدلس يدلس تدليس التسوية وهو أخطرها على الإطلاق وقد عنعنه.

قوله: (أفلا أبشر الناس؟) فيه استحباب بشارة المسلم بما يسره، وفيه ما كان عليه الصحابة من الاستبشار بمثل هذا. قاله المصنف رحمه الله تعالى.

قوله: «**لا تبشرهم فيتكلوا**» أي: يعتمدوا على ذلك فيتركوا التنافس في الأعمال.

وفي رواية: فأخبر بها معاذ عند موته؛ تأثمًا أي: تحرجًا من الإثم. قال الوزير أبو المظفَّر: لم يكن يكتمها إلا عن جاهل يحمله جهله على سوء الأدب بترك الخدمة في الطاعة، فأما الأكياس الذين إذا سمعوا بمثل هذا زادوا في الطاعة، ورأوا أن زيادة النعم تستدعي زيادة الطاعة، فلا وجه لكتمانها عنهم.

وفي الباب من الفوائد غير ما تقدم: الحث على إخلاص العبادة لله تعالى، وأنها لا تنفع مع الشرك، بل لا تُسمى عبادة، والتنبيه على عظمة حق الوالدين، وتحريم عقوقهما، والتنبيه على عظمة الآيات المحكمات في سورة الأنعام، وجواز كتمان العلم للمصلحة.

قوله: (أخرجاه) أي: البخاري ومسلم.

والبخاري هو الإمام محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن بردزبه الجعفي مولاهم، الحافظ الكبير صاحب (الصحيح) و(التاريخ) و(الأدب المفرد) وغير ذلك من مصنفاته.

روى عن الإمام أحمد بن حنبل والحميدي وابن المديني وطبقتهم.

وروى عنه مسلم والنسائي والترمذي والفِرَبري راوي الصحيح. ولد سنة أربع وتسعين ومائة ومات سنة ست وخمسين ومائتين.

ومسلم هو ابن الحجاج بن مسلم أبو الحسين القُشيري النيسابوري صاحب (الصحيح) و(العلل) و(الوجدان) وغير ذلك. روى عن أحمد بن حنبل ويحيى بن معين وأبي خيثمة وابن أبي شيبة وطبقتهم. وروى عن البخاري (صحيحه).

وروى عنه الترمذي وإبراهيم بن محمد بن سفيان راوي الصحيح وغيرهما.

ولد سنة أربع ومائتين، ومات سنة إحدى وستين ومائتين بنيسابور، رحمهما الله تعالى.

(١)



بيان فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب

قال المصنف رحمه الله تعالى: (باب بيان فضل التوحيد وما يكفِّر من الذنوب).

ش: (باب) خبر مبتدأ محذوف تقديره هذا.

قلت: ويجوز أن يكون مبتدأ خبره محذوف تقديره هذا.

و(ما) يجوز أن تكون موصولة والعائد محذوف، أي: وبيان الذي يكفره من الذنوب، ويجوز أن تكون مصدرية، أي: وتكفيره الذنوب، وهذا الثاني أظهر.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وقول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام:٨٢]).

ش: قال ابن جرير: حدثني المثنى... وساق بسنده عن الربيع بن أنس قال: الإيمان: الإخلاص لله وحده [١].

وقال ابن كثير في الآية: أي هؤلاء الذين أخلصوا العبادة لله وحده ولم يشركوا به شيئًا هم الآمنون يوم القيامة، المهتدون في الدنيا والآخرة.

وقال زيد بن أسلم وابن إسحاق: هذا من الله على فصل القضاء بين إبراهيم وقومه [٢].

وعن ابن مسعود: لما نزلت هذه الآية قالوا: فأينا لم يظلم نفسه؟

---

(١) **ضعيف الإسناد**: الطبري (١٤/ ١٧٢) في تفسيره وفيه المثنى وهو الآملي: لم أجد له ترجمة.

(٢) جمع ابن كثير - رحمه الله - هذه الأقوال جميعًا (٣/ ٢١٢-٢١٣) في تفسيره.

فقال عليه السلام: «**ليس بذلكم، ألم تسمعوا إلى قول لقمان**: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾».

وساقه البخارى بسنده فقال: حدثنا عمر بن حفص حدثنا أبي حدثنا الأعمش حدثنى إبراهيم عن علقمة عن عبد الله رضي الله عنه قال: لما نزلت: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢] قلنا: يا رسول الله، أينا لا يظلم نفسه؟ قال: «**ليس كما تقولون، لم يلبسوا إيمانهم بظلم: بشرك. أوَ لم تسمعوا إلى قول لقمان لابنه**: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾» (١).

وهذا الحديث في (الصحيح) و(المستدرك) وغيرهما.

ولأحمد بنحوه عن عبد الله قال: لما نزلت ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢] شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله فأينا لا يظلم نفسه؟ قال: «**إنه ليس الذى تعنون. ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح**: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] إنما هو الشرك» (٢).

وعن عمر أنه فسره بالذنب (٣). فيكون المعنى: الأمن من كل عذاب. وقال الحسن والكلبي: أولئك لهم الأمن فى الآخرة، وهم مهتدون فى الدنيا (٤).

قال شيخ الإسلام: والذى شق عليهم أنهم ظنوا أن الظلم المشروط هو ظلم العبد نفسه، وأنه لا أمن ولا اهتداء إلا لمن لم يظلم نفسه، فبين لهم النبى ﷺ ما دلهم على أن الشرك ظلم فى كتاب الله، فلا يحصل الأمن والاهتداء إلا لمن لم يلبس إيمانه بهذا الظلم، فإن من لم يلبس إيمانه بهذا الظلم كان من أهل الأمن والاهتداء، كما كان من أهل الاصطفاء فى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ [فاطر: ٣٢].

---

(١) رواه البخاري (٣٢) في الإيمان، مسلم (١٢٤) في الإيمان.
(٢) **صحيح الإسناد**: أحمد (١/ ٣٧٨) وصححه العلامة شاكر هناك.
(٣) **ضعيف الإسناد**: رواه الطبري (٧/ ٢٥٨) من طريق أبي عثمان.
(٤) هكذا ذكره الطبري وابن كثير وانظر ما قبل تخريجات ثلاث.

وهذا لا ينفى أن يؤاخذ أحدهم بظلمه لنفسه بذنب إذا لم يتب كما قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧-٨].

وقد سأل أبو بكر الصديق رضي الله عنه النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أينا لم يعمل سوءًا؟ فقال: «**يا أبا بكر ألست تنصب؟ ألست تحزن؟ أليس يصيبك اللأواء؟ فذلك ما تجزون به**» [(١)].

فبين: أنَّ المؤمن إذا مات دخل الجنة، إذ قد يُجزى بسيئاته فى الدنيا بالمصائب.

قال: فمن سلم من أجناس الظلم الثلاثة: الشرك، وظلم العباد. وظلمه لنفسه بما دون الشرك كان له الأمن التام والاهتداء التام. ومن لم يسلم من ظلمه لنفسه كان له الأمن والاهتداء مطلقًا.

بمعنى أنه لابد أن يدخل الجنة كما وُعِد بذلك فى الآية الأخرى، وقد هداه الله إلى الصراط المستقيم الذى تكون عاقبته فيه إلى الجنة. ويحصل له من نقص الأمن والاهتداء بحسب ما نقص من إيمانه بظلمه لنفسه.

وليس مراد النبى ﷺ بقوله: «**إنما هو الشرك**» أن من لم يشرك الشرك الأكبر يكون له الأمن التام والاهتداء التام؛ فإن أحاديثه الكثيرة مع نصوص القرآن تبين أن أهل الكبائر مُعرَّضون للخوف، لم يحصل لهم الأمن التام والاهتداء التام اللذين يكونون بهما مهتدين إلى الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم، من غير عذاب يحصل لهم بل معهم أصل الاهتداء إلى هذا الصراط، ومعهم أصل نعمة الله تعالى عليهم ولا بد لهم من دخول الجنة.

وقوله: «**إنما هو الشرك**» إن أراد الأكبر، فمقصوده أن من لم يكن من أهله فهو آمن مما وُعد به المشركون من عذاب الدنيا والآخرة. وإن كان مراده جنس الشرك فيقال: ظلم العبد لنفسه، كبخله -لحب المال- ببعض الواجب هو شرك أصغر. وحبه

---

(١) الحديث ضعفه العلامة شاكر (١/ ١١) برقم (٦٩) في المسند وأعله بـ (أبي بكر بن أبي زهير الثقفي) وجعله مستورًا، وقد رواه برقم (٦٨) بلفظ (أُخبرت أن أبا بكر) فهو بلاغ، وإن كان له شواهد كما عند الترمذي (٣٠٣٩) وأبو يعلى (٩٩) فلعله أن يحسن بها.

ما يبغضه الله تعالى حتى يقدم هواه على محبة الله شرك أصغر ونحو ذلك . فهذا فاته من الأمن والاهتداء بحسبه . ولهذا كان السلف يُدخلون الذنوب فى هذا الشرك بهذا الاعتبار . انتهى ملخصًا .

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى : قوله تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام :٨٢]قال الصحابة : وأينا يا رسول الله لم يلبس إيمانه بظلم؟ قال : «**ذلك الشرك ، ألم تسمعوا قول العبد الصالح** ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ » فلما أشكل عليهم المراد بالظلم فظنوا أن ظلم النفس داخل فيه ، وأن من ظلم نفسه -أيّ ظلم كان- لم يكن آمنًا ولا مهتديًا . أجابهم صلوات الله وسلامه عليه بأن الظلم الرافع للأمن والهداية على الإطلاق هو الشرك .

وهذا والله هو الجواب الذى يشفي العليل ويروي الغليل ؛ فإن الظلم المطلق التام هو الشرك ، الذى هو وضع العبادة فى غير موضعها ، والأمن والهدى المطلق : هما الأمن فى الدنيا والآخرة ، والهدى إلى الصراط المستقيم .

فالظلم المطلق التام رافع للأمن والهدى المطلق التام . ولا يمنع ذلك أن يكون مطلق الظلم مانعًا من مطلق الأمن ومطلق الهدى . فتأمله . فالمطلق للمطلق ، والحصة للحصة . انتهى ملخصًا .

قال المصنف رحمه الله تعالى:(وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ: «من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدًا عبده ورسوله ، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، والجنة حق ، والنار حق ، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل» أخرجاه [(١)]) .

ش:عبادة بن الصامت : ابن قيس الأنصاري الخزرجي ، أبو الوليد ، أحد النقباء بدريٌّ مشهور مات بالرملة سنة أربع وثلاثين ، وله اثنتان وسبعون سنة ، وقيل : عاش إلى خلافة معاوية .

قوله : «من شهد أن لا إله إلا الله» أى : من تكلم بها عارفًا بمعناها ، عاملاً

(١) رواه البخاري (٣٤٣٥) في أحاديث الأنبياء ، مسلم (٢٨) في الإيمان .

بمقتضاها باطنًا وظاهرًا، فلا بد في الشهادتين من العلم واليقين والعمل بمدلولها، كما قال تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩] وقوله ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٦].

أما النطق بها من غير معرفة بمعناها ولا يقين ولا عمل بما تقتضيه من البراءة من الشرك، وإخلاص القول والعمل: قول القلب واللسان وعمل القلب والجوارح - فغير نافع بالإجماع.

قال القرطبي في «المفهم على صحيح مسلم»: باب لا يكفي مجرد التلفظ بالشهادتين بل لا بد من استيقان القلب.

هذه الترجمة تنبيه على فساد مذهب غلاة المرجئة القائلين بأن التلفظ بالشهادتين كاف في الإيمان.

وأحاديث هذا الباب تدل على فساده بل هو مذهب معلوم الفساد من الشريعة لمن وقف عليها. ولأنه يلزم منه تسويغ النفاق، والحكم للمنافق بالإيمان الصحيح. وهو باطل قطعًا. انتهى.

وفي هذا الحديث ما يدل على هذا، وهو قوله: «**من شهد**» فإن الشهادة لا تصح إلا إذا كانت عن علم ويقين وإخلاص وصدق.

قال النووي: هذا حديث عظيم جليل الموقع، وهو أجمع - أو من أجمع - الأحاديث المشتملة على العقائد؛ فإنه ﷺ جمع فيه ما يُخرج من ملل الكفر على اختلاف عقائدهم وتباعدها، فاقتصر ﷺ في هذه الأحرف على ما يباين به جميعهم. انتهى.

ومعنى: لا إله إلا الله أي: لا معبود بحق إلا الله. وهو في مواضع من القرآن، ويأتيك في قول البقاعي صريحًا.

قوله: «وحده» تأكيد للإثبات «لا شريك له» تأكيد للنفي. قال الحافظ: كما قال تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣] وقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥] وقال: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ

أخاهم هودًا قال ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٦٥] فأجابوه ردًا عليه بقولهم: ﴿أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ [الأعراف: ٧٠] .

وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢] .

فتضمن ذلك نفى الإلهية عما سوى الله، وهي العبادة. وإثباتها لله وحده لا شريك له.

والقرآن من أوله إلى آخره يبين هذا ويقرره ويرشد إليه. فالعبادة بجميع أنواعها إنما تصدر عن تألُّه القلب بالحب والخضوع والتذلل رغبًا ورهبًا، وهذا كله لا يستحقه إلا الله تعالى، كما تقدم فى أدلة هذا الباب وما قبله.

فمن صرف من ذلك شيئًا لغير الله فقد جعله ندًّا لله، فلا ينفعه مع ذلك قول ولا عمل.

ذكر كلام العلماء فى معنى الإله:

قد تقدم كلام ابن عباس.

وقال الوزير أبو المظفر فى الإفصاح: قوله: «**شهادة أن لا إله إلا الله**» يقتضى أن يكون الشاهد عالمًا بأنه لا إله إلا الله، كما قال تعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩] .

قال: واسم (الله) مرتفع بعد (إلا) من حيث إنه الواجب له الإلهية، فلا يستحقها غيره سبحانه.

قال: وجملة الفائدة فى ذلك: أن تعلم أن هذه الكلمة مشتملة على الكفر بالطاغوت والإيمان بالله، فإنك لما نفيت الإلهية وأثبتَّ الإيجاب لله تعالى كنت ممن كفر بالطاغوت وآمن بالله.

وقال ابن القيم فى «البدائع» ردًا لقول من قال: إن المستثنى مخرج من المنفي. قال ابن القيم: بل هو مخرجٌ المنفي وحكمه، فلا يكون داخلاً فى المنفى، إذ لو كان كذلك لم يدخل الرجل فى الإسلام بقوله: لا إله إلا الله لأنه لم يُثبت الإلهية لله

تعالى . وهذه أعظم كلمة تضمنت بالوضع نفي الإلهية عما سوى الله وإثباتها له بوصف الاختصاص ، فدلالتها على إثبات إلهيته أعظم من دلالة قولنا : (الله إله) ولا يستريب أحد فى هذا ألبتة . انتهى بمعناه .

قلت : ولا ريب أنّه لم يدخل في المنفي أصلاً ؛ لأنَّ المراد من هذه الكلمة : إفرادُه تعالى بالإلهية في قلب الموحِّد وقوله وعمله ، كما دلَّت عليه الآيات المُحكمات ، كما أخبر عن دعوة رسله ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾[المؤمنون :٣٢] فنفوا الإلهية عمَّا سوى الله تعالى ، وأثبتوها لله وحده .

فإنه تعالى هو المتصف بتفرده بالإلهية أزلاً وأبدًا ؛ ة كما قال تعالى : ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾[الحج :٦٢] . وأخبر تعالى عن المشركين ، أنهم قالوا : ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ﴾[الأعراف : ٧٠] .

أرادوا أن يدخلوه في جملة آلهتهم في العبادة ، وأنكروا أنْ تكون العبادةُ له وحده ، مع معرفتهم أنَّ (لا إله إلاَّ الله) تبطلُ ذلك .

وتسويةُ آلهتهم بالله في العبادة : هو الشركُ الأكبرُ ، الذي يوجبُ الخلود في النار . فالموحِّدُ ، مخالفٌ للمشرك في قوله وفعله ونيَّته . وهذا ظاهرٌ لا خفاء به بحمد الله .

وقال أبو عبد الله القرطبي فى تفسير (لا إله إلا الله) أى : لا معبود إلا هو .

وقال الزمخشرى : الإله : من أسماء الأجناس كالرجل والفرس ، يقع على كل معبود بحق أو بباطل ، ثم غلب على المعبود بحق .

قال شيخ الإسلام : الإله : هو المعبود المطاع ، فإن الإله هو المألوه ، والمألوه هو الذى يستحق أن يُعبد . وكونه يستحق أن يعبد هو بما اتصف به من الصفات التى تستلزم أن يكون هو المحبوب غاية الحب ، المخضوع له غاية الخضوع .

وقال رحمه الله تعالى : فإن الإله هو المحبوب المعبود الذى تألهه القلوب بحبها ، وتخضع له وتذل له ، وتخافه وترجوه ، وتنيب إليه فى شدائدها ، وتدعوه فى مهماتها ، وتتوكل عليه فى مصالحها ، وتلجأ إليه وتطمئن بذكره ، وتسكن إلى حبه ، وليس ذلك إلا لله وحده ، ولهذا كانت (لا إله إلا الله) أصدق الكلام ، وكان أهلها

أهل الله وحزبه، والمنكرون لها أعداءه وأهل غضبه ونقمته، فإذا صحت صح بها كل مسألة وحال وذوق، وإذا لم يصححها العبد فالفساد لازم له فى علومه وأعماله.

قال ابن القيم: الإله: هو الذى تألهه القلوب محبة وإجلالاً وإنابة، وإكرامًا وتعظيمًا وذلاً وخضوعًا وخوفًا ورجاء وتوكلاً.

وقال ابن رجب: الإله: هو الذى يطاع فلا يعصى؛ هيبة له وإجلالاً، ومحبة وخوفًا ورجاء، وتوكلاً عليه، وسؤالاً منه ودعاء له، ولا يصلح ذلك كله إلا لله عز وجل، فمن أشرك مخلوقًا فى شيء من هذه الأمور التي هي من خصائص الإلهية كان ذلك قدحًا في إخلاصه فى قول (لا إله إلا الله) وكان فيه من عبودية المخلوق بحسب ما فيه من ذلك[1].

وقال البِقَاعي: لا إله إلا الله أى: انتفى انتفاء عظيمًا أن يكون معبود بحق غير الملك الأعظم، فإن هذا العلم هو أعظم الذكرى المنجية من أهوال الساعة، وإنما يكون علمًا إذا كان نافعًا، وإنما يكون نافعًا إذا كان مع الإذعان والعمل بما تقتضيه، وإلا فهو جهل صِرْف.

وقال الطيبي: الإله: فِعَال بمعنى مفعول، كالكتاب بمعنى المكتوب، من أله إلهة أى: عبد عبادة.

قال الشارح[2]: وهذا كثير فى كلام العلماء وإجماع منهم أن الإله هو المعبود خلافًا لما يعتقدُه عُبَّادُ القبور وجهلة المتكلمين من أنَّ معناه: هو الخالق والقادر على الاختراع، ونحو ذلك. ويظنون أنَّهم إذا قالوها فقد أتوا من التوحيد بالغاية القُصوى، ولو فعلو ما فعلوا: من عبادة غير الله كدعوة الأموات، والاستغاثة بهم في الكربات والنذر لهم في المُلِمَّات، إلى غير ذلك من أنواع العبادات.

وما شعروا أنَّ مُشركي العرب وغيرهم هم يُشاركونهم في الإقرار بهذا المعنى

---

(١) انظر تحقيق كلمة الإخلاص ص (٢٥) لابن رجب الحنبلي - رحمه الله-.

(٢) قصد هنا: الشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب صاحب أصل هذا الشرح وهو «تيسير العزيز الحميد» ص (٧٦ - ٧٧).

ويعتقدون أنَّ الله هو الخالقُ القادر على الاختراع، كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧] وقال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٩].

فأخبر تعالى عنهم: أنَّهم اتخذوا الأولياء من دونه، وقالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] فتبًّا لمن كان أبو جهلٍ ورءوسُ الكفرِ من قريشٍ وغيرهم أعلَمَ منه بمعنى لا إله الله!!

قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ۝٣٥ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ﴾ [الصافات: ٣٥-٣٦] فعرفوا أنَّها تدلُ على ترك عبادة معبوداتهم.

قلتُ: ودلالُتها على هذا دلالةُ تضمُّن، وأنَّ ذلك يقتضي إخلاص العبادة لله وحده، فدلالُتها على نفي الآلهة وعبادتها، وإفراد الله تعالى بالعبادة دلالةُ مطابقةٍ.

فدلت (لا إله إلا الله) على نفي الإلهية عن كل ما سوى الله تعالى كائنًا من كان، وإثبات الإلهية لله وحده دون كل ما سواه، وهذا هو التوحيد الذى دعت إليه الرسل ودل عليه القرآن من أوله إلى آخره، كما قال تعالى عن الجن: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ [الجن: ١-٢].

فلا إله إلا الله لا تنفع إلا من عرف مدلولها نفيًا وإثباتًا، واعتقد ذلك وقبله وعمل به.

وأما من قالها من غير علم واعتقاد وعمل، فقد تقدم فى كلام العلماء أن هذا جهل صرف، فهى حجة عليه بلا ريب.

فقوله فى الحديث: «**وحده لا شريك له**» تأكيد وبيان لمضمون معناها. وقد أوضح الله تعالى ذلك وبينه فى قصص الأنبياء والمرسلين في كتابه المبين.

فما أجهل عُبّاد القبور بحالهم! وما أعظم ما وقعوا فيه من الشرك المنافى لكلمة الاخلاص لا إله إلا الله! فإن مشركي العرب ونحوهم جحدوا لا إله إلا الله لفظًا ومعنى. وهؤلاء المشركون أقروا بها لفظًا وجحدوها معنى.

فتجد أحدهم يقولها وهو يأله غير الله بأنواع العبادة، كالحب والتعظيم، والخوف والرجاء والتوكل والدعاء، وغير ذلك من أنواع العبادة. بل زاد شركهم على شرك العرب بمراتب، فإن أكثرهم إذا وقع فى شدة أخلص الدعاء لغير الله تعالى، ويعتقدون أنه أسرع فرجًا من الله، بخلاف حال المشركين الأولين، فإنهم يشركون في الرخاء، وأما في الشدائد فإنما يخلصون لله وحده، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥] الآية.

فبهذا يتبين أن مشركي أهل هذه الأزمان أجهل بالله وبتوحيده من مشركي العرب ومن قبلهم.

وقوله: «**وأن محمدًا عبده ورسوله**» أي وشهد بذلك، وهو معطوف على ما قبله على نية تكرار العامل.

ومعنى العبد هنا: المملوك العابد، أي أنه مملوك لله تعالى، والعبودية الخاصة وصْفه، كما قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: ٣٦] فأعلى مراتب العبد: العبودية الخاصة والرسالة.

فالنبى محمد ﷺ أكمل الخلق فى هاتين الصفتين الشريفتين. وأما الربوبية والإلهية فهما حق الله تعالى، لا يشاركه فى شيء منهما مَلَك مقرب ولا نبيّ مرسل.

وقوله: «**عبده ورسوله**» أتى بهاتين الصفتين وجمعهما دفعًا للإفراط والتفريط، فإن كثيرًا ممن يدعي أنه من أمته أفرط بالغلو قولاً وفعلاً، وفرط بترك متابعته، واعتمد على الآراء المخالفة لما جاء به، وتعسف فى تأويل أخباره وأحكامه، بصرفها عن مدلولها والصدف عن الانقياد لها مع اطراحها فإن شهادة أن محمدًا عبده ورسوله تقتضي الإيمان به وتصديقه فيما أخبر، وطاعته فيما أمر، والانتهاء عما عنه زجر، وأن يُعظَّم أمره ونهيه، ولا يقدم عليه قول أحد كائنًا من كان، والواقع اليوم وقبله خلاف ذلك، والله المستعان.

وروى الدارميُّ فى مسنده عن عبد الله بن سلام رضى الله عنه أنه كان يقول: إنا لنجد صفة رسول الله ﷺ: «**إنا أرسلناك شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا وحرزًا للأميين، أنت**

عبدي ورسولي، سميته المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ، ولا سخاب بالأسواق، ولا يجزي بالسيئة مثلها، ولكن يعفو ويتجاوز، لن أقبضه حتى يقيم الملة المتعوجة بأن يشهدوا أن لا إله إلا الله، يفتح به أعينًا عميًا وآذانًا صمًا وقلوبًا غلفًا» (١).

قال عطاء بن يسار: وأخبرني أبو واقد الليثي أنه سمع كعبًا يقول مثل ما قال ابن سلام (٢).

قوله: «وأن عيسى عبد الله ورسوله» أي خلافًا لما يعتقده النصارى أنه الله أو ابن الله، أو ثالث ثلاثة؛ تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ [المؤمنون: ٩١].

فلا بد أن يشهد أن عيسى عبد الله ورسوله على علم ويقين بأنه مملوك لله، خلقه من أنثى بلا ذكر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩]فليس ربًّا ولا إلهًا. سبحان الله عما يشركون. قال تعالى ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ۝٢٩ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا﴾ [مريم: ٢٩-٣٠].

وقال: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٧٢].

ويشهد المؤمن أيضًا ببطلان قول أعدائه اليهود: إنه ولد بغي، لعنهم الله تعالى. فلا يصح إسلام أحد علم ما كانوا يقولونه حتى يتبرأ من قول الطائفتين جميعًا في عيسى عليه السلام، ويعتقد ما قاله الله تعالى فيه: أنه عبد الله ورسوله.

قوله: «وكلمته» إنما سُمي عيسى عليه السلام كلمته لوجوده بقوله تعالى: ﴿كُن﴾ كما قاله السلف من المفسرين.

---

(١) صحيح بشواهده: له أصل في صحيح البخاري (٢١٢٥) في كتاب البيوع عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما. وذكر حديث ابن سلام عقبه مباشرة (٤/ ٣٤٢) - فتح- ووصله الدارمي في مسنده (٦) وذكر ابن حجر (٤/ ٣٤٣) أنه صحيح بشواهده.

(٢)انظر التخريج السابق.

قال الإمام أحمد في الرد على الجهمية : الكلمة التي ألقاها إلى مريم حين قال له : ﴿كُن﴾ فكان عيسى بكن وليس عيسى هو «كن» ولكن كان بكن . فكن من الله تعالى قول ، وليس «كن» مخلوقًا ، وكذب النصارى والجهمية على الله في أمر عيسى . انتهى .

وقوله : «ألقاها إلى مريم» قال ابن كثير : خلقه بالكلمة التي أُرسل بها جبرائيل إلى مريم فنفخ فيها من روحه بأمر ربه عز وجل فكان عيسى بإذن الله عز وجل ، فهو ناشئ عن الكلمة التي قال له كن فكان والروح التي أرسل بها جبرائيل عليه السلام [1].

قوله : «وروح منه» قال أبيّ بن كعب : عيسى روح من الأرواح التي خلقها الله تعالى واستنطقها بقوله : ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأعراف :١٧٢]بعثه الله إلى مريم فدخل فيها [2]رواه عبد بن حميد وعبد الله بن أحمد في زوائد المسند ، وابن جرير وابن أبي حاتم وغيرهم .

قال الحافظ : ووصْفه بأنه منه ، فالمعنى : أنه كائن منه ، كما في قوله تعالى : ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية :١٣]فالمعنى أنه كائن منه ، كما أن معنى الآية الأخرى أنه سخر هذه الأشياء كائنة منه أي أنه مكوّن ذلك وموجده بقدرته وحكمته .

قال شيخ الإسلام : المضاف إلى الله تعالى إذا كان معنى لا يقوم بنفسه ولا بغيره من المخلوقات وجب أن يكون صفة لله تعالى قائمة به ، وامتنع أن تكون إضافتها إضافة مخلوق مربوب .

فإذا كان المضاف عينًا قائمة بنفسها كعيسى وجبرائيل عليهما السلام وأرواح بني آدم امتنع أن تكون صفة لله تعالى ؛ لأن ما قام بنفسه لا يكون صفة لغيره ، لكن الأعيان المضافة إلى الله تعالى على وجهين :

أحدهما : أن تضاف إليه لكونه خلقها وأبدعها ، فهذا شامل لجميع المخلوقات ،

---

(١)رواه ابن كثير (١/ ٥٩١) ط دار الفكر - بيروت .

(٢) حسن الإسناد : الحاكم (٢/ ٣٥٣ ، ٤٠٥) في المستدرك ، وله شاهد عند اللالكائي (٣/ ٥٥٩ - ٥٦٠) عن أبي رضي الله عنه بطريق حسن .

كقولهم : سماء الله، وأرض الله . فجميع المخلوقين عبيد الله، وجميع المال مال الله .

الوجه الثاني : أن يضاف إليه لما خصه به من معنى يحبه ويأمر به ويرضاه، كما خص البيت العتيق بعبادة فيه لا تكون فى غيره . وكما يقال عن مال الفيء والخمس : هو مال الله ورسوله .

ومن هذا الوجه : فعباد الله هم الذين عبدوه وأطاعوا أمره . فهذه إضافة تتضمن ألوهيته وشرعه ودينه، وتلك إضافة تتضمن ربوبيته وخلقه . انتهى ملخصًا .

قوله : «**والجنة حق والنار حق**» (١) أي : وشهد أن الجنة التى أخبر بها تعالى فى كتابه أنه أعدها للمتقين حق، ثابتة لا شك فيها، وشهد أن النار التى أخبر بها تعالى فى كتابه أنه أعدها للكافرين حق كذلك ثابتة، كما قال تعالى : ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [الحديد:٢١] وقال تعالى : ﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٢٤] وفى الآيتين ونظائرهما : دليل على أن الجنة والنار مخلوقتان الآن، خلافا للمبتدعة . وفيهما : الإيمان بالمعاد .

وقوله : «**أدخله الله الجنة على ما كان من العمل**» هذه الجملة جواب الشرط وفى رواية : «**أدخله الله الجنة من أى أبواب الجنة الثمانية شاء**» .

قال الحافظ : ومعنى قوله : «**على ما كان من العمل**» أى : من صلاح أو فساد؛ لأن أهل التوحيد لا بد لهم من دخول الجنة، ويحتمل أن يكون معنى قوله : «**على ما كان من العمل**» أي : يدخل أهل الجنة الجنة على حسب أعمال كل منهم فى الدرجات . انتهى .

قال القاضى عياض : ما ورد فى حديث عبادة يكون مخصوصًا لمن قال ما ذكره النبي ﷺ وقرن بالشهادتين حقيقة الإيمان والتوحيد الذي ورد في حديثه فيكون له من الأجر ما يرجح على سيئاته، ويوجب له المغفرة والرحمة، ودخول الجنة لأول وهلة .

---

(١) قطعة من حديث رواه البخاري ومسلم عن عبادة بن الصامت وهو الحديث المشروح .

قال العلاّمةُ ابن القيم رحمه الله تعالى: والمقصود: أنَّ كلمة التوحيد إذا شهد بها المؤمنُ عارفًا لمعناها وحقيقته نفيًا وإثباتًا، مُتصفًا بموجبها قائمًا قلبه ولسانُه وجوارحه بشهادته، فهذه الكلمةُ من هذا الشاهد. أصلُها ثابتٌ راسخ في قلبه، وفروعُها متصلةٌ في السماء، وهي مخرجةٌ لثمرتها كلَّ وقت. انتهى.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (ولهما في حديث عتبان: «فإن الله حرم على النار من قال: لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله»).

ش: قوله: (ولهما) أي البخاري ومسلم في صحيحيهما بكماله. وهذا طرف من حديث طويل أخرجه الشيخان.

وعتبان - بكسر المهملة بعدها مثناة فوقية ثم موحدة- ابن مالك بن عمرو بن العجلان الأنصاري، من بني سالم بن عوف، صحابي مشهور، مات في خلافة معاوية.

وأخرج البخاري في صحيحه بسنده عن قتادة قال: حدثنا أنس بن مالك أن النبي ﷺ ومعاذ رديفه على الرحل قال: **«يا معاذ»**، قال: لبيك يا رسول الله وسعديك. قال: **«يا معاذ»**، قال: لبيك يا رسول الله وسعديك. قال: **«يا معاذ»**، قال: لبيك يا رسول الله وسعديك - ثلاثًا - قال: **«ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله صدقًا من قلبه إلا حرمه الله تعالى على النار»** قال: يا رسول الله أفلا أخبر به الناس فيستبشروا؟ قال: **«إذًا يتكلوا»**، فأخبر بها معاذ عند موته تأثمًا [(١)].

وساق بسند آخر: حدثنا معتمر قال: سمعت أبي، قال: سمعت أنسًا قال: ذكر لي أن النبي ﷺ قال لمعاذ بن جبل: **«من لقي الله لا يشرك به شيئًا دخل الجنة»**. قال: أفلا أبشر الناس؟ قال: **«لا؛ إني أخاف أن يتكلوا»** [(٢)].

قلت: فتبين بهذا السياق معنى شهادة أن لا إله إلا الله، وأنها تتضمن ترك الشرك

(١) سبق تخريج الحديث في الصحيحين.
(٢) رواه البخاري (١٢٩) في الإيمان.

لمن قالها بصدق ويقين وإخلاص .

قال شيخ الإسلام وغيره في هذا الحديث ونحوه: إنها فيمن قالها ومات عليها، كما جاءت مقيدة بقوله: خالصًا من قلبه غير شاك فيها بصدق ويقين فإن حقيقة التوحيد انجذاب الروح إلى الله تعالى جملة، فمن شهد أن لا إله إلا الله خالصًا من قلبه دخل الجنة؛ لأن الإخلاص هو انجذاب القلب إلى الله تعالى بأن يتوب من الذنوب توبة نصوحًا، فإذا مات على تلك الحال نال ذلك فإنه قد تواترت الأحاديث بأنه «**يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله، وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة، وما يزن خردلة، وما يزن ذرة**». وتواترت بأن كثيرًا ممن يقول: لا إله إلا الله، يدخل النار، ثم يخرج منها .

وتواترت بأن الله حرم على النار أن تأكل أثر السجود من ابن آدم، فهؤلاء كانوا يصلون ويسجدون لله .

وتواترت بأن الله يحرم على النار من قال: لا إله إلا الله، ومن شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، لكن جاءت مقيدة بالقيود الثقال .

وأكثر من يقولها لا يعرف الإخلاص، وأكثر من يقولها إنما يقولها تقليدًا أو عادة، ولم يخالط الإيمان بشاشة قلبه!

وغالب من يفتن عند الموت وفي القبور أمثال هؤلاء، كما في الحديث: «**سمعت الناس يقولون شيئًا فقلته**»[1] وغالب أعمال هؤلاء إنما هو تقليد واقتداء بأمثالهم، وهم من أقرب الناس من قوله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف:٢٣] وحينئذ فلا منافاة بين الأحاديث .

فإنه إذا قالها بإخلاص ويقين تام لم يكن في هذه الحال مصرًا على ذنب أصلاً، فإن كمال إخلاصه ويقينه يوجب أن يكون الله أحب إليه من كل شيء، فإذًا لا يبقى في قلبه إرادة لما حرم الله، ولا كراهة لما أمر الله .

---

(١) صحيح: قطعة من حديث رواه أحمد (٦/ ١٣٩ - ١٤٠) في المسند عن أبي هريرة رضي الله عنه، وبنحوه عند البخاري (١٣٧٤) في الجنائز عن أنس رضي الله عنه .

وهذا هو الذي يحرم على النار وإن كانت له ذنوب قبل ذلك، فإن هذا الإيمان وهذا الإخلاص، وهذه التوبة وهذه المحبة وهذا اليقين، لا يتركون له ذنبًا إلا محي عنه كما يمحو الليل النهار.

فإذا قالها على وجه الكمال المانع من الشرك الأكبر والأصغر، فهذا غير مُصرٍّ على ذنب أصلاً، فيُغفر له ويحرم على النار.

وإن قالها على وجه خلص به من الشرك الأكبر دون الأصغر، ولم يأت بعدها بما يناقض ذلك، فهذه الحسنة لا يقاومها شيء من السيئات، فيرجح بها ميزان الحسنات، كما فى حديث البطاقة [(١)] فيحرم على النار، ولكن تنقص درجته فى الجنة بقدر ذنوبه.

وهذا بخلاف من رجحت سيئاته بحسناته ومات مُصرًّا على ذلك، فإنه يستوجب النار، وإن قال: لا إله إلا الله وخلص بها من الشرك الأكبر لكنه لم يمت على ذلك، بل أتى بعد ذلك بسيئات رجحت على حسنة توحيده، فإنه فى حال قولها كان مخلصًا لكنه أتى بذنوب أوهنت ذلك التوحيد والإخلاص فأضعفته، وقويت نار الذنوب حتى أحرقت ذلك، بخلاف المخلص المستيقن، فإن حسناته لا تكون إلا راجحة على سيئاته ولا يكون مُصرًّا على سيئات، فإن مات على ذلك دخل الجنة.

وإنما يُخاف على المخلص أن يأتي بسيئة راجحة فيضعُف إيمانه فلا يقولها بإخلاص ويقين مانع من جميع السيئات، ويُخشى عليه من الشرك الأكبر والأصغر، فإن سلم من الأكبر بقي معه من الأصغر فيضيف إلى ذلك سيئات تنضم إلى هذا الشرك فيرجح جانب السيئات.

فإن السيئات تُضعف الإيمان واليقين، فيضعف قول: لا إله إلا الله، فيمتنع الإخلاص بالقلب، فيصير المتكلم بها كالهاذي أو النائم، أو من يُحسن صوته بالآية من القرآن من غير ذوق طعم وحلاوة، فهؤلاء لم يقولوها بكمال الصدق واليقين، بل

(١) حديث البطاقة صحيح عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما ورواه الترمذي (٢٦٣٩) في الإيمان وصححه الشيخ ناصر الدين الألباني وسيأتي مطولاً.

يأتون بعدها بسيئات تنقض ذلك بل يقولونها من غير يقين وصدق ويحيون على ذلك، ويموتون على ذلك، ولهم سيئات كثيرة تمنعهم من دخول الجنة.

وإذا كثرت الذنوب ثقُل على اللسان قولُها وقسا القلب عن قولها، وكره العمل الصالح وثقُل عليه سماعُ القرآن، واستبشر بذكر غيره، واطمأن إلى الباطل، واستحلى الرفث، ومخالطة أهل الباطل، وكره مخالطة أهل الحق، فمثل هذا إذا قالها قال بلسانه ما ليس في قلبه، وبفيه ما لا يصدّقه عمله.

قال الحسن: ليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمني، ولكن ما وقر في القلوب وصدّقته الأعمال. فمن قال خيرًا وعمل خيرًا قُبل منه، ومن قال خيرًا وعمل شرًّا لم يُقبل منه [١].

وقال بكر بن عبد الله المُزَني: ما سبقهم أبو بكر رضي الله عنه بكثرة صيام ولا صلاة ولكن بشيء وقر في قلبه [٢].

فمن قال: لا إله إلا الله ولم يَقُم بموجَبها بل اكتسب مع ذلك ذنوبًا، وكان صادقًا في قولها موقنًا بها، لكن له ذنوب أضعفت صدقه ويقينه، وانضاف إلى ذلك الشرك الأصغر العملي، رجحت هذه السيئات على هذه الحسنة، ومات مُصرًّا على الذنوب. بخلاف من يقولها بيقين وصدق، فإنه إما أن لا يكون مُصرًّا على سيئة أصلاً، أو يكون توحيده المتضمن لصدقه ويقينه رجح حسناته.

والذين يدخلون النار ممن يقولها: إما أنهم لم يقولوها بالصدق واليقين التامين المنافيين للسيئات أو لرجحانها، أو قالوها واكتسبوا بعد ذلك سيئات رجحت على حسناتهم، ثم ضعُف لذلك صدْقهم ويقينهم، ثم لم يقولوها بعد ذلك بصدق ويقين تام؛ لأن الذنوب قد أضعفت ذلك الصدق واليقين من قلوبهم، فقولها من مثل هؤلاء

---

(١) **حسن موقوف**: ابن أبي شيبة (٦/ ١٦٣) برقم (٣٠٣٥١) في المصنف وفي الزهد (١/ ٢٦٣) لابن أبي عاصم.

(٢) **صحيح الإسناد إلى بكر**: البداية والنهاية (٩/ ٢٦٠) وسنده إليه صحيح، ولا يصح رفعه إلى النبي ﷺ.

لا يقوى على محو السيئات فترجحُ سيئاتهم على حسناتهم . انتهى ملخصًا .

وقد ذكر هذا كثير من العلماء كابن القيم وابن رجب وغيرهم .

قلت: وبما قرره شيخ الاسلام رحمه الله تعالى تجتمع الأحاديث .

قال: وفي الحديث : دليل على أنه لا يكفي في الإيمان النطق من غير اعتقاد وبالعكس .

وفيه: تحريم النار على أهل التوحيد الكامل .

وفيه: أن العمل لا ينفع إلا إذا كان خالصًا لوجه الله تعالى .

تنبيه: قال القرطبي في تذكرته : قوله في الحديث : «**من إيمان**» أي : من أعمال الإيمان التي هي من أعمال الجوارح ، فيكون فيه دلالة على أن الأعمال الصالحة من الإيمان .

والدليل على أنه أراد بالإيمان ما قلناه ، ولم يُرد مجرد الإيمان -الذي هو التوحيد ونفي الشركاء والإخلاص بقوله لا إله إلا الله - ما في الحديث نفسه من قوله «**أخرِجُوا**» ثم بعد ذلك يقبض سبحانه قبضة فيُخرج قومًا لم يعملوا خيرًا قط يريد بذلك أهل التوحيد المجرد من الأعمال . انتهى ملخصًا من شرح سنن ابن ماجه .

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : «قال موسى عليه السلام : يا رب علمني شيئًا أذكرك وأدعوك به ، قال : قل يا موسى : لا إله إلا الله . قال : كل عبادك يقولون هذا ، قال : يا موسى لو أن السموات السبع وعامرهن غيري والأرضين السبع في كفة ، ولا إله إلا الله في كفة ، مالت بهن لا إله إلا الله» [1] . رواه ابن حبان والحاكم وصححه) .

ش: أبو سعيد : اسمه : سعد بن مالك بن سنان بن عبيد الأنصاري الخزرجي ، صحابي جليل وأبوه كذلك ، استُصغر أبو سعيد بأُحد وشهد ما بعدها ، مات بالمدينة

---

(١) **ضعيف الإسناد**: النسائي (١٠٦٧٠) في الكبرى بسند فيه رواية درّاج أبي السمح عن أبي الهيثم وهي ضعيفة ، وقال الهيثمي (١٠/ ٨٢) في المجمع : رواه أبو يعلى ورجاله وثقوا وفيهم ضعف .

سنة ثلاث أو أربع أو خمس وستين وقيل سنة أربع وسبعين .

قوله: (أذكرك) أي أثني عليك به (وأدعوك) أي أسألك به .

قوله: (قل يا موسى: لا إله إلا الله) فيه: أن الذاكر بها يقولها كلها، ولا يقتصر على لفظ الجلالة، ولا على «هو» كما يفعله غلاة جهال المتصوفة؛ فإن ذلك بدعة وضلالة .

قوله: (كل عبادك يقولون هذا) ثبت بخط المصنف بالجمع، والذى فى الأصول (يقول) بالإفراد مراعاة للفظة (كل) .

وهو فى المسند من حديث عبد الله بن عمرو بلفظ الجمع كما ذكره المصنف على معنى (كل) ومعنى قوله: (كل عبادك يقولون هذا) أي: إنما أريد شيئًا تخصني به من بين عموم عبادك .

وفى رواية: بعد قوله: (كل عبادك يقولون هذا) - (قل: لا إله إلا الله، قال: لا إله إلا أنت يارب، إنما أريد شيئًا تخصنى به) .

ولما كان بالناس - بل بالعالم كله - من الضرورة إلى (لا إله إلا الله) ما لا نهاية له، كانت من أكثر الأذكار وجودًا، وأيسرها حصولاً، وأعظمها معنى، والعوامُّ والجُهّال يعدلون عنها إلى الدعوات المبتدعة التى ليست في الكتاب ولا في السنة .

قوله: (وعامرهن غيري) هو بالنصب عطف على (السموات)، أي لو أن السموات السبع ومن فيهن من العُمّار غير الله تعالى، والأرضين السبع ومن فيهن، وُضِعوا فى كفة الميزان ولا إله إلا الله في الكفة الأخرى، مالت بهن لا إله إلا الله .

وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو عن النبىﷺ أن نوحًا عليه السلام قال لابنه عند موته: «**آمرك بلا إله إلا الله، فإن السموات السبع والأرضين السبع لو وضعت في كفة، ولا إله إلا الله فى كفة رجحت بهن لا إله إلا الله، ولو أن السموات السبع والأرضين السبع كن حلقة مبهمة لقصمتهن لا إله إلا الله**»[1] .

(١) صحيح الإسناد: أحمد (٢/١٦٩، ١٧٠، ٢٢٥) في المسند وصححه العلامة شاكر، والبخاري (٥٤٨) في «الأدب المفرد» بتصحيح الألباني.

قوله: (في كفة) هو بكسر الكاف وتشديد الفاء، أي: كفة الميزان.

قوله: (مالت بهن) أي رجحت، وذلك لما اشتملت عليه من نفي الشرك، وتوحيد الله الذي هو أفضل الأعمال. وأساس الملة والدين، فمن قالها بإخلاص ويقين، وعمل بمقتضاها ولوازمها وحقوقها، واستقام على ذلك، فهذه الحسنة لا يوازنها شيء، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[الأحقاف: ١٣]، ودل الحديث على أن لا إله إلا الله أفضل الذكر. كحديث عبد الله بن عمرو مرفوعًا: «**خير الدعاء دعاء يوم عرفة وخير ما قلتُ أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير**»[1] رواه أحمد والترمذي.

وعنه أيضا مرفوعًا: «**يصاح برجل من أمتي على رءوس الخلائق يوم القيامة فيُنشر له تسعة وتسعون سجلاً، كل سجل منها مدَّ البصر ثم يقال: أتنكر من هذا شيئاً؟ أظلمك كتبتي الحافظون؟ فيقول: لا يارب. فيقال: ألك عذر أو حسنة؟ فيهاب الرجل فيقول: لا!! فيقال: بلى إن لك عندنا حسنة، وإنه لا ظلم عليك اليوم، فيُخرج له بطاقة فيها: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله. فيقول: يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقال: إنك لا تُظلم، فتوضع السجلات في كفة، والبطاقة في كفة فطاشت السجلات وثقلت البطاقة**»[2].

رواه الترمذي وحسنه، والنسائي وابن حبان والحاكم، وقال: صحيح على شرط مسلم، وقال الذهبي في تلخيصه: صحيح.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: فالأعمال لا تتفاضل بصورها وعددها، وإنما تتفاضل بتفاضل ما في القلوب، فتكون صورة العملين واحدة وبينهما من التفاضل كما بين السماء والأرض.

---

(١) **حسن الإسناد:** البيهقي (٥/ ١١٧) من طريق مالك الذي رواه (١/ ٢١٤، ٢١٥) في الموطأ، وحسنه الشيخ ناصر الدين (١٥٠٣) في الصحيحة.

(٢) **صحيح الإسناد:** انظر ما قبل خمسة تخريجات فقد ألمح إليه المصنف وها هو مطولاً وهو: (حديث البطاقة).

قال: وتأمل حديث البطاقة التي توضع في كفة، ويقابلها تسعة وتسعون سجلاً كل سجل منها مد البصر، فتثقل البطاقة وتطيش السجلات، فلا يُعذّب، ومعلوم أن كل موحِّد له هذه البطاقة وكثير منهم يدخل النار بذنوبه.

قوله: (رواه ابن حبان والحاكم) ابن حبان: اسمه: محمد بن حبان - بكسر المهملة وتشديد الموحدة - ابن أحمد بن حبان بن معاذ، أبو حاتم التميمي البُستي الحافظ صاحب التصانيف: كالصحيح، و«التاريخ»، و«الضعفاء»، و«الثقات» وغير ذلك.

قال الحاكم: كان من أوعية العلم في الفقه واللغة والحديث والوعظ، ومن عقلاء الرجال. مات سنة أربع وخمسين وثلاثمائة بمدينة بست - بضم الموحدة وسكون المهملة - .

وأما الحاكم فاسمه: محمد بن عبد الله بن محمد النيسابوري أبو عبد الله الحافظ ويعرف بابن البيِّع ولد سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة، وصنف التصانيف، كالمستدرك وتاريخ نيسابور وغيرهما، ومات سنة خمس وأربعمائة.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وللترمذي - وحسنه - عن أنس: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تعالى: يا بن آدم إنك لو أتيتني بقُراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا لأتيتك بقرابها مغفرة» [(1)]).

ش: ذكر المصنف رحمه الله تعالى الجملة الأخيرة من الحديث، وقد رواه الترمذي بتمامه فقال: عن أنس قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**قال الله تبارك وتعالى: يا بن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي، يا بن آدم لو بلغت ذنوبك عَنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي، يا بن آدم، إنك لو أتيتني . . .**» الحديث.

الترمذي: اسمه: محمد بن عيسى بن سورة - بفتح المهملة - ابن موسى بن

---

(١) **صحيح**: الترمذي (٣٥٤٠) في الدعوات وقال: حسن صحيح، وصححه الألباني - رحمه الله - وذكر ابن رجب عقب حديث رقم (٤٢) في «جامع العلوم والحكم» شواهد له من حديث أبي ذر عند أحمد (٥/ ١٤٨) ومسلم (٢٦٨٧) في الذكر عن أبي ذر رضي الله عنه.

الضحاك السُّلمي أبو عيسى، صاحب الجامع وأحد الحفاظ، كان ضرير البصر، روى عن قتيبة وهناد والبخاري وخلق. مات سنة تسع وسبعين ومائتين.

وأنس: هو ابن مالك بن النضْر الأنصاري الخزرجي، خادم رسول الله ﷺ خدمه عشر سنين، وقال له: «**اللهم أكثر ماله وولده وأدخله الجنة**» (١) مات سنة اثنتين وقيل: ثلاث وتسعين، وقد جاوز المائة.

وقد رواه الإمام أحمد من حديث أبي ذر بمعناه، وهذا لفظه «**ومن عمل قراب الأرض خطيئة ثم لقيني لا يشرك بي شيئًاجعلت له مثلها مغفرة**» (٢).

ورواه مسلم (٣)، وأخرجه الطبرانى من حديث ابن عباس عن النبى ﷺ (٤).

قوله: (لو أتيتني بقراب الأرض) بضم القاف: وقيل: بكسرها والضم أشهر وهو ملؤها أو ما يقارب مِلأْها.

قوله: (ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا) شرط ثقيل فى الوعد بحصول المغفرة، وهو السلامة من الشرك: كثيره وقليله، صغيره وكبيره. ولا يسلم من ذلك إلا من سلّم الله تعالى، وذلك هو القلب السليم كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء:٨٨-٨٩].

قال ابن رجب: من جاء مع التوحيد بقراب الأرض خطايا لقيه الله تعالى بقرابها مغفرة.

إلى أن قال: فإن كمل توحيد العبد وإخلاصه لله تعالى فيه، وقام بشروطه بقلبه ولسانه وجوارحه، وبقلبه ولسانه عند الموت، أعقب ذلك مغفرة ما قد سلف من الذنوب كلها ومنعه من دخول النار بالكلية. فمن تحقق بكلمة التوحيد قلبه أخرجت منه كل ما سوى الله تعالى: محبة وتعظيمًا، وإجلالاً ومهابة وخشية وتوكلاً، وحينئذ

(١) رواه البخاري (٦٣٧٩ - ٦٣٨١) في الدعوات، مسلم (٢٤٨٠، ٢٤٨١) في فضائل الصحابة.

(٢) سبق تصحيحه في التخريج قبل السابق.

(٣) رواه مسلم (٢٦٨٧) في الذكر والدعاء.

(٤) ضعيف جدًا: الطبراني (١٢٣٤٦) في الكبير وفيه إبراهيم بن إسحاق العيني وهو متروك، والأصح هو الحديث السابق.

تُحرق ذنوبه وخطاياه كلها، وإن كانت مثل زبد البحر . انتهى ملخصًا [١].

قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى فى معنى الحديث: ويُعفى لأهل التوحيد المحض الذي لم يشوبوه بالشرك ما لا يُعفى لمن ليس كذلك . فلو لقي الموحد الذي لم يشرك بالله شيئًا ألبتة ربه بقراب الأرض خطايا أتاه بقرابها مغفرة، ولا يحصل هذا لمن نقص توحيده .

فإن التوحيد الخالص الذى لا يشوبه شرك لا يبقى معه ذنب؛ لأنه يتضمن من محبة الله وإجلاله وتعظيمه، وخوفه ورجائه وحده ما يوجب غسل الذنوب ولو كانت قراب الأرض، فالنجاسة عارضة والدافع لها قوي . انتهى .

وفى هذا الحديث: كثرة ثواب التوحيد، وسعة كرم الله وجوده ورحمته، والرد على الخوارج الذين يكفِّرون المسلم بالذنوب، وعلى المعتزلة القائلين بالمنزلة بين المنزلتين، وهي الفسوق، ويقولون: ليس بمؤمن ولا كافر، ويُخلّد في النار .

والصواب: قول أهل السنة: إنه لا يُسلب عنه اسم الإيمان، ولا يُعطاه على الإطلاق، بل يقال: هو مؤمن عاص، أو مؤمن بإيمانه، فاسق بكبيرته . وعلى هذا يدل الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة .

وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: لما أُسري برسول الله ﷺ انتُهي به إلى سدرة المنتهى، فأُعطي ثلاثًا: أُعطي الصلوات الخمس، وخواتيم سورة البقرة، وغفر لمن لا يشرك بالله من أمته شيئًا: المُقحِمات [٢]. رواه مسلم .

قال ابن كثير فى تفسيره: وأخرج الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه والنسائى عن أنس بن مالك قال: قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية « ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ [المدثر :٥٦]» وقال: «**قال ربكم: أنا أهلٌ أن أُتقَى فلا يُجعل معي إله، فمن اتقى أن يجعل معي إلهًا كان أهلاً أن أغفر له**» [٣].

(١) قاله الحافظ ابن رجب عقب حديث (٤٢) في جامع العلوم والحكم ص(٥٦٧) ونقله المصنف مختصرًا .

(٢) رواه مسلم (١٧٣) في الإيمان .

(٣) ضعيف الإسناد: الترمذي (٣٣٢٥) في التفسير وقال: هذا حديث حسن غريب وسهيل ليس

قال المصنف رحمه الله تعالى:(تأمل الخمس اللواتي فى حديث عُبادة فإنك إذا جمعت بينه وبين حديث عِتبان تبين لك معنى قول: لا إله إلا الله وتبين لك خطأ المغرورين).

وفيه: أن الأنبياء يحتاجون للتنبيه على فضل لا إله إلا الله والتنبيه لرجحانها بجميع المخلوقات، مع أن كثيرًا ممن يقولها يخف ميزانه.

وفيه: إثبات الصفات خلافًا للمعطِّلة.

وفيه: أنك إذا عرفت حديث أنس وعرفت قوله فى حديث عتبان: **«إن الله حرم على النار من قال: لا إله إلا الله يبتغى بذلك وجه الله»** [(١)] تبين لك أنه ترك الشرك ليس قولها باللسان فقط. انتهى.



بالقوي في الحديث وقد تفرد سهل بهذا الحديث عن ثابت، وضعفه الشيخ ناصر الدين الألباني هناك.

(١) رواه مسلم (٣٣/ ٢٦٢) في المساجد ومواضع الصلاة.

(٢)



من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب

قال المصنف رحمه الله تعالى: (باب من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب).

ش: أي: ولا عذاب. قلت: تحقيقه: تخليصه وتصفيته من شوائب الشرك والبدع والمعاصي.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (قال الله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠]).

ش: وصف إبراهيم عليه السلام بهذه الصفات التي هي الغاية في تحقيق التوحيد:

الأولى: أنه كان أمة، أي: قدوة وإمامًا ومعلمًا للخير. وما ذاك إلا لتكميله مقام الصبر واليقين اللذين تُنال بهما الإمامة في الدين.

الثانية: قوله: ﴿قَانِتًا﴾ قال شيخ الإسلام: القنوت: دوام الطاعة، والمصلي إذا طال قيامه أو ركوعه وسجوده فهو قانت. قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٩] انتهى. ملخصًا.

الثالثة: أنه كان حنيفًا.

قلت: قال العلامة ابن القيم: الحنيف: المقبل على الله، المُعرِض عن كل ما سواه. انتهى.

الرابعة: أنه ما كان من المشركين، أي لصحة إخلاصه وكمال صدقه، وبُعده عن الشرك.

قلت : يوضح هذا قوله تعالى : ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ [الممتحنة :٤] أي : على دينه من إخوانه المرسلين ، قاله ابن جرير رحمه الله تعالى .

﴿إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [الممتحنة :٤] .

وذكر تعالى عن خليله عليه السلام أنه قال لأبيه آزر : ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ۝ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ [مريم :٤٨-٤٩] .

فهذا هو تحقيق التوحيد، وهو البراءة من الشرك وأهله واعتزالهم، والكفر بهم وعداوتهم وبغضهم . فالله المستعان .

قال المصنف رحمه الله تعالى في هذه الآية: (﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النحل :١٢٠] لئلا يستوحش سالك الطريق من قلة السالكين ﴿قَانِتًا لِّلَّهِ﴾ [النحل :١٢٠] لا للملوك ولا للتجار المترفين ﴿حَنِيفًا﴾ [النحل :١٢٠] لا يميل يمينًا ولا شمالاً ، كفعل العلماء المفتونين ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل :١٢٠] خلافا لمن كثّر سوادَهم وزعم أنه من المسلمين . انتهى) .

وقد روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النحل :١٢٠] على الإسلام . ولم يكن في زمانه أحد على الإسلام غيره [1] .

قلت : ولا منافاة بين هذا وبين ما تقدم : من أنه كان إمامًا يُقتدى به في الخير .

قال المصنف رحمه الله تعالى: (قال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾ [المؤمنون :٥٩]) .

ش: وصف المؤمنين السابقين إلى الجنة فأثنى عليهم بالصفات التي أعظمها : أنهم بربهم لا يشركون، ولما كان المرء قد يَعرض له ما يقدح في إسلامه : من شرك جلي أو خفي، نفى ذلك عنهم، وهذا هو تحقيق التوحيد، الذي حسُنت به أعمالهم

---

(١) عزاه السيوطي إلى ابن أبي حاتم عن ابن عباس كما في الدر المنثور (٤/٢٥٣) ط دار الكتب العلمية .

وكملت ونفعَتْهم .

قلت : قوله : (حسنت وكملت)، هذا باعتبار سلامتهم من الشرك الأصغر ، وأما الشرك الأكبر فلا يقال في تركه ذلك ، فتدبر . ولو قال الشارح : صحت . لكان أقوم .

قال ابن كثير : ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾ [المؤمنون :٥٩] أي لا يعبدون مع الله غيره ، بل يوحدونه ويعلمون أنه لا إله إلا الله أحد صمد ، لم يتخذ صاحبة ولا ولدًا وأنه لا نظير له .

قال المصنف رحمه الله تعالى: (عن حصين بن عبد الرحمن قال : كنت عند سعيد بن جبير فقال : أيكم رأى الكوكب الذي انقض البارحة؟ فقلت : أنا، ثم قلت : أما إني لم أكن في صلاة ولكني لُدغت ، قال : فماذا صنعت؟ قلت : ارتقيت . قال : فما حملك على ذلك؟ قلت : حديث حدثناه الشعبي ، قال : وما حدثكم؟ قلت : حدثنا عن بريدة بن الحُصَيب أنه قال : لا رقية إلا من عين أو حُمة . قال : قد أحسن من انتهى إلى ما سمع ، ولكن حدثنا ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال : «عُرضت عليّ الأمم ، فرأيت النبي ومعه الرهط ، والنبي ومعه الرجل والرجلان ، والنبي وليس معه أحد . إذ رُفع لي سواد عظيم ، فظننت أنهم أمتي ، فقيل : هذا موسى وقومه ، فنظرت فإذا سواد عظيم ، فقيل لي : هذه أمتك ومعهم سبعون ألفًا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب» . ثم نهض فدخل منزله ، فخاض الناس في أولئك ، فقال بعضهم : فلعلهم الذين صحبوا رسول الله ﷺ وقال بعضهم : فلعلهم الذين وُلدوا في الإسلام ، فلم يشركوا بالله شيئًا ، وذكروا أشياء ، فخرج عليهم رسول الله ﷺ فأخبروه ، فقال : «هم الذين لا يسترقون ، ولا يكتوون ، ولا يتطيرون ، وعلى ربهم يتوكلون» . فقام عُكّاشة بن مِحصن فقال : يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم . قال : «أنت منهم» ، ثم قام رجل آخر ، فقال : ادع الله أن يجعلني منهم . فقال : «سبقك بها عكاشة» [1]) .

ش: هكذا أورده المصنف غير معزو ، وقد رواه البخاري مختصرًا ومطولاً ، ومسلم ، واللفظ له ، والترمذي والنسائي .

---

(١) رواه البخاري (٣٤١٠) في أحاديث الأنبياء مختصرًا ، ورواه مسلم بلفظه ومتنه سواءً (٢٢٠) في الإيمان .

قوله: (عن حصين بن عبد الرحمن) هو السُّلمي، أبو الهُذيل الكوفي، ثقة، مات سنة ست وثلاثين ومائة، وله ثلاث وتسعون سنة.

وسعيد بن جبير: هو الإمام الفقيه من جلة أصحاب ابن عباس، روايته عن عائشة وأبي موسى مرسلة. وهو كوفي مولى لبني أسد، قُتل بين يدي الحجاج سنة خمس وتسعين ولم يُكمل الخمسين.

قوله: (انقض) هو بالقاف والضاد المعجمة أى: سقط. والبارحة: هى أقرب ليلة مضت. قال أبو العباس ثعلب: يقال قبل الزوال: رأيت الليلة، وبعد الزوال: رأيت البارحة، وكذا قال غيره، وهى مشتقة من برح: إذا زال.

قوله: (أما إني لم أكن فى صلاة) قال فى «مغنى اللبيب»: أما -بالفتح والتخفيف- على وجهين:

أحدهما: أن تكون حرف استفتاح بمنزلة (ألا) فإذا وقعت «أن» بعدها كُسرت.

الثانى: أن تكون بمعنى حقًّا أو أحقًّا.

وقال آخرون: هى كلمتان: الهمزة للاستفهام، وما اسم بمعنى: شيء، أى أذلك الشيء حق، فالمعنى أحق هذا؟ وهو الصواب.

وموضع (ما) النصب على الظرفية، وهذه تُفتح «أن» بعدها. انتهى.

والأنسب هنا هو الوجه الأول.

والقائل هو حصين، خاف أن يظن الحاضرون أنه رآه وهو يصلي، فنفى عن نفسه إيهام العبادة، وهذا يدل على فضل السلف وحرصهم على الإخلاص وبُعدهم عن الرياء والتزين بما ليس فيهم.

قوله: (ولكني لُدغت) بضم أوله وكسر ثانيه، قال أهل اللغة: يقال: لدغته العقرب وذوات السموم، إذا أصابته بسمها، وذلك بأن تأبره بشوكتها.

قوله: (قلت: ارتقيت) لفظ مسلم (استرقيت) أي طلبت من يرقيني.

قوله: (فما حملك على ذلك؟) فيه طلب الحجة على صحة المذهب.

قوله: (حديث حدثناه الشعبي) اسمه: عامر بن شُراحيل الهمداني ولد في خلافة عمر، وهو من ثقات التابعين وفقهائهم مات سنة ثلاث ومائة.

قوله: (عن بريدة) بضم أوله وفتح ثانيه تصغير بُردة. ابن الحصيب - بضم الحاء وفتح الصاد المهملتين - ابن الحارث الأسلمى، صحابى شهير. مات سنة ثلاث وستين. قاله ابن سعد.

قوله: (لا رقية إلا من عين أو حمة) وقد رواه أحمد وابن ماجه عنه مرفوعًا [(١)]. ورواه أحمد وأبو داود والترمذى عن عمران بن حصين به مرفوعًا [(٢)] قال الهيثمى: رجال أحمد ثقات.

والعين: هى إصابة العائن غيره بعينه. والحمة - بضم المهملة وتخفيف الميم - سم العقرب وشبهها.

قال الخطابى: ومعنى الحديث: لا رقية أشفى وأولى من رقية العين والحمة. وقد رَقى النبى ﷺ ورُقي.

قوله: (قد أحسن من انتهى إلى ما سمع) أى: من أخذ بما بلغه من العلم، وعمل به فقد أحسن بخلاف من يعمل بجهل، أو لا يعمل بما يعلم فإنه مسيء آثم. وفيه: فضيلة علم السلف وحسن أدبهم.

قوله: (ولكن حدثنا ابن عباس) هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب، ابن عم النبي ﷺ. دعا له فقال: «**اللهم فقهه فى الدين، وعلِّمه التأويل**» [(٣)] فكان كذلك.

---

(١) **صحيح**: ابن ماجه (٣٥١٣) في الطب.

(٢) **صحيح**: أبو داود (٣٨٨٤) في الطب - باب، والترمذي (٢٠٥٧) في الطب ورواه البخاري موقوفًا.

قلت: وأصله في البخاري (٥٧٤١) في الطب عن عائشة رضي الله عنها. ومسلم (٢١٩٦) في السلام عن أنس رضي الله عنه.

(٣) **صحيح الإسناد**: أحمد (١/ ٢٦٦، ٣١٤) بهذا اللفظ وله رواية عند البخاري (١٤٣) في الوضوء، ومسلم (٢٤٧٧) في فضائل الصحابة بلفظ (اللهم فقهه في الدين) وللبخاري (٧٥) في العلم بلفظ: (اللهم علِّمْه الكتاب).

مات بالطائف سنة ثمان وستين .

قال المصنف رحمه الله: (وفيه عمق علم السلف لقوله : قد أحسن من انتهى إلى ما سمع ولكن كذا وكذا . فعُلم أن الحديث الأول لا يخالف الثاني) .

قوله : (عُرضت عليَّ الأمم) وفى الترمذي والنسائي من رواية عَبْثر بن القاسم عن حصين بن عبد الرحمن أن ذلك كان ليلة الإسراء [1] قال الحافظ : فإن كان ذلك محفوظًا كان فيه قوة لمن ذهب إلى تعدد الإسراء ، وأنه وقع بالمدينة أيضًا .

قلت : وفي هذا نظر .

قوله : (فرأيت النبي ومعه الرهط) والذي فى صحيح مسلم : «**الرهيط**» بالتصغير لا غير ، وهم الجماعة دون العشرة ، قاله النووي .

قوله : (والنبى ومعه الرجل والرجلان ، والنبى وليس معه أحد) فيه الرد على من احتج بالكثرة .

قوله : (إذ رفع لي سواد عظيم) المراد به هنا : الشخص الذى يُرى من بعيد .

قوله : (فظننت أنهم أمتى) لأن الأشخاص التى تُرى فى الأفق لا يُدرك منها إلا الصورة .

وفى صحيح مسلم «**ولكن انظر إلى الأفق**» ولم يذكره المصنف ، فلعله سقط فى الأصل الذى نقل الحديث منه . والله أعلم .

قوله : (فقيل لى : هذا موسى وقومه) أي : موسى بن عمران كليم الرحمن ، وقومه : أتباعه على دينه من بني إسرائيل .

قوله : (فنظرتُ فإذا سواد عظيم فقيل لى : هذه أمتك ومعهم سبعون ألفًا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب) أي : لتحقيقهم التوحيد .

وفى رواية ابن فُضيل : (ويدخل الجنة من هؤلاء من أمتك سبعون ألفًا) وفى

---

(١) هذا ما ذكره الحافظ (١١/ ٤٠٧) في فتح الباري، والرواية عند الترمذي (٢٤٤٦) في صفة القيامة والرقائق والورع .

حديث أبي هريرة فى الصحيحين : **«أنهم تضيء وجوههم إضاءة القمر ليلة البدر»** [(١)].

وروى الإمام أحمد والبيهقي فى حديث أبى هريرة : **«فاستزدت ربي فزادني مع كل ألف سبعين ألفًا»** [(٢)]قال الحافظ : وسنده جيد .

قوله :(ثم نهض) أي : قام .

قوله :(فخاض الناس فى أولئك) هذا من العام الذي أريد به الخصوص ، أي : جملة الحاضرين ، خاض بالخاء والضاد المعجمتين .

وفى هذا :إباحة المناظرة والمباحثة في نصوص الشرع على وجه الاستفادة وبيان الحق .

وفيه :عمق علم السلف لمعرفتهم أنهم لم ينالوا ذلك إلا بعمل .

وفيه :حرصهم على الخير ، ذكره المصنف .

قوله :فقال : **«هم الذين لا يسترقون»** هكذا ثبت فى الصحيحين وهو كذلك فى حديث ابن مسعود فى (مسند أحمد) [(٣)]. وفى رواية لمسلم **«لا يرقون»** [(٤)].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى :هذه الزيادة وهْمق من الراوي ، لم يقل النبى ﷺ**«لا يرقون»** وقد قال النبي ﷺوقد سئل عن الرقى : **«من استطاع منكم أن ينفع أخاه فلينفعه»** [(٥)].

وقال :**«لا بأس بالرقى ما لم تكن شركًا»** [(٦)].

---

(١)رواه البخاري (٦٥٤٢) في الرقاق، ومسلم (٢١٦) في الإيمان.

(٢) **يشهد له السابق**: وجوّده الحافظ ابن حجر (١١/ ٤١٠) في الفتح وهو عند أحمد (٢/ ٣٥٩)، والشيخ ناصر قد صححه (١٤٨٦) في الصحيحة.

(٣) **صحيح**: أحمد (١/ ٤٠١، ٤٠٣، ٤٢٠) في المسند.

(٤)رواه مسلم (٢٢٠ / ٢٣٧) في الإيمان دون قوله: (لا يرقون)، (ولا يرقون) جملة حكم عليها الشيخ ناصر (٣٩٩٩) في صحيح الجامع بالشذوذ.

(٥)رواه مسلم (٢١٩٩/ ٦١) في السلام عن جابر رضي الله عنه.

(٦)رواه مسلم (٢٢٠٠/ ٦٤) في السلام عن عوف بن مالك رضي الله عنه.

قال: وأيضًا فقد رقى جبريل النبيﷺ [(١)] ورقى النبيﷺ أصحابه[(٢)] .

قال: والفرق بين الراقي والمسترقي: أن المسترقي سائل مستعط ملتفت إلى غير الله بقلبه، والراقي محسن!

قال: وإنما المراد: وصفُ السبعين ألفًا بتمام التوكل، فلا يسألون غيرهم أن يرقيهم ولا يكويهم. وكذا قال ابن القيم.

قوله: (ولا يكتوون) أي: لا يسألون غيرهم أن يكويهم كما لا يسألون غيرهم أن يرقيهم؛ استسلامًا للقضاء، وتلذذًا بالبلاء.

قلت: والظاهر أن قوله: «**لا يكتوون**» أعم من أن يسألوا ذلك أو يُفْعل بهم ذلك باختيارهم.

أما الكي فى نفسه فجائز، كما فى الصحيح عن جابر بن عبد الله أن النبىﷺ بعث إلى أُبيّ بن كعب طبيبًا فقطع له عرقًا وكواه[(٣)] .

وفى صحيح البخارى عن أنس: (أنه كُوي من ذات الجنب والنبىﷺ حى)[(٤)] .

وروى الترمذى وغيره عن أنس: (أن النبىﷺ كوى أسعد بن زُرارة من الشوكة)[(٥)] .

وفي صحيح البخارى عن ابن عباس مرفوعًا: «**الشفاء فى ثلاث: شربة عسل، وشرطة محجم، وكية نار، وأنا أنهى أمتي عن الكي**»[(٦)] .

وفى لفظ: «**وما أحب أن أكتوى**»[(٧)] .

(١) هذا ثابت عند مسلم (٢١٨٦/ ٤٠) في السلام عن أبي سعيد رضي الله عنه.
(٢) وهذا ثابت عند البخاري (٥٧٤٥ - ٥٧٤٦) في الطب، ومسلم (٢١٩٤) في السلام عن عائشة رضي الله عنها.
(٣) رواه مسلم (٢٢٠٧) في السلام.
(٤) رواه البخاري (٥٧١٩) في الطب.
(٥) صحيح الإسناد: الترمذي (٢٠٥٠) في الطب عن أنس رضي الله عنه وصححه الألباني هناك.
(٦) تفرد به البخاري (٥٦٨٠ - ٥٦٨١) في الطب عن ابن عباس رضي الله عنهما.
(٧) رواه البخاري (٥٦٨٣) في الطب، ومسلم (٢٢١٧) في السلام عن جابر رضي الله عنه.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: قد تضمنت أحاديث الكي أربعة أنواع:

أحدها: فعله. **والثاني**: عدم محبته. **والثالث**: الثناء على من تركه. والرابع: النهي عنه.

ولا تعارض بينها بحمد الله، فإن فعله له يدل على جوازه، وعدم محبته له لا يدل على المنع منه، وأما الثناء على تاركه فيدل على أن تركه أولى وأفضل، وأما النهي عنه فعلى سبيل الاختيار والكراهة.

قوله: (ولا يتطيرون) أي لا يتشاءمون بالطيور ونحوها. وسيأتي إن شاء الله تعالى بيان الطيرة وما يتعلق بها في بابها.

قوله: (وعلى ربهم يتوكلون) ذكر الأصلَ الجامع الذى تفرعت عنه هذه الأفعال والخصال وهو التوكل على الله، وصدقُ الالتجاء إليه، والاعتماد بالقلب عليه، الذي هو نهاية تحقيق التوحيد الذي يثمر كل مقام شريف: من المحبة والرجاء والخوف، والرضا به ربًّا وإلهًا، والرضا بقضائه.

واعلم أن الحديث لا يدل على أنهم لا يُباشرون الأسباب أصلاً، فإن مباشرة الأسباب في الجملة أمر فطري ضروري، لا انفكاك لأحد عنه، بل نفس التوكل: مباشرة لأعظم الأسباب كما قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣] أي: كافيه.

وإنما المراد: أنهم يتركون الأمور المكروهة مع حاجتهم إليها؛ توكلاً على الله تعالى، كالاكتواء والاسترقاء، فتركُهم له لكونه سببًا مكروهًا، لا سيما والمريض يتشبث -فيما يظنه سببًا لشفائه- بخيط العنكبوت.

وأما مباشرة الأسباب والتداوي على وجه لا كراهة فيه، فغير قادح في التوكل، فلا يكون تركه مشروعًا؛ لما في الصحيحين عن أبي هريرة مرفوعًا: **«ما أنزل الله من داء إلا أنزل له شفاء، علمه من علمه، وجهله من جهله»** (١).

(١) رواه البخاري (٥٦٧٨) في الطب عن أبي هريرة بلفظ: (ما أنزل الله داءً إلا أنزل له شفاءً). ومسلم (٢٢٠٤) في السلام عن جابر ولفظه (لكل داء دواء، فإذا أصيب دواء الداء برأ بإذن الله عزّ وجلّ).

وعن أسامة بن شَريك قال: كنت عند النبى ﷺ وجاءت الأعراب، فقالوا: يا رسول الله أنتداوى؟ قال: «**نعم. يا عباد الله تداووا، فإن الله عز وجل لم يضع داء إلا وضع له شفاء، غير داء واحد**». قالوا: وما هو؟ قال: «**الهرَم**» (١) رواه أحمد.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: وقد تضمنت هذه الأحاديث إثبات الأسباب والمسببات، وإبطال قول من أنكرها، والأمر بالتداوي، وأنه لا ينافي التوكل، كما لا ينافيه دفع ألم الجوع والعطش، والحر والبرد بأضدادها بل لا تتم حقيقة التوحيد إلا بمباشرة الأسباب التى نصبها الله تعالى مقتضية لمسبَّباتها قدرًا وشرعًا، وأن تعطيلها يقدح فى نفس التوكل، كما يقدح فى الأمر والحكمة، ويضعفه من حيث يظن معطلها أن تركها أقوى فى التوكل.

فإنَّ تركها عجز ينافي التوكل الذى حقيقته اعتماد القلب على الله تعالى في حصول ما ينفع العبد فى دينه ودنياه، ودفع ما يضره فى دينه ودنياه. ولا بد مع هذا الاعتماد من مباشرة الأسباب، وإلا كان معطلاً للحكمة والشرع، فلا يجعل العبد عجزه توكلاً ولا توكله عجزًا.

وقد اختلف العلماء فى التداوي: هل هو مباح، وتركه أفضل، أو مستحب أو واجب؟

فالمشهور عند أحمد: الأول؛ لهذا الحديث وما في معناه، والمشهور عند الشافعية: الثاني، حتى ذكر النووي فى شرح مسلم أنه مذهبهم ومذهب جمهور السلف وعامة الخلف.

واختاره الوزير أبو ظفر. قال: ومذهب أبي حنيفة أنه مؤكد حتى يُداني به الوجوب. قال: ومذهب مالك أنه يستوي فعلُه وتركه. فإنه قال: لا بأس بالتداوي ولا بأس بتركه.

وقان شيخ الإسلام: ليس بواجب عند جماهير الأئمة وإنما أوجبه طائفة قليلة من أصحاب الشافعي وأحمد.

---

(١) **صحيح**: الترمذي (٢٠٣٩) في الطب بترقيم الألباني وتصحيحه.

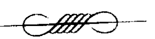
قوله: (فقام عكّاشة بن مِحصن) هو (بضم العين وتشديد الكاف)، ومحصن (بكسر الميم وسكون الحاء وفتح الصاد المهملتين) ابن حرثان - (بضم المهملة وسكون الراء بعدها مثلثة) الأسدي: من بني أسد بن خزيمة. كان من السابقين إلى الإسلام ومن أجمل الرجال، هاجر وشهد بدرًا وقاتل فيها، واستشهد فى قتال الردة مع خالد بن الوليد بيد طليحة الأسدي سنة اثنتى عشرة، ثم أسلم طليحة بعد ذلك وجاهد الفرس يوم القادسية مع سعد بن أبي وقاص، واستشهد في وقعة الجسر المشهورة.

قوله: (فقال: يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم، فقال: «**أنت منهم**» وللبخاري فى رواية: فقال: «**اللهم اجعله منهم**» وفيه: طلب الدعاء من الفاضل.

قوله: (ثم قام رجل آخر) ذكره مبهمًا فلا حاجة بنا إلى البحث عن اسمه.

قوله: (فقال: «**سبقك بها عكاشة**») قال القرطبي: لم يكن عند الثانى من الأحوال ما كان عند عكاشة، فلذلك لم يجبه؛ إذ لو أجابه لجاز أن يطلب ذلك كل من كان حاضرًا فيتسلسل الأمر، فسد الباب بقوله ذلك. انتهى.

قال المصنف رحمه الله تعالى: وفيه: استعمال المعاريض وحسن خلقه ﷺ.



(٣)



الخوف من الشرك

قال المصنف رحمه الله تعالى: (باب الخوف من الشرك).

وقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨].

ش: قال ابن كثير: أخبر تعالى أنه ﴿لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: ٤٨] أي: لا يغفر لعبد لقيه وهو مشرك ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨] أي من الذنوب لمن يشاء من عباده. انتهى.

فتبين بهذه الآية أن الشرك أعظم الذنوب؛ لأن الله تعالى أخبر أنه لا يغفره لمن لم يتب منه، وما دونه من الذنوب فهو داخل تحت المشيئة إن شاء غفره لمن لقيه به، وإن شاء عذبه به.

وذلك يوجب للعبد شدة الخوف من الشرك الذي هذا شأنه عند الله؛ لأنه أقبح القبح وأظلم الظلم، وتنقّصٌ لرب العالمين، وصرفُ خالص حقه لغيره وعدل غيره به، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١].

ولأنه مناقض للمقصود بالخلق والأمر، مناف له من كل وجه، وذلك غاية المعاندة لرب العالمين، والاستكبار عن طاعته، والذل له، والانقياد لأوامره الذي لا صلاح للعالم إلا بذلك، فمتى خلا منه خرب وقامت القيامة، كما قال ﷺ: **«لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض: الله، الله»** (١) رواه مسلم.

---

(١) رواه مسلم (١٤٨/ ٢٣٤) في الإيمان عن أنس رضي الله عنه.

ولأن الشرك تشبيه للمخلوق بالخالق تعالى وتقدس فى خصائص الإلهية : من مُلك الضر والنفع ، والعطاء والمنع ، الذى يوجب تعلق الدعاء والخوف والرجاء ، والتوكل وأنواع العبادة كلها بالله تعالى وحده . فمن علق ذلك بمخلوق فقد شبهه بالخالق وجعل من لا يملك لنفسه ضرًا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا ، شبيهًا بمن له الحمد كله ، وله الخلق كله ، وله المُلك كله ، وإليه يرجع الأمر كله ، وبيده الخير كله .

فأزمّةُ الأمور كلها بيده سبحانه ومرجعها إليه ، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع ، الذي إذا فتح للناس رحمة فلا ممسك لها ، وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم . فأقبح التشبيه تشبيه العاجز الفقير بالذات بالقادر الغني بالذات .

ومن خصائص الإلهية : الكمال المطلق من جميع الوجوه ، الذى لا نقص فيه بوجه من الوجوه . وذلك يوجب أن تكون العبادة كلها له وحده ، والتعظيم والإجلال ، والخشية والدعاء ، والرجاء والإنابة والتوكل والتوبة والاستعانة ، وغاية الحب مع غاية الذل ، كل ذلك يجب عقلاً وشرعًا وفطرة أن يكون لله وحده ، ويمتنع عقلاً وشرعًا وفطرة أن يكون لغيره .

فمن فعل شيئًا من ذلك لغيره فقد شبه ذلك الغير بمن لا شبيه له ولا مثيل له ، ولا ند له ، وذلك أقبح التشبيه وأبطلُه .

فلهذه الأمور وغيرها أخبر سبحانه وتعالى أنه لا يغفره ، مع أنه كتب على نفسه الرحمة . هذا معنى كلام ابن القيم رحمه الله تعالى .

وفى الاية ردٌّ على الخوارج المكفِّرين بالذنوب ، وعلى المعتزلة القائلين بأن أصحاب الكبائر مخلدون فى النار ، وليسوا عندهم بمؤمنين ولا كفار .

ولا يجوز أن يُحمل قوله : ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء :٤٨] على التائب ، فإن التائب من الشرك مغفور له كما قال تعالى : ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣] .

فهنا عم وأطلق؛ لأن المراد به التائب، وهناك خص وعلق، لأن المراد به من لم يتب. هذا ملخص قول شيخ الإسلام.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وقال الخليل عليه السلام: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم:٣٥]).

ش: الصنم: ما كان منحوتًا على صورة، والوثن: ما كان موضوعًا على غير ذلك. ذكره الطبري عن مجاهد [(١)].

قلت: وقد يُسمى الصنم وثنًا كما قال الخليل عليه السلام: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ [العنكبوت:١٧] الآية ويقال: إن الوثن أعم، وهو قويّ، فالأصنام أوثان، كما أن القبور أوثان.

قوله: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم:٣٥] أي: اجعلني وبنيّ فى جانب عن عبادة الأصنام، وباعِدْ بيننا وبينها. وقد استجاب الله تعالى دعاءه، وجعل بنيه أنبياء، وجنبهم عبادة الأصنام.

وقد بيّن ما يوجب الخوف من ذلك بقوله: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [إبراهيم:٣٦] فإنه هو الواقع فى كل زمان. فإذا عرف الإنسان أن كثيرًا وقعوا فى الشرك الأكبر وضلوا بعبادة الأصنام؛ أوجب ذلك خوفه من أن يقع فيما وقع فيه الكثير من الشرك الذي لا يغفره الله.

قال إبراهيم التيمي: ومن يأمن البلاء بعد إبراهيم؟ [(٢)] رواه ابن جرير وابن أبي حاتم.

فلا يأمن الوقوع فى الشرك إلا من هو جاهل به وبما يخلصه منه: من العلم بالله وبما بعث به رسوله من توحيده، والنهي عن الشرك به.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وفى الحديث: «أخوف ما أخاف عليكم الشرك

---

(١) **حسن الإسناد:** الطبري (١٣/ ٢٢٨) في التفسير.
(٢) جاء في الدر المنثور (٤/ ٢٥٨) ط العلمية: أن السيوطي عزاه إلى ابن أبي حاتم في تفسيره.

الأصغر، فسئل عنه فقال: الرياء»).

ش: أورد المصنف هذا الحديث مختصرًا غير معزو، وقد رواه الإمام أحمد والطبراني والبيهقي.

وهذا لفظ أحمد: حدثنا يونس حدثنا ليث عن يزيد - يعنى ابن الهاد - عن عمرو عن محمود بن لبيد أن رسول الله ﷺ قال: «**إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر**». قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: «**الرياء يقول الله تعالى يوم القيامة، إذا جازى الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون فى الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء؟**»[١]

قال المنذري: ومحمود بن لبيد رأى النبى ﷺ ولم يصح له منه سماع فيما أرى. وذكر ابن أبى حاتم أن البخارى قال: له صحبة، ورجّحه ابن عبد البر والحافظ.

وقد رواه الطبرانى بأسانيد جيدة عن محمود بن لبيد عن رافع بن خَديج[٢]. مات محمود سنة ست وتسعين. وقيل: سنة سبع وتسعين وله تسع وتسعون سنة.

قوله: «**إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر**» هذا من شفقته ﷺ بأمته ورحمته ورأفته بهم، فلا خير إلا دلهم عليه وأمرهم به، ولا شر إلا بينه لهم وأخبرهم به ونهاهم عنه، كما قال ﷺ فيما صح عنه: «**ما بعث الله من نبي إلا كان حقًا عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم...**»[٣] الحديث.

فإذا كان الشرك الأصغر مخوفًا على أصحاب رسول الله ﷺ مع كمال علمهم وقوة إيمانهم، فكيف لا يخافه وما فوقه من هو دونهم فى العلم والإيمان بمراتب؟ خصوصًا إذا عرف أن أكثر علماء الأمصار اليوم لا يعرفون من التوحيد إلا ما أقر به

---

(١) صحيح بشواهده: أحمد (٥/ ٤٢٨) في المسند عن محمود بن لبيد، وله شاهد عند أحمد (٢/ ٣٠١) عن شداد بن أوس، والترمذي (٣١٥٤) في التفسير عن سعيد بن أبي فضالة، وعند مسلم (٢٩٨٥) في الزهد عن أبي هريرة رضي الله عنه قريبًا من لفظه.

(٢) صحيح بشواهده: الطبراني (٤/ ٢٥٣) في الكبير.

(٣) قطعة من حديث رواه مسلم (١٨٤٤/٤٦) في الإمارة عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

المشركون، وما عرفوا معنى الإلهية التى نفتها كلمة الإخلاص عن كل ما سوى الله .

وأخرج أبو يعلى وابن المنذر [١] عن حذيفة بن اليمان عن أبي بكر عن النبي ﷺ قال : **«الشرك فيكم أخفى من دبيب النمل»** . قال أبو بكر : يا رسول الله، وهل الشرك إلا ما عبد من دون الله أو ما دُعي مع الله؟ قال : **«ثكلتك أمك، الشرك فيكم أخفى من دبيب النمل»** الحديث . وفيه : **«أن تقول : أعطاني الله وفلان، والند : أن يقول الإنسان : لولا فلان قتلني فلان . انتهى . من «الدر»** .

قال المصنف رحمه الله: (وعن ابن مسعود رضى الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : «من مات وهو يدعو من دون الله ندًا دخل النار» [٢] **رواه البخارى)** .

ش: قال ابن القيم رحمه الله : الند : الشبيه، يقال : فلان ند فلان، ونديده، أى : مثله وشبهه . انتهى . قال تعالى : ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢] .

قوله : «من مات وهو يدعو من دون الله ندًا» أي يجعل لله ندًا فى العبادة يدعوه ويسأله ويستغيث به **«دخل النار»** .

قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى :

والشرك فاحذره، فشرك ظاهر ... ذا القسم ليس بقابل الغفران
وهو اتخاذ الند للرحمن أيًا ... كان من حجر ومن إنسان
يدعوه أو يرجوه ثم يخافه ... ويحبه كمحبة الديان

واعلم أن اتخاذ الند على قسمين :

الأول : أن يجعله لله شريكًا فى أنواع العبادة أو بعضها كما تقدم، وهو شرك أكبر .

---

(١) ضعيف الإسناد : الهيثمي (١٠/ ٢٢٤) في المجمع وقال : رواه أبو يعلى من رواية ليث بن أبي سليم عن أبي محمد عن حذيفة، وليثٌ مدلس، وأبو محمد إن كان هو الذي روى عن ابن مسعود أو الذي روى عن عثمان بن عفان فقد وثقه ابن حبان، وإن كان غيرهما فلم أعرفه وبقية رجاله رجال الصحيح . قلت : وشواهده منه أضعف، فالحديث ضعيف .

(٢) رواه البخاري (٤٤٩٧) في التفسير، مسلم (٩٢/ ١٥٠) في الإيمان .

والثاني: ما كان من نوع الشرك الأصغر كقول الرجل: ما شاء الله وشئت، ولولا الله وأنت. وكيسير الرياء، فقد ثبت أن النبى ﷺ لما قال له رجل: ما شاء الله وشئت، قال: «**أجعلتنى لله ندًا؟ بل ما شاء الله وحده**» [١]. رواه أحمد وابن أبي شيبة والبخارى في «**الأدب المفرد**» والنسائي وابن ماجه. وقد تقدم حكمه فى باب فضل التوحيد.

وفيه: بيان أن دعوة غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله شرك جلي، كطلب الشفاعة من الأموات، فإنها ملك لله تعالى وبيده، ليس بيد غيره منها شيء، وهو الذي يأذن للشفيع أن يشفع فيمن لاقى الله بالإخلاص والتوحيد من أهل الكبائر، كما يأتي تقريره فى باب الشفاعة إن شاء الله تعالى.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (ولمسلم عن جابر أن رسول الله ﷺ قال: «من لقي الله لا يشرك به شيئًا دخل الجنة. ومن لقيه يشرك به شيئًا دخل النار» [٢]).

ش: جابر: هو ابن عبد الله بن عمرو بن حرام - بمهملتين - الأنصاري ثم السلمي - بفتحتين - صحابي جليل هو وأبوه، ولأبيه مناقب مشهورة رضي الله عنهما مات بالمدينة بعد السبعين، وقد كُفّ بصره، وله أربع وتسعون سنة.

قوله: «**من لقي الله لا يشرك به شيئًا**».

قال القرطبي: أى: لم يتخذ معه شريكًا فى الإلهية، ولا فى الخلق، ولا فى العبادة، ومن المعلوم من الشرع المجمع عليه عند أهل السنة: أن من مات على ذلك فلا بد له من دخول الجنة، وإن جرت عليه قبل ذلك أنواع من العذاب والمحنة. وأن من مات على الشرك لا يدخل الجنة ولا يناله من الله رحمة، ويخلد فى النار أبد الآباد، من غير انقطاع عذاب ولا تصرُّم آماد.

وقال النووي: أما دخول المشرك النار فهو على عمومه، فيدخلها ويخلَّد فيها،

---

(١) **حسن صحيح**: هكذا قال الألباني برقم (٢١١٧) في الكفارات - سنن ابن ماجه وراجع الصحيحة (١٣٦، ١٣٩، ١٠٩٣).

(٢) رواه مسلم (٩٣/ ١٥١) في الإيمان.

ولا فرق فيه بين الكتابي اليهودي والنصراني، وبين عبدة الأوثان وسائر الكفرة، ولا فرق عند أهل الحق بين الكافر عنادًا وغيره، ولا بين من خالف ملة الإسلام وبين من انتسب إليها ثم حكم بُكفره بجحده ما يكفر بجحده وغير ذلك .

وأما دخول من مات غير مشرك الجنة فهو مقطوع له به . لكن إن لم يكن صاحب كبيرة مات مُصرًّا عليها دخل الجنة أولاً، وإن كان صاحب كبيرة مات مصرًّا عليها فهو تحت المشيئة . فإن عُفي عنه دخل الجنة أولاً، وإلا عُذب في النار ثم أُخرج من النار وأُدخل الجنة .

وقال غيره: اقتصر على نفي الشرك؛ لاستدعائه التوحيد بالاقتضاء واستدعائه إثبات الرسالة باللزوم؛ إذ من كذب رسل الله فقد كذّب الله، ومن كذّب الله فهو مشرك، وهو كقولك: من توضأ صحت صلاته . أي: مع سائر الشروط، فالمراد: من مات حال كونه مؤمنًا بجميع ما يجب الإيمان به إجمالاً في الإجمالي وتفصيلاً في التفصيلي . انتهى .



(٤)



الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله

قال المصنف رحمه الله تعالى:(باب الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله).

ش: لما ذكر المصنف رحمه الله التوحيد وفضله، وما يوجب الخوف من ضده نبه بهذه الترجمة على أنه لا ينبغي لمن عرف ذلك أن يقتصر على نفسه، بل يجب عليه أن يدعو إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة، كما هو سبيل المرسلين وأتباعهم كما قال الحسن البصري لما تلا قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت:٣٣] فقال: هذا حبيب الله، هذا ولي الله، هذا صفوة الله، هذا خيرة الله، هذا أحب أهل الأرض إلى الله، أجاب الله في دعوته. ودعا الناس إلى ما أجاب الله فيه من دعوته، وعمل صالحًا في إجابته، وقال: إنني من المسلمين. هذا خليفة الله [(١)].

قال المصنف رحمه الله تعالى:(وقول الله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف:١٠٨]).

ش: قال أبو جعفر ابن جرير: يقول تعالى ذِكْره لنبيه محمد ﷺ: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿هَٰذِهِۦ﴾ الدعوة التي أدعو إليها، والطريقة التي أنا عليها: من الدعاء إلى توحيد الله، وإخلاص العبادة له دون الآلهة والأوثان. والانتهاء إلى طاعته وترك معصيته ﴿سَبِيلِىٓ﴾ طريقتي، ودعوتي ﴿أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ﴾ تعالى وحده لا شريك له ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ بذلك،

---

(١) رواه عبد الرزاق عن معمر عن الحسن، ومعمر في روايته عن البصريين - ومنهم الحسن - ضعف، فالخبر به ضعيف.

ويقينٍ علم مني به ﴿أَنَا﴾ ويدعو إليه على بصيرة أيضًا ﴿مَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ وصدقني وآمن بي ﴿وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ﴾ يقول له تعالى ذكره : وقل : تنزيهًا لله تعالى وتعظيمًا له من أن يكون له شريك فى ملكه أو معبود سواه فى سلطانه ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ يقول : وأنا بريء من أهل الشرك بهو لست منهم ولا هم منى . انتهى .

قال فى شرح المنازل: يريد أن تصل باستدلالك إلى أعلى درجات العلم، وهى البصيرة التى تكون نسبة المعلوم فيها إلى القلب كنسبة المرئي إلى البصر، وهذه هي الخصيصة التى اختص بها الصحابة عن سائر الأمة وهي أعلى درجات العلماء .

قال تعالى : ﴿قُلْ هَـٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [يوسف:١٠٨]أي : أنا وأتباعي على بصيرة . وقيل ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ عطف على المرفوع فى ﴿أَدْعُوٓا۟﴾ أى أنا أدعو إلى الله على بصيرة، ومن اتبعنى كذلك يدعو إلى الله تعالى على بصيرة، وعلى القولين : فالآية تدل على أن أتباعه هم أهل البصائر الداعون إلى الله تعالى، ومن ليس منهم فليس من أتباعه على الحقيقة والموافقة، وإن كان من أتباعه على الانتساب والدعوى .

قال المصنف رحمه الله تعالى:(فيه مسائل) :

منها : التنبيه على الإخلاص ؛ لأن كثيرًا من الناس لو دعا إلى الحق فهو يدعو إلى نفسه .

ومنها : أن البصيرة من الفرائض .

ومنها : أن من دلائل حُسن التوحيد أنه تنزيه لله تعالى عن المسبة .

ومنها : أن من قبح الشرك كونه مسبة لله تعالى .

ومنها : إبعاد المسلم عن المشركين لا يصير منهم ولو لم يشرك . انتهى .

وقال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى فى معنى قوله تعالى : ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ [النحل:١٢٥]الآية . ذكر سبحانه مراتب الدعوة وجعلها ثلاثة أقسام بحسب حال المدعو :

فإنه إما أن يكون طالبًا للحق محبًا له . مُؤثرًا له على غيره إذا عرفه، فهذا يُدعى

بالحكمة . ولا يحتاج إلى موعظة وجدال .

وإما أن يكون مشتغلاً بضد الحق لكن لو عرفه آثره واتبعه، فهذا يحتاج إلى الموعظة بالترغيب والترهيب .

وإما أن يكون معاندًا معارضًا، فهذا يُجادَل بالتي هى أحسن، فإن رجع وإلا انتقل معه إلى الجلاد إن أمكن . انتهى .

وقال أيضًا رحمة الله تعالى: والفرقُ بين حُبِّ الإمامة والدعوة إلى الله، وحب الرياسة: هو الفرقُ بين تعظيم أمر الله والنصح له، وتعظيمِ النفس والسعي في حظِّها .

فإنَّ الناصح لله المحب له، يُحبُّ أنْ يُطاع ربُّه فلا يُعصى، وأن تكون كلمته هى العليا، وأن يكون الدينُ كلُّه لله، وأن يكون العباد ممتثلين أوامره مجتنبين نواهيه .

فقد ناصح الله في عبوديته، وناصح خلقه في الدعوة إلى الله، فهو يحب الإمامة في الدين بل يسأل ربه أن يجعله للمتقين إمامًا يقتدي به المقتدون، كما اقتدى هو بالمتقين، فإذا أحب هذا العبدُ الداعي إلى الله أن يكون في أعين الناس جليلاً، وفي قلوبهم مهيبًا، وإليهم حبيبًا، وأن يكون فيهم مطاعًا، لكي يأتموا به، ويقتفوا أثر الرسول ﷺ على يديه . لم يضره ذلك بل يُحمد عليه؛ لأنه داع إلى الله، يُحب أنْ يطاع ويعبد ويوحَّد . فهو يُحب ما يكون عونًا على ذلك، وموصلاً إليه .

ولهذا ذكر الله سبحانه عباده الذين اختصهم لنفسه، وأثنى عليهم في تنزيله وأحسن جزاءهم يوم لقائه . فذكرهم بأحسن أعمالهم وأوصافهم، ثم قال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان:٧٤] فسألوه أنْ يقر أعينهم بطاعة أزواجهم وذرياتهم له سبحانه، وأن يسر قلوبهم باتباع المتقين لهم على طاعته وعبوديته .

فإنَّ الإمام والمؤتم متعاونان على طاعته ، وإنَّما سألوه ما يعاونون به المتقين على مرضاته وطاعته، وهو دعوتهم إلى الله بالإمامة في الدين، التى أساسها الصبر واليقين، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا

يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤] فسؤالهم أنْ يجعلهم أئمة للمتقين هو سؤال أنْ يهديهم ويوفقهم ويمنَّ عليهم بالعلوم النافعة والأعمال الصالحة ظاهرًا وباطنًا، التي لا تتم الإمامةُ إلاَّ بها.

وتأمَّل كيف نسبهم في هذه الآيات إلى اسم الرحمن جلَّ جلاله؛ ليعلم خلقُه أنَّ هذا إنما نالوه بفضله ورحمته، ومخض جوده ومِنَّته.

وتأمل كيف جعل جزاءهم في هذه الصورة: الغرف وهي المنازل العالية في الجنة.

وهذا لمَّا كانت الإمامةُ في الدين من الرتب العالية بل من أعلى مراتبُ يعطاها العبد في الدنيا كان جزاؤه عليها الغرف العالية في الجنة.

وهذا بخلاف طلب الرياسة، فإنَّ طالبيها يسعون في تحصيلها لينالوا بها أغراضهم: من العلوِّ في الأرض، وتعبد القلوب لهم، وميلها إليهم، ومساعدتهم لهم على جميع أغراضهم، مع كونهم عالين عليهم قاهرين لهم.

فترتب على هذا الطلب من المفاسد ما لا يعلمه إلاَّ الله: من البغي والحسد، والطغيان والحقد، والظلم، والحمية للنفس دون حق الله، وتعظيم من حقّر الله، واحتقار من أكرم الله. ولا تتم الرياسةُ الدنيوية إلاَّ بذلك، ولا تُنال إلاَّ بأضعافه من المفاسد، والرؤساء في عمى عن هذا.

فإذا كُشف الغطاء تبيَّن لهم فساد ما كانوا عليه، ولا سيما إذا حشروا في صفة الذَّر، يطؤهم أهلُ الموقف بأرجلهم؛ إهانة لهم وتحقيرًا وتصغيرًا، كما صغَّروا أمر الله، وحقروا عباده. انتهى كلامُه رحمه الله تعالى.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ لما بعث معاذًا إلى اليمن قال له: «إنك تأتي قومًا من أهل الكتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله الا الله – وفى رواية: إلى أن يوحدوا الله – فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات فى كل يوم وليلة. فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم. فإن هم أطاعوك لذلك فإياك

وكرائم أموالهم . واتق دعوة المظلوم ؛ فإنه ليس بينها وبين الله حجاب»[١] **أخرجاه)** .

ش: قال الحافظ : كان بعثُ معاذ إلى اليمن سنة عشر . قبل : حج النبى ﷺ كما ذكره المصنف - يعنى البخارى - فى أواخر المغازي وقيل : كان ذلك فى آخر سنة تسع عند منصرفه ﷺ من تبوك[٢] . رواه الواقدي بإسناده إلى كعب بن مالك . وأخرجه ابن سعد في الطبقات عنه .

واتفقوا على أنه لم يزل على اليمن إلى أن قدم فى خلافة أبى بكر رضى الله عنه ، ثم توجه إلى الشام فمات بها .

قال شيخ الإسلام : ومن فضائل معاذ رضى الله عنه : أنه ﷺ بعثه إلى اليمن مبلغًا عنه ، ومفقهًا ومعلمًا وحاكمًا .

قوله : «إنك تأتي قومًا من أهل الكتاب» قال القرطبي : يعني اليهود والنصارى ؛ لأنهم كانوا في اليمن أكثر من مشركي العرب أو أغلب ، وإنما نبه على ذلك ليتهيأ لمناظرتهم .

وقال الحافظ : هو كالتوطئة للوصية ؛ لجمع همته عليها .

قوله : «فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله» (شهادة) : رفع على أنه اسم (يكن) مؤخر . و(أول) خبرها مقدم . ويجوز العكس .

قوله : وفى رواية **«إلى أن يوحدوا الله»**[٣] هذه الرواية ثابتة فى كتاب التوحيد من صحيح البخارى . وأشار المصنف بذكر هذه الرواية إلى التنبية على معنى شهادة أن لا إله إلا الله فإن معناها توحيد الله تعالى بالعبادة ونفي عبادة ما سواه .

وفى رواية : «فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله» وذلك هو الكفر بالطاغوت والإيمان بالله ، كما قال تعالى : ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ

---

(١) رواه البخاري (١٣٩٥) في الزكاة، مسلم (١٩/ ٢٩ - ٣١) في الإيمان.

(٢) الواقدي هذا: هو محمد بن عمر بن واقد قاضي بغداد: متروك الحديث، تركه أحمد كما في التاريخ الكبير (١/ ١٧٨) وليس بثقة كما قال ابن معين والنسائي كما في طبقات الحفاظ (١/ ١٤٩).

(٣) رواه البخاري (٧٣٧٢) في التوحيد.

﴿بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ﴾ [البقرة:٢٥٦]والعروة الوثقى : هي (لا إله إلا الله) وفي رواية للبخاري فقال : **«ادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله»** [(١)].

قلت : لا بد في شهادة أن لا إله إلا الله من سبعة شروط ، لا تنفع قائلها إلا باجتماعها :

أحدها : العلم المنافي للجهل .

الثاني : اليقين المنافي للشك .

الثالث : القبول المنافي للرد .

الرابع : الانقياد المنافي للترك .

الخامس : الإخلاص المنافي للشرك .

السادس : الصدق المنافي للكذب .

السابع : المحبة المنافية لضدها .

وفيه دليل على أن التوحيد - الذي هو إخلاص العبادة لله وحده لا شريك له وترك عبادة ما سواه - هو أول واجب ، ولهذا كان أول ما دعت إليه الرسل عليهم السلام : ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۖ﴾ [المؤمنون:٣٢]وقال نوح : ﴿أَن لَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ﴾ [هود:٢٦] وفيه معنى (لا إله إلا الله) مطابقة .

قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى : ولهذا خاطب الرسلُ أممهم مخاطبة من لا شك عنده في الله ، وإنما دعَوهم إلى عبادة الله وحده لا إلى الاقرار به ؛ فقالت لهم : ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ [ابراهيم:١٠]فوجودُه سبحانه وربوبيتُه وقدرته ، أظهرُ من كل شيء على الإطلاق .

فهو أظهرُ للبصائر من الشمس للأبصار ، وأبين للعقول من كل ما تعقله وتقر بوجوده ، فما يُنكره إلاّ مكابر بلسانه ، وقلبهُ وعقله وفطرته وكلُّها تكذِّبه ، قال تعالى : ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ

(١)رواه البخاري وهو حديث الباب .

مُّسَمًّىۚ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ﴾ [الرعد: ٢] إلى آخر الآيات .

قال شيخ الإسلام: وقد عُلم بالاضطرار من دين الرسول ﷺ واتفقت عليه الأمة أن أصل الإسلام وأول ما يؤمر به الخلق: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، فبذلك يصير الكافر مسلمًا، والعدو وليًا، والمباح دمه وماله معصوم الدم والمال، ثم إن كان ذلك من قلبه فقد دخل في الإيمان وإن قاله بلسانه دون قلبه فهو في ظاهر الإسلام دون باطن الإيمان. قال: وأما إذا لم يتكلم بها مع القدرة فهو كافر باتفاق المسلمين باطنًا وظاهرًا عند سلف الأمة وأئمتها وجماهير العلماء. انتهى.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وفيه أنَّ الإنسان قد يكون عالمًا وهو لا يعرف معنى لا إله إلا الله أو يعرفه ولا يعمل به).

قلت: فما أكثر هؤلاء لا كثرهم الله تعالى!

قوله: «فإن هم أطاعوك لذلك» أي شهدوا وانقادوا لذلك

«فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات» فيه: أن الصلاة أعظم واجب بعد الشهادتين.

قال النووي ما معناه: أنه يدل على أن المطالبة بالفرائض في الدنيا لا يكون إلا بعد الإسلام، ولا يلزم من ذلك أن لا يكونوا مخاطبين بها، ويزاد في عذابهم بسببها في الآخرة، والصحيح أن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة: المأمور به والمنهي عنه. وهذا قول الأكثرين. انتهى.

قوله: «فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تُؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم» فيه دليل على أن الزكاة أوجب الأركان بعد الصلاة، وأنها تؤخذ من الأغنياء وتصرف على الفقراء، وإنما خص النبي ﷺ الفقراء: لأن حقهم في الزكاة آكد من حق بقية الأصناف الثمانية، وفيه: أن الإمام هو الذي يتولى قبض الزكاة وصرفها إما بنفسه أو نائبه، فمن امتنع من أدائها أخذت منه قهرًا.

وفي الحديث دليل على أنه يكفي إخراج الزكاة في صنف واحد، كما هو مذهب الإمام مالك وأحمد.

وفيه: أنه لا يجوز دفعها إلى غني ولا إلى كافر غير المؤلَّف، وأن الزكاة واجبة فى مال الصبى والمجنون، كما هو قول الجمهور، لعموم الحديث.

قلت: والفقير إذا أفرد فى اللفظ تناول المسكين وبالعكس، كنظائره. كما قرره شيخ الإسلام.

قوله: (فإياك وكرائم أموالهم) بنصب كرائم على التحذير، جمع كريمة، قال صاحب (المطالع): هي الجامعة للكمال الممكن في حقها، من غزارة لبن، وجمال صورة، وكثرة لحم وصوف. ذكره النووي.

قلت: وهي خيار المال، وأنْفَسُه وأكثره ثمنًا.

وفيه: أنه يحرم على العامل فى الزكاة أخذ كرائم المال، ويحرم على صاحب المال إخراج شرار المال. بل يخرج الوسط، فإن طابت نفسه بالكريمة جاز.

قوله: (واتق دعوة المظلوم) أي اجعل بينك وبينها وقاية بالعدل وترك الظلم.

وهذان الأمران يقيان مَنْ رُزِقَهما من جميع الشرور دنيا وأخرى.

وفيه: تنبيه على التحذير من جميع أنواع الظلم.

قوله: (فإنه) أي الشأن (ليس بينها وبين الله حجاب) هذه الجملة مفسرة لضمير الشأن، أي: فإنها لا تُحْجب عن الله تعالى فيقبلها.

وفى الحديث أيضًا: قبول خبر الواحد العدل، ووجوب العمل به. وبعثُ الإمامِ العمالَ لجباية الزكاة، وأنه يعظ عماله وولاته، ويأمرهم بتقوى الله تعالى، ويعلمهم، وينهاهم عن الظلم ويعرفهم سوء عاقبته. والتنبيه على التعليم بالتدريج. قاله المصنف.

قلت: ويبدأ بالأهم فالأهم.

واعلم أنه لم يذكر فى الحديث الصوم والحج، فأشكل ذلك على كثير من العلماء.

قال شيخ الإسلام: أجاب بعض الناس: أن بعض الرواة اختصر الحديث، وليس

كذلك . فإن هذا طعن فى الرواة ؛ لأن ذلك إنما يقع فى الحديث الواحد ، مثل حديث وفد عبد القيس [١] حيث ذكر بعضهم الصيام وبعضهم لم يذكره .

فأما الحديثان المنفصلان فليس الأمر فيهما كذلك ، ولكن عن هذا جوابان :

أحدهما : أن ذلك بحسب نزول الفرائض ، وأول ما فرض الله الشهادتين ثم الصلاة . فإنه أمر بالصلاة فى أول أوقات الوحي ، ولهذا لم يذكر وجوب الحج ، كعامة الأحاديث ، إنما جاء فى الأحاديث المتأخرة .

قلت : وهذا من الأحاديث المتأخرة ، ولم يُذكر فيها .

الجواب الثانى : أنه كان يذكر فى كل مقام ما يناسبه . فيذكر تارة الفرائض التى يقاتل عليها : كالصلاة والزكاة ، ويذكر تارة الصلاة والصيام لمن لم يكن عليه زكاة ، ويذكر تارة الصلاة والزكاة والصوم . فإما أن يكون قبل فرض الحج ، وإما أن يكون المخاطب بذلك لا حج عليه .

وأما الصلاة والزكاة فلهما شأن ليس لسائر الفرائض ؛ ولهذا ذكر الله تعالى فى كتابه القتال عليهما ، لأنهما عبادتان ظاهرتان ، بخلاف الصوم فإنه أمر باطن من جنس الوضوء والاغتسال من الجنابة ، ونحو ذلك مما يؤتمن عليه العبد . فإن الإنسان يمكنه أن لا ينوي الصوم وأن يأكل سرًا ، كما يمكنه أن يكتم حدثه وجنابته . وهو ﷺ يذكر فى الأعمال الظاهرة التى يقاتل الناس عليها ، ويصيرون مسلمين بفعلها . فلهذا علق ذلك بالصلاة والزكاة دون الصوم . وإن كان واجبًا كما في آيتي براءة فإن براءة نزلت بعد فرض الصيام باتفاق الناس . وكذلك لما بعث معاذًا إلى اليمن لم يذكر فى حديثه الصوم ، لأنه تبع وهو باطن ، ولا ذكر الحج لأن وجوبه خاص ليس بعام ، ولا يجب فى العمر إلا مرة . انتهى بمعناه .

قوله : (أخرجاه) أي البخارى ومسلم ، وأخرجه أيضًا أحمد ، وأبو داود ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه .

---

(١) حديث وفد بني عبد القيس رواه البخاري (٥٣) في الإيمان ، مسلم (١٧/ ٢٣ - ٢٥) في الإيمان عن ابن عباس رضي الله عنهما .

قال المصنف رحمه الله تعالى: (ولهما عن سَهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر: «لأُعطين الراية غدًا رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله، يفتح الله على يديه»، فبات الناس يدوكون ليلتهم، أيهم يُعطاها. فلما أصبحوا غدوا على رسول الله ﷺ كلهم يرجو أن يعطاها، فقال: «أين علي بن أبي طالب؟» فقيل: هو يشتكي عينيه، «فأرسلوا إليه»، فأُتي به، فبصق في عينيه ودعا له، فبرأ كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الراية، «فقال: انفذ على رِسْلِك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحدًا خير لك من حُمر النعم» [١]. يدوكون أي يخوضون).

ش: قوله: (عن سهل بن سعد) أي: ابن مالك بن خالد الأنصاري الخزرجي الساعدي، أبو العباس، صحابي شهير، وأبوه صحابي أيضًا، مات سنة ثمان وثمانين وقد جاوز المائة.

قوله: (قال يوم خيبر) أي: في غزوة خيبر وفي (الصحيحين) عن سلمة بن الأكوع، قال: كان علي رضي الله عنه قد تخلف عن النبي ﷺ في خيبر، وكان رَمِدًا، فقال: أنا أتخلف عن رسول الله ﷺ؟!! فخرج علي رضي الله عنه فلحق بالنبي ﷺ فلما كان مساء الليلة التي فتحها الله عز وجل في صباحها قال ﷺ: «لأعطين الراية - أو ليأخذن الراية - غدًا رجل يحبه الله ورسوله»، أو قال: «يحب الله ورسوله، يفتح الله على يديه». فإذا نحن بعلي وما نرجوه، فقالوا: هذا علي، فأعطاه رسول الله ﷺ الراية ففتح الله عليه [٢].

قوله: (لأعطين الراية) قال الحافظ: في رواية بريدة: «إني دافع اللواء إلى رجل يحبه الله ورسوله» [٣] وقد صرح جماعة من أهل اللغة بترادفهما.

ولكن روى أحمد، والترمذي، من حديث ابن عباس: كانت راية رسول الله ﷺ

---

(١) رواه البخاري (٢٩٤٢) في الجهاد، مسلم (٢٤٠٦) في فضائل الصحابة.
(٢) رواه البخاري (٢٩٧٥) في الجهاد، مسلم (٢٤٠٧) في فضائل الصحابة.
(٣) حسن ويشهد له السابق: أحمد (٥/ ٣٥٣) في المسند.

سوداء، ولواؤه أبيض [١] . ومثله عند الطبرانى عن بريدة [٢] . وعن ابن عدي عن أبى هريرة وزاد مكتوب فيه : لا إله إلا الله محمد رسول الله [٣] .

قوله: (يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله) فيه فضيلة عظيمة لعلي رضى الله عنه .

قال شيخ الإسلام: ليس هذا الوصف مختصًا بعلي ولا بالأئمة ، فإن الله ورسوله يحب كل مؤمن تقي يحب الله ورسوله ، لكن هذا الحديث من أحسن ما يُحْتج به على النواصب الذين لا يتولونه ، أو يكفرونه أو يفسقونه ، كالخوارج . لكن هذا الاحتجاج لا يتم على قول الرافضة الذين يجعلون النصوص الدالة على فضائل الصحابة كانت قبل ردتهم ، فإن الخوارج تقول في علي مثل ذلك ، ولكن هذا باطل ؛ فإن الله تعالى ورسوله لا يطلق مثل هذا المدح على من يعلم الله أنه يموت كافرًا .

وفيه: إثبات صفة المحبة خلافًا للجهمية ومن أخذ عنهم .

قوله: (يفتح الله على يديه) صريح فى البشارة بحصول الفتح ، فهو علم من أعلام النبوة .

قوله: (فبات الناس يدوكون ليلتهم) بنصب ليلتهم ويدوكون قال المصنف : يخوضون . أي فيمن يدفعها إليه . وفيه حرص الصحابة على الخير واهتمامهم به ، وعلو مراتبهم فى العلم والإيمان .

قوله: (أيهم يُعطاها) هو برفع «أي» على البناء ؛ لإضافتها وحذف صدر صلتها .

قوله: (فلما أصبحوا غدوا على رسول الله ﷺ كلهم يرجو أن يُعطاها) وفى رواية أبي هريرة عند مسلم أن عمر قال : (ما أحببت الإمارة إلا يومئذ) [٤] .

قال شيخ الإسلام: إن فى ذلك شهادة النبى ﷺ لعلي بإيمانه باطنًا وظاهرًا ، وإثباتًا

---

(١) **حسن**: الترمذي (١٦٨١) في الجهاد وحسنه الألباني هناك .

(٢) **إسناده ضعيف**: الطبراني (١٢٩٠٩) في الكبير وفيه حبان بن عبيد الله بن حبان وهو مختلف فيه .

(٣) **ضعيف، ويشهد له السابق**: ابن عدي (٢/ ٢٤١) في الكامل فى الضعفاء .

(٤) رواه مسلم (٢٤٠٥) في فضائل الصحابة عن أبي هريرة رضي الله عنه .

لموالاته لله تعالى ورسوله ووجوب موالاة المؤمنين له . وإذا شهد النبى ﷺ لمعين بشهادة ، أو دعا له أحب كثير من الناس أن يكون له مثل تلك الشهادة ، ومثل ذلك الدعاء ، وإن كان النبى ﷺ يشهد بذلك لخلق كثير ويدعو لخلق كثير ، وهذا كالشهادة بالجنة لثابت بن قيس [(١)] . وعبد الله بن سلام [(٢)] -وإن كان شهد بالجنة لآخرين- والشهادة بمحبة الله ورسوله للذي ضُرب فى الخمر [(٣)] .

قوله : (فقال أين علي بن أبى طالب) فيه سؤال الإمام عن رعيته ، وتفقد أحوالهم .

قوله : (فقيل : هو يشتكي عينيه) أي من الرمد ، كما فى (صحيح مسلم) عن سعد بن أبي وقاص ، فقال : **«ادعوا لي عليًا» فأُتي** به أرمد . . . الحديث [(٤)] .

وفى نسخة صحيحة بخط المصنف : فقيل هو يشتكي عينيه ، فأُرسل إليه مبني للفاعل ، وهو ضمير مستتر في الفعل راجع إلى النبى ﷺ ويحتمل أن يكون مبنيًا لما لم يسم فاعله . ولمسلم من طريق إياس بن سلمة بن الأكوع عن أبيه قال : فأرسلنى إلى علي فجئت به أقوده أرمد [(٥)] .

قوله : (فبصق) بفتح الصاد ، أي : تفل .

وقوله : (ودعا له فبرأ) هو بفتح الراء والهمزة ، أي : عُوفي في الحال عافية كاملة ، كأن لم يكن به وجع من رمد ، ولا ضعف بصر .

وعند الطبراني ، من حديث علي : **«فما رمدتُ ولا صُدِّعت منذ دفع النبي ﷺ إليَّ الراية»** [(٦)] .

---

(١) رواه مسلم (١١٩/ ١٨٧) في الإيمان عن أنس رضي الله عنه .
(٢) رواه البخاري (٣٨١٣) في مناقب الأنصار ، مسلم (٢٤٨٤/ ١٤٨ - ١٥٠) في فضائل الصحابة عن عبد الله بن سلام رضي الله عنه .
(٣) رواه البخاري (٦٧٨٠) في الحدود عن عمر رضي الله عنه .
(٤) سبق تخريجه عند مسلم .
(٥) رواه مسلم (١٨٠٧) في الجهاد .
(٦) **حسن الإسناد :** الهيثمي (٩/ ١٢٢) في المجمع وقال : رواه أبو يعلى وأحمد باختصار ورجالهما رجال الصحيح غير أم موسى وحديثها مستقيم .

وفيه دليل على الشهادتين .

قوله : (فأعطاه الراية) . قال المصنف رحمه الله تعالى : فيه : الإيمان بالقدر ؛ لحصولها لمن لم يَسْعَ ومنعها عمن سعى .

وفيه : أن فعل الأسباب المباحة أو الواجبة أو المستحبة لا يُنافي التوكل .

قوله : (فقال : «**انفذ على رسلك**») بضم الفاء -أي امض . ورسلك- بكسر الراء وسكون السين- أي على رفقك من غير عجلة . وساحتهم : فناء أرضهم وهو ما حولها .

وفيه : الأدب عند القتال ، وترك العجلة والطيش ، والأصوات التى لا حاجة إليها .

وفيه : أمر الإمام عمَّاله بالرفق من غير ضعف ولا انتقاض عزيمة ، كما يشير إليه قوله : «**حتى تنزل بساحتهم**» .

قوله : (ثم ادعهم إلى الإسلام) أي : الذي هو معنى : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ، وإن شئت قلت : الإسلام : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله ، وما اقتضته الشهادتان من إخلاص العبادة لله وحده ، وإخلاص الطاعة لرسوله ﷺ، ومن هنا طابق الحديث الترجمة ؛ كما قال تعالى لنبيه ورسوله : ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤] .

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى : والإسلام هو الاستسلام لله ، وهو الخضوع له والعبودية له . كذا قال أهل اللغة .

وقال رحمه الله تعالى : ودين الإسلام الذي ارتضاه الله ، وبعث به رسله : هو الاستسلام له وحده -فأصله فى القلب- والخضوع له وحده بعبادته وحده دون ما سواه . فمن عبده وعبد معه إلهًا آخر لم يكن مسلمًا . ومن استكبر عن عبادته لم يكن مسلمًا، وفى الأصل : هو من باب العمل ، عمل القلب والجوارح . وأما الإيمان فأصله : تصديق القلب ، وإقراره ومعرفته ، فهو من باب قول القلب المتضمن عمل القلب . انتهى .

فتبين أن أصل الإسلام: هو التوحيد ونفي الشرك في العبادة، وهو دعوة جميع المرسلين، وهو الاستسلام لله تعالى بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة فيما أمرهم به على ألسن رسله، كما قال تعالى عن نوح أول رسول أرسله: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾ [نوح: ٣].

وفيه: مشروعية الدعوة قبل القتال، لكن إن كانوا قد بلغتهم الدعوة جاز قتالهم ابتداء؛ لأن النبي ﷺ أغار على بني المصطلق [١] وهم غارُّون، وإن كانوا لم تبلغهم الدعوة وجبت دعوتهم.

قوله: (وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه) أي في الإسلام، إذا أجابوك إليه فأخبرهم بما يجب من حقوقه التي لا بد لهم من فعلها، كالصلوات والزكاة، كما في حديث أبي هريرة: «**فإذا فعلوا ذلك فقد منعوا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها**»، ولما قال عمر لأبي بكر في قتاله مانعي الزكاة: كيف تقاتل الناس، وقد قال رسول الله ﷺ: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله. فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها**» قال أبو بكر: فإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عَناقًا كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها [٢].

وفيه: بعثُ الإمام الدعاة إلى الله تعالى، كما كان النبي ﷺ وخلفاؤه الراشدون يفعلون؛ كما في (المسند) عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال في خطبته: ألا إني والله ما أُرسل عمالي إليكم ليضربوا أبشاركم ولا ليأخذوا أموالكم. ولكن أُرسلهم إليكم ليعلموكم دينكم وسننكم [٣].

قوله: (فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحدًا خير لك من حمر النعم) أن: مصدرية واللام قبلها مفتوحة لأنها لام القسم. وأن والفعل بعدها في تأويل مصدر،

---

(١) الحديث عند البخاري (٢٥٤١) في العتق، مسلم (١٧٣٠/ ١) في الجهاد عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) رواه البخاري (١٣٩٩) في الزكاة، مسلم (٢٠) في الإيمان.

(٣) حسّن العلامة شاكر هذا الأثر في المسند (١/ ٤١) برقم (٢٨٦) وقال: (أبو فراس النهدي) وفي الميزان: أنه لا يعرف، وفي التقريب: مقبول. ويرحمه الله فإن الهيثمي (٥/ ٢١١) قد ضعف الأثر وأعلّه بأبي فراس.

رُفع على الابتداء والخبر خير وحمر -بضم المهملة وسكون الميم- جمع أحمر . والنعم -بفتح النون والعين المهملة- أي خير لك من الإبل الحمر ، وهي أنفس أموال العرب .

قال النووي : وتشبيه أمور الآخرة بأمور الدنيا إنما هو للتقريب إلى الأفهام ، وإلا فذرة من الآخرة خير من الأرض بأسرها ، وأمثالها معها .

وفيه : فضيلة من اهتدى على يديه رجل واحد ، وجواز الحلف على الخبر والفتيا ولو لم يستحلف .



(٥)



تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله

قال المصنف رحمه الله تعالى: (باب - تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله).

ش: أراد المصنف رحمه الله تعالى بهذه الترجمة، وما بعدها من الآيات والحديث: أن يزيد هذا المقام بيانًا وإيضاحًا، وإلا فقد تقدم في الآيات والأحاديث ما يفسر لا إله إلا الله، وما دلت عليه من التوحيد ونفى الشرك والتنديد.

قلت: هذا من عطف الدال على المدلول.

فإن قيل: قد تقدم في أول الكتاب من الآيات ما يبين معنى «لا إله إلا الله» وما تضمنته من التوحيد كقوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣] وسابقها ولاحقها، وكذلك ما ذكره في الأبواب بعدها، فما فائدة هذه الترجمة؟

قيل: هذه الآيات المذكورات في هذا الباب فيها مزيد بيان بخصوصها لمعنى كلمة الإخلاص وما دلت عليه: من توحيد العبادة. وفيها: الحجة على من تعلق من الأنبياء والصالحين يدعوهم ويسألهم. لأن ذلك هو سبب نزول بعض هذه الآيات، كالآية الأولى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ [الإسراء: ٥٦] أكثر المفسرين على أنها نزلت فيمن يعبد المسيح وأمه، والعزير والملائكة، وقد نهى الله عن ذلك أشد النهى، كما في هذه الآية من التهديد والوعيد على ذلك.

وهذا يدل على أن دعاءهم من دون الله شرك بالله، ينافي التوحيد وينافي شهادة أن لا إله إلا الله، فإن التوحيد أن لا يدعى إلا الله وحده. وكلمة الإخلاص نفت هذا

الشرك، لأن دعوة غير الله تأليه وعبادة له. و«**الدعاء مخ العبادة**» (١).

وفي هذه الآية: أن المدعو لا يملك لداعيه كشف ضرر ولا تحويله من مكان إلى مكان، ولا من صفة إلى صفة. ولو كان المدعو نبيًّا أو ملكًا، وهذا يقرر بطلان دعوة كل مدعو من دون الله كائنًا من كان، لأن دعوته تكون داعية أحوج ما كان إليها، لأنه أشرك مع الله من لا ينفعه ولا يضره. وهذه الآية تقرر التوحيد، ومعنى لا إله إلا الله.

وقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ [الإسراء:٥٧] يبين أن هذا سبيل الأنبياء والمرسلين ومن تبعهم من المؤمنين، قال قتادة: «تقربوا إليه بطاعته والعمل بما يرضيه» وقرأ ابن زيد: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ [الإسراء:٥٧] قال العماد ابن كثير: وهذا لا خلاف فيه بين المفسرين. وذكره عن عدة من أئمة التفسير.

قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى: في هذه الآية ذكر المقامات الثلاث: الحب، وهو ابتغاء التقرب إليه. والتوسل إليه بالأعمال الصالحة. والرجاء والخوف. وهذا هو حقيقة التوحيد وحقيقة دين الإسلام كما في المسند عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده أنه قال للنبي ﷺ: والله يا رسول الله ما أتيتك إلا بعد ما حلفت عدد أصابعي هذه: أن لا آتيك. فبالذي بعثك بالحق، ما بعثك به؟ قال: «الإسلام». قال: وما الإسلام؟ قال: «**أن تسلم قلبك وأن توجه وجهك إلى الله، وأن تصلي الصلوات المكتوبة، وتؤدي الزكاة المفروضة**» (٢). وأخرج محمد بن نصر المروزي من حديث خالد بن معدان عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن للإسلام صُوًى ومنارًا كمنار الطريق**» (٣). من ذلك أن تعبد الله ولا تشرك به شيئًا وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة

---

(١) **ضعيف**: الترمذي (٣٣٧١) في التفسير، وفيه عنعنة الوليد بن مسلم، وضعف عبد الله بن لهيعة المصري، وضعفه الألباني، وصحّ بلفظ (الدعاء هو العبادة) كما رواه الترمذي (٣٣٧٢) في التفسير عن النعمان رضي الله عنه.

(٢) **حسن**: النسائي (٥/ ٤، ٨٢) وأحمد (٤/ ٤٤٦) عن معاوية بن حيدة رضي الله عنه.

(٣) **صحيح الإسناد**: أبو نعيم (٥/ ٢١٧، ٢١٨) في الحلية، ابن نصر المروزي (٤٠٥) في تعظيم قدر الصلاة - ط - مكتبة العلم، وله شواهد كثيرة يتقوى بها، وصححه الشيخ ناصر الألباني (٣٣٣) في الصحيحة.

وتصوم رمضان، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [لقمان: ٢٢].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ۝ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ﴾ [الزخرف: ٢٦-٢٨] أي لا إله إلا الله.

فتدبر كيف عبر الخليل عليه السلام عن هذه الكلمة العظيمة بمعناها الذي دلت عليه. ووضعت له من البراءة من كل ما يعبد من دون الله من المعبودات الموجودة في الخارج: كالكواكب والهياكل والأصنام التي صورها قوم نوح على صور الصالحين: ودّ وسواع ويغوث ويعوق ونسر، وغيرها من الأوثان والأنداد التي كان يعبدها المشركون بأعيانها، ولم يستثن من جميع المعبودات إلا الذي فطره، وهو الله وحده لا شريك له، فهذا هو الذي دلت عليه كلمة الإخلاص. كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَـٰطِلُ﴾ [الحج: ٦٢] فكل عبادة يقصد بها غير الله: من دعاء وغيره فهي باطلة، وهي الشرك الذي لا يغفره الله، قال تعالى: ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ۝ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [غافر: ٧٣-٧٤].

وقوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ [التوبة: ٣١].

وفي الحديث الصحيح أن النبي ﷺ تلا هذه الآية على عدي بن حاتم الطائي فقال: يا رسول الله، لسنا نعبدهم. قال: «**أليس يحلون لكم ما حرم الله فتحلونه، ويحرمون ما أحل الله فتحرمونه؟**» قال: بلى. قال النبي ﷺ: «**فتلك عبادتهم**» (١).

فصارت طاعتهم في المعصية عبادة لغير الله وبها اتخذوهم أربابًا، كما هو الواقع

فائدة: الصُّوى: ج (صُوّة) وهو حجر يكون علامة في الطريق - القاموس المحيط.

(١) **حسن بشواهده**: الترمذي (٣٠٩٥) في التفسير، وقال: غريب لا نعرفه إلاّ من حديث عبد السلام بن حرب، وغُطيف بن أعين ليس بمعروف في الحديث وحسنه الألباني هناك ص (٦٩٤) ط- الرياض. ولكن الحديث مشهور عند أهل التفسير والسِّيَر.

في هذه الأمة، وهذا من الشرك الأكبر المنافي للتوحيد الذي هو مدلول شهادة لا إله إلا الله.

فتبين بهذه الآية أن كلمة الإخلاص نفت هذا كله لمنافاته لمدلول هذه الكلمة. فأثبتوا ما نفته من الشرك وتركوا ما أثبتته من التوحيد.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] فكل من اتخذ ندًّا لله يدعوه من دون الله ويرغب إليه ويرجوه لما يؤمله منه من قضاء حاجاته وتفريج كرباته - كحال عُبَّاد القبور والطواغيت والأصنام - فلا بد أن يعظموهم ويحبوهم لذلك، فإنهم أحبوهم مع الله وإن كانوا يحبون الله تعالى.

ويقولون «لا إله إلا الله» ويصلون ويصومون، فقد أشركوا بالله فى المحبة بمحبة غيره وعبادة غيره، فاتخاذهم الأنداد يحبونهم كحب الله يبطل كل قول يقولونه وكل عمل يعملونه، لأن المشرك لا يقبل منه عمل، ولا يصح منه، وهؤلاء وإن قالوا لا إله إلا الله فقد تركوا كل قيد قيدت به هذه الكلمة العظيمة: من العلم بمدلولها، لأن المشرك جاهل بمعناها، ومن جهله بمعناها جعل الله شريكًا في المحبة وغيرها، وهذا هو الجهل المنافي للعلم بما دلت عليه من الإخلاص: ولم يكن صادقًا في قولها: لأنه لم ينف ما نفته من الشرك، ولم يثبت ما أثبتته من الإخلاص وترك اليقين أيضًا، لأنه لو عرف معناها وما دلت عليه لأنكره أو شك فيه، ولم يقبله وهو الحق، ولكن يكفر بما يعبد من دون الله، كما في الحديث، بل آمن بما يعبد من دون الله باتخاذه الند ومحبته له وعبادته إياه من دون الله كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] لأنهم أخلصوا له الحب فلم يحبوا إلا إياه، ويحبون من أحب ويخلصون أعمالهم جميعًا لله، ويكفرون بما عبد من دون الله. فبهذا يتبين لمن وفقه الله تعالى لمعرفة الحق وقبوله دلالة هذه الآيات العظيمة على معنى شهادة أن لا إله إلا الله، وعلى التوحيد الذي هو معناها الذي دعا إليه جميع المرسلين. فتدبر.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾ [الإسراء: ٥٧]).

ش: يتبين معنى هذه الآية بذكر ما قبلها، وهو قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن

دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾[الإسراء:٥٦] .

قال ابن كثير رحمه الله : يقول تعالى ﴿قُلِ﴾ يا محمد للمشركين الذين عبدوا غير الله ﴿ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾[الإسراء:٥٦] من الأصنام والأنداد وارغبوا إليهم، فإنهم لا ﴿يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ﴾[الإسراء:٥٦] أي بالكلية ﴿وَلَا تَحْوِيلًا﴾[الإسراء:٥٦] أي : ولا يحولوه إلى غيركم .

فإن الذي يقدر على ذلك هو الله وحده لا شريك له ، الذي له الخلق والأمر .

قال العوفي عن ابن عباس فى الآية : كان أهل الشرك يقولون : نعبد الملائكة والمسيح وعزيرًا[1] ، وهم الذين يدعون .

وروى البخاري -فى الآية- عن ابن مسعود ، رضى الله عنه قال : ناس من الجن كانوا يعبدون فأسلموا . وفى رواية : كان ناس من الإنس يعبدون ناسًا من الجن فأسلم الجن وتمسك هؤلاء بدينهم[2] .

وقول ابن مسعود هذا يدل على أن الوسيلة هى الإسلام ، وهو كذلك على كلا القولين .

وقال السدي عن أبي صالح عن ابن عباس فى الآية قال : عيسى وأمه وعزير[3] .

وقال مغيرة عن إبراهيم : كان ابن عباس يقول فى هذه الآية : هم عيسى وعزير والشمس والقمر[4] .

وقال مجاهد : عيسى وعزير والملائكة[5] .

---

(١) الأثر ضعيف جدًا . محمد بن سعد العوفي سنده مسلسل بالضعفاء والمجاهيل وراجع ابن كثير (٣/ ٤٦) .

(٢) رواه البخاري (٤/ ٤٧) في التفسير ، مسلم (٣٠٣٠/ ٢٨ - ٢٩) في التفسير .

(٣) ضعيف الإسناد : وهذا سند ضعيف ضمن الأسانيد الواردة عن ابن عباس رضي الله عنهما ، انظر الطبري (١٥/ ١٠٥ - ١٠٦) .

(٤) ضعيف : الطبري (١٥/ ١٠٦) في تفسيره وفيه محمد بن حميد ضعيف .

(٥) حسن : الطبري (١٥/ ١٠٦) .

وقوله: (﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ [الإسراء: ٥٧]) لا تتم العبادة إلا بالخوف والرجاء، فكل داع دعاء عبادة أو استغاثة لا بد له من ذلك، فإما أن يكون خائفًا وإما أن يكون راجيًا، وإما أن يجتمع فيه الوصفان.

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى، في هذه الآية الكريمة، لما ذكر أقوال المفسرين: وهذه الأقوال كلها حق، فإن الآية تعم من كان معبوده عابدًا لله، سواء كان من الملائكة أو من الجن أو من البشر. والسلف في تفسيرهم: يذكرون تفسير جنس المراد بالآية على نوع التمثيل، كما يقول الترجمان لمن سأله: ما معنى الخبز؟ فيريه رغيفًا، فيقول هذا، فالإشارة إلى نوعه لا إلى عينه، وليس مرادهم من هذا تخصيص نوع من شمول الآية.

فالآية خطاب لكل من دعا من دون الله مدعوًّا، وذلك المدعو يبتغي إلى الله الوسيلة ويرجو رحمته ويخاف عذابه، فكل من دعا ميتًا أو غائبًا من الأولياء والصالحين سواء كان بلفظ الاستغاثة أو غيرها فقد تناولته هذه الآية الكريمة، كما تتناول من دعا الملائكة والجن، فقد نهى الله تعالى عن دعائهم، وبين أنهم لا يملكون كشف الضر عن الداعين ولا تحويله، ولا يرفعونه بالكلية ولا يحولونه من موضع إلى موضع، كتغيير صفته أو قدره، ولهذا قال: ﴿وَلَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٥٦] فذكر نكرة تعم أنواع التحويل.

فكل من دعا ميتًا أو غائبًا من الأنبياء والصالحين أو دعا الملائكة فقد دعا من لا يغيثه ولا يملك كشف الضر عنه ولا تحويله انتهى.

وفي هذه الآية رد على من يدعو صالحًا ويقول: أنا لا أشرك بالله شيئًا، الشرك عبادة الأصنام.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝٢٦ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ۝٢٧ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٢٦-٢٨] **الآية**).

ش: قال ابن كثير: يقول تعالى مخبرًا عن عبده ورسوله وخليله إمام الحنفاء، ووالد من بعث بعده من الأنبياء، الذي تنتسب إليه قريش في نسبها ومذهبها: إنه تبرأ

من أبيه وقومه في عبادتهم الأوثان فقال: ﴿إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ۝ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ﴾ [الزخرف: ٢٦- ٢٨] أي هذه الكلمة وهي عبادة الله وحده لا شريك له. وخلع ما سواه من الأوثان، وهي لا إله إلا الله جعلها في ذريته، يقتدي به فيها مَنْ هداه الله من ذرية إبراهيم عليه السلام ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي: إليها.

قال عكرمة، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، والسدي، وغيرهم في قوله: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ﴾ [الزخرف: ٢٨] يعني لا إله إلا الله لا يزال في ذريته من يقولها [(١)].

وروى ابن جرير عن قتادة ﴿إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ [الزخرف: ٢٦-٢٧] قال: كانوا يقولون: إن الله ربنا ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧] فلم يبرأ من ربه [(٢)] رواه عبد بن حميد.

وروى ابن جرير وابن المنذر عن قتادة ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ﴾ [الزخرف: ٢٨] قال: الإخلاص والتوحيد لا يزال في ذريته من يعبد الله ويوحده [(٣)].

قلت: فتبين أن معنى لا إله إلا الله توحيد العبادة بإخلاص العبادة له والبراءة من كل ما سواه.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وذكر سبحانه أن هذه البراءة وهذه الموالاة، هي شهادة أن لا إله إلا الله).

وفي هذا المعنى، يقول العلامة الحافظ ابن القيم رحمه الله في الكافية الشافية:

وإذا تولاه امرؤ دون الورى   طرا تولاه العظيم الشان

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وقوله: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ

---

(١) ينظر تفسير ابن كثير (٤/ ١٢٦).

(٢) حسن: الطبري (٢٥/ ٦٢) في تفسيره.

(٣) حسن: السابق (٢٥/ ٦٣) في تفسيره.

﴿سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١] (الآية).

ش: الأحبار هم العلماء والرهبان هم العباد.

وهذه الآية قد فسرها رسول الله ﷺ لعدي بن حاتم، وذلك أنه لما جاء مسلمًا دخل على رسول الله ﷺ فقرأ عليه هذه الآية. قال: فقلت: إنهم لم يعبدوهم. فقال: «**بلى: إنهم حرموا عليهم الحلال وحللوا لهم الحرام فاتبعوهم، فذلك عبادتهم إياهم**»[1] رواه أحمد، والترمذي، وحسنه، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم، والطبراني، من طرق.

قال السدي: استنصحوا الرجال، ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم.

ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١] فإن الحلال ما أحله الله، والحرام ما حرمه الله، والدين ما شرعه الله تعالى.

فظهر بهذا أن **الآية دلت**: على أن من أطاع غير الله ورسوله، وأعرض عن الأخذ بالكتاب والسنة في تحليل ما حرم الله، أو تحريم ما أحله الله، وأطاعه في معصية الله، واتبعه فيما لم يأذن به الله، فقد اتخذه ربًا ومعبودًا وجعله لله شريكًا، وذلك ينافي التوحيد الذي هو دين الله الذي دلت عليه كلمة الإخلاص لا إله إلا الله فإن الإله هو المعبود، وقد سمى الله تعالى طاعتهم عبادة لهم، وسماهم أربابًا كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا﴾ [آل عمران: ٨٠] أي: شركاء لله تعالى في العبادة ﴿أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٨٠]. فكل معبود رب، وكل مطاع ومتبع على غير ما شرعه الله ورسوله فقد اتخذه المطيع المتبع ربًا ومعبودًا، كما قال تعالى في آية الأنعام: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١] وهذا هو وجه مطابقة الآية للترجمة.

ويشبه هذه الآية في المعنى قوله تعالى ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١] والله أعلم.

---

(١) انظر ما قبل ثمانية تخريجات وقد حسّناه هناك.

قال شيخ الإسلام في معنى قوله: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١] وهؤلاء الذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا -حيث أطاعوهم في تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل الله يكونون على وجهين:

أحدهما: أن يعلموا أنهم بدلوا دين الله فيتبعونهم على هذا التبديل، فيعتقدون تحليل ما حرم الله أو تحريم ما أحل الله، اتباعًا لرؤسائهم، مع علمهم أنهم خالفوا دين الرسل. فهذا كفر، وقد جعله الله ورسوله شركًا، وإن لم يكونوا يصلون لهم ويسجدون لهم. فكان من اتبع غيره في خلاف الدين -مع علمه أنه خلاف للدين- واعتقد ما قاله ذلك دون ما قاله الله ورسوله، مشركًا مثل هؤلاء.

الثاني: أن يكون اعتقادهم وإيمانهم بتحريم الحرام وتحليل الحلال ثابتًا، لكنهم أطاعوهم في معصية الله، كما يفعل المسلم ما يفعله من المعاصي التي يعتقد أنها معاص.

فهؤلاء لهم حكم أمثالهم من أهل الذنوب؛ كما قد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**إنما الطاعة في المعروف**»(١).

ثم ذلك المحرم للحلال والمحلل للحرام؛ إن كان مجتهدًا قصده اتباع الرسول لكن خفي عليه الحق في نفس الأمر وقد اتقى الله ما استطاع، فهذا لا يؤاخذه الله بخطئه بل يثيبه على اجتهاده الذي أطاع به ربه.

ولكن من علم أن هذا أخطأ فيما جاء به الرسول ثم اتبعه على خطئه وعدل عن قول الرسول. فهذا له نصيب من هذا الشرك الذي ذمه الله، لا سيما إن اتبع ذلك هواه ونصره باليد واللسان، مع علمه أنه مخالف للرسول. فهذا شرك يستحق صاحبه العقوبة عليه.

ولهذا اتفق العلماء على أنه إذا عرف الحق لا يجوز تقليد أحد في خلافه، وإنما تنازعوا في جواز التقليد للقادر على الاستدلال.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الأحكام، باب: السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية، برقم (٧١٤٥)، ومسلم، برقم (١٨٤٠).

وإن كان عاجزًا عن إظهار الحق الذي يعلمه . فهذا يكون كمن عرف أن دين الإسلام حق وهو بين النصارى ، فإذا فعل ما يقدر عليه من الحق لا يؤاخذ بما عجز عنه ؛ وهؤلاء كالنجاشي وغيره . وقد أنزل الله في هؤلاء الآيات من كتابه كقوله تعالى : ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ﴾ [آل عمران :١٩٩] وقوله : ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ [المائدة :٨٣] الآية وقوله ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف :١٥٩] . وأما إن كان المتبع للمجتهد عاجزًا عن معرفة الحق على التفصيل وقد فعل ما يقدر عليه مثله : من الاجتهاد في التقليد ، فهذا لا يؤاخذ إن أخطأ كما في القِبْلة .

وأما من قلد شخصًا دون نظيره بمجرد هواه ، ونصره بيده ولسانه من غير علم أن معه الحق ، فهذا من أهل الجاهلية ، وإن كان متبوعه مصيبًا لم يكن عمله صالحًا ، وإن كان متبوعه مخطئًا كان آثمًا . كمن قال في القرآن برأيه ، فإن أصاب فقد أخطأ ، وإن أخطأ فليتبوأ مقعده من النار [(١)] .

وهؤلاء من جنس مانع الزكاة الذي تقدم فيه الوعيد ، ومن جنس عبد الدينار والدرهم والقطيفة والخميصة ، فإن ذلك لما أحب المال منعه من عبادة الله وطاعته وصار عبدًا له ، وكذلك هؤلاء فيكون فيهم شرك أصغر ، ولهم من الوعيد بحسب ذلك ، وفي الحديث : «**إن يسير الرياء شرك**» [(٢)] . وهذا مبسوط عند النصوص التي فيها إطلاق الكفر والشرك على كثير الذنوب . انتهى .

وقال أبو جعفر بن جرير فى معنى قول الله تعالى : ﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا﴾ [فصلت :٩] أي وتجعلون لمن خلق ذلك الأنداد وهم الأكفاء من الرجال تطيعونهم فى معاصى الله [(٣)] . انتهى .

قلت : كما هو الواقع من كثير ومن عُبَّاد القبور .

---

(١) ذكره الطبري من كلامه هو (٢٤/ ٩٥) في تفسيره للآية . وبسنده عن مرة والسُّدى عن عبد الله بن مسعود وابن عباس وناس من الصحابة كما في تفسيره (١/ ١٦٣) .

(٢) سبق تخريجه في الصحيحين .

(٣) حسن : الطبري (٢/ ٦٦) في تفسيره .

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة:١٦٥] الآية).

ش: قال العماد ابن كثير رحمه الله: يذكر الله تعالى حال المشركين به في الدنيا ومآلهم في الدار الآخرة، حيث جعلوا لله أندادًا، أي أمثالاً ونظراء يعبدونهم معه ويحبونهم كحبه، وهو الله لا إله إلا هو، ولا ضد له ولا ند له، ولا شريك معه.

وفي (الصحيحين) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله؟ أي الذنب أعظم؟ قال: **«أن تجعل لله ندًا وهو خلقك»**.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة:١٦٥] ولحبهم لله تعالى وتمام معرفتهم به وتوقيرهم وتوحيدهم لا يشركون به شيئًا. بل يعبدونه وحده ويتوكلون عليه، ويلجئون في جميع أمورهم إليه.

ثم توعد تعالى المشركين به، الظالمين لأنفسهم بذلك. فقال تعالى: ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [البقرة:١٦٥] قال بعضهم: تقدير الكلام: لو عاينوا العذاب لعلموا حينئذ أن القوة لله جميعًا، أي أن الحكم له وحده لا شريك له، فإن جميع الأشياء تحت قهره وغلبته وسلطانه ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ﴾ [البقرة:١٦٥] كما قال تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ [الفجر:٢٥-٢٦] يقول: لو علموا ما يعانون هناك وما يحل بهم من الأمر الفظيع المنكر الهائل على شركهم وكفرهم لانتهوا عما هم فيه من الضلال.

ثم أخبر عن كفرهم بأعوانهم وتبرؤ المتبوعين من التابعين، فقال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟﴾ [البقرة:١٦٦] تبرأت منهم الملائكة الذين كانوا يزعمون أنهم يعبدونهم في الدنيا، فتقول الملائكة ﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ [القصص:٦٣] ويقولون ﴿سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبأ:٤١] الجن أيضًا يتبرءون منهم ويتنصلون من عبادتهم لهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف:٥-٦]. انتهى كلامه.

وروى ابن جرير، عن مجاهد في قوله تعالى ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:١٦٥] مباهاة

ومضاهاة للحق بالأنداد ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] من الكفار لأوثانهم.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (ومن الأمور المبينة لتفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله: آية البقرة في الكفار الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧] ذكر أنهم يحبون أندادهم كحب الله، فدل على أنهم يحبون الله حبا عظيمًا، فلم يدخلوا في الإسلام، فكيف بمن أحب الند أكبر من حب الله؟ فكيف بمن لم يحب إلا الند وحده؟) انتهى.

ففى الآية: بيان أن من أشرك مع الله تعالى غيره فى المحبة فقد جعله شريكًا لله فى العبادة، واتخذه ندًّا من دون الله، وأن ذلك هو الشرك الذى لا يغفره الله، كما قال تعالى فى أولئك ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧] وقوله: ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ﴾ [البقرة: ١٦٥] المراد بالظلم هنا: الشرك. كقوله: ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢] كما تقدم.

فمن أحب الله وحده، وأحب فيه وله فهو مخلص، ومن أحبه وأحب معه غيره، فهو مشرك، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١-٢٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ما معناه: فمن رغب إلى غير الله فى قضاء حاجة أو تفريج كربة: لزم أن يكون محبًا له ومحبته هى الأصل فى ذلك. انتهى.

فكلمة الإخلاص: لا إله إلا الله تنفى كل شرك فى أى نوع كان من أنواع العبادة، وتثبت العبادة بجميع أفرادها لله تعالى. وقد تقدم بيان أن الإله: هو المألوه، الذى تألهه القلوب بالمحبة أو غيرها من أنواع العبادة. فلا إله إلا الله: نفت ذلك كله عن غير الله، وأثبتته لله وحده، فهذا هو ما دلت عليه كلمة الإخلاص مطابقة. فلا بد من معرفة معناها واعتقاده، وقبوله، والعمل به باطنًا وظاهرًا. والله أعلم.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: فتوحيد المحبوب: أنْ لا يتعدد محبوبه، أى: مع الله تعالى بعبادته له، وتوحيد الحب: أن لا يبقى فى قلبه بقية حب حتى يبذلها له، فهذا الحب وإن سُمى عشقًا فهو غاية صلاح العبد، ونعيمه وقرة عينه، وليس لقلبه

صلاح ولا نعيم إلا بأن يكون الله ورسوله أحب إليه من كل ما سواهما، وأن تكون محبته لغير الله تابعة لمحبة الله تعالى، فلا يحب إلا الله، كما فى الحديث الصحيح «ثلاث من كن فيه» [١] الحديث.

ومحبة رسول الله ﷺ هى من محبته، ومحبة المرء إن كانت لله فهى من محبته، وإن كانت لغير الله فهى منقصة لمحبة الله مضعفة لها.

ويصدق هذه المحبة بأن تكون كراهيته لأبغض الأشياء إلى الله محبوبه وهو الكفر بمنزلة كراهته لإلقائه فى النار أو أشد، ولا ريب أن هذا من أعظم المحبة، فإن الإنسان لا يقدم على محبة نفسه وحياته شيئًا، فإذا قدم محبة الإيمان بالله على نفسه بحيث لو خير بين الكفر وبين إلقائه فى النار لاختار أن يُلقى فى النار ولا يكفر، كان أحب إليه من نفسه.

وهذه المحبة هى فوق ما يجده العشاق المحبون من محبة محبوبيهم، بل لا نظير لهذه المحبة. كما لا مثل لمن تعلقت به، وهى محبة تقتضى تقديم المحبوب فيها على النفس والمال والولد. وتقتضى كمال الذل والخضوع والتعظيم والإجلال والطاعة والانقياد ظاهرًا وباطنًا. وهذا لا نظير له فى محبة المخلوق، ولو كان المخلوق من كان.

ولهذا من شرَّك بين الله تعالى وبين غيره فى هذه المحبة الخاصة، كان مشركًا شركًا لا يغفره الله؛ كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة:١٦٥] والصحيح: أن معنى الآية: أن الذين آمنوا أشد حبًا لله من أهل الأنداد لأندادهم. كما تقدم أن محبة المؤمنين لربهم لا يماثلها محبة مخلوق أصلاً، كما لا يماثل محبوبهم غيره، وكل أذى فى محبة غيره فهو نعيم فى محبته. وكل مكروه فى محبة غيره فهو قرة عين في محبته. ومن ضرب بمحبته الأمثال التى فى محبة المخلوق للمخلوق: كالوصل، والهجر والتجنى بلا سبب من المحب، وأمثال ذلك مما يتعالى الله عنه علوًا كبيرًا. فهو مخطئ أقبح

(١) هو حديث أنس رضي الله عنه المروي في البخاري (١٦) ومسلم (٤٣) في كتاب الإيمان من صحيحيهما وبقيته: «أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يُقْذَف في النار».

الخطأ وأفحشه، وهو حقيق بالإبعاد والمقت. انتهى.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وفى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال: «من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه وحسابه على الله عز وجل» [(١)]).

ش: قوله: (وفى الصحيح): أى: (صحيح مسلم) عن أبى مالك الأشجعى، عن أبيه عن النبى ﷺ، فذكره.

وأبو مالك اسمه: سعد بن طارق، كوفى ثقة مات فى حدود الأربعين ومائة. وأبوه طارق بن أشيم - بالمعجمة والمثناة التحتية وزن أحمر - ابن مسعود الأشجعى، صحابى له أحاديث. قال مسلم: لم يرو عنه غير ابنه.

وفى (مسند الإمام أحمد) عن أبى مالك قال: وسمعته يقول للقوم: **«من وحَّد الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه وحسابه على الله عز وجل»** [(٢)]. رواه الإمام أحمد من طريق يزيد بن هارون، قال: أنبأنا أبو مالك الأشجعى عن أبيه.

ورواه أحمد، عن عبد الله بن إدريس، قال: سمعت أبا مالك قال: قلت لأبى . . . الحديث. ورواية الحديث بهذا اللفظ يفسر: لا إله إلا الله.

قوله: (من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله) اعلم أن النبى ﷺ علق عصمة المال والدم فى هذا الحديث بأمرين:

الأول: قول لا إله إلا الله عن علم ويقين، كما هو مقيد فى قولها فى غير ما حديث كما تقدم.

والثاني: الكفر بما يُعبد من دون الله، فلم يكتف باللفظ المجرد عن المعنى، بل لابد من قولها والعمل بها.

قلت: وفيه معنى ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا

---

(١) رواه مسلم (٢٣/ ٣٧) في الإيمان عن أبي مالك عن أبيه.

(٢) صحيح: أحمد (٣/ ٤٧٢) في المسند، وقوله: (عن عبد الله بن إدريس) لم نجده في نسخة المسند التي بين أيدينا.

ٱنفِصَامَ لَهَاۗ﴾ [البقرة: ٢٥٦] .

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وهذا من أعظم ما يبين معنى لا إله إلا الله، فإنه لم يجعل اللفظ بها عاصمًا للدم والمال، بل ولا معرفة معناها مع لفظها، بل ولا الإقرار بذلك، بل ولا كونه لا يدعو إلا الله وحده لا شريك له، بل لا يحرم ماله ودمه حتى يضيف إلى ذلك الكفر بما يعبد من دون الله، فإن شك أو تردد لم يحرم ماله ودمه. فيا لها من مسألة ما أجلَّها ويا له من بيان ما أوضحه، وحجة ما أقطعها للمنازع. انتهى).

قلت: وهذا هو الشرط المصحِّح لقوله: لا إله إلا الله فلا يصح قولها بدون هذه الخمس التى ذكرها المصنف رحمه الله أصلاً؛ قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ﴾ [الأنفال: ٣٩] وقال: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْۚ﴾ [التوبة: ٥] .

أمر بقتالهم حتى يتوبوا من الشرك ويخلصوا أعمالهم لله تعالى، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإن أبوا عن ذلك أو بعضه قوتلوا إجماعًا.

وذكر ابن كثير رحمه الله تعالى، في تفسير قوله تعالى ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩] فقال: قال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا عباد بن أحمد، وساق بسنده عن جابر بن عبد الله، عن النبي ﷺ، ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩] . قال: «**من شهد أن لا إله إلاَّ الله، وخلع الأنداد وشهد أني رسول الله**» [(١)] الحديث.

وفى (صحيح مسلم) عن أبى هريرة مرفوعًا «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، ويؤمنوا بى، وبما جئت به، فإذا فعلوا ذلك عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله**» [(٢)].

وفى (الصحيحين) عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «**أمرت أن أقاتل الناس**

---

(١) ضعيف جدًا: عزاه الهيثمي (٧/ ١٣٧) في مجمع الزوائد للبزار وقال: رواه البزار عن شيخه عباد العرزمي وهو متروك.

(٢) رواه مسلم (٢١/ ٣٤) في الإيمان.

حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة . فإذا فعلوا ذلك عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله» .

وهذان الحديثان تفسير الآيتين : آية الأنفال، وآية براءة . وقد أجمع العلماء على أن من قال : لا إله إلا الله ولم يعتقد معناها ولم يعمل بمقتضاها، أنه يقاتل حتى يعمل بما دلت عليه من النفى والإثبات .

قال أبو سليمان الخطابى رحمه الله فى قوله : «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله**» معلوم أن المراد بهذا أهل عبادة الأوثان، دون أهل الكتاب، لأنهم يقولون : لا إله إلا الله . ثم يقاتلون، ولا يرفع عنهم السيف .

وقال القاضى عياض : اختصاص عصمة المال والنفس بمن قال لا إله إلا الله تعبير عن الإجابة إلى الإيمان، وأن المراد بذلك مشركو العرب وأهل الأوثان . فأما غيرهم ممن يقر بالتوحيد، فلا يُكتفى فى عصمته بقول لا إله إلا الله إذ كان يقولها فى كفره . انتهى ملخصًا .

وقال النووى : لا بد مع هذا من الإيمان بجميع ما جاء به الرسول ﷺ كما جاء فى الرواية «**ويؤمنوا بى وبما جئت به**» .

وقال شيخ الإسلام، لما سئل عن قتال التتار، فقال : كل طائفة ممتنعة عن التزام شرائع الإسلام الظاهرة من هؤلاء القوم أو غيرهم فإنه يجب قتالهم حتى يلتزموا شرائعه، وإن كانوا مع ذلك ناطقين بالشهادتين وملتزمين بعض شرائعه؛ كما قاتل أبو بكر والصحابة رضى الله عنهم مانعى الزكاة . وعلى هذا اتفق الفقهاء بعدهم .

قال : فأيما طائفة امتنعت عن بعض الصلوات المفروضات أو الصيام، أو الحج أو عن التزام تحريم الدماء، أو الأموال أو الخمر، أو الميسر أو نكاح ذوات المحارم، أو عن التزام جهاد الكفار . أو غير ذلك من التزام واجبات الدين ومحرماته التى لا عُذر لأحد فى جحودها أو تركها، التى يكفر الواحد بجحودها، فإن الطائفة الممتنعة تقاتل عليها وإن كانت مقرة بها، وهذا مما لا أعلم فيه خلافًا بين العلماء .

قال : وهؤلاء عند المحققين ليسوا بمنزلة البغاة، بل هم خارجون عن الإسلام . انتهى .

قوله: (وحسابه على الله) أي الله تبارك وتعالى هو الذى يتولى حسابه فإن كان صادقًا جازاه بجنات النعيم، وإن كان منافقًا عذبه العذاب الأليم . وأما فى الدنيا فالحكم على الظاهر، فمن أتى بالتوحيد ولم يأت بما ينافيه ظاهرًا والتزم شرائع الإسلام وجب الكف عنه .

قلت: وأفاد الحديث أن الإنسان قد يقول لا إله إلا الله ولا يكفر بما يعبد من دون الله فلم يأت بما يعصم دمه وماله؛ كما دل على ذلك الآيات المحكمات والأحاديث .

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وشرح هذه الترجمة ما بعدها من الأبواب) .

ش: قلت: وذلك أن ما بعدها من الأبواب فيه ما يبين التوحيد ويوضح معنى لا إله إلا الله وفيه أيضًا: بيان أشياء كثيرة من الشرك الأصغر والأكبر وما يوصل إلى ذلك من الغلو والبدع، مما تركه من مضمون لا إله إلا الله .

فمن عرف ذلك وتحققه تبين له معنى لا إله إلا الله وما دلت عليه من الإخلاص ونفى الشرك، وبضدها تتبين الأشياء . فبمعرفة الأصغر من الشرك يعرف ما هو أعظم منه من الشرك الأكبر المنافى للتوحيد، وأما الأصغر فإنما ينافى كماله، فمن اجتنبه فهو الموحد حقًا .

وبمعرفة وسائل الشرك -والنهى عنها لتجتنب تُعرف الغايات التى نهى عن الوسائل لأجلها، فإن اجتناب ذلك كله يستلزم التوحيد والإخلاص بل يقتضيه .

وفيه أيضًا من أدلة التوحيد: إثبات الصفات، وتنزيه الرب تعالى عما لا يليق بجلاله وكل ما يعرف بالله من صفات كماله وأدلة ربوبيته يدل على أنه هو المعبود وحده، وأن العبادة لا تصلح إلا له، وهذا هو التوحيد، ومعنى شهادة أن لا إله إلا الله .



(٦)



من الشرك لبس الحلقة والخيط ونحوهما؛ لرفع البلاء أو دفعه

قال المصنف رحمه الله تعالى: (باب من الشرك لبس الحلقة والخيط ونحوهما، لرفع البلاء أو دفعه).

ش: رفعه: إزالته بعد نزوله. ودفعه: منعه قبل نزوله.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وقول الله تعالى: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر: ٣٨]).

ش: قال ابن كثير: أي لا تستطيع شيئًا من الأمر.

﴿قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ﴾ أي: الله كافى من توكل عليه ﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر: ٣٨] كما قال هود عليه السلام حين قال له قومه ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٤-٥٦]

قال مقاتل فى معنى الآية: فسألهم النبى فسكتوا. أي لأنهم لا يعتقدون ذلك فيها.

وإنما كانوا يدعونها: على معنى أنها وسائط وشفعاء عند الله، لا على أنهم يكشفون الضر، ويجيبون دعاء المضطر. فهم يعلمون أن ذلك لله وحده. وكما قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ٥٣-٥٤].

قلت: فهذه الآية وأمثالها تبطل تُعلق القلب بغير الله فى جلب نفع أو دفع ضر،

وأن ذلك شرك بالله .

وفى الآية بيان أن الله تعالى وسم أهل الشرك بدعوة غير الله ، والرغبة إليه من دون الله . والتوحيد ضد ذلك . وهو : أن لا يدعو إلا الله ، ولا يرغب إلا إليه ، ولا يتوكل إلا عليه ، وكذا جميع أنواع العبادة لا يصلح منها شيء لغير الله ، كما دل على ذلك الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة وأئمتها كما تقدم .

قال المصنف رحمه الله تعالى: (عن عمران بن حصين أن النبى ﷺ رأى رجلاً فى يده حلقة من صُفْر فقال : «ما هذه؟» قال : من الواهنة . قال : «انزعها فإنها لا تزيدك إلا وهنًا ، فإنك لو مت وهى عليك ما أفلحت أبدًا» رواه أحمد بسند لا بأس به) .

ش: قال الإمام أحمد : حدثنا خلف بن الوليد ، حدثنا المبارك ، عن الحسن ، قال : أخبرنى عمران بن حصين أن النبى ﷺ أبصر على عضد رجل حلقة - قال : أراها من صُفْر - فقال : «**ويحك ما هذه؟**» قال : من الواهنة . قال : «**أما إنها لا تزيدك إلا وهنًا . انبذها عنك فإنك لو مت وهي عليك ما أفلحت أبدًا**» ورواه ابن حبان في (صحيحه) ، فقال : «**فإنك إنْ مت وُكلت إليها**» [1] والحاكم ، وقال : صحيح الإسناد ، وأقره الذهبي .

وقال الحاكم : أكثر مشايخنا على أن الحسن سمع من عمران ، وقوله في الإسناد : أخبرني عمران يدل على ذلك .

قوله : (عن عمران بن حصين) أي ابن عبيد خلف الخزاعي ، أبو نجيد -بنون وجيم- مصغر ، صحابي ابن صحابي ، أسلم عام خيبر ، ومات سنة اثنتين وخمسين بالبصرة .

قوله : (رأى رجلاً) في رواية الحاكم : دخلت على رسول الله ﷺ وفي عضدي

---

(١) **ضعيف الإسناد** : والحديث عند أحمد (٤/ ٤٤٥) رقم (١٩٨٨٥) وابن ماجه (٣٥٣١) في الطب - باب (٣٩) والاختلاف هنا على رجلين : المبارك بن فضالة ، والحسن وقد عنعنه عن عمران رضي الله عنه ، ولم يسمع منه وانظر الضعيفة (١٠٢٩) . قلت : ولعل الرواية أن تصح موقوفة على عمران رضي الله عنه .

حلقة صفر، فقال: «ما هذه؟» يحتمل أن الاستفهام للاستفسار عن سبب لُبسها، ويحتمل أن يكون للإنكار وهو أظهر.

قوله: (من الواهنة) قال أبو السعادات: الواهنة عرق يأخذ في المنكب، وفي اليد كلها، فيرقى منها، وقيل: هو مرض يأخذ في العضد، وهي تأخذ الرجال دون النساء؛ وإنما نُهي عنها لأنه إنما اتخذها على أنها تعصمه من الألم، وفيه اعتبار المقاصد.

قوله: (انزعها فإنها لا تزيدك إلا وهنًا) النزع: هو الجذب بقوة. أخبر أنها لا تنفعه بل تضره وتزيده ضعفًا، وكذلك كل أمر نهى عنه فإنه لا ينفع غالبًا وإن نفع بعضه فضره أكبر من نفعه.

قوله: (فإنك لو مت وهي عليك ما أفلحت أبدًا) لأنه شرك. والفلاح هو الفوز والظفر والسعادة.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (فيه شاهد لكلام الصحابة: أن الشرك الأصغر أكبر الكبائر، وأنه لم يُعذر بالجهالة. وفيه الإنكار بالتغليظ على من فعل مثل ذلك).

قوله: (رواه أحمد بسند لا بأس به) هو الإمام أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال ابن أسد بن إدريس بن عبد الله بن حيَّان بن عبد الله بن أنس بن عوف بن قاسط بن مازن بن شيبان بن ذُهْل بن ثعلبة بن عُكَابة بن صعب بن علي بن بكر بن وائل بن قاسط بن هِنْب بن أفْصى بن دُعْمى بن جديلة بن أسعد بن ربيعة بن بزار بن معد بن عدنان _ الإمام العالم أبو عبد الله الذُّهلي ثم الشيباني المروزي ثم البغدادي.

إمام أهل عصره وأعلمهم بالفقه والحديث، وأشدهم ورعًا ومتابعة للسنة، وهو الذي يقول فيه بعض أهل السنة: عن الدنيا ما كان أصبره، وبالماضين ما كان أشبهه، أتته الدنيا فأباها، والشبه فنفاها، خُرج به من مرو وهو حَمْل فوُلد ببغداد سنة أربع وستين ومائة في شهر ربيع الأول.

وطلب أحمد العلم سنة وفاة مالك، وهي سنة تسع وسبعين فسمع من هُشيم، وجرير بن عبد الحميد، وسفيان بن عيينة، ومعتمر بن سليمان، ويحيى بن سعيد القطان، ومحمد بن إدريس الشافعي، ويزيد بن هارون، وعبد الرزاق،

وعبد الرحمن بن مهدي، وخلائق بمكة، والبصرة، والكوفة، وبغداد، واليمن، وغيرها من البلاد.

روى عنه ابناه: صالح، وعبد الله، والبخاري، ومسلم، وأبو داود، وإبراهيم الحربي، وأبو زرعة الرازي، وأبو زرعة الدمشقي، وعبد الله بن أبي الدنيا، وأبو بكر الأثرم، وعثمان بن سعيد الدارمي، وأبو القاسم البغوى، وهو آخر من حدث عنه، وخلائق. وروى عنه من شيوخه: عبد الرحمن بن مهدي، والأسود بن عامر، ومن أقرانه: علي بن المديني، ويحيى بن معين.

قال البخاري: مرض أحمد لليلتين خلتا من ربيع الأول، ومات يوم الجمعة لاثنتي عشرة خلت منه، وقال حنبل: مات يوم الجمعة في ربيع الأول سنة إحدى وأربعين ومائتين وله سبع وسبعون سنة. وقال ابنه عبد الله، والفضل بن زياد: مات في ثاني عشر ربيع الآخر رحمه الله تعالى.

قال المصنف رحمه الله تعالى:(وله عن عُقْبة بن عامر مرفوعًا: «من تعلق تميمة فلا أتم الله له، ومن تعلق ودعة فلا ودع الله له» [١]**وفي رواية: «من تعلق تميمة فقد أشرك»** [٢]).

ش: الحديث الأول رواه الإمام أحمد كما قال المصنف، ورواه أيضًا أبو يعلى والحاكم وقال: صحيح الإسناد وأقره الذهبى.

قوله: (وفى رواية) أي: من حديث آخر، رواه أحمد، فقال: حدثنا عبد الصمد بن عبد الوارث، حدثنا عبد العزيز بن مسلم حدثنا يزيد بن أبي منصور، عن دخين الحجرى عن عقبة بن عامر الجهنى أن رسول الله ﷺ أقبل إليه رهط فبايع تسعة وأمسك عن واحد، فقالوا يا رسول الله، بايعت تسعة وأمسكت عن هذا؟ فقال: «إن

---

(١) **حسن بشواهده**: قال الهيثمي (٥/ ١٠٣) في المجمع: رواه أحمد وأبو يعلى ورجاله ثقات وحسنه الشيخ حمزة الزين برقم (١٧٣٣٥) في تحقيقه وترقيمه للمسند وضعفه الألباني (١٢٦٦) في الضعيفة.

(٢) **حسن الإسناد**: رواه أحمد (٤/ ١٥٦) في المسند، والحاكم (٤/ ٢١٩) في المستدرك وصححه ووافقه الذهبي.

عليه تميمة» فأدخل يده فقطعها، فبايعه وقال: **«من تعلق تميمة فقد أشرك»** ورواه الحاكم بنحوه. ورواته ثقات.

قوله: (عن عُقبة بن عامر) صحابى مشهور، فقيه فاضل، ولى إمارة مصر لمعاوية ثلاث سنين ومات قريبًا من الستين.

قوله: «من تعلق تميمة» أي علقها متعلقًا بها قلبه فى طلب خير أو دفع شر.

قال المنذري: خرزة كانوا يعلقونها، يرون أنها تدفع عنهم الآفات، وهذا جهل وضلالة، إذ لا مانع ولا دافع غير الله تعالى.

وقال أبو السعادات: التمائم: جمع تميمة وهى خرزات كانت العرب تعلقها على أولادهم يتقون بها العين، فى زعمهم، فأبطله الإسلام.

قوله: (فلا أتم الله له) دعاء عليه.

قوله: (ومن تعلق ودعة) بفتح الواو وسكون المهملة. قال فى (مسند الفردوس) الودُع: شيء يخرج من البحر شبه الصدف، يُتقون به العين.

قوله: (فلا ودع الله له) بتخفيف الدال. أي لا جعله في دعة وسكون.

قال أبو السعادات: وهذا دعاء عليه.

قوله: (وفي رواية: من تعلق تميمة فقد أشرك) قال أبو السعادات: إنما جعلها شركًا؛ لأنهم أرادوا دفع المقادير المكتوبة عليهم، وطلبوا دفع الأذى من غير الله الذي هو دافعه.

قال المصنف رحمه الله: (ولابن أبي حاتم عن حذيفة أنه رأى رجلاً في يده خيط من الحُمى، فقطعه، وتلا قوله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦] **»** [(١)]).

ش: قال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن الحسين بن إبراهيم بن إشكاب، حدثنا

---

(١) **منقطع الإسناد:** ابن أبي حاتم (١٢٤٠) في تفسيره عن عزرة بن عبد الرحمن عن حذيفة ولم يسمع منه.

يونس بن محمد، حدثنا حماد بن سلمة، عن عاصم الأحول، عن عُروة [١]، قال: دخل حذيفة على مريض، فرأى في عضده سيرًا فقطعه أو انتزعه. ثم قال: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف:١٠٦].

وابن أبي حاتم هو الإمام أبو محمد، عبد الرحمن بن أبي حاتم، محمد بن إدريس الرازي، التميمي، الحنظلي، الحافظ، صاحب (الجرح والتعديل)، و(التفسير) وغيرهما. مات سنة سبع وعشرين وثلاثمائة.

وحُذيفة: هو ابن اليمان. واسم اليمان: حسيل بمهملتين مصغّرًا، ويقال حسل - بكسر ثم سكون - العبسي بالموحَّدة، حليف الأنصار، صحابي جليل من السابقين، ويقال له صاحب السِّر وأبوه أيضًا صحابي. مات حذيفة في أول خلافة علي رضي الله عنه سنة ست وثلاثين.

قوله: (رأى رجلاً في يده خيط من الحمى) أي: عن الحمى. وكان الجهال يعلقون التمائم والخيوط ونحوها لدفع الحمى.

وروى وكيع عن حذيفة: أنه دخل على مريض يعوده، فلمس عضده، فإذا فيه خيط، فقال: «ما هذا؟» قال: شيء رُقي لي فيه، فقطعه، وقال: «لو مت وهو عليك ما صليت عليك» [٢].

وفيه: إنكار مثل هذا، وإن كان يعتقد أنه سبب: فالأسباب لا يجوز منها إلا ما أباحه الله تعالى ورسوله، مع عدم الاعتماد عليها. وأما التمائم والخيوط والحروز والطلاسم ونحو ذلك مما يعلقه الجهال: فهو شرك يجب إنكاره وإزالته بالقول والفعل، وإن لم يأذن فيه صاحبه.

قوله: (وتلا قوله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف:١٠٦]). استدل حذيفة رضي الله عنه بالآية على أن هذا شرك.

(١) لعل الرواية (عزرة) وهو الصحيح المثبت في روايات أهل التفسير وإنما هو تصحيف، وإن صح (عروة) فالحديث منقطع أيضًا.

(٢) **صحيح الإسناد**: ابن أبي شيبة (٢٣٤٦٢) (٥/ ٣٥) من طريق زيد بن وهب عن حذيفة و(٢٣٤٦٣) عن أبي ظبيان عن حذيفة رضي الله عنه.

ففيه: صحة الاستدلال على الشرك الأصغر بما أنزله الله فى الشرك الأكبر، لشمول الآية ودخوله فى مسمى الشرك، وتقدم معنى هذه الآية عن ابن عباس وغيره. والله أعلم.

وفى هذه الآثار عن الصحابة: ما يبين كمال علمهم بالتوحيد وما ينافيه أو ينافى كماله.



(٧)



ما جاء في الرقى والتمائم

قال المصنف رحمه الله تعالى: (باب ما جاء في الرقى والتمائم).

ش: أي من النهي وما ورد عن السلف في ذلك.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وفي الصحيح عن أبي بشير الأنصاري أنه كان مع النبي ﷺ في بعض أسفاره فأرسل رسولاً: أن لا يبقين فى رقبة بعير قلادة من وتر -أو قلادة- إلا قطعت) (١).

ش: هذا الحديث فى الصحيحين.

قوله: (عن أبى بشير) بفتح أوله وكسر المعجمة، قيل اسمه قيس بن عبيد قاله ابن سعد. وقال ابن عبد البر: لا يوقف له على اسم صحيح، وهو صحابى، شهد الخندق ومات بعد الستين. ويقال: إنه جاوز المائة.

قوله: (فى بعض أسفاره) قال الحافظ: لم أقف على تعيينه.

قوله: (فأرسل رسولاً) هو زيد بن حارثة، روى ذلك الحارث بن أبى أسامة فى (مسنده). قاله الحافظ.

قوله: (أن لا يبقين) بالمثناة التحتية والقاف المفتوحتين، و(قلادة) مرفوع على أنه فاعل والوتر بفتحتين، واحد أوتار القوس. وكان أهل الجاهلية إذا اخلولق الوتر أبدلوه بغيره، وقلدوا به الدواب؛ اعتقادًا منهم أنه يدفع عن الدابة العين.

---

(١) رواه البخاري (٣٠٠٥) في الجهاد والسير، مسلم (٢١١٥/ ١٠٥) في اللباس والزينة.

قوله: (أو قلادة إلا قطعت) معناه: أن الراوى شك هل قال شيخه: قلادة من وتر أو قال: قلادة وأطلق ولم يقيد؟

ويؤيد الأول: ما روى عن مالك أنه سئل عن القلادة؟ فقال: ما سمعت بكراهتها إلا فى الوتر. ولأبى داود: «ولا قلادة» بغير شك.

قال البغوى فى (شرح السنة): تأول مالك أمره عليه الصلاة والسلام بقطع القلائد على أنه من أجل العين وذلك أنهم كانوا يشدون تلك الأوتار والتمائم والقلائد ويعلقون عليها العُوذ، يظنون أنها تعصمهم من الآفات. فنهاهم النبى ﷺ عنها وأعلمهم أنها لا ترد من أمر الله شيئًا.

قال أبو عبيد: كانوا يقلدون الإبل الأوتار، لئلا تصيبها العين، فأمرهم النبى ﷺ بإزالتها إعلامًا لهم بأن الأوتار لا ترد شيئًا. وكذا قال ابن الجوزى وغيره.

قال الحافظ: ويؤيده حديث عقبة بن عامر، رفعه «**من تعلق تميمة فلا أتم الله له**» رواه أبو داود. وهى ما علق من القلائد خشية العين ونحو ذلك. انتهى.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وعن ابن مسعود: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الرقى والتمائم والتِّولة شرك» [(١)] **رواه أحمد، وأبو داود)**.

ش: وفيه قصة، ولفظ أبى داود: عن زينب امرأة عبد الله بن مسعود قالت: إن عبد الله رأى فى عنقى خيطًا فقال: ما هذا؟ قلت: خيط رقى لى فيه. قالت: فأخذه ثم قطعه، ثم قال: أنتم آل عبد الله لأغنياء عن الشرك سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الرقى والتمائم والتولة شرك**». فقلت: لقد كانت عينى تقذف، وكنت أختلف إلى فلان اليهودي، فإذا رقى سكنت. فقال عبد الله: إنما ذلك عمل الشيطان، كان ينخسها بيده، فإذا رقى كف عنها. إنما كان يكفيك أن تقولي كما كان رسول الله ﷺ يقول: «**أذهب البأس، رب الناس، واشف أنت الشافى، لا شفاء إلا شفاؤك شفاء لا يغادر سُقمًا**» [(٢)] ورواه ابن ماجه، وابن حبان، والحاكم، وقال: صحيح، وأقره الذهبى.

(١) **صحيح الإسناد**: قطعة من حديث رواه أبو داود (٣٨٨٣) في الطب، ابن ماجه (٣٥٣٠) في الطب وهو بتصحيح الألباني - ط - الرياض.

(٢) **صحيح**: وهو تكملة الحديث السابق.

قوله: (إن الرقى) .

قال المصنف رحمه الله تعالى: (هى التى تُسمى العزائم، وخص منه الدليل ما خلا من الشرك، فقد رخص فيه رسول الله ﷺ من العين والحُمَة) .

يشير إلى أن الرقى الموصوفة بكونها شركًا هى التى يستعان فيها بغير الله، وأما إذا لم يذكر فيها إلا أسماء الله وصفاته وآياته، والمأثور عن النبى ﷺ، فهذا حسن جائز أو مستحب .

قوله: (فقد رخص فيه رسول الله ﷺ من العين والحمة) كما تقدم فى باب من حقق التوحيد .

وكذا رخص فى الرقى من غيرها، كما فى صحيح مسلم عن عوف بن مالك: كنا نرقى فى الجاهلية، فقلنا: يا رسول الله كيف ترى فى ذلك؟ فقال: «**اعرضوا علي رقاكم. لا بأس بالرقى ما لم تكن شركًا**»[1] وفى الباب أحاديث كثيرة .

قال الخطابى: وكان عليه السلام قد رقى ورقى، وأمر بها وأجازها، فإذا كانت بالقرآن وبأسماء الله فهى مباحة أو مأمور بها .

وإنما جاءت الكراهة والمنع فيما كان منها بغير لسان العرب، فإنه ربما كان كفرًا أو قولاً يدخله الشرك .

قلت: من ذلك ما كان على مذاهب الجاهلية التى يتعاطونها، وأنها تدفع عنهم الآفات ويعتقدون أن ذلك من قبل الجن ومعونتهم. وبنحوه هذا ذكر الخطابى .

وقال شيخ الإسلام: كل اسم مجهول فليس لأحد أن يرقى به فضلاً أن يدعو به، ولو عرف معناه؛ لأنه يكره الدعاء بغير العربية، وإنما يرخص لمن لا يحسن العربية، فأما جعل الألفاظ الأعجمية شعارًا فليس من دين الإسلام .

وقال السيوطى: قد أجمع العلماء على جواز الرقى عند اجتماع ثلاث شروط: أن يكون بكلام الله أو بأسمائه وصفاته، وباللسان العربى: وبما يُعرف معناه، وأن يعتقد

---

(١) سبق تخريجه عند مسلم .

أن الرقية لا تؤثر بذاتها بل بتقدير الله تعالى .

قوله : (والتمائم) قال المصنف : (شيء يعلق على الأولاد من العين) .

وقال الخلخالي : التمائم جمع تميمة ، وهي ما يعلق بأعناق الصبيان من خرزات وعظام؛ لدفع العين ، وهذا منهى عنه . لأنه لا دافع إلا الله ، ولا يطلب دفع المؤذيات الا بالله وبأسمائه وصفاته .

قال المصنف رحمه الله تعالى: (لكن إذا كان المعلق من القرآن فرخص فيه بعض السلف . وبعضهم لم يرخص فيه ويجعله من المنهى عنه . منهم ابن مسعود) .

اعلم أن العلماء من الصحابة والتابعين فمن بعدهم اختلفوا فى جواز تعليق التمائم التى من القرآن ، وأسماء الله وصفاته .

فقالت طائفة : يجوز ذلك ، وهو قول عبد الله بن عمرو بن العاص ، وهو ظاهر ما روى عن عائشة . وبه قال أبو جعفر الباقر وأحمد فى رواية . وحملوا الحديث على التمائم التى فيها شرك .

وقالت طائفة : لا يجوز ذلك . وبه قال ابن مسعود وابن عباس . وهو ظاهر قول حذيفة ، وعقبة بن عامر ، وابن عُكيم ، وبه قال جماعة من التابعين ، منهم أصحاب ابن مسعود وأحمد فى رواية اختارها كثير من أصحابه ، وجزم بها المتأخرون ، واحتجوا بهذا الحديث وما فى معناه .

قلت : وهذا هو الصحيح لوجوه ثلاثة تظهر للمتأمل :

الأول : عموم النهى ولا مخصص للعموم .

الثانى : سد الذريعة ، فإنه يفضى إلى تعليق ما ليس كذلك .

الثالث : أنه إذا علق فلا بد أن يمتهنه المعلق ، بحمله معه فى حال قضاء الحاجة والاستنجاء ونحو ذلك .

وتأمل هذه الأحاديث وما كان عليه السلف رضى الله تعالى عنهم يتبين لك بذلك غربة الإسلام .

خصوصًا إن عرفت عظيم ما وقع فيه الكثير بعد القرون المفضلة من تعظيم القبور واتخاذ المساجد عليها، والإقبال إليها بالقلب والوجه، وصرف جل الدعوات والرغبات والرهبات وأنواع العبادات التي هي حق الله تعالى إليها من دونه، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يونس:١٠٦-١٠٧] ونظائرها في القرآن أكثر من أن تحصر.

قوله: «والتِّوَلة شرك»، قال المصنف: (هي شيء يصنعونه يزعمون أنه يحبب المرأة إلى زوجها والرجل إلى امرأته).

وبهذا فسره ابن مسعود راوي الحديث: كما في (صحيح ابن حبان) والحاكم، قالوا: يا أبا عبد الرحمن، هذه الرقى والتمائم قد عرفناها. فما التولة؟ قال: شيء يصنعه النساء يتحببن إلى أزواجهن (١).

قال الحافظ: التولة: بكسر المثناة وفتح الواو واللام مخففًا شيء كانت المرأة تجلب به محبة زوجها، وهو ضرب من السحر، والله أعلم.

وكان من الشرك؛ لما يراد به من دفع المضار، وجلب المنافع من غير الله تعالى.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وعن عبد الله بن عُكيم مرفوعًا «من تعلق شيئًا وكل إليه» (٢) رواه أحمد والترمذي).

ش: ورواه أبو داود، والحاكم، وعبد الله بن عكيم: هو بضم المهملة مصغرًا، ويكنى أبا معبد، الجهني الكوفي.

قال البخاري: أدرك زمن النبي ﷺ ولا يعرف له سماع صحيح.

---

(١) في إسناده ضعف: ابن حبان (٦٠٩٠) (إحسان) وفيه يحيى الجزار عن ابن مسعود ويحيى لم يسمع من ابن مسعود. ورواية الحاكم (٤/٤١٨) في المستدرك فيها (محمد بن مسلمة) وهو غير الصحابي: لا يعرف.

(٢) صحيح الإسناد: الترمذي (٢٠٧٢) في الطب - باب (٢٤) وهو من مراسيل الصحابة، وصححه الألباني هناك.

وكذا قال أبو حاتم: قال الخطيب سكن الكوفة، وقدم المدائن في حياة حذيفة وكان ثقة وذكر ابن سعد، عن غيره: أنه مات في ولاية الحجاج.

قوله: (ومن تعلق شيئًا وكل إليه) التعلق يكون بالقلب، ويكون بالفعل، ويكون بهما أي: وكله الله، إلى ذلك الشيء الذي تعلقه.

فمن تعلق بالله وأنزل حوائجه به، والتجأ إليه، وفوض أمره إليه: كفاه، وقرب إليه كل بعيد ويسر له كل عسير.

ومن تعلق بغيره، أو سكن إلى رأيه وعقله ودوائه وتمائمه ونحو ذلك، وكله الله إلى ذلك وخذله.

وهذا معروف بالنصوص والتجارب. قال تعالى ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣].

وقال الإمام أحمد: حدثنا هشام بن القاسم حدثنا أبو سعيد المؤدب، حدثنا من سمع عطاء الخراساني قال: لقيت وهب بن منبه وهو يطوف بالبيت فقلت: حدثني حديثًا أحفظه عنك في مقامي هذا وأوجز. قال: نعم، أوحى الله تبارك وتعالى إلى داود: يا داود، أما وعزتي وعظمتي لا يعتصم بي عبد من عبادي دون خلقي أعرف ذلك من نيته، فتكيده السموات السبع ومن فيهن، والأرضون السبع ومن فيهن: إلا جعلت له بينهن مخرجًا أما وعزتي وعظمتي لا يعتصم عبد من عبادي بمخلوق دوني أعرف ذلك من نيته، إلا قطعت أسباب السماء من يده وأسخت الأرض من تحت قدميه ثم لا أبالي بأي أوديتها هلك [١].

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وروى الإمام أحمد عن رويفع قال: قال رسول الله ﷺ: **«يا رويفع، لعل الحياة ستطول بك، فأخبر الناس أن من عقد لحيته أو تقلد وترًا أو استنجى برجيع دابة أو عظم، فإن محمدًا بريء منه»** [٢]).

---

(١) خبر من الإسرائيليات لا تلتفت إليه فكم جلبت علينا هذه الروايات شرًا عظيمًا خاصة أن فيها كلامًا عن نبي الله الذي أُوحي إليه، والوحي لإثباته نحتاج إلى دليل منه: أي الكتاب أو السنة، والخبر من كلام وهب فإياك وإياه.

(٢) **صحيح**: أبو داود (٣٦) في الطهارة، أحمد (٤/ ١٠٩) وصححه الألباني في المشكاة (٣٥١).

ش: الحديث رواه الإمام أحمد، عن يحيى بن إسحاق، والحسن بن موسى الأشيب، كلاهما عن ابن لهيعة. وفيه قصة اختصرها المصنف.

وهذا لفظ الحسن: حدثنا ابن لهيعة، حدثنا عياش بن عباس، عن شُيَيْم بن بيتان، قال: حدثنا رويفع بن ثابت، قال: كان أحدنا في زمن رسول الله ﷺ يأخذ جمل أخيه، على أن يعطيه النصف مما يغنم وله النصف، حتى إن أحدنا ليصير له النصل والريش، وللآخر القدح. ثم قال لي رسول الله ﷺ... الحديث.

ثم رواه أحمد عن يحيى بن غيلان حدثنى المفضل حدثنا عياش بن عباس: أن شييم بن بيتان أخبره أنه سمع شيبان القتباني الحديث. ابن لهيعة، فيه مقال. وفي الإسناد الثاني شيبان القتبانى، قيل فيه مجهول. وبقية رجالهما ثقات.

قوله: (لعل الحياة ستطول بك) فيه علم من أعلام النبوة، فإن رويفعًا طالت حياته إلى سنة ست وخمسين فمات ببرقة من أعمال مصر أميرًا عليها، وهو من الأنصار، وقيل: مات سنة ثلاث وخمسين.

قوله: (فأخبر الناس) دليل على وجوب إخبار الناس، وليس هذا مختصًا برويفع. بل كل من كان عنده علم ليس عند غيره مما يحتاج إليه الناس وجب إعلامهم به، فإن اشترك هو وغيره في علم ذلك فالتبليغ فرض كفاية. قاله أبو زرعة في (شرح سنن أبي داود).

قوله: (أن من عقد لحيته) بكسر اللام لا غير، والجمع لحى بالكسر والضم قاله الجوهري.

قال الخطابي: أما نهيه عن عقد اللحية فيُفسر على وجهين:

أحدهما: ما كانوا يفعلونه في الحرب، كانوا يعقدون لحاهم، وذلك من زى بعض الأعاجم يفتلونها ويعقدونها.

قال أبو السعادات: تكبرًا وعجبًا.

ثانيهما: أن معناه معالجة الشعر ليتعقد ويتجعد، وذلك من فعل أهل التأنيث.

وقال أبو زرعة بن العراقى: والأولى حمله على عقد اللحية في الصلاة، كما دلت

عليه رواية محمد بن الربيع وفيه **«أن من عقد لحيته في الصلاة»**.

قلت: وهذه الرواية لا تدل على تخصيصه في الصلاة، بل تدل على أن فعله في الصلاة أشد من فعله خارجها.

قوله: **«أو تقلد وترًا»** أي جعله قلادة في عنقه، أو عنق دابته. وفي رواية محمد بن الربيع أو **«تقلد وترًا - يريد تميمة»**.

فإذا كان هذا فيمن تقلد وترًا، فكيف بمن تعلق بالأموات، وسألهم قضاء الحاجات، وتفريج الكربات، وما يترتب على ذلك من العبادة، التى لا يستحقها إلا رب الأرض والسموات الذي جاء النهى عنه وتغليظه في الآيات المحكمات؟

قوله: **«أو استنجى برجيع دابة أو عظم فإن محمدًا بريء منه»** قال النووي: أي بريء من فعله، وهذا خلاف الظاهر. والنووي كثيرًا ما يتأول الأحاديث بصرفها عن ظاهرها فيغفر الله تعالى له بل هو بري من الفاعل وفعله.

وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعًا: **«لا تستنجوا بالروث ولا العظام فإنه زاد إخوانكم من الجن»** (١) وعليه لا يجزى الاستنجاء بهما، كما هو ظاهر مذهب أحمد، لما روى ابن خزيمة والدارقطني، عن أبي هريرة: أن النبي ﷺ نهى أن يستنجي بعظم أو روث، وقال: **«إنهما لا يطهران»** (٢).

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وعن سعيد بن جبير قال: «من قطع تميمة من إنسان كان كعدل رقبة» (٣) رواه وكيع).

ش: هذا عند أهل العلم له حكم الرفع، لأن مثل ذلك لا يقال بالرأي ويكون هذا مرسلاً لأن سعيدًا تابعى. وفيه فضل قطع التمائم لأنها شرك.

ووكيع هو ابن الجراح بن وكيع الكوفى، ثقة إمام، صاحب تصانيف منها الجامع وغيره. روى عنه الإمام أحمد وطبقته. مات سنة سبع وتسعين ومائة.

(١) رواه مسلم (٤٥٠/ ١٥٠ - ١٥١ - ١٥٢ - ١٥٣) في الصلاة.
(٢) ضعيف: ابن خزيمة (٨٢) من حديث أبي هريرة وفيه الحسن بن فرات: منكر الحديث.
(٣) ضعيف: ابن أبي شيبة (٣٥٢٤) بسند فيه ليث بن أبي سليم وهو مدلس جدًا.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وله عن إبراهيم قال: كانوا يكرهون التمائم كلها من القرآن وغير القرآن) [١] .

ش: إبراهيم، هو الإمام إبراهيم بن يزيد النخعي الكوفي، يكنى أبا عمران ثقة من كبار الفقهاء. قال المزى: دخل على عائشة، ولم يثبت له سماع منها. مات سنة ست وتسعين، وله خمسون سنة أو نحوها.

قوله: (كانوا يكرهون التمائم) إلى آخره، مراده بذلك: أصحاب عبد الله بن مسعود، كعلقمة، والأسود، وأبي وائل، والحارث بن سويد، وعبيدة السلماني، ومسروق، والربيع بن خُثيم، وسويد بن غفلة، وغيرهم، وهم من سادات التابعين وهذه الصيغة يستعملها إبراهيم في حكاية أقوالهم كما بين ذلك الحفاظ، كالعراقي وغيره.



(١) **ضعيف:** السابق (٣٥١٨) وفيه مغيرة بن مقسم وهو مدلس وقد عنعنه.

(٨)



من تبرك بشجرة أو حجر ونحوهما

قال المصنف رحمه الله تعالى: (باب من تبرك بشجرة أو حجر ونحوهما) .

ش: كبقعة وقبر ونحو ذلك، أي فهو مشرك .

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وقول الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ۝٢٠ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ۝٢١ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ۝٢٢ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [النجم:١٩-٢٣] **الآيات**) .

ش: وكانت اللات لثقيف، والعزى لقريش وبني كنانة، ومناة لبني هلال . وقال ابن هشام: كانت لهذيل وخزاعة .

فأما (اللات) فقرأ الجمهور بتخفيف التاء، وقرأ ابن عباس، وابن الزبير، ومجاهد، وحميد، وأبو صالح . ورويس عن يعقوب: بتشديد التاء .

فعلى الأولى: قال الأعمش: سموا اللات من الإله، والعزى من العزيز . قال ابن جرير: وكانوا قد شقوا اسمها من اسم الله تعالى، قالوا: اللات مؤنثة منه، تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا قال: وكذا العزى من العزيز .

وقال ابن كثير: اللات كانت صخرة بيضاء منقوشة، عليها بيت بالطائف له أستار وسدنة . وحوله فناء معظم عند أهل الطائف، وهم ثقيف ومن تبعها يفتخرون به على من عداهم من أحياء العرب بعد قريش، قال ابن هشام: فبعث رسول الله ﷺ

المغيرة بن شعبة فهدمها وحرقها بالنار [١] .

وعلى الثانية قال ابن عباس : كان رجلاً يلت السويق للحاج ، فلما مات عكفوا على قبره [٢] ذكره البخاري .

قال ابن عباس : كان يبيع السويق والسمن عند صخرة ويسلوه عليها ، فلما مات ذلك الرجل عبدت ثقيف تلك الصخرة إعظامًا لصاحب السويق . وعن مجاهد ، نحوه وقال : فلما مات عبدوه رواه سعيد بن منصور [٣] .

وكذا روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس أنهم عبدوه [٤] ، وبنحو هذا قال جماعة من أهل العلم .

قلت : لا منافاة بين القولين . فإنهم عبدوا الصخرة والقبر تألهًا وتعظيمًا .

ولمثل هذا بنيت المشاهد والقباب على القبور واتخذت أوثانًا . وفيه بيان أن أهل الجاهلية كانوا يعبدون الصالحين والأصنام والأوثان .

وأما العزى؛ فقال ابن جرير : كانت شجرة عليها بناء وأستار بنخلة بين مكة والطائف كانت قريش يعظمونها ، كما قال أبو سفيان يوم أحد : لنا العزى ولا عزى لكم فقال رسول الله ﷺ «**قولوا : الله مولانا ولا مولى لكم**» [٥] .

وروى النسائي وابن مردويه ، عن أبي الطفيل ، قال : لما فتح رسول الله ﷺ مكة بعث خالد بن الوليد إلى نخلة وكانت بها العزى ، وكانت على ثلاث سَمُرات فقطع السمرات ، وهدم البيت الذي كان عليها . ثم أتى النبي ﷺ فأخبره . فقال : «**ارجع فإنك لم تصنع شيئًا**» فرجع خالد ، فلما أبصرته السدنة أمعنوا في الجبل وهم يقولون : يا عزى

---

(١) تفسير ابن كثير (٧/ ٣٤٩).

(٢) رواه البخاري (٤٨٥٩) في التفسير دون قوله : (فلما مات عكفوا على قبره) والأثر بكامله عند الطبري (٢٧/ ٥٨) من قول مجاهد - رحمه الله - .

(٣) انظر تفسير السيوطي (٦/ ٥٥١) وهو الدر المنثور وعزاه لسعيد بن منصور .

(٤) انظر الدر المنثور (٦/ ٥٥٢).

(٥) رواه البخاري (٤٠٤٣) في المغازي عن البراء رضي الله عنه منفردًا به عن مسلم .

يا عزى، فأتاها خالد فإذا امرأة عُريانة ناشرة شعرها تحفن التراب على رأسها فعممها بالسيف فقتلها. ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره، فقال: «**تلك العزى**» (١) قال أبو صالح: كانوا يعلقون عليها السيور، والعهن. رواه عبد بن حميد، وابن جرير.

قلت: وكل هذا وما هو أعظم منه يقع في هذه الأزمنة عند ضرائح الأموات وفي المشاهد.

وأما مناة: فكانت بالمشلل عند قُديد، بين مكة والمدينة، وكانت خزاعة والأوس والخزرج يعظمونها ويهلون منها للحج، وأصل اشتقاقها: من اسم الله المنان، وقيل: لكثرة ما يمنى أي يراق عندها من الدماء للتبرك بها.

قال البخاري رحمه الله، في حديث عروة عن عائشة رضي الله عنها: إنها صنم بين مكة والمدينة (٢).

قال ابن هشام: فبعث رسول الله ﷺ عليًا فهدمها عام الفتح (٣).

وقال العماد ابن كثير: فبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد في غزوة بني المصطلق، فكسرها.

فمعنى الآية كما قال القرطبي: إن فيها حذفًا تقديره: أفرأيتم هذه الآلهة، أنفعت أو ضرت، حتى تكون شركاء لله تعالى؟

وقوله: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ﴾ [النجم: ٢١]. قال ابن كثير: تجعلون له ولدًا وتجعلون ولده أنثى وتختارون لكم الذكور؟

قوله: ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٢] أي جور، وباطلة. فكيف تقاسمون ربكم هذه القسمة، التي لو كانت بين مخلوقين كانت جورًا وسفهًا فتنزهون أنفسكم عن الإناث، وتجعلونهن لله تعالى.

---

(١) **حسن الإسناد**: النسائي (١١٥٤٧) في الكبرى.
(٢) رواه البخاري (٤٨٦١) في التفسير، وبنحوه مسلم (١٢٧٧/ ٢٦١) في الحج.
(٣) تفسير ابن كثير (٧/ ٣٤٩).

وقوله: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم﴾ [النجم:٢٣] أي: من تلقاء أنفسكم ﴿مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾ [يوسف:٤٠] أي من حجة ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ﴾ [النجم: ٢٣] أي ليس لهم مستند إلا حسن ظنهم بآبائهم الذين سلكوا هذا المسلك الباطل قبلهم وإلا حظ أنفسهم في رياستهم وتعظيم آبائهم، الأقدمين.

قوله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ﴾ [النجم:٢٣] قال ابن كثير: ولقد أرسل الله تعالى إليهم الرسل بالحق المنير والحجة القاطعة، ومع هذا ما اتبعوا ما جاءوهم به ولا انقادوا له.

ومطابقة الآيات للترجمة: من جهة أن عُبَّاد هذه الأوثان، إنهم كانوا يعتقدون حصول البركة منها: بتعظيمها ودعائها، والاستعانة بها، والاعتماد عليها في حصول ما يرجونه منها ويؤملونه ببركتها وشفاعتها وغير ذلك.

فالتبرك بقبور الصالحين كاللات، وبالأشجار والأحجار كالعزى ومناة من فعل جملة أولئك المشركين مع تلك الأوثان، فمن فعل مثل ذلك واعتقد في قبر أو حجر أو شجر، فقد ضاهى عباد هذه الأوثان فيما يفعلونه معها من هذا الشرك، على أن الواقع من هؤلاء المشركين مع معبوديهم أعظم مما وقع من أولئك. فالله المستعان.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (عن أبي واقد الليثي قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين، ونحن حُدَثاء عهد بكفر، وللمشركين سدرة يعكفون عندها وينوطون بها أسلحتهم، يقال لها: ذات أنواط فمررنا بسدرة، فقلنا: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، فقال رسول الله ﷺ: «الله أكبر إنها السنن. قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف:١٣٨] لتركبن سنن من كان قبلكم» [1] رواه الترمذي وصححه).

ش: أبو واقد اسمه الحارث بن عوف، وفي الباب عن أبي سعيد وأبي هريرة قاله الترمذي.

---

(١) صحيح الإسناد: الترمذي (٢١٨٠) في الفتن، أحمد (٥/ ٢١٨) وابن أبي عاصم (٧٦) في السنة وصححه الألباني هناك فى (ظلال الجنة).

وقد رواه أحمد، وأبو يعلى، وابن أبي شيبة، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، بنحوه.

قوله: (عن أبي واقد) تقدم ذكر اسمه في قول الترمذي. وهو صحابي مشهور، مات سنة ثمان وستين، وله خمس وثمانون سنة.

قوله: (خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين) وفي حديث عمرو بن عوف وهو عند ابن أبي حاتم، وابن مردويه، والطبراني قال: غزونا مع رسول الله ﷺ يوم الفتح، ونحن ألف ونيف حتى إذا كنا بين حنين والطائف... الحديث..

قوله: (ونحن حدثاء عهد بكفر). أي قريبٌ عهدُنا بالكفر، ففيه دليل على أن غيرهم ممن تقدم إسلامه من الصحابة لا يجهل هذا، وأن المنتقل من الباطل الذي اعتاده قلبه لا يأمن أن يكون في قلبه بقية من تلك العادة. ذكره المصنف رحمه الله.

قوله: (وللمشركين سدرة يعكفون عندها) العكوف: هو الإقامة على الشيء في المكان، ومنه قول الخليل عليه السلام: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٢] وكان عكوف المشركين عند تلك السدرة تبركًا بها وتعظيمًا لها وفي حديث عمرو: كان يناط بها السلاح؛ فسميت ذات أنواط. وكانت تعبد من دون الله.

قوله: (وينوطون بها أسلحتهم) أي: يعلقونها عليها؛ للبركة.

قلت: ففي هذا بيان أن عبادتهم لها بالتعظيم والعكوف والتبرك، وبهذه الأمور الثلاثة عُبدت الأشجار ونحوها.

قوله: (فقلنا: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط) قال أبو السعادات: سألوه أن يجعل لهم مثلها؛ فنهاهم عن ذلك. وأنواط جمع نَوْط، وهو مصدر سمي بها المنوط. ظنوا أن هذا أمر محبوب عند الله، وقصدوا التقرب به، وإلا فهم أجلُّ قدرًا من أن يقصدوا مخالفة النبي ﷺ.

قوله: (فقال رسول الله ﷺ: «**الله أكبر**» وفي رواية «**سبحان الله**») والمراد: تعظيم الله تعالى، وتنزيهه عن هذا الشرك بأي نوع كان، مما لا يجوز أن يطلب أو يقصد به غير الله.

وكان النبي ﷺ يستعمل التكبير والتسبيح في حال التعجب تعظيمًا لله وتنزيهًا له إذا سمع من أحد ما لا يليق بالله، مما فيه هضم للربوبية أو الإلهية.

قوله: «**إنها السنن**» بضم السين أي: الطرق.

قوله: («**قلتم والذي نفسي بيده، كما قالت بنو إسرائيل لموسى** ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾[الأعراف:١٣٨] ») شبه مقالتهم هذه، بقول بني إسرائيل؛ بجامع أن كلاً طلب أن يجعل له ما يألهه ويعبده من دون الله، وإن اختلف اللفظان. فالمعنى واحد، فتغيير الاسم لا يغير الحقيقة.

ففيه: الخوف من الشرك، وأن الإنسان قد يستحسن شيئًا يظن أنه يقربه إلى الله، وهو أبعد ما يبعده من رحمته ويقربه من سخطه.

ولا يعرف هذا على الحقيقة إلا من عرف ما وقع في هذه الأزمان من كثير من العلماء والعباد مع أرباب القبور، من الغلو فيها وصرف جل العبادة لها، ويحسبون أنهم على شيء، وهو الذنب الذي لا يغفره الله.

قال الحافظ أبو محمد عبد الرحمن بن إسماعيل الشافعي المعروف بأبي شامة في كتاب (البدع والحوادث): ومن هذا القسم أيضًا: ما قد عم الابتلاء به؛ من تزيين الشيطان للعامة تخليق الحيطان والعمد وإسراج مواضع مخصوصة في كل بلد، يحكى لهم حاك أنه رأى في منامه بها أحدًا ممن شهر بالصلاح والولاية، فيفعلون ذلك ويحافظون عليه مع تضييعهم لفرائض الله تعالى وسننه، ويظنون أنهم متقربون بذلك، ثم يتجاوزون هذا إلى أن يَعْظُم وقع تلك الأماكن في قلوبهم، فيعظمونها ويرجون الشفاء لمرضاهم وقضاء حوائجهم بالنذر لها، وهي من عيون وشجر وحائط وحجر.

وفي مدينة دمشق من ذلك مواضع متعددة، كعوينة الحمى خارج باب توما، والعمود المخلق داخل باب الصغير، والشجرة الملعونة خارج باب النصر فى نفس قارعة الطريق، سهل الله قطعها واجتثاثها من أصلها، فما أشبهها بذات أنواط الواردة في الحديث. انتهى.

وذكر ابن القيم رحمه الله نحو ما ذكره أبو شامة، ثم قال: فما أسرع أهل الشرك

إلى اتخاذ الأوثان من دون الله ولو كانت ما كانت، ويقولون: إن هذا الحجر وهذه الشجرة وهذه العين تقبل النذر، أي: تقبل العبادة من دون الله، فإن النذر عبادة وقربة يتقرب بها الناذر إلى المنذور له، وسيأتي ما يتعلق بهذا الباب عند قوله ﷺ: **«اللهم لا تجعل قبري وثنًا يعبد»** (١).

وفي هذه الجملة من الفوائد: أن ما يفعله من يعتقد في الأشجار والقبور والأحجار من التبرك بها والعكوف عندها والذبح لها هو الشرك، ولا يغتر بالعوام والطغام، ولا يستبعد كون الشرك بالله تعالى يقع في هذه الأمة.

فإذا كان بعض الصحابة ظنوا ذلك حسنًا وطلبوه من النبي ﷺ حتى بين لهم أن ذلك كقول بني إسرائيل: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا﴾ [الأعراف:١٣٨] فكيف لا يخفى على من دونهم في العلم والفضل بأضعاف مضاعفة مع غلبة الجهل وبعد العهد بآثار النبوة؟! بل خفي عليهم عظائم الشرك في الإلهية والربوبية، فأكبروا فعله واتخذوه قربة.

ومنها: أن الاعتبار في الأحكام بالمعاني لا بالأسماء، ولهذا جعل النبي ﷺ طلبتهم كطلبة بني إسرائيل، ولم يلتفت إلى كونهم سموها ذات أنواط.

فالمشرك مشرك وإن سمى شركه ما سماه. كمن يسمى دعاء الأموات والذبح والنذر لهم ونحو ذلك تعظيمًا ومحبة، فإن ذلك هو الشرك، وإن سماه ما سماه. وقس على ذلك.

قوله: (لتركبن سنن من كان قبلكم) بضم الموحدة وضم السين، أي: طرقهم ومناهجهم. وقد يجوز فتح السين على الإفراد، أي: طريقهم. وهذا خبر صحيح. والواقع من كثير من هذه الأمة يشهد له.

وفيه: علم من أعلام النبوة؛ من حيث إنه وقع كما أخبر به ﷺ.

وفي الحديث: النهى عن التشبه بأهل الجاهلية وأهل الكتاب فيما كانوا يفعلونه،

---

(١) **صحيح:** مالك (٨٥) في الموطأ من حديث عطاء بن يسار مرسلًا، وابن عبد البر (٥/ ٤٣) في التمهيد موصولاً عن أبي سعيد، وله شاهد آخر عن أبي هريرة رضي الله عنه وسيأتي بتمامه في أول الباب العشرين.

إلا ما دل الدليل على أنه من شريعة محمد ﷺ .

قال المصنف رحمه الله: (وفيه التنبيه على مسائل القبر، أما: من ربك؟ فواضح. وأما: من نبيك؟ فمن إخباره بأنباء الغيب. وأما: ما دينك؟ فمن قولهم ﴿ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا﴾ إلى آخره) .

وفيه: أن الشرك لا بد أن يقع في هذه الأمة خلافًا لمن ادعى خلاف ذلك، وفيه الغضب عند التعليم، وأن ما ذم الله به اليهود والنصارى فإنه لنا لنحذره قاله المصنف رحمه الله.

وأما ما ادعاه بعض المتأخرين: من أنه يجوز التبرك بآثار الصالحين فممنوع من وجوه:

منها: أن السابقين الأولين من الصحابة ومن بعدهم، لم يكونوا يفعلون ذلك مع غير النبي ﷺ، لا فى حياته ولا بعد موته. ولو كان خيرًا لسبقونا إليه.

وأفضل الصحابة أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم. وقد شهد لهم رسول الله ﷺ فيمن شهد له بالجنة، وما فعله أحد من الصحابة والتابعين مع أحد من هؤلاء السادة، ولا فعله التابعون مع ساداتهم في العلم والدين وهم الأسوة.

فلا يجوز أن يقاس على رسول الله ﷺ أحد من الأمة، وللنبي ﷺ في حال الحياة خصائص كثيرة لا يصلح أن يشاركه فيها غيره.

ومنها: أن في المنع عن ذلك سدًّا لذريعة الشرك كما لا يخفى.



(٩)



ما جاء في الذبح لغير الله

قال المصنف رحمه الله تعالى:(باب ما جاء في الذبح لغير الله).

ش: من الوعيد وأنه شرك بالله.

قال المصنف رحمه الله تعالى:(وقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام:١٦٢-١٦٣] **الآية**).

ش: قال ابن كثير: يأمره تعالى أن يخبر المشركين الذين يعبدون غير الله ويذبحون لغير اسم: بأنه أخلص لله صلاته وذبيحته؛ لأن المشركين يعبدون الأصنام ويذبحون لها، فأمره الله تعالى بمخالفتهم، والانحراف عما هم فيه، والإقبال بالقصد والنية والعزم على الإخلاص لله تعالى.

قال مجاهد: النسك الذبح في الحج والعمرة [١].

وقال الثورى عن السدى عن سعيد بن جبير: ﴿وَنُسُكِي﴾: ذبحى [٢]. وكذا قال الضحاك [٣].

وقال غيره ﴿وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي﴾ [الأنعام:١٦٢] أي: وما آتيه في حياتى وما أموت عليه من الإيمان والعمل الصالح ﴿لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ خالصًا لوجهه ﴿لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ﴾ الإخلاص ﴿أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام:١٦٣] أى من هذه الأمة؛ لأن إسلام كل نبى

---

(١) **حسن**: الطبري (٨/ ١١٢) في التفسير.

(٢) **حسن**: الطبري (٨/ ١١٢) في التفسير.

(٣) ضعيف جدًا الطبري (٨/ ١١٢) في تفسيره وفيه جويبر وهو تالف الإسناد.

متقدم إسلام أمته . قال قتادة : ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام:١٦٣] أي : من هذه الأمة .

قال ابن كثير : وهو كما قال ، فإن جميع الأنبياء قبله ، كانت دعوتهم إلى الإسلام ، وهو عبادة الله وحده لا شريك له . كما قال تعالى : ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥] وذكر آيات في هذا المعنى .

ووجه مطابقة الآية للترجمة : أن الله تعالى تعبَّد عباده بأن يتقربوا إليه بالنسك .

كما تعبَّدهم بالصلاة وغيرها من أنواع العباداة ، فإن الله تعالى أمرهم أن يخلصوا جميع أنواع العبادة له دون كل ما سواه ، فإذا تقربوا إلى غير الله بالذبح أو غيره من أنواع العبادة فقد جعلوا لله شريكًا في عبادته .

وهو ظاهر في قوله : ﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾ [الأنعام:١٦٣] نفى أن يكون لله تعالى شريك في هذه العبادات ، وهو بحمد الله واضح .

قال المصنف رحمه الله تعالى: (﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ [الكوثر:٢]) .

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى : أمره الله أن يجمع بين هاتين العبادتين ، وهما الصلاة والنسك ، الدالّتان على القرب والتواضع ، والافتقار وحسن الظن ، وقوة اليقين ، وطمأنينة القلب إلى الله وإلى عدته .

عكس حال أهل الكبر والنُّفرة ، وأهل الغنى عن الله الذين لا حاجة لهم في صلاتهم إلى ربهم ، والذين لا ينحرون له خوفًا من الفقر ، ولهذا جمع بينهما في قوله : ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى﴾ [الأنعام:١٦٢] الآية .

والنسك : الذبيحة لله تعالى ابتغاء وجهه . فإنهما أجلّ ما يتقرب به إلى الله ، فإنه أتى فيهما بالفاء الدالة على السبب ، لأن فعل ذلك سبب للقيام بشكر ما أعطاه الله تعالى من الكوثر .

وأجلّ العبادات البدنية : الصلاة ، وأجلّ العبادات المالية : النحر . وما يجتمع للعبد في الصلاة لا يجتمع له في غيرها ، كما عرفه أرباب القلوب الحية ، وما يجتمع له في النحر إذا قارنه الإيمان والإخلاص من قوة اليقين وحسن الظن : أمر عجيب ، وكان النبي ﷺ كثير الصلاة ، كثير النحر . انتهى .

قلت: وقد تضمنت الصلاة من أنواع العبادات كثيرًا، فمن ذلك: الدعاء والتكبير، والتسبيح والقراءة، والتسميع والثناء، والقيام والركوع، والسجود والاعتدال، وإقامة الوجه لله تعالى، والإقبال عليه بالقلب، وغير ذلك مما هو مشروع في الصلاة، وكل هذه الأمور من أنواع العبادة التي لا يجوز أن يصرف منها شيء لغير الله وكذلك النسك يتضمن أمورًا من العبادة. كما تقدم في كلام شيخ الإسلام رحمه الله تعالى.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وعن علي بن أبي طالب قال: حدثني رسول الله ﷺ بأربع كلمات: «لعن الله من ذبح لغير الله، ولعن الله من لعن والديه، ولعن الله من آوى محدثًا، ولعن الله من غيَّر منار الأرض» (١)).

ش: رواه مسلم من طرق وفيه قصة.

ورواه الإمام أحمد كذلك، عن أبي طفيل قال: قلنا لعلي: أخبرنا بشيء أسرَّه إليك رسول الله ﷺ فقال: ما أسرَّ إلي شيئًا كتمه الناس، ولكن سمعته يقول: «**لعن الله من ذبح لغير الله، ولعن الله من آوى محدثًا، ولعن الله من لعن والديه، ولعن الله من غيَّر تُخوم الأرض، يعني: المنار**» (٢).

وعلي بن أبي طالب: هو الإمام، أمير المؤمنين، أبو الحسن الهاشمي، ابن عم النبي ﷺ وزوج ابنته فاطمة الزهراء.

وكان من أسبق السابقين الأولين، ومن أهل بدر وبيعة الرضوان، وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة، ورابع الخلفاء الراشدين، ومناقبه مشهورة رضي الله عنه، قتله ابن ملجم الخارجي في رمضان سنة أربعين.

قوله: «لعن الله» اللعنة: البُعد عن مظان الرحمة ومواطنها. قيل: واللعين والملعون: من حقت عليه اللعنة، أو دعي عليه بها. قال أبو السعادات: أصل اللعن: الطرد والإبعاد من الله، ومن الخلق: السب والدعاء.

---

(١) رواه مسلم (١٩٧٨ / ٤٣ - ٤٥) في الأضاحي.
(٢) **صحيح الإسناد**: أحمد (١/ ١٠٨، ١١٨، ١٥٢) في المسند وسنده صحيح.

قال شيخ الإسلام رحمه الله ما معناه: إن الله تعالى يلعن من استحق اللعنة بالقول كما يصلي سبحانه على من استحق الصلاة من عباده قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾ [الأحزاب: ٤٣-٤٤] وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٤] وقال: ﴿مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦١].

والقرآن كلامه تعالى أوحاه إلى جبريل عليه السلام وبلّغه رسوله محمدًا ﷺ، جبرائيل سمعه منه كما سيأتي في الصلاة إن شاء الله تعالى.

فالصلاة ثناء الله تعالى كما تقدم. فالله تعالى هو المصلي وهو المثيب، كما دلَّ على ذلك الكتاب والسنة، وعليه سلف الأمة. قال الإمام أحمد رحمه الله: لم يزل الله متكلمًا إذا شاء.

قوله: «من ذبح لغير الله» قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: ﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٧٣] ظاهره: أنه ما ذُبح لغير الله، مثل أن يقول: هذا ذبيحة لكذا.

وإذا كان هذا هو المقصود فسواء لفظ به أو لم يلفظ، وتحريم هذا أظهر من تحريم ما ذبحه للصنم وقال فيه: باسم المسيح أو نحوه. كما أن ما ذبحناه متقربين به إلى الله كان أزكى وأعظم مما ذبحناه للحم، وقلنا عليه: بسم الله. فإذا حرم ما قيل فيه باسم المسيح أو الزهرة، فلأن يحرم ما قيل فيه لأجل المسيح أو الزهرة أو قصد به ذلك أولى، فإن العبادة لغير الله أعظم كفرًا من الإستعانة بغير الله.

وعلى هذا: فلو ذبح لغير الله متقربًا إليه يحرم، وإن قال فيه باسم الله، كما قد يفعله طائفة من منافقي هذه الأمة الذين يتقربون إلى الكواكب بالذبح والبخور ونحو ذلك.

وإن كان هؤلاء مرتدين لا تباح ذبيحتهم بحال. لكن يجتمع في الذبيحة مانعان: الأول: أنه مما أُهِلَّ به لغير الله. والثاني: أنها ذبيحة مرتد.

قلت: هذا لا اختلاف فيه، بين العلماء، وأمَّا إذا ذُبح للحم وذُكر على الذبيحة اسمُ المسيح أو الزُّهرة ونحو ذلك، فهذا الذي فيه خلافُ العلماء. وكلامُ شيخُ الإسلام

هذا: يدلُّ على أنَّه يقول بتحريمه، ووافقه على ذلك بعضُ العلماء.

وذكر القرطبيُّ في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام :١٢١]: ثم استثنى قوله: ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ﴾ [المائدة:٥]. يعني: ذبيحة اليهودي والنصراني، وإن كان النصراني يقول عند الذبح بسم المسيح. واليهودي يقول: بسم عُزير. وذكر قول عطاء: كُل من ذبيحة النصراني وإنْ قال: بسم المسيح؛ لأن الله تعالى قد أباح ذبائحهم، وقد علم ما يقولون. وذكر مثله عن القاسم بن مُخَيمَرة، وهو قول الزهري، وربيعة، والشعبي، ومكحول. وروي عن عُبادة بن الصَّامت، وأبي الدرداء من الصحابة مُلخصًا.

ثم قال ومن هذا الباب: ما يفعله الجاهلون بمكة من الذبح للجن، ولهذا روى عن النبي ﷺ أنه نهى عن ذبائح الجن [(١)]. انتهى.

قال الزمخشري: كانوا إذا اشتروا دارًا أو بنوها أو استخرجوا عينًا ذبحوا ذبيحة خوفًا أن تصيبهم الجن، فأضيفت إليهم الذبائح لذلك.

وذكر إبراهيم المروزي: أن ما ذُبح عند استقبال السلطان تقربًا إليه، أفتى أهل بخارى بتحريمه، لأنه مما أُهِلَّ به لغير الله.

قوله: «**لعن الله من لعن والديه**» يعني أباه وأمه وإنْ عَلَيا. وفي الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال: «**من الكبائر شتم الرجل والديه**»، قالوا: يا رسول الله، وهل يشتم الرجل والديه؟ قال: «**نعم يسب أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه فيسب أمه**» [(٢)].

قوله: «**لعن الله من آوى محدثًا**» هو بفتح الهمزة ممدودة أي: ضمَّهُ إليه وحماه أن يؤخذ منه الحق الذي وجب عليه.

---

(١) ضعيف جدًا: ابن الجوزي (٢/ ٣٠٢) في الموضوعات وأعله بـ (عبد الله بن أذينة) وهو متروك.

(٢) رواه البخاري (٥٩٧٣) في الأدب، ومسلم (٩٠/ ١٤٦) في الإيمان عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

قال أبو السعادات: أويتُ إلى المنزل، وأويت غيرى، وآويته. وأنكر بعضهم المقصور المتعدى وقال الأزهرى: هي لغة صحيحة.

وأما محدثًا: فقال أبو السعادات: يُروى بكسر الدال وفتحها، على الفاعل والمفعول، فمعنى الكسر: من نصر جانيًا وآواه وأجاره من خصمه، وحال بينه وبين أن يقتص منه. والفتح: هو الأمر المبتدَع نفسه، ويكون معنى الإيواء فيه: الرضى به والصبر عليه، فإنه إذا رضى بالبدعة وأقر فاعلها ولم ينكر عليه فقد آواه.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: هذه الكبيرة تختلف مراتبها باختلاف مراتب الحدث بنفسه. فكلما كان الحدث في نفسه أكبر كانت الكبيرة أعظم.

قوله: «**ولعن الله من غيَّر منار الأرض**» بفتح الميم: علامات حدودها. قال في النهاية أي: معالمها وحدودها، واحدها تخم. قيل: أراد حدود الحرم خاصة، وقيل هو عام في جميع الأرض، وأراد: المعالم التي يُهتدى بها في الطريق. وقيل هو أن يدخل الرجل في ملك غيره فيقتطعه ظُلمًا. قال وروى تَخوم بفتح التاء على الإفراد. وجمعه تخم بضم التاء والخاء. انتهى.

وتغييرها: أن يقدمها أو يؤخرها، فيكون هذا من ظلم الأرض، الذي قال فيه النبي ﷺ: «**من ظلم شبرًا من الأرض طُوقه يوم القيامة من سبع أرضين**» [1] ففيه: جواز لعن أهل الظلم من غير تعيين.

وأما لعن الفاسق المعين: ففيه قولان، أحدهما: أنه جائز. اختاره ابن الجوزى وغيره. ثانيهما: لا يجوز، اختاره، أبو بكر عبد العزيز وشيخ الإسلام.

وقال تانووي رحمه الله تعالى: واتفق العلماءُ على تحريم اللعن؛ فإنَّه في اللغة: الإبعادُ والطرَّد. وفي الشرع: الإبعادُ من رحمة الله.

فلا يجوز أنْ يُبعد من رحمة الله، من لا يُعرف حاله وخاتمة أمره معرفةً قطعية.

---

(١) رواه البخاري (٢٤٥٢) في المظالم، ومسلم (١٦١٠/١٣٨) في المساقاة عن سعيد بن زيد رضي الله عنه، ورواه البخاري (٢٤٥٣) في المظالم، ومسلم (١٦١٢/١٤٢) في المساقاة عن عائشة رضي الله عنها، ورواه البخاري (٢٤٥٤) في المظالم عن ابن عمر رضي الله عنهما.

فلهذا قالوا: لا يجوز لعن أحد بعينه، مُسلمًا كان أو كافرًا أو دابه. إلاَّ من علمنا بنصٍّ شرعي أنه مات على الكفر، أو يموت عليه كأي جهل وأبليس.

وأمَّا اللعنُ بالوصف، فليس بحرام. كلعن: الواصلة والمستوصلة، والواشمة والمستوشمة، وآكلِ الربا وموكله، والمصورين، والظالمين، والفاسقين، والكافرين، ولعن من غيَّر منار الأرض، ومن تولّى غير مواليه، ومن انتسب إلى غير أبيه، ومن أحدث في الإسلام حَدَثًا أو آوى محدثًا. وغير ذلك، ومما جاءت النصوص الشرعية بإطلاقه على الأوصاف لا على الأعيان والله أعلم.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وعن طارق بن شهاب أن رسول الله ﷺ قال: «دخل الجنة رجل في ذباب، ودخل النار رجل في ذباب». قالوا كيف يا رسول الله؟ قال: «مرَّ رجلان على قوم لهم صنم، لا يجاوزه أحد حتى يقرب له شيئًا، قالوا لأحدهما: قرِّب. قال: ليس عندي شيء أُقرِّب. قالوا له: قرِّب ولو ذبابًا. فقرَّب ذبابًا. فخلّوا سبيله، فدخل النار، وقالوا للآخر: قرِّب، فقال: ما كنت لأقرِّب لأحدٍ شيئًا دون الله عز وجل. فضربوا عنقه، فدخلَ الجنة» [1] **رواه أحمد).**

ش: قال ابن القيم رحمه الله: قال الإمام أحمد رحمه الله حدَّثنا أبو معاوية، حدَّثنا الأعمش، عن سليمان بن ميسرة، عن طارق بن شهاب، يرفعه، قال: **«دخل الجنة رجل في ذباب»** الحديث.

وطارق بن شهاب: هو البجلي الأحُمسي، أبو عبد الله. رأى النبي ﷺ وهو رجل.

قال البغوي: ونزل الكوفة.

وقال أبو داود: رأى النبي ﷺ ولم يسمع منه شيئًا. قال الحافظ: إذا ثبت أنه لقى

---

(١) وجدته عند أحمد في الزهد ص (١٥)، وبنفس السند رواه ابن قيم الجوزية ص (٥٢) في «الداء والدواء»، والصحيح وقفه لا رفعه وفي الحلية (١/ ٢٠٣) ذكره أبو نعيم من طريق طارق عن سلمان رضي الله عنه موقوفًا وهو الصحيح.

وفي (تيسير العزيز الحميد) قال الشيخ سليمان بن عبد الله: ذكره المصنف معزوًّا لأحمد وأظنه تبع ابن القيم في عزوه لأحمد، وقال: طالعت المسند فما رأيته فيه.

النبي فهو صحابي . وإذا ثبت أنه لم يسمع منه فروايته عنه مرسل صحابي وهو مقبول على الراجح .

وكانت وفاته - على ما جزم به ابن حبان - سنة ثلاث وثمانين .

قوله : «**دخل الجنة رجل في ذباب**» أي من أجله لأن في تأتي للتعليل .

قوله : (قالوا : وكيف ذلك يا رسول الله) كأنهم تقالوا ذلك ، وتعجبوا منه .

فبيَّن لهم النبي ﷺ ما صيَّر هذا الأمر الحقير عندهم عظيمًا ؛ يستحق هذا عليه الجنة ، ويستوجب الآخر عليه النار .

قوله : فقال : «**مرَّ رجلان على قوم لهم صنم**» الصنم : ما كان منحوتًا على صورة .

قوله : «**لا يجاوزه**» أي لا يمر به ولا يتعدَّاه أحد حتى يقرب إليه شيئًا وإن قلّ .

قوله : «**قالوا له قرب ولو ذبابًا فقرب ذبابًا فخلوا سبيله ، فدخل النار**» وفي هذا : بيان عظمة الشرك ، ولو في شيء قليل ، وأنه يوجب النار . كما قال تعالى : ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة : ٧٢] .

وفي هذا الحديث : الحذر من الوقوع في الشرك ، وأن الإنسان قد يقع فيه وهو لا يدرى أنه من الشرك الذي يوجب النار .

وفيه : أنه دخل النار بسبب لم يقصده ابتداء ، وإنما فعله تخلصًا من شرّ أهل الصنم .

وفيه : أن ذلك الرجل كان مسلمًا قبل ذلك ، وإلا فلو لم يكن مسلمًا لم يقل : دخل النار في ذباب .

وفيه : أن عمل القلب هو المقصود الأعظم حتى عند عبدة الأوثان ، ذكره المصنف بمعناه .

قوله : وقالوا للآخر : قرِّب . قال : ما كنت لأقرِّب شيئًا دون الله عز وجل» ففيه : بيانُ فضيلة التوحيد والإخلاص ، والصلابة في الدين .

وفيه : معنى قوله في الحديث : «**وأنْ يكره أنْ يعود في الكفر بعد إذْ أنقذه الله منه ،**

كما يكره أن يُقذف في النار» [١].

قال المصنف رحمه الله: (وفيه معرفة قدر الشرك في قلوب المؤمنين، كيف صبر على القتل ولم يوافقهم على طلبتهم مع كونهم لم يطلبوا منه إلا العمل الظاهر).

---

(١) سبق تخريجه في الصحيحين.

(١٠)



لا يذبح لله مكان يذبح فيه لغير الله

قال المصنف رحمه الله تعالى: (باب: لا يذبح بمكانٍ يذبح فيه لغير الله تعالى).

ش: لا نافية ويحتمل أنها للنهى وهو أظهر.

قال المصنف رحمه الله تعالى: وقول الله تعالى: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨].

ش: قال المفسرون إن الله تعالى نهى رسوله عن الصلاة في مسجد الضرار، والأمة تبعٌ له في ذلك.

ثم إنه تعالى حَثَّه على الصلاة في مسجد قُباء، الذي أُسِّسَ من أوَّل يوم بنى على التقوى، وهي طاعة الله ورسوله ﷺ، وجمعًا لكلمة المؤمنين ومعقلاً ومنزلاً للإسلام وأهله، ولهذا جاء في الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «**صلاة في مسجد قُباء كعمرة**» [(١)] وفي الصحيح: أن رسول الله ﷺ كان يزور قباء راكبًا وماشيًا [(٢)].

وقد صرح أن المسجد المذكور في الآية هو مسجد قباء جماعة من السلف، منهم: ابن عباس، وعروة، والشعبي، والحسن، وغيرهم.

---

(١) **صحيح الإسناد**: الترمذي (٣٢٤) في الصلاة - باب (١٣٠) بترقيم الألباني ابن ماجه (١١٤١) وصححه الألباني في الموضعين - ط - الرياض وهو عن أُسَيْد بن ظُهَيْر الأنصاري رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري (١١٩٣) في فضل الصلاة في مكة والمدينة، مسلم (١٣٩٩/ ٥١٥، ٥٢٠) في الحج عن ابن عمر رضي الله عنهما.

قلت: ويؤيده قوله في الآية ﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ ﴾ [التوبة: ١٠٨] وقيل هو مسجد رسول الله ﷺ لحديث أبي سعيد قال: تمارى رجلان في المسجد الذي أسس على التقوى من أول يوم، فقال رجل: هو مسجد قباء. وقال الآخر: هو مسجد رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «**هو مسجدي هذا**» [١] رواه مسلم، وهو قول عمر، وابنه، وزيد بن ثابت، وغيرهم.

قال ابن كثير: وهذا صحيح. ولا منافاة بين الآية والحديث؛ لأنه إذا كان مسجد قباء قد أسس على التقوى من أول يوم، فمسجد رسول الله ﷺ بطريق الأولى، وهذا بخلاف مسجد الضرار الذي أسس على معصية الله كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [التوبة: ١٠٧].

فلهذه الأمور نهى الله نبيه عن القيام فيه للصلاة. وكان الذي بنوه جاءوا إلى النبي ﷺ قبل خروجه إلى غزوة تبوك فسألوه أن يصلي فيه، وأنهم إنما بنوه للضعفاء وأهل العلّة في الليلة الشاتية، فقال: «**إنا على سفر، ولكن إذا رجعنا إن شاء الله**» [٢] فلما قفل عليه السلام راجعًا إلى المدينة، ولم يبق بينه وبينها إلاَّ يوم أو بعضه نزل الوحي بخبر المسجد، فبعث إليه فهدمه قبل قدومه إلى المدينة.

ووجه مناسبة الآية للترجمة: أن المواضع المعدَّة للذبح لغير الله يجب اجتناب الذبح فيها لله، كما أن هذا المسجد لمَّا أُعِدَ لمعصية الله صار محل غضب لأجل ذلك، فلا تجوز الصلاة فيه لله. وهذا قياس صحيح يؤيده حديث ثابت الضحاك الآتي.

قوله: ﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ ﴾ [التوبة: ١٠٨] روى الإمام أحمد وابن خزيمة وغيرهما عن عويم بن ساعدة الأنصاري: «**أن النبي ﷺ** آتاهم في مسجد قباء فقال: «**إن الله قد أحسن عليكم الثناء بالطهور في قصة مسجدكم، فما هذا الطهور الذي تطهرون به؟**» فقالوا: والله يا رسول الله ما نعلم شيئًا؛ إلا أنه كان لنا جيران من اليهود

---

(١) رواه مسلم (١٣٩٨) في الحج. وكلام ابن كثير في تفسيره (٤/ ١٤٨).
(٢) انظر تفسير ابن كثير (٤/ ١٤٦) وهو مرسل.

كانوا يغسلون أدبارهم من الغائط، فغسلنا كما غسلوا» [١] وفي رواية عن جابر وأنس: «هو ذاك فعليكموه» [٢] رواه ابن ماجه، وابن أبي حاتم، والدارقطني، والحاكم.

قوله: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨] قال أبو العالية: إن الطهور بالماء لحسن، ولكنهم المتطهرون من الذنوب. وفيه إثبات صفة المحبة، خلافًا للأشاعرة ونحوهم.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وعن ثابت بن الضحاك قال: نذر رجل أن ينحر إبلًا ببوانة، فسأل النبي ﷺ فقال: «هل كان فيها وثنٌ من أوثان الجاهلية يُعبَد؟» قالوا: لا. قال: «فهل كان فيها عيد من أعيادهم؟». قالوا: لا. فقال رسول الله ﷺ: «أوف بنذرك، فإنه لا وفاء لنذرٍ في معصية الله ولا فيما لا يملك ابن آدم» [٣] **رواه أبو داود، وإسناده على شرطهما).**

ش: قوله: (عن ثابت بن الضحاك) أي ابن خليفة الأشهلي، صحابيٌّ مشهور، روى عنه أبو قلابة وغيره. مات سنة أربع وستين.

قوله: (ببوانة) بضم الباء وقيل بفتحها. **قال البغوي**: موضع في أسفل مكة دون يَلَمْلَم. قال أبو السعادات: هضبة من وراء ينبع.

قوله: «**فهل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يُعبد؟**» فيه المنع من الوفاء بالنذر إذا كان في المكان وثن، ولو بعد زواله. قاله **المصنف** رحمه الله.

قوله: «**فهل كان فيها عيد من أعيادهم؟**» قال شيخ الإسلام رحمه الله: العيد اسم لما يعود من الاجتماع العام على وجه معتاد عائد، إما بعود السنة، أو بعود الأسبوع، أو الشهر، أو نحو ذلك.

---

(١) هو عند أحمد (٣/ ٤٢٢) في المسند برقم (١٥٤٢٤) وفيه شرحبيل بن سعد، ضعفه جماعة، ووثقه الترمذي، ورواه الطبراني (١٧/ ١٤٠) في الكبير برقم (٣٤٨) والطبري (١١/ ٣٠) في التفسير وابن خزيمة (١/ ٤٥) برقم (٨٣) وهو (حسن) بهذه الروايات وشواهد إن شاء الله.

(٢) **صحيح**: ابن ماجه (٣٥٥) في الطهارة، وصححه الألباني (٣٤) في صحيح أبي داود وفي المشكاة (٣٦٩).

(٣) **صحيح**: أبو داود: (٣٣١٣) في الأيمان والنذور وصححه الألباني هناك، وفي المشكاة (٣٤٣٧).

والمراد به هنا: الاجتماع المعتاد من اجتماع أهل الجاهلية. فالعيد يجمع أمورًا منها: يوم عائد، كيوم الفطر ويوم الجمعة، ومنها: اجتماع فيه، ومنها: أعمال تتبع ذلك من العبادات والعادات، وقد يختص العيد بمكان بعينه، وقد يكون مطلقًا، وكل من هذه الأمور قد يسمى عيدًا. فالزمان كقول النبي ﷺ في يوم الجمعة «**إن هذا يوم قد جعله الله للمسلمين عيدًا**» [١] والاجتماع والأعمال كقول ابن عباس شهدت العيد مع رسول الله ﷺ [٢].

والمكان كقول النبي ﷺ «**لا تتخذوا قبري عيدًا**» [٣] وقد يكون لفظ العيد اسمًا لمجموع اليوم والعمل فيه وهو الغالب، كقول النبي ﷺ: «**دعهما يا أبا بكر فإن لكل قوم عيدًا**» [٤] انتهى.

قال المصنف: **(وفيه استفصال المفتي، والمنع من الوفاء بالنذر بمكان عيد الجاهلية ولو بعد زواله)**.

قلت: وفيه سد الذريعة وترك مشابهة المشركين، والمنع مما هو وسيلة إلى ذلك.

قوله: «**أوف بنذرك**» هذا يدل على أن الذبح لله في المكان الذي يذبح فيه المشركون لغير الله. أو في محل أعيادهم معصية؛ لأن قوله: «**فأوف بنذرك**» تعقيب للوصف بالحكم بالوفاء، وذلك يدل على أن الوصف سبب الحكم. فيكون سبب الأمر بالوفاء خلوه من هذين الوصفين.

فلمّا قالوا: لا، قال: «**أوف بنذرك**» وهذا يقتضي أن كون البقعة مكانًا لعيدهم، أو بها وثن من أوثانهم: مانع من الذبح بها ولو نذره. قاله شيخ الإسلام.

---

(١) **حسن الإسناد**: ابن ماجه (١٠٩٨) في إقامة الصلاة عن ابن عباس رضي الله عنه، وحسنه الألباني هناك.

(٢) رواه البخاري (٩٧٧) في العيدين.

(٣) **حسن الإسناد**: قال الهيثمي (٤/ ٣) في المجمع: رواه أبو يعلى وفيه حفص بن إبراهيم الجعفري ذكره ابن أبي حاتم ولم يذكر فيه جرحًا وبقية رجاله ثقات.

قلت: وله شاهد من حديث أبي هريرة رضي الله عنه فبه يحسن إن شاء الله.

(٤) رواه البخاري (٩٥٢) في العيدين، مسلم (٨٩٢) في العيدين.

وقوله: «**فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله**» دليل على أن هذا نذر معصية، لو قد وجد في المكان بعض الموانع. وما كان من نذر المعصية فلا يجوز الوفاء به بإجماع العلماء.

واختلفوا: هل تجب فيه كفارة يمين؟ على قولين هما روايتان عن أحمد.

أحدهما: تجب وهو المذهب. وروى عن ابن مسعود، وابن عباس. وبه قال أبو حنيفة وأصحابه، لحديث عائشة رضي الله عنها مرفوعًا: «**لا نذر في معصية، وكفارته كفارة يمين**» [1] رواه أحمد، وأهل السنن، واحتج به أحمد، وإسحاق.

ثانيهما: لا كفارة عليه. وروى ذلك عن مسروق، والشعبي، والشافعي، لحديث الباب. ولم يذكر فيه كفارة. وجوابه: أنه ذكر الكفارة في الحديث المتقدم. والمطلق يحمل على المقيَّد.

قوله: «**ولا فيما لا يملك ابن آدم**» قال في (شرح المصابيح): يعنى إذا أضاف النذر إلى معيَّن لا يملكه بأن قال: إن شفى الله مريضي فلله عليَّ أن أعتق عبد فلان ونحو ذلك. فأما إذا التزم في الذمة شيئًا، بأن قال: إن شفى الله مريضي فلله عليَّ أن أعتق رقبة، وهو في تلك الحال لا يملكها ولا قيمتها، فإذا شفى مريضه ثبت ذلك في ذمته.

قوله: (رواه أبو داود، وإسناده على شرطهما) أي البخاري ومسلم.

وأبو داود: اسمه سُليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شدَّاد الأزدى السجستانى صاحب الإمام أحمد، ومصنف (السنن) و(المراسيل) وغيرهما، ثقة إمام حافظ، من كبار العلماء، مات سنة خمس وسبعين ومائتين. رحمه الله تعالى.



(١) **صحيح**: أبو داود: (٣٢٩٠ - ٣٢٩١) في الأيمان، والترمذي (١٥٢٤) وأعلّه بأن الزهري لم يسمع الحديث من أبي سلمة، ورجّح الإمام أحمد تصحيحه وبه قال الألباني في سنن أبي داود.

(١١)



من الشرك النذر لغير الله

قال المصنف رحمه الله تعالى: (باب : من الشرك النذر لغير الله تعالى) .

ش: أي لكونه عبادة يجب الوفاء به إذا نذره لله . فيكون النذر لغير الله تعالى شركًا في العبادة .

قال المصنف رحمه الله تعالى: وقوله تعالى : ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان :٧] .

ش: فالآية دلَّت على وجوب الوفاء بالنذر ومدح من فعل ذلك طاعةً لله ووفاءً بما تقرب به إليه .

قال المصنف رحمه الله تعالى: وقوله تعالى : ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾ [البقرة :٢٧٠] .

ش: قال ابن كثير : يخبر تعالى أنه عالم بجميع ما يعمله العاملون من الخيرات ، من النفقات والمنذورات ، وتضمن ذلك مجازاته على ذلك أوفر الجزاء للعاملين ابتغاء وجهه .

إذا علمت ذلك : فهذه النذور الواقعة من عُبَّاد القبور ، تقرُّبًا بها إليهم ليقضوا لهم حوائجهم وليشفعوا لهم ، كل ذلك شرك في العبادة بلا ريب ، كما قال تعالى : ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الأنعام :١٣٦] .

قال شيخ الإسلام رحمه الله: وأما ما نذر لغير الله كالنذر للأصنام والشمس والقمر والقبور ونحو ذلك، فهو بمنزلة أن يحلف بغير الله من المخلوقات. والحالف بالمخلوقات لا وفاء عليه ولا كفّارة، وكذلك الناذر للمخلوقات، فإن كلاهما شرك. والشرك ليس له حرمة، بل عليه أن يستغفر الله من هذا ويقول ما قال النبي ﷺ: **«من حلف باللاّت والعُزّى فليقل لا إله إلا الله»** (١).

وقال فيمن نذر سمعة أو نحوها دهنًا لتُنَوَّر به ويقول: إنها تقبل النذر كما يقوله بعض الضالين، وهذا النذر معصية باتفاق المسلمين لا يجوز الوفاء به، وكذلك إذا نذر مالاً للسَّدنة أو المجاورين العاكفين بتلك البقعة. فإن فيهم شبهًا من السَّدنة التي كانت عند اللات والعزى ومناة، يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدُّون عن سبيل الله.

والمجاورون هناك فيهم شبهٌ من الذين قال فيهم الخليل عليه السلام: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٢] والذين اجتاز بهم موسى عليه السلام وقومه، قال تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ﴾ [الأعراف: ١٣٨] فالنذر لأولئك السّدنة والمجاورين في هذه البقاع نذر معصية. وفيه شبه من النذر لسدنة الصلبان والمجاورين عندها، أو لسدنة الأبداد في الهند والمجاورين عندها.

وقال الأذرُعي في (شرح المنهاج): وأما النذر للمشاهد التي على قبر وليّ أو شيخ، أو على اسم من حَلَّها من الأولياء، أو تردد في تلك البقعة من الأولياء والصالحين؛ فإن قصد الناذر بذلك - وهو الغالب أو الواقع من قصود العامة- تعظيم البقعة والمشهد، أو الزاوية، أو تعظيم من دفن بها أو نُسبت إليه، أو بنيت على اسمه فهذا النذر باطل غير منعقد، فإن معتقدهم أن لهذه الأماكن خصوصيات، ويرون أنها مما يدفع به البلاء ويستجلب بها النعماء، ويستشفى بالنذر لها من الأدواء، حتى إنهم ينذرون لبعض الأحجار؛ لما قيل لهم: إنه استند إليها عبد صالح وينذرون لبعض القبور السُرُجَ والشموع والزيت.

(١) رواه البخاري (٦٦٥٠) في الأيْمان والنذور، ومسلم (١٦٤٧) في الأيْمان عن أبي هريرة رضي الله عنه.

ويقولون: القبر الفلاني أو المكان الفلاني يقبل النذر، يعنون بذلك أنه يحصل به الغرض المأمول من شفاء مريض، أو قدوم غائب أو سلامة مال، وغير ذلك من أنواع نذر المجازاة، فهذا النذر على الوجه باطل لا شك فيه، بل نذر الزيت والشمع ونحوهما للقبور باطلٌ مطلقًا.

ومن ذلك: نذر الشموع الكثيرة العظيمة وغيرها لقبر الخليل عليه السلام ولقبر غيره من الأنبياء والأولياء، فإن الناذر لا يقصد بذلك الإيقاد على القبر إلا تبركًا وتعظيمًا، ظانًّا أن ذلك قربة، فهذا مما لا ريب في بطلانه، والإيقادُ المذكور مُحَرَّم، سواء انتفع به هناك منتفع أم لا.

قال الشيخ قاسم الحنفى في (شرح درر البحار): النذر الذي ينذره أكثر العوام على ما هو مشاهد، كأن يكون للإنسان غائب أو مريض أو له حاجة، فيأتي إلى بعض الصلحاء ويجعل على رأسه سُترة، ويقول: يا سيدي فلان! إنْ ردَّ الله غائبي أو عُوفي مريضي، أو قُضِيَتْ حاجتي، فلك من الذهب كذا، أو من الفضة كذا، أو من الطعام كذا، أو من الماء كذا، أو من الشمع والزيت.

فهذا النذر باطل بالإجماع لوجوه:

منها: أنه نذر لمخلوق، والنذر للمخلوق لا يجوز، لأنه عبادة والعبادة لا تكون لمخلوق.

ومنها: أن المنذور له ميت، والميت لا يملك.

ومنها: أنه ظن أن الميت يتصرف في الأمور دون الله، واعتقاد ذلك كفر.

إلى أن قال: إذا علمت هذا فما يؤخذ من الدراهم والشمع والزيت وغيرها وينقل إلى ضرائح الأولياء تقربًا إليها: فحرام بإجماع المسلمين.

نقله عنه ابن نُجيم في (البحر الرائق). ونقله المرشدى في (تذكرته) وغيرهما عنه. وزاد: وقد ابتلى الناس بهذا لا سيما في مولد البدوي.

وقال الشيخ صنع الله الحلبي الحنفي في الرد على من أجاز الذبح والنذر للأولياء: فهذا الذبح والنذر إن كان على اسم فلان فهو لغير الله، فيكون باطلاً. وفي

التنزيل ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام:١٢١] ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ [الأنعام:١٦٢-١٦٣] والنذر لغير الله إشراك مع الله، كالذبح لغيره.

قال المصنف رحمه الله تعالى: **(وفي الصحيح، عن عائشة: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «مَن نذر أنْ يُطيع الله فلْيُطعه، ومن نذر أنْ يَعصي الله فلاَ يعصه»** [(١)]).

ش: قوله في (الصحيح). أي: (صحيحُ البخاري)

قوله: (عن عائشة) هي أم المؤمنين، زوج النبي ﷺ، وابنة الصديق رضي الله عنهما تزوجها النبي ﷺ وهي ابنة سبع سنين، ودخل بها وهي ابنة تسع وهي أفقه النساء مطلقًا، وهي أفضل أزواج النبي ﷺ إلا خديجة، ففيها خلاف. ماتت سنة سبع وخمسين على الصحيح رضي الله عنها.

قوله: «**من نذر أن يطيع الله فليطعه**» أي فليفعل ما نذره من طاعة الله وقد أجمع العلماء على أن من نذر طاعة بشرط يرجوه، كإن شفى الله مريضى فعلي أن أتصدق بكذا ونحو ذلك وجب عليه، إنْ حصل له ما علَّق نذره على حصوله.

وحكى عن أبي حنيفة: أنه لا يلزم الوفاء إلا بما جنسه واجب بأصل الشرع كالصوم وأما ما ليس كذلك، كالاعتكاف فلا يجب عليه الوفاء به.

قوله: «**ومن نذر أن يعصى الله فلا يعصه**» زاد الطحاوى: «**وليكفِّر عن يمينه**» [(٢)] وقد أجمع العلماء على أنه لا يجوز الوفاء بنذر المعصية.

قال الحافظ: اتفقوا على تحريم النذر في المعصية، وتنازعوا: هل ينعقد موجبًا للكفارة أم لا؟ وتقدم.

وقد يستدل بالحديث على صحة النذر في المباح، كما هو مذهب أحمد وغيره، يؤيده: ما رواه أبو داود عن عمرو بن شعيب، عن أبيه عن جده، وأحمد والترمذي عن

(١) رواه البخاري (٦٦٩٦ - ٦٧٠٠) في الأيْمان والنذور.
(٢) هي زيادة ظاهرة الصحة كما في شرح مشكل الآثار (٢١٤٤) ونقل ابن حجر (٤/ ١٧٥) برقم (٢٠٥٧) عن ابن القطان قوله: عندي شك في هذه الزيادة.

بريدة: أن امرأة قالت: يا رسول الله إني نذرت أن أضرب على رأسك بالدُّف، فقال: «أوفي بنذرك» (١).

وأما نذر اللِّجاج والغضب: فهو يمين عند أحمد، فيخير بين فعله وكفارة يمين؛ لحديث عمران بن حصين مرفوعًا «**لا نذر في غضب، وكفارته كفارة يمين**» (٢) رواه سعيد بن منصور، وأحمد والنسائي، فإن نذر مكروهًا كالطلاق استحب أن يكفّر ولا يفعله.



(١) **صحيح الإسناد**: الترمذي (٣٦٩٠) في المناقب وقال: حسن صحيح غريب، وصححه الألباني، وقال الترمذي وفي الباب عن ابن عمر وسعد بن أبي وقاص، وعائشة.
(٢) **ضعيف جدًا**: النسائي (٧/ ٢٩) برقم (٣٨٤٦) في سننه وفيه محمد بن الزبير الحنظلي وهو متروك.

(١٢)



من الشرك الاستعاذة بغير الله

قال المصنف رحمه الله تعالى: (باب: من الشرك الاستعاذة بغير الله).

ش: الاستعاذة الالتجاء والاعتصام، ولهذا يُسمَّى المستعاذ به: معاذًا وملجأ فالعائذ بالله قد هرب مما يؤذيه أو يهلكه، إلى ربه ومالكه، واعتصم واستجار به والتجأ إليه، وهذا تمثيل، وإلا فما يقوم بالقلب من الالتجاء إلى الله، والاعتصام به، والإطراح بين يدى الرب، والافتقار إليه، والتذلل له، أمرٌ لا تحيط به العبارة. قاله ابن القيم رحمه الله.

وقال ابن كثير: الاستعاذة: هي الالتجاء إلى الله والالتصاق بجنابه من شرِّ كل ذي شر. والعياذ يكون لدفع الشر. واللياذ لطلب الخير. انتهى.

قلت: وهي من العبادات التي أمر الله تعالى بها عباده، كما قال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٦] وأمثال ذلك في القرآن كثير كقوله: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ [الفلق: ١] و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ١] فما كان عبادة لله فصرفه لغير الله شرك.

فمن صرف شيئًا من هذه العبادات لغير الله جعله شريكًا لله في عبادته ونازع الرب في إلهيته كما أن من صلى لله صلى لغيره يكون عابدًا لغير الله، ولا فرق، كما سيأتي تقريره قريبًا إن شاء الله تعالى.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وقول الله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦]).

ش: قال ابن كثير : أي : كنا نرى أن لنا فضلاً على الإنس ، لأنهم كانوا يعوذون بنا ، أي : إذا نزلوا واديًا أو مكانًا موحشًا من البراري وغيرها كما كانت عادة العرب في جاهليتها يعوذون بعظيم ذلك المكان من الجان أن يصيبهم بشيء يسوءهم .

كما كان أحدهم يدخل بلاد أعدائه في جوار رجل كبير وذمامه وخفارته ، فلما رأت الجن أن الإنس يعوذون بهم من خوفهم منهم زادوهم رهقًا ، أي خوفًا وإرهابًا وذعرًا ، حتى يبقوا أشد منهم مخافة وأكثر تعوذًا بهم - إلى أن قال - قال أبو العالية والربيع وزيد بن أسلم : «رهقًا» أي خوفًا .

وقال العوفي عن ابن عباس «فزادوهم رهقًا» أي إثمًا (١) ، وكذا قال قتادة (٢) . اهـ .

وذلك أن الرجل من العرب كان إذا أمسى بواد قفر وخاف على نفسه قال : أعوذ بسيد هذا الوادي من سفهاء قومه ، يريد كبير الجن .

قال مجاهد : كانوا إذا هبطوا واديًا يقولون : نعوذ بعظيم هذا الوادي . ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦] . قال : زادوا الكفار طغيانًا . رواه عبدُ بن حميد ، وابن المنذر .

كما قال السُّدي : كان الرجلُ يخرج بأهله ، فيأتي الأرض فينزلها ، فيقول : أعوذ بسيد هذا الوادي من الجن ، أن أُضرَّ فيه أو مالي أو ولدي أو ماشيتي . قال : فإذا عاذ بهم من دون الله ، رهَقَتهم الجنُّ الأذى عند ذلك .

وذكر عن ابن أبي حاتم بسندٍ إلى عكرمة نحو ذلك . انتهى .

وقد أجمع العلماء : على أنه لا يجوز الاستعاذة بغير الله .

وقال مُلاَّ على قاري الحنفي : لا تجوز الاستعاذة بالجن ، فقد ذم الله الكافرين على ذلك وذكر الآية وقال : قال تعالى ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٢٨] .

---

(١) **ضعيف** : العوفي سنده مسلسل بالضعفاء والمجاهيل ، وانظر تفسير الطبري (٢٩/ ١٠٨ - ١٠٩) .
(٢) **صحيح** : الطبري (٢٩/ ١٠٨) في تفسيره .

فاستمتاع الإنسي بالجني: في قضاء حوائجه وامتثال أوامره وإخباره بشيء من المغيبات، واستمتاع الجنى بالإنسى تعظيمه إياه، وإستعاذته به وخضوعه له. انتهى ملخصًا.

قال المصنف: (وفيه أن كون الشيء يحصل به منفعة دنيوية لا يدل على أنه ليس من الشرك).

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وعن خولة بنت حكيم قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من نزل منزلاً فقال: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق، لم يضره شيء حتى يرتحل من منزله ذلك»[1]. رواه مسلم).

ش: هي خولة بنت حكيم بن أمية السلمية، يقال لها: أم شريك، ويقال إنها هي الواهبة وكانت قبل تحت عثمان بن مظعون.

قال ابن عبد البر: وكانت صالحة فاضلة.

قوله: **«أعوذ بكلمات الله التامات»** شرع الله لأهل الإسلام أن يستعيذوا به بدلاً عما يفعله أهل الجاهلية من الاستعاذة بالجن، فشرع الله للمسلمين أن يستعيذوا بأسمائه وصفاته.

قال القرطبي: قيل: معناه الكاملات التي لا يلحقها نقصٌ ولا عيب، كما يلحق كلام البشر. وقيل معناه: معناه الشافية الكافية. وقيل الكلمات هنا هي القرآن. فإن الله أخبر عنه بأنه: ﴿هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ [فصلت: ٤٤] وهذا الأمر على جهة الإرشاد إلى ما يدفع به الأذى.

ولما كان ذلك استعاذة بصفات الله تعالى كان من باب المندوب إليه المرغب فيه، وعلى هذا فحق المستعيذ بالله أو بأسمائه وصفاته أن يصدق الله في التجائه إليه، ويتوكل في ذلك عليه، ويُحضر ذلك في قلبه، فمتى فعل ذلك وصل إلى منتهى طلبه ومغفرة ذنبه.

قال شيخ الإسلام: وقد نص الأئمة كأحمد وغيره على أنه لا يجوز الاستعاذة

---

(١) رواه مسلم (٢٧٠٨) في الذكر والدعاء.

بمخلوق . وهذا مما استدلوا به على أن كلام الله غير مخلوق . قالوا : لأنه ثبت عن النبي ﷺ أنه استعاذ بكلمات الله وأمر بذلك ، ولهذا نهى العلماء عن التعازيم والتعاويذ التي لا يعرف معناها خشية أن يكون فيها شرك .

وقال ابن القيم : ومن ذبح للشيطان ودعاه ، واستعاذ به وتقرب إليه بما يحب فقد عبده ، وإن لم يسم ذلك عبادة ويسميه استخدامًا ، وصَدَقَ ، هو استخدام من الشيطان له ، فيصير من خدم الشيطان وعابديه ، وبذلك يخدمه الشيطان ، لكن خدمة الشيطان له ليست خدمة عباده ، فإن الشيطان لا يخضع له ولا يعبده كما يفعل هو به .

قوله : «من شر ما خلق» قال ابن القيم رحمه الله : أي من كل شر في أي مخلوق قام به الشر : من حيوان أو غيره ، إنسيًا أو جنيًا ، أو هامة أو دابة ، أو ريحًا أو صاعقة ، أو أي نوع من أنواع البلاء في الدنيا والآخرة .

وما : هاهنا موصولة وليس المراد بها العموم الإطلاقي ، بل المراد التقييدي الوصفي ، والمعنى : من شر كل مخلوق فيه شر ، لا من شر كل ما خلقه الله ، فإن الجنة والملائكة والأنبياء ليس فيهم شر ، والشر يقال على شيئين : على الألم ، وعلى ما يُفضي إليه .

قوله : «لم يضره شيء حتى يرحل من منزله ذلك» قال القرطبي : هذا خبر صحيح وقول صادق علمنا صدقه دليلاً وتجربة .

فإني منذ سمعت هذا الخبر عملت عليه فلم يضرني شيء إلى أن تركته ، فلدغتني عقرب بالمهدية ليلاً ، فتفكرتُ في نفسي ، فإذا بي قد نسيتُ أن أتعوَّذ بتلك الكلمات .



(١٣)



من الشرك الاستعانة بغير الله ودعاء غير الله

قال المصنف رحمه الله تعالى: (باب: من الشرك أن يستغيث بغير الله أو يدعو غيره).

ش: قال شيخ الإسلام رحمه الله: الاستغاثة هي طلبُ الغَوث، وهو إزالة الشِّدة، كالاستنصار: طلبُ النصر. والاستعانة: طلب العون.

وقال غيره: الفرقُ بين الاستعانة والدعاء: أن الاستغاثة لا تكون إلا من المكروب، والدعاء أعم من الاستغاثة، لأنه يكون من المكروب وغيره. فعطف الدعاء على الاستغاثة من عطف العام على الخاص.

فبينهما عمومٌ وخصوص مطلق، يجتمعان في مادة وينفرد الدعاء عنها في مادة، فكل استغاثة دعاء، وليس كل دعاء استغاثة.

وقوله: (أو يدعو غيره) اعلم أن الدعاء نوعان: دعاء عبادة، ودعاء مسألة، ويراد به في القرآن هذا تارة، وهذا تارة، ويراد به مجموعهما.

فدعاء المسألة: هو طلب ما ينفع الداعي من جلب نفع أو كشف ضر، ولهذا أنكر الله على من يدعو أحدًا من دونه ممن لا يملك ضرًّا ولا نفعا، كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[المائدة: ٧٦] وقوله: ﴿قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[الأنعام: ٧١].

وقال: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٦].

قال شيخ الإسلام رحمه الله: فكل دعاء عبادة مستلزم لدعاء المسألة، وكل دعاء مسألة متضمن لدعاء العبادة، قال الله تعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥] وقال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٤٠-٤١] وقال: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨] وقال تعالى: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ [الرعد: ١٤] وأمثال هذا في القرآن في دعاء المسألة أكثر من أن يحصر، وهو يتضمن دعاء العبادة، لأن السائل أخلص سؤاله لله، وذلك من أفضل العبادات، وكذلك الذاكر لله والتالي لكتابه ونحوه، طالب من الله في المعنى، فيكون داعيًا عابدًا.

فتبين بهذا من قول شيخ الإسلام أن دعاء العبادة مستلزم لدعاء المسألة كما أن دعاء المسألة متضمن لدعاء العبادة.

وقد قال الله تعالى عن خليله: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ۝ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ [مريم: ٤٨-٤٩] فصار الدعاء من أنواع العبادة، فإن قوله: ﴿رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ [مريم: ٤]

وقد أمر الله تعالى به في مواضع من كتابه، كقول: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ۝ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥-٥٦]. وهذا هو دعاء المسألة المتضمن للعبادة، فإن الداعي يرغب إلى المدعو ويخضع له ويتذلل، وغير ذلك.

وضابط هذا: أن كل أمر شرعه الله لعباده وأمرهم به ففعله لله عبادة، فإذا صرف من تلك العبادة شيئًا لغير الله فهو مشرك، مصادم لما بعث به رسوله من قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى﴾ [الزمر: ١٤] وسيأتي لهذا مزيد بيان إن شاء الله تعالى.

قال شيخ الإسلام رحمه الله في (الرسالة السَّنية): فإذا كان على عهد النبي ﷺ ممن انتسب إلى الإسلام من مرق منه مع عبادته العظيمة، فليعلم أن المنتسب إلى الإسلام والسنة في هذه الأزمان قد يمرق أيضًا من الإسلام لأسباب منها: الغلو في بعض المشايخ، بل الغلو في علي بن أبي طالب، بل الغلو في المسيح عليه السلام.

فكل من غلا في نبي أو رجل صالح، وجعل فيه نوعًا من الإلهية مثل أن يقول: يا سيدي فلان انصرني أو أغثني، أو ارزقني، أو أنا في حسبك، ونحو هذه الأقوال. فكل هذا شرك وضلال يستتاب صاحبه، فإن تاب وإلا قتل.

فإن الله سبحانه وتعالى إنما أرسل الرسل، وأنزل الكتب، ليعبد وحده لا شريك له، ولا يدعى معه إله آخر. والذين يدعون مع الله آلهة أخرى مثل المسيح والملائكة والأصنام، لم يكونوا يعتقدون أنها تخلق الخلائق أو تنزل المطر أو تنبت النبات، وإنما كانوا يعبدونهم، أو يعبدون قبورهم، أو يعبدون صورهم، يقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾[الزمر: ٣] ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾[يونس: ١٨] فبعث الله سبحانه رسله تنهى عن أن يدعى أحد من دونه، لا دعاء عبادة ولا دعاء استغاثة. انتهى.

وقال أيضًا: من جعل بينه وبين الله وسائط يتوكل عليهم ويدعوهم ويسألهم كفر إجماعًا.

نقله عنه صاحب (الفروع) وصاحب (الإنصاف) وصاحب (الإقناع) وغيرهم. وذكره في (مسأل الوسائط) الإسلام ونقلته منه في (الرد على ابن جرجيس).

وقال ابن القيم رحمه الله: ومن أنواعه - أي: الشرك - طلب الحوائج من الموتى، والاستغاثة بهم والتوجه إليهم. وهذا أصل شرك العالم؛ فإن الميت قد انقطع عمله، وهو لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا، فضلاً عمن استغاث به أو سأله أن يشفع له إلى الله، وهذا من جهله بالشافع والمشفوع عنده، وسيأتي تتمة كلامه في باب الشفاعة إن شاء الله تعالى.

وقال الحافظ محمد بن عبد الهادي رحمه الله، في (رده على السبكى) في قوله: إن المبالغة في تعظيمه - أي الرسول ﷺ - واجبة:

إن أُريد بها المبالغة بحسب ما يراه كل أحد تعظيمًا، حتى الحج إلى قبره، والسجود له، والطواف به، واعتقاد أنه يعلم الغيب، وأنه يعطى ويمنع، ويملك لمن استغاث به من دون الله الضر والنفع، وأنه يقضى حوائج السائلين ويفرج كربات المكروبين، وأنه يشفع فيمن يشاء، ويدخل الجنة من يشاء.

فدعوى وجوب المبالغة في هذا التعظيم مبالغة في الشرك، وانسلاخ من جملة الدين.

وفي (الفتاوى البزازية) من كتب الحنفية: قال علماؤنا: من قال أرواح المشايخ حاضرة تعلم: يكفر.

وقال الشيخ صنع الله الحنفي رحمه الله - في كتابه الرد في على من ادَّعى أنَّ للأولياء تصرفات في الحياة وبعد الممات على سبيل الكرامة: هذا وأنه قد ظهر الآن فيما بين المسلمين، جماعات. يِّدعون أن للأولياء تصرفات بحياتهم وبعد مماتهم، ويستغاث بهم في الشدائد والبليات وبهممهم تكشف المهمات.

فيأتون قبورهم وينادونهم في قضاء الحاجات، مستدلين أن ذلك منهم كرامات وقالوا: منهم أبدال ونقباء، وأوتاد، ونُجباء وسبعون وسبعة، وأربعون وأربعة، والقطب هو الغوث للناس، وعليه المدار بلا التباس، وجوزوا لهم الذبائح والنذور، وأثبتوا فيهما الأجور.

قال: وهذا كلام فيه تفريط وإفراط، بل فيه الهلاك الأبدى والعذاب السرمدى، لما فيه من روائح الشرك المحقق، ومصادرة الكتاب العزيز المصدق، ومخالفة لعقائد الأئمة وما اجتمعت عليه الأمة. وفي التنزيل: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

ثم قال: وأما قولهم: إن للأولياء تصرفات في حياتهم وبعد الممات، فيرده قوله تعالى: ﴿أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ﴾ [النمل: ٦٠] ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ﴾ [الأعراف: ٥٤] ﴿لِّلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [الشورى: ٤٩] ونحوه من الآيات الدالة على أنه المتفرد بالخلق والتدبير، والتصرف والتقدير، ولا شيء لغيره في شيءٍ ما بوجه من الوجوه فالكل تحت ملكه وقهره تصرفًا وملكًا، وإماتة وخلقًا.

وتمدح الرب تبارك وتعالى بانفراده بملكه في آيات من كتابه كقوله: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ [فاطر: ٣] ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ۝ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣-١٤] وذكر آيات في هذا المعنى.

ثم قول: فقوله في الآيات كلها ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ [النساء: ١١٧] أي: من غيره. فإنه هام يدخل فيه من اعتقدته، من ولي وشيطان تستمده؛ فإن من لم يقدر على نصر نفسه كيف يمد غيره؟

إلى أن قال: إن هذا القول وخيم، وشرك عظيم، إلى أن قال: وأما القول بالتصرف بعد الممات فهو أشنع وأبدع من القول بالتصرف في الحياة. قال جل ذكره: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠] ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الزمر: ٤٢] ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥] ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: ٣٨] وفي الحديث: «**إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث**»[(١)] الحديث.

فجميع ذلك وما هو نحوه دال على انقطاع الحس والحركة من الميت، وأن أرواحهم ممسكة، وأن أعمالهم منقطعة عن زيادة ونقصان، فدل ذلك على أنه ليس للميت تصرف في ذاته فضلاً عن غيره. فإذا عجز عن حركة نفسه. فكيف يتصرف في غيره؟ فالله سبحانه يخبر أن الأرواح عنده، وهؤلاء الملحدون يقولون: إن الأرواح مطلقة متصرفة ﴿قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ١٤٠].

قال: وأما اعتقادهم أن هذه التصرفات لهم من الكرامات، فهو من المغالطة؛ لأن الكرامة شيء من عند الله يكرم به أولياءه، لا قصد لهم فيه ولا تحدي، ولا قدرة ولا علم، كما في قصة مريم ابنة عمران، وأسيد بن حضير، وأبي مسلم الخولاني.

قال: وأما قولهم فيستغاث بهم في الشدائد، فهذا أقبح مما قبله وأبدع لمصادمته قوله جل ذكره: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ

---

(١) رواه مسلم (١٦٣١ / ١٤) في الوصية عن أبي هريرة رضي الله عنه.

مَّعَ ٱللَّهِ﴾ [النمل: ٦٢] ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٦٣-٦٤] وذكر آيات في هذا المعنى.

ثم قال: فإنه جل ذكره قرر أنه الكاشف للضر لا غيره، وأنه المتفرد بإجابة المضطرين، وأنه المستغاث لذلك كله، وأنه القادر على دفع الضر، القادر على إيصال الخير. فهو المنفرد بذلك، فإذا تعين هو جل ذكره خرج غيره من ملك ونبى وولي.

قال: والاستغاثة تجوز في الأسباب الظاهرة العادية من الأمور الحسية في قتال، أو إدراك عدو أو سبع أو نحوه، كقولهم: يا لزيد، يا للمسلمين، بحسب الأسباب الظاهرة بالفعل.

وأما الاستغاثة بالقوة والتأثير أو في الأمور المعنوية من الشدائد: كالمرض وخوف الغرق والضيق والفقر وطلب الرزق ونحوه: فمن خصائص الله لا يطلب فيها غيره.

قال: وأما كونهم معتقدين التأثير منهم في قضاء حاجاتهم كما تفعله جاهلية العرب والصوفية والجهال. وينادونهم ويستنجدون بهم: فهذا من المنكرات. فمن اعتقد أن لغير الله من نبى أو ولى أو روح أو غير ذلك في كشف كربة أو قضاء حاجة تأثيرًا: فقد وقع في وادي جهلٍ خطير، فهو على شفا حُفرة من السعير.

وأمَّا كونهم مستدلين على أنَّ ذلك منهم كرامات، فحاشا لله أن تكون أولياءُ الله بهذه المتابة؛ فهذا ظنُّ أهل الأوثان، كذا أخبر الرحمن: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨].

﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ﴾ [يس: ٢٣].

فإن ذكرَ ما ليس من شأنه النفعُ ولا دفع الضر من نبي وولي وغيره على وجه الإمداد منه: إشراكٌ مع الله؛ إذ لا قادر على الدفاع غيره، ولا خير إلا خيره.

قال: وأما ما قالوا إن منهم أبدالاً ونقباء وأوتادًا ونجباء وسبعين وسبعة، وأربعين

وأربعة، والقطب هو الغوث للناس: فهذا من موضوعات إفكهم. كما ذكره القاضي المحدث في (سراج المريدين)، وابن الجوزي، وابن تيمية. انتهى باختصار.

والمقصود: أن أهل العلم ما زالوا ينكرون هذه الأمور الشركية التي عمت بها البلوى واعتقدها أهل الأهواء. فلو تتبعنا كلام العلماء المنكرين لهذه الأمور الشركية لطال الكتاب.

والبصير النبيل يدرك الحق من أول دليل، ومن قال قولاً بلا برهان فقوله ظاهر البطلان، مخالف ما عليه أهل الحق والإيمان المتمسكون بمحكم القرآن، المتسجيون لداعي الحق والإيمان. والله المستعان وعليه التكلان.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[يونس:١٠٦-١٠٧]).

ش: قال ابن عطية: معناه قيل لي ﴿وَلَا تَدْعُ﴾ فهو معطوف على ﴿أَقِمْ﴾ وهذا الأمر والمخاطبة للنبي ﷺ. إذا كانت هكذا، فأحرى أن يحذر من ذلك غيره. والخطاب خرج مخرج الخصوص وهو عام للأمة.

قال أبو جعفر ابن جرير في هذه الآية: يقول تعالى ذكره: ولا تدع يا محمد من دون معبودك وخالقك شيئًا لا ينفعك في الدنيا ولا في الآخرة، ولا يضرك في دين ولا دنيا، يعني بذلك الآلهة والأصنام، يقول: لا تعبدها راجيًا نفعها أو خائفًا ضرها فإنها لا تنفع ولا تضر. فإن فعلت ذلك فدعوتها من دون الله ﴿فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[يونس:١٠٦] يقول: من المشركين بالله.

قلت: وهذه الآية لها نظائر كقوله: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ﴾[الشعراء:٢١٣] وقوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾[القصص: ٨٨].

ففي هذه الآيات: بيان أن كل مدعو يكون إلهًا، والإلهية حق لله لا يصلح منها شيء لغيره. ولهذا قال: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾[البقرة:١٦٣] كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾[الحج:٦٢].

وهذا هو التوحيد الذي بعث الله به رسله، وأنزل به كتبه، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥] والدين: كل ما يدان الله به من العبادات الظاهرة والباطنة. وفسره ابن جرير في (تفسيره) بالدعاء، وهو فرد من أفراد العبادة، على عادة السلف في التفسِّير، يفسرون الآية ببعض أفراد معناها.

فمن صرف منها شيئًا لقبر أو صنم أو وثن، أو غير ذلك فقد اتخذه معبودًا وجعله شريكًا لله في الإلهية التي لا يستحقها إلا هو، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧] فتبين بهذه الآية ونحوها أن دعوة غير الله كفر وشرك وضلال.

وقوله: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [يونس: ١٠٧].

فإنه المتفرد بالملك والقهر، والعطاء والمنع، والضر والنفع، دون كل ما سواه. فيلزم من ذلك أن يكون هو المدعو وحده، المعبود وحده، فإن العبادة لا تصلح إلا لمالك الضر والنفع. ولا يملك ذلك ولا شيئًا منه غيره تعالى، فهو المستحق للعبادة وحده، دون من لا ينفع ولا يضر.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر: ٣٨] وقال: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢] فهذا ما أخبر به الله تعالى في كتابه من تفرده بالإلهية والربوبية، ونصب الأدلة على ذلك.

فاعتقد عباد القبور والمشاهد نقيض ما أخبر به الله تعالى، واتخذوهم شركاء لله في استجلاب المنافع ودفع المكاره: بسؤالهم والالتجاء بالرغبة والرهبة والتضرع، وغير ذلك من العبادات التي لا يستحقها إلا الله تعالى، واتخذوهم شركاء لله في ربوبيته وإلهيته.

وهذا فوق شرك كفار العرب القائلين: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] فإن أولئك يدعونهم ليشفعوا لهم ويقربوهم

إلى الله . وكانوا يقولون في تلبيتهم : لبيك ، لا شريك لك إلا شريكًا هو لك تملكه وما ملك .

وأما هؤلاء المشركون : فاعتقدوا في أهل القبور والمشاهد ما هو أعظم من ذلك . فجعلوا لهم نصيبًا من التصرف والتدبير ، وجعلوهم معاذًا لهم وملاذًا في الرغبات والرهبات ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الطور :٤٣] .

وقوله : ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يونس :١٠٧] أي : لمن تاب إليه .

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وقوله تعالى : ﴿فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت :١٧]) .

ش: يأمر تعالى عباده بابتغاء الرزق منه وحده دون ما سواه ممن لا يملك لهم رزقًا من السموات والأرض شيئًا . فتقديم الظرف يفيد الاختصاص .

وقوله : ﴿وَٱعْبُدُوهُ﴾ من عطف العام على الخاص ، فإن ابتغاء الرزق عنده من العبادة التي أمر الله بها .

قال العماد ابن كثير : رحمه الله تعالى : ﴿فَٱبْتَغُواْ﴾ أي فاطلبوا ﴿عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾ أي لا عند غيره . لأنه المالك له ، وغيره لا يملك شيئًا من ذلك ﴿وَٱعْبُدُوهُ﴾ أي : أخلصوا له العبادة وحده لا شريك له ﴿وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ﴾ أي : على ما أنعم عليكم ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي يوم القيامة فيجازى كل عامل بعمله .

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وقوله : ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف :٥-٦]) .

ش: نفى سبحانه أن يكون أحد أضل ممن يدعو غيره . وأخبر أنه لا يستجيب له ما طلب منه إلى يوم القيامة .

والآية تعم كل من يدعى من دون الله ، كما قال تعالى : ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء :٥٦] .

وفي هذه الآية أخبر أنه لا يستجيب وأنه غافل عن داعيه ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ

﴿أَعۡدَآءٗ وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف :٦]فتناولت الآية كل داع وكل مدعو من دون الله .

قال أبو جعفر بن جرير في قوله : ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءٗ﴾ [الأحقاف :٦]يقول تعالى ذكره : وإذا جمع الناس ليوم القيامة في موقف الحساب كانت هذه الآلهة التي يدعونها في الدنيا لهم أعداءً؛ لأنهم يتبرءون منهم ﴿وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف :٦] يقول تعالى ذكره : وكانت آلهتهم التي يعبدونها في الدنيا لعبادتهم جاحدين، لأنهم يقولون يوم القيامة : ما أمرنا ولا شعرنا بعبادتهم إيانا، تبرأنا منهم يا ربنا .

كما قال تعالى : ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمۡ أَضۡلَلۡتُمۡ عِبَادِي هَٰٓؤُلَآءِ أَمۡ هُمۡ ضَلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ۝١٧ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعۡتَهُمۡ وَءَابَآءَهُمۡ حَتَّىٰ نَسُواْ ٱلذِّكۡرَ وَكَانُواْ قَوۡمَۢا بُورٗا﴾ [الفرقان :١٧-١٨] .

قال ابن جرير : ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الفرقان :١٧]من الملائكة والإنس والجن، وساق بسنده عن مجاهد قال : عيسى وعزير والملائكة .

ثم قال : يقول تعالى ذكره : قالت الملائكة الذين كان هؤلاء المشركون يعبدونهم من دون الله وعيسى : تنزيهًا لك يا ربنا وتبرئةً مما أضاف إليك هؤلاء المشركون ﴿مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ [الفرقان :١٨]نواليهم ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ﴾ [سبأ :٤١]انتهى .

قلت : وأكثر ما يستعمل الدعاء في الكتاب والسنة واللغة ولسان الصحابة ومن بعدهم من العلماء : في السؤال والطلب؛ كما قال العلماء من أهل اللغة وغيرهم : الصلاة لغة الدعاء، وقد قال تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ ۝١٣ إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ﴾ [فاطر :١٣-١٤]الآيتين وقال : ﴿قُلۡ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ تَدۡعُونَهُۥ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةٗ﴾ [الأنعام :٦٣]وقال : ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوۡ قَاعِدًا أَوۡ قَآئِمٗا﴾ [يونس :١٢]وقال : ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٖ﴾ [فصلت :٥١]وقال : ﴿لَّا يَسۡـَٔمُ ٱلۡإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلۡخَيۡرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٞ قَنُوطٞ﴾ [فصلت :٤٩]الآية . وقال : ﴿إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ﴾ [الأنفال :٩].

وفي حديث أنس مرفوعًا: «**الدعاء مخ العبادة**»[(١)].

وفي الحديث الصحيح: «**ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة**»[(٢)].

وفي آخر: «**من لم يسأل الله يغضب عليه**»[(٣)].

وحديث: «**ليس شيءٌ أكرم على الله من الدعاء**»[(٤)] رواه أحمد، والترمذي، وابن ماجه، وابن حبان، والحاكم وصححه.

وقوله: «**الدعاء سلاح المؤمن وعماد الدين ونور السموات والأرض**»[(٥)] رواه الحاكم وصححه.

وقوله: «**سلوا الله كل شيء حتى الشسع إذا انقطع**»[(٦)] الحديث. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أفضل العبادة الدعاء وقرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠][(٧)] الآية. رواه ابن المنذر والحاكم وصححه.

وحديث: «**اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت المنان...**»[(٨)] الحديث: «**اللهم إني أسألك بأنك أنت الله لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد**»[(٩)].

(١) ضعيف: وسبق تخريجه، والصحيح منه (الدعاء هو العبادة).
(٢) حسن الإسناد: الترمذي (٣٤٧٩) في الدعوات وحسنه الألباني هناك عن أبي هريرة رضي الله عنه.
(٣) حسن: الترمذي (٣٣٧٣) في الدعوات، وحسنه الألباني هناك عن أبي هريرة رضي الله عنه.
(٤) حسن: الترمذي (٣٣٧٠) في أول كتاب الدعوات عن أبي هريرة رضي الله عنه وحسنه الألباني هناك - ط الرياض.
(٥) موضوع: الحاكم (١/ ٤٩٢) وفيه محمد بن الحسن بن أبي يزيد وهو متروك. والحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه.
(٦) استقر الأمر على تضعيف هذه الرواية: الترمذي (٣٦٠٤ مكرر/ ٨-٩) بترقيم الألباني وقال: غريب وهو عن أنس رضي الله عنه ومرسلًا عن ثابت البناني.
(٧) حسن الإسناد: الحاكم (١/ ٤٩١) في المستدرك وصححه ووافقه الذهبي.
(٨) صحيح الإسناد: الترمذي (٣٥٤٤) في الدعوات وصححه الألباني هناك عن أنس رضي الله عنه.
(٩) صحيح الإسناد: الترمذي (٣٤٧٥) في الدعوات - باب (٦٤) وصححه الألباني هناك عن بُرَيْدة رضي الله عنه.

وأمثال هذا في الكتاب والسنة أكثر من أن يحصى، في الدعاء الذي هو السؤال والطلب.

فمن جحد كون السؤال والطلب عبادة فقد صادم النصوص وخالف اللغة واستعمال الأمة سلفًا وخلفًا.

وأما ما تقدم من كلام شيخ الإسلام، وتبعه العلامة ابن القيم رحمهما الله تعالى من أن الدعاء نوعان: دعاء مسألة ودعاء عبادة، وما ذكر بينهما من التلازم وتضمن أحدهما للآخر، فذلك باعتبار كون الذاكر والتالي والمصلي والمتقرب بالنسك وغيره طالبًا في المعنى، فيدخل في مسمى الدعاء بهذا الاعتبار، وقد شرع الله تعالى في الصلاة الشرعية من دعاء المسألة ما لا تصح الصلاة إلا به، كما في الفاتحة والسجدتين وفي التشهد، وذلك عبادة كالركوع والسجود. فتدبر هذا المقام يتبين لك جهل الجاهلين بالتوحيد.

ومما يتبين هذا المقام ويزيده إيضاحًا. قول العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَـٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠] وهذا الدعاء المشهور أنه دعاء المسألة، قالوا: كان النبي ﷺ يدعو ربه ويقول مرة يا الله، ومرة: يا رحمن؛ فظن المشركون أنه يدعو إلهين فأنزل الله هذه الآية. ذكر هذا عن ابن عباس رضي الله عنهما [(١)].

وقيل: إن هذا الدعاء هنا بمعنى التسمية، والمعنى: أي اسم سميتموه به من أسماء الله تعالى، إما الله، وإما الرحمن، فله الأسماء الحسنى.

وهذا من لوازم المعنى في الآية. وليس هو عين المراد. بل المراد بالدعاء معناه المعهود المطرد في القرآن. وهو دعاء السؤال ودعاء الثناء.

ثم قال: إذا عرف هذا فقوله: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥] يتناول نوعي الدعاء لكنه ظاهر في دعاء المسألة، متضمن لدعاء العبادة، ولهذا أمر بإخفائه. قال الحسن: بين دعاء السر ودعاء العلانية سبعون ضعفًا. ولقد كان المسلمون يجتهدون

---

(١) هكذا رواه الطبراني (١٢٨٠١).

في الدعاء ولم يسمع لهم صوت إن كان إلا همسًا بينهم وبين ربهم [١] .

وقوله تعالى : ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾[البقرة: ١٨٦] يتناول نوعى الدعاء، وبكل منهما فسرت الآية قيل : أعطيه إذا سألني، وقيل أثيبه إذا عبدني .

وليس هذا من استعمال اللفظ في حقيقته ومجازه، بل هذا استعمال في حقيقته الواحدة المتضمنة للأمرين جميعًا . وهذا يأتي في مسألة الصلاة وإنها نقل عن مسماها في اللغة وصارت حقيقة شرعية، واستعملت في هذه العبادة مجازًا للعلاقة بينها وبين المسمى اللغوي وهي باقية على الوضع اللغوي، وضم إليها أركان وشرائط .

وعلى ما قررناه لا حاجة إلى شيء من ذلك، فإن المصلى من أول صلاته إلى آخرها لا ينفك عن دعاء : إما عبادة وثناء، أو دعاء طلب ومسألة، وهو في الحالتين داع . انتهى . من (البدائع) .

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وقوله : ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾[النمل: ٦٢]) .

ش: بيَّن تعالى أن المشركين من العرب ونحوهم قد علموا أنه لا يجيب المضطر ويكشف السوء إلا الله وحده . فذكر ذلك سبحانه محتجًا عليهم في اتخاذهم الشفعاء من دونه، ولهذا قال ﴿أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾ ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ يعني يفعل ذلك .

فإذا كانت آلهتهم لا تجيبهم في حال الاضطرار فلا يصلح أن يجعلوها شركاء لله الذي يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء وحده . وهذا أصح ما فُسِّرت به الآية كسابقتها من قوله : ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[النمل :٦٠-٦١] ولاحقها إلى قوله : ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ

---

(١) الطبري في تفسيره وابن كثير (٣/ ٣٠٨) وفيه المبارك بن فضالة وثق لكن مدلس، فالأثر به حسن .

ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [النمل: ٦٣-٦٤] .

فتأمل هذه الآيات؛ يتبين لك: أن الله تعالى احتج على المشركين بما أقروا به على ما جحدوه: من قصر العبادة جميعها عليه، كما في فاتحة الكتاب: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] . قال أبو جعفر بن جرير: قوله: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل: ٦٢] يقول تعالى ذكره: أم ما تشركون بالله خير، أم الذي يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء النازل به عنه؟

وقوله: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ [النمل: ٦٢] يقول: يستخلف بعد أمواتكم في الأرض منكم خلفاء أحياء يخلفونهم.

وقوله: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ [النمل: ٦٠] أإلهٌ سواه يفعل هذه الأشياء بكم، وينعم عليكم هذه النعم؟

وقوله: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٣] يقول: تذكُّرًا قليلاً من عظمة الله وأياديه عندكم، تذكرون وتعتبرون حجج الله عليكم يسيرًا؛ فلذلك أشركتم بالله وغيره في عبادته.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وروى الطبراني) أنه كان في زمن النبي ﷺ منافق يؤذي المؤمنين، فقال بعضهم: قوموا بنا نستغيث برسول الله ﷺ من هذا المنافق، فقال النبي ﷺ: «إنه لا يستغاث بي، وإنما يستغاث بالله» [(١)] .

ش: الطبراني: هو الإمام الحافظ سليمان، بن أحمد، بن أيوب اللَّخمي. الطبراني، صاحب المعاجم الثلاثة وغيرها. روى عن النسائي، وإسحاق بن إبراهيم

---

(١) ضعيف الإسناد وهو صحيح المعنى: الهيثمي (١٠/ ١٥٩) في مجمع الزوائد وقال: رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح غير ابن لهيعة وهو حسن الحديث. قلت: وهو مختلط. ورواه أحمد (٥/ ٣١٧) بغير هذا السياق عن عبادة رضي الله عنه.

الدَّبْري، وخلقٌ كثير . مات سنة ستين وثلاثمائة . روى هذا الحديث عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه .

قوله: (أنه كان في زمن النبي ﷺ منافق يؤذي المؤمنين) لم أقف على اسم هذا المنافق .

قلت: هو عبد الله بن أُبيّ كما صرح به ابن أبي حاتم في روايته .

قوله: (فقال بعضهم) أي الصحابة رضي الله عنهم، هو أبو بكر رضي الله عنه .

قوله: (قوموا بنا نستغيث برسول الله ﷺ من هذا المنافق) لأنه ﷺ يقدر على كف أذاه .

قوله: «**إنه لا يستغاث بي، وإنما يستغاث بالله**» فيه: النص على أنه لا يستغاث بالنبي ﷺ ولا بمن دونه، كره ﷺ أن يستعمل هذا اللفظ في حقه، وإن كان مما يقدر عليه في حياته، حماية لجناب التوحيد، وسدًّا لذرائع الشرك وأدبًا وتواضعًا لربه، وتحذيرًا للأمة من وسائل الشرك في الأقوال والأفعال .

فإذا كان هذا فيما يقدر عليه ﷺ في حياته، فكيف يجوز أن يُستغاث به بعد وفاته ويطلب منه أمورًا لا يقدر عليها إلا الله عز وجل؟ كما جرى على ألسنة كثير من الشعراء كالبوصيري، والبرعي وغيرهم، من الاستغاثة بمن لا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا .

ويعرضون عن الاستغاثة بالرب العظيم القادر على كل شيء الذي له الخلق والأمر وحده، وله الملك وحده، لا إله غيره ولا رب سواه . قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ [الأعراف:١٨٨] في مواضع من القرآن ﴿قُلۡ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ [الجن: ٢١] .

فأعرض هؤلاء عن القرآن، واعتقدوا نقيض ما دلَّت عليه هذه الآيات المحكمات، وتبعهم على ذلك الضلال الخلق الكثير والجمّ الغفير . فاعتقدوا الشرك بالله دينًا، والهدى ضلالاً، فإنا لله وإنا إليه راجعون . فما أعظمها من مصيبة عمَّت بها البلوى، فعاندوا أهل التوحيد وبدَّعوا أهل التجريد، فالله المستعان .

(١٤)

باب

قول الله تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۝ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾

قال المصنف رحمه الله تعالى: (بابُ قول الله تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۝ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩١-١٩٢]).

ش: قوله ﴿أَيُشْرِكُونَ﴾ أي في العبادة.

قال المفسرون: في هذه الآية توبيخ وتعنيف للمشركين في عبادتهم مع الله تعالى ما لا يخلق شيئًا وهو مخلوق، والمخلوق لا يكون شريكًا للخالق في العبادة التي خلقهم لها، وبين أنهم لا يستطيعون لهم نصرًا ولا أنفسهم ينصرون، فكيف يشركون به من لا يستطيع نصر عابديه ولا نصر نفسه؟

وهذا برهان ظاهر على بطلان ما كانوا يعبدونه من دون الله، وهذا وصف كل مخلوق، حتى الملائكة والأنبياء والصالحين.

وأشرف الخلق محمد ﷺ قد كان يستنصر ربه على المشركين ويقول: «**اللهم أنت عضدي ونصيري، بك أحول وبك أصول، وبك أقاتل**»[1].

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٣] وقوله: ﴿قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ

---

(١) صحيح: أبو داود (٢٦٣٢) في الجهاد عن أنس رضي الله عنه بلفظه وبنحوه الترمذي (٣٥٨٤) في الدعوات.

ﵟالسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَﵞ [الأعراف:١٨٨] وقوله: ﵟقُلۡ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا رَشَدٗا ٢١ قُلۡ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٞ وَلَنۡ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدًا ٢٢ إِلَّا بَلَٰغٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦۚﵞ [الجن: ٢١-٢٣].

فكفى بهذه الآيات برهانًا على بطلان دعوة غير الله كائنًا من كان. فإن كان نبيًّا أو صالحًا فقد شرفه الله تعالى بإخلاص العبادة له، والرضاء به ربًّا ومعبودًا، فكيف يجوز أن يجعل العابد معبودًا مع توجيه الخطاب إليه بالنهي عن هذا الشرك؟

كما قال تعالى: ﵟوَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٨٨ﵞ [القصص: ٨٨] وقال: ﵟإِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚﵞ [يوسف: ٤٠]، فقد أمر عباده من الأنبياء والصالحين وغيرهم بإخلاص العبادة له وحده، ونهاهم أن يعبدوا معه غيره، وهذا هو دينه الذي بعث به رسله، وأنزل به كتبه، ورضيه لعباده، وهو دين الإسلام، كما روى البخاري عن أبي هريرة في سؤال جبريل عليه السلام قال: يا رسول الله، ما الإسلام؟ قال: «**الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به شيئًا، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان**»[1].

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وقوله تعالى: ﵟوَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ ١٣ إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٍ ١٤ﵞ [فاطر: ١٣-١٤]).

ش: يخبر تعالى عن حال المدعوين من دونه من الملائكة، والأنبياء، والأصنام، وغيرها بما يدل على عجزهم، وضعفهم، وأنهم قد انتفت عنهم الأسباب التي تكون في المدعو، وهي: الملك، وسماع الدعاء، والقدرة على استجابته، فمتى لم توجد هذه الشروط تامة بطلت دعوته فكيف إذا عُدمت بالكلية؟

فنفى عنهم الملك بقوله: ﵟمَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍﵞ [فاطر: ١٣] قال ابن عباس[2] ومجاهد وعكرمة، وعطاء والحسن وقتادة: القطمير: اللفافة التي تكون على نواة التمر.

---

(١) رواه البخاري (٥٠) في الإيمان، ومسلم (٩) في الإيمان عن أبي هريرة وتفرد به مسلم (٨) في الإيمان عن عمر رضي الله عنه.

(٢) انظر تفسير ابن كثير (٦/ ٣٤٦)، وسند ابن عباس من طريق العوفي، وابن أبي طلحة وهي أسانيد ضعاف كلها.

كما قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [النحل:٧٣] وقال ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ۝ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ:٢٢-٢٣] .

ونفى عنهم سماع الدعاء بقوله ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ﴾ [فاطر:١٤] لأنه ما بين ميت وغائب عنهم، مشتغل بما خلق له، مسخر بما أمر به كالملائكة .

ثم قال: ﴿وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ﴾ [فاطر:١٤] لأن ذلك ليس لهم، فإن الله تعالى لم يأذن لأحد من عباده في دعاء أحد منهم، لا استقلالاً ولا واسطة، كما تقدم بعض أدلة ذلك .

وقوله: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ [فاطر:١٤] فتبين بهذا أن دعوة غير الله شرك . وقال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ۝ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم:٨١-٨٢] وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ [فاطر:١٤] قال ابن كثير: يتبرءون منكم، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف:٥-٦] .

قال: وقوله ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر:١٤]) أي: ولا يخبرك بعواقب الأمور ومآلها وما تصير إليه مثل خبير بها . قال قتادة: يعني نفسه تبارك وتعالى؛ فإنه أخبر بالواقع لا محالة .

قلت: والمشركون لم يُسلِّموا للعليم الخبير ما أخبر به عن معبوداتهم، فقالوا: تملك وتسمع وتستجيب وتشفع لمن دعاها، ولم يلتفتوا إلى ما أخبر به الخبير من أن كل معبود يعادي عابده يوم القيامة ويتبرأ منه، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ ۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ۝ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ۝ هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ ۚ وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ [يونس:٢٨-٣٠] .

أخرج ابن جرير عن ابن جريج، قال: قال مجاهد: ﴿إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ

لَغَـٰفِلِينَ﴾ [يونس: ٢٩] قال يقول ذلك كل شيء كان يعبد من دون الله [١].

فالكيّس يستقبل هذه الآيات التي هي الحجة، والنور، والبرهان بالإيمان، والقبول، والعمل، فيجرد أعماله لله وحده دون كل ما سواه ممن لا يملك لنفسه نفعًا ولا دفعًا، فضلاً عن غيره.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وفي الصحيح عن أنس رضي الله عنه قال: شج النبي ﷺ يوم أحد. فقال: «كيف يفلح قوم شجوا نبيهم؟» فنزلت الآية ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨] [٢]).

ش: قوله: (في الصحيح) أي: (الصحيحين). علقه البخاري، عن حميد، وعن ثابت عن أنس، ووصله أحمد، والترمذي، والنسائي عن حميد عن أنس به. ووصله مسلم عن ثابت عن أنس.

وقال ابن إسحاق في المغازي: حدثنا حُميد الطويل عن أنس قال: كسرت رباعية النبي ﷺ يوم أحد، وشُجَّ وجهه، فجعل الدم يسيل على وجهه، وجعل يمسح الدم وهو يقول: «**كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم؟**» فأنزل الله الآية [٣].

قوله: (شُجَّ النبي ﷺ) قال أبو السعادات: الشجُّ في الرأس خاصة في الأصل، وهو أن يضربه بشيء فيجرحه فيه ويشقه، ثم استعمل في غيره من الأعضاء.

وذكر ابن هشام من حديث أبي سعيد الخدري أن عتبة بن أبي وقاص هو الذي كسر رباعية النبي ﷺ السفلى وجرح شفته السفلى، وأن عبد الله بن شهاب الزهري هو الذي شجه في وجهه، وأن عبد الله بن قميئة جرحه في وجنته، فدخلت حلقتان

---

(١) رواه الطبري من طريق ابن جريج ولم يسمع من مجاهد إلا قليلاً، بل هو مدلس ورواه من طريق آخر عن مجاهد وهو (حسن) والقولان عند الطبري (١١/ ١١٢) في تفسيره.

(٢) علقه البخاري (باب ٢١ مكرر) في المغازي (٧/ ١٣٦٥ فتح) وهو عند مسلم (١٧٩١ / ١٠٤) في الجهاد والسير موصولاً عن أنس رضي الله عنه.

(٣) صحيح: انظر السيرة النبوية (٣/ ١٧) لابن هشام.

من حلق المِغْفَر في وجنته، وأن مالك بن سنان مص الدم من وجه رسول الله ﷺ وازدرده. فقال له: «لن تمسك النار»[١].

قال القرطبي: والرباعية بفتح الراء وتخفيف الياء: وهي كل سن بعد ثنية.

قال النووي رحمه الله: وللإنسان أربع رباعيات.

قال الحافظ: والمراد أنها كُسرت، فذهب منها فلقة ولم تقلع من أصلها.

قال النووي: وقوع الأسقام والابتلاء بالأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم لينالوا جزيل الأجر والثواب. ولتعرف الأمم ما أصابهم ويأتسوا بهم.

قال القاضي: وليعلم أنهم من البشر تصيبهم محن الدنيا، ويطرأ على أجسامهم ما يطرأ على أجسام البشر ليُتيقَّن أنهم مخلوقون مربوبون. ولا يفتتن بما ظهر على أيديهم من المعجزات ويلبس الشيطان من أمرهم ما لبَّسه على النصارى وغيرهم. انتهى.

قلت: يعني من الغلو والعبادة.

قوله: (يوم أحد) هو شرقي المدينة. قال ﷺ: «**أحد جبل يحبنا ونحبه**»[٢].

وهو جبل معروف كانت عنده الواقعة المشهورة. فأضيفت إليه.

قوله: («**كيف يفلح قوم شجوا نبيهم**») زاد مسلم «**وكسروا رباعيته وأدموا وجهه**».

قوله: (فأنزل الله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨]) قال ابن عطية: كأن النبي ﷺ لحقه في تلك الحال يأس من فلاح كفار قريش، فقيل له بسبب ذلك ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨] أي عواقب الأمور بيد الله، فامض أنت لشأنك، ودم على الدعاء لربك.

---

(١) **ضعيف**: قال الهيثمي (٨/ ٢٧٠) في المجمع وعزاه الطبراني في الأوسط وقال: ولم أر في إسناده من أجمع على ضعفه.

قلت: إذن فالأمر لا يخلو من ضعفاء في السند، وفيهم (ربيح بن عبد الرحمن وهو ابن أبي سعيد) مجهول، فالحديث ضعيف، وإن كانت القصة ثابتة.

(٢) رواه البخاري (١٤٨٢) في الزكاة عن ابن عباس رضي الله عنه منفردًا به بلفظ المصنف، ورواه (١٤٨١) ومسلم (١٣٩٢/ ٥٠٣) في الحج عن أبي حميد الساعدي بنحوه.

وقال ابن إسحاق: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨] في عبادي إلا ما أمرتك به فيهم (١).

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وفيه عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه سمع رسول الله ﷺ يقول - إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الأخيرة من الفجر - : «اللهم العن فلانًا وفلانًا» بعد ما يقول: «سمع الله لمن حمده، ربنا ولك الحمد» فأنزل الله ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨](٢).

وفي رواية: يدعو على صفوان بن أمية، وسهيل بن عمرو، والحارث بن هشام فنزلت ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨](٣)).

ش: قوله: (وفي)ه أي في صحيح البخاري. ورواه النسائي.

قوله: (عن ابن عمر) هو عبد الله بن عمر بن الخطاب، صحابي جليل، شهد له رسول الله ﷺ بالصلاح، مات سنة ثلاث وسبعين في آخرها أو في أول التي تليها.

قوله: (أنه سمع رسول الله ﷺ) هذا القنوت على هؤلاء بعد ما شُجَّ وكُسرت رباعيته يوم أحد.

قوله: (اللهم العن فلانًا وفلانًا) قال أبو السعادات: أصل اللعن: الطرد والإبعاد من الله. ومن الخلق: السب والدعاء، وتقدم كلام شيخ الإسلام رحمه الله.

قوله: (فلانًا وفلانًا) يعني صفوان بن أمية، وسهيل بن عمرو، والحارث بن هشام، كما بينه في الرواية الآتية.

وفيه: جواز الدعاء على المشركين بأعيانهم في الصلاة، وأن ذلك لا يضر في الصلاة.

---

(١) السيرة النبوية (٣/ ٤٧) لابن هشام.

(٢) رواه البخاري (٤٠٦٩) في المغازي.

(٣) **صحيح مرسل**: البخاري (٤٠٧٠) في المغازي، وإنما رواه مرسلاً لأن سالمًا لا بد أن يكون قد سمعه من ابن عمر واشتهر الحديث عنه كما هو حديث الباب. والله أعلم. ورواه البخاري موصولاً (٤٥٦٠) ومسلم (٦٧٥) عن سالم عن ابن عمر رضي الله عنهما.

قوله: (بعد ما يقول: سمع الله لمن حمده) قال أبو السعادات: أي أجاب حمده وتقبله. وقال السهيلي: مفعول سمع محذوف، لأن السمع متعلق بالأقوال والأصوات دون غيرها فاللام تؤذن بمعنى زائد وهو الاستجابة للسمع، فاجتمع في الكلمة الإيجاز والدلالة على الزائد، وهو الاستجابة لمن حمده.

وقال ابن القيم رحمه الله ما معناه: عدى (سمع الله لمن حمده) باللام المتضمنة معنى استجاب له. ولا حذف هناك، وإنما هو مضمن.

قوله: (ربنا ولك الحمد)، في بعض روايات البخاري بإسقاط الواو. قال ابن دقيق العيد: كأن إثباتها دال على معنى زائد، لأنه يكون التقدير: ربنا استجب ولك الحمد. فيشتمل على معنى الدعاء ومعنى الخبر.

قال شيخ الإسلام: والحمد ضد الذم، والحمد يكون على محاسن المحمود مع المحبة له. كما أن الذم يكون على مساوئه مع البغض له.

وكذا قال ابن القيم: وفرق بينه وبين المدح بأن الإخبار عن محاسن الغير؛ إما أن يكون إخبارًا مجردًا عن حب وإرادة، أو يكون مقرونًا بحبه وإرادته.

فإن كان الأول فهو المدح، وإن كان الثاني فهو الحمد. فالحمد إخبار عن محاسن المحمود مع حبه وإجلاله وتعظيمه. ولهذا كان خبرًا يتضمن الإنشاء بخلاف المدح، فإنه خبر مجرد.

فالقائل إذا قال: الحمد لله، أو قال: ربنا ولك الحمد؛ تضمن كلامه الخبر عن كل ما يحمد عليه تعالى باسم محيط متضمن لكل فرد من أفراد الجملة المحققة والمقدَّرة، وذلك يستلزم إثبات كل كمال يحمد عليه الرب تعالى، ولهذا لا تصلح هذه اللفظة على هذا الوجه، ولا تنبغي إلا لمن هذا شأنه، وهو الحميد المجيد.

وفيه: التصريح بأن الإمام يجمع بين التسميع والتحميد، وهو قول الشافعي وأحمد وخالف في ذلك مالك وأبو حنيفة، وقالا: يقتصر على سمع الله لمن حمده.

قوله: (وفي رواية يدعو على صفوان بن أمية، وسهيل بن عمرو، والحارث بن هشام). وذلك لأنهم رءوس المشركين يوم أحد، هم وأبو سفيان بن حرب، فما

استجيب له ﷺ فيهم بل أنزل الله ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾ [آل عمران :١٢٨] فتاب عليهم فأسلموا وحسُن إسلامهم .

وفي هذا كله معنى شهادة أن لا إله إلا الله الذي له الأمر كله، يهدي من يشاء بفضله ورحمته، ويضل من يشاء بعدله وحكمته فهو المستحق أن يعبد وحده .

وفي هذا من الحجج والبراهين : ما يبين بطلان ما يعتقده عُبَّاد القبور في الأولياء والصالحين . بل في الطواغيت من أنهم ينفعون من دعاهم، ويمنعون من لاذ بحماهم . فسبحان من حال بينهم وبين فهم الكتاب . وذلك عدله سبحانه، وهو الذي يحول بين المرء وقلبه، وبه الحول والقوة .

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وفيه : عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ حين أنزل الله عليه ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء :٢١٤] قال : «يا معشر قريش - أو كلمة نحوها - اشتروا أنفسكم لا أغنى عنكم من الله شيئًا . يا عباس بن عبد المطلب لا أغنى عنك من الله شيئًا، يا صفية عمة رسول الله، لا أغنى عنك من الله شيئًا . يا فاطمة بنت محمد، سليني من مالي ما شئت، لا أغنى عنك من الله شيئًا» [(١)]) .

ش: قوله : (وفيه) أي : وفي (صحيح البخاري) .

قوله : (عن أبي هريرة) اختُلف في اسمه، وصحح النووي أن اسمه عبد الرحمن بن صخر .

كما رواه الحاكم [(٢)] في المستدرك عن أبي هريرة قال : كان اسمي في الجاهلية عبد شمس بن صخر فسميت في الإسلام عبد الرحمن .

وروى الدولابى بإسناده عن أبي هريرة أن النبي ﷺ سماه عبد الله [(٣)] .

وهو دوسي، من فضلاء الصحابة وحُفاظهم، حفظ عن النبي ﷺ أكثر مما حفظه غيره، مات سنة سبع أو ثمان أو تسع وخمسين، وهو ابن ثمان وسبعين سنة .

---

(١) رواه البخاري (٢٥٧٣) في الوصايا، ومسلم (٢٠٦/ ٣٥١) في الإيمان .
(٢) رواه الحاكم (٣/ ٥٠٦ - ٥٠٧) في المستدرك وصححه .
(٣) هكذا هو في (الكُنى والأسماء) عند الدولابي (١/ ٧٧) .

قوله: (قام رسول الله ﷺ) في الصحيح من رواية ابن عباس: صعد رسول الله ﷺ على الصفا [(١)].

قوله: (حين أُنزل عليه ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾) عشيرة الرجل: هم بنو أبيه الأدنون أو قبيلته. لأنهم أحق الناس ببرك وإحسانك الديني والدنيوي، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦] وقد أمره الله تعالى أيضًا بالنذارة العامة، كما قال ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ﴾ [يس: ٦] ﴿وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ﴾ [إبراهيم: ٤٤].

قوله: (يا معشر قريش) المعشر الجماعة.

قوله: (أو كلمة نحوها) هو بنصب كلمة عطفًا على ما قبله.

قوله: (اشتروا أنفسكم) أي بتوحيد الله وإخلاص العبادة له وحده لا شريك له، وطاعته فيما أمر به، والانتهاء عما نهى عنه. فإن ذلك هو الذي ينجي من عذاب الله؛ لا الاعتماد على الأنساب والأحساب، فإن ذلك غير نافع عند رب الأرباب.

قوله: (ما أغني عنكم من الله من شيء) فيه حجة على من تعلق على الأنبياء والصالحين، ورغب إليهم ليشفعوا له وينفعوه، أو يدفعوا عنه.

فإن ذلك هو الشرك الذي حرمه الله تعالى، وأقام نبيه ﷺ بالإنذار عنه، كما أخبر تعالى عن المشركين في قوله ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: ٣] ﴿هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨].

فأبطل الله ذلك ونزَّه نفسه عن هذا الشرك، وسيأتي تقرير هذا المقام إن شاء الله تعالى.

وفي صحيح البخاري: **«يا بني عبد مناف لا أغنى عنكم من الله شيئًا»**.

قوله: (يا عباس بن عبد المطلب) بنصب «ابن» ويجوز في عباس الرفع والنصب. وكذا في قوله **«يا صفية عمة رسول الله»، و«يا فاطمة بنت محمد»**.

---

(١) رواه البخاري (٤٧٧٠) في التفسير، ومسلم (٢٠٨/ ٣٥٥ - ٣٥٦) في الإيمان.

قوله: (سليني من مالي ما شئت) بيَّن رسول الله ﷺ **أنه لا ينجي من عذاب الله إلا الإيمان، والعمل الصالح.**

وفيه: أنه لا يجوز أن يسأل العبد إلا ما يقدر عليه من أمور الدنيا. وأما الرحمة والمغفرة والجنة والنجاة من النار ونحو ذلك من كل ما لا يقدر عليه إلا الله تعالى، فلا يجوز أن يُطلب إلا منه تعالى.

فإن ما عند الله لا ينال إلا بتجريد التوحيد، والإخلاص له بما شرعه ورضيه لعباده أن يتقربوا إليه به.

فإذا كان لا ينفع بنته، ولا عمه، ولا عمته، ولا قرابته إلا ذلك، فغيرهم أولى وأحرى. وفي قصة عمه أبي طالب معتبر.

فانظر إلى الواقع الآن من كثير من الناس الالتجاء إلى الأموات، والتوجه إليهم بالرغبات والرهبات، وهم عاجزون لا يملكون لأنفسهم ضرًّا ولا نفعًا، فضلاً عن غيرهم ـ يتبين لك أنهم ليسوا على شيء ﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ٣٠].

أظهر لهم الشيطان الشرك في قالب محبة الصالحين، وكل صالح يبرأ إلى الله من هذا الشرك في الدنيا ويوم يقوم الأشهاد.

ولا ريب أن محبة الصالحين إنما تحصل بموافقتهم في الدين، ومتابعتهم في طاعة رب العالمين، لا باتخاذهم أندادًا من دون الله، يحبونهم كحب الله إشراكًا بالله، وعبادة لغير الله، وعداوة لله ورسوله والصالحين من عباده، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٦-١١٧].

قال العلامة ابن القيم رحمه الله في هذه الآية بعد كلام سبق: ثم نفى أن يكون قال لهم غير ما أمر به وهو محض التوحيد فقال: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي

وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة: ١١٧] ثم أخبر أن شهادته عليهم مدة مقامه فيهم، وأنه بعد الوفاة لا اطلاع له عليهم، وأن الله عز وجل المنفرد بعد الوفاة بالاطلاع عليهم فقال: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٧] وصف الله سبحانه بأن شهادته فوق كل شهادة وأعم انتهى ملخصًا.

قلت: ففي هذا بيان أن المشركين خالفوا ما أمر الله به رسله من توحيده الذي هو دينهم الذي اتفقوا عليه، ودعوا الناس إليه، وفارقوهم فيه إلا من آمن.

فكيف يقال لمن دان بدينهم، وأطاعهم فيما أمروا به من إخلاص العبادة لله وحده: إنه قد تنقصهم بهذا التوحيد الذي أطاع به ربه، واتبع فيه رسله عليهم السلام، ونزه به ربه عن الشرك الذي هو هضم للربوبية. وتنقص للإلهية وسوء ظن برب العالمين؟.

والمشركون هم أعداء الرسل وخصماؤهم في الدنيا والآخرة، وقد شرعوا لأتباعهم أن يتبرءوا من كل مشرك ويكفروا به، ويبغضوه ويعادوه في ربهم ومعبودهم ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٩].



(١٥)

باب

قول الله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣]

قال المصنف رحمه الله تعالى: (باب قول الله تعالى ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣]).

ش: قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾: أي زال الفزع عنها. قاله ابن عباس، وابن عمر، وأبو عبد الرحمن السلمي، والشعبي، والحسن وغيرهم [١].

وقال ابن جرير: قال بعضهم: الذين فزع عن قلوبهم: الملائكة، قالوا: وإنما فزع عن قلوبهم من غشية تصيبهم عند سماعهم كلام الله بالوحي.

وقال ابن عطية: في الكلام حذف يدل عليه الظاهر. كأنه قال: ولا هم شفعاء كما تزعمون أنتم، بل هم عبدة مسلمون لله أبدًا، يعني منقادون، حتى إذا فزع عن قلوبهم. والمراد: الملائكة على ما اختاره ابن جرير وغيره.

قال ابن كثير: وهو الحق الذي لا مرية فيه، لصحة الأحاديث فيه والآثار.

وقال أبو حيان: تظاهرت الأحاديث عن رسول الله ﷺ أن قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ [سبأ: ٢٣] إنما هي الملائكة، إذا سمعت الوحي إلى جبريل يأمره الله به سمعت كجر سلسلة الحديد على الصفوان، فتفزع عند ذلك تعظيمًا وهيبة.

قال: وبهذا المعنى مِنْ ذكر الملائكة في صدر الآية تتسق هذه الآية على الأولى،

---

(١) وهو قول ابن مسعود رضي الله عنه أيضًا، والنخعي، وقتادة، وجمع ابن كثير (٦/ ٣٢٤) في تفسيره هذه الأقوال جميعًا.

ومن لم يشعر أن الملائكة مشار إليهم من أول قوله: ﴿ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم﴾ [الأنعام: ٩٤] لم تتصل له هذه الآية بما قبلها.

قوله: ﴿قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ [سبأ: ٢٣] ولم يقولوا ماذا خلق ربنا؟ ولو كان كلام الله مخلوقًا لقالوا: ماذا خلق؟؟ انتهى من (شرح سنن ابن ماجه).

ومثله الحديث: «ماذا قال ربنا يا جبريل» وأمثال هذا في الكتاب والسنة كثير.

قوله: ﴿قَالُواْ ٱلْحَقَّ﴾ [سبأ: ٢٣] أي: قالوا: قال الله الحق. وذلك لأنهم إذا سمعوا كلام الله صعقوا ثم إذا أفاقوا أخذوا يسألون، فيقولون: ماذا قال ربكم؟ فيقولون: قال الحق.

قوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣] علو القدر وعلو القهر وعلو الذات، فله العلو الكامل من جميع الوجوه، كما قال عبدالله بن المبارك - لما قيل له: بماذا نعرف ربنا؟ قال: بأنه على عرشه بائن من خلقه تمسكًا منه بالقرآن لقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [الفرقان: ٥٩] في سبعة مواضع من القرآن.

قوله: ﴿ٱلْكَبِيرُ﴾ أي الذي لا أكبر منه ولا أعظم منه تبارك وتعالى.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانًا لقوله، كأنه سَلْسَلَةٌ على صفوان، ينفذهم ذلك، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُواْ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣]، فيسمعها مسترق السمع ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض. وصفه سفيان بكفه فحرَّفها وبدد بين أصابعه - فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته، ثم يلقيها الآخر إلى من تحته، حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن، فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها، وربما ألقاها قبل أن يدركه، فيكذب معها مائة كذبة، فيقال: أليس قد قال لنا اليوم كذا وكذا: وكذا وكذا؟ فيصدق بتلك الكلمة التي سمعت من السماء» (١)).

ش: قوله: (في الصحيح) أي (صحيح البخاري).

---

(١) رواه البخاري (٤٧٠١) في التفسير منفردًا به عن مسلم.

قوله: («**إذا قضى الله الأمر في السماء**») أي إذا تكلم الله بالأمر الذي يوحيه إلى جبرائيل بما أراد، كما صرح به في الحديث الآتي.

وكما روى سعيد بن منصور، وأبو داود، وابن جرير، عن ابن مسعود: «**إذا تكلم الله بالوحي سمع أهل السموات صلصة كجر السلسلة على الصفوان**» (١).

وروى ابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن ابن عباس قال: لما أوحي الجبار إلى محمد ﷺ دعا الرسول من الملائكة ليبعثه بالوحي، فسمعت الملائكة صوت الجبار يتكلم بالوحي. فما كشف عن قلوبهم سألوا عما قال الله. فقالوا: الحق. وعلموا أن الله لا يقول إلا حقًّا (٢).

قوله: («**ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانًا لقوله**»): أي لقول الله تعالى.

قال الحافظ: خضعانًا بفتحتين من الخضوع. وفي رواية: بضم أوله وسكون ثانيه. وهو مصدر بمعنى خاضعين.

قوله: («**كأنه سلسلة على صفوان**») أي: كأن الصوت المسموع سلسلة على صفوان، وهو الحجر الأملس.

قوله: («**ينفذهم ذلك**») هو بفتح التحتية، وسكون النون، وضم الفاء، والذال المعجمة، ذلك. أي: القول، والضمير في: ينفذهم للملائكة، أي: ينفذ ذلك القول الملائكة: أي: يخلص ذلك القول ويمضي فيهم حتى يفزعوا منه.

وعند ابن مردويه من حديث ابن عباس: «**فلا ينزل على أهل سماء إلا صعقوا**» (٣).

وعند أبي داود، وغيره مرفوعًا: «**إذا تكلم الله بالوحي سمع أهل السماء الدنيا**

(١) صحيح موقوف: اللالكائي (٥٤٩) في شرح اعتقاد أهل السُّنة، وابن حجر (١٣/ ٤٦٤) وعزاه للبخاري في خلق أفعال العباد، وقال ابن أبي حاتم في كتاب (الرد على الجهمية) عن علي بن إشكاب: هكذا حدّث به أبو معاوية مسندًا، ووجدته بالكوفة موقوفًا. اهـ.
(٢) هكذا عزاه السيوطي (٥/ ٥٩٧) في الدر المنثور.
(٣) هكذا عزاه ابن حجر (٨/ ٥٣٨) في فتح الباري لابن مردويه.

صلصلة كجر السلسلة على الصفا فيصعقون، فلا يزالون كذلك حتى يأتيهم جبريل» [١] الحديث.

قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ﴾ **تقدم معناه.**

قوله: ﴿قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ﴾ **أي قالوا: قال الله الحق، علموا أن الله لا يقول إلا الحق.**

قوله: («**فيسمعها مسترق السمع**») أي: يسمع الكلمة التي قضاها الله، وهم الشياطين يركب بعضهم بعضًا.

وفي (صحيح البخاري) عن عائشة مرفوعًا: «**إن الملائكة تنزل في العنان - وهو السحاب - فتذكر الأمر قضى في السماء، فتسترق الشياطين السمع، فتوحيه إلى الكهان**».

قوله: (ومسترق السمع هكذا وصفه سفيان بكفه) أي: وصف ركوب بعضهم فوق بعض.

وسفيان: هو ابن عيينة، أبو محمد الهلالي، الكوفي، ثم المكي، ثقة حافظ، فقيه، إمام حجة، مات سنة ثمان وتسعين ومائة، وله إحدى وتسعون سنة.

قوله: (فحرفها) بحاء مهملة، وراء مشددة وفاء.

قوله: (وبَدَّد) أي: فرق بين أصابعه.

قوله: («**فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته**») أي: يسمع الفوقاني الكلمة؛ فيلقيها إلى آخر تحته، ثم يلقيها إلى من تحته، حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن [٢].

قوله: («**فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها**») الشهاب: هو النجم الذي يرمي به، أي: ربما أدرك الشهاب المسترق.

---

(١) سبق تخريجه صحيحًا.

(٢) رواه البخاري (٣٢١٠) في بدء الخلق منفردًا به عن مسلم.

وهذا يدل على أن الرمي بالشهب قبل المبعث . لما روى أحمد وغيره - والسياق له في المسند من طريق معمر - : أنبأنا الزهري، عن علي بن حسين عن ابن عباس قال كان رسول الله ﷺ جالسًا في نفر من أصحابه قال عبد الرزاق : من الأنصار قال : فرُمي بنجم عظيم، فاستنار، قال : ما كنتم تقولون إذا كان مثل هذا في الجاهلية؟ قال : كنا نقول : لعله يولد عظيم أو يموت، قلت للزهري : أكان يرمى بها في الجاهلية؟ قال نعم، ولكن غلظت حين بُعث النبي ﷺ قال : **«فإنها لا يُرمى بها لموت أحد ولا لحياته، ولكن ربنا تبارك اسمه إذا قضى أمرًا سبح حملة العرش، ثم سبح أهل السماء الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، حتى يبلغ التسبيح هذه السماء الدنيا . ثم يستخبر أهل السماء الذين يلون حملة العرش، فيقول الذين يلون حملة العرش لحملة العرش : ماذا قال ربكم؟ فيخبرونهم، ويخبر أهل كل سماء حتى ينتهي الخبر إلى هذه السماء، وتخطف الجن السمع فيرمون، فما جاءوا به على وجهه فهو حق، ولكنهم يقرفون فيه ويزيدون»** . قال عبد الله : قال أبي : قال عبد الرزاق **«ويخطف الجن ويُرمون»** وفي رواية له : **«لكنهم يزيدون فيه ويقرفون وينقصون»** [1].

قوله : (**«فيكذب معها مائة كذبة»**) : أي الكاهن أو الساحر .

وكذْبة بفتح الكاف وسكون الذال المعجمة .

قوله : (**«فيُقال : أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا : وكذا وكذا؟»**) هكذا في نسخة بخط المصنف، وكالذي في (صحيح البخاري) سواء .

قال المصنف :(**وفيه قبول النفوس للباطل، كيف يتعلقون بواحدة ولا يعتبرون بمائة كذبة؟**) .

وفيه : أن الشيء إذا كان فيه شيء من الحق فلا يدل على أنه حق كله، فكثيرًا ما يلبس أهل الضلال الحق بالباطل ليكون أقبل لباطلهم، قال تعالى : ﴿وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة :٤٢].

وفي هذه الأحاديث وما بعدها، وما في معناها : إثبات علو الله تعالى على خلقه

---

(١)الحديث عند مسلم (٢٢٢٩/ ١٢٤) في السلام وهو عند أحمد (١/ ١٢١٨) في المسند .

على ما يليق بجلاله وعظمته، وأنه تعالى لم يزل متكلمًا إذا شاء بكلام يسمعه الملائكة، وهذا قول أهل السنة قاطبة سلفًا وخلفًا. خلافًا للأشاعرة، والجهمية، ونفاة المعتزلة. فإياك أن تلتفت إلى ما زخرفه أهل التعطيل، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وعن النوّاس بن سمعان قال: قال رسول الله ﷺ «إذا أراد الله تعالى أن يوحي بالأمر تكلم بالوحي أخذت السموات منه رجفة - أو قال: رعدة - شديدة خوفًا من الله عز وجل. فإذا سمع ذلك أهل السموات صعقوا وخروا لله سجدًا فيكون أول من يرفع رأسه جبريل، فيكلمه الله من وحيه بما أراد، ثم يمر جبريل على الملائكة، كلما مر بسماء سأله ملائكتها: ماذا قال ربنا يا جبريل؟ فيقول جبريل: قال الحق، وهو العلي الكبير. فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل، فينتهي جبريل بالوحي إلى حيث أمره الله عز وجل» (١)).

ش: هذا الحديث رواه ابن أبي حاتم بسنده كما ذكره العماد ابن كثير في (تفسيره).

النواس بن سمعان، بكسر السين، بن خالد الكلابي، ويقال: الأنصاري صحابي. ويقال: إن أباه صحابي أيضًا.

قوله: («**إذا أراد الله أن يوحي بالأمر**») إلى آخره. فيه النص على أن الله تعالى يتكلم بالوحي. وهذا من حجة أهل السنة على النفاة-: لم يزل الله متكلمًا إذا شاء.

قوله: («**أخذت السموات منه رجفة**») السموات مفعول مقدم، والفاعل رجفة أي أصاب السموات من كلامه تعالى رجفة، أي: ارتجفت.

وهو صريح في أنها تسمع كلامه تعالى، كما روى ابن أبي حاتم عن عكرمة. قال إذا قضى الله أمرًا تكلم تبارك وتعالى رجفت السموات والأرض والجبال، وخرت الملائكة كلهم سجدًا (٢).

---

(١) ضعيف: ابن أبي عاصم (٥١٥) في السُّنة وضعفه الألباني هناك في (ظلال الجنة) وأعله بـ(الوليد بن مسلم) وهو مدلس، ونعيم بن حماد وهو: صدوق يخطئ) وانظر الشريعة ص (٢٣٧) برقم (٧١١) للآجري.

(٢) مثل هذه الآثار لا تصح، إذ هي صادرة عن غير معصوم - أقصد التابعين - فهو خبر يتحدث عن

قوله: أو قال: «**رعدة شديدة**» شك من الراوي. هل قال النبي ﷺ رجفة، أو قال رعدة. والراء مفتوحة فيهما.

قوله: («**خوفًا من الله عز وجل**») وهذا ظاهر في أن السموات تخاف الله، بما يجعل تعالى فيها من الإحساس ومعرفة من خلقها.

وقد أخبر تعالى: أن هذه المخلوقات العظيمة تسبحه كما قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤] وقال تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا﴾ [مريم: ٩٠] وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤].

وقد قرر العلامة ابن القيم رحمه الله: أن هذه المخلوقات تسبح الله وتخشاه حقيقة، مستدلاً بهذه الآيات ونحوها.

وفي البخاري عن ابن مسعود قال: كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل [١].

وفي حديث أبي ذر: (أن النبي ﷺ أخذ في يده حصيات، فسمع لهن تسبيحًا...) [٢] الحديث.

وفي الصحيح: قصة حنين الجذع، الذي كان يخطب عليه النبي ﷺ قبل اتخاذ المنبر [٣]. ومثل هذا كثير.

قوله: «**صعقوا وخروا لله سجدًا**» الصعوق: هو الغشي، ومعه السجود.

قوله: «**فيكون أول من يرفع رأسه جبريل**» بفتح أول؛ خبر يكون تقدم على

عالَم الغيب ولا بد فيه من سند من كتاب أو سنة وهو مستند عالم الغيب (الوحي)، فإن غاب فلا قبول له، وانظر الدر المنثور (٥/ ١٩٨).

(١) رواه البخاري (٣٥٧٩) في المناقب منفردًا به عن مسلم.

(٢) قال الحافظ (٦/ ٥٩٢) في الفتح: وأما تسبيح الحصى فليست له إلا هذه الطريق الواحدة مع ضعفها، والقصة في الدلائل (٦/ ٦٤ - ٦٥) للبيهقي.

(٣) رواه البخاري (٣٥٨٣) في المناقب عن ابن عمر رضي الله عنهما و(٣٥٨٤) في المناقب عن جابر رضي الله عنه.

اسمها. ويجوز العكس.

ومعنى جبريل: عبد الله، كما روى ابن جرير وغيره عن على بن حسين قال: كان اسم جبريل: عبد الله، واسم ميكائيل: عبيد الله، وإسرافيل: عبد الرحمن. وكل شيء رجع إلى إيل فهو معبَّد لله عز وجل [(١)].

وفيه: فضيلة جبريل عليه السلام. كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۝٢٠ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير:١٩-٢٠].

قال ابن كثير رحمه الله تعالى: إنه لتبليغ رسول كريم.

وقال أبو صالح في الآية قال: جبريل يدخل في سبعين حجابًا من نور بغير إذن [(٢)].

ولأحمد بإسناد صحيح، عن ابن مسعود قال: رأى رسول الله ﷺ جبريل في صورته وله ستمائة جناح، كل جناح منها قد سد الأفق، يسقط من جناحه من التهاويل والدر والياقوت ما الله به عليم [(٣)].

فإذا كان هذا عظم هذه المخلوقات فخالقها أعظم وأجل وأكبر. فكيف يسوى به غيره في العبادة: دعاء وخوفًا ورجاء وتوكلاً وغير ذلك من العبادات التي لا يستحقها غيره؟ فانظر إلى حال الملائكة وشدة خوفهم من الله تعالى، وقد قال تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۝٢٦ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ۝٢٧ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ۝٢٨ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء:٢٦-٢٩].

قوله: «**فينتهي جبريل بالوحي إلى حيث أمره الله عز وجل**» «**من السماء والأرض**» وهذا تمام الحديث. والآيات المذكورة في هذا الباب، والأحاديث: تقرر، التوحيد

---

(١) ذكره الطبري (١/ ٤٣٧) في تفسيره وهو حسن إن شاء الله.

(٢) **ضعيف**: الطبري (٣٠/ ٨٠) وانظر تعليقنا على أثر عكرمة قبل أربعة آثار.

(٣) **صحيح الإسناد**: أحمد (١/ ٣٩٥، ٤١٢) وله رواية عند البخاري (٤٨٥٦) في التفسير، ومسلم (١٧٤) في الإيمان.

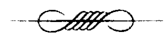
الذي هو مدلول شهادة أن لا إله إلا الله .

فإن الملك العظيم، الذي تصعق الأملاك من كلامه خوفًا منه ومهابة وترجف منه المخلوقات، الكامل في ذاته وصفاته، وعلمه وقدرته وملكه وعزه، وغناه عن جميع خلقه، وافتقارهم جميعًا إليه، ونفوذ تصرفه وقدره فيهم لعلمه وحكمته : لا يجوز شرعًا ولا عقلاً أن يجعل له شريك من خلقه في عبادته التي هي حقه عليهم .

فكيف يجعل المربوب ربًا، والعبد معبودًا؟ أين ذهبت عقول المشركين؟ سبحان الله عما يشركون .

وقال تعالى : ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾[مريم :٩٣-٩٥] .

فإذا كان الجميع عبيدًا : فَلِمَ يعبد بعضهم بعضًا بلا دليل ولا برهان، بل بمجرَّد الرأي والاختراع والابتداع؟ ثم قد أرسل رسله من أولهم إلى آخرهم تزجرهم عن ذلك الشرك وتنهاهم عن عبادة ما سوى الله . (انتهى من شرح سنن ابن ماجه) .



(١٦)



الشفاعة

قال المصنف رحمه الله تعالى: (بابُ الشفاعة) .

ش: أي بيان ما أثبته القرآن منها وما نفاه . وحقيقة ما دل القرآن على إثباته .

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وقول الله عز وجل : ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام:٥١]) .

ش: الإنذار : هو الإعلام بأسباب المخافة والتحذير منها .

قوله : (به) قال ابن عباس القرآن ﴿ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ﴾ [الأنعام:٥١] وهم المؤمنون .

وعن الفضيل بن عياض : ليس كل خلقه عاتب ، إنما عاتب الذين يعقلون ، فقال : ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ﴾ [الأنعام:٥١] وهم المؤمنون أصحاب العقول الواعية .

قوله : ﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ [الأنعام:٥١] قال الزجاج : موضع ليس : نصب على الحال ، كأنه قال : متخلين ، من كل ولي وشفيع . والعامل فيه يخافون .

قوله : ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٨٧] أي : فيعملون في هذه الدار عملاً ينجيهم الله به من عذاب يوم القيامة .

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وقوله : ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ﴾ [الزمر:٤٤]) .

ش: وقبلها ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا

يَعۡقِلُونَ ﴾ [الزمر: ٤٣] وهذه كقوله تعالى: ﴿ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [يونس: ١٨] فبين تعالى في هذه الآيات وأمثالها أن وقوع الشفاعة على هذا الوجه منتف وممتنع.

وأن اتخاذهم شفعاء شرك، يتنزه الرب تعالى عنه. وقد قال تعالى: ﴿ فَلَوۡلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرۡبَانًا ءَالِهَةَۢۖ بَلۡ ضَلُّواْ عَنۡهُمۡۚ وَذَٰلِكَ إِفۡكُهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴾ [الأحقاف: ٢٨] فبيَّن تعالى أن دعواهم أنهم يشفعون لهم بتألههم. أن ذلك منهم إفك وافتراء.

وقوله: ﴿ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ ﴾ [الزمر: ٤٤] أي هو مالكها، فليس لمن تطلب منه شيء منها، وإنما تطلب ممن يملكها دون كل من سواه، لأن ذلك عبادة وتأليه لا يصلح إلا لله.

قال البيضاوي: لعله رد لما عسى أن يجيبوا به، وهو أن الشفعاء أشخاص مقربون.

وقوله: ﴿ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ﴾ [الزمر: ٤٤] تقرير لبطلان اتخاذ الشفعاء من دونه، لأنه مالك الملك، فاندرج في ذلك ملك الشفاعة، فإذا كان هو مالكها بطل أن تطلب ممن لا يملكها ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ ﴾ [البقرة: ٢٥٥] ﴿ وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

ابن جرير: نزلت لما قال الكفار: ما نعبد أوثاننا هذه؛ إلا ليقربونا إلى الله زلفى قال الله تعالى: ﴿ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾ [الزمر: ٤٤].

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وقوله: ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ ﴾ [البقرة: ٢٥٥]).

ش: قد تبين مما تقدم من الآيات أن الشفاعة التي نفاها القرآن هي التي تطلب من غير الله.

وفي هذه الآية: بيان أن الشفاعة إنما تقع في الدار الآخرة بإذنه، كما قال تعالى: ﴿ يَوۡمَئِذٖ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوۡلٗا ﴾ [طه: ١٠٩].

فبيَّن أنها لا تقع لأحد إلا بشرطين: إذن الرب تعالى للشافع أن يشفع، ورضاه عن المأذون بالشفاعة فيه، وهو تعالى لا يرضى من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة إلا ما أريد به وجهه، ولقى العبد به ربه مخلصًا غير شاك في ذلك؛ كما دل على ذلك الحديث الصحيح [(١)]. وسيأتي ذلك مقررًا أيضًا في كلام شيخ الإسلام رحمه الله.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وقوله: ﴿وَكَمْ مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٦]).

ش: قال ابن كثير رحمه الله ﴿وَكَمْ مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٦] كقوله: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥] ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٣] فإذا كان هذا في حق الملائكة المقربين، فكيف ترجون أيها الجاهلون شفاعة هذه الأنداد عند الله، وهو لم يشرع عبادتها ولا أذن فيها، بل قد نهى عنها على ألسنة جميع رسله، وأنزل بالنهي عن ذلك جميع كتبه؟

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وقوله: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٢-٢٣]).

ش: قال ابن القيم رحمه الله تعالى في الكلام على هذه الآيات: وقد قطع الله الأسباب التي يتعلق بها المشركون جميعها. فالمشرك إنما يتخذ معبوده لما يحصل له من النفع، والنفع لا يكون إلا ممن فيه خصلة من هذه الأربع: إما مالك لما يريد عابده منه، فإن لم يكن مالكًا كان شريكًا للمالك، فإن لم يكن شريكًا له كان معينًا له وظهيرًا، فإن لم يكن معينًا ولا ظهيرًا كان شفيعًا عنده.

فنفى الله سبحانه المراتب الأربع نفيًا مرتبًا، متنقلاً من الأعلى إلى الأدنى، فنفى الملك، والشركة، والمظاهرة، والشفاعة؛ التي يطلبها المشرك، وأثبت شفاعة لا نصيب فيها لمشرك، وهي الشفاعة بإذنه.

---

(١) سبق تخريج أحاديث في ذلك في باب (الخوف من الشرك).

فكفى بهذه الآية نورًا وبرهانًا وتجريدًا للتوحيد، وقطعًا لأصول الشرك ومواده لمن عقلها.

والقرآن مملوء من أمثالها ونظائرها، ولكن أكثر الناس لا يشعرون بدخول الواقع تحته، وتضمنه له، يظنه في نوع وقوم قد خلوا من قبل، ولم يعقبوا وارثًا، وهذا هو الذي يحول بين القلب وبين فهم القرآن.

ولعمر الله، إن كان أولئك قد خلوا؛ فقد ورثهم من هو مثلهم، أو شر منهم، أو دونهم، وتناول القرآن لهم كتناوله لأولئك.

ثم قال: ومن أنواعه أي: الشرك، طلب الحوائج من الموتى والاستغاثة بهم.

وهذا أصل شرك العالم؛ فإن الميت قد انقطع عمله، وهو لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا، فضلاً عمن استغاث به وسأله أن يشفع له إلى الله. وهذا من جهله بالشافع والمشفوع عنده. فإنه لا يقدر أن يشفع له عند الله إلا بإذنه، والله لم يجعل استغاثته وسؤاله سببًا لإذنه، وإنما السبب كمال التوحيد، فجاء هذا الشرك بسبب يمنع الإذن، وهو بمنزلة من استعان في حاجته بما يمنع حصولها. وهذه حالة كل مشرك.

فجمعوا بين الشرك بالمعبود وتغيير دينه، ومعاداة أهل التوحيد، ونسبة أهله إلى التنقص بالأموات، وهم قد تنقصوا الخالق بالشرك، وأولياءه الموحدين بذمهم وعيبهم ومعاداتهم، وتنقصوا من أشركوا به غاية التنقص، إذ ظنوا أنهم راضون منهم بهذا، وأنهم أمروهم به، وأنهم يوالونهم عليه، وهؤلاء هم أعداء الرسل في كل زمان ومكان، وما أكثر المستجيبين لهم.

وما نجا من شرك هذا الشرك الأكبر إلا من جرد توحيده لله، وعادى المشركين في الله، وتقرب بمقتهم إلى الله، واتخذ الله وحده وليه وإلهه ومعبوده.

فجرد حبه لله، وخوفه لله، ورجاءه لله، وذله لله، وتوكله على الله، واستعانته بالله، والتجاءه إلى الله، واستغاثته بالله، وقصده لله، متبعًا لأمره متطلبًا لمرضاته.

إذا سأل سأل الله، وإذا استعان استعان بالله، وإذا عمل عمل لله. فهو لله وبالله ومع الله. انتهى كلامه رحمه الله تعالى.

وهذا الذي ذكره هذا الإمام: هو حقيقة دين الإسلام، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥].

قال المصنف رحمه الله تعالى: (قال أبو العباس: نفى الله عما سواه كل ما يتعلق به المشركون، فنفى أن يكون لغيره ملك أو قسط منه، أو يكون عونًا لله. فلم يبق إلا الشفاعة. فبين أنها لا تنفع إلا لمن أذن له الرب، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨]).

فهذه الشفاعة التي يظنها المشركون هي منتفية يوم القيامة كما نفاها القرآن، وأخبر النبي ﷺ: أنه يأتي فيسجد لربه ويحمده، لا يبدأ بالشفاعة أولاً. ثم يقال له: «**ارفع رأسك وقل يسمع، وسل تعطه، واشفع تشفع**»[١].

وقال له أبو هريرة: من أسعد الناس بشفاعتك؟ قال: «**من قال لا إله إلا الله خالصًا من قلبه**»[٢] فتلك الشفاعة لأهل الإخلاص بإذن الله، ولا تكون لمن أشرك بالله.

وحقيقته: أن الله سبحانه وتعالى هو الذي يتفضل على أهل الإخلاص، فيغفر لهم بواسطة دعاء من أذن له أن يشفع ليكرمه وينال المقام المحمود. فالشفاعة التي نفاها القرآن: ما كان فيها شرك، ولهذا أثبت الشفاعة بإذنه في مواضع، وقد بين النبي ﷺ أنها لا تكون إلا لأهل التوحيد والإخلاص.

ش: قوله: (قال أبو العباس) هذه كنية شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية الحراني، إمام المسلمين رحمه الله.

قوله: (وقال أبو هريرة) إلى آخره. هذا الحديث رواه البخاري، والنسائي، عن أبي هريرة.

---

(١) هو جزء من حديث الشفاعة (٣٣٤٠) في أحاديث الأنبياء، ومسلم (١٩٤/ ٣٢٧) في الإيمان عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) الحديث تفرد به البخاري (٩٩) في العلم.

ورواه أحمد، وصححه ابن حبان، وفيه «**وشفاعتي لمن قال لا إله إلا الله مخلصًا، يصدق قلبه لسانه، ولسانه قلبه**»(١).

وشاهده في (صحيح مسلم) عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «**لكل نبي دعوة مستجابة، فتعجل كل نبي دعوته، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة. فهي نائلة إن شاء الله من مات لا يشرك بالله شيئًا**»(٢).

وقد ساق المصنف رحمه الله كلام شيخ الإسلام هنا، فقام مقام الشرح والتفسير لما في هذا الباب من الآيات، وهو كاف واف بتحقيق مع الإيجاز. والله أعلم.

وقد عَرَّف الإخلاص بتعريف حسن فقال: الإخلاص محبة الله وحده وإرادة وجهه.

وقال ابن القيم رحمه الله في معنى حديث أبي هريرة: تأمل هذا الحديث كيف جعل أعظم الأسباب التي تنال بها شفاعته تجريد التوحيد، عكس ما عند المشركين أن الشفاعة تنال باتخاذهم شفعاء وعبادتهم وموالاتهم، فقلب النبي ﷺ ما في زعمهم الكاذب، وأخبر أن سبب الشفاعة تجريد التوحيد، فحينئذ يأذن الله للشافع أن يشفع.

ومن جهل المشرك اعتقاده أن من اتخذه وليًّا أو شفيعًا، أنه يشفع له وينفعه عند الله، كما يكون خواص الولاة والملوك تنفع من والاهم.

ولم يعلموا أنه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه في الشفاعة، ولا يأذن في الشفاعة إلا لمن رضي قوله وعمله، كما قال في الفصل الأول ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وفي الفصل الثاني ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨] وبقي فصل ثالث، وهو أنه لا يرضى من القول والعمل إلا توحيده واتباع رسوله ﷺ. فهذه ثلاثة فصول؛ تقطع شجرة الشرك من قلب من عقلها ووعاها. انتهى.

وذكر أيضًا رحمه الله تعالى أن الشفاعة ستة أنواع:

الأول: الشفاعة الكبرى التي يتأخر عنها أولو العزم عليهم الصلاة والسلام؛ حتى

---

(١) انظر الحديث السابق.

(٢) رواه مسلم (١٩٩) في الإيمان.

تنتهي إليه ﷺ؛ فيقول: «**أنا لها**» [١] وذلك حين يرغب الخلائق إلى الأنبياء؛ ليشفعوا لهم إلى ربهم حتى يريحهم من مقامهم في الموقف. وهذه شفاعة يختص بها لا يشركه فيها أحد.

الثاني: شفاعته لأهل الجنة في دخولها. وقد ذكرها أبو هريرة في حديثه الطويل المتفق عليه [٢].

الثالث: شفاعته لقوم من العصاة من أمته، قد استوجبوا النار بذنوبهم، فيشفع لهم أن لا يدخلوها.

الرابع: شفاعته في العصاة من أهل التوحيد الذين يدخلون النار بذنوبهم.

والأحاديث بها متواترة عن النبي ﷺ. وقد أجمع عليها الصحابة وأهل السنة قاطبة وبدَّعوا من أنكرها، وصاحوا به من كل جانب ونادوا عليه بالضلال.

الخامس: شفاعته لقوم من أهل الجنة في زيادة ثوابهم ورفعة درجاتهم، وهذه مما لم ينازع فيها أحد.

وكلها مختصة بأهل الإخلاص الذين لم يتخذوا من دون الله وليًّا ولا شفيعًا، كما قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ [الأنعام: ٥١].

السادس: شفاعته في بعض الكفار من أهل النار حتى يخفف عذابه وهذه خاصة بأبي طالب وحده [٣].

---

(١) انظر تخريجنا لحديث الشفاعة قبل ثلاثة أحاديث.

(٢) انظر السابق.

(٣) رواه مسلم (٢٠٩) في الإيمان عن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه.

(١٧)



قول الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص :٥٦]

قال المصنف رحمه الله تعالى: (**باب : قول الله تعالى :** ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص :٥٦]) .

ش: سبب نزول هذه الآية : موت أبي طالب على ملة عبد المطلب ، كما سيأتي بيان ذلك في حديث الباب .

قال ابن كثير : يقول تعالى لرسوله : إنك يا محمد ﴿لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص :٥٦] ، أي ليس إليك ذلك ، إنما عليك البلاغ والله يهدي من يشاء . وله الحكمة البالغة ، والحجة الدامغة ، كما قال تعالى : ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة :٢٧٢] وقال تعالى : ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف :١٠٣] .

قلت : والمنفى هنا هداية التوفيق والقبول ، فإن أمر ذلك إلى الله ، وهو القادر عليه . وأما الهداية المذكورة في قول الله تعالى : ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى :٥٢] فإنها هداية الدلالة والبيان ، فهو المبين عن الله والدال على دينه وشرعه .

قال المصنف رحمه الله تعالى: (**في الصحيح عن ابن المسيب عن أبيه ، قال : (لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ وعنده عبد الله بن أبي أمية ، وأبو جهل ، فقال له : «يا عم قل لا إله إلا الله ، كلمة أحاج لك بها عند الله» . فقالا له : أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فأعاد عليه النبي ﷺ ، فأعاد . فكان آخر ما قال : هو على ملة عبد المطلب . وأبى أن يقول لا إله إلا الله . فقال النبي ﷺ : «لأستغفرن لك مالم أُنْهَ عنك»**) .

فأنزل الله عز وجل ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ [التوبة:١١٣] وأنزل الله في أبي طالب: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص:٥٦][1].

ش: قوله: في (الصحيح) أي في (الصحيحين).

وابن المسيب: هو سعيد بن المسيب بن حزن بن أبي وهب بن عمر بن عائذ، بن عمران، بن مخزوم، القرشي، المخزومي، أحد العلماء والفقهاء الكبار السبعة من التابعين. اتفق أهل الحديث على أن مراسيله أصح المراسيل. وقال ابن المديني: لا أعلم في التابعين أوسع علمًا منه. مات بعد التسعين وقد ناهز الثمانين.

وأبو المسيب صحابي، بقى إلى خلافة عثمان رضي الله عنه، وكذلك جده حزن، صحابي استشهد باليمامة.

قوله: (لما حضرت أبا طالب الوفاة) أي علاماتها ومقدماتها.

قوله: (جاء رسول الله ﷺ) يحتمل أن يكون المسيب حضر مع الاثنين فإنهما من بني مخزوم، وهو أيضًا مخزومي، وكان الثلاثة إذ ذاك كفارًا، فقتل أبو جهل على كفره وأسلم الآخران.

قوله: «**يا عم**» منادى مضاف، يجوز فيه إثبات الياء وحذفها، حذفت الياء هنا، وبقيت الكسرة دليلاً عليها.

قوله: «**قل لا إله إلا الله**» أمره أن يقولها لعلم أبي طالب بما دلت عليه من نفى الشرك بالله، وإخلاص العبادة له وحده، فإن من قالها بعلم ويقين فقد برئ من الشرك والمشركين ودخل في الإسلام. لأنهم يعلمون ما دلت عليه، وفي ذلك الوقت لم يكن بمكة إلا مسلم أو كافر. فلا يقولها إلا من ترك الشرك وبرئ منه.

ولما هاجر النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة: كان فيها المسلمون الموحدون، والمنافقون الذين يقولونها بألسنتهم وهم يعرفون معناها، لكن لا يعتقدونها، لما في

---

(١) رواه البخاري (١٣٦٠) في الجنائز، ومسلم (٢٤/ ٣٩) في الإيمان.

قلوبهم من العداوة والشك والريب، فهم مع المسلمين بظاهر الأعمال دون الباطن.

وفيها اليهود، وقد أقرهم رسول الله ﷺ لما هاجر، ووادعهم بأن لا يظاهروا عليه عدوًّا كما هو مذكور في كتب الحديث والسير.

قوله: «**كلمة**» قال القرطبي: بالنصب على أنه بدل من لا إله إلا الله، ويجوز الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف.

قوله: «**أحاج لك بها عند الله هو بتشديد الجيم من المحاجة**.

وفيه: دليل على أن الأعمال بالخواتيم، لأنه لو قالها في تلك الحال معتقدًا ما دلت عليه مطابقة من النفي والإثبات؛ لنفعته.

قوله: (فقالا له: أترغب عن ملة عبد المطلب) ذكراه الحجة الملعونة التي يحتج بها المشركون على المرسلين، كقول فرعون لموسى: ﴿فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [طه: ٥١] وكقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣].

قوله: (فأعاد النبي ﷺ فأعادا فيه معرفتهما لمعنى لا إله إلا الله؛ لأنهما عرفا أن أبا طالب لو قالها لبرئ من ملة عبد المطلب. فإن ملة عبد المطلب هي الشرك بالله في إلهيته. وأما الربوبية فقد أقروا بها كما تقدم. وقد قال عبد المطلب لأبرهة: أنا رب الإبل، والبيت له رب يمنعه منك.

وهذه المقالة منهما عند قول النبي ﷺ لعمه: «**قل لا إله إلا الله**» استكبارًا عن العمل بمدلولها. كما قال الله تعالى عنهما وعن أمثالهما من أولئك المشركين: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ۝٣٥ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ﴾ [الصافات: ٣٥-٣٦] فرد عليهم بقوله: ﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ٣٧].

فبين تعالى أن استكبارهم عن قول لا إله إلا الله؛ لدلالتها على نفي عبادتهم الآلهة التي كانوا يعبدونها من دون الله. فإن دلالة هذه الكلمة على نفي ذلك دلالة تضمن، ودلالتها عليه وعلى الإخلاص دلالة مطابقة.

ومن حكمة الرب تعالى في عدم هداية أبي طالب إلى الإسلام ليبين لعباده أن ذلك

إليه، وهو القادر عليه دون من سواه.

فلو كان عند النبي ﷺ، الذي هو أفضل خلقه من هداية القلوب، وتفريج الكروب، ومغفرة الذنوب، والنجاة من العذاب، ونحو ذلك شيء، لكان أحق الناس بذلك وأولاهم به عمه؛ الذي كان يحوطه ويحميه وينصره ويؤويه، فسبحان من بهرت حكمته العقول، وأرشد العباد إلى ما يدلهم على معرفته وتوحيده، وإخلاص العمل له وتجريده.

قوله: (فكان آخر ما قال) الأحسن فيه الرفع على أنه اسم كان، وجملة هو وما بعدها الخبر.

قوله: (هو على ملة عبد المطلب) الظاهر أن أبا طالب قال: أنا؛ فغيره الراوى استقباحًا للفظ المذكور، وهو من التصرفات الحسنة، قاله الحافظ.

قوله: (وأبى أن يقول لا إله إلا الله) قال الحافظ: هذا تأكيد من الراوى في نفي وقوع ذلك من أبي طالب.

قال المصنف رحمه الله: (وفيه الرد على من زعم إسلام عبد المطلب، وأسلافه، ومضرة أصحاب السوء على الإنسان، ومضرة تعظيم الأسلاف).

أي: إذا زاد على المشروع، بحيث تجعل أقوالهم حجة يرجع إليها عند التنازع.

قوله: فقال النبي ﷺ: «**لأستغفرن لك ما لم أنه عنك**» قال النووي: وفيه جواز الحلف من غير استحلاف. وكأن الحلف هنا لتأكيد العزم على الاستغفار؛ تطييبًا لنفس أبي طالب.

وكانت وفاة أبي طالب بمكة قبل الهجرة بقليل.

قال ابن فارس: مات أبو طالب ولرسول الله ﷺ تسع وأربعون سنة وثمانية أشهر وأحد عشر يومًا.

وتوفيت خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها بعد موت أبي طالب بثمانية أيام.

قوله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾[التوبة: ١١٣] الآية، أي: ما

ينبغي لهم ذلك . وهو خبر بمعنى النهي ، والظاهر أن هذه الآية نزلت في أبي طالب . فإن الإتيان بالفاء المفيدة للترتيب في قوله : (فأنزل الله) بعد قوله **«لأستغفرن لك ما لم أنه عنك»** يفيد ذلك .

وقد ذكر العلماءُ لنزول هذه الآية أسبابًا أُخر ، فلا منافاة ؛ لأن أسباب النزول تتعدد .

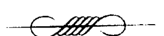
قال الحافظ : أما نزول الآية الثانية فواضح في قصة أبي طالب . وأما نزول الآية التي قبلها ففيه نظر .

ويظهر أن المراد : أن الآية المتعلقة بالاستغفار نزلت بعد أبي طالب بمدة ، وهي عامة في حقه وحق غيره .

ويوضح ذلك ما يأتي في التفسير : فأنزل الله بعد ذلك : ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ﴾[التوبة :١١٣] الآية . ونزل في أبي طالب : ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾[القصص :٥٦] .

كله ظاهر في أنه مات على غير الإسلام . ويضعف ما ذكره السهيلي أنه روى في بعض كتب (المسعودى) أنه أسلم ، لأن مثل ذلك لا يعارض ما في الصحيح . انتهى .

وفيه تحريم الاستغفار للمشركين وموالاتهم ومحبتهم ، لأنه إذا حرم الاستغفار لهم فموالتهم ومحبتهم أولى .



(١٨)



ما جاء أن سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم هو الغلو في الصالحين

قال المصنف رحمه الله تعالى: (باب: ما جاء أن سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم هو الغلو في الصالحين)

ش: قوله: (تركهم) بالجر عطفًا على المضاف إليه. وأراد المصنف رحمه الله تعالى بيان ما يؤول إليه الغلو في الصالحين؛ من الشرك بالله في الإلهية الذي هو أعظم ذنب عُصي الله به، وهو ينافي التوحيد الذي دلت عليه كلمة الإخلاص: شهادة أن لا إله إلا الله.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وقول الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١]).

ش: الغلو: هو الإفراط في التعظيم بالقول والاعتقاد، أي لا ترفعوا المخلوق عن منزلته التي أنزله الله. فتنزلوه المنزلة التي لا تنبغي إلا لله.

والخطاب: - وإن كان لأهل الكتاب - فإنه عام يتناول جميع الأمة، تحذيرًا لهم أن يفعلوا بنبيهم ﷺ فعل النصارى في عيسى، واليهود في العزير كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦] ولهذا قال النبي ﷺ **«لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم»** (١) ويأتي.

---

(١) رواه البخاري (٣٤٤٥) في أحاديث الأنبياء عن عمر رضي الله عنه.

فكل من دعا نبيًّا أو وليًّا من دون الله فقد اتخذ إلهًا، وضاهئ النصارى في شركهم، وضاهى اليهود في تفريطهم.

فإن النصارى غلوا في عيسى عليه السلام، واليهود عادوه وسبوه وتنقصوه. فالنصارى أفرطوا، واليهود فرطوا. وقال تعالى: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ﴾ [المائدة: ٧٥] ففي هذه الآية وأمثالها الرد على اليهود والنصارى.

قال شيخ الإسلام: ومن تشبه من هذه الأمة باليهود والنصارى، وغلا في الدين بإفراط فيه أو تفريط فقد شابههم.

قال: وعلى رضى الله عنه حرق الغالية من الرافضة، فأمر بأخاديد خدت لهم عند باب كندة فقذفهم فيها. واتفق الصحابة على قتلهم. لكن ابن عباس مذهبه أن يقتلوا بالسيف من غير تحريق. وهو قول أكثر العلماء.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (في الصحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣] **قال: هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم: أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصابًا وسموها بأسمائهم، ففعلوا، ولم تعبد، حتى إذا هلك أولئك ونسي العلم عُبدت)** [1].

ش: قوله وفي (الصحيح) أي: (صحيح البخاري).

وهذا الأثر اختصره المصنف رحمه الله. ولفظ ما في البخاري: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال صارت الأوثان التي في قوم نوح، في العرب بعد. أما ود فكانت لكلب، بدومة الجندل. وأما سواع فكانت لهذيل. وأما يغوث فكانت لمراد، ثم لبني غطيف بالجرف عند سبأ. وأما يعوق فكانت لهمدان. وأما نسر فكانت لحمير لآل ذي الكلاع: أسماء رجال صالحين في قوم نوح... إلى آخره.

---

(١) رواه البخاري (٤٩٢٠) في التفسير.

وروى عكرمة والضحاك وابن إسحاق نحو هذا .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن حميد قال حدثنا مهران ، عن سفيان ، عن موسى عن محمد بن قيس : أن يغوث ويعوق ونسرًا كانوا قومًا صالحين من بني آدم ، وكان لهم أتباع يقتدون بهم . فلما ماتوا قال أصحابهم : لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة ، فصوروهم ، فلما ماتوا وجاء آخرون ؛ دب إليهم إبليس فقال : إنما كانوا يعبدونهم وبهم يسقون المطر . فعبدوهم (١).

قوله : (أن انصبوا) هو بكسر الصاد المهملة .

قوله : (أنصابًا) جمع نصب ، والمراد به هنا الأصنام المصورة على صور أولئك الصالحين التي نصبوها في مجالسهم ، وسموها بأسمائهم .

وفي سياق حديث ابن عباس : ما يدل على أن الأصنام تسمى أوثانًا . فاسم الوثن يتناول كل معبود من دون الله ، سواء كان ذلك المعبود قبرًا أو مشهدًا ، أو صورة أو غير ذلك .

قوله : (حتى إذا هلك أولئك) أي الذين صوروا تلك الأصنام .

قوله : (ونسى العلم) ورواية البخاري : وتَنَسَّخ ، وللكشميهني : ونسخ العلم . أي : دُرست آثاره بذهاب العلماء ، وعم الجهل حتى صاروا لا يميزون بين التوحيد والشرك . فوقعوا في الشرك ظنًّا منهم أنه ينفعهم عند الله .

قوله : (عُبدت) لما قال لهم إبليس : إن من كان قبلكم كانوا يعبدونهم وبهم يسقون المطر .

فهو الذي زين لهم عبادة الأصنام وأمرهم بها ، فصار هو معبودهم في الحقيقة . كما قال تعالى : ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٦٠ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۝٦١ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ﴾ [يس : ٦٠-٦٢] .

---

(١) ضعيف الإسناد : الطبري (٢٩/ ٩٨ ، ٩٩) وفيه محمد بن حميد وهو ضعيف .

وهذا يفيد الحذر من الغلو ووسائل الشرك، وإن كان القصد بها حسنًا.

فإن الشيطان أدخل أولئك في الشرك من باب الغلو في الصالحين، والإفراط في محبتهم، كما قد وقع مثل ذلك في هذه الأمة أظهر لهم الغلو والبدع في قالب تعظيم الصالحين ومحبتهم، ليوقعهم فيما هو أعظم من ذلك، من عبادتهم لهم من دون الله.

وفي رواية: أنهم قالوا: ما عظم أولنا هؤلاء إلا وهم يرجون شفاعتهم عند الله؛ أي: يرجون شفاعة أولئك الصالحين الذين صوروا تلك الأصنام على صورهم وسموها بأسمائهم.

ومن هنا يعلم أن اتخاذ الشفعاء ورجاء شفاعتهم بطلبها منهم: شرك بالله، كما تقدم بيانه في الآيات المحكمات.

قال المصنف رحمه الله تعالى:(وقال ابن القيم رحمه الله: قال غير واحد من السلف: لما ماتوا عكفوا على قبورهم، ثم صوروا تماثيلهم، ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم).

ش: قوله: (وقال ابن القيم) رحمه الله هو الإمام العلامة، محمد بن أبي بكر، بن أيوب، الزرعي الدمشقي المعروف بابن قيم الجوزية.

قال الحافظ السخاوي: العلامة، الحجة، المتقدم في سعة العلم، ومعرفة الخلاف، وقوة الجنان، المجمع عليه بين الموافق والمخالف، صاحب التصانيف السائرة والمحاسن الجمة. مات سنة إحدى وخمسين وسبعمائة.

قوله: (وقال غير واحد من السلف). هو بمعنى ما ذكره البخاري وابن جرير إلا أنه ذكر عكوفهم على قبورهم قبل تصويرهم تماثيلهم.

وذلك من وسائل الشرك، بل هو الشرك، لأن العكوف لله في المساجد عبادة. فإذا عكفوا على القبور صار عكوفهم تعظيمًا ومحبة عبادة لها.

قوله: (ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم) أي طال عليهم الزمان. وسبب تلك العبادة والموصل إليها هو ما جرى من الأولين من التعظيم بالعكوف على قبورهم، ونصب صورهم في مجالسهم، فصارت بذلك أوثانًا تُعبد من دون الله، كما ترجم به المصنف رحمه الله تعالى.

فإنهم تركوا بذلك دين الإسلام الذي كان أولئك عليه قبل حدوث وسائل هذا الشرك .

كفروا بعبادة تلك الصور ، واتخذوهم شفعاء . وهذا أول شرك حدث في الأرض .

قال القرطبي : وإنما صور أوائلهم الصور ليتأسوا بهم ويتذكروا أفعالهم الصالحة ، فيجتهدوا كاجتهادهم ، ويعبدوا الله عند قبورهم . ثم خلفهم قوم جهلوا مرادهم ، فوسوس لهم الشيطان : أن أسلافهم كانوا يعبدون هذه الصور ويعظمونها . انتهى .

قال ابن القيم : وما زال الشيطان يوحي إلى عُبَّاد القبور ويلقى إليهم أن البناء والعكوف عليها من محبة أهل القبور من الأنبياء والصالحين ، وأن الدعاء عندها مستجاب ، ثم ينقلها من هذه المرتبة إلى الدعاء بها ، والإقسام على الله به ، فإن شأن الله أعظم من أن يقسم عليه أو يسأل بأحد من خلقه .

فإذا تقرر ذلك عندهم ، نقلهم منه إلى دعائه وعبادته ، وسؤاله الشفاعة من دون الله ، واتخاذ قبره وثنًا تعلق عليه القناديل والستور ، ويُطاف به ويُستلم ويُقبَّل ، ويحج إليه ويذبح عنده .

فإذا تقرر ذلك عندهم نقلهم منه إلى دعاء الناس إلى عبادته ، واتخاذه عيدًا ومنسكًا ، ورأوا أن ذلك أنفع لهم في دنياهم وأخراهم .

وكل هذا مما قد علم بالاضطرار من دين الإسلام أنه مضاد لما بعث الله به رسوله ﷺ من تجريد التوحيد ، وأن لا يعبد إلا الله .

فإذا تقرر ذلك عندهم . نقلهم منه إلى أن من نهى عن ذلك فقد تنقص أهل هذه الرتب العالية وحطهم عن منزلتهم ، وزعم أنه لا حرمة لهم ولا قدر .

وغضب المشركون واشمأزت قلوبهم ، كما قال تعالى : ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر :٤٥] وسرى ذلك في نفوس كثير من الجهال والطغام ، وكثير ممن ينتسب إلى العلم والدين ، حتى عادوا أهل التوحيد ورموهم بالعظائم ونفَّروا الناس عنهم ، ووالوا أهل الشرك وعظموهم ، وزعموا أنهم أولياء الله وأنصار دينه ورسوله ، ويأبي الله ذلك

﴿وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الأنفال: ٣٤] . انتهى كلام ابن القيم رحمه الله .

وفي القصة فوائد ذكرها المصنف رحمه الله .

منها: أنَّ من فهم هذا الباب وما بعده، تبينَّ له غربةُ الإسلام، ورأى من قُدرة الله وتقليبه القلوب العجب .

ومنها: أنَّ أوَّلَ شرك حدث في الأرض، سببُه محبةُ الصالحين . أي: المحبة التي فيها غُلوّ .

ومنها: معرفةُ أوَّل شيءٍ غُيِّر به دينُ الأنبياء .

ومنها: معرفةُ سبب قبول البدع، مع كون الشرائع والفطِر تُنكرها، وأنَّ سبب ذلك كلّه مَزْجُ الحق بالباطل ، بأمرين :

الأول: محبةُ الصالحين .

والثاني: فِعْلُ أُناس من أهل العلم والدين شيئًا أرادوا به خيرًا، فظنَّ من بعدهم أنهم أرادوا غيره .

ومنها: معرفة جبلّة الإنسان، في كون الحق ينقصُ في قلبه والباطل يزيد . أي: في الغالب .

ومنها: أنَّ فيها شاهدًا لما نُقل عن بعض السلف: أنَّ البدعة سبب الكفر ، وأنها أحبُّ إلى إبليس من المعصية؛ لأن المعصية قد يُتابُ منها، والبدعة لا يُتاب منها .

ومنها: معرفةُ الشيطان بما تؤول إليه البدعة، ولو حسُن قصد الفاعل .

ومنها: معرفة القاعدة الكلية، وهي: النهي عن الغلو، ومعرفةُ ما يؤول إليه . أي: من الشرك .

ومنها: النهيُ عن التماثيل، والحكمة في إزالتها .

ومنها: معرفُة عظم شأن هذه القصة، وشدة الحاجة إليها مع الغفلة عنها .

ومنها: -وهي أعجب- قراءاتُهم إياها في كتب التفسير والحديث، ومعرفَتُهم لمعنى الكلام، وكون الله تعالى حال بين قلوبهم، حتى اعتقدوا أنَّ فعل قوم نوح هو أفضلُ العبادة، واعتقدوا أنَّ نهي الله ورسوله هو الكفر المُبيح للدم والمال.

يعني: لو نهاهم ناهٍ بنهي الله لهم عن الشرك، لكفَّروه واستحلوا دمه وماله بذلك.

ومنها: التصريحُ بأنهم لم يُريدوا إلاَّ الشفاعة.

ومنها: ظنُّهم أنَّ الذين صوَّروا الصور أرادوا ذلك.

ومنها: التصريحُ بأنها لم تُعبد، حتى نُسي العلم. ففيها: معرفةُ قدر وجوده ومضرّة فقده.

ومنها: أن سبب فقد العلم موت العلماء. انتهى.

ومنها: رد الشبه التي يسميها أهل الكلام عقليات، ويدفعون بها ما جاء به الكتاب والسنة من توحيد الصفات، وإثباتها على ما يليق بجلال الله وعظمته وكبريائه.

ومنها: مضرة التقليد.

ومنها: ضرورة الأمة إلى ما جاء به رسول اللهﷺ، علمًا وعملاً بما يدل عليه الكتاب والسنة، فإن ضرورة العبد إلى ذلك فوق كل ضرورة.

قال المصنف رحمه الله تعالى: **(وعن عمر رضي الله عنه أن رسول اللهﷺ قال: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم. إنما أنا عبد، فقولوا عبد الله ورسوله»[1] أخرجاه).**

ش: قوله (عن عمر) هو ابن الخطاب، بن نفيل - بنون وفاء مصغرًا - العدوى، أمير المؤمنين، وأفضل الصحابة بعد الصديق رضي الله عنهم. ولي الخلافة عشر سنين ونصفًا. فامتلأت الدنيا عدلاً، وفُتحت في أيامه ممالك كسرى وقيصر. واستشهد في ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين رضي الله عنه.

---

(١) رواه البخاري (٣٣٤٥) في أحاديث الأنبياء وليس في الصحيحين وإنما هو عند البخاري فقط.

قوله: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم» الإطراء: مجاوزة الحد في المدح والكذب فيه. قاله أبو السعادات. وقال غيره: أي لا تمدحوني بالباطل، ولا تجاوزوا الحد في مدحي.

قوله: «إنما أنا عبد فقولوا: عبد الله ورسوله» أي لا تمدحوني فتغلوا في مدحي كما غلت النصارى في عيسى عليه السلام فادعوا فيه الإلهية. وإنما أنا عبد الله ورسوله، فصفوني بذلك كما وصفني ربي، فقولوا عبد الله ورسوله، فأبى المشركون إلا مخالفة أمره وارتكاب نهيه، وعظموه بما نهاهم عنه وحذرهم منه، وناقضوه أعظم مناقضة، وضاهوا النصارى في غلوهم وشركهم، ووقعوا في المحذور، وجرى منهم من الغلو والشرك شعرًا ونثرًا ما يطول عده، وصنفوا فيه المصنفات.

وقد ذكر شيخ الإسلام رحمه الله عن بعض أهل زمانه: أنه جوز الاستغاثة بالرسول ﷺ في كل ما يُستغاث فيه بالله، وصنف في ذلك مصنفًا رده شيخ الإسلام، ورده موجود بحمد الله.

ويقول: إنه يعلم مفاتيح الغيب التي لا يعلمها إلا الله. وذكر لهم أشياء من هذا النمط. نعوذ بالله من عمى البصيرة.

وقد اشتهر في نظم البوصيري قوله:

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به ... سواك عند حدوث الحادث العمم

وما بعده من الأبيات التي مضمونها إخلاص الدعاء واللياذ والرجاء والاعتماد في أضيق الحالات، وأعظم الاضطرار لغير الله.

فناقضوا الرسول ﷺ بارتكاب ما نهى عنه أعظم مناقضة، وشاقوا الله ورسوله أعظم مشاقة.

وذلك أن الشيطان أظهر لهم هذا الشرك العظيم في قالب محبة النبي ﷺ وتعظيمه، وأظهر لهم التوحيد والإخلاص الذي بعثه الله به في قالب تنقيصه.

وهؤلاء المشركون هم المتنقصون الناقصون، أفرطوا في تعظيمه بما نهاهم عنه أشد النهي، وفرطوا في متابعته، فلم يعبئوا بأقواله وأفعاله، ولا رضوا بحكمه ولا

سلموا له . وإنما يحصل تعظيم الرسول ﷺ بتعظيم أمره ونهيه ، والاهتداء بهديه ، واتباع سنته ، والدعوة إلى دينه الذي دعا إليه ، ونصرته ، وموالاة من عمل به ، ومعاداة من خالفه .

فعكس أولئك المشركون ما أراد الله ورسوله علمًا وعملاً ، وارتكبوا ما نهى عنه ورسوله . فالله المستعان .

قال المصنف رحمه الله تعالى: (قال : وقال رسول الله ﷺ : «إياكم والغلو . فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو» [١] .

ش: هذا الحديث ذكره المصنف بدون ذكر راويه . وقد رواه الإمام أحمد ، والترمذي ، وابن ماجه ، من حديث ابن عباس .

وهذا لفظ رواية أحمد : عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ غداة جَمْع : «**هلم القُطْ**» . فلقطت له حصيات ، هن حصى الخذف . فلما وضعهن في يده قال : «**نعم بأمثال هؤلاء فارموا . وإياكم والغلو في الدين ، فإنما هلك من كان قبلكم بالغلو في الدين**» [٢] .

قال شيخ الإسلام : هذا عام في جميع أنواع الغلو في الاعتقادات ، والأعمال .

وسبب هذا اللفظ العام : رمي الجمار ، وهو داخل فيه ، مثل الرمي بالحجارة الكبار ، بناء على أنه أبلغ من الصغار .

ثم علله بما يقتضي مجانبة هدى من كان قبلنا إبعادًا عن الوقوع فيما هلكوا به ، فإن المشارك لهم في بعض هديهم يخاف عليه من الهلاك .

قال المصنف رحمه الله تعالى: (ولمسلم ، عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال : «هلك المتنطعون» قالها ثلاثًا [٣]) .

---

(١) صحيح الإسناد : قطعة من حديث رواه ابن ماجه (٣٠٢٩) في المناسك وابن أبي عاصم (٩٨) في السنة وصححه الألباني هناك فى (ظلال الجنة) ورواه أحمد (١/ ٢١٥) والنسائي (٥/ ٢٦٨ - ٢٦٩) .

(٢) هو الحديث السابق .

(٣) رواه مسلم (٢٦٧٠/ ٧) في العلم .

ش: قال الخطابي: (المتنطع المتعمق في الشيء، المتكلف البحث عنه علي مذاهب أهل الكلام الداخلين فيما لا يعنيهم، الخائضين فيما لا تبلغه عقولهم) ومن التنطع: الامتناع من المباح مطلقًا، كالذي يمتنع من أكل اللحم والخبز، ومن لبس الكتان والقطن، ولا يلبس إلا الصوف، ويمتنع من نكاح النساء، ويظن أن هذا من الزهد المستحب.

قال الشيخ تقي الدين: فهذا جاهل ضال، انتهى.

وقال ابن القيم رحمه الله: قال الغزالي: والمتنطعون في البحث والاستقصاء.

وقال أبو السعادات: هم المتعمقون الغالون في الكلام، المتكلمون بأقاصى حلوقهم. مأخوذ من النطع، وهو الغار الأعلى من الفم، ثم استعمل في كل متعمق قولاً وفعلاً.

وقال النووي: فيه كراهة التقعر في الكلام بالتشدق، وتكلف الفصاحة، واستعمال وحشى اللغة ودقائق الإعراب في مخاطبة العوام ونحوهم.

قوله: (قالها ثلاثًا) أي قال هذه الكلمة ثلاث مرات، مبالغة في التعليم والإبلاغ، فقد بلغ البلاغ المبين. صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.



(١٩)



ما جاء من التغليظ على من عبد الله عند قبر رجل صالح، فكيف إذا عبده؟!

قال المصنف رحمه الله تعالى: باب (ما جاء من التغليظ فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح، فكيف إذا عبده؟).

ش: أي: الرجل الصالح، فإن عبادته هي الشرك الأكبر، وعبادة الله عنده وسيلة إلى عبادته، ووسائل الشرك محرمة. لأنها تؤدي إلى الشرك الأكبر وهو أعظم الذنوب.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (في الصحيح: عن عائشة رضي الله عنها أن أم سلمة ذكرت لرسول الله ﷺ كنيسة رأتها بأرض الحبشة، وما فيها من الصور. فقال: «أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح أو العبد الصالح، بنوا على قبره مسجدًا، وصوروا فيه تلك الصور أولئك شرار الخلق عند الله»[١] فهؤلاء جمعوا بين الفتنتين: فتنة القبور وفتنة التماثيل).

ش: قوله: (في الصحيح) أي: (الصحيحين).

قوله: (أن أم سلمة) هي هند، بنت أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، القرشية المخزومية، تزوجها رسول الله ﷺ بعد أبي سلمة سنة أربع، وقيل: ثلاث، وكانت قد هاجرت مع أبي سلمة إلى الحبشة، ماتت سنة اثنتين وستين.

---

(١) رواه البخاري (٤٢٧) في الصلاة، ومسلم (٥٢٨/١٦) في المساجد ومواضع الصلاة.

قوله: (ذكرت لرسول الله) وفي (الصحيحين) أن أم حبيبة وأم سلمة ذكرتا ذلك لرسول الله ﷺ، والكنيسة بفتح الكاف، وكسر النون: معبد النصارى.

قوله: «**أولئك**» بكسر الكاف خطاب للمرأة.

قوله: «**إذا مات فيهم الرجل الصالح أو العبد الصالح هذا**» - والله أعلم - شك من بعض رواة الحديث: هل قال النبي ﷺ هذا أو هذا؟ ففيه التحري في الرواية. وجواز الرواية بالمعنى.

قوله: «**وصوروا فيه تلك الصور**» الإشارة: إلى ما ذكرت أم سلمة، وأم حبيبة من التصاوير التي في الكنسية.

قوله: «**أولئك شرار الخلق عند الله**» وهذا يقتضي تحريم بناء المساجد على القبور، وقد لعن ﷺ من فعل ذلك كما سيأتي.

قال البيضاوي: لما كانت اليهود والنصارى يسجدون لقبور الأنبياء تعظيمًا لشأنهم، ويجعلونها قبلة يتوجهون في الصلاة نحوها، واتخذوها أوثانًا لعنهم النبي ﷺ.

قال القرطبي: وإنما صور أوائلهم الصور ليتأسوا بها، ويتذكروا أعمالهم الصالحة، فيجتهدوا كاجتهادهم، ويعبدوا الله عند قبورهم، ثم خلفهم قوم جهلوا مرادهم، ووسوس لهم الشيطان أن أسلافهم كانوا يعبدون هذه الصور ويعظمونها. فحذر النبي ﷺ عن مثل ذلك، سدا للذريعة المؤدية إلى ذلك.

قوله: (فهؤلاء جمعوا بين الفتنتين: فتنة القبور وفتنة التماثيل) هذا من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى، ذكره المصنف رحمه الله؛ تنبيهًا على ما وقع من شدة الفتنة بالقبور والتماثيل، فإن الفتنة بالقبور كالفتنة بالأصنام، أو أشد.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: وهذه العلة التي لأجلها نهى الشارع ﷺ عن اتخاذ المساجد على القبور؛ لأنها هي التي أوقعت كثيرًا من الأمم إما في الشرك الأكبر، أو فيما دونه من الشرك، فإن النفوس قد أشركت بتماثيل الصالحين، وتماثيل يزعمون أنها طلاسم الكواكب ونحو ذلك. فإن الشرك بقبر الرجل الذي يعتقد صلاحه أقرب إلى

النفوس من الشرك بخشبة أو حجر. ولهذا تجد أهل الشرك يتضرعون عندها، ويخشعون ويخضعون، ويعبدون بقلوبهم عبادة لا يفعلونها في بيوت الله ولا وقت السحر، ومنهم من يسجد لها، وأكثرهم يرجون من بركة الصلاة عندها والدعاء ما لا يرجونه في المساجد.

فلأجل هذه المفسدة حسم النبي ﷺ مادتها. حتى نهي عن الصلاة في المقبرة مطلقًا، وإن لم يقصد المصلي بركة البقعة بصلاته، كما يقصد بصلاته بركة المساجد، كما نهى عن الصلاة وقت طلوع الشمس وغروبها؛ لأنها أوقات يقصد فيها المشركون الصلاة للشمس، فنهى أمته عن الصلاة حينئذ؛ وإن لم يقصد ما قصده المشركون، سدًّا للذريعة. وأما إذا قصد الرجل الصلاة عند القبور متبركًا بالصلاة في تلك البقعة فهذا عين المحادة لله ولرسوله، والمخالفة لدينه وابتداع دين لم يأذن به الله.

فإن المسلمين قد أجمعوا على ما علموه بالاضطرار من دين الرسول ﷺ: أن الصلاة عند القبور منهي عنها، وأنه ﷺ لعن من اتخذها مساجد، فمن أعظم المحدثات وأسباب الشرك: الصلاة عندها واتخاذها مساجد، وبناء المساجد عليها. وقد تواترت النصوص عن النبي ﷺ بالنهي عن ذلك والتغليظ فيه. وقد صرح عامة الطوائف؛ بالنهي عن بناء المساجد عليها متابعة منهم للسنة الصحيحة الصريحة.

وصرح أصحاب أحمد وغيرهم من أصحاب مالك والشافعي بتحريم ذلك. وطائفة أطلقت الكراهة والذي ينبغي: أن تحمل على كراهة التحريم، إحسانًا للظن بالعلماء، وأن لا يظن بهم أن يجوزوا فعل ما تواتر عن رسول الله ﷺ لعن فاعله والنهي عنه. انتهى كلامه رحمه الله تعالى.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (ولهما عنها - أي عن عائشة رضي الله عنها - قالت: لما نُزِلَ برسول الله ﷺ طَفِقَ يطرح خميصة له على وجهه، فإذا اغتم بها كشفها فقال - وهو كذلك -: «لعن الله اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»، يحذر ما صنعوا. ولولا ذلك أبرز قبره، غير أنه خشي أن يتخذ مسجدًا [١]. أخرجاه).

(١) رواه البخاري (٤٣٥ - ٤٣٦)، ومسلم (٥٣٠/ ٢٠) في المساجد ومواضع الصلاة عن عائشة وابن عباس رضي الله عنهم.

ش: قوله: (ولهما) أي البخاري ومسلم. وهو يغني عن قوله في آخره: أخرجاه.

قوله: (لما نُزِلَ) هو بضم النون وكسر الزاي. أي نزل به ملك الموت، والملائكة الكرام عليهم السلام.

قوله: (طفق) بكسر الفاء وفتحها، والكسر أفصح. وبه جاء القرآن.

ومعناه: جعل.

قوله: (خميصة) بفتح المعجمة والصاد المهملة: كساء له أعلام.

قوله: (فإذا اغتم بها كشفها) أي: عن وجهه.

قوله: **«لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»** يبين أن من فعل مثل ذلك؛ حل عليه من اللعنة ما حل على اليهود، والنصارى.

قوله: (يحذر ما صنعوا) الظاهر أن هذا كلام عائشة رضي الله عنها؛ لأنها فهمت من قول النبي ﷺ ذلك تحذير أمته من هذا الصنيع؛ الذي كانت تفعله اليهود والنصارى في قبور أنبيائهم، فإنه من الغلو في الأنبياء، ومن أعظم الوسائل إلى الشرك. ومن غربة الإسلام أن هذا الذي لعن رسول الله ﷺ فاعليه - تحذيرًا لأمته أن يفعلوه معه ﷺ ومع الصالحين من أمته - قد فعله الخلق الكثير من متأخري هذه الأمة، واعتقدوه قربة من القربات، وهو من أعظم السيئات والمنكرات، وما شعروا أن ذلك محادة لله ورسوله.

قال القرطبي في معنى الحديث: وكل ذلك لقطع الذريعة المؤدية إلى عبادة من فيها كما كان السبب في عبادة الأصنام. انتهى.

إذ لا فرق بين عبادة القبر ومن فيه، وعبادة الصنم، وتأمل قول الله تعالى عن نبيه يوسف بن يعقوب حيث قال: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ﴾ [يوسف:٣٨] نكرة في سياق النفي تعم كل شرك.

قوله: (ولولا ذلك) أي ما كان يحذر من اتخاذ قبر النبي ﷺ مسجدًا؛ لأبرز قبره مع قبور أصحابه الذين كانت قبورهم في البقيع.

قوله: (غير أنه خشي أن يتخذ مسجدًا) روى بفتح الخاء وضمها، فعلى الفتح: يكون هو الذي خشي ذلك ﷺ، وأمرهم أن يدفنوه في المكان الذي قبض فيه. وعلى رواية الضم: يحتمل أن يكون الصحابة هم الذين خافوا أن يقع ذلك من بعض الأمة، فلم يبرزوا قبره، خشية أن يقع ذلك من بعض الأمة غلوًا وتعظيمًا بما أبدى وأعاد من النهي، والتحذير منه، ولعن فاعله.

قال القرطبي: ولهذا بالغ المسلمون في سد الذريعة في قبر النبي ﷺ، فأعلوا حيطان تربته، وسدوا المداخل إليها، وجعلوها محدقة بقبره ﷺ.

ثم خافوا أن يتخذ موضع قبره قبلة إذا كان مستقبل المصلين، فتصور الصلاة إليه بصورة العبادة فبنوا جدارين من ركني القبر الشماليين، وحرفوهما حتى التقيا على زاوية مثلثة من ناحية الشمال؛ حتى لا يتمكن أحد من استقبال قبره. انتهى.

قال المصنف: وفيه من المسائل: ما ذكر الرسول ﷺ(فيمن بنى مسجدًا يُعبد الله فيه على قبر رجل صالح، ولو صحَّت نيةُ الفاعل).

ومنها: النهي عن التماثيل، بتغليظ الأمر.

ومنها: نهيه عن فعله عند قبره، قبل أنْ يُوجد القبر.

ومنها: أنه من سُنن اليهود والنصارى في قبور أنبيائهم.

ومنها: لعنه إيَّاهم على ذلك.

ومنها: أنَّ مراده بذلك تحذيره إيانا عن قبره.

ومنها: أنها هي العلة في عدم إبرازه. انتهى.

قال المصنف رحمه الله تعالى :(ولمسلم، عن جُنْدُب بن عبد الله، قال: سمعتُ النبي ﷺقبل أنْ يموت بخمسٍ، وهو يقول: «إني أبْرَأُ إلى الله أنْ يكونَ لي منكم خليلٌ؛ فإنَّ الله قد اتخَّذني خليلاً، كما اتخذَ إبراهيم خليلاً ولو كنتُ مُتَّخذًا من أُمتي خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ألا وإنَّ من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد، ألا فلا

تتخذوا القبور مساجد، فإني أنهاكم عن ذلك» [(١)] **فقد نهى عنه في آخر حياته.**

ثم إنه لعن وهو في السِّياق مَنْ فَعله. والصلاةُ عندها من ذلك، وإنْ لم يُبْنَ مَسْجد.

وهو معنى قولها: خشي أن يتخذ مسجدًا، فإنَّ الصحابة لم يكونوا ليبنوا حَولَ قبره مسجدًا. وكلُّ موضع قُصدت الصلاة فيه فقد اتُّخذ مسجدًا، بل كلُّ موضع يُصلَّي فيه يُسمَّى مسجدًا؛ كما قال ﷺ: «جُعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا» [(٢)].

ش: قوله: (عن جندب بن عبد الله) أي ابن سفيان البجلي، وينسب إلى جده، صحابي مشهور. مات بعد الستين.

قوله: «إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل» أي: أمتنع عما لا يجوز لي أن أفعله. والخلة فوق المحبة، والخليل هو المحبوب غاية الحب، مشتق من الخلة - بفتح الخاء - وهي تخلل المودة في القلب، كما قال الشاعر:

قد تخللتَ مسلك الروح مني وبذا سُمِّي الخليلُ خليلاً

هذا هو الصحيح في معناها، كما ذكره شيخ الإسلام، وابن القيم، وابن كثير، وغيرهم رحمهم الله تعالى.

قال القرطبي: وإنما كان ذلك لأن قلبه ﷺ قد امتلأ من محبة الله وتعظيمه ومعرفته فلا يسع خلة غيره.

قوله: «فإن الله قد اتخذني خليلاً» فيه: بيان أن الخلة فوق المحبة.

قال ابن القيم رحمه الله: وأما ما يظنه بعض الغالطين من أن المحبة أكمل من الخلة، وأن إبراهيم خليل الله، ومحمد حبيب الله - فمن جهلهم.

فإن المحبة عامة، والخلة خاصة وهي نهاية المحبة. وقد أخبر النبي ﷺ أن الله

---

(١) رواه مسلم (٥٣٢/ ٢٣) في المساجد ومواضع الصلاة. وفي زيادة لمسلم (ألا وإن مَنْ كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم (وصالحيهم) مساجد. ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، إني أنهاكم عن ذلك).

(٢) قطعة من حديث رواه البخاري (٣٣٥) في التيمم، ومسلم (٥٢١/ ٣) في المساجد ومواضع الصلاة.

قد اتخذه خليلاً، ونفى أن يكون له خليل غير ربه، مع إخباره بحبه لعائشة ولأبيها، ولعمر بن الخطاب، ومعاذ بن جبل، وغيرهم رضي الله عنهم. وأيضًا: فإن الله يحب التوابين، ويحب المتطهرين، ويحب الصابرين، وخلته خاصة بالخليلين.

قوله: «ولو كنت متخذًا خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً» فيه بيان أن الصديق أفضل الصحابة.

وفيه الرد على الرافضة وعلى الجهمية وهما شر أهل البدع، وأخرجهم بعض السلف من الثنتين والسبعين فرقة. وبسبب الرافضة حدث الشرك وعبادة القبور، وهم أول من بنى عليها المساجد. قاله المصنف رحمه الله، وهو كما قال بلا ريب.

وفيه: إشارة إلى خلافة أبي بكر، لأن من كانت محبته لشخص أشد كان أولى به من غيره. وقد استخلفه على الصلاة بالناس، وغضب ﷺ لما قيل يصلي بهم عمر [(١)]، وذلك في مرضه الذي توفى فيه ﷺ.

واسم أبي بكر: عبد الله، بن عثمان، بن عامر، بن عمرو، بن كعب، بن سعد، بن تيم، بن مرة الصديق الأكبر، خليفة رسول الله ﷺ، أفضل الصحابة بإجماع من يعتد بقوله من أهل العلم. مات في جمادى الأولى سنة ثلاث عشرة، وله ثلاث وستون سنة رضي الله عنه.

قوله: «ألا» حرف استفتاح، **«ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد...»** الحديث.

قال الخلخالي: وإنكار النبي ﷺ صنيعهم هذا يُخرَّج على وجهين:

أحدهما: أنهم يسجدون لقبور الأنبياء تعظيمًا.

الثاني: أنهم يجوزون الصلاة في مدافن الأنبياء والتوجه إليها حالة الصلاة، نظرًا منهم بذلك إلى عبادة الله والمبالغة في تعظيم الأنبياء.

---

(١) رواه البخاري (٦٦٤) في الأذان، ومسلم (٤١٨/ ٩١ - ٩٢) في الصلاة عن عائشة رضي الله عنها.

والأول: هو الشرك الجلي.

والثاني: الخفى، فلذلك استحقوا اللعن.

قوله: (فقد نهى عنه في آخر حياته) أي كما في حديث جندب. وهذا من كلام شيخ الإسلام. وكذا ما بعده.

قوله: (ثم إنه لعن، وهو في السياق من فعله) كما في حديث عائشة.

قلت: فكيف يسوغ بعد هذا التغليظ من سيد المرسلين أن تعظم القبور ويبنى عليها ويصلى عندها وإليها؟ هذا أعظم مشاقة ومحادة لله تعالى ولرسوله لو كانوا يعقلون.

قوله: (والصلاة عندها من ذلك، وإن لم يبن مسجد) أي: من اتخاذها مساجد الملعون فاعله. وهذا يقتضي تحريم الصلاة عند القبور وإليها.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعًا **«الأرض كلها مسجد إلا المقبرة والحمام»** [(١)] رواه أحمد، وأهل السنن، وصححه ابن حبان، والحاكم.

قال ابن القيم رحمه الله: وبالجملة فمن له معرفة بالشرك وأسبابه وذرائعه وفهم عن رسول الله ﷺ مقاصده، جزم جزمًا لا يحتمل النقيض؛ أن هذه المبالغة واللعن والنهي بصيغته - صيغة لا تفعلوا، وصيغة أني أنهاكم عن ذلك - ليس لأجل النجاسة، بل هو لأجل نجاسة الشرك اللاحقة لمن عصاه، وارتكب ما عنه نهاه، واتبع هواه، ولم يخش ربه ومولاه، وقل نصيبه أو عدم من لا إله إلا الله.

فإن هذا وأمثاله من النبي ﷺ: صيانة لحمى التوحيد أن يلحقه الشرك ويغشاه، وتجريد له، وغضب لربه أن يعدل به سواه، فأبى المشركون إلا معصيةً لأمره وارتكابًا لنهيه، وغرهم الشيطان بأن هذا تعظيم لقبور المشايخ والصالحين، وكلما كنتم لها

---

(١) **صحيح الإسناد:** الترمذي (٣١٧) في الصلاة، أبو داود (٤٩٢) في الصلاة، ابن ماجه (٧٤٥) في إقامة الصلاة.

وقال الترمذي: وفي الباب عن علي، وعبد الله بن عمرو، وأبي هريرة، وجابر، وابن عباس، وحذيفة، وأنس، وأبي أمامة، وأبي ذر.

أشد تعظيمًا وأشد فيهم غلوًا كنتم بقربهم أسعد، ومن أعدائهم أبعد، ولعمر الله، من هذا الباب دخل الشيطان على عباد يعوق ويغوث ونسرًا، ودخل على عباد الأصنام منذ كانوا إلى يوم القيامة.

فجمع المشركون بين الغلو فيهم والطعن في طريقتهم، فهدى الله أهل التوحيد لسلوك طريقتهم، وإنزالهم منازلهم التي أنزلهم الله إياها من العبودية وسلب خصائص الإلهية عنهم.

قال الشارح [١]: وممن علل بخوف الفتنة بالشرك: الإمام الشافعي، وأبو بكر الأثرم، وأبو محمد المقدسي. وشيخ الإسلام، وغيرهم رحمهم الله. وهو الحق الذي لا ريب فيه.

قوله: (فإن الصحابة لم يكونوا ليبنوا حول قبره مسجدًا) أي لما علموا من تشديده في ذلك، وتغليظه النهي عنه، ولعن من فعله.

قوله: (وكل موضع قصدت الصلاة فيه فقد اتخذ مسجدًا) أي وإن لم يبن مسجد، بل كل موضع يصلى فيه يسمى مسجدًا.

يعني وإن لم يقصد بذلك، كما إذا عرض لمن أراد أن يصلي فأوقع الصلاة في ذلك الموضع الذي حانت الصلاة عنده؛ من غير أن يقصد ذلك الموضع بخصوصه، فصار بفعل الصلاة فيه مسجدًا.

قوله: كما قال ﷺ **«جعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا»** [٢] أي فسمى الأرض مسجدًا، تجوز الصلاة في كل بقعة منها؛ إلا ما استثنى من المواضع التي لا تجوز الصلاة فيها، كالمقبرة ونحوها.

قال البغوي في (شرح السنة): أراد أن أهل الكتاب لم تبح لهم الصلاة إلا في بيعهم وكنائسهم، فأباح الله لهذه الأمة الصلاة حيث كانوا، تخفيفًا عليهم وتيسيرًا، ثم خص من جميع المواضع: الحمام والمقبرة والمكان النجس. انتهى.

(١) هو الشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب صاحب: (تيسير العزيز الحميد).
(٢) انظر ما قبل ثلاث تخريجات والحديث في الصحيحين.

قال المصنف رحمه الله تعالى: **(ولأحمد بسند جيد عن ابن مسعود مرفوعًا «إن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء، والذين يتخذون القبور مساجد»**[1] **ورواه أبو حاتم ابن حبان في صحيحه)**.

ش: قوله: **«إن من شرار الناس»** بكسر الشين جمع شرير.

قوله: **«من تدركهم الساعة وهم أحياء»** أي مقدمتها، كخروج الدابة، وطلوع الشمس في مغربها. وبعد ذلك ينفخ في الصور نفخة الفزع.

قوله: **«والذين يتخذون القبور مساجد»** معطوف على خبر إن في محل نصب على نية تكرار العامل.

أي: وإن من شرار الناس الذين يتخذون القبور مساجد أي بالصلاة عندها وإليها، وبناء المساجد عليها.

وتقدم في الأحاديث الصحيحة أن هذا من عمل اليهود والنصارى، وأن النبي ﷺ لعنهم على ذلك، تحذيرًا للأمة أن يفعلوا مع نبيهم وصالحيهم مثل اليهود والنصارى. فما رفع أكثرهم بذلك رأسًا، بل اعتقدوا أن هذا الأمر قربة لله تعالى، وهو مما يبعدهم عن الله ويطردهم عن رحمته ومغفرته.

والعجب أن أكثر من يدعى العلم ممن هو من هذه الأمة لا ينكرون ذلك، بل ربما استحسنوه ورغبوا في فعله، فلقد اشتدت غربة الإسلام، وعاد المعروف منكرًا والمنكر معروفًا، والسنة بدعة والبدعة سنة، نشأ على هذا الصغير وهرم عليه الكبير.

قال شيخ الإسلام: أما بناء المساجد على القبور: فقد صرح عامة الطوائف بالنهي عنه؛ متابعة للأحاديث الصحيحة. وصرح أصحابنا وغيرهم من أصحاب مالك، والشافعي بتحريمه.

---

(١) حسن الإسناد: قال الهيثمي (٨/ ١٣) في مجمع الزوائد: رواه البزار بإسنادين وفي أحدهما عاصم بن بهدلة وهو ثقة وفيه: ضعف وبقية رجاله رجال الصحيح. ورواه أحمد (١/ ٤٠٥) في المسند وفي سنده ضعف.

ثم ذكر الأحاديث في ذلك إلى أن قال: وهذه المساجد المبنية على قبور الأنبياء والصالحين، أو الملوك وغيرهم تتعين إزالتها بهدم أو غيره. هذا مما لا أعلم فيه خلافًا بين العلماء المعروفين.

وقال ابن القيم رحمه الله: يجب هدم القباب التي بنيت على القبور، لأنها أسست على معصية الرسول ﷺ.

وقد أفتى جماعة من الشافعية بهدم ما في القرافة من الأبنية، منهم ابن الجُمَّيزي، والظَّهير التَّزْمنتي وغيرهما.

وقال القاضي ابن كَجّ: ولا يجوز أن تجصص القبور، ولا أن يبنى عليها قباب، ولا غير قباب، والوصية بها باطلة.

وقال الأذرعي: وأما بطلان الوصية ببناء القباب وغيرها من الأبنية وإنفاق الأموال الكثيرة، فلا ريب في تحريمه.

وقال القرطبي في حديث جابر رضي الله عنه **«نهى أن يجصص القبر أو يبنى عليه»** [(١)] وبظاهر هذا الحديث قال مالك، وكره البناء والجص على القبور. وقد أجازه غيره، وهذا الحديث حجة عليه.

وقال ابن رشد: كره مالك البناء على القبر وجعل البلاطة المكتوبة، وهو من بدع أهل الطَّول، أحدثوه إرادة الفخر والمباهاة والسمعة، وهو مما لا اختلاف عليه.

وقال الزيلعي في (شرح الكنز): ويكره أن يبني على القبر. وذكر قاضي خان: أنه لا يجصص القبر ولا يبني عليه. لما روى عن النبي ﷺ أنه نهى عن التجصيص، وللبناء فوق القبر. والمراد بالكراهة - عند الحنفية رحمهم الله - كراهة التحريم. وقد ذكر ذلك ابن نجيم في (شرح الكنز).

وقال الشافعي رحمه الله: أكره أن يعظم مخلوق، حتى يجعل قبره مسجدًا، مخافة الفتنة عليه وعلى من بعده من الناس. وكلام الشافعي رحمه الله يبين أن مراده

---

(١) رواه مسلم (٩٧٠) في الجنائز، والجص أو القص: الجير كما في النهاية (١/ ٣٢٤) لابن الأثير.

بالكراهة: كراهة التحريم.

قال الشارح: وجزم النووي رحمه الله في (شرح المهذب) بتحريم البناء مطلقًا، وذكر في (شرح مسلم) نحوه أيضًا.

وقال أبو محمد عبد الله بن أحمد بن قدامة إمام الحنابلة، صاحب المصنفات الكبار كالمغنى، والكافى، وغيرهما رحمه الله تعالى: ولا يجوز اتخاذ المساجد على القبور. لأن النبي ﷺ قال: **«لعن الله اليهود والنصارى...»**[1] الحديث.

وقد روينا أن ابتداء عبادة الأصنام: تعظيم الأموات واتخاذ صورهم، والتمسح بها والصلاة عندها، انتهى.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: وأما المقبرة فلا فرق فيها بين الجديدة والعتيقة، انقلبت تربتها أو لم تنقلب.

ولا فرق بين أن يكون بينه وبين الأرض حائل أو لا، لعموم الاسم وعموم العلة، ولأن النبي ﷺ لعن الذين اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، ومعلوم أن قبور الأنبياء لا تنجس.

وبالجملة، فمن عَلَّلَ النهي عن الصلاة في المقبرة بنجاسة التربة خاصة؛ فهو بعيد عن مقصود النبي ﷺ، ثم لا يخلو أن يكون القبر قد بنى عليه مسجد. فلا يصلي في هذا المكان سواء صلى خلف القبر، أو أمامه، بغير خلاف في المذهب: لأن النبي ﷺ قال «**إن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم، وصالحيهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد؛ فإني أنهاكم عن ذلك**» وخص قبور الأنبياء؛ لأن عكوف الناس على قبورهم أعظم، واتخاذها مساجد أشد.

وكذلك إن لم يكن بنى عليه مسجد، فهذا قد ارتكب حقيقة المفسدة، التي كان النهي عن الصلاة عند القبور من أجلها، فإن كل مكان صلى فيه يسمى مسجدًا، كما قال ﷺ «**جعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا**»[2] وإن كان موضع قبر أو قبرين.

---

(١) سبق تخريجه في الصحيحين.

(٢) سبق تخريجه في الصحيحين.

وقال بعض أصحابنا: لا يمنع الصلاة فيها؛ لأنه لا يتناولها اسم المقبرة، وليس في كلام أحمد ولا بعض أصحابه هذا الفرق، بل عموم كلامهم يقتضي منع الصلاة عند كل قبر.

وقد تقدم عن علي رضي الله عنه أنه قال: لا أصلي في حمام ولا عند قبر.

فعلى هذا ينبغي أن يكون النهي متناولاً لحريم القبر وفنائه، ولا تجوز الصلاة في مسجد بني في مقبرة، سواء كان له حيطان تحجز بينه وبين القبور أو كان مكشوفًا.

قال في رواية الأثرم: إذا كان المسجد بين القبور لا يصلى فيه الفريضة، وإن كان بينها وبين المسجد حاجز فرخص أن يصلي فيه على الجنائز، ولا يصلى فيه على غير الجنائز.

وذكر حديث أبي مرثد عن النبي ﷺ: «**لا تصلوا على القبور**»[1] وقال: إسناده جيد، انتهى.

ولو تتبعنا كلام العلماء في ذلك لاحتمل عدة أوراق. فتبين بهذا أن العلماء رحمهم الله بينوا أن علة النهي ما يؤدي إليه ذلك: من الغلو فيها، وعبادتها من دون الله، كما هو الواقع والله المستعان.

وقد حدث بعد الأئمة؛ الذين يعتد بقولهم أناس كَثُرَ في أبواب العلم بالله اضطرابهم، وغلظ عن معرفة ما بعث الله به رسوله من الهدى والعلم حجابهم، فقيدوا نصوص الكتاب والسنة بقيود أوهنت الانقياد، غيروا بها ما قصده الرسول ﷺ بالنهي وأراد.

فقال بعضهم: النهي عن البناء على القبور يختص بالمقبرة المسبلة، والنهي عن الصلاة فيها لتنجسها بصديد الموتى، وهذا كله باطل من وجوه:

منها: أنه من القول على الله بلا علم. وهو حرام بنص الكتاب.

ومنها: أن ما قالوه لا يقتضي لعن فاعله والتغليظ عليه، وما المانع له أن يقول:

---

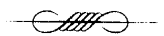
(١) رواه مسلم (٩٧٢) في الجنائز.

من صلى في بقعة نجسة فعليه لعنة الله . ويلزم على ما قاله هؤلاء أن النبي ﷺ لم يبين العلة ، وأحال الأمة في بيانها على من يجيء بعده ﷺ وبعد القرون المفضلة والأئمة .

وهذا باطل قطعًا وعقلاً وشرعًا ، لما يلزم عليه من أن الرسول ﷺ عجز عن البيان ، أو قصر في البلاغ ، وهذا من أبطل الباطل . فإن النبي ﷺ بلغ البلاغ المبين ، وقدرته في البيان فوق قدرة كل أحد ، فإذا بطل اللازم بطل الملزوم .

ويقال أيضًا : هذا اللعن والتغليظ الشديد إنما هو فيمن اتخذ قبور الأنبياء مساجد ، وجاء في بعض النصوص ما يعم الأنبياء وغيرهم ، فلو كانت هذه هي العلة لكانت منتفية في قبور الأنبياء ، لكون أجسادهم طرية لا يكون لها صديد يمنع من الصلاة عند قبورهم .

فإذا كان النهي عن اتخاذ المساجد عند القبور يتناول قبور الأنبياء بالنص ، علم أن العلة ما ذكره هؤلاء العلماء الذين قد نقلت أقوالهم ، والحمد لله على ظهور الحجة وبيان المحجة . والحمد لله الذي هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله .



(٢٠)



الغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثانًا تعبد من دون الله

قال المصنف رحمه الله: (بابُ ما جاء أن الغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثانًا تعبد من دون الله.

روى مالك في الموطأ أن رسول الله ﷺ قال: «اللهم لا تجعل قبرى وثنًا يعبد، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» [١].

ش: هذا الحديث رواه مالك مرسلاً عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار: أن رسول الله ﷺ قال . . . الحديث.

ورواه ابن أبي شيبة في (مصنفه) عن ابن عجلان عن زيد بن أسلم به، ولم يذكر عطاء، ورواه البزار عن زيد عن عطاء عن أبي سعيد الخدري مرفوعًا.

وله شاهد عند الإمام أحمد بسنده عن سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة رفعه: «**اللهم لا تجعل قبري وثنًا، لعن الله قومًا اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**» [٢].

قوله: (روى مالك في الموطأ) هو الإمام مالك، بن أنس، بن مالك، بن أبي عامر، بن عمرو، الأصبحي، أبو عبدالله المدني. إمام دار الهجرة وأحد الأئمة الأربعة وأحد المتقنين للحديث، حتى قال البخاري: أصح الأسانيد مالك عن نافع عن ابن عمر، مات سنة تسع وسبعين ومائة. وكان مولده سنة ثلاث وتسعين. وقيل أربع

(١) **صحيح**: سبق تخريجه، وانظر الموطأ برقم (٨٥) مرسلاً وروى موصولاً عن أبي سعيد وعن أبي هريرة رضي الله عنهما.

(٢) **صحيح**: وانظر تخريج الحديث السابق.

وتسعين . وقال الواقدي : بلغ تسعين سنة .

قوله : **«اللهم لا تجعل قبرى وثنا يعبد»** قد استجاب الله دعاءه كما قال ابن القيم رحمه الله تعالى :

فأجاب رب العالمين دعاءه　　وأحاطه بثلاثة الجدران
حتى غدت أرجاؤه بدعائه　　في عزة وحماية وصيان

ودل الحديث على أن قبر النبي ﷺ لو عبد لكان وثنًا، لكن حماه الله تعالى بما حال بينه وبين الناس فلا يوصل إليه .

ودل الحديث على أن الوثن هو ما يباشره العابد من القبور والتوابيت التي عليها . وقد عظمت الفتنة بالقبور لتعظيمها وعبادتها، كما قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه كيف أنتم إذا مستكم فتنة يهرم فيها الكبير، وينشأ فيها الصغير . تجرى على الناس يتخذونها سنة، إذا غُيرت قيل : غيرت السنة [١] انتهى .

ولخوف الفتنة نهى عمر عن تتبع آثار النبي ﷺ .

قال ابن وضاح : سمعت عيسى بن يونس يقول : أمر عمر بن الخطاب - رضي الله عنه بقطع الشجرة التي بويع تحتها النبي ﷺ [٢] فقطعها؛ لأن الناس كانوا يذهبون فيصلون تحتها، فخاف عليهم الفتنة .

وقال المعرور بن سويد : صليت مع عمر بن الخطاب بطريق مكة صلاة الصبح . ثم رأى الناس يذهبون مذاهب، فقال : أين يذهب هؤلاء؟ فقيل : يا أمير المؤمنين، مسجد صلى فيه النبي ﷺ فهم يصلون فيه، فقال : إنما هلك من كان قبلكم بمثل هذا، كانوا يتتبعون آثار أنبيائهم ويتخذونها كنائس وبيعًا، فمن أدركته الصلاة في هذه المساجد فليصل . ومن لا فليمض ولا يتعمدها [٣] .

---

(١) **صحيح الإسناد** : الدارمي (٦٤٨) في سننه، والحاكم (٤/ ٥١٤) ورجاله ثقات .
(٢) رواه ابن وضَّاح ص (٤٩، ٥٠) في البدع والنهي عنها والقصة مشهورة .
(٣) **رجاله ثقات** : ابن أبي شيبة (٢/ ٣٧٦) في المصنف وسنده صحيح وانظر تحذير الساجد ص (٩٣) .

وفي (مغازي) ابن إسحاق من زيادات يونس بن بكير عن أبي خلدة خالد بن دينار . حدثنا أبو العالية قال : لما فتحنا تستر وجدنا في بيت مال الهرمزان سريرًا عليه رجل ميت، عند رأسه مصحف . فأخذنا المصحف فحملناه إلى عمر، فدعا له كعبًا فنسخه بالعربية، فأنا أول رجل قرأه من العرب، قرأته مثل ما أقرأ القرآن . فقلت لأبي العالية : ما كان فيه؟ . قال : سيرتكم وأموركم ولحون كلامكم وما هو كائن بعد . قلت : فماذا صنعتم بالرجل؟ قال : حفرنا له بالنهار ثلاثة عشرة قبرًا متفرقة . فلما كان الليل دفناه وسوينا القبور كلها لنعميه عن الناس لا ينبشونه . قلت : وما يرجون منه؟ قال : كانت السماء إذا حبست عنهم برزوا بسريره فيمطرون . فقلت : من كنتم تظنون الرجل؟ قال : رجل يقال له دانيال . فقلت : منذ كم وجدتموه مات؟ قال : منذ ثلاثمائة سنة .

قلت : ما كان تغير منه شيء؟ قال : لا، إلا شعيرات من قفاه، إن لحوم الأنبياء لا تبليها الأرض [1].

قال ابن القيم رحمه الله : ففي هذه القصة ما فعله المهاجرون والأنصار رضي الله عنهم من تعمية قبره لئلا يفتتن به، ولم يبرزوه للدعاء عنده والتبرك به، ولو ظفر به المتأخرون لجالدوا عليه بالسيوف ولعبدوه من دون الله .

قال شيخ الإسلام رحمه الله : وهو إنكار منهم لذلك، فمن قصد بقعة يرجو الخير بقصدها - ولم يستحب الشارع قصدها - فهو من المنكرات، وبعضه أشد من بعض، سواء قصدها ليصلي عندها أو ليدعو عندها، أو ليقرأ عندها أو ليذكر الله عندها، أو لينسك عندها بحيث يخص تلك البقعة بنوع من العبادة التى لم يشرع تخصيصها به لا نوعًا ولا عينًا، إلا أن ذلك قد يجوز بحكم الاتفاق لا لقصد الدعاء فيها، كمن يزورها ويسلم عليها، ويسأل الله العافية له وللموتى، كما جاءت به السنة . وأما تحرى

---

(١) قال ابن كثير (٥٣٨/٢) في البداية والنهاية : (وهذا إسناد صحيح إلى أبي العالية)، وذكر إسنادًا آخر جيدًا عن أنس رضي الله عنه، وفي بعض النسخ المطبوعة وجدت هامشًا فيه : وهذا من فعل أهل الكتاب لا من فعل المسلمين فليس فيه حجة فلا يحتج به محتج، الإغاثة ص (٢٨) لشيخ الإسلام ابن تيمية .

الدعاء عندها بحيث يستشعر أن الدعاء هناك أجوب منه فى غيره، فهذا هو المنهى عنه . انتهى ملخصًا .

قوله : (اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) فيه تحريم البناء على القبور، وتحريم الصلاة عندها، وأن ذلك من الكبائر .

وفى (القِرَى) للطبرى من أصحاب مالك عن مالك أنه كره أن يقول : زرت قبر النبي ﷺ، وعلل ذلك بقوله ﷺ : «**اللهم لا تجعل قبري وثنا يعبد**» [١] الحديث . كره إضافة هذا اللفظ إلى القبر، لئلا يقع التشبه بفعل أولئك، سدًّا للذريعة .

قال شيخ الإسلام : ومالك قد أدرك التابعين، وهم أعلم الناس بهذه المسألة، فدل ذلك على أنه لم يكن معروفًا عندهم ألفاظ زيارة قبر النبي ﷺ .

إلى أن قال : وقد ذكروا في أسباب كراهته لأن يقول : زرت قبر النبي ﷺ لأن هذا اللفظ قد صار كثير من الناس يريد به الزيارة البدعية، وهو قصد الميت لسؤاله ودعائه، والرغبة إليه في قضاء الحوائج، ونحو ذلك مما يفعله كثير من الناس .

فهم يعنون بلفظ الزيارة مثل هذا . وهذا ليس بمشروع باتفاق الأئمة . وكره مالك أن يتكلم بلفظ مجمل يدل على معنى فاسد، بخلاف الصلاة والسلام عليه، فإن ذلك مما أمر الله به .

أما لفظ الزيارة في عموم القبور فلا يفهم منها مثل هذا المعنى . ألا ترى إلى قوله : «**فزوروا القبور فإنها تذكركم الآخرة**» مع زيارته لقبر أمه [٢] . فإن هذا يتناول قبور الكفار .

فلا يفهم من ذلك زيارة الميت لدعائه وسؤاله والاستغاثة به، ونحو ذلك مما يفعله أهل الشرك والبدع، بخلاف ما إذا كان المزور معظمًا في الدين كالأنبياء والصالحين، فإنه كثيرًا ما يعني بزيارة قبورهم هذه الزيارة البدعية الشركية، فلهذا كره مالك ذلك في مثل هذا، وإن لم يكره ذلك في موضع آخر ليس فيه هذه المفسدة . انتهى .

---

(١) صحيح : سبق تخريجه .
(٢) سبق تخريجه في صحيح مسلم عن ابن مسعود رضي الله عنه .

وفيه: أن النبي ﷺ لم يستعذ إلا مما يخاف وقوعه. ذكره المصنف رحمه الله تعالى.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (ولابن جرير بسنده عن سفيان عن منصور عن مجاهد ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ﴾ [النجم:١٩] قال: كان يلت لهم السويق، فمات فعكفوا على قبره [(١)].

وكذا قال أبو الجوزاء عن ابن عباس قال: كان يلت السويق للحاج) [(٢)].

ش: قوله: (ولابن جرير) هو الإمام الحافظ محمد بن جرير بن يزيد الطبري، صاحب التفسير والتاريخ والأحكام وغيرها.

قال ابن خزيمة: لا أعلم على وجه الأرض أعلم من محمد بن جرير وكان من المجتهدين لا يقلد أحدًا. وله أصحاب يتفقهون على مذهبه ويأخذون بأقواله. ولد سنة أربع وعشرين ومائتين، ومات ليومين بقيا من شوال سنة عشر وثلاثمائة.

قوله: (عن سفيان) الظاهر: أنه سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري أبو عبد الله الكوفي ثقة حافظ فقيه إمام عابد كان مجتهدًا، وله أتباع يتفقهون على مذهبه. مات سنة إحدى وستين ومائة، وله أربع وستون سنة.

قوله: (عن منصور) هو ابن المعتمر بن عبد الله السلمي ثقة ثبت فقيه. مات سنة اثنتين وثلاثين ومائة.

قوله: (عن مجاهد) هو ابن جبر - بالجيم والموحدة - أبو الحجاج المخزومي مولاهم المكي، ثقة إمام في التفسير، أخذ عن ابن عباس وغيره رضي الله عنهم. مات سنة أربع ومائة، قاله يحيى القطان، وقال ابن حبان: مات سنة اثنتين أو ثلاث ومائة وهو ساجد، ولد سنة إحدى وعشرين في خلافة عمر رضي الله عنه.

قوله: (كان يلت لهم السويق فمات فعكفوا على قبره) في رواية: فيطعم من يمر من الناس. فلما مات عبدوه، وقالوا: هو اللات. رواه سعيد بن منصور.

---

(١) **حسن**: سبق تخريجه.

(٢) رواه البخاري (٤٨٥٩) في التفسير.

ومناسبته للترجمة: أنهم غلوا فيه لصلاحه حتى عبدوه وصار قبره وثنًا من أوثان المشركين.

قوله: (وكذا قال أبو الجوزاء) هو أوس بن عبد الله الربعي، بفتح الراء والباء، مات سنة ثلاث وثمانين.

قال البخاري: حدثنا مسلم وهو ابن إبراهيم. حدثنا أبو الأشهب حدثنا أبو الجوزاء عن ابن عباس قال: كان اللات رجلاً يلت سويق الحجاج [(١)].

قال ابن خزيمة: وكذا العزى، وكانت شجرة عليها بناء وأستار بنخلة، بين مكة والطائف، كانت قريش يعظمونها، كما قال أبو سفيان يوم أحد: لنا العزى ولا عزى لكم [(٢)].

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لعن رسول الله ﷺ زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج [(٣)] رواه أهل السنن).

ش: قلت: وفي الباب حديث أبي هريرة وحديث حسان بن ثابت. فأما حديث أبي هريرة فرواه أحمد والترمذي وصححه. وحديث حسان أخرجه ابن ماجه من رواية عبد الرحمن بن حسان بن ثابت عن أبيه قال: لعن رسول الله ﷺ زوارات القبور [(٤)].

وحديث ابن عباس هذا في إسناده أبو صالح مولى أم هانئ، وقد ضعفه بعضهم ووثقه بعضهم. قال على بن المديني، عن يحيى القطان: لم أر أحدًا من أصحابنا ترك أبا صالح مولى أم هانئ. وما سمعت أحدًا من الناس يقول فيه شيئًا، ولم يتركه شعبة ولا زائدة ولا عبد الله بن عثمان.

قال ابن معين: ليس به بأس ولهذا أخرجه ابن السكن في صحيحه. انتهى من

---

(١) هو نفسه التخريج السابق.

(٢) سبق تخريجه في الصحيح.

(٣) **ضعيف**: فيه (باذان) وقيل: (باذام) مولى أم هانئ، وبه أعله الترمذي (٣٢٠) في الصلاة، ووافقه الألباني هناك.

(٤) **حسن**: في التخريج السابق قال الترمذي: وإنما صحّ بلفظ (زوارات القبور) ورواه ابن ماجه (١٥٧٤) في الجنائز، وحسنه الألباني (١٧٧٠) في المشكاة.

(الذهب الإبريز) عن الحافظ المزي .

قال شيخ الإسلام : وقد جاء عن النبي ﷺ من طريقين : فعن أبي هريرة رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ لعن زوارات القبور وذكر حديث ابن عباس . ثم قال : ورجال هذا ليس رجال هذا . فلم يأخذه أحدهما عن الآخر . وليس في الإسنادين من يتهم بالكذب . ومثل هذا حجة بلا ريب . وهذا من أجود الحسن الذي شرطه الترمذي ، فإنه جعل الحسن ما تعددت طرقه ولم يكن فيه متهم ، ولم يكن شاذًا ، أي مخالفًا لما ثبت بنقل الثقات وهذا الحديث تعددت طرقه وليس فيها متهم ولا خالفه أحد من الثقات .

هذا لو كان عن صاحب واحد ، فكيف إذا كان هذا رواه عن صاحب وذاك عن آخر؟ فهذا كله يبين أن الحديث في الأصل معروف .

والذين رخصوا في الزيارة اعتمدوا على ما روى عن عائشة رضي الله عنها أنها زارت قبر أخيها عبد الرحمن وقالت : «**لو شهدتك ما زرتك**» [1] وهذا يدل على أن الزيارة ليست مستحبة للنساء كما تستحب للرجال . إذ لو كان كذلك لاستحبت زيارته سواء شهدته أم لا .

قلت : فعلى هذا لا حجة فيه لمن قال بالرخصة .

وهذا السياق لحديث عائشة رواه الترمذي من رواية عبد الله بن أبي مليكة عنها ، وهو يخالف سياق الأثرم له عن عبد الله بن أبي مليكة أيضًا أن عائشة رضي الله عنها أقبلت ذات يوم من المقابر . فقلت لها : يا أم المؤمنين ، أليس نهى رسول الله ﷺ عن زيارة القبور؟ قالت : (نعم نهى عن زيارة القبور ، ثم أمر بزيارتها) [2] .

---

(١) صحيح الإسناد : الترمذي (١٠٥٥) وضعفه الألباني ، لكن هناك رواية بسند صحيح عند عبد الرزّاق (٣/ ٥١٧) في المصنف بسند صحيح تقول فيها عائشة رضي الله عنها : (لو حضرت عبد الرحمن - يعني أخاها - ما دفن إلا حيث مات) .

(٢) صحيح الإسناد : الحاكم (١/ ٣٧٦) في المستدرك وصححه ، وله أصل عن ابن ماجه (١٥٦٩) في الجنائز بلفظ أن رسول الله ﷺ رخّص في زيارة القبور .

فأجاب شيخ الإسلام رحمه الله عن هذا وقال: (ولا حجة في حديث عائشة فإن المحتج عليها احتج بالنهي العام، فدفعت ذلك بأن النهي منسوخ، ولم يذكر لها المحتج النهي الخاص بالنساء الذي فيه لعنهن على الزيارة.

يبين ذلك قولها: (قد أمر بزيارتها) فهذا يبين أنه أمر بها أمرًا يقتضي الاستحباب، والاستحباب إنما هو ثابت للرجال خاصة. ولو كانت تعتقد أن النساء مأمورات بزيارة القبور لكانت تفعل ذلك كما يفعله الرجال ولم تقل لأخيها: (لما زرتك).

واللعن صريح في التحريم، والخطاب بالإذن في قوله: «**فزوروها**» [1] لم يتناول النساء فلا يدخلن في الحكم الناسخ، والعام إذا عرف أنه بعد الخاص لم يكن ناسخًا له عند جمهور العلماء، وهو مذهب الشافعي وأحمد في أشهر الروايتين عنه، وهو المعروف عند أصحابه، فكيف إذا لم يعلم أن هذا العام بعد الخاص؟.

إذ قد يكون قوله: «**لعن الله زوارات القبور**» بعد إذنه للرجال في الزيارة. يدل على ذلك أنه قرنه بالمتخذين عليها المساجد والسرج. ومعلوم أن اتخاذ المساجد والسرج المنهي عنها محكم، كما دلت عليه الأحاديث الصحيحة وكذلك الآخر.

والصحيح: أن النساء لم يدخلن في الإذن في زيارة القبور لعدة أوجه:

أحدها: أن قوله ﷺ: «**فزوروها**» صيغة تذكير. وإنما يتناول النساء أيضًا على سبيل التغليب. لكن هذا فيه قولان، قيل: إنه يحتاج إلى دليل منفصل، وحينئذ فيحتاج تناول ذلك النساء إلى دليل منفصل، وقيل: أنه يحمل على ذلك عند الإطلاق. وعلى هذا فيكون دخول النساء بطريق العموم الضعيف، والعام لا يعارض الأدلة الخاصة ولا ينسخها عند جمهور العلماء، ولو كان النساء داخلات في هذا الخطاب لاستحب لهن زيارة القبور.

وما علمنا أحدًا من الأئمة استحب لهن زيارة القبور، ولا كان النساء على عهد النبي ﷺ وخلفائه الراشدين يخرجن إلى زيارة القبور.

ومنها: أن النبي ﷺ علل الإذن للرجال بأن ذلك «**يذكر الموت، ويرقق القلب**،

---

(١) رواه مسلم (٩٧٧) في الجنائز.

وتدمع العين» (١) هكذا في مسند أحمد. ومعلوم أن المرأة إذا فتح لها هذا الباب أخرجها إلى الجزع والندب والنياحة، لما فيها من الضعف وقلة الصبر. وإذا كانت زيارة النساء مظنة وسببًا للأمور المحرمة فإنه لا يمكن أن يحدَّد المقدار الذي لا يفضي إلى ذلك، ولا التمييز بين نوع ونوع.

ومن أصول الشريعة: أن الحكمة إذا كانت خفية أو منتشرة علق الحكم بمظنتها. فيحرم هذا الباب سدًّا للذريعة، كما حرم النظر إلى الزينة الباطنة، وكما حرم الخلوة بالأجنبية وغير ذلك. وليس في ذلك من المصلحة ما يعارض هذه المفسدة. فإنه ليس في ذلك إلا دعاؤها للميت وذلك ممكن في بيتها.

ومن العلماء من يقول: التشييع كذلك، ويحتج بقوله ﷺ **«ارجعن مأزورات غير مأجورات، فإنكن تفتن الحي وتؤذين الميت»** (٢)، وقوله لفاطمة: **«أما إنك لو بلغت معهم الكدى لم تدخلي الجنة»** (٣).

ويؤيده ما ثبت في الصحيحين من أنه نهى النساء عن اتباع الجنائز (٤) ومعلوم أن قوله ﷺ: **«من صلى على جنازة فله قيراط ومن تبعها حتى تدفن فله قيراطان»** (٥) هو أدل على العموم من صيغة التذكير. فإن لفظ: **«من»** يتناول الرجال والنساء باتفاق الناس، وقد علم بالأحاديث الصحيحة أن هذا العموم لم يتناول النساء لنهي النبي ﷺ لهن عن اتباع الجنائز، فإذا لم يدخلن في هذا العموم فكذلك في ذلك بطريق الأولى.

---

(١) **فيه رجل مجهول**: أحمد (١٣٤٢١) في المسند عن أنس رضي الله عنه، وله طريق آخر بلا جهالة عند البزار (١٢١١) (كشف الأستار)، وقد حسنه الألباني ص (١٨٠) في أحكام الجنائز.

(٢) **ضعيف الإسناد جدًا**: فيه أبو هدبة وهو كذّاب مجمع على كذبه، والحديث عند الخطيب (٦/ ٢٠١) في تاريخه عن أنس رضي الله عنه، وله طريق ضعيف عند ابن ماجه (١٥٧٨) في الجنائز عن علي رضي الله عنه.

(٣) **ضعيف الإسناد**: أبو داود (٣١٢١) في الجنائز، ابن ماجه (١١٤٨) وضعفه الألباني في الموضعين عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

(٤) رواه البخاري (١٢٧٨) في الجنائز، ومسلم (٩٣٨) في الجنائز عن أم عطية الأنصارية رضي الله عنها.

(٥) رواه البخاري (١٣٢٥) في الجنائز عن أبي هريرة، ومسلم (٩٤٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

انتهى ملخصًا .

قلت : وعما استدل به القائلون بالنسخ أجوبة أيضًا .

منها : أن ما ذكروه عن عائشة وفاطمة رضي الله عنهما معارض بما ورد عنهما في هذا الباب فلا يثبت به نسخ .

ومنها : أن قول الصحابي وفعله ليس حجة على الحديث بلا نزاع، وأما تعليمه عائشة كيف تقول إذا زارت القبور ونحو ذلك، فلا يدل على نسخ ما دلت عليه الأحاديث الثلاثة من لعن زائرات القبور، لاحتمال أن يكون ذلك قبل هذا النهي الأكيد والوعيد الشديد، والله أعلم .

قال محمد بن إسماعيل فى كتاب (تطهير الاعتقاد) : والمشاهدُ التي صارت أعظم ذريعةِ إلى الشرك والإلحاد، غالبُ من يعمرُها الملوكُ والسلاطين : إمَّا على قريبٍ لهم، أو على من يحسنون الظنَّ فيه من فاضلٍ أو عالم .

ويزوره الناس الذين يعرفونه زيارة الأموات من دون توسل به ولا هتف باسمه، بل يدعون له ويستغفرون . حتى ينقرض من يعرفه أو أكثرهم، فيأتي من بعدهم فيجد قبرًا قد شيد عليه البناء، وسرجت عليه الشموع، وفرش بالفراش الفاخر، وأرخيت عليه الستور، وألقيت عليه الأوراد والزهور، فيعتقد أن ذلك لنفع أو دفع ضر، وتأتيه السدنة يكذبون على الميت بأنه فعل وفعل، وأنزل بفلان الضر وبفلان النفع . حتى يغرسوا في جبلته كل باطل، والأمر ما ثبت في الأحاديث النبوية من لعن من أسرج على القبور وكتب عليها وبنى عليها . وأحاديث ذلك واسعة معروفة فإن ذلك في نفسه منهى عنه . ثم هو ذريعة إلى مفسدة عظيمة . انتهى .

ومنه تعلم مطابقة الحديث للترجمة والله أعلم .

قوله : (والمتخذين عليها المساجد) تقدم شرحه في الباب قبله .

قوله : (والسُّرُج) قال أبو محمد المقدسي : لو أبيح اتخاذ السرج عليها لم يلعن من فعله، لأن فيه تضييعًا للمال في غير فائدة، وإفراطًا في تعظيم القبور أشبه بتعظيم الأصنام .

وقال ابن القيم رحمه الله : اتخاذها مساجد وإيقاد السرج عليها من الكبائر .

قوله : (رواه أهل السنن) يعني أبا داود والترمذي وابن ماجه فقط ولم يروه النسائي [١] .



(١) بل رواه النسائي (٤/ ٩٥).

(٢١)



ما جاء في حماية المصطفى ﷺ جناب التوحيد وسده كل طريق يوصل إلى الشرك

قال المصنف رحمه الله تعالى: (**باب ما جاء في حماية المصطفى ﷺ جناب التوحيد وسده كل طريق يوصل إلى الشرك**).

ش: الجناب: هو الجانب. والمراد حمايته عما يقر منه أو يخالطه من الشرك وأسبابه.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (**وقول الله تعالى**: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:١٢٨]).

ش: قال ابن كثير رحمه الله: يقول الله تعالى ممتنًا على المؤمنين بما أرسل إليهم رسولاً من أنفسهم أي من جنسهم وعلى لغتهم كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [البقرة:١٢٩] وقال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران:١٦٤] وقال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة:١٢٨] أي منكم، كما قال جعفر بن أبي طالب للنجاشي [١]، والمغيرة بن شعبة لرسول كسرى: (إن الله بعث فينا رسولاً منا نعرف نسبه وصفته، ومدخله ومخرجه، وصدقه وأمانته) [٢] وذكر الحديث.

---

(١) حسن: أحمد (١/ ٢٠١) في المسند وسنده فيه: عن أم سلمة رضي الله عنها.

(٢) رواه البخاري (٣١٥٩) في الجزية والموادعة عن جُبير بن حية رضي الله عنه.

وقال سفيان بن عيينة عن جعفر بن محمد عن أبيه في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨] قال: لم يصبه شيء من ولادة الجاهلية [١].

وقوله: (﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾) أي يعز عليه الشيء الذي يعنت أمته ويشق عليها ولهذا جاء في الحديث المروي من طرق عنه ﷺ أنه قال: «**بعثت بالحنيفية السمحة**» [٢] وفي الصحيح: «**إن هذا الدين يسر**» [٣] وشريعته كلها سمحة سهلة كاملة، يسيرة على من يسرها الله عليه.

قوله: (﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾) أي على هدايتكم ووصول النفع الدنيوي والأخروي إليكم.

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: (تركنا رسول الله ﷺ وما طائر يقلب جناحيه في الهواء إلا وهو يذكر لنا منه علمًا) [٤] أخرجه الطبراني، قال: وقال رسول الله ﷺ: «**ما بقي شيء يقرب من الجنة ويباعد من النار إلا وقد بينته لكم**» [٥].

وقوله: (﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾) كما قال تعالى: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٥-٢١٦] وهكذا أمره تعالى في هذه الآية الكريمة وهي قوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ أي عما جئت به من الشريعة العظيمة المطهرة الكاملة الشاملة، فقل: ﴿حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٩].

قلت: فاقتضت هذه الأوصاف التي وصف بها رسول الله ﷺ في حق أمته أن أنذرهم وحذرهم الشرك الذي هو أعظم الذنوب، وبين لهم ذرائعه الموصلة إليه،

---

(١) **حسن الإسناد:** البيهقي (٧/ ١٩٠) في السنن الكبرى.

(٢) **حسن الإسناد بشواهده:** أحمد (٦/ ١١٦، ٢٣٣) عن عائشة رضي الله عنها. وله شاهد آخر عن أبي أمامة (٥/ ٢٦٦) في المسند. وشاهد آخر عن جابر رضي الله عنه كما عند الخطيب (٧/ ٢٠٩) في تاريخه.

(٣) رواه البخاري (٣٩) في العلم منفردًا به عن مسلم، وهو عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) **صحيح الإسناد:** أحمد (٥/ ١٥٤، ١٦٢) في المسند.

(٥) **صحيح:** رواه ابن حبان (٦٥) (إحسان) والطبراني (١٦٤٧) في الكبير.

وأبلغ في نهيهم عنها ومن ذلك تعظيم القبور والغلو فيها، والصلاة عندها وإليها، ونحو ذلك مما يوصل إلى عبادتها، كما تقدم، وكما سيأتي في أحاديث الباب.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تجعلوا بيوتكم قبورًا ولا تجعلوا قبرى عيدًا، وصلوا عليَّ فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم» [(١)] **رواه أبو داود بإسناد حسن. ورواته ثقات).**

ش: قوله: (لا تجعلوا بيوتكم قبورًا) قال شيخ الإسلام: (أي لا تعطلوها من الصلاة فيها والدعاء والقراءة، فتكون بمنزلة القبور، فأمر بتحري العبادة في البيوت ونهى عن تحريها عند القبور، عكس ما يفعله المشركون من النصارى ومن تشبه بهم من هذه الأمة.

وفي الصحيحين عن ابن عمر مرفوعًا: «**اجعلوا من صلاتكم في بيوتكم ولا تتخذوها قبورًا**» [(٢)].

وفي صحيح مسلم عن ابن عمر مرفوعًا: «**لا تجعلوا بيوتكم مقابر فإن الشيطان يفر من البيت الذي يسمع سورة البقرة تقرأ فيه**» [(٣)].

قوله: (ولا تجعلوا قبرى عيدًا).

قال شيخ الإسلام: (العيد اسم لما يعود من الاجتماع العام على وجه معتاد، عائدًا إما بعود السنة أو بعود الأسبوع أو الشهر ونحو ذلك).

وقال ابن القيم: (العيد ما يعتاد مجيئه وقصده من زمان ومكان، مأخوذ من المعاودة والاعتياد).

فإذا كان اسمًا للمكان فهو المكان الذي يقصد فيه الاجتماع وانتيابه للعبادة وغيرها، كما أن المسجد الحرام ومنى ومزدلفة وعرفة والمشاعر جعلها الله عيدًا للحنفاء ومثابة، كما جعل أيام العيد فيها عيدًا.

(١) صحيح: وقد سبق تخريجه عند أبي داود (٢٠٤٢) بتصحيح الألباني.
(٢) رواه البخاري (٤٣٢) في الصلاة، ومسلم (٧٧٧/٢٠٨ - ٢٠٩) في صلاة المسافرين وقصرها.
(٣) رواه مسلم (٧٨٠) في صلاة المسافرين وقصرها.

وكان للمشركين أعياد زمانية ومكانية. فلما جاء الله بالإسلام أبطلها وعوض الحنفاء منها عيد الفطر وعيد النحر وأيام منى، كما عوضهم من أعياد المشركين المكانية بالكعبة ومنى ومزدلفة وعرفة والمشاعر.

قوله: (وصلوا عليَّ فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم).

قال شيخ الإسلام: (يشير بذلك إلى أن ما ينالني منكم من الصلاة والسلام يحصل مع قربكم من قبري وبعدكم، فلا حاجة لكم إلى اتخاذه عيدًا).

قوله: (لا تجعلوا بيوتكم قبورًا) تقدم كلام شيخ الإسلام في معنى الحديث قبله ا هـ.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وعن علي بن الحسين رضي الله عنهما: أنه رأى رجلًا يجيء إلى فرجة كانت عند قبر النبي ﷺ فيدخل فيها فيدعو، فنهاه وقال: ألا أحدثكم حديثًا سمعته من أبي عن جدي عن رسول الله ﷺ؟ قال: «لا تتخذوا قبري عيدًا، ولا بيوتكم قبورًا، وصلوا عليَّ فإن تسليمكم يبلغني أين كنتم» (١) **رواه في المختارة).**

ش: هذا الحديث والذي قبله جيدان حسنا الإسنادين.

أما الأول: فرواه أبو داود وغيره من حديث عبد الله بن نافع الصائغ قال: أخبرني ابن أبي ذئب عن سعيد المقبري عن أبي هريرة فذكره.

ورواته ثقات مشاهير، لكن عبد الله بن نافع قال فيه أبو حاتم: ليس بالحافظ، تعرف وتنكر. وقال ابن معين: هو ثقة وقال أبو زرعة: لا بأس به.

قال شيخ الإسلام: ومثل هذا إذا كان لحديثه شواهد علم أنه محفوظ، وهذا له شواهد متعددة. وقال الحافظ محمد بن عبد الهادي: هو حديث حسن جيد الإسناد، وله شواهد يرتقى بها إلى درجة الصحة.

(١) حسن الإسناد: قال الهيثمي (٤/ ٣) في المجمع: رواه أبو يعلى وفيه حفص بن إبراهيم الجعفري ذكره ابن أبي حاتم، ولم يذكر فيه جرحًا وبقية رجاله ثقات. قلت: ويشهد له سابقه وانظر المختارة (٤٢٨) للضياء المقدسي.

وأما الحديث الثاني: فرواه أبو يعلى والقاضي إسماعيل والحافظ الضياء محمد بن عبد الواحد المقدسي في المختارة.

قال شيخ الإسلام: (فانظر هذه السنة كيف مخرجها من أهل المدينة وأهل البيت الذين لهم من رسول الله ﷺ قرب النسب وقرب الدار، لأنهم إلى ذلك أحوج من غيرهم، فكانوا له أضبط. اهـ).

وقال سعيد بن منصور في سننه: حدثنا عبد العزيز بن محمد أخبرني سهيل بن أبي سهيل قال: رآني الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم عند القبر، فناداني، وهو في بيت فاطمة رضي الله عنها يتعشى، فقال: هلم إلى العشاء. فقلت: لا أريده. فقال: ما لي رأيتك عند القبر؟ فقلت: سلمت على النبي ﷺ. فقال: إذا دخلت المسجد فسلم. ثم قال: إن رسول الله ﷺ قال: «**لا تتخذوا قبري عيدًا، ولا تتخذوا بيوتكم مقابر، وصلوا عليَّ فإن صلاتكم تبلغني حيثما كنتم، لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، ما أنتم ومن بالأندلس إلا سواء**»[(١)].

وقال سعيد أيضًا: حدثنا حبان بن علي، حدثنا محمد بن عجلان عن أبي سعيد مولى المهري قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تتخذوا قبري عيدًا ولا بيوتكم قبورًا، وصلوا عليَّ فإن صلاتكم تبلغني**»[(٢)].

قال شيخ الإسلام: فهذان المرسلان من هذين الوجهين المختلفين يدلان على ثبوت الحديث لا سيما وقد احتج به من أرسله. وذلك يقتضي ثبوته عنده هذا لو لم يرو من وجوه مسندة غير هذين، فكيف وقد تقدم مسندًا؟

قوله: (علي بن الحسين) أي ابن علي بن أبي طالب، المعروف بزين العابدين رضي الله عنه، أفضل التابعين من أهل بيته وأعلمهم. قال الزهري: ما رأيت قرشيًّا أفضل منه. مات سنة ثلاث وتسعين على الصحيح. وأبوه الحسين سبط

---

(١) **ضعيف**: وقد رواه ابن أبي شيبة (٣/ ٣٤٥) في المصنف، وله طريق آخر عند أبي يعلى، ورواه الهيثمي (٢/ ٢٤٧) وعزاه لأبي يعلى وأعله بعبد الله بن نافع وهو ضعيف.

(٢) **مرسل ضعيف**: وقد أعله ابن قيم الجوزية في «جلاء الأفهام».

رسول الله ﷺ وريحانته، حفظ عن النبي ﷺ واستشهد يوم عاشوراء سنة إحدى وستين وله ست وخمسون سنة رضي الله عنه.

قوله: (أنه رأى رجلاً يجيء إلى فرجة) بضم الفاء وسكون الراء، وهي الكوة في الجدار والخوخة ونحوهما.

قوله: (فيدخل فيها فيدعو فنهاه) هذا يدل على النهي عن قصد القبور والمشاهد لأجل الدعاء والصلاة عندها.

قال شيخ الإسلام: ما علمت أحدًا رخص فيه، لأن ذلك نوع من اتخاذه عيدًا ويدل أيضًا على أن قصد القبر للسلام إذا دخل المسجد ليصلي منهى عنه، لأن ذلك لم يشرع.

وكره مالك لأهل المدينة كلما دخل الإنسان المسجد أن يأتي قبر النبي ﷺ لأن السلف لم يكونوا يفعلون ذلك، قال: ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها [(١)].

وكان الصحابة والتابعون رضي الله عنهم يأتون إلى مسجد النبي ﷺ فيصلون، فإذا قضوا الصلاة قعدوا أو خرجوا، ولم يكونوا يأتون القبر للسلام، لعلمهم أن الصلاة والسلام عليه في الصلاة أكمل وأفضل.

وأما دخولهم عند قبره للصلاة والسلام عليه هناك، أو للصلاة والدعاء فلم يشرعه لهم، بل نهاهم عنه في قوله **«لا تتخذوا قبري عيدًا وصلوا عليَّ فإن صلاتكم تبلغني»** فبين أن الصلاة تصل إليه من بُعد وكذلك السلام، ولعن من اتخذ قبور الأنبياء مساجد.

وكانت الحجرة في زمانهم يدخل إليها من الباب، إذ كانت عائشة رضي الله عنها فيها، وبعد ذلك إلى أن بنى الحائط الآخر، وهم مع ذلك التمكن من الوصول إلى قبره لا يدخلون عليه، لا للسلام ولا للصلاة، ولا للدعاء لأنفسهم ولا لغيرهم، ولا للسؤال عن حديث أو علم، ولا كان الشيطان يطمع فيهم حتى يسمعهم كلامًا أو سلامًا

(١) الاعتصام (١/ ٣٧) للشاطبي، والشفا للقاضي عياض (١/ ٨٥).

فيظنون أنه هو كلمهم وأفتاهم، وبين لهم الأحاديث، أو أنه قد رد عليهم السلام بصوت يسمع من خارج، كما طمع الشيطان في غيرهم فأضلهم عند قبره وقبر غيره، حتى ظنوا أن صاحب القبر يأمرهم وينهاهم ويفتيهم ويحدثهم في الظاهر، وأنه يخرج من القبر ويرونه خارجًا من القبر، ويظنون أن نفس أبدان الموتى خرجت تكلمهم، وأن روح الميت تجسدت لهم فرأوها كما رآهم النبي ﷺ ليلة المعراج.

والمقصود: أن الصحابة رضي الله عنهم لم يكونوا يعتادون الصلاة والسلام عليه عند قبره كما يفعله من بعدهم من الخلوف، وإنما كان بعضهم يأتي من خارج فيسلم عليه إذا قدم من سفر. كما كان ابن عمر يفعله.

قال عبيد الله بن عمر عن نافع: (كان ابن عمر إذا قدم من سفر أتى قبر النبي ﷺ فقال: السلام عليك يا رسول الله. السلام عليك يا أبا بكر. السلام عليك يا أبتاه ثم ينصرف) [1] قال عبيد الله: ما نعلم أحدًا من أصحاب النبي ﷺ فعل ذلك إلا ابن عمر. وهذا يدل على أنه لا يقف عند القبر للدعاء إذا سلم كما يفعله كثير.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: (لأن ذلك لم ينقل عن أحد من الصحابة، فكان بدعة محضة). وفي المبسوط: قال مالك: (لا أرى أن يقف عند قبر النبي ﷺ ولكن يسلم ويمضي). ونص أحمد أنه يستقبل القبلة ويجعل الحجرة عن يساره لئلا يستدبره.

وبالجملة فقد اتفق الأئمة على أنه إذا دعا لا يستقبل القبر، وتنازعوا: هل يستقبله عند السلام عليه أم لا؟

وفي الحديث: دليل على منع شد الرحال إلى قبره ﷺ وإلى غيره من القبور والمشاهد، لأن ذلك من اتخاذها أعيادًا. بل من أعظم أسباب الإشراك بأصحابها. وهذه هي المسألة التي أفتى بها شيخ الإسلام رحمه الله - أعني من سافر لمجرد زيارة قبور الأنبياء والصالحين - ونقل فيها اختلاف العلماء، فمن مبيح لذلك. كالغزالي وأبي محمد المقدسي. ومن مانع لذلك، كابن بطة وابن عقيل، وأبي محمد الجويني،

---

(١) هو بنحوه عند البيهقي (٥/ ٢٤٥) في السنن عن عبد الله بن دينار قال: رأيت ابن عمر . . . فذكره بإسناد صحيح.

والقاضي عياض .

وهو قول الجمهور ، نص عليه مالك ولم يخالفه أحد من الأئمة ، وهو الصواب ، لما في الصحيحين عن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال : «**لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، ومسجدي هذا ، والمسجد الأقصى**»(١) فدخل في النهي شدها لزيارة القبور والمشاهد ، فإما أن يكون نهيًا ، وإما أن يكون نفيًا . وجاء في رواية بصيغة النهي ، فتعين أن يكون للنهي .

ولهذا فهم منه الصحابة رضي الله عنهم المنع - كما في الموطأ والمسند والسنن - عن بصرة بن أبي بصرة الغفاري أنه قال لأبي هريرة - وقد أقبل من الطور - : لو أدركتك قبل أن تخرج إليه لما خرجت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «**لا تعمل المطي إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، ومسجدي هذا ، والمسجد الأقصى**»(٢) .

وروى الإمام أحمد وعمر بن شبة في أخبار المدينة بإسناد جيد عن قزعة قال : أتيت ابن عمر فقلت : إني أريد الطور . فقال : إنما تشد الرحال إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، ومسجد المدينة ، والمسجد الأقصى . فدع عنك الطور ولا تأته(٣) .

فابن عمر وبصرة بن أبي بصرة جعلا الطور مما نهي عن شد الرحال إليه . لأن اللفظ الذي ذكراه فيه النهي عن شدها إلى غير الثلاثة مما يقصد به القربة ، فعلم أن المستثنى منه عام في المساجد وغيرها ، وأن النهي ليس خاصًا بالمساجد ، ولهذا نهيا عن شدها إلى الطور مستدلين بهذا الحديث .

والطور إنما يسافر من يسافر إليه لفضيلة البقعة . فإن الله سماه (الوادي المقدس ، والبقعة المباركة) وكلم كليمه موسى عليه السلام هناك ، وهذا هو الذي عليه الأئمة

---

(١) رواه البخاري (١١٩٧) في فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة، مسلم (٨٢٧) في صلاة المسافرين وقصرها.

(٢) صحيح الإسناد: مالك (١/١٠٨ - ١٠٩)، في الموطأ، أحمد (٦/٧) في المسند، والنسائي (٣/ ١١٣ - ١١٤) في سننه.

(٣) حسن الإسناد: أحمد (٣/٦٤، ٩٣) في المسند وهو حسن بالسابق.

الأربعة وجمهور العلماء .

ومن أراد بسط القول في ذلك والجواب عما يعارضه فعليه بما كتبه شيخ الإسلام مجيبًا لابن الأخنائي فيما اعترض به على ما دلت عليه الأحاديث الصحيحة وأخذ به العلماء وقياس الأولى ؛ لأن المفسدة في ذلك ظاهرة .

وأما النهي عن زيارة غير المساجد الثلاثة فغاية ما فيها : أنها لا مصلحة في ذلك توجب شد الرحال ، ولا مزية تدعو إليه .

وقد بسط القول في ذلك الحافظ محمد بن عبد الهادي في كتاب (الصارم المنكي في رده على السبكي) وذكر فيه علل الأحاديث الواردة في زيارة قبر النبي ﷺ وذكر هو وشيخ الإسلام رحمهما الله تعالى أنه لا يصح منها حديث عن النبي ﷺ ولا عن أحد من أصحابه ، مع أنها لا تدل على محل النزاع . إذ ليس فيها إلا مطلق الزيارة ، وذلك لا ينكره أحد بدون شد الرحال ، فيحمل على الزيارة الشرعية التي ليس فيها شرك ولا بدعة .

قوله : (رواه في المختارة) المختارة : كتاب جمع فيه مؤلفه الأحاديث الجياد الزائدة عن الصحيحين .

ومؤلفه : هو أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد المقدسي الحافظ ضياء الدين الحنبلي أحد الأعلام . قال الذهبي : أفنى عمره في هذا الشأن مع الدين المتين ، والورع والفضيلة التامة والإتقان . فالله يرحمه ويرضى عنه .

وقال شيخ الإسلام : تصحيحه في مختاراته خير من تصحيح الحاكم بلا ريب . مات سنة ثلاث وأربعين وستمائة .



(٢٢)

باب
ما جاء في أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان

قال المصنف رحمه الله تعالى: (باب ما جاء أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان.
وقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ [النساء: ٥١]).

ش: الوثن: يطلق على ما قصد بنوع من أنواع العبادة من دون الله من القبور والمشاهد وغيرها لقول الخليل عليه السلام: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ [العنكبوت: ١٧] ومع قوله: ﴿قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ﴾ [الشعراء: ٧١] وقوله: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ [الصافات: ٩٥] فبذلك يعلم أن الوثن يطلق على الأصنام وغيرها مما عبد من دون الله، كما تقدم في الحديث قول اليهود: هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً.

قوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ [النساء: ٥١] روى ابن أبي حاتم عن عكرمة قال: جاء حيي بن أخطب وكعب بن الأشرف إلى أهل مكة فقالوا لهم: أنتم أهل الكتاب وأهل العلم، فأخبرونا عنا وعن محمد. فقالوا: ما أنتم وما محمد؟ فقالوا: نحن نصل الأرحام، وننحر الكوماء، ونسقي الماء على اللبن، ونفك العناة، ونسقي الحجيج، ومحمد صنبور، قطع أرحامنا، واتبعه سراق الحجيج من غفار. فنحن خير أم هو؟ فقالوا: أنتم خير وأهدى سبيلاً فأنزل الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾ [النساء: ٥١][1].

---

(١) **صحيح مرسل:** ابن كثير (٢/ ٢٤٢) في تفسيره وعزاه لابن أبي حاتم والصنبور: المنقطع (النهاية ١/ ١٠) وهو الذي لا عقب له.

وفي مسند أحمد عن ابن عباس نحوه [١] .

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : الجبت السحر ، والطاغوت الشيطان [٢] .
وكذا قال ابن عباس وأبو العالية ومجاهد والحسن وغيرهم .

وعن ابن عباس وعكرمة وأبي مالك : الجبت الشيطان - زاد ابن عباس : بالحبشية ، وعن ابن عباس أيضًا : الجبت : الشرك ، وعنه الجبت : الأصنام ، وعنه الجبت : حيي بن أخطب .

وعن الشعبي : الجبت : الكاهن .

وعن مجاهد : الجبت : كعب بن الأشرف .

قال الجوهري : الجبت كلمة تقع على الصنم والكاهن والساحر ونحو ذلك .

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وفيه معرفة الإيمان بالجبت والطاغوت في هذا الموضع هل هو اعتقاد قلب ، أو هو موافقة أصحابها ، مع بغضها ومعرفة بطلانها؟) .

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وقوله تعالى : ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة : ٦٠]) .

ش: يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ : قل يا محمد هل أخبركم بشر جزاء عند الله يوم القيامة مما تظنونه بنا؟ وهم أنتم أيها المتصفون بهذه الصفات المفسرة بقوله : ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾ أي أبعده من رحمته ﴿وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ أي غضبًا لا يرضى بعده أبدًا ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ﴾ [المائدة : ٦٠] .

وقد قال الثوري عن علقمة بن مرثد عن المغيرة عن عبد الله اليشكري عن المعرور بن سويد أن ابن مسعود رضي الله عنه قال : سئل رسول الله ﷺ عن القردة

---

(١) **صحيح الإسناد بشواهده:** ابن كثير (٢/ ٢٤٢) في تفسيره، وصححه الشيخ مقبل بن هادي الوادعي في «الصحيح المسند من أسباب النزول».
(٢) سبق تخريجهما في أول الكتاب.

والخنازير، أهي مما مسخ الله؟ فقال: «**إن الله لم يهلك قومًا - أو قال لم يمسخ قومًا - فجعل لهم نسلاً ولا عقبًا، وإنما القردة والخنازير كانت قبل ذلك**»[(١)] رواه مسلم.

قال البغوي في تفسيره: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُم﴾ أخبركم ﴿بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ﴾ الذي ذكرتم، يعني قولهم: لم نر أهل دين أقل حظًا في الدنيا والآخرة منكم، ولا دينًا شرًا من دينكم، فذكر الجواب بلفظ الابتداء وإن لم يكن الابتداء شرًا، لقوله تعالى: ﴿قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ النَّارُ﴾ [الحج: ٧٢].

وقوله: ﴿مَثُوبَةً﴾ ثوابًا وجزاء، نصب على التفسير ﴿عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ﴾ أي هو من لعنه الله ﴿وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ يعني اليهود ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾ [المائدة: ٦٠] فالقردة أصحاب السبت، والخنازير كفار مائدة عيسى. وعن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس أن المسخين كلاهما من أصحاب السبت، فشبابهم مسخوا قردة وشيوخهم مسخوا خنازير[(٢)].

﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ أي وجعل منهم من عبد الطاغوت، أي أطاع الشيطان فيما سول له، وقرأ ابن مسعود (وعبدوا الطاغوت) وقرأ حمزة (وعبُد) بضم الباء، و(الطاغوتِ) بجر التاء أراد العبد. وهما لغتان: عبد بسكون الباء، وعبُد بضمها، مثل سبْع وسبُع وقرأ الحسن (وعبد الطاغوت) على الواحد.

وفي تفسير الطبرسي: قرأ حمزة وحده (وعبُد الطاغوتِ) بضم الباء وجر التاء، والباقون (وعبَد الطاغوتَ) بنصب الباء وفتح التاء. وقرأ ابن عباس وابن مسعود وإبراهيم النخعي والأعمش وأبان بن تغلب (وعُبُدَ الطاغوتِ) بضم العين والباء وفتح الدال وخفض التاء، قال: وحجة حمزة في قراءته (وعبُد الطاغوتِ) أنه يحمله على ما عمل فيه ﴿جعل﴾ كأنه: وجعل منهم عبد الطاغوت. ومعنى جعل خلق. كقوله: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام: ١] وليس عبد لفظ جمع لأنه ليس من أبنية الجموع شيء على هذا البناء، ولكنه واحد يراد به الكثرة، ألا ترى أن في الأسماء المفردة المضافة

---

(١) رواه مسلم (٢٦٦٣/ ٣٢ - ٣٣) في القدر.

(٢) **منقطع الإسناد**: فالوالبي (علي بن أبي طلحة) لم يسمع من ابن عباس، وفي سنده دائمًا عبد الله بن صالح (أبو صالح) كاتب الليث وهو ضعيف عند التحديث.

إلى المعارف ما لفظه الإفراد ومعناه الجمع، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤] ولأن بناء فَعُل يُراد به المبالغة والكثرة نحو يقظ ودنس، وكأن تقديره: أنه ذهب في عبادة الطاغوت كل مذهب.

وأما من فتح فقال: (وعبَد الطاغوت) فإنه عطفه على بناء المضي الذي في الصلة وهو قوله: ﴿لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾ [النساء: ١١٨] وأفرد الضمير في عبد وإن كان المعنى فيه الكثرة، لأن الكلام محمول على لفظه دون معناه، وفاعله ضمير (من) كما أن فاعل الأمثلة المعطوف عليها ضمير (من) فأفرد لحمل ذلك جميعًا على اللفظ. وأما قوله: (وعُبُدَ الطاغوت) فهو جمع عبَد.

وقال أحمد بن يحيى: عُبد جمع عابد، كبازل وبُزل، وشارف وشُرف، وكذلك عُبد جمع عابد. ومثله عباد وعُبَّاد. اهـ.

وقال شيخ الإسلام في قوله (وعبد الطاغوت): (الصواب أنه معطوف على ما قبله من الأفعال، أي من لعنه وغضب عليه، ومن جعل منهم القردة والخنازير ومن عبد الطاغوت قال: والأفعال المتقدمة الفاعل فيها اسم الله، مظهرًا أو مضمرًا. وهنا الفاعل اسم من عبد الطاغوت. وهو الضمير في عبد ولم يعد سبحانه من لأنه جعل هذه الأفعال صفة لصنف واحد وهم اليهود).

قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ [المائدة: ٦٠] مما تظنون بنا ﴿وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٦٠] وهذا من باب استعمال أفعل التفضيل فيما ليس في الطرف الآخر له مشارك كقوله تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٤] قاله العماد ابن كثير في تفسيره، وهو ظاهر.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وقول الله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ [الكهف: ٢١]).

ش: والمراد أنهم فعلوا مع الفتية بعد موتهم ما يذم فاعله. لأن النبي ﷺ قال: «**لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد**»[1] أراد تحذير

(١) سبق تخريجه في الصحيحين.

أمته أن يفعلوا كفعلهم .

قال المصنف رحمه الله تعالى: (عن أبي سعيد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القُذَّة بالقُذَّة، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه» قالوا : يا رسول الله : اليهود والنصارى؟ قال : «فمن؟» أخرجاه) .

ش: وهذا سياق مسلم (١) .

قوله : (سَنن) بفتح المهملة أي طريق من كان قبلكم . قال المهلب : الفتح أولى .

قوله : (حذو القذة بالقذة) بنصب حذو على المصدر . والقُذة بضم القاف واحدة القذذ وهو ريش السهم . أي لتتبعن طريقهم في كل ما فعلوه ، وتشبهوهم في ذلك كما تشبه قذة السهم القذة الأخرى . وبهذا تظهر مناسبة الآيات للترجمة . وقد وقع كما أخبر ، وهو علم من أعلام النبوة .

قوله : (حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه) وفي حديث آخر «**حتى لو كان فيهم من يأتي أمه علانية لكان في أمتي من يفعل ذلك**» (٢) .

أراد ﷺ أن أمته لا تدع شيئًا مما كان يفعله اليهود والنصارى إلا فعلته كله لا تترك منه شيئًا ، ولهذا قال سفيان بن عيينة : من فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود ، ومن فسد من عبادنا ففيه شبه من النصارى . انتهى .

قلت : فما أكثر الفريقين ، لكن من رحمة الله تعالى ونعمته أن جعل هذه الأمة لا تجتمع على ضلالة كما في حديث ثوبان الآتي قريبًا .

قوله : (قالوا : يا رسول الله ، اليهود والنصارى؟ قال : فمن؟) هو برفع اليهود خبر مبتدأ محذوف ، أي أهم اليهود والنصارى الذين نتبع سننهم؟ ويجوز النصب بفعل محذوف تقديره : تعني .

---

(١) رواه البخاري (٣٤٥٦) في أحاديث الأنبياء ، مسلم (٢٦٦٩/ ٦) في العلم وهذا ليس سياق مسلم كما هي النسخة التي بين يدي .

(٢) هذه رواية الترمذي (٢٦٤١) في الإيمان وسندها حسن للسابق والرواية عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما .

قوله: (قال: فمن؟) استفهام إنكاري. أي فمن هم غير أولئك؟

قال المصنف رحمه الله تعالى: (ولمسلم عن ثوبان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوى لي منها. وأعطيت الكنزين: الأحمر، والأبيض. وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة بعامة، وأن لا يسلط عليهم عدوًا من سوى أنفسهم، فيستبيح بيضتهم، وإن ربي قال: يا محمد، إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد، وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكها بسنة بعامة. وأن لا أسلط عليهم عدوًا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم من بأقطارها حتى يكون بعضهم يهلك بعضًا، ويسبى بعضهم بعضًا» [(١)].

ورواه البرقاني في «صحيحه» وزاد «وإنما أخاف على أمتى الأئمة المضلين. وإذا وقع عليهم السيف لم يرفع إلى يوم القيامة ولا تقوم الساعة حتى يلحق حي من أمتي بالمشركين وحتى تعبد فئام من أمتى الأوثان. وأنه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون، كلهم يزعم أنه نبي، وأنا خاتم النبيين لا نبي بعدي، ولا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله تبارك وتعالى» [(٢)].

ش: هذا الحديث رواه أبو داود في سننه وابن ماجه بالزيادة التي ذكرها المصنف.

قوله: (عن ثوبان) هو مولى النبي ﷺ صحبه ولازمه ونزل بعده الشام ومات بحمص سنة أربع وخمسين.

قوله: (زوى لي الأرض) قال التوربشتي: زويت الشيء جمعته وقبضته، يريد تقريب البعيد منها حتى اطلع عليه اطلاعه على القريب. وحاصله أنه طوى له الأرض وجعلها مجموعة كهيئة كف في مرآة ينظره. قال الطيبي: أي جمعها، حتى أبصرت ما تملكه أمتي من أقصى المشارق والمغارب منها.

---

(١) رواه مسلم (٢٨٨٩/ ١٩) في الفتن.

(٢) **صحيح الإسناد**: وانظر سنن أبي داود (٤٢٥٢) في الفتن والملاحم وابن ماجه (٣٩٥٢)، وأحمد (٥/ ٢٧٨) وصححه الألباني رحمه الله. وحديث الطائفة المنصورة ثابت في الصحيحين: البخاري (٣٦٤١) ومسلم (١٩٢٠).

قوله: (وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوى لي منها).

قال القرطبي: هذا الخبر وجد مخبره كما قال، وكان ذلك من دلائل نبوته، وذلك أن ملك أمته اتسع إلى أن بلغ أقصى طنجة - بالنون والجيم - الذي هو منتهى عمارة المغرب، إلى أقصى المشرق مما هو وراء خراسان والنهر، وكثير من بلاد السند والهند والصغد، ولم يتسع ذلك الاتساع من جهة الجنوب والشمال. ولذلك لم يذكر عليه السلام أنه أريه ولا أخبر أن ملك أمته يبلغه.

قوله: (زوى لي منها) يحتمل أن يكون مبنيًا للفاعل، وأن يكون مبنيًا للمفعول.

قوله: (وأعطيت الكنزين: الأحمر والأبيض) قال القرطبي: يعني به كنز كسرى، وهو ملك الفرس، وكنز قيصر وهو ملك الروم وقصورهما وبلادهما.

وقد قال ﷺ: «**والذي نفسي بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله**»[(١)] وعبر بالأحمر عن كنز قيصر لأن الغالب عندهم كان الذهب، وبالأبيض عن كنز كسرى لأن الغالب عندهم كان الجوهر والفضة.

ووجد ذلك في خلافة عمر. فإنه سيق إليه تاج كسرى وحليته وما كان في بيوت أمواله، وجميع ما حوته مملكته على سعتها وعظمتها، وكذلك فعل الله بقيصر والأبيض والأحمر منصوبان على البدل.

قوله: (وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة بعامة) هكذا ثبت في أصل المصنف رحمه الله (بعامة) بالباء وهي رواية صحيحة في صحيح مسلم وفي بعضها بحذفها.

قال القرطبي: وكأنها زائدة لأن عامة: صفة السنة، والسنة: الجدب الذي يكون به الهلاك العام، ويسمى الجدب والقحط: سنة. ويجمع على سنين، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٠] أي الجدب المتوالى.

---

(١) رواه البخاري (٦٦٣٠) في الأيمان والنذور، ومسلم (٢٩١٨) في الفتن عن أبي هريرة رضي الله عنه.

قوله: (من سوى أنفسهم) أي من غيرهم من الكفار من إهلاك بعضهم بعضًا، وسبى بعضهم بعضًا، كما هو مبسوط في التاريخ فيما قيل. وفي زماننا هذا، نسأل الله العفو والعافية.

قوله: (فيستبيح بيضتهم) قال الجوهري: بيضة كل شيء حوزته. وبيضة القوم ساحتهم، وعلى هذا فيكون معنى الحديث: إن الله تعالى لا يسلط العدو على كافة المسلمين حتى يستبيح جميع ما حازوه من البلاد والأرض، ولو اجتمع عليهم من بأقطار الأرض وهي جوانبها. وقيل: بيضتهم معظمهم وجماعتهم، وإن قلوا.

قوله: (حتى يكون بعضهم يهلك بعضًا، ويسبى بعضهم بعضًا) والظاهر أن حتى عاطفة، أو تكون لانتهاء الغاية، أي إن أمر الأمة ينتهي إلى أن يكون بعضهم يهلك بعضًا. وقد سلط بعضهم على بعض كما هو الواقع، وذلك لكثرة اختلافهم وتفرقهم.

قوله: (وإن ربي قال: يا محمد، إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد) قال بعضهم: أي إذا حكمت حكمًا مبرمًا نافذًا فإنه لا يرد بشيء، ولا يقدر أحد على رده، كما قال النبي ﷺ: «**ولا راد لما قضيت**»(١).

قوله: (ورواه البرقاني في صحيحه) هو الحافظ الكبير أبو بكر أحمد بن محمد بن أحمد بن غالب الخوارزمي الشافعي. ولد سنة ست وثلاثين وثلاثمائة ومات سنة خمس وعشرين وأربعمائة.

قال الخطيب: كان ثبتًا ورعًا، ولم نر في شيوخنا أثبت منه، عارفًا بالفقه كثير التصانيف. صنف مسندًا ضمنه ما اشتمل عليه الصحيحان. وجمع حديث الثوري وحديث شعبة وطائفة.

وهذا الحديث رواه أبو داود بتمامه بسنده إلى أبي قلابة عن أبي أسماء عن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله - أو قال إن ربي - زوى لي الأرض فأريت مشارق الأرض ومغاربها، وإن ملك أمتي سيبلغ ما زوى لي منها. وأعطيت الكنزين: الأحمر والأبيض. وإني سألت لأمتي أن لا يهلكها بسنة عامة ولا يسلط**

(١) **حسن الإسناد**: عبد الرزاق (١٩٦٣٨) وأصله عند البخاري (٨٤٤) ومسلم (٥٩٣).

عليهم عدوًا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم . وإن ربي قال لي : يا محمد إني إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد، ولا أهلكهم بسنة عامة، ولا أسلط عليهم عدوًا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم . ولو اجتمع عليهم من بين أقطارها - أو قال : بأقطارها - حتى يكون بعضهم يهلك بعضًا، وحتى يكون بعضهم يسبى بعضًا . وإنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين . وإذا وضع السيف في أمتي لم يرفع عنها إلى يوم القيامة . ولا تقوم الساعة حتى يلحق قبائل من أمتي بالمشركين، وحتى تعبد قبائل من أمتي الأوثان وإنه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون كلهم يزعم أنه نبي، وأنا خاتم النبيين لا نبي بعدي، ولا تزال طائفة من أمتي على الحق - قال ابن عيسى : ظاهرين ثم اتفقا - لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله تعالى» (١).

وروى أبو داود أيضًا عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : «**تدور رحى الإسلام لخمس وثلاثين، أو ست وثلاثين، أو سبع وثلاثين، فإن يهلكوا فسبيل من هلك، وإن يقم لهم دينهم يقم سبعين عامًا . قلت : أمما بقى أو مما مضى؟ قال : مما مضى**» (٢).

وروى في سننه أيضًا عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ «**يتقارب الزمان وينقص العلم، وتظهر الفتن، ويلقى الشح، ويكثر الهرج**»، قيل : يا رسول الله أيّه هو؟ قال : «**القتل القتل**» (٣).

قوله :(وإنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين) أي الأمراء والعلماء والعباد فيحكمون فيهم بغير علم فيضلونهم، كما قال تعالى : ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا﴾ [الأحزاب :٦٧].

وكان بعض هؤلاء يقول لأصحابه : من كان له حاجة فليأت إلى قبري فإني أقضيها له ولا خير في رجل يحجبه عن أصحابه ذراع من تراب، ونحو هذا . وهذا هو الضلال

(١) **صحيح** :انظر ما قبل تخريجين .
(٢) **صحيح الإسناد**:أحمد (١/ ٣٩٠، ٤٥١) في المسند، وله طريق عند أبي داود (٤٢٥٤) وأحمد (١/ ٣٩٣) .
(٣)رواه البخاري (٧٠٦١) في الفتن، ومسلم (١٥٧/١١ - ١٢) في العلم .

البعيد، يدعو أصحابه إلى أن يعبدوه من دون الله ويسألوه ما لا يقدر عليه من قضاء حاجاتهم وتفريج كرباتهم، وقد قال تعالى: ﴿يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنفَعُهُ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ۝ يَدْعُوا لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ﴾ [الحج: ١٢-١٣] وقال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٣] وقال تعالى: ﴿فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٧] وأمثال هذا في القرآن كثير، يبين الله تعالى به الهدى من الضلال.

ومن هذا الضرب: من يدعى أنه يصل مع الله إلى حال تسقط فيها عنه التكاليف، ويدعى أن الأولياء يُدعون ويستغاث بهم في حياتهم ومماتهم، وأنهم ينفعون ويضرون ويدبرون الأمور على سبيل الكرامة، وأنه يطلع على اللوح المحفوظ، ويعلم أسرار الناس وما في ضمائرهم.

أو يُجوّز بناء المساجد على قبور الأنبياء والصالحين وإيقادها بالسرج ونحو ذلك من الغلو والإفراط والعبادة لغير الله. فما أكثر هذا الهذيان والكفر والمحادة لله ولكتابه ولرسوله.

وقوله ﷺ: «**وإنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين**» أتى بإنما التي قد تأتي للحصر بيانًا لشدة خوفه على أمته من أئمة الضلال، وما وقع في خلد النبي ﷺ من ذلك إلا لما أطلعه الله عليه من غيبه أنه سيقع نظير ما في الحديث قبله من قوله: «**لتتبعن سنن من كان قبلكم**...» الحديث.

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن أخوف ما أخاف على أمتي الأئمة المضلون**»[١] رواه أبو داود الطيالسي. وعن ثوبان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين**»[٢] رواه الدارمي.

---

(١) **صحيح بشواهده**: أحمد (٦/ ١٤٤١ في المسند)، والطبراني (٥/ ٢٣٩) في المجمع وقال: (رواه أحمد، وفيه راويان لم يُسميا) قلت: وإنما له شاهد عند أحمد (١/ ٤٢) و (٥/ ١٤٥) عن عمر، وأبي ذر رضي الله عنهما.

(٢) **صحيح**: سبق تخريجه.

وقد بين الله تعالى في كتابه صراطه المستقيم الذي هو سبيل المؤمنين . فكل من أحدث حدثًا ليس في كتاب الله ولا في سنة رسوله ﷺ فهو ملعون وحدثه مردود، كما قال ﷺ: **«من أحدث حدثًا أو آوى محدثًا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل الله منه يوم القيامة صرفًا ولا عدلاً»** (١).

وقال: «من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد» (٢).

وقال: «كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة» (٣).

وهذه أحاديث صحيحة . ومدار أصول الدين وأحكامه على هذه الأحاديث ونحوها . وقد بين الله تعالى هذا الأصل في مواضع من كتابه العزيز كما قال تعالى : ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف:٣] وقال تعالى : ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُواْ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ﴾ [الجاثية: ١٨-١٩] ونظائرها في القرآن كثير .

وعن زياد بن حدير قال: قال لي عمر رضي الله عنه : **«هل تعرف ما يهدم الإسلام؟ قلت : لا ، قال : يهدمه زلة العالم ، وجدال المنافق بالكتاب ، وحكم الأئمة المضلين»** (٤) رواه الدارمي .

وقال يزيد بن عمير: كان معاذ بن جبل رضي الله عنه لا يجلس مجلسًا للذكر إلا ويقول : الله حكم قسط : هلك المرتابون - وفيه : فاحذروا زيغة الحكيم فإن الشيطان قد يقول الضلالة على لسان الحكيم ، وقد يقول المنافق كلمة الحق . قلت لمعاذ : وما يدريني رحمك الله أن الحكيم قد يقول كلمة الضلالة ، والمنافق قد يقول كلمة الحق؟ فقال : اجتنب من كلام الحكيم المشتبهات التي يقول : ما هذه؟ ولا يثنيك ذلك عنه ،

---

(١) رواه البخاري (١٨٧٠) في فضائل المدينة، ومسلم (١٣٧٠/ ٤٦٧ - ٤٦٨) في الحج عن علي رضي الله عنه .

(٢) رواه البخاري (٢٦٩٧) في الصلح، ومسلم (١٧١٨/ ١٧ - ١٨) في الأقضية .

(٣) **صحيح**: قطعة من حديث رواه الترمذي (٢٦٧٦)، أبو داود (٤٦٠٧) في السنة، عن العرباض بن سارية رضي الله عنه .

(٤) **صحيح**: الدارمي (٢١٩) في سننه، أبو نعيم (٤/ ١٩٦) في حلية الأولياء .

فإنه لعله أن يراجع الحق، وتلق الحق إذا سمعته، فإن على الحق نورًا[١] . رواه أبو داود وغيره.

قوله: (وإذا وقع السيف لم يرفع إلى يوم القيامة) وكذلك وقع. فإن السيف لما وقع بقتل عثمان رضي الله عنه لم يرفع، وكذلك يكون إلى يوم القيامة، ولكن قد يكثر تارة ويقل أخرى، ويكون في جهة ويرتفع عن أخرى.

قوله: (ولا تقوم الساعة حتى يلحق حي من أمتي بالمشركين) الحي واحد الأحياء وهي القبائل: وفي رواية أبي داود **«حتى يلحق قبائل من أمتي بالمشركين»** والمعنى: أنهم يكونون معهم ويرتدون برغبتهم عن أهل الإسلام ويلحقون بأهل الشرك.

وقوله: (حتى تعبد فئام من أمتى الأوثان) الفِئام بكسر الفاء مهموز: الجماعات الكبيرة، قاله أبو السعادات.

وفي رواية أبي داود: **«وحتى تعبد قبائل من أمتي الأوثان»**[٢] .

وهذا هو شاهد الترجمة، ففيه الرد على من قال بخلافه من عباد القبور الجاحدين لما يقع منهم من الشرك بالله بعبادتهم الأوثان. وذلك لجهلهم بحقيقة التوحيد وما يناقضه من الشرك والتنديد، فالتوحيد هو أعظم مطلوب والشرك هو أعظم الذنوب.

وفي معنى هذا الحديث: ما في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا: **«لا تقوم الساعة حتى تضطرب أليات نساء دوس على ذي الخلصة قال: وذو الخلصة طاغية دوس التي كانوا يعبدون في الجاهلية»**[٣] وروى ابن حبان عن معمر قال: إن عليه الآن بيتًا مبنيًّا مغلقًا[٤] .

قال العلامة ابن القيم رحمه الله : **في قصة هدم اللات، لما أسلمت ثقيف**: **فيه أنه** لا يجوز إبقاء مواضع الشرك والطواغيت بعد القدرة على هدمها وإبطالها يومًا واحدًا،

---

(١) **صحيح موقوفًا**: أبو داود (٤٦١١) في السُّنة - باب (٧) وصححه الألباني هناك.

(٢) **صحيح الإسناد**: وهو حديث الباب.

(٣) رواه البخاري (٧١١٦) في الفتن، مسلم (٢٩٠٦/ ٥١) في الفتن.

(٤) وهو كذلك عند ابن حبان (٦٧٤٩) (إحسان) في صحيحه.

وكذا حكم المشاهد التي بنيت على القبور، والتي اتخذت أوثانًا تعبد من دون الله، والأحجار التي تقصد للتبرك والنذر لا يجوز إبقاء شيء منها على وجه الأرض مع القدرة على إزالتها، وكثير منها بمنزلة اللات والعزى ومناة، أو أعظم شركًا عندها وبها. فاتبع هؤلاء سنن من كان قبلهم، وسلكوا سبيلهم حذو القذة بالقذة، وغلب الشرك على أكثر النفوس، لظهور الجهل وخفاء العلم، وصار المعروف منكرًا والمنكر معروفًا، والسنة بدعة والبدعة سنة، وطمست الأعلام، واشتدت غربة الإسلام، وقل العلماء، وغلب السفهاء، وتفاقم الأمر، واشتد البأس، وظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس.

ولكن لا تزال طائفة من العصابة المحمدية بالحق قائمين، ولأهل الشرك والبدع مجاهدين، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين اهـ ملخصًا.

قلت: فإذا كان هذا في القرن السابع وقبله، فما بعده أعظم فسادًا كما هو الواقع.

وقوله: (وإنه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون كلهم يزعم أنه نبي).

قال القرطبي: وقد جاء عددهم معينًا في حديث حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: **«يكون في أمتي كذابون دجالون سبع وعشرون، منهم أربع نسوة»** [(١)] أخرجه أبو نعيم. وقال: هذا حديث غريب. انتهى.

وحديث ثوبان أصح من هذا.

قال القاضي عياض: عد من تنبأ من زمن رسول الله ﷺ إلى الآن ممن اشتهر بذلك وعرف واتبعه جماعة على ضلالة. فوجد هذا العدد فيهم، ومن طالع كتب الأخبار والتواريخ عرف صحة هذا.

وقال الحافظ: وقد ظهر مصداق ذلك في زمن رسول الله ﷺ فخرج مسيلمة الكذاب باليمامة، والأسود العنسي باليمن، وفي خلافة أبي بكر: طليحة بن خويلد في بني أسد بن خزيمة، وسجاح في بني تميم.

(١) **هو حديث رجاله ثقات**: أحمد (٥/ ٣٩٦) في المسند، وانظر الصحيحة (١٩٩٩) للألباني - رحمه الله-.

وقتل الأسود قبل أن يموت النبيﷺ ، وقتل مسيلمة في خلافة أبي بكر رضي الله عنه، قتله وحشي قاتل حمزة يوم أحد، وشاركه في قتل مسيلمة يوم اليمامة رجل من الأنصار، وتاب طليحة ومات على الإسلام في زمن عمر رضي الله عنه. ونقل أن سجاح تابت أيضًا.

ثم خرج المختار بن أبي عبيد الثقفي وغلب على الكوفة في أول خلافة ابن الزبير. وأظهر محبة أهل البيت ودعا الناس إلى طلب قتلة الحسين، فتتبعهم فقتل كثيرًا ممن باشر ذلك، وأعان عليه. فأحبه الناس، ثم ادعى النبوة وزعم أن جبريلاً عليه السلام يأتيه. ومنهم الحارث الكذاب، خرج في خلافة عبد الملك بن مروان فقتل. وخرج في خلافة بني العباس جماعة.

وليس المراد بالحديث من ادعى النبوة مطلقًا. فإنهم لا يحصون كثرة لكون غالبهم تنشأ دعوته عن جنون أو سوداء. وإنما المراد من قامت له شوكة وبدا له شبهة كمن وصفنا. وقد أهلك الله تعالى من وقع له منهم ذلك وبقي منهم من يلحقه بأصحابه وآخرهم الدجال الأكبر.

قوله: (وأنا خاتم النبيين) قال الحسن. الخاتم الذي ختم به يعني أنه آخر النبيين، كما قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾[الأحزاب: ٤٠].

وإنما ينزل عيسى ابن مريم في آخر الزمان حاكمًا بشريعة محمدﷺ مصليًا إلى قبلته. فهو كأحد أمته، بل هو أفضل هذه الأمة. قال النبيﷺ: **«والذي نفسي بيده لينزلن فيكم ابن مريم حكمًا مقسطًا. فليكسرن الصليب، وليقتلن الخنزير، وليضعن الجزية»**[(١)].

قوله: (ولا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم).

---

(١) رواه البخاري (٢٢٢٢) في البيوع، مسلم (١٥٥/ ٢٤٢ - ٢٤٦) في الإيمان عن أبي هريرة رضي الله عنه.

قال يزيد بن هارون، وأحمد بن حنبل: إن لم يكونوا أهل الحديث فلا أدري من هم؟ [(١)].

قال ابن المبارك وعلى بن المديني، وأحمد بن سنان والبخاري وغيرهم: إنهم أهل الحديث [(٢)].

وعن ابن المديني رواية هم العرب واستدل برواية من روى هم أهل الغرب. وفسر الغرب [(٣)] بالدلو العظيمة، لأن العرب هم الذين يستقون بها.

قال النووي: يجوز أن تكون الطائفة جماعة متعددة من أنواع المؤمنين ما بين شجاع وبصير بالحرب، وفقيه ومحدث ومفسر، وقائم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وزاهد وعابد، ولا يلزم أن يكونوا مجتمعين في بلد واحد، بل يجوز اجتماعهم في قطر واحد، وافتراقهم في أقطار الأرض، ويجوز أن يجتمعوا في البلد الواحد وأن يكونوا في بعض دون بعض منه، ويجوز إخلاء الأرض من بعضهم أولاً بأول إلى أن لا يبقى إلا فرقة واحدة ببلد واحد، فإذا انقرضوا جاء أمر الله. انتهى ملخصًا مع زيادة فيه. قاله الحافظ.

قال القرطبي: وفيه دليل على أن الإجماع حجة لأن الأمة إذا اجتمعت فقد دخل فيهم الطائفة المنصورة.

قال المصنف: **(وفيه الآية العظيمة: أنهم مع قلتهم لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم. وفيه البشارة بأن الحق لا يزول بالكلية)**.

قلت: واحتج به الإمام أحمد على أن الاجتهاد لا ينقطع ما دامت هذه الطائفة موجودة.

قوله: (حتى يأتي أمر الله) الظاهر أن المراد به ما روى من قبض من بقي من المؤمنين بالريح الطيبة، ووقوع الآيات العظام، ثم لا يبقى إلا شرار الناس، كما روى

(١) شرف أصحاب الحديث رقم (٤٦، ٤٨) للخطيب البغدادي.

(٢) السابق (٤٧، ٤٩، ٥٠، ٥١).

(٣) رواه مسلم (١٩٢٥/ ١٧٧) في الإمارة عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

الحاكم أن عبد الله بن عمر قال: (لا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق، هم شر أهل الجاهلية) فقال عقبة بن عامر لعبد الله: أعلم ما تقول، وأما أنا فسمعت النبي ﷺ يقول: «**لا تزال عصابة من أمتي يقاتلون على أمر الله ظاهرين لا يضرهم من خالفهم حتى تأتيهم الساعة وهم على ذلك**» قال عبد الله: ويبعث الله ريحًا ريحها المسك، ومسها مس الحرير فلا تترك أحدًا في قلبه مثقال ذرة من إيمان إلا قبضته، ثم يبقى شرار الناس فعليهم تقوم الساعة [(١)] وفي صحيح مسلم: «**لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض الله الله**» [(٢)].

وعلى هذا فالمراد بقوله في حديث عقبة وما أشبهه: «**حتى تأتيهم الساعة**» ساعتهم وهي وقت موتهم بهبوب الريح. ذكره الحافظ.

وقد اختلف في محل هذه الطائفة، فقال ابن بطال: إنها تكون في بيت المقدس، كما رواه الطبراني من حديث أبي أمامة قيل: يا رسول الله، أين هم؟ قال: «**بيت المقدس**» [(٣)] وقال معاذ بن جبل رضي الله عنه: هم بالشام [(٤)].

وفي كلام الطبري ما يدل على أنه لا يجب أن تكون في الشام أو في بيت المقدس دائمًا، بل قد تكون في موضع آخر في بعض الأزمنة.

قلت: ويشهد له الواقع وحال أهل الشام وأهل بيت المقدس، فإنهم من أزمنة طويلة لا يعرف فيهم من قام بهذا الأمر بعد شيخ الإسلام ابن تيمية رضي الله عنه وأصحابه في القرن السابع وأول الثامن.

فإنهم كانوا في زمانهم على الحق يدعون إليه، ويناظرون عليه، ويجاهدون فيه. وقد يجيء من أمثالهم بعد بالشام من يقوم مقامهم بالدعوة إلى الحق والتمسك بالسنة. والله على كل شيء قدير.

---

(١) رواه مسلم (١٩٢٤) في الإمارة.

(٢) رواه مسلم (١٤٨) في الإيمان عن أنس رضي الله عنه.

(٣) ضعف الألباني - رحمه الله - هذه الرواية (٤/ ٥٩٩) في الصحيحة وأعلها بـ (عمرو بن عبد الله الحضرمي) وهو: مجهول.

(٤) رواه البخاري (٣٦٤١) في المناقب.

ومما يؤيد هذا أن أهل الحق والسنة في زمن الأئمة الأربعة وتوافر العلماء في ذلك الزمان وقبله وبعده لم يكونوا في محل واحد، بل هم في غالب الأمصار في الشام منهم الأئمة، وفي الحجاز، وفي مصر، وفي العراق واليمن، وكلهم على الحق يناضلون، ويجاهدون أهل البدع، ولهم المصنفات التي صارت أعلامًا لأهل السنة، وحجة على كل مبتدع.

فعلى هذا، فهذه الطائفة قد تجتمع وقد تتفرق، وقد تكون في الشام، وقد تكون في غيره.

فإن حديث أبي أمامة، وقول معاذ، لا يفيد حصرها بالشام وإنما يفيد أنها تكون في الشام في بعض الأزمنة لا في كلها.

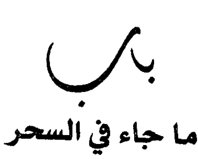
وقوله: (تبارك وتعالى).

قال ابن القيم: البركة نوعان: **أحدهما:** بركة هي فَعَلة والفعل منها بارك، ويتعدى بنفسه تارة وبأداة (على) تارة، وبأداة في تارة، والمفعول منها مبارك. وهو ما جعل منها كذلك، فكان مباركًا بجعله تعالى.

والنوع الثاني: بركة تضاف إليه إضافة الرحمة والعزة، والفعل منها تبارك، ولهذا لا يقال لغيره ذلك، ولا يصلح إلا له عز وجل، فهو سبحانه المتبارك، وعبده ورسوله المبارك، كما قال المسيح عليه السلام: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾[مريم: ٣١] فمن يبارك الله فيه وعليه فهو المبارك.

وأما صفته تبارك فمختصة به، كما أطلقه على نفسه في قوله: ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾[الأعراف: ٥٤] ﴿تَبَـٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[الملك: ١] أفلا تراها كيف اطردت في القرآن جارية عليه مختصة به، لا تطلق على غيره؟ وجاءت على بناء السعة والمبالغة، كتعالى وتعاظم ونحوه، فجاء بناء ﴿تَبَـٰرَكَ﴾ على بناء (تعالى) الذي هو دال على كمال العلو ونهايته، فكذلك ﴿تَبَـٰرَكَ﴾ دال على كمال بركته وعظمته وسعتها. وهذا معنى قول من قال من السلف ﴿تَبَـٰرَكَ﴾ تعاظم. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: جاء بكل بركة.

(٢٣)



ما جاء في السحر

قال المصنف رحمه الله تعالى: (بابُ ما جاء في السِّحر).

ش: أي والكهانة. السِّحرُ في اللغة: عبارة عما خفي ولطُف سببه؛ ولهذا جاء في الحديث: «**إن من البيان لسحرًا**» (١) وسُمِّي السَّحَرُ سحرًا؛ لأنه يقع خفيًا آخر الليل.

قال أبو محمد المقدسي في «الكافي»: السحرُ: عزائمٌ ورُقًى وعُقد، تُؤثِّرُ في القلوب والأبدان، فيُمرض ويقتل، ويفرِّقُ بين المرء وزوجه؛ قال الله تعالى: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾ [البقرة:١٠٢] وقال سبحانه: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ﴾ [الفلق:٤].

يعني: السواحر اللاتي يعقدن في سحرهن، وينفثن في عقدهن. ولولا أن للسحر حقيقةً لم يأمر بالاستعاذة منه.

وعن عائشة رضي الله عنها: أن النبي ﷺ سُحر، حتى إنه ليُخيَّلُ إليه أنه يفعل الشيء وما يفعله، وأن قال لها ذات يوم: «**أتاني ملكان، فجلس أحدهما عند رأسي والآخر عند رجلَيَّ، فقال: ما وجع الرجل؟ قال: مطبوب. قال: ومَن طبه؟ قال: لَبيد ابن الأعصم، في مشطٍ ومشاطة، في جُفِّ طلْعةٍ ذَكر في بئر ذروان**» (٢) رواه البخاري.

---

(١) رواه البخاري (٥١٤٦) في النكاح عن ابن عمر رضي الله عنهما، ومسلم (٨٦٩) عن عمار بن ياسر رضي الله عنهما.

(٢) رواه البخاري (٥٧٦٣) في الطب، مسلم (٢١٨٩/٤٣) في السلام.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ [البقرة: ١٠٢]).

ش: قال ابن عباس: من نصيب [١] قال قتادة: وقد علم أهل الكتاب فيما عُهد إليهم أن الساحر لا خلاق له في الآخرة [٢]. وقال الحسن: ليس له دين [٣].

فدلَّت الآية على تحريم السِّحر، وكذلك هو محرَّم في جميع أديان الرسل عليهم السلام؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ [طه: ٦٩].

وقد نص أصحاب أحمد: أنه يكفر بتعلُّمه وتعليمه.

وروى عبدُ الرزاق، عن صفوان بن سليم، قال: قال رسول الله ﷺ: «**من تعلَّم شيئًا من السِّحر قليلاً كان أو كثيرًا كان آخرُ عهده من الله**» [٤] وهو مرسل.

وقد اختلفوا: هل يكفر الساحرُ أو لا؟ فذهب طائفةٌ من السلف [إلى] أنه يكفر، وبه قال مالك، وأبو حنيفة، وأحمد. قال أصحابه: إلا أن يكون سِحرُه بأدوية وتدخين وسقي شيء لا يضر، فلا يكفر.

وقال الشافعي: إذا تعلم السحر، قلنا له: صف لنا سحرك! فإن وصف ما يُوجب الكفر - مثل ما اعتقده أهل بابل من التقرب إلى الكواكب السبعة، وأنها تفعل ما يلتمس منها - فهو كافر، وإن كان لا يوجب الكفر: فإنْ اعتقد إباحته كفر. انتهى.

وقد سماه الله كفرًا في قوله: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ [البقرة: ١٠٢] وقوله: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾ [البقرة: ١٠٢] قال ابن عباس، في قوله: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ [البقرة: ١٠٢] وذلك أنهما علِما الخير والشر والكفر والإيمان، فعرفا أن

---

(١) **حسن**: ابن أبي حاتم (١٠٢٦) في تفسيره.
(٢) **رجاله ثقات**: السابق (١٠٢٩) مقطوعًا.
(٣) **صحيح الإسناد**: الطبري (١٧١٦) في تفسيره.
(٤) **موضوع**: عبد الرزاق (١٠/ ١٨٤) في المصنف عن صفوان بن سليم رضي الله عنه، وفيه: إبراهيم بن أبي يحيى الأسلمي كذبه ابن معين، وقال النسائي، والدارقطني: متروك كما في التهذيب.

السحر من الكفر [١] .

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وقوله : ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾[النساء:٥١]) .

ش: تقدم الكلام عليهما في الباب قبله . وفيه : أن السحر من الجبت . قاله المصنف .

قال المصنف رحمه الله تعالى: (**قال عمر : الجبت : السحر ، والطاغوت الشيطان** [٢]) .

ش: هذا الأثر ، رواه ابن أبي حاتم ، وغيره .

قال المصنف رحمه الله تعالى: (**وقال جابر : الطواغيت كهان كان ينزل عليهم الشيطان ، في كل حي واحد**) [٣] .

ش: هذا الأثر رواه ابن أبي حاتم بنحوه مطولاً عن وهب بن منبه قال : سألت جابر بن عبد الله عن الطواغيت التي كانوا يتحاكمون إليها ، فقال : إن في جهينة واحدًا ، وفي أسلم واحدًا ، وفي هلال واحدًا ، وفي كل حي واحدًا ، وهم كهان كانت تنزل عليهم الشياطين .

قوله : (قال جابر) هو ابن عبد الله بن حرام الأنصاري .

قوله : (الطواغيت كهان) أراد أن الكهان من الطواغيت : فهو من إفراد المعنى .

قوله : (كان ينزل عليهم الشيطان) أراد الجنس لا الشيطان الذي هو إبليس خاصة ، بل تنزل عليهم الشياطين ويخاطبونهم ويخبرونهم بما يسترقون من السمع ، فيصدقون مرة ويكذبون مائة .

قوله : (في كل حي واحد) الحي واحد الأحياء ، وهم القبائل ، أي في كل قبيلة كاهن يتحاكمون إليه ويسألونه عن الغيب ، وكذلك كان الأمر قبل مبعث النبي ﷺ فأبطل الله ذلك بالإسلام وحرست السماء بكثرة الشهب .

---

(١) سبق تخريجه في أول الكتاب .

(٢) سبق تخريجه في أول الكتاب .

(٣) سبق تخريجه في أول الكتاب .

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اجتنبوا السبع الموبقات»، قالوا: يا رسول الله وما هن؟ قال: «الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات» [(١)]).

ش: كذا أورده المصنف غير معزو. وقد رواه البخاري ومسلم.

قوله: (اجتنبوا) أي ابعدوا، وهو أبلغ من قوله: دعوا واتركوا، لأن النهي عن القربان أبلغ، كقوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأنعام: ١٥١].

قوله: (الموبقات) بموحدة وقاف. أي المهلكات. وسميت هذه موبقات لأنها تهلك فاعلها في الدنيا بما يترتب عليها من العقوبات، وفي الآخرة من العذاب.

وفي حديث ابن عمر عند البخاري في الأدب المفرد والطبري في التفسير، وعبد الرزاق مرفوعًا وموقوفًا قال: الكبائر تسع - وذكر السبع المذكورة - وزاد: والإلحاد في الحرم، وعقوق الوالدين ولابن أبي حاتم عن علي قال: الكبائر - فذكر السبع - إلا أكل مال اليتيم، وزاد - العقوق، والتعرُّب بعد الهجرة، وفراق الجماعة ونكث الصفقة [(٢)].

قال الحافظ: ويحتاج عندي هذا إلى الجواب عن الحكمة في الاقتصار على سبع.

ويجاب: بأن مفهوم العدد ليس بحجة وهو ضعيف، أو بأنه أعلم أولاً بالمذكورات. ثم أعلم بما زاد، فيجب الأخذ بالزائد، أو أن الاقتصار وقع بحسب المقام بالنسبة إلى السائل.

وقد أخرج الطبراني وإسماعيل القاضي عن ابن عباس أنه قيل له: الكبائر سبع، قال: هن أكثر من سبع وسبع [(٣)]، وفي رواية: هي إلى السبعين أقرب [(٤)].

---

(١) رواه البخاري (٢٧٦٦) في الوصايا، مسلم (٨٩/ ١٤٥) في الإيمان.

(٢) صحيح موقوفًا: البخاري (٨) في الأدب المفرد بتصحيح الألباني - رحمه الله -.

(٣) سبق تخريجه في أول الكتاب.

(٤) سبق تخريجه في أول الكتاب.

وفي رواية: إلى السبعمائة[١] .

قوله: (قال الشرك بالله) هو أن يجعل لله ندًّا يدعوه ويرجوه، ويخافه كما يخاف الله، بدأ به لأنه أعظم ذنب عصى الله به، كما في الصحيحين عن ابن مسعود سألت النبي ﷺ أي الذنب أعظم عند الله؟ قال: «**أن تجعل لله ندًا وهو خلقك، . . .**» الحديث[٢] .

وأخرج الترمذي بسنده عن صفوان بن عسال قال: قال يهودي لصاحبه: اذهب بنا إلى هذا النبي، فقال له صاحبه: لا تقل نبيًا، إنه لو سمعك لكان له أربع أعين، فأتيا رسول الله ﷺ فسألاه عن تسع آيات بينات، فقال النبي ﷺ : «**لا تشركوا بالله شيئًا، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق، ولا تمشوا ببريء إلى ذي سلطان ليقتله، ولا تسحروا، ولا تأكلوا الربا، ولا تقذفوا محصنة، ولا تولوا للفرار يوم الزحف، وعليكم خاصة اليهود أن لا تعدوا في السبت**». فقبّلا يديه ورجليه. وقالا: نشهد أنك نبي . . . الحديث[٣] . وقال: حسن صحيح.

قوله: (السحر) تقدم معناه. وهذا وجه مناسبة الحديث للترجمة.

وقوله: (وقتل النفس التي حرم الله) أي حرم قتلها. وهي نفس المسلم المعصوم.

قوله: (إلا بالحق) أي بأن تفعل ما يوجب قتلها. كالشرك والنفس بالنفس، والزاني بعد الإحصان، وكذا قتل المعاهد، كما في الحديث «**من قتل معاهدا لم يرح رائحة الجنة**»[٤] .

واختلف العلماء فيمن قتل مؤمنًا متعمدًا، وهل له توبة أم لا؟ فذهب ابن عباس

---

(١) سبق تخريجه في أول الكتاب.

(٢) سبق تخريجه في الصحيحين.

(٣) **ضعيف:** الترمذي (٢٧٣٣) في الاستئذان، وابن ماجه (٣٧٠٥) وفي الباب عن يزيد بن الأسود، وابن عمر، وكعب بن مالك رضي الله عنهم، وضعفه الألباني.

(٤) رواه البخاري (٣١٦٦) في الجزية والموادعة عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

وأبو هريرة وغيرهما إلى أنه لا توبة له، استدلالاً بقوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا﴾ [النساء: ٩٣].

وقال ابن عباس: نزلت هذه الآية وهي آخر ما نزل وما نسخها شيء وفي رواية: لقد نزلت في آخر ما نزل وما نسخها شيء حتى قبض رسول الله ﷺ وما نزل وحي [(١)].

وروى في ذلك آثار تدل لما ذهب إليه هؤلاء، كما عند الإمام أحمد والنسائي وابن المنذر عن معاوية: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**كل ذنب عسى الله أن يغفره إلا الرجل يموت كافرًا أو الرجل يقتل مؤمنًا متعمدًا**» [(٢)].

وذهب جمهور الأمة سلفًا وخلفًا إلى أن القاتل له توبة فيما بينه وبين الله، فإن تاب وأناب وعمل صالحًا بدل الله سيئاته حسنات، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۝ يُضَٰعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ۝ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُولَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٦٨-٧٠] الآيات.

قوله: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا﴾ [النساء: ٩٣] قال أبو هريرة وغيره: هذا جزاؤه إن جازاه [(٣)].

وقد روى عن ابن عباس ما يوافق قول الجمهور، فروى عبد بن حميد والنحاس عن سعيد بن عبادة أن ابن عباس رضي الله عنهما كان يقول: لمن قتل مؤمنًا توبة [(٤)]

---

(١) رواه البخاري (٤٥٩٠) في التفسير، مسلم (٣٠٢٣/١٦) في التفسير.

(٢) **صحيح الإسناد**: النسائي (٧/ ٨١) في سننه، أحمد (٤/ ٩٩) في المسند وصححه الألباني، وله رواية عند أبي داود (٤٢٧٠) عن أبي الدرداء رضي الله عنه. بتصحيح الألباني - رحمه الله -.

(٣) وعند السيوطي (٢/ ٣٥٢) في الدر المنثور - ط العلمية - بيروت: وأخرج ابن أبي حاتم والطبراني، وأبو القاسم بن بشران في أماليه بسند ضعيف وفيه. . . . : (هو جزاؤه إن جازاه) من قول أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) وهو ما وقع في الدر المنثور (٢/ ٣٥٣) ط- العلمية.

وكذلك ابن عمر رضي الله عنهما [١]. وروى مرفوعًا **«أن جزاءه جهنم إن جازاه»** [٢].

قوله: (وأكل الربا) أي تناوله بأي وجه كان، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ [البقرة:٢٧٥]الآيات. قال ابن دقيق العيد: وهو مجرَّبٌ لسوء الخاتمة. نعوذ بالله من ذلك.

قوله: (وأكل مال اليتيم) يعني التعدي فيه. وعبر بالأكل لأنه أعم وجوه الانتفاع، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء:١٠].

قوله: (والتولي يوم الزحف) أي الإدبار عن الكفار وقت التحام القتال، وإنما يكون كبيرة إذا فر إلى غير فئة أو غير متحرف لقتال. كما قيد به في الآية.

قوله: (وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات) وهو بفتح الصاد: المحفوظات من الزنا، وبكسرها الحافظات فروجهن منه، والمراد: بالحرائر العفيفات، والمراد رميهن بزنا أو لواط. والغافلات، أي عن الفواحش وما رمين به. فهو كناية عن البريئات. لأن الغافل بريء عما بهت به. والمؤمنات، أي بالله تعالى احترازًا من قذف الكافرات.

قال المصنف رحمه الله تعالى:(وعن جندب مرفوعًا «حد الساحر ضربه بالسيف» [٣] **رواه الترمذي وقال: الصحيح أنه موقوف)**.

ش:قوله: (عن جندب) ظاهر صنيع الطبراني في الكبير أنه جندب بن عبد الله البجلي. لا جندب الخير الأزدي قاتل الساحر فإنه رواه في ترجمة جندب البجلي من طريق خالد العبد عن الحسن عن جندب عن النبي ﷺ. وخالد العبد ضعيف.

---

(١)وهو ما وقع في الدر المنثور (٢/ ٣٥٣) ط- العلمية، وانظر الناسخ والمنسوخ للنحاس ص (٤٣).

(٢) **ضعيف الإسناد**: وذكرناه موقوفًا على أبي هريرة رضي الله عنه قبل تخريجين وانظر تفسير ابن أبي حاتم (٥٨١٩).

(٣) **ضعيف مرفوعًا**: الترمذي (١٤٦٠) في الحدود، وقال: والصحيح عن جُنْدب موقوفًا وكذا صححه الألباني - رحمه الله - موقوفًا عن الحسن عن جندب موقوفًا كما في الضعيفة (٣/ ٦٤٢) عقب حديث رقم (١٤٤٦) وهذا قول الذهبي برقم (٢٨) في الكبائر بتحقيقي وترقيمي.

قال الحافظ: والصواب أنه غيره. وقد رواه ابن قانع والحسن بن سفيان من وجهين عن الحسن عن جندب الخير: أنه جاء إلى ساحر فضربه بالسيف حتى مات، وقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول - فذكره.

وجندب الخير: هو جندب بن كعب، وقيل: جندب بن زهير، وقيل: هما واحد، كما قال ابن حبان: أبو عبد الله الأزدي الغامدي صحابي. روى ابن السكن من حديث بريدة أن النبي ﷺ قال: «**يضرب ضربة واحدة فيكون أمة وحده**»(١).

قوله: (حد الساحر ضربه بالسيف) وروى بالهاء وبالتاء، وكلاهما صحيح.

وبهذا الحديث أخذ مالك وأحمد وأبو حنيفة فقالوا: يقتل الساحر. وروى ذلك عن عمر، وعثمان، وابن عمر، وحفصة، وجندب بن عبد الله، وجندب بن كعب، وقيس بن سعد، وعمر بن عبد العزيز.

ولم ير الشافعي القتل عليه بمجرد السحر إلا إن عمل في سحره ما يبلغ الكفر. وبه قال ابن المنذر وهو رواية عن أحمد.

والأول أولى للحديث ولأثر عمر، وعمل به الناس في خلافته من غير نكير.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وفي صحيح البخاري عن بجالة بن عبدة قال: كتب عمر بن الخطاب أن اقتلوا كل ساحر وساحرة. قال: فقتلنا ثلاث سواحر)(٢).

ش: هذا الأثر رواه البخاري كما قال المصنف رحمه الله، لكن لم يذكر قتل السواحر.

قوله: (عن بجالة) بفتح الموحدة بعدها جيم، ابن عبدة بفتحتين، التميمي العنبري بصري ثقة.

---

(١) **هذا ضعيف**: الإصابة (١/ ٦١٦) وفيه يحيى بن كثير صاحب البصرى عن أبيه، عن الجريري، ويحيى هو وأبوه مجهول، والجريري: مختلط.

(٢) كتاب بجالة ورد ذكره في البخاري برقم (٣١٥٦) في الجزية والموادعة ولم يرد فيه ذكر السحر، وإنما هي عند أحمد (١/ ١٩١) في المسند وعند أبي داود (٣٠٤٣) بسند صحيح في الخراج والإمارة.

قوله: (كتب إلينا عمر بن الخطاب أن اقتلوا كل ساحر وساحرة) وظاهره أنه يقتل من غير استتابة. وهو كذلك على المشهور عن أحمد، وبه قال مالك، لأن علم السحر لا يزول بالتوبة. وعن أحمد يستتاب، فإن تاب قبلت توبته، وبه قال الشافعي لأن ذنبه لا يزيد عن الشرك، والمشرك يستتاب وتقبل توبته ولذلك صح إيمان سحرة فرعون وتوبتهم.

قال المصنف رحمه الله تعالى:(وصح عن حفصة رضي الله عنها أنها أمرت بقتل جارية لها سحرتها فقتلت [١]).

ش:هذا الأثر رواه مالك في الموطأ.

وحفصة هي أم المؤمنين بنت عمر بن الخطاب تزوجها النبي ﷺبعد خنيس بن حذافة وماتت سنة خمس وأربعين.

قوله: (وكذلك صح عن جندب) أشار المصنف بهذا إلى قتله الساحر كما رواه البخاري في تاريخه عن أبي عثمان النهدي **قال**: كان عند الوليد رجل يلعب فذبح إنسانًا وأبان رأسه فعجبنا، فأعاد رأسه فجاء جندب الأزدى فقتله.

ورواه البيهقي في الدلائل مطولاً. وفيه: **فأمر به الوليد فسجن فذكر القصة بتمامها** ولها طرق كثيرة [٢].

قال المصنف رحمه الله تعالى:(قال أحمد عن ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ).

ش:أحمد هو الإمام أحمد بن محمد بن حنبل.

قوله: (عن ثلاثة) أي صح قتل الساحر عن ثلاثة، أو جاء قتل الساحر عن ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ، يعني عمر، وحفصة، وجندبًا. والله أعلم.



(١) **صحيح الإسناد**: عبد الرزاق (١٠/ ١٨٠) في المصنف، مالك (٢/ ٨٧١) في الموطأ.
(٢) **صحيح بطرقه وشواهده**: البيهقي (٨/ ١٣٦) في السنن، البخاري (٢/ ٢٢٢) في التاريخ وانظر الضعيفة (٣/ ٦٤٢) وذكر الألباني القصة وصححها.

(٢٤)



بيان شيء من أنواع السحر

قال المصنف رحمه الله تعالى: (باب: بيان شيء من أنواع السحر).

ش: قلت: ذكر الشارح رحمه الله تعالى ها هنا شيئًا من الخوارق وكرامات الأولياء وذكر ما اغتر به كثير من الناس من الأحوال الشيطانية التي غرت كثيرًا من العوام والجهال، وظنوا أنها تدل على ولاية من جرت على يديه ممن هو من أولياء الشيطان لا من أولياء الرحمن ثم قال: ولشيخ الإسلام كتاب «**الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان**» فراجعه. انتهى.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (**قال أحمد: حدثنا محمد بن جعفر. حدثنا عوف عن حيان بن العلاء، حدثنا قطن بن قبيصة عن أبيه أنه سمع النبي ﷺ قال: «إن العيافة، والطَّرق، والطيرة من الجبت» قال عوف: العيافة زجر الطير، والطرق الخط يخط في الأرض، والجبت: قال الحسن: رنة الشيطان**[1] **إسناده جيد. ولأبي داود والنسائي وابن حبان في صحيحه: المسند منه**).

ش: قوله: (قال أحمد) هو الإمام أحمد بن محمد بن حنبل.

ومحمد بن جعفر هو المشهور بغندر الهذلي البصري، ثقة مشهور، مات سنة ست ومائتين.

وعوف هو ابن أبي جميلة - بفتح الجيم - العبدي البصري، المعروف بعوف

(١) **ضعيف مرفوعًا:** أبو داود (٣٩٠٧) في الطب وضعفه الألباني هناك، وفي غاية المرام (٣٠١) وأعله بالاضطراب، رواه أحمد (٣/ ٤٧٧) في المسند.

الأعرابي، ثقة مات سنة ست أو سبع وأربعين، وله ست وثمانون سنة.

وحيان بن العلاء هو بالتحتية، ويقال: حيان بن مخارق، أبو العلاء البصري، مقبول، وقَطَن، بفتحتين أبو سهل البصري صدوق.

قوله: عن أبيه هو قَبيصة - بفتح أوله - ابن مخارق - بضم الميم - أبو عبد الله الهلالي. صحابي، نزل البصرة.

قوله: (إن العيافة والطرق والطيرة من الجبت) قال عوف: العيافة زجر الطير والتفاؤل بأسمائها وأصواتها وممرها، وهو من عادات العرب، وكثير فى أشعارهم، يقال: عاف يعيف عيفًا، إذا زجر وحدس وظن.

قوله: (والطرق) الخط يخط بالأرض كذا فسره عوف، وهو كذلك.

وقال أبو السعادات: هو الضرب بالحصى الذي يفعله النساء.

وأما الطيرة: فيأتي الكلام عليها في بابها إن شاء الله تعالى.

قوله: (من الجبت) أي السحر. قال القاضي: والجبت في الأصل الفشل الذي لا خير فيه، ثم استعير لما يعبد من دون الله، وللساحر والسحر.

قوله: (قال الحسن: رنة الشيطان) قلت: ذكر إبراهيم بن محمد بن مفلح أن في تفسير بقي بن مخلد أن إبليس رن أربع رنات: رنة حين لعن، ورنة حين أهبط، ورنة حين ولد رسول الله ﷺ، ورنة حين نزلت فاتحة الكتاب [١].

قال سعيد بن جبير: لما لعن الله تعالى إبليس تغيرت صورته عن صورة الملائكة، ورن رنة، فكل رنة منها في الدنيا إلى يوم القيامة. رواه ابن أبي حاتم [٢].

وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: لما فتح رسول الله ﷺ مكة رن إبليس رنة اجتمعت إليه جنوده [٣]. رواه الحافظ الضياء في المختارة.

---

(١) في الدر (١/ ٢٠) عزاه السيوطي إلى ابن أبي شيبة وأبي سعيد الأعرابي.

(٢) انظر الدر المنثور (٤/ ١٨٥) ط- العلمية وعزاه لابن أبي حاتم وابن أبي الدنيا في مكايد الشيطان.

(٣) **حسن الإسناد**: الضياء في المختارة (١٠/ ١٠٥) برقم (١٠١).

الرنين: الصوت. وقد رن يرن رنينًا، وبهذا يظهر معنى قول الحسن رحمه الله تعالى.

قوله: (ولأبي داود والنسائي وابن حبان في صحيحه: المسند منه) ولم يذكر التفسير الذي فسره به عوف. وقد رواه أبو داود بالتفسير المذكور بدون كلام الحسن.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من اقتبس شعبة من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر، زاد ما زاد» رواه أبو داود[1] بإسناد صحيح).

ش: وكذا صححه النووي والذهبي ورواه أحمد وابن ماجه.

قوله: (من اقتبس) قال أبو السعادات: قبست العلم واقتبسته إذا علمته. ا هـ.

قوله: (شعبة) أي طائفة من علم النجوم. والشعبة: الطائفة. ومنه الحديث **«الحياء شعبة من الإيمان»**[2] أي جزء منه.

قوله: (فقد اقتبس شعبة من السحر) المحرم تعلمه.

قال شيخ الإسلام: رحمه الله تعالى: فقد صرح رسول الله ﷺ بأن علم النجوم من السحر، وقال تعالى: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾[طه:٦٩].

قوله: (زاد ما زاد) أي: كلما زاد من تعلم علم النجوم زاد في الإثم الحاصل بزيادة الاقتباس من شعبه، فإن ما يعتقده في النجوم من التأثير باطل، كما أن تأثير السحر باطل.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وللنسائي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر. ومن سحر فقد أشرك. ومن تعلق شيئًا وكل إليه»[3]).

(١) **صحيح الإسناد:** أبو داود (٣٩٠٥) في الطب، ابن ماجه (٣٧٣٦)، وأحمد (١/ ٢٢٧، ٣١١) في المسند.

(٢) رواه البخاري (٩) في الإيمان، مسلم (٣٥) في الإيمان وهو جزء من حديث رواه أبو هريرة رضي الله عنه.

(٣) **ضعيف:** النسائي (٧/ ١٢) في سننه، وفيه عبّاد بن ميسرة المنقرة وهو ضعيف، ورواه عن أبي

ش:هذا حديث ذكره المصنف من حديث أبي هريرة وعزاه للنسائي . وقد رواه النسائي مرفوعًا وحسنه ابن مفلح .

قوله :(وللنسائي) هو الإمام الحافظ أحمد بن شعيب بن علي بن سنان بن بحر بن دينار أبو عبد الرحمن صاحب السنن وغيرها . روى عن محمد بن المثنى وابن بشار وقتيبة وخلق، وكان إليه المنتهي في العلم بعلل الحديث، مات سنة ثلاث وثلاثمائة، وله ثمان وثمانون سنة .

قوله :(من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر) اعلم أن السحرة إذا أرادوا عمل السحر عقدوا الخيوط ونفثوا على كل عقدة، حتى ينعقد ما يريدون من السحر، قال الله تعالى : ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلۡعُقَدِ﴾ [الفلق :٤]يعني السواحر اللاتي يفعلن ذلك، والنفث هو النفخ مع الريق، وهو دون التفل . والنفث فعل الساحر، فإذا تكيفت نفسه بالخبث والشر الذي يريده بالمسحور ويستعين عليه بالأرواح الخبيثة نفخ في تلك العقدة نفخًا معه ريق فيخرج من نفسه الخبيثة نفس ممازج للشر والأذى مقارن للريق الممازج لذلك، وقد تساعد هو والروح الشيطانية على أذى المسحور فيصيبه بإذن الله الكونى القدرى لا الشرعي، قاله ابن القيم .

قوله :(ومن سحر فقد أشرك) نص في أن الساحر مشرك، إذ لا يتأتى السحر بدون الشرك كما حكاه الحافظ عن بعضهم .

قوله :(ومن تعلق شيئًا وكل إليه) أي من تعلق قلبه شيئًا : بحيث يعتمد عليه ويرجوه وكله الله إلى ذلك الشيء .

فمن تعلق على ربه وإلهه وسيده ومولاه رب كل شيء ومليكه، كفاه ووقاه وحفظه وتولاه . فنعم المولى ونعم النصير . قال تعالى : ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥ﴾ [الزمر :٣٦]ومن تعلقه على السحرة والشياطين وغيرهم من المخلوقين وكله الله إلى من تعلق فهلك . ومن تأمل ذلك في أحوال الخلق ونظر بعين البصيرة رأى ذلك عيانًا، وهذا من جوامع

هريرة الحسنُ ولم يسمعه، والحديث أعله الذهبي في الميزان (٢/ ٣٧٨) بلين عباد، والانقطاع .
قلت :وأحسن أحواله أنه مرسل عن الحسن وبذلك يضعف أيضًا .

الكلم. والله أعلم.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ألا أنبئكم ما العضه؟ هي النميمة، القالة بين الناس»[١] رواه مسلم).

ش: قوله: (ألا هل أنبئكم) أخبركم و(العضه) بفتح المهملة وسكون المعجمة.

قال أبو السعادات: هكذا يروي في كتب الحديث.

والذي في كتب الغريب ألا أنبئكم ما العِضَه؟ بكسر العين وفتح الضاد.

قال الزمخشري: أصلها العضهة فعلة من العضه وهى البهت. فحذفت لامه، كما حذفت من السنة والشفة، وتجمع على عضين.

ثم فسره بقوله: «**هي النميمة القالة بين الناس**» فأطلق عليها العضه لأنها لا تنفك عن الكذب والبهتان غالبًا. ذكره القرطبي.

وذكر ابن عبد البر عن يحيى بن أبي كثير قال: يفسد النمام والكذاب في ساعة ما لا يفسد الساحر في سنة[٢].

وقال أبو الخطاب في عيون المسائل: ومن السحر السعي بالنميمة والإفساد بين الناس.

قال في الفروع: ووجهه أنه يقصد الأذى بكلامه وعمله على وجه المكر والحيلة، أشبه السحر، وهذا يعرف بالعرف والعادة أنه يؤثر وينتج ما يعمله السحر أو أكثر فيعطى حكمه تسوية بين المتماثلين أو المتقاربين. لكن يقال: الساحر إنما يكفر لوصف السحر وهو أمر خاص ودليله خاص، وهذا ليس بساحر. وإنما يؤثر عمله ما يؤثره فيعطي حكمه إلا فيما اختص به من الكفر وعدم قبول التوبة. انتهى ملخصًا. وبه يظهر مطابقة الحديث للترجمة. وهو يدل على تحريم النميمة، وهو مجمع عليه.

---

(١) رواه مسلم (٢٦٠٦/ ١٠٢) في البر والصلة والآداب.

(٢) رواه البيهقي (٧/ ٤٩٥) (١١١١٤)، (١١١١٥) في الشعب. وأبو نعيم (٣/ ٧٠) في حلية الأولياء.

قال ابن حزم: اتفقوا على تحريم الغيبة والنميمة في غير النصيحة الواجبة . وفيه دليل على أنها من الكبائر .

قوله: (القالة بين الناس) قال أبو السعادات : أي كثرة القول وإيقاع الخصومة بين الناس ومنه الحديث : «**فشت القالة بين الناس**» (١) .

قال المصنف رحمه الله تعالى: (ولهما عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : «إن من البيان لسحرًا») (٢) .

ش: البيان البلاغة والفصاحة .

قال صعصعة بن صوحان: صدق نبي الله ، فإن الرجل يكون عليه الحق وهو ألحن بالحجج من صاحب الحق ، فيسحر القوم ببيانه فيذهب بالحق .

وقال ابن عبد البر : تأولته طائفة على الذم . لأن السحر مذموم .

وذهب أكثر أهل العلم وجماعة أهل الأدب إلى أنه على المدح . لأن الله تعالى مدح البيان .

قال: وقد قال عمر بن عبد العزيز لرجل سأله عن حاجة فأحسن المسألة فأعجبه قوله . قال : هذا والله السحر الحلال . انتهى .

والأول أصح .

والمراد به: البيان الذي فيه تمويه على السامع وتلبيس ، كما قال بعضهم :

في زخرف القول تزيين لباطله والحق قد يعتريه سوء تعبير

مأخوذ من قول الشاعر :

تقول هذا مجاج النحل تمدحه وإن تشأ قلت ذا قيء الزنابير

مدحًا وذمًا وما جاوزت وصفهما والحق قد يعتريه سوء تعبير

قوله: (إن من البيان لسحرًا) هذا من التشبيه البليغ ، لكون ذلك يعمل عمل

(١) قطعة من حديث رواه البخاري (٢٥٠٥، ٢٥٠٦) في الشركة عن ابن عباس رضي الله عنهما .
(٢) سبق تخريجه في الصحيحين .

السحر، فيجعل الحق في قالب الباطل، والباطل في قالب الحق. فيستميل به قلوب الجهال، حتى يقبلوا الباطل وينكروا الحق، ونسأل الله الثبات والاستقامة على الهدى.

وأما البيان الذي يوضح الحق ويقرره، ويبطل الباطل ويبينه. فهذا هو الممدوح. وهكذا حال الرسل وأتباعهم، ولهذا علت مراتبهم في الفضائل وعظمت حسناتهم.

وبالجملة فالبيان لا يحمد إلا إذا لم يخرج إلى حد الإسهاب والإطناب، وتغطية الحق، وتحسين الباطل. فإذا خرج إلى هذا فهو مذموم. وعلى هذا تدل الأحاديث كحديث الباب وحديث «**إن الله يبغض البليغ من الرجال الذي يتخلل بلسانه كما تتخلل البقرة بلسانها**» رواه أحمد وأبو داود [١].



(١) **صحيح الإسناد**: أبو داود (٥٠٠٥) في الأدب، الترمذي (٢٨٥٣) في الأدب بتصحيح الألباني عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

(٢٥)



ما جاء في الكهان ونحوهم

قال المصنف رحمه الله تعالى: (باب ما جاء في الكهان ونحوهم).

ش: الكاهن هو الذي يأخذ عن مسترق السمع، وكانوا قبل المبعث كثيرًا. وأما بعد المبعث فإنهم قليل. لأن الله تعالى حرس السماء بالشهب. وأكثر ما يقع في هذه الأمة ما يخبر به الجن أولياءهم من الإنس عن الأشياء الغائبة بما يقع في الأرض من الأخبار، فيظنه الجاهل كشفًا وكرامة، وقد اغتر بذلك كثير من الناس يظنون المخبر لهم بذلك عن الجن وليًّا لله. وهو من أولياء الشيطان، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام:١٢٨].

قال المصنف رحمه الله تعالى: (**روى مسلم في صحيحه عن بعض أزواج النبي ﷺ عن النبي ﷺ قال: «من أتى عرافًا فسأله عن شيء، فصدقه بما يقول، لم تقبل له صلاة أربعين يومًا»** [(١)]).

ش: قوله: (عن بعض أزواج النبي ﷺ) هي حفصة، ذكره أبو مسعود الثقفي. لأنه ذكر هذا الحديث في الأطراف في مسندها.

قوله: (من أتى عرافًا) سيأتي بيان العراف إن شاء الله تعالى. وظاهر هذا الحديث

(١) رواه مسلم (٢٢٣٠) في السلام بدون قوله: (فصدّقه بما يقول) والحديث عند أحمد كاملاً في المسند (٦٨/٤) و (٣٨٠/٥).

أن الوعيد مرتب على مجيئه وسؤاله، سواء صدقه أو شك في خبره. فإن في بعض روايات الصحيح **«من أتى عرافًا فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة»** (١).

قوله: (لم تقبل له صلاة) إذا كانت هذه حال السائل، فكيف بالمسئول؟ قال النووي وغيره: معناه أنه لا ثواب له فيها، وإن كانت مجزئة بسقوط الفرض عنه، ولابد من هذا التأويل في هذا الحديث، فإن العلماء متفقون على أنه لا يلزم من أتى العراف إعادة صلاة أربعين ليلة. اهـ ملخصًا.

وفي الحديث النهي عن إتيان الكاهن ونحوه.

قال القرطبي: يجب على من قدر على ذلك من محتسب وغيره أن يقيم من يتعاطى شيئًا من ذلك من الأسواق وينكر عليهم أشد النكير، وعلى من يجيء إليهم، ولا يغتر بصدقهم في بعض الأمور ولا بكثرة من يجيء إليهم ممن ينتسب إلى العلم، فإنهم غير راسخين في العلم بل من الجهال بما في إتيانهم من المحذور.

قال المصنف رحمه الله تعالى:(وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «من أتى كاهنًا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ» رواه أبو داود).

ش: وفي رواية أبي داود: **«أو أتى امرأة - قال مسدد: امرأته حائضًا - أو أتى امرأة. قال مسدد: امرأته في دبرها - فقد برئ مما أنزل على محمد ﷺ»** (٢) فناقل هذا الحديث من السنن حذف منه هذه الجملة واقتصر على ما يناسب الترجمة.

قال المصنف رحمه الله تعالى:(وللأربعة والحاكم - وقال صحيح على شرطهما عن النبي ﷺ من أتى عرافًا أو كاهنًا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ) (٣).

ش: هكذا بيض المصنف لاسم الراوي. وقد رواه أحمد والبيهقي والحاكم عن

---

(١) رواه مسلم (٢٢٣٠) في السلام بدون قوله: (فصدقه بما يقول) والحديث عند أحمد كاملًا في المسند (٤/ ٦٨) و (٥/ ٣٨٠).

(٢) **صحيح الإسناد**: الترمذي (١٣٥) في الطهارة، أبو داود (٣٩٠٤) في الطب وصححه الألباني في الموضعين - ط - الرياض.

(٣) **صحيح**: أحمد (٢/ ٤٢٩)، الحاكم (١/ ٨) وصححه ووافقه الذهبي.

أبي هريرة مرفوعًا .

قوله : (من أتى كاهنًا) قال بعضهم لا تعارض بين هذا وبين حديث **«من أتى عرافًا فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة»** هذا على قول من يقول : هو كفر دون كفر ، أما على قول من يقول بظاهر الحديث فيسأل عن وجه الجمع بين الحديثين .

وظاهر الحديث : أنه يكفر متى اعتقد صدقه بأي وجه كان . وكان غالب الكهان قبل النبوة إنما كانوا يأخذون عن الشياطين .

قوله : (فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ) قال القرطبي : المراد بالمنزل الكتاب والسنة . ا هـ . وهل الكفر في هذا الموضع كفر دون كفر ، فلا ينقل عن الملة ، أم يتوقف فيه ، فلا يقال : يخرج عن الملة ولا يخرج؟ وهذا أشهر الروايتين عن أحمد رحمه الله تعالى .

قال المصنف رحمه الله تعالى: (ولأبي يعلى بسند جيد عن ابن مسعود مثله موقوفًا) [(١)].

ش: أبو يعلى اسمه أحمد بن علي بن المثنى الموصلي الإمام صاحب التصانيف كالمسند وغيره . روى عن يحيى بن معين وأبي خيثمة وأبى بكر بن أبي شيبة وخلق . وكان من الأئمة الحفاظ ، مات سنة سبع وثلاثمائة .

وهذا الأثر رواه البزار أيضًا ولفظه : **«من أتى كاهنًا أو ساحرًا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ»** [(٢)].

وفيه دليل على كفر الكاهن والساحر لأنهما يدعيان علم الغيب وذلك كفر ، والمصدق لهما يعتقد ذلك ويرضى به وذلك كفر أيضًا .

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وعن عمران بن حصين رضي الله عنه مرفوعًا «ليس منا من تَطير أو تُطير له ، أو تَكهن أو تُكهن له ، أو سَحر أو سُحر له . ومن أتى كاهنًا فصدقه

(١) **صحيح موقوفًا** : رواه المنذري (٤/ ٣١) في الترغيب . وقال : رواه البزار ، وأبو يعلى ، بإسناد جيد موقوفًا . وقال الحافظ (١٠/ ٢١٧) في الفتح : إسناده جيد ومثله لا يقال بالرأي .

(٢) رواه البزار (٣/ ٣٩٩ - ٤٠٠) وفي إسناده ضعف .

بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ» رواه البزار بإسناد جيد [١] .

ورواه الطبراني في الأوسط بإسناد حسن من حديث ابن عباس دون قوله : ومن أتى كاهنًا . . . .) الحديث [٢] .

ش: قوله : (ليس منا) فيه وعيد شديد يدل على أن هذه الأمور من الكبائر وتقدم أن الكهانة والسحر كفر .

قوله : (من تَطير) أي فعل الطيرة (أو تطير له) أي قبل قول المتطير له وتابعه وكذا معنى (أو تكهن أو تُكهن له) كالذي يأتي الكاهن ويصدقه ويتابعه ، وكذلك من عمل الساحر له السحر .

فكل من تلقى هذه الأمور عمن تعاطاها فقد برئ منه رسول الله ﷺ لكونها إما شركًا ، كالطيرة ، أو كفرًا كالكهانة والسحر ، فمن رضي بذلك وتابع عليه فهو كالفاعل لقبوله الباطل واتباعه .

قوله : (رواه البزار) هو أحمد بن عمرو بن عبد الخالق ، أبو بكر البزار البصري صاحب المسند الكبير . وروى عن ابن بشار وابن المثنى وخلق ، مات سنة اثنتين وتسعين ومائتين .

قال المصنف رحمه الله تعالى: (قال البغوي : العراف : الذي يدعي معرفة الأمور بمقدِّمات يستدل بها على المسروق ومكان الضالة ، ونحو ذلك .

وقيل : هو الكاهن . والكاهن : هو الذي يُخبر عن المغيبات في المستقبل . وقيل : الذي يُخبر عما في الضمير .

وقال أبو العباس ابن تيمية : العرَّاف : اسم للكاهن والمنجم والرَّمَّال ونحوهم ، وممن يتكلم في معرفة الأمور بهذه الطرق) .

---

(١) **قال الهيثمي (٥/ ١١٧):** رواه البزار ورجاله رجال الصحيح خلا إسحاق بن الربيع وهو ثقة ، وانظر التخريج التالي .

(٢) **قال الهيثمي (٥/ ١٧٥):** رواه الطبراني في الأوسط ، وفيه زمعة بن صالح وهو ضعيف . قلت : وبهذا يحسن الأثر السابق .

ش: البَغَوي- بفتحتين - هو الحسين بن مسعود بن الفرّاء الشافعي، صاحب التصانيف، عالم أهل خراسان. كان ثقة فقيهًا زاهدًا. مات في شوال سنة ست عشرة وخمسمائة.

قوله: (العرَّاف: الذى يدعي معرفة الأمور). ظاهره، أن العراف: الذي يُخبر عن الواقع كالسرقة وسارقها، والضالة ومكانها.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: إن العراف اسم للكاهن والمنجم والرمال ونحوهم، كالحازر الذي يدعى علم الغيب أو يدعى الكشف.

وقال أيضًا: والمنجم يدخل في اسم العراف، وعند بعضهم هو معناه.

وقال أيضًا: والمنجم يدخل في اسم الكاهن عند الخطابي وغيره من العلماء، وحكى ذلك عن العرب.

وعند آخرين: هو من جنس الكاهن، وأسوأ حالاً منه، فيلحق به من جهة المعنى.

وقال الإمام أحمد: العرافة: طرف من السحر. والساحر أخبث.

وقال أبو السعادات: العراف المنجم، والحازر الذي يدعى علم الغيب، وقد استأثر الله تعالى به.

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى: من اشتهر بإحسان الزجر عندهم سموه عائفًا، وعرافًا.

والمقصود من هذا: معرفة أن من يدعى معرفة علم الشيء من المغيبات فهو إما داخل في اسم الكاهن، وإما مشارك له في المعنى فيلحق به. وذلك أن إصابة المخبر ببعض الأمور الغائبة في بعض الأحيان يكون بالكشف. ومنه ما هو من الشياطين ويكون بالفأل والزجر والطيرة والضرب بالحصى والخط في الأرض والتنجيم والكهانة والسحر، ونحو هذا من علوم الجاهلية.

ونعنى بالجاهلية كل من ليس من أتباع الرسل عليهم السلام، كالفلاسفة والكهان والمنجمين، وجاهلية العرب الذين كانوا قبل مبعث النبي ﷺ، فإن هذه علوم القوم ليس لهم علم بما جاءت به الرسل عليهم السلام.

وكل هذه الأمور يسمى صاحبها كاهنًا أو عرافًا أو في معناهما، فمن أتاهم فصدقهم بما يقولون لحقه الوعيد. وقد ورث هذه العلوم عنهم أقوام فادعوا بها علم الغيب الذي استأثر الله بعلمه، وادعوا أنهم أولياء وأن ذلك كرامة!!

ولا ريب أن من ادعى الولاية، واستدل بإخباره ببعض المغيبات فهو من أولياء الشيطان لا من أولياء الرحمن، إذ الكرامة أمر يجريه الله على يد عبده المؤمن التقى، إما بدعاء أو أعمال صالحة لا صنع للولي فيها، ولا قدرة له عليها، بخلاف من يدعى أنه ولي ويقول للناس: اعلموا أني أعلم المغيبات، فإن هذه الأمور قد تحصل بما ذكرنا من الأسباب، وإن كانت أسبابًا محرمة كاذبة في الغالب، ولهذا قال النبي ﷺ في وصف الكهان: «**فيكذبون معها مائة كذبة**» (١) فبين أنهم يصدقون مرة ويكذبون مائة.

وهكذا حال من سلك سبيل الكهان ممن يدعى الولاية والعلم بما في ضمائر الناس، مع أن نفس دعواه دليل على كذبه؛ لأن في دعواه الولاية تزكية النفس المنهي عنها بقوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ [النجم: ٣٢] وليس هذا من شأن الأولياء، فإن شأنهم الإزراء على نفوسهم وعيبهم لها، وخوفهم من ربهم، فكيف يأتون الناس ويقولون: اعرفوا أننا أولياء، وأنا نعلم الغيب؟ وفي ضمن ذلك طلب المنزلة في قلوب الخلق واقتناص الدنيا بهذه الأمور.

وحسبك بحال الصحابة والتابعين رضي الله عنهم، وهم سادات الأولياء، أفكان عندهم من هذه الدعاوى والشطحات شيء؟ لا والله بل كان أحدهم لا يملك نفسه من البكاء إذا قرأ القرآن، كالصديق رضي الله عنه (٢)، وكان عمر رضي الله عنه يسمع نشيجه من وراء الصفوف يبكي في صلاته (٣)، وكان يمر بالآية في ورده من الليل فيمرض منها ليالي يعودونه (٤)، وكان تميم الداري يتقلب على فراشه ولا يستطيع النوم إلا قليلاً خوفًا من النار ثم يقوم إلى صلاته!

---

(١) سبق تخريجه في الصحيحين.

(٢) وهذا مروي في البخاري (٧١٦) ومسلم (٤١٨) عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

(٣) رواه البخاري معلقًا (٢/ ٢٠٦) وصححه ابن حجر.

(٤) هذا مروي في الحلية (١/ ٥١) من طريق هشام عن الحسن، وهشام لم يسمع من الحسن والحسن لم يسمع من عمر ولم يره.

ويكفيك في صفات الأولياء ما ذكره الله تعالى في صفاتهم في سورة الرعد والمؤمنون والفرقان والذاريات والطور فالمتصفون بتلك الصفات هم الأولياء الأصفياء، لا أهل الدعوى والكذب ومنازعة رب العالمين فيما اختص به من الكبرياء والعظمة وعلم الغيب، بل مجرد دعواه علم الغيب كفر.

فكيف يكون المدعي لذلك وليًّا لله؟ ولقد عظم الضرر واشتد الخطب بهؤلاء المفترين الذين ورثوا هذه العلوم عن المشركين، ولَبَّسوا بها على خفافيش القلوب نسأل الله السلامة والعافية في الدنيا والآخرة.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وقال ابن عباس في قوم يكتبون أبا جاد، وينظرون في النجوم[١] ما أرى مَن فعلَ ذلك له عند الله من خلاق).

ش: هذا الأثر رواه الطبراني عن ابن عباس مرفوعًا. وإسناده ضعيف. ولفظه «**رب معلم حروف أبي جاد دارس في النجوم ليس له عند الله خلاق يوم القيامة**» ورواه حميد بن زنجويه عنه بلفظ: «**رب ناظر في النجوم ومتعلم حروف أبي جاد ليس له عند الله خلاق**».

قوله: (ما أرى) يجوز فتح الهمزة بمعنى: لا أعلم. ويجوز ضمها بمعنى: لا أظن وكتابة أبي جاد وتعلمها لمن يدعى بها علم الغيب هو الذي يسمى علم الحرف، وهو الذي جاء فيه الوعيد، فأما تعلمها للتهجي وحساب الجمل فلا بأس به.

قوله: (وينظرون في النجوم) أي يعتقدون أن لها تأثيرًا كما سيأتي في باب التنجيم. وفيه من الفوائد عدم الاغترار بما يؤتاه أهل الباطل من معارفهم وعلومهم كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [غافر: ٨٣].



(١) صحيح موقوفًا: عبد الرزاق (١١/ ٢٦) في المصنف، ابن أبي شيبة (٨/ ٤١٤) في المصنف.

(٢٦)



ما جاء في النشرة، وما هي النشرة

قال المصنف رحمه الله تعالى: (باب: ما جاء في النشرة).

ش: بضم النون، كما في القاموس، قال أبو السعادات: النشرة ضرب من العلاج والرقية، يعالج به من يظن أن به مسًّا من الجن، سميت نشرة لأنه ينشر بها عنه ما خامره من الداء، أي يكشف ويزال.

قال الحسن: النشرة من السحر [(١)]. وقد نشرت عنه تنشيرًا، ومنه الحديث: «فلعل طبًّا أصابه» [(٢)]، ثم نشره بـ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ١] أي: رقاه.

وقال ابن الجوزي: النشرة: حل السحر عن المسحور. ولا يكاد يقدر عليه إلا من يعرف السحر.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (عن جابر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ سئل عن النشرة؟ فقال: «هي من الشيطان» [(٣)] رواه أحمد بسند جيد. وأبو داود وقال: سئل أحمد عنها فقال: ابن مسعود يكره هذا كله).

ش: هذا الحديث رواه أحمد ورواه عنه أبو داود في سننه. والفضل بن زياد في كتاب المسائل عن عبد الرزاق عن عقيل بن معقل بن منبه عن جابر فذكره قال ابن

---

(١) هذا مروي بسند (واهٍ جدًّا) عن الحسن، وكذلك قال الخطابي (٤/ ٢٠٤) في معالم السنن وأعله بـ(عبد الله بن شبيب) وكذلك رواه في عون المعبود (١٠/ ٢٤٩).

(٢) **صحيح:** سبق تخريجه.

(٣) **صحيح الإسناد:** أبو داود (٣٨٦٨) في الطب وصححه الألباني (٤٥٥٣) في المشكاة.

مفلح : إسناده جيد ، وحَسَّن الحافظ إسناده .

قوله : (سئل عن النشرة) والألف واللام في النشرة للعهد أي النشرة المعهودة التي كان أهل الجاهلية يصنعونها هي من عمل الشيطان .

قوله : (وقال : سئل أحمد عنها فقال : ابن مسعود يكره هذا كله) أراد أحمد رحمه الله أن ابن مسعود يكره النشرة التي هي من عمل الشيطان كما يكره تعليق التمائم مطلقًا [١] .

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وللبخاري عن قتادة : قلت لابن المسيب : رجل به طب أو يؤخذ عن امرأته أيحل عنه، أو ينشر؟ قال : لا بأس به : إنما يريدون به الإصلاح فأما ما ينفع فلم ينه عنه) [٢] .

ش: قوله : (عن قتادة) هو ابن دعامة - بكسر الدال - الدوسي ثقة فقيه من أحفظ التابعين . قالوا : إنه ولد أكمه . مات سنة بضع عشرة ومائة .

قوله : (رجل به طب) بكسر الطاء . أي سحر ، يقال : طُب الرجل - بالضم - إذا سحر . ويقال : كنوا عن السحر بالطب تفاؤلاً . كما يقال للديغ : سليم .

وقال ابن الأنباري : الطب من الأضداد . يقال لعلاج الداء طب ، والسحر من الداء يقال له طب .

قوله : (يؤخذ) بفتح الواو مهموزة وتشديد الخاء المعجمة وبعدها ذال معجمة . أي يحبس عن امرأته ولا يصل إلى جماعها . والأخذ - بضم الهمزة - الكلام الذي يقوله الساحر .

قوله : (أيحل) بضم الياء وفتح الحاء مبنى للمفعول .

قوله : (أو ينشر) بتشديد المعجمة .

---

(١) وهذا مما ذكره المصنف في روايته عن أبي داود - رحمه الله - وسبق تخريجه .

(٢) صحيح الإسناد: البخاري باب (٤٩) من كتاب الطب - ووصله الحافظ في الفتح (١٠/ ٢٣٣) وعزاه الطبراني في تهذيب الآثار، وللأثرم في سننه بسند صحيح من طريق قتادة.

قوله: (لا بأس به) يعني أن النشرة لا بأس بها لأنهم يريدون بها الإصلاح، أي إزالة السحر، ولم ينه عما يراد به الإصلاح، وهذا من ابن المسيب يحمل على نوع من النشرة لا يعلم أنه سحر.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وروى الحسن أنه قال: لا يحل السحر إلا ساحر) (١).

ش: هذا الأثر ذكره ابن الجوزي في جامع المسانيد.

والحسن: هو ابن أبي الحسن واسمه: يسار - بالتحتية والمهملة - البصري الأنصاري. مولاهم. ثقة فقيه، إمام من خيار التابعين. مات سنة عشر ومائة رحمه الله، وقد قارب التسعين.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (قال ابن القيم: النشرة حل السحر عن المسحور، وهي نوعان:

أحدهما: حل بسحر مثله، وهو الذي من عمل الشيطان، وعليه يُحمل قول الحسن، فيتقرب الناشرُ والمنتشر إلى الشيطان بما يُحب، فيبطل عملُه عن المسحور.

والثاني: النُّشرة بالرُّقية والتعوذات والأدوية والدعوات المباحة، فهذا جائز).

ش: ومما جاء في صفة النشرة الجائزة: ما رواه ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ليث بن أبي سليم قال: بلغني أن هؤلاء الآيات شفاء من السحر بإذن الله، تقرأ في إناء فيه ماء، ثم يصب على رأس المسحور: الآية التي في سورة يونس: ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس: ٨١-٨٢] وقوله: ﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١١٨] إلى آخر الآيات الأربع. وقوله: ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٩].

وقال ابن بطال: في كتاب وهب بن منبه: أنه يأخذ سبع ورقات من سدر أخضر فيدقه بين حجرين ثم يضربه بالماء ويقرأ فيه آية الكرسي والقواقل ثم يحسو منه ثلاث

---

(١) هكذا رواه الحافظ في الفتح (١٠/ ٢٣٣) وعزاه للطبري في (تهذيب الآثار) بلفظ (لا يعلم ذلك إلا ساحر) وطريقه صحيح حيث رواه يزيد بن زريع عن قتادة عن الحسن.

حسوات ثم يغتسل به يذهب عنه كل ما به، وهو جيد للرجل إذا حبس عن أهله.

قلت: قول العلامة ابن القيم: (والثاني النشرة بالرقية والتعوذات والدعوات والأدوية المباحة فهو جائز) يشير رحمه الله إلى مثل هذا، وعليه يحمل كلام من أجاز النشرة من العلماء.

والحاصل: أن ما كان منه بالسحر فيحرم، وما كان بالقرآن والدعوات والأدوية المباحة فجائز والله أعلم.



(٢٧)



ما جاء في التطير

قال المصنف رحمه الله تعالى: (باب: ما جاء في التطير).

ش: أي من النهي عنه والوعيد فيه، مصدر تطير يتطير، والطيرة بكسر الطاء وفتح الياء، وقد تسكن اسم مصدر من تطير طيرة، كما يقال: تخير خيرة، ولم يجئ في المصادر على هذه الزنة غيرهما، وأصله: التطير بالسوانح والبوارح من الطير والظباء وغيرهما، وكان ذلك يصدهم عن مقاصدهم، فنفاه الشارع وأبطله، وأخبر أنه لا تأثير له في جلب نفع ولا دفع ضر.

قال المدائني سألت رؤبة بن العجاج قلت: ما السانح؟ قال: ما ولاك ميامنه. قلت: فما البارح؟ قال: ما ولاك مياسره. والذي يجيء من أمامك فهو الناطح والنطيح، والذي يجيء من خلفك فهو القاعد والقعيد.

ولما كانت الطيرة من الشرك المنافي لكمال التوحيد الواجب لكونها من إلقاء الشيطان وتخويفه ووسوسته ذكرها المصنف رحمه الله في كتاب التوحيد تحذيرًا مما ينافي كمال التوحيد الواجب.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وقول الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٣١])

ش: ذكر تعالى هذه الآية في سياق قوله: ﴿فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ﴾ [الأعراف: ١٣١] الآية.

المعنى: أن آل فرعون كانوا إذا أصابتهم الحسنة، أي الخصب والسعة والعافية،

كما فسره مجاهد وغيره [(١)] - قالوا: لنا هذه، أي نحن الجديرون والحقيقيون به، ونحن أهله. وإن تصبهم سيئة. أي بلاء وقحط تطيروا بموسى ومن معه، فيقولون: هذا بسبب موسى وأصحابه أصابنا بشؤمهم فقال الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ١٣١].

قال ابن عباس ﴿طَٰٓئِرُهُمْ﴾: ما قضى عليهم وقدر لهم، وفي رواية شؤمهم عند الله ومن قِبَله أي إنما جاءهم الشؤم من قبله بكفرهم وتكذيبهم بآياته ورسله [(٢)].

قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي أن أكثرهم جهال لا يدرون. ولو فهموا وعقلوا لعلموا أنه ليس فيما جاء به موسى عليه السلام إلا الخير والبركة والسعادة والفلاح لمن آمن به واتبعه.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (**وقوله تعالى**: ﴿قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ ۚ أَئِن ذُكِّرْتُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [يس: ١٩])

ش: المعنى - والله أعلم - حظكم وما نابكم من شر معكم، بسبب أفعالكم وكفركم ومخالفتكم الناصحين، ليس هو من أجلنا ولا بسببنا. بل ببغيكم وعدوانكم. فطائر الباغي الظالم معه، فما وقع به من الشر فهو سببه الجالب له. وذلك بقضاء الله وقدره وحكمته وعدله، كما قال تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ۝٣٥ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٥-٣٦].

ويحتمل أن يكون المعنى: طائركم معكم. أي راجع عليكم، فالتطير الذي حصل لكم إنما يعود عليكم. وهذا من باب القصاص في الكلام. ونظيره قوله عليه الصلاة والسلام: «**إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا: وعليكم**» [(٣)] ذكره ابن القيم.

قوله تعالى: ﴿أَئِن ذُكِّرْتُم﴾ أي من أجل أنا ذكرناكم وأمرناكم بتوحيد الله

---

(١) **حسن الإسناد**: الطبري (١٤٩٩٢) ط العلمية.

(٢) **منقطع الإسناد وهو ضعيف**: الطبري (١٤٩٩٥) ط العلمية وفيه سند علي بن أبي طلحة عن ابن عباس وهو سند منقطع وفيه أبو صالح كاتب الليث وهو ضعيف.

(٣) رواه البخاري (٦٢٥٨) في الاستئذان، مسلم (٢١٦٣/٦ - ٧) في السلام عن أنس رضي الله عنه.

قابلتمونا بهذا الكلام ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [الأعراف: ٨١] قال قتادة: أئن ذكرناكم بالله تطيرتم بنا؟ [(١)]

ومناسبة الآيتين للترجمة: أن التطير من عمل أهل الجاهلية والمشركين. وقد ذمهم الله تعالى به ومقتهم، وقد نهى رسول الله ﷺ عن التطير وأخبر أنه شرك. كما سيأتي في أحاديث الباب.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر» أخرجاه [(٢)]**. زاد مسلم: «ولا نوء ولا غول»** [(٣)]**.**

ش: قال أبو السعادات: العدوى اسم من الإعداء. كالدعوى. يقال: أعداه الداء يعديه إعداء إذا أصابه مثل ما بصاحب الداء.

وقال غيره: لا عدوى هو اسم من الإعداء، وهو مجاوزة العلة من صاحبها إلى غيره والمنفي نفس سراية العلة أو إضافتها إلى العلة. والأول هو الظاهر.

وفي رواية لمسلم أن أبا هريرة كان يحدث بحديث لا عدوى، ويحدث عن النبي ﷺ أنه قال: **«لا يورد ممرض على مُصحّ»**.

ثم إن أبا هريرة اقتصر على حديث: **«لا يورد ممرض على مصح»** [(٤)] وأمسك عن حديث **«لا عدوى»** فراجعوه وقالوا: سمعناك تحدث به، فأبى أن يعترف به. قال أبو مسلمة - الراوي عن أبي هريرة: فلا أدري أنسي أبو هريرة أو نسخ أحد القولين الآخر؟

وقد روى حديث «لا عدوى» جماعة من الصحابة: أنس بن مالك [(٥)]، وجابر بن

---

(١) صحيح إلى قتادة: الطبري (٢٩٠٩٢) ط العلمية.

(٢) رواه البخاري (٥٧٥٧) في الطب، مسلم (٢٢٢٠) في السلام.

(٣) رواه مسلم (٢٢٢٠/ ١٠٧) في السلام، وعن جابر رضي الله عنه (٢٢٢٢) في السلام بزيادة (ولا نوء).

(٤) رواه مسلم (٢٢٢١) في السلام.

(٥) رواه البخاري (٥٧٥٦) في الطب، مسلم (٢٢٢٤) في السلام.

عبد الله [١]، والسائب بن يزيد [٢]، وابن عمر [٣]، وغيرهم [٤]، وفي بعض روايات هذا الحديث **«وفر من المجذوم كما تفر من الأسد»** [٥].

وقد اختلف العلماء في ذلك. وأحسن ما قيل فيه: قول البيهقي، وتبعه ابن الصلاح وابن القيم، وابن رجب، وابن مفلح وغيرهم: أن قوله: **«لا عدوى»** على الوجه الذي يعتقده أهل الجاهلية من إضافة الفعل إلى غير الله تعالى، وأن هذه الأمور تعدى بطبعها. وإلا فقد يجعل الله بمشيئته مخالطة الصحيح من به شيء من الأمراض سببًا لحدوث ذلك، ولهذا قال: **«فر من المجذوم كما تفر من الأسد»** وقال: **«لا يورد ممرض على مصح»** وقال في الطاعون: **«من سمع به في أرض فلا يقدم عليه»** [٦] وكل ذلك بتقدير الله تعالى.

ولأحمد والترمذي عن ابن مسعود مرفوعًا: **«لا يعدي شيء»** قالها ثلاثًا فقال أعرابي: يا رسول الله إن النقبة من الجرب تكون بمشفر البعير أو بذنبه في الإبل العظيمة فتجرب كلها؟ فقال رسول الله ﷺ: **«فمن أجرب الأول؟ لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر، خلق الله كل نفس وكتب حياتها ومصائبها ورزقها»** [٧].

فأخبر ﷺ أن ذلك كله بقضاء الله وقدره، والعبد مأمور باتقاء أسباب الشر إذا كان في عافية. فكما أنه يؤمر أن لا يلقى نفسه في الماء وفى النار، مما جرت العادة أنه يهلك أو يضر. فكذلك اجتناب مقاربة المريض كالمجذوم، والقدوم على بلد الطاعون. فإن هذه كلها أسباب للمرض والتلف، فالله سبحانه هو خالق الأسباب ومسبباتها. لا خالق غيره ولا مقدر غيره.

---

(١) رواه مسلم (٢٢٢٢) في السلام.
(٢) رواه مسلم (٢٢٢٠) في السلام.
(٣) رواه البخاري (٥٧٧٢) في الطب، مسلم (٢٢٢٥) في السلام.
(٤) رواه أحمد (١/ ٢٦٩) في المسند عن ابن عباس.
(٥) علقه البخاري (٥٧٠٧)، ووصله الحافظ (١/ ١٥٨) في الفتح من طريق أبي داود الطيالسي.
(٦) رواه البخاري (٥٧٢٩) في الطب، مسلم (٢٢١٩) في الطب عن عبد الرحمن بن عوف، والبخاري (٥٧٢٨) في الطب، مسلم (٢٢١٨) في السلام عن أسامة بن زيد.
(٧) صحيح الإسناد: أحمد (٢/ ٣٢٧) في المسند، الترمذي (٢١٤٣) وصححه الألباني هناك.

وأما إذا قوى التوكل على الله والإيمان بقضاء الله وقدره فقويت النفس على مباشرة بعض هذه الأسباب اعتمادًا على الله ورجاء منه أن لا يحصل به ضرر، ففي هذه الحال تجوز مباشرة ذلك، لاسيما إذا كانت مصلحة عامة أو خاصة.

وعلى هذا يحمل الحديث الذي رواه أبو داود والترمذي: أن النبي ﷺ أخذ بيد مجذوم فأدخلها معه في القصعة، ثم قال: «**كل بسم الله ثقة بالله وتوكلاً عليه**»[١] وقد أخذ به الإمام أحمد. وروى ذلك عن ابن عمر[٢] وابنه[٣] وسلمان[٤] رضي الله عنهم.

ونظير ذلك ما روى عن خالد بن الوليد رضي الله عنه أنه أكل السم[٥] ومنه مشى سعد بن أبي وقاص وأبي مسلم الخولاني على متن البحر، قاله ابن رجب رحمه الله.

قوله: (ولا طيرة) قال ابن القيم رحمه الله تعالى: يحتمل أن يكون نفيًا أو نهيًا أي لا تطيروا، ولكن قوله في الحديث: «**لا عدوي ولا صفر ولا هامة**» يدل على أن المراد النفي وإبطال هذه الأمور التي كانت الجاهلية تعانيها. والنفي في هذا أبلغ من النهي؛ لأن النفي يدل على بطلان ذلك وعدم تأثيره، والنهي إنما يدل على المنع منه.

وفي صحيح مسلم عن معاوية بن الحكم أنه قال لرسول الله ﷺ «**ومنا أناس يتطيرون. قال: ذلك شيء يجده أحدكم في نفسه فلا يصدنكم**» فأخبر أن تأذيه وتشاؤمه بالطيرة إنما هو في نفسه وعقيدته، لا في المتطير به، فوهمه وخوفه وإشراكه هو الذي يطيره ويصده لا ما رآه وسمعه.

فأوضح ﷺ لأمته الأمر، وبين لهم فساد الطيرة ليعلموا أن الله سبحانه لم يجعل

---

(١) **ضعيف:** الترمذي (١٨١٧) في الأطعمة وضعفه الألباني، وكذا ضعفه الترمذي من جهة المفضل بن فضالة.

(٢) **حسن الإسناد:** التهذيب (٧٥) وطبقات ابن سعد (٤/ ١١٧).

(٣) **وهو ضعيف:** كذا قال صاحب النهج السديد، وعزاه للطبري في التهذيب (٨١ - ٨٢).

(٤) **ضعيف:** أبو نعيم (١/ ٢٠٠) في الحلية، وهو جيد إن صح سماع عبد الله بن بريدة من سلمان رضي الله عنه.

(٥) **صحيح:** ابن أبي شيبة (١٥٥٧٧) في المصنف، وصححه العدوي - حفظه الله - في فضائل الصحابة.

لهم عليها علامة، ولا فيها دلالة، ولا نصبها سببًا لما يخافونه ويحذرونه، ولتطمئن قلوبهم، وتسكن نفوسهم إلى وحدانيته تعالى التي أرسل بها رسله، وأنزل بها كتبه، وخلق لأجلها السماوات والأرض، وعمر الدارين الجنة والنار بسبب التوحيد فقطع ﷺ علق الشرك في قلوبهم، لئلا يبقى فيها علقة منها، ولا يتلبسوا بعمل من أعمال أهل النار ألبتة.

فمن استمسك بعروة التوحيد الوثقى، واعتصم بحبله المتين، وتوكل على الله، قطع هاجس الطيرة من قبل استقرارها، وبادر خواطرها من قبل استمكانها.

قال عكرمة: كنا جلوسًا عند ابن عباس، فمر طائر يصيح، فقال رجل من القوم: خير خير. فقال له ابن عباس: لا خير ولا شر [(١)]. فبادره بالإنكار عليه لئلا يعتقد تأثيره في الخير والشر.

وخرج طاوس مع صاحب له في سفر، فصاح غراب، فقال الرجل: خير. فقال طاوس: وأي خير عند هذا؟ لا تصحبني [(٢)]. اهـ ملخصًا.

وقد جاءت أحاديث ظن بعض الناس أنها تدل على جواز الطيرة، كقوله ﷺ: **«الشؤم في ثلاث: في المرأة، والدابة، والدار»** [(٣)] ونحو هذا.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: إخباره ﷺ بالشؤم في هذه الثلاثة ليس فيه إثبات الطيرة التي نفاها الله سبحانه، وإنما غايته أن الله سبحانه قد يخلق منها أعيانًا مشئومة على من قاربها وساكنها، وأعيانًا مباركة لا يلحق من قاربها شؤم ولا شر.

وهذا كما يعطي سبحانه الوالدين ولدًا مباركًا يريان الخير على وجهه، ويعطي غيرهما ولدًا مشئومًا يريان الشر على وجهه، وكذلك ما يعطاه العبد من ولاية وغيرها، فكذلك الدار والمرأة والفرس.

والله سبحانه خالق الخير والشر والسعود والنحوس، فيخلق بعض هذه الأعيان

---

(١) عزاه الحافظ (١٠/ ٢١٥) في الفتح للطبري.

(٢) صحيح الإسناد: عبد الرزاق (١٩٥١٣) في المصنف.

(٣) رواه البخاري (٢٨٥٨) في الجهاد، مسلم (٢٢٢٥) في السلام عن ابن عمر رضي الله عنهما.

سعودًا مباركة، ويقضي بسعادة من قاربها وحصول اليُمن والبركة له. ويخلق بعضها نحوسًا يتنحس بها من قاربها.

وكل ذلك بقضائه وقدره، كما خلق سائر الأسباب وربطها بمسبباتها المتضادة والمختلفة. كما خلق المسك وغيره من الأرواح الطيبة ولذذ بها من قاربها من الناس. وخلق ضدها وجعلها سببًا لألم من قاربها من الناس.

والفرق بين هذين النوعين مدرك بالحس، فكذلك في الديار والنساء والخيل. فهذا لون والطيرة الشركية لون. انتهى.

قوله: (ولا هامة) بتخفيف الميم على الصحيح. قال الفراء: الهامة طير من طير الليل. كأنه يعني البومة.

قال ابن الأعرابي: كانوا يتشاءمون بها إذا وقعت على بيت أحدهم، يقول: نعت إلى نفسي أو أحدًا من أهل داري، فجاء الحديث بنفي ذلك وإبطاله.

قوله: (ولا صفر) بفتح الفاء، روى أبو عبيدة في غريب الحديث عن رؤبة أنه قال: هي حية تكون في البطن تصيب الماشية والناس، وهي أعدى من الجرب عند العرب!

وعلى هذا فالمراد بنفيه ما كانوا يعتقدونه من العدوى وممن قال بهذا سفيان بن عيينة والإمام أحمد والبخاري وابن جرير.

وقال آخرون: المراد به شهر صفر، والنفي لما كان أهل الجاهلية يفعلونه في النسيء وكانوا يحلون المحرم ويحرمون صفر مكانه، وهو قول مالك.

وروى أبو داود عن محمد بن راشد عمن سمعه يقول: إن أهل الجاهلية يتشاءمون بصفر، ويقولون: إنه مشئوم، فأبطل النبي ﷺ ذلك.

قال ابن رجب: ولعل هذا القول أشبه الأقوال، والتشاؤم بصفر هو من جنس الطيرة المنهي عنها، وكذلك التشاؤم بيوم من الأيام كيوم الأربعاء وتشاؤم أهل الجاهلية بشوال في النكاح فيه خاصة.

قوله: (ولا نوء) النوء واحد الأنواء، وسيأتي الكلام عليه في بابه إن شاء الله تعالى.

قوله: (ولا غول) هو بالضم اسم، وجمعه أغوال وغيلان، وهو المراد هنا.

قال أبو السعادات: الغول واحد الغيلان، وهو جنس من الجن والشياطين.

كانت العرب تزعم أن الغول في الفلاة تتراءى للناس، تتلون تلونًا في صور شتى وتغولهم، أي تضلهم عن الطريق وتهلكهم، فنفاه النبي ﷺ وأبطله.

فيكون المعنى بقوله: **«لا غول»** أنها لا تستطيع أن تُضل أحدًا مع ذكر الله والتوكل عليه. ويشهد له الحديث الآخر: **«لا غُول ولكن السَّعالي»**[1] [السعالي][2]: سحرة الجن. أي: ولكن في الجن سحرة لهم تلبيس وتخييل.

ومنه الحديث **«إذا تغولت الغيلان فبادروا بالأذان»**[3] أي ادفعوا شرها بذكر الله. وهذا يدل على أنه لم يرد بنفيها عدمها.

ومنه حديث أبي أيوب (كان لي تمر في سهوة فكانت الغول تجيء فتأخذ)[4].

قال المصنف رحمه الله تعالى: (ولهما عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لا عدوى ولا طيرة، ويعجبني الفأل»، قالوا: وما الفأل؟ قال: «الكلمة الطيبة»[5]**)**.

ش: قوله: (ويعجبني الفأل) قال أبو السعادات: الفأل، مهموز فيما يسر ويسوء، والطيرة لا تكون إلا فيما يسوء، وربما استعملت فيما يسر. يقال: تفاءلت بكذا

---

(١) مرسل: الخطابي (١/ ٤٤٦) في غريب الحديث، وهو موقوف على ابن عمر كما عند عبد الرزّاق (٥/ ١٦٢).

(٢) انظر النهاية (٣/ ٣٩٦) لابن الأثير، والغريب (١/ ٤٤٦) للخطابي والفائق (٢/ ٣٩٩) للزمخشري.

(٣) ضعيف: جزء من حديث رواه ابن السني (٥٢٣) في عمل اليوم والليلة - بترقيمي - وهو عن هشام عن الحسن عن جابر والحسن لم يسمع من جابر، ورواه البزار عن الحسن عن سعد، والحسن لا يعلم له سماع من سعد وانظر الفتوحات الربانية (٥/ ١٦١).

(٤) صحيح: الترمذي (٢٨٨٠) في ثواب القرآن وصححه الألباني.
وسهوة: كل ما كان بين حائطين كما في اللسان (٦/ ١٣٧).

(٥) رواه البخاري (٥٧٧٦) في الطب، ومسلم (٢٢٢٤) في السلام.

وتفاولت، على التخفيف والقلب، وقد أولع الناس بترك الهمزة تخفيفًا، وإنما أحب الفأل لأن الناس إذا أملوا فائدة الله ورجوا عائدته عند كل سبب ضعيف أو قوى فهم على خير، وإذا قطعوا آمالهم ورجاءهم من الله تعالى كان ذلك من الشر.

وأما الطيرة: فإن فيها سوء الظن بالله وتوقع البلاء، والتفاؤل: أن يكون رجل مريض فيسمع آخر يقول: يا سالم، أو يكون طالب ضالة فيسمع آخر يقول: يا واجد، فيقع في ظنه أنه يبرأ من مرضه ويجد ضالته. ومنه الحديث: قيل: يا رسول الله ما الفأل؟ قال: «**الكلمة الطيبة**».

قوله: (قالوا: وما الفأل؟ قال: الكلمة الطيبة) بين ﷺ أن الفأل يعجبه فدل على أنه ليس من الطيرة المنهى عنها.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: ليس في الإعجاب بالفأل ومحبته شيء من الشرك، بل ذلك إبانة عن مقتضى الطبيعة وموجب الفطرة الإنسانية التي تميل إلى ما يوافقها ويلائمها، كما أخبرهم ﷺ أنه حبب إليه من الدنيا النساء والطيب [١]، وكان يحب الحلواء والعسل [٢]، ويحب حسن الصوت بالقرآن والأذان ويستمع إليه [٣] ويحب معالي الأخلاق ومكارم الشيم [٤].

بالجملة يحب كل كمال وخير وما يفضي إليهما، والله سبحانه قد جعل في غرائز الناس الإعجاب بسماع الاسم الحسن ومحبته، وميل نفوسهم إليه، وكذلك جعل فيها الارتياح والاستبشار والسرور باسم الفلاح والسلام والنجاح والتهنئة والبشرى والفوز والظفر ونحو ذلك، فإذا قرعت هذه الأسماء الأسماع استبشرت بها النفوس وانشرح لها الصدر وقوى بها القلب، وإذا سمعت أضدادها أوجب لها ضد هذه الحال.

---

(١) صحيح: سبق تخريجه عن أنس رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري (٥٤٣١) في الأطعمة.

(٣) رواه البخاري (٥٤٠٩) في فضائل القرآن، مسلم (٨٠٠) في صلاة المسافرين عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٤) وفي حديث إسلام أبي ذر (٣٨٦١) عند البخاري، ومسلم (٢٤٧٤) في فضائل الصحابة وقع (...رأيته يحب مكارم الأخلاق...).

فأحزنها ذلك، وأثار لها خوفًا وطيرة وانكماشًا وانقباضًا عما قصدت له وعزمت عليه، فأورث لها ضررًا في الدنيا ونقصًا في الإيمان ومقارفة الشرك.

وقال الحليمي: وإنما كان ﷺ يعجبه الفأل لأن التشاؤم سوء ظن بالله تعالى بغير سبب محقق، والتفاؤل حسن ظن به، والمؤمن مأمور بحسن الظن بالله تعالى على كل حال.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (ولأبي داود بسند صحيح عن عقبة بن عامر قال: ذكرت الطيرة عند رسول الله ﷺ فقال: «أحسنها الفأل، ولا ترد مسلمًا، فإذا رأى أحدكم ما يكره فليقل: اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا أنت ولا حول ولا قوة إلا بك» [١]).

ش: قوله: (عن عقبة بن عامر) هكذا وقع في نسخ التوحيد، وصوابه: عن عروة بن عامر كذا أخرجه أحمد وأبو داود وغيرهما. وهو مكي اختلف في نسبه، فقال أحمد: عن عروة بن عامر القرشي، وقال غيره: الجهني. واختلف في صحبته، فقال الماوردي: له صحبة، وذكره ابن حبان في ثقات التابعين، وقال المزي: لا صحبة له تصح.

قوله: (فقال: أحسنها الفأل) قد تقدم أن النبي ﷺ كان يعجبه الفأل.

وروى الترمذي وصححه عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان إذا خرج لحاجته يحب أن يسمع: يا نجيح، يا راشد [٢].

وروى أبو داود عن بريدة أن النبي ﷺ كان لا يتطير من شيء، وكان إذا بعث عاملاً سأله عن اسمه فإذا أعجبه فرح به، وإن كره اسمه رؤي كراهية ذلك في وجهه [٣] وإسناده حسن. وهذا فيه استعمال الفأل.

(١) **ضعيف الإسناد**: ابن السني (٢٩٣) في عمل اليوم والليلة بترقيمي، وسنده ضعيف، وعروة بن عامر الراوي عن النبي ﷺ قال الحافظ: مختلف في صحبته، وروى عن النبي ﷺ مرسلاً في الطيرة.

(٢) **صحيح الإسناد**: الترمذي (١٦١٦) في السير وصححه الألباني.

(٣) **صحيح**: أبو داود: (٣٩٢٠) في الأدب عن بريدة وصححه الألباني (٧٦٢) في الصحيحة.

قال ابن القيم: أخبر ﷺ أن الفأل من الطيرة وهو خيرها، فأبطل الطيرة وأخبر أن الفأل منها ولكنه خير منها، ففصل بين الفأل والطيرة لما بينهما من الامتياز والتضاد، ونفع أحدهما ومضرة الآخر، ونظير هذا: منعه من الرقي بالشرك وإذنه في الرقية إذا لم يكن فيها شرك، لما فيها من المنفعة الخالية من المفسدة.

قوله: **«ولا ترد مسلمًا»** قال الطيبي: تعريض بأن الكافر بخلافه.

قوله: **«اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت ولا يدفع السيئات إلا أنت»** أي لا تأتي الطيرة بالحسنات ولا تدفع المكروهات، بل أنت وحدك لا شريك لك الذي تأتي بالحسنات، وتدفع السيئات.

ففيه: نفيُ تعلُّق القلب بغير الله في جلب نفع أو دفع ضر، وهذا هو التوحيد وهو دعاء مناسب لمن وقع في قلبه شيء من الطيرة، وتصريح بأنها لا تجلب نفعًا ولا تدفع ضرًّا، ويُعدُّ من اعتقدها سفيهًا مشركًا.

قوله: ولا حول ولا قوة إلا بك استعانة بالله تعالى على فعل التوكل وعدم الالتفات إلى الطيرة التي قد تكون سببًا لوقوع المكروه عقوبة لفاعلها. وذلك الدعاء إنما يصدر عن حقيقة التوكل الذي هو أقوى الأسباب في جلب الخيرات ودفع المكروهات.

والحول التحول والانتقال من حال إلى حال، والقوة على ذلك بالله وحده لا شريك له. ففيه التبري من الحول والقوة والمشيئة بدون حول الله وقوته ومشيئته. وهذا هو التوحيد في الربوبية، وهو الدليل على توحيد الإلهية الذي هو إفراد الله تعالى بجميع أنواع العبادة، وهو توحيد القصد والإرادة، وقد تقدم بيان ذلك بحمد الله.

قال المصنف رحمه الله تعالى: وعن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعًا: «الطيرة شرك، الطيرة شرك، وما منا إلا، ولكن الله يذهبه بالتوكل» [1] **رواه أبو داود والترمذي وصححه. وجعل آخره من قول ابن مسعود.**

---

(١) صحيح: أبو داود (٣٩١٠) الترمذي (١٦١٠) في السير وصححه الألباني هناك.

ش: ورواه ابن ماجه وابن حبان. ولفظ أبي داود «الطيرة شرك، الطيرة شرك، الطيرة شرك». ثلاثًا وهذا صريح في تحريم الطيرة، وأنها من الشرك لما فيها من تعلق القلب على غير الله تعالى.

قال ابن حمدان: تكره الطيرة، وكذا قال غيره من أصحاب أحمد.

قال ابن مفلح: والأولى القطع بتحريمها لأنها شرك، وكيف يكون الشرك مكروهًا الكراهة الاصطلاحية؟

قال في شرح السنن: وإنما جعل الطيرة من الشرك لأنهم كانوا يعتقدون أن الطيرة تجلب لهم نفعًا أو تدفع عنهم ضرًا إذا عملوا بموجبها، فكأنهم أشركوا مع الله تعالى.

قوله: (وما منا إلا) قال أبو القاسم الأصبهاني، والمنذري: في الحديث إضمار. التقدير: وما منا إلا وقد وقع في قلبه شيء من ذلك. انتهى.

وقال الخلخالي: حذف المستثنى لما يتضمنه من الحالة المكروهة. وهذا من أدب الكلام.

قوله: (ولكن الله يذهبه بالتوكل) أي: لكن لما توكلنا على الله في جلب النفع ودفع الضر أذهبه الله عنا بتوكلنا عليه وحده.

قوله: (وجعل آخره من قول ابن مسعود) قال ابن القيم: وهو الصواب، فإن الطيرة نوع من الشرك.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (ولأحمد من حديث ابن عمرو: «ومن ردته الطيرة عن حاجته فقد أشرك». قالوا: فما كفارة ذلك؟ قال: «أن تقول: اللهم لا خير إلا خيرك، ولا طير إلا طيرك، ولا إله غيرك»).

ش: هذا الحديث رواه أحمد والطبراني عن عبد الله بن عمرو بن العاص، وفي إسناده ابن لهيعة وبقية رجاله ثقات.

قوله: (من حديث ابن عمرو) هو عبد الله بن عمرو بن العاص بن وائل السهمي أبو محمد. وقيل: أبو عبد الرحمن، أحد السابقين المكثرين من الصحابة وأحد

العبادلة الفقهاء. مات في ذي الحجة ليالي الحرة على الأصح بالطائف.

قوله: (من ردته الطيرة عن حاجته فقد أشرك) وذلك أن الطيرة هي التشاؤم بالشيء المرئي أو المسموع، فإذا رده شيء من ذلك عن حاجته التي عزم عليها كإرادة السفر ونحوه، فمنعه عما أراده وسعى فيه ما رأى وما سمع تشاؤمًا، فقد دخل في الشرك. كما تقدم، فلم يخلص توكله على الله بالتفاته إلى ما سواه فيكون للشيطان منه نصيب.

قوله: (فما كفارة ذلك؟) إلى آخره. فإذا قال ذلك وأعرض عما وقع في قلبه، ولم يلتفت إليه، كَفَّر الله عنه ما وقع في قلبه ابتداء لزواله عن قلبه بهذا الدعاء المتضمن للاعتماد على الله وحده، والإعراض عما سواه.

وتضمن الحديث أن الطيرة لا تضر من كرهها ومضى في طريقه، وأما من لم يخلص توكله على الله واسترسل مع الشيطان في ذلك، فقد يُعاقب بالوقوع فيما يكره، لأنه أعرض عن واجب الإيمان بالله، وأن الخير كله بيده، فهو الذي يجلبه لعبده بمشيئته وإرادته، وهو الذي يدفع عنه الضر وحده بقدرته ولطفه وإحسانه، فلا خير إلا منه، وهو الذي يدفع الشر عن عبده فما أصابه من ذلك فبذنبه، كما قال تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ﴾ [النساء:٧٩].

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وله من حديث الفضل بن عباس «إنما الطيرة ما أمضاك أو ردَّك» [١]).

ش: هذا الحديث عند الإمام أحمد من حديث الفضل بن عباس قال: خرجت مع رسول الله ﷺ يومًا، فبرح ظبي، فمال في شقه فاحتضنته، فقلت: يا رسول الله تطيرت، فقال: **«إنما الطيرة ما أمضاك أو ردك»**.

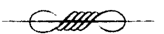
وفي إسناده انقطاع، أي بين مسلمة راويه وبين الفضل، وهو الفضل بن

(١) **صحيح**: بلفظ (من أرجعته الطيرة عن حاجته فقد أشرك) وهو عند ابن السني (٢٩٢) - بترقيمي - وسنده صحيح فقد رواه ابن وهب عن ابن لهيعة بالسند عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، وقد ثبت سماع ابن وهب من ابن لهيعة قبل اختلاطه فهو صحيح.

العباس بن عبد المطلب ابن عم النبي ﷺ. قال ابن معين: قتل يوم اليرموك. وقال غيره: قتل يوم مرج الصفر سنة ثلاث عشرة وهو ابن اثنتين وعشرين سنة. وقال أبو داود: قتل بدمشق. كان عليه درع رسول الله ﷺ.

قوله: (إنما الطيرة ما أمضاك أو ردك) هذا حد الطيرة المنهى عنها: أنها ما يحمل الإنسان على المضي فيما أراده، ويمنعه من المضي فيه كذلك.

وأما الفأل الذي كان يحبه النبي ﷺ فيه نوع بشارة، فيسر به العبد ولا يعتمد عليه بخلاف ما يمضيه أو يرده، فإن للقلب عليه نوع اعتماد. فافهم الفرق والله أعلم.



(٢٨)



ما جاء في التنجيم

قال المصنف رحمه الله تعالى: (باب: ما جاء في التنجيم).

ش: قال شيخ الإسلام رحمه الله: التنجيم هو الاستدلال بالأحوال الفلكية على الحوادث الأرضية.

وقال الخطابي: علم النجوم المنهى عنه هو ما يدعيه أهل التنجيم من علم الكوائن والحوادث التي ستقع في مستقبل الزمان، كأوقات هبوب الرياح ومجيء المطر، وتغير الأسعار، وما في معناها من الأمور التي يزعمون أنها تدرك معرفتها بمسير الكواكب في مجاريها، واجتماعها وافتراقها، يدعون أن لها تأثيرًا في السفليات، وهذا منهم تحكم على الغيب، وتعاط لعلم قد استأثر الله به، ولا يعلم الغيب سواه.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (قال البخاري في صحيحه: قال قتادة: خلق الله هذه النجوم لثلاث: زينة للسماء، ورجومًا للشياطين، وعلامات يُهتدى بها، فمن تأول فيها غير ذلك أخطأ وأضاع نصيبه، وتكلف ما لا علم له به) [١].

ش: هذا الأثر علقه البخاري في صحيحه. وأخرجه عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وغيرهم.

وأخرجه الخطيب في كتاب النجوم عن قتادة، ولفظه قال: إنما جعل الله هذه النجوم لثلاث خصال: جعلها زينة للسماء، وجعلها يُهتدى بها، وجعلها رجومًا

(١) علقه البخاري في صحيحه باب (٣) في بدء الخلق، ووصله الحافظ ابن حجر وعزاه لعبد بن حميد كما في الفتح (٦/ ٢٩٥) وهو عند الطبري (٣٤٤٩٠) في تفسيره بسند صحيح.

للشياطين . فمن تعاطى فيها غير ذلك فقد قال برأيه، وأخطأ حظه وأضاع نصيبه، وتكلف ما لا علم له به، وإن ناسًا جهلة بأمر الله قد أحدثوا في هذه النجوم كهانة : من أعرس بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا، ومن سافر بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا . ولعمري ما من نجم إلا يولد به الأحمر والأسود والطويل والقصير والحسن والدميم، وما علم هذه النجوم وهذه الدابة وهذا الطائر بشيء من هذا الغيب ولو أن أحدًا علم الغيب لعلمه آدم الذي خلقه الله بيده وأسجد له ملائكته وعلمه أسماء كل شيء انتهى [(١)].

وتأمل ما أنكره هذا الإمام مما حدث من المنكرات في عصر التابعين، وما زال الشر يزداد في كل عصر بعدهم حتى بلغ الغاية في هذه الأعصار، وعمت به البلوى في جميع الأمصار فمقل ومستكثر، وعز في الناس من ينكره، وعظمت المصيبة به في الدين . فإنا لله وإنا إليه راجعون .

قوله : (خلق الله هذه النجوم لثلاث) قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [الملك :٥] وقال تعالى : ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل :١٦].

وفيه إشارة إلى أن النجوم في السماء الدنيا، كما روى ابن مردويه عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ: **«أما السماء الدنيا فإن الله خلقها من دخان وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا، وزينها بمصابيح وجعلها رجوما للشياطين، وحفظا من كل شيطان رجيم»** [(٢)].

قوله : (وعلامات) أي دلالات على الجهات، (يهتدى بها) أي يهتدي بها الناس في ذلك . كما قال تعالى : ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [الأنعام :٩٧] أي لتعرفوا بها جهة قصدكم، وليس المراد أن يهتدى بها في علم الغيب، كما يعتقده المنجمون، وقد تقدم وجه بطلانه وأنه لا حقيقة له كما قال قتادة : فمن تأول فيها غير ذلك، أي زعم فيها غير ما ذكر الله في كتابه من هذه الثلاث فقد أخطأ . حيث زعم شيئًا ما أنزل الله به من سلطان، وأضاع نصيبه من كل خير ؛ لأنه شغل نفسه

(١) هكذا ذكره السيوطي (٣/ ٦٣ - ٦٤) في الدر المنثور وعزاه للخطيب البغدادي في (النجوم).
(٢) نظرت فيما بين يدي من تفاسير فما وجدت هذا الأثر ولم أطلع على تفسير ابن مردويه .

بما يضره ولا ينفعه .

فإن قيل : المنجم قد يصدق؟ قيل : صدقه كصدق الكاهن ، ويصدق في كلمة ويكذب في مائة . وصدقه ليس عن علم ، بل قد يوافق قدرًا ، فيكون فتنة في حق من صدقه .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٥ وَعَلَٰمَٰتٍ﴾ [النحل :١٥-١٦] .

فقوله : ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ﴾ معطوف على ما تقدم مما ذكره في الأرض ، ثم استأنف فقال : ﴿وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل :١٦] ذكره ابن جرير عن ابن عباس بمعناه [١] .

وقد جاءت الأحاديث عن النبي ﷺ بإبطال علم التنجيم ، كقوله : **«من اقتبس شعبة من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر . زاد ما زاد»** [٢] .

وعن رجاء بن حيوة أن النبي ﷺ قال : **«إن مما أخاف على أمتي : التصديق بالنجوم ، والتكذيب بالقدر ، وحيف الأئمة»** [٣] رواه عبد بن حميد .

وعن أبي محجن مرفوعًا : «أخاف على أمتي ثلاثًا : حيف الأئمة ، وإيمانًا بالنجوم ، وتكذيبًا للقدر» [٤] رواه ابن عساكر وحسنه السيوطي .

وعن أنس رضي الله عنه مرفوعًا : «أخاف على أمتي بعدي خصلتين : تكذيبًا بالقدر ، وإيمانًا بالنجوم» [٥] رواه أبو يعلي وابن عدي والخطيب في كتاب النجوم ، وحسنه السيوطي أيضًا .

---

(١) رواه الطبري بسند ضعيف جدًا عن العوفي بطريقه المليء بالضعفاء والمجاهيل كما في التفسير (٢١٥٤٤) ط العلمية .

(٢) **صحيح** : سبق تخريجه .

(٣) **مرسل** : رجاء بن حيوة تابعي من زمن عمر بن عبد العزيز أي : في الثالثة .

(٤) **ضعيف** : فيه أبو سعيد البقال وهو سعيد بن المرزبان : ضعيف وبذلك أعله الألباني (٣/ ١١٩) في الصحيحة .

(٥) **ضعيف جدًا** : أبو يعلى (٤١٣٥) في مسنده ، وفي سنده شهاب بن خراش عن يزيد الرقاشي عن أنس ، ويزيد : ضعيف واه ، وشهاب : صدوق تكلم فيه .

والأحاديث في ذم التنجيم والتحذير منه كثيرة .

قال المصنف رحمه الله تعالى: **(وكره قتادة تعلم منازل القمر . ولم يرخص ابن عيينة فيه . ذكره حرب عنهما . ورخص في تعلم المنازل أحمد وإسحاق) .**

ش: قال الخطابي : أما علم النجوم الذي يدرك من طريق المشاهدة والخبر الذي يعرف به الزوال ، وتعلم به جهة القبلة فإنه غير داخل فيما نهى عنه . وذلك أن معرفة رصد الظل ليس شيئًا أكثر من أن الظل ما دام متناقصًا فالشمس بعد صاعدة نحو وسط السماء من الأفق الشرقي ، وإذا أخذ في الزيادة فالشمس هابطة من وسط السماء نحو الأفق الغربي ، وهذا علم يصح إدراكه بالمشاهدة ، إلا أن أهل هذه الصناعة قد دبروها بما اتخذوه من الآلات التي يستغني الناظر فيها عن مراعاة مدته ومراصدته .

وأما ما يستدل به من النجوم على جهة القبلة فإنها كواكب رصدها أهل الخبرة من الأئمة الذين لا نشك في عنايتهم بأمر الدين ومعرفتهم بها وصدقهم فيما أخبروا به عنها ، مثل أن يشاهدها بحضرة الكعبة ويشاهدها على حال الغيبة عنها ، فكان إدراكهم الدلالة منها بالمعاينة ، وإدراكنا ذلك بقبول خبرهم إذ كانوا عندنا غير متهمين في دينهم ، ولا مقصرين في معرفتهم . انتهى .

وروى ابن المنذر عن مجاهد أنه كان لا يرى بأسًا أن يتعلم الرجل منازل القمر [(١)] .

وروى عن إبراهيم أنه كان لا يرى بأسًا أن يتعلم الرجل من النجوم ما يهتدي به [(٢)] .

قال ابن رجب : والمأذون في تعلمه علم التسيير لا علم التأثير فإنه باطل محرم ، قليله وكثيره . وأما علم التسيير فيتعلم ما يحتاج إليه منه للاهتداء ومعرفة القبلة والطرق . جائز عند الجمهور . انتهى .

قوله : (ذكره حرب عنهما) [(٣)] هو الإمام الحافظ حرب بن إسماعيل أبو محمد

---

(١) قال السيوطي (٣/ ٦٤) في «الدر» : رواه الخطيب البغدادي .
(٢) **صحيح الإسناد:** أبو نعيم (٤/ ٢٢٥) في «حلية الأولياء» .
(٣) فضل علم السلف لابن رجب الحنبلي (٢٣٨٥) .

الكرماني الفقيه من جلة أصحاب الإمام أحمد. روى عن أحمد وإسحاق وابن المديني وابن معين وغيرهم. وله كتاب المسائل التي سئل عنها الإمام أحمد وغيره، مات سنة ثمانين ومائتين.

وأما إسحاق: فهو ابن إبراهيم بن مخلد أبو أيوب الحنظلي النيسابوري، الإمام المعروف بابن راهويه. روى عن ابن المبارك وأبي أسامة وابن عيينة وطبقتهم. قال أحمد: إسحاق عندنا إمام من أئمة المسلمين. روى عنه أحمد والبخاري ومسلم وأبو داود وغيرهم. وروى هو أيضًا عن أحمد. مات سنة تسع وثلاثين ومائتين.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وعن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا يدخلون الجنة: مدمن الخمر، وقاطع الرحم، ومصدق بالسحر» [1] رواه أحمد وابن حبان في صحيحه).

ش: هذا الحديث رواه أيضًا الطبراني والحاكم وقال: صحيح. وأقره الذهبي. وتمامه: «**ومن مات وهو يدمن الخمر سقاه الله من نهر الغوطة: نهر يجري من فروج المومسات، يؤذي أهل النار ريح فروجهن**» [2].

قوله: (وعن أبي موسى) هو عبد الله بن قيس بن سليم بن حضار - بفتح المهملة وتشديد الضاد- أبو موسى الأشعري. صحابي جليل. مات سنة خمسين.

قوله: (ثلاثة لا يدخلون الجنة) هذا من نصوص الوعيد التي كره السلف تأويلها. وقالوا: أمروها كما جاءت، ومن تأولها فهو على خطر من القول على الله بلا علم.

وأحسن ما يقال: إن كل عمل دون الشرك والكفر المخرج على ملة الإسلام فإنه يرجع إلى مشيئة الله، فإن عذبه فقد استوجب العذاب، وإن غفر له فبفضله وعفوه ورحمته.

قوله: (مدمن الخمر) أي المداوم على شربها.

---

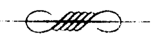
(١) قال الهيثمي في المجمع (٥/ ٧٤): رواه أحمد وأبو يعلى والطبراني، ورجال أحمد وأبي يعلى ثقات، قلت: فالحديث حسن بشواهده إن شاء الله إلا مسألة (نهر الغوطة) فهي ضعيفة.

(٢) ضعيف: انظر التخريج السابق، والحاكم (٤/ ١٤٦) في المستدرك.

قوله: (وقاطع الرحم) يعني القرابة كما قال تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ [محمد: ٢٢] الآية.

قوله: (ومصدق بالسحر) أي مطلقًا. ومنه التنجيم، لما تقدم من الحديث. وهذا وجه مطابقة الحديث للترجمة.

قال الذهبي في الكبائر: ويدخل فيه تعلم السِّيميا وعملها، وعقد المرء عن زوجته ومحبة الزوج لامرأته وبغضها وبغضه. وأشباه ذلك بكلمات مجهولة. قال: وكثير من الكبائر - بل عامتها إلا الأقل - يجهل خلقٌ من الأمة تحريمَه، وما بلغه الزجر فيه، ولا الوعيد عليه. انتهى [١].



(١) الكبائر ص ١٥ بتحقيقي والسيمياء، أو الكيمياء: علم زعم الأقدمون أنه يحول المعدن الخسيس إلى نفيس فكان من ضروب السحر أما الآن فلا علاقة بين كيمياء الأقدمين، والعلم الموجود حاليًا والله أعلم.

(٢٩)



ما جاء في الاستسقاء بالأنواء

قال المصنف رحمه الله تعالى: (باب: ما جاء في الاستسقاء بالأنواء).

ش: أي: من الوعيد، والمراد: نسبة السقيا ومجيء المطر إلى الأنواء. جمع نوء وهي منازل القمر.

قال أبو السعادات: وهي ثمان وعشرون منزلة. ينزل القمر كل ليلة منزلة منها. ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ﴾ [يس: ٣٩].

يسقط في الغرب كل ثلاث عشرة ليلة منزلة مع طلوع الفجر، وتطلع أخرى مقابلتها ذلك الوقت من المشرق، فتنقضي جميعها مع انقضاء السنة. وكانت العرب تزعم أن مع سقوط المنزلة وطلوع رقيبها يكون مطر، وينسبونه إليها، ويقولون: مطرنا بنوء كذا وكذاو وإنما سمى نوءًا؛ لأنه إذا سقط الساقط منها ناء الطالع بالمشرق، أي نهض وطلع.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وقوله تعالى ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢]).

ش: روى الإمام أحمد والترمذي - وحسنه - وابن جرير وابن أبي حاتم والضياء في المختارة عن علي رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: « ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ﴾ [الواقعة: ٨٢] يقول: شكركم ﴿أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢] تقولون: مطرنا بنوء كذا وكذا: بنجم كذا وكذا» (١) وهذ أولى ما فسرت به الآية.

---

(١) **ضعيف الإسناد**: الترمذي (٣٢٩٥) في التفسير وقال: حسن غريب وفيه عبد الأعلى بن عامر الثعلبي وهو: ضعيف، وبه ضعفه الألباني.

وروي ذلك عن علي وابن عباس وقتادة والضحاك وعطاء الخراساني وغيرهم وهو قول جمهور المفسرين وبه يظهر وجه استدلال المصنف رحمه الله بالآية .

قال ابن القيم رحمه الله : أي تجعلون حظكم من هذا الرزق الذي به حياتكم : التكذيب به ، يعني القرآن .

قال الحسن : تجعلون حظكم ونصيبكم من القرآن أنكم تكذبون [١] قال : وخسر عبد لا يكون حظه من القرآن إلا التكذيب .

قال المصنف رحمه الله تعالى: (عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن : الفخر بالأحساب ، والطعن في الأنساب ، والاستسقاء بالنجوم ، والنياحة» . وقال : «النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب» [٢] رواه مسلم) .

ش: أبو مالك اسمه الحارث بن الحارث الشامي . صحابي تفرد عنه بالرواية أبو سلام . وفي الصحابة أبو مالك الأشعري اثنان غير هذا .

قوله : (أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن) ستفعلها هذه الأمة إما مع العلم بتحريمها أو مع الجهل بذلك ، مع كونها من أعمال الجاهلية المذمومة المكروهة المحرمة .

والمراد بالجاهلية هنا : ما قبل المبعث ، سموا بذلك لفرط جهلهم . وكل ما يخالف ما جاء به الرسول ﷺ فهو جاهلية ، فقد خالفهم رسول الله ﷺ في كثير من أمورهم أو أكثرها . وذلك يدرك بتدبر القرآن ومعرفة السنة .

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى : أخبر أن بعض أمر الجاهلية لا يتركه الناس كلهم ذمًّا لمن لم يتركه ، وهذا يقتضي أن كل ما كان من أمر الجاهلية وفعلهم فهو مذموم في دين الإسلام ، وإلا لم يكن في إضافة هذه المنكرات إلى الجاهلية ذم لها ، ومعلوم أن إضافتها إلى الجاهلية خرج مخرج الذم ، وهذا كقوله تعالى : ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ

---

(١) عزاه السيوطي (٦/ ٢٣٥) في الدر المنثور لعبد بن حميد .
(٢) رواه مسلم (٩٣٤) في الجنائز .

﴿تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الأحزاب: ٣٣]، فإن في ذلك ذمًّا للتبرج وذمًّا لحال الجاهلية الأولى، وذلك يقتضي المنع من مشابهتهم في الجملة.

قوله: (الفخر بالأحساب) أي التعاظم على الناس بالآباء ومآثرهم، وذلك جهل عظيم، إذ لا كرم إلا بالتقوى، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٧].

ولأبي داود عن أبي هريرة مرفوعًا: **«إن الله قد أذهب عنكم عُبيَّة الجاهلية وفخرها بالآباء، إنما هو مؤمن تقي، أو فاجر شقي، الناس بنو آدم وآدم من تراب، ليدعن رجال فخرهم بأقوام - إنما هم فحم من فحم جهنم - أو ليكونن أهون على الله من الجعلان»** [(١)] الحديث.

قوله: (والطعن في الأنساب) أي الوقوع فيها بالعيب والتنقص.

ولما عير أبو ذر رضي الله عنه رجلاً بأمه قال له النبي ﷺ: **«أعيرته بأمه؟ إنك امرؤ فيك جاهلية»** متفق عليه [(٢)].

فدل على أن الطعن في الأنساب من عمل الجاهلية، وأن المسلم قد يكون فيه شيء من هذه الخصال المسماة بجاهلية ويهودية ونصرانية، ولا يوجب ذلك كفره ولا فسقه. قاله شيخ الإسلام رحمه الله.

قوله: (والاستسقاء بالنجوم) أي نسبة المطر إلى النوء وهو سقوط النجم. كما أخرج الإمام أحمد وابن جرير عن جابر السوائي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«أخاف على أمتي ثلاثًا: استسقاء بالنجوم. وحيف السلطان. وتكذيبًا بالقدر»** [(٣)].

---

(١) حسن: الترمذي (٣٩٥٥) في المناقب.

(٢) البخاري (٣٠) في الإيمان، مسلم (١٦٦١/٣٨ - ٤٠) في الأيمان.

(٣) ضعيف جدًا: قال الهيثمي (٥/ ٢٣٧) في المجمع: رواه أبو يعلى، وأحمد، والبزار والطبراني في الثلاثة، وفيه محمد بن القاسم.

قلت: وهو الأزدي: ضعيف جدًا وبعضهم كذبه فهو به ضعيف.

فإذا قال قائلهم: مطرنا بنجم كذا أو بنوء كذا . فلا يخلوا : إما أن يعتقد أن له تأثيرًا في إنزال المطر . فهذا شرك وكفر . وهو الذي يعتقده أهل الجاهلية كاعتقادهم أن دعاء الميت والغائب يجلب لهم نفعًا، أو يدفع عنهم ضرًا . أو أنه يشفع بدعائهم إياه، فهذا هو الشرك الذي بعث الله رسوله ﷺ بالنهي عنه وقتال من فعله . كما قال تعالى : ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال :٣٩] والفتنة : الشرك .

وإما أن يقول : مطرنا بنوء كذا مثلا ، لكن مع اعتقاده أن المؤثر هو الله وحده . لكنه أجرى العادة بوجود المطر عند سقوط ذلك النجم .

والصحيح : أنه يحرم نسبة ذلك إلى النجم ولو على طريق المجاز ، فقد صرح ابن مفلح في الفروع : بأنه يحرم قول : مطرنا بنوء كذا ، وجزم في الإنصاف بتحريمه ولو على طريق المجاز ، ولم يذكر خلافًا .

وذلك أن القائل لذلك نسب ما هو من فعل الله تعالى الذي لا يقدر عليه غيره إلى خلق مسخر لا ينفع ولا يضر ولا قدرة له على شيء ، فيكون ذلك شركًا أصغر . والله أعلم .

قوله : (والنياحة) أي رفع الصوت بالندب على الميت ، لأنها تسخط لقضاء الله ، وذلك ينافي الصبر الواجب ، وهي من الكبائر لشدة الوعيد والعقوبة .

قوله : (والنائحة إذا لم تتب قبل موتها) فيه تنبيه على أن التوبة تكفر الذنب وإن عظم ، هذا مجمع عليه في الجملة ، ويكفر أيضًا الحسنات الماحية والمصائب ، ودعاء المسلمين بعضهم لبعض ، وبالشفاعة بإذن الله ، وعفو الله عمن شاء ممن لا يشرك بالله شيئًا .

وفي الحديث عن ابن عمر مرفوعًا : «إن الله تعالى يقبل توبة العبد ما لم يغرغر» [١] رواه أحمد والترمذي وابن ماجه وابن حبان .

قوله : (تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب) .

---

(١) حسن : سبق تخريجه .

قال القرطبي: السربال واحد السرابيل، وهي الثياب والقمص، يعني أنهن يلطخن بالقطران، فيكون لهن كالقمص، حتى يكون اشتعال النار بأجسادهن أعظم، ورائحتهن أنتن، وألمهن بسبب الجرب أشد.

ورُوي عن ابن عباس: أن القطران هو النحاس المذاب [(١)].

قال المصنف رحمه الله تعالى: (ولهما عن زيد بن خالد رضي الله عنه قال: صلى لنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية على إثر سماء كانت من الليل، فلما انصرف أقبل على الناس فقال: «أتدرون ماذا قال ربكم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب» [(٢)]).

ش: زيد بن خالد الجهني صحابي مشهور، مات سنة ثمان وستين، وقيل: غير ذلك، وله خمس وثمانون سنة.

قوله: (صلى لنا رسول الله ﷺ) أي بنا، فاللام بمعنى الباء. قال الحافظ: وفيه إطلاق ذلك مجازًا. وإنما الصلاة لله.

قوله: (بالحديبية) بالمهملة المضمومة وتخفيف يائها وتثقل.

قوله: (على إثر) بكسر الهمزة وسكون المثلثة على المشهور، وهو ما يعقب الشيء.

قوله: (سماء) أي مطر؛ لأنه ينزل من السحاب، والسماء يطلق على كل ما ارتفع.

قوله: (فلما انصرف) أي من صلاته، أي التفت إلى المأمومين، كما يدل عليه قوله: «**أقبل على الناس**» ويحتمل أنه أراد السلام.

---

(١) ضعيف: علي بن أبي طلحة الوالبي لم يدرك ابن عباس، وفي سنده (أبو صالح) كاتب الليث وهو ضعيف، وانظر الطبري (٢٠٩٩٧) في تفسيره - ط العلمية.

(٢) رواه البخاري (٨٤٦) في الأذان، مسلم (٧١/ ١٢٥) في الإيمان.

قوله: (هل تدرون) لفظ استفهام ومعناه التنبيه.

وفي النسائي: «ألم تسمعوا ما قال ربكم الليلة؟» (١) وهذا من الأحاديث القدسية.

وفيه إلقاء العالم على أصحابه المسألة ليختبرهم.

قوله: (قالوا الله ورسوله أعلم) فيه حسن الأدب للمسئول إذا سئل عما لا يعلم أن يكل العلم إلى عالمه. وذلك يجب.

قوله: (أصبح من عبادي) الإضافة هنا للعموم بدليل التقسيم إلى مؤمن وكافر كقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢].

قوله: (مؤمن بي وكافر) إذا اعتقد أن للنوء تأثيرًا في إنزال المطر فهذا كفر؛ لأنه أشرك في الربوبية. والمشرك كافر. وإن لم يعتقد ذلك فهو من الشرك الأصغر، لأنه نسب نعمة الله إلى غيره، ولأن الله لم يجعل النوء سببًا لإنزال المطر فيه، وإنما هو فضل من الله ورحمته يحبسه إذا شاء وينزله إذا شاء.

ودل هذا الحديث على أنه لا يجوز لأحد أن يضيف أفعال الله إلى غيره ولو على سبيل المجاز. وأيضًا الباء تحتمل معاني، وكلها لا تصدق بهذا اللفظ، فليست للسببية ولا للاستعانة، لما عرفت من أن هذا باطل. ولا تصدق أيضًا على أنها للمصاحبة، لأن المطر قد يجيء في هذا الوقت وقد لا يجيء فيه، وإنما يجيء المطر في الوقت الذي أراد الله مجيئه فيه برحمته وحكمته وفضله. فكل معنى تحمل عليه الباء في هذا اللفظ المنهى عنه فاسد.

فيظهر على هذا تحريم هذه اللفظة مطلقًا لفساد المعنى. وقد تقدم القطع بتحريمه في كلام صاحب الفروع والإنصاف.

---

(١) الحديث عند مسلم (٧٢/١٢٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ (ألم تروا إلى ما قال ربكم الليلة). و (٧٣/١٢٧) عن ابن عباس رضي الله عنهما. وفي (تيسير العزيز الحميد) قال: الحديث لمسلم فقط. ص (٤٦١). ووجدت هذه الزيادة عند النسائي (١٨٣٤) في الكبرى بلفظ المصنف، وفي مسند أبي عوانة (١/ ٣٥) فصحَّت إن شاء الله.

قال المصنف رحمه الله: (وفيه التفطن للإيمان في هذا الموضع يشير إلى أنه الإخلاص).

قوله: (فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته) فالفضل والرحمة صفتان لله، ومذهب أهل السنة والجماعة: أن ما وصف الله به نفسه ووصفه به رسوله من صفات الذات: كالحياة والعلم، وصفات الأفعال، كالرحمة التي يرحم بها عباده. كلها صفات لله قائمة بذاته ليست قائمة بغيره، فتفطن لهذا فقد غلط فيه طوائف.

وفي هذا الحديث: أن نعم الله لا يجوز أن تضاف إلا إليه وحده، وهو الذي يحمد عليها، وهذه حال أهل التوحيد.

قوله: (وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا) إلى آخره، تقدم ما يتعلق بذلك.

قال المصنف رحمه الله: (وفيه التفطن للكفر في هذا الموضع).

يشير إلى أن نسبة النعمة إلى غير الله كفر، ولهذا قطع بعض العلماء بتحريمه، وإن لم يعتقد تأثير النوء بإنزال المطر، فيكون من كفر النعم، لعدم نسبتها إلى الذي أنعم بها، ونسبتها إلى غيره، كما سيأتي في قوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ [النحل: ٨٣].

قال القرطبي في شرح حديث زيد بن خالد: وكانت العرب إذا طلع نجم من الشرق وسقط آخر من المغرب فحدث عند ذلك مطر أو ريح، فمنهم من ينسبه إلى الطالع، ومنهم من ينسبه إلى الغارب نسبة إيجاد واختراع، ويطلقون ذلك القول المذكور في الحديث. فنهى الشارع عن إطلاق ذلك لئلا يعتقد أحد اعتقادهم ولا يتشبه بهم في نطقهم. انتهى.

قوله: «**فمنهم من ينسبه نسبة إيجاد**» يدل على أن بعضهم كان لا يعتقد ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦٣] فدل على أن منهم من يعرف ويقر بأن الله هو الذي أوجد المطر، وقد يعتقد هؤلاء أن النوء فيه شيئًا من التأثير.

والقرطبي في شرحه لم يصرح أن العرب كلهم يعتقدون ذلك المعتقد الذي ذكره.

فلا اعتراض عليه بلآية للاحتمال المذكور.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (ولهما من حديث ابن عباس معناه، وفيه: قال بعضهم: لقد صدق نوءُ كذا وكذا. فأنزل الله هذه الآيات: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ۝ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ۝ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ۝ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ۝ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝ أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ ۝ وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٧٥-٨٢]).

ش: وبلفظه عن ابن عباس قال: مطر الناس على عهد النبي ﷺ فقال النبي ﷺ: «**أصبح من الناس شاكر، ومنهم كافر**». قالوا: هذه رحمة الله. وقال بعضهم: لقد صدق نوء كذا وكذا. فقال: فنزلت هذه الآية: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ [الواقعة: ٧٥][(١)] .

هذا قسم من الله عز وجل، يقسم بما شاء من خلقه على ما شاء. وجواب القسم: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ﴾ [الواقعة: ٧٧] فتكون «**لا**» صلة لتأكيد النفي، فتقدير الكلام، ليس الأمر كما زعمتم في القرآن أنه سحر، أو كهانة، بل هو قرآن كريم.

قال ابن جرير: قال بعض أهل العربية: معنى قوله: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ﴾ [الواقعة: ٧٥] فليس الأمر كما تقولون، ثم استؤنف القسم بعد فقيل: أُقسم.

ومواقع النجوم، قال ابن عباس: يعني نجوم القرآن، فإنه نزل جملة ليلة القدر من السماء العليا إلى السماء الدنيا، ثم نزل مفرقًا في السنين بعد[(٢)]، ثم قرأ ابن عباس هذه الآية.

---

(١) صححه الشيخ الألباني (٣/ ١٦٤، ١٦٥) في صحيح سنن النسائي.

(٢) **قلت:** هذا إسناد وإن صح كما عند الطبري (٣٣٥٢٤) في تفسيره، لكننا نعترض اعتراضًا بسيطًا ألا وهو أن هذه الرواية تحتوي أخبارًا عن غيب: وهو أن القرآن كان لمواقع النجوم، ثم أنزل جملة واحدة ليلة القدر إلى سماء الدنيا، ومن منهجنا ألاَّ نقبل خبرًا عن عالم الغيب إلا إن كان طريقه الوحي الذي انقطع بوفاة النبي ﷺ فهذا لعله اجتهاد من حبر الأمة وترجمان القرآن، ولذلك نرجح تفسير الشعبي القائل بأن القرآن بدأ نزوله ليلة القدر ثم نزل منجمًا - مفرقًا بعد ذلك - وهو ما لا يحتاج إلى تكلف إخبار عن عالم الغيب. والله أعلم.

ومواقعها: نزولها شيئًا بعد شيء. وقال مجاهد: مواقع النجوم مطالعها ومشارقها [(١)]. واختاره ابن جرير.

وعلى هذه فتكون المناسبة بين المقسم به والمقسم عليه - وهو القرآن - من وجوه:

أحدها: أن النجوم جعلها الله يهتدى بها في ظلمات البر والبحر، وآيات القرآن يهتدي بها في ظلمات الغي والجهل. فتلك هداية في الظلمات الحسية، والقرآن هداية في الظلمات المعنوية. فجمع بين الهدايتين.

مع ما في النجوم من الزينة الظاهرة. وفي القرآن من الزينة الباطنة، ومع ما في النجوم من الرجوم للشياطين، وفي القرآن من رجوم شياطين الجن والإنس.

والنجوم آياته المشهودة العيانية، والقرآن آياته المتلوة السمعية، مع ما في مواقعها عند الغروب من العبرة والدلالة على آياته القرآنية ومواقعها عند النزول ذكره ابن القيم رحمه الله.

وقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٦] قال ابن كثير: أي وإن هذا القسم الذي أقسمت به لقسم عظيم لو تعلمون عظمته لعظمتم المقسم به عليه.

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٧] هذا هو المقسم عليه، وهو القرآن، أي إنه وحي الله وتنزيله وكلامه، لا كما يقول الكفار: إنه سحر أو كهانة، أو شعر. بل هو قرآن كريم أي عظيم كثير الخير؛ لأنه كلام الله.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: فوصفه بما يقتضي حسنه وكثرة خيره ومنافعه وجلالته، فإن الكريم هو البهي الكثير الخير العظيم النفع، وهو من كل شيء أحسنه وأفضله.

والله سبحانه وتعالى وصف نفسه بالكرم ووصف به كلامه، ووصف به عرشه، ووصف به ما كثر خيره وحسن منظره من النبات وغيره ولذلك فسر السلف «**الكريم**» بالحسن، قال الأزهري: الكريم اسم جامع لما يحمد، والله تعالى كريم جميل

(١) حسن: الطبري (٣٣٥٢٩) ط العلمية.

الفعال، وإنه لقرآن كريم يحمد لما فيه من الهدى والبيان والعلم والحكمة .

وقوله : ﴿فِي كِتَٰبٍ مَّكۡنُونٍ﴾ [الواقعة :٧٨] أي في كتاب معظم محفوظ موقر، قاله ابن كثير .

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى : اختلف المفسرون في هذا، فقيل : هو اللوح المحفوظ والصحيح أنه الكتاب الذي بأيدي الملائكة، وهو المذكور في قوله : ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝ مَّرۡفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةِۭ ۝ بِأَيۡدِي سَفَرَةٍ ۝ كِرَامِۭ بَرَرَةٍ﴾ [عبس :١٣-١٦] .

ويدل على أنه الكتاب الذي بأيدي الملائكة قوله : ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة :٧٩] فهذا يدل على أنه بأيديهم يمسونه .

قوله : ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة :٧٩] قال ابن عباس رضي الله عنهما : ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة :٧٩] . قال : الكتاب الذي في السماء [(١)]، وفي رواية : ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة :٧٩] يعني الملائكة [(٢)] .

وقال قتادة : لا يمسه عند الله إلا المطهرون . فأما في الدنيا فإنه يمسه المجوسي النجس والمنافق الرجس [(٣)]، واختار هذا القول كثيرون، منهم ابن القيم رحمه الله ورجحه .

وقال ابن زيد : زعمت قريش أن هذا القرآن تنزلت به الشياطين، فأخبر الله تعالى أنه لا يمسه إلا المطهرون كما قال تعالى : ﴿وَمَا تَنَزَّلَتۡ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمۡ وَمَا يَسۡتَطِيعُونَ ۝ إِنَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّمۡعِ لَمَعۡزُولُونَ﴾ [الشعراء :٢١٠-٢١٢] .

قال ابن كثير : هذا قول جيد . وهو لا يخرج عن القول قبله، وقال البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه في هذه الآية : لا يجد طعمه إلا من آمن به .

قال ابن القيم رحمه الله : هذا من إشارة الآية وتنبيهها، وهو أنه لا يتلذذ به

---

(١) ضعيف : فيه شريك وهو سيئ الحفظ كما هو عند الطبري (٣٣٥٣٣) في التفسير .

(٢) ضعيف : رواه الطبري (٣٣٥٥٢) من طريق العوفي عن ابن عباس وهو طريق مسلسل بالضعفاء والمجاهيل .

(٣) صحيح : رواه الطبري (٣٣٥٤٨، ٣٣٥٤٩) في تفسيره .

وبقراءته وفهمه وتدبره إلا من يشهد أنه كلام الله تكلم به حقًا، وأنزله على رسوله وحيًا. لا ينال معانيه إلا من لم يكن في قلبه حرج منه بوجه من الوجوه.

وقال آخرون: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٩] أي من الجنابة والحدث، **قالوا**: ولفظ الآية خبر معناه الطلب.

قالوا: والمراد بالقرآن ههنا المصحف. واحتجوا على ذلك بما رواه مالك في الموطأ عن عبد الله بن محمد بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم: إن في الكتاب الذي كتبه رسول الله ﷺ لعمرو بن حزم: «**أن لا يمس القرآن إلا طاهر**» (١).

وقوله: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الواقعة: ٨٠].

قال ابن كثير: هذا القرآن منزل من رب العالمين وليس كما يقولون إنه سحر أو كهانة أو شعر، بل هو الحق الذي لا مرية فيه، وليس وراءه حق نافع. وفي هذه الآية: أنه كلام الله تكلم به.

قال ابن القيم رحمه الله: ونظيره: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى﴾ [السجدة: ١٣] وقوله: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [النحل: ١٠٢] هو إثبات علو الله تعالى على خلقه. فإن النزول والتنزيل الذي تعقله العقول وتعرفه الفطر هو وصول الشيء من أعلى إلى أسفل ولا يرد عليه قوله: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزمر: ٦] لأنا نقول: إن الذي أنزلها فوق سماواته. فأنزلها لنا بأمره.

قال ابن القيم رحمه الله: وذكر التنزيل مضافًا إلى ربوبيته للعالمين المستلزمة لملكه لها وتصرفه فيهم، وحكمه عليهم، وإحسانه إليهم، وإنعامه عليهم، وأن من هذا شأنه مع الخلق كيف يليق به مع ربوبيته التامة أن يتركهم سدى، ويدعهم هملاً، ويخلقهم عبثًا. لا يأمرهم ولا ينهاهم ولا يثيبهم ولا يعاقبهم؟ فمن أقر بأنه رب العالمين أقر بأن القرآن تنزيله على رسوله. واستدل بكونه رب العالمين على ثبوت رسالة رسوله وصحة ما جاء به، وهذا الاستدلال أقوى وأشرف من الاستدلال بالمعجزات والخوارق. وإن كانت دلالتها أقرب إلى أذهان عموم الناس. وتلك إنما

(١) مرسل: مالك (١/ ١٩٩) في الموطأ، أبو داود (٩٣) في المراسيل.

تكون لخواص العقلاء .

قوله : ﴿أَفَبِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ﴾[الواقعة :٨١] **قال مجاهد : أتريدون أن تمالئوهم فيه** وتركنوا إليهم؟[1] .

قال ابن القيم رحمه الله تعالى : ثم وبخهم على وضعهم الادهان في غير موضعه ، وأنهم يداهنون فيما حقه أن يصدع به ويُعرف به ، ويعض عليه بالنواجذ ، وتثنى عليه الخناصر ، وتعقد عليه القلوب والأفئدة ، ويحارب ويسالم لأجله ، ولا يلتوى عنه يمنة ولا يسرة ، ولا يكون للقلب التفات إلى غيره ، ولا محاكمة إلا إليه ، ولا مخاصمة إلا به ، ولا اهتداء في طرق المطالب العالية إلا بنوره ، ولا شفاء إلا به ، فهو روح الوجود ، وحياة العالم ، ومدار السعادة ، وقائد الفلاح ، وطريق النجاة ، وسبيل الرشاد ، ونور البصائر .

فكيف تطلب المداهنة بما هذا شأنه ، ولم ينزل للمداهنة ، وإنما نزل بالحق وللحق ، والمداهنة إنما تكون في باطل قوى لا تمكن إزالته ، أو في حق ضعيف لا تمكن إقامته ، فيحتاج المداهن إلى أن يترك بعض الحق ويلتزم بعض الباطل ، فأما الحق الذي قام به كل حق فكيف يداهن به؟

قوله : ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾[الواقعة :٨٢] تقدم الكلام عليها أول الباب ، والله تعالى أعلم .



(١) حسن : الطبري (٣٣٥٥١) في تفسيره .

(٣٠)

باب

قول الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾

قال المصنف رحمه الله تعالى: (باب قول الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ [البقرة:١٦٥]) .

ش: لما كانت محبته سبحانه هي أصل دين الإسلام الذي يدور عليه قطب رحاه، فبكمالها يكمل، وبنقصها ينقص توحيد الإنسان، نبه المصنف على ذلك بهذه الترجمة.

قوله: (باب قول الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة:١٦٥] الآية) . قال في شرح المنازل: أخبر تعالى أن من أحب من دون الله شيئًا كما يحب الله تعالى فهو ممن اتخذ من دون الله أندادًا، فهذا ند في المحبة لا في الخلق والربوبية، فإن أحدًا من أهل الأرض لا يثبت هذا الند، بخلاف ند المحبة. فإن أكثر أهل الأرض قد اتخذوا من دون الله أندادًا في الحب والتعظيم.

ثم قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة:١٦٥] وفي تقدير الآية قولان:

أحدهما: والذين آمنوا أشد حبًا لله من أصحاب الأنداد لأندادهم وآلهتهم التي يحبونها ويعظمونها من دون الله، وروى ابن جرير عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ [البقرة:١٦٥] مباهاة ومضاهاة للحق بالأنداد ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة:١٦٥] من الكفار لأوثانهم [(١)] .

(١) حسن: الطبري (٢٤١٥، ٢٤١٦) في تفسيره.

ثم روى عن ابن زيد قال: هؤلاء المشركون أندادهم آلهتهم التي عبدوا مع الله يحبونهم كما يحب الذين آمنوا الله، والذين آمنوا أشد حبًا لله من حبهم آلهتهم (١). انتهى.

والثاني: والذين آمنوا أشد حبًا لله من المشركين بالأنداد لله، فإن محبة المؤمنين خالصة، ومحبة أصحاب الأنداد قد ذهبت أندادهم بقسط منها، والمحبة الخالصة أشد من المشتركة. والقولان مرتبان على القولين في قوله تعالى: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] فإن فيها قولين أيضًا:

أحدهما: يحبونهم كما يحبون الله. فيكون قد أثبت لهم محبة الله. ولكنها محبة أشركوا فيها مع الله تعالى أندادهم.

والثاني: أن المعنى يحبون أندادهم كما يحب المؤمنون الله، ثم بين تعالى أن محبة المؤمنين لله أشد من محبة أصحاب الأنداد لأندادهم.

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يرجح القول الأول ويقول: إنما ذموا بأن شركوا بين الله وبين أندادهم في المحبة ولم يخلصوها لله كمحبة المؤمنين له.

وهذه التسوية المذكورة في قوله تعالى حكاية عنهم، وهم في النار أنهم يقولون لآلهتهم وأندادهم وهي محضرة معهم في العذاب ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٩٧-٩٨].

ومعلوم أنهم ما سووهم برب العالمين في الخلق والربوبية وإنما سووهم به في المحبة والتعظيم.

وهذا أيضًا هو العدل المذكور في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَـٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾﴾ [الأنعام: ١] أي: يعدلون به غيره في العبادة التي هي المحبة والتعظيم.

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١] وهذه تسمى آية

---

(١) صحيح الإسناد إلى ابن زيد: الطبري (٢٤٧٨) في تفسيره.

المحنة، قال بعض السلف: ادعى قوم محبة الله فأنزل الله تعالى آية المحنة: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]إشارة إلى دليل المحبة وثمرتها وفائدتها، فدليلها وعلامتها: اتباع الرسول ﷺوفائدتها وثمرتها، محبة المرسل لكم، فما لم تحصل منكم المتابعة فمحبتكم له غير حاصلة، ومحبته لكم منتفية.

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤]ذكر لها أربع علامات:

إحداها: أنهم أذلة على المؤمنين، قيل: معناه أرقاء رحماء مشفقين عاطفين عليهم، فلما ضمن أذلة هذا المعنى عداه بأداة على، قال عطاء رحمه الله: للمؤمنين كالولد لوالده وكالعبد لسيده.

وعلى الكافرين كالأسد على فريسته، ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

العلامة الثالثة: الجهاد في سبيل الله بالنفس واليد والمال واللسان. وذلك تحقيق دعوى المحبة.

العلامة الرابعة: إنهم لا تأخذهم في الله لومة لائم. وهذه علامة صحة المحبة.

فكل محب أخذه اللوم على محبوبه فليس بمحب على الحقيقة.

وقال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [الإسراء: ٥٧]فذكر المقامات الثلاثة: الحب. وهو ابتغاء القرب إليه، والتوسل إليه بالأعمال الصالحة. والرجاء والخوف يدل على أن ابتغاء الوسيلة أمر زائد على رجاء الرحمة وخوف العذاب.

ومن المعلوم قطعًا أنه لا يتنافس إلا في قرب من يحب قربه، وحب قربه تبع لمحبة ذاته، بل محبة ذاته أوجبت محبة القرب منه.

وعند الجهمية والمعطلة: ما من ذلك كله شيء فإنه عندهم لا تقرب ذاته من شيء، ولا يقرب من ذاته شيء، ولا يُحَبُّ لذاته ولا يحب، فأنكروا حياة القلوب، ونعيم الأرواح وبهجة النفوس، وقرة العيون وأعلى نعيم الدنيا والآخرة. ولذلك

ضربت قلوبهم بالقسوة وضرب دونهم ودون الله حجاب على معرفته ومحبته، فلا يعرفونه ولا يحبونه ولا يذكرونه إلا عند تعطيل أسمائه وصفاته، فذكرهم أعظم آثامهم وأوزارهم، بل يعاقبون من يذكره بأسمائه وصفاته ونعوت جلاله ويرمونهم بالأدواء التي هم أحق بها وأهلها.

وحسب ذي البصيرة وحياة القلب ما يرى على كلامهم من القسوة والمقت والتنفير عن محبة الله تعالى ومعرفته وتوحيده والله المستعان.

وقال رحمه الله تعالى أيضًا: لا تحد المحبة بحد أوضح منها، فالحدود لا تزيدها إلا خفاء.

فحدُّها وجودها، ولا توصف المحبة بوصف أظهر من المحبة، وإنما يتكلم الناس في أسبابها وموجباتها وعلاماتها وشواهدها وثمراتها وأحكامها.

وأجمع ما قيل في ذلك: ما ذكره أبو بكر الكتاني عن الجنيد.

قال أبو بكر: جرت مسألة في المحبة بمكة - أعزها الله- في أيام الموسم فتكلم الشيوخ فيها، وكان الجنيد أصغرهم سنًّا، فقالوا: هات ما عندك يا عراقي، فأطرق رأسه ودمعت عيناه، ثم قال: عبد ذاهب عن نفسه، متصل بذكر ربه، قائم بأداء حقوقه، ناظر إليه بقلبه، أحرق قلبه أنوار هيبته، وصفا شِربُه من كأس مودته، وانكشف له الجبار من أستار غيبه، فإن تكلم فبالله، وإن نطق فعن الله، وإن تحرك فبأمر الله، وإن سكن فمع الله، فهو لله وبالله ومع الله. فبكى الشيوخ وقالوا: ما على هذا مزيد، جبرك الله يا تاج العارفين.

وذكر رحمه الله تعالى: أن الأسباب الجالبة للمحبة عشرة:

أحدها: قراءة القرآن بالتدبر والتفهم لمعانيه وما أريد به.

الثاني: التقرب إلى الله تعالى بالنوافل بعد الفرائض.

الثالث: دوام ذكره على كل حال باللسان والقلب والعمل والحال فنصيبه من المحبة على قدر هذا.

الرابع: إيثار محابه على محابك عند غلبات الهوى.

الخامس: مطالعة القلب لأسمائه وصفاته ومشاهدتها وتقلبه في رياض هذه المعرفة وميادينها.

السادس: مشاهدة بره وإحسانه ونعمه الظاهرة والباطنة.

السابع: وهو أعجبها - إنكسار القلب بين يديه.

الثامن: الخلوة وقت النزول الإلهي وتلاوة كتابه ثم ختم ذلك بالاستغفار والتوبة.

التاسع: مجالسة المحبين الصادقين، والتقاط أطايب ثمرات كلامهم، ولا تتكلم إلا إذا ترجحت مصلحة الكلام وعلمت أن فيه مزيدًا لحالك ومنفعة لغيرك.

العاشر: مباعدة كل سبب يحول بين القلب وبين الله عز وجل.

فمن هذه الأسباب العشرة وصل المحبون إلى منازل المحبة ودخلوا على الحبيب.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤]).

ش: أمر الله نبيه ﷺ أن يتوعد من أحب أهله وماله وعشيرته وتجارته ومسكنه فآثرها، أو بعضها على فعل ما أوجبه الله عليه من الأعمال التي يحبها الله تعالى ويرضاها، كالهجرة والجهاد ونحو ذلك.

قال العماد ابن كثير رحمه الله تعالى: أي إن كانت هذه الأشياء ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟﴾ [التوبة: ٢٤] أي انتظروا ما يحل بكم من عقابه.

روى الإمام أحمد وأبو داود - واللفظ له - من حديث أبي عبد الرحمن السلمي عن عطاء الخراساني عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع،**

وتركتم الجهاد، سلط الله عليكم ذلا لا ينزعه عنكم حتى تراجعوا دينكم»[(١)] .

فلا بد من إيثار ما أحبه الله من عبده وأراده على ما يحبه العبد ويريده، فيحب ما يحبه الله ويبغض ما يبغضه، ويوالي فيه ويعادي فيه ويتابع رسوله ﷺ كما تقدم في آية المحنة ونظائرها .

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وعن أنس رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين» أخرجاه[(٢)]) .

ش: أي البخاري ومسلم، قوله: (لا يؤمن أحدكم) أي: الإيمان الواجب، والمراد كماله، حتى يكون الرسول أحب إلى العبد من ولده ووالده والناس أجمعين، بل ولا يحصل هذا الكمال إلا بأن يكون الرسول أحب إليه من نفسه، كما في الحديث: أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: يا رسول الله لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي . فقال: **«والذي نفسي بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك»**، فقال له عمر: فإنك الآن أحب إلي من نفسي، فقال: **«الآن يا عمر»**[(٣)] رواه البخاري .

فمن قال: إن المنفي هو الكمال، فإن أراد الكمال الواجب الذي يذم تاركه ويعرض للعقوبة فقد صدق، وإن أراد أن المنفي الكمال المستحب، فهذا لم يقع قط في كلام الله ورسوله ﷺ . قاله شيخ الإسلام رحمه الله .

فمن ادعى محبة النبي ﷺ بدون متابعة وتقديم قوله على قول غيره فقد كذب كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٤٧] .

فنفى الإيمان عمن تولى عن طاعة الرسول ﷺ، لكن كل مسلم يكون محبًّا بقدر ما معه من الإسلام وكل مسلم لا بد أن يكون مؤمنًا وإن لم يكن مؤمنًا الإيمان المطلق؛

---

(١) صحيح: أبو داود (٣٤٦٢) في البيوع وصححه الألباني هناك وفي الصحيحة (١١).

(٢) رواه البخاري (١٥) في الإيمان، مسلم (٤٤/٦٩، ٧٠) في الإيمان.

(٣) رواه البخاري (٦٦٣٢) في الأيمان والنذور عن عبد الله بن هشام رضي الله عنه.

لأن ذلك لا يحصل إلا لخواص المؤمنين .

قال شيخ الإسلام رحمه الله : وعامة الناس إذا أسلموا بعد كفر ، أو ولدوا على الإسلام والتزموا شرائعه وكانوا من أهل الطاعة لله ورسوله . فهم مسلمون ومعهم إيمان مجمل ، لكن دخول حقيقة الإيمان إلى قلوبهم يحصل شيئًا فشيئًا إن أعطاهم الله ذلك ، وإلا فكثير من الناس لا يصلون إلى اليقين ولا إلى الجهاد ، ولو شككوا لشكوا ، ولو أمروا بالجهاد لما جاهدوا . إذ ليس عندهم من علم اليقين ما يدرأ الريب ، ولا عندهم من قوة الحب لله ورسوله ما يقدمونه على الأهل والمال ، فهؤلاء إن عوفوا من المحنة وماتوا دخلوا الجنة ، وإن ابتلوا بمن يُدخل عليهم شبهات توجب ريبهم فإن لم ينعم الله عليهم بما يزيل الريب وإلا صاروا مرتابين ، وانتقلوا إلى نوع من النفاق . انتهى .

وفي الحديث : أن الأعمال من الإيمان . لأن المحبة عمل القلب .

وفيه : أن محبة الرسول ﷺ واجبة تابعة لمحبة الله لازمة لها ، فإنها محبة لله ولأجله ، تزيد بزيادة محبة الله في قلب المؤمن وتنقص بنقصها ، وكل من كان محبًّا لله فإنما يحب في الله ولأجله كما يحب الإيمان والعمل الصالح . وهذه المحبة ليس فيها شيء من شوائب الشرك كالاعتماد عليه ورجائه في حصول مرغوب منه أو دفع مرهوب منه . وما كان فيها ذلك فمحبته مع الله لما فيها من التعلق على غيره والرغبة إليه من دون الله .

فبهذا يحصل التمييز بين المحبة في الله ولأجله ، التي هي من كمال التوحيد ، وبين المحبة مع الله التي هي محبة الأنداد من دون الله لما يتعلق في قلوب المشركين من الإلهية التي لا تجوز إلا لله وحده ، لا شريك له .

قال المصنف رحمه الله تعالى: (ولهما عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار».

وفي رواية: «لا يجد أحد حلاوة الإيمان حتى يحب المرء لا يحبه إلا لله . . .» إلخ[١] .

ش: قوله : (ولهما عنه) أي : البخاري ومسلم عن أنس .

قوله : (ثلاث) أي ثلاث خصال .

قوله : (من كن) فيه أي وجدت فيه تامة .

قوله : (وجد بهن حلاوة الإيمان) الحلاوة هنا هي التي يعبر عنها بالذوق لما يحصل به من لذة القلب ونعيمه وسروره وغذائه ، وهي شيء محسوس يجده أهل الإيمان في قلوبهم .

قال السيوطي رحمه الله في التوشيح : وجد حلاوة الإيمان فيه استعارة تخييلية . شبه رغبة المؤمن في الإيمان بشيء حلو ، وأثبت له لازم ذلك الشيء ، وأضافه إليه .

وقال النووي : معنى حلاوة الإيمان استلذاذ الطاعات وتحمل المشاق وإيثار ذلك على أغراض الدنيا ، ومحبة العبد لله بفعل طاعته وترك مخالفته . وكذلك الرسول ﷺ .

قال يحيى بن معاذ : حقيقة الحب في الله : أن لا يزيد بالبر ولا ينقص بالجفاء .

قوله : (أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما) يعني بالسوى : ما يحبه الإنسان بطبعه ، كمحبة الولد والمال والأزواج ونحوها . فتكون أحب هنا على بابها .

وقال الخطابي : المراد بالمحبة هنا حب الاختيار لا حب الطبع كذا قال .

وأما المحبة الشركية التي قد تقدم بيانها فقليلها وكثيرها ينافي محبة الله ورسوله وفي بعض الأحاديث : **«أحبوا الله بكل قلوبكم»**[٢] .

فمن علامات محبة الله ورسوله : أن يحب ما يحبه الله ويكره ما يكرهه الله ، ويؤثر مرضاته على ما سواه ، ويسعى في مرضاته ما استطاع ، ويبعد عما حرمه الله ويكرهه أشد الكراهة ، ويتابع رسوله ويمتثل أمره ويترك نهيه ، كما قال تعالى : ﴿مَّن

---

(١) سبق تخريجه في الصحيحين .

(٢) مرسل : البيهقي (٢/ ٥٥٤) في الدلائل عن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عن أبيه .

يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ [النساء: ٨٠] .

فمن آثر أمر غيره على أمره وخالف ما نهى عنه، فمن أحب الله وأطاعه أحب الرسول وأطاعه. ومن لا فلا، كما في آية المحنة، ونظائرها. والله المستعان.

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: أخبر النبي ﷺ أن هذه الثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان. لأن وجود الحلاوة للشيء يتبع المحبة له فمن أحب شيئًا واشتهاه، إذا حصل له مراده فإنه يجد الحلاوة واللذة والسرور بذلك، واللذة أمر يحصل عقيب إدراك الملائم الذي هو المحبوب أو المشتهى.

قال: فحلاوة الإيمان المتضمنة للذة والفرح تتبع كمال محبة العبد لله. وذلك بثلاثة أمور: تكميل هذه المحبة وتفريغها، ودفع ضدها. فتكميلها أن يكون الله ورسوله أحب إلى العبد مما سواهما، فإن محبة الله ورسوله لا يكتفى فيها بأصل الحب، بل لا بد أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما.

قلت: ومحبة الله تعالى تستلزم محبة طاعته، فإنه يحب من عبده أن يطيعه. والمحب يحب ما يحبه محبوبه ولا بد.

ومن لوازم محبة الله أيضًا: محبة أهل طاعته، كمحبة أنبيائه ورسله والصالحين من عباده. فمحبة ما يحبه الله ومن يحبه الله من كمال الإيمان، كما في حديث ابن عباس الآتي.

قال: وتفريغها. أن يحب المرء لا يحبه إلا لله، قال: ودفع ضدها أن يكره ضد الإيمان كما يكره أن يقذف في النار. انتهى.

قوله: (أحب إليه مما سواهما) فيه جمع ضمير الرب سبحانه وتعالى وضمير رسوله ﷺ وفيه قولان:

أحدهما: أنه ثَنَّى الضمير هنا إيماء إلى أن المعتبر هو المجموع المركب من المحبتين، لا كل واحدة، فإنها وحدها لاغية. وأمر بالإفراد في حديث الخطيب [1]

(١) يقصد حديث مسلم (٨٧٠) عن عدي بن حاتم رضي الله عنه وفيه قوله عليه السلام: (بئس خطيب القوم أنت، قل: ومن يعص الله ورسوله...).

إشعارًا بأن كل واحد من العصيانين مستقلٌ باستلزام الغواية؛ إذ العطف في تقدير التكرير، والأصل استقلال كل من المعطوفين في الحكم.

الثاني: حمل حديث الخطيب على الأدب والأولى، وهذا هو الجواز.

وجوابٌ ثالث: وهو أن هذا ورد على الأصل، وحديث الخطيب ناقل فيكون أرجح.

قوله: (كما يَكره أن يُقذف في النار) أي: يستوى عنده الأمران. وفيه ردٌّ على الغلاة الذين يتوهمون أن صدور الذنب من العبد نقص في حقه مطلقًا وإن تاب منه.

والصواب: أنه إن لم يتب كان نقصًا، وإن تاب فلا، ولهذا كان المهاجرون والأنصار رضي الله عنهم أفضل هذه الأمة مع كونهم في الأصل كفارًا فهداهم الله إلى الإسلام، والإسلام يمحو ما قبله، وكذلك الهجرة. كما صح الحديث بذلك [١].

قوله: وفي رواية: «**لا يجد أحدٌ، هذه الرواية أخرجها البخاري في الأدب من «صحيحه»**». ولفظه: (لا يجد أحد حلاوة الإيمان حتى يحبَّ المرءَ لا يحبه إلا لله، وحتى أن يقذف في النار أحب إليه من أن يرجع إلى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه، وحتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما).

وقد تقدم أن المحبة هنا: عبارة عما يجده المؤمن من اللذة والبهجة والسرور والإجلال والهيبة ولوازم ذلك، قال الشاعر:

أهابك إجلالاً وما بك قدرة على ولكن ملءُ عينٍ حبيبُها

قال المصنف رحمه الله تعالى: وعن ابن عباس رضي الله عنهما: «من أحب في الله، وأبغض في الله، ووالى في الله، وعادى في الله، فإنما تنال ولاية الله بذلك، ولن يجد عبدٌ طعم الإيمان -وإن كثرت صلاته وصومه- حتى يكون كذلك. وقد صارت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا، وذلك لا يجدي على أهله شيئًا» [٢] رواه ابن جرير.

---

(١) هو حديث مسلم (١٢١) في الإيمان عن عبد الله بن عمرو بن العاص في قصة إسلام أبيه عمرو رضي الله عنه.

(٢) ذكره ابن رجب الحنبلي في شرح الحديث (٢) من «جامع العلوم والحكم» ص (٥٦) وقال: خرجه

ش: وأخرج ابن أبي شيبة وابن أبي حاتم الجملة الأولى منه فقط .

قوله : (ومن أحب في الله) أي : أحب أهل الإيمان بالله وطاعته ؛ من أجل ذلك .

قوله : (وأبغض في الله) أي : أبغض مَنْ كفر بالله وأشرك به وفسق عن طاعته ؛ لأجل ما فعلوه مما يسخط الله ، وإن كانوا أقرب الناس إليه ، كما قال تعالى : ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة :٢٢] الآية .

قوله : (ووالى في الله) هذا والذي قبله من لوازم محبة العبد لله تعالى ، فمن أحب فيه ، ووالى أولياءه ، وعادى أهل معصيته وأبغضهم ، وجاهد أعداءه ونصر أنصاره . وكلما قويت محبة العبد لله في قلبه قويت هذه الأعمال المترتبة عليها ، وبكمالها يكمل توحيد العبد ، ويكون ضعفها على قدر ضعف محبة العبد لربه ، فمقلٌّ ومستكثر ومحروم .

قوله : (فإنما تُنَالُ ولايةُ الله بذلك) أي : تَوَلِّيه لعبده . وولاية -بفتح الواو لا غير- أي : الأخوة والمحبة والنصرة ، وبالكسر : الإمارة ، والمراد هنا الأول .

ولأحمد والطبراني عن النبي ﷺ قال : **«لا يجد العبد صريح الإيمان حتى يحب لله ويبغض لله . فإذا أحب لله وأبغض لله ، فقد استحق الولاية لله»** (١) .

وفي حديث آخر : **«أوثق عري الإيمان الحب في الله ، والبغض في الله عز وجل»** رواه الطبراني (٢) .

قوله : (ولن يجد عبد طعم الإيمان) إلى آخره . أي : لا يحصل له ذوق الإيمان ولذته وسروره وإن كثرت صلاته وصومه ، حتى يكون كذلك ، أي حتى يحب في الله

ابن جرير ، وابن نصر المروزي .
والأثر عند ابن المبارك في الزهد (٣٥٣) بسند ضعيف ففيه ليث بن أبي سليم وهو : مدلس جدًّا .

(١) ضعيف الإسناد : قال الهيثمي (١/ ٨٩) في المجمع : رواه أحمد وفيه رشدين بن سعد وهو منقطع ضعيف ، وهو عن عمرو بن الجموح رضي الله عنه .

(٢) حسن الإسناد : ابن أبي شيبة (٦/ ١٧٠)و (٧/ ٨٠) في المصنف وقال الألباني في صحيح الجامع (٢٠٠٩) : حسن .

ويبغض في الله، ويعادي في الله، ويوالي في الله.

وفي حديث أبي أمامة مرفوعًا: «من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله، ومنع لله فقد استكمل الإيمان» [١] رواه أبو داود.

قوله: (وقد صارت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا. وذلك لا يجدي على أهله شيئًا) أي: لا ينفعهم، بل يضرهم كما قال تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧].

فإذا كانت البلوى قد عمت بهذا في زمن ابن عباس في خير القرون، فما زاد الأمر بعد ذلك إلا شدة، حتى وقعت الموالاة على الشرك والبدع والفسوق والعصيان. وقد وقع ما أخبر به ﷺ بقوله: «**بدأ الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ**» [٢].

وقد كان الصحابة رضي الله عنهم من المهاجرين والأنصار في عهد نبيهم ﷺ وعهد أبي بكر وعمر رضي الله عنهما يُؤْثِرُ بعضهم بعضًا على نفسه محبة في الله وتقربًا إليه، كما قال تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: لقد رأيتنا على عهد رسول الله ﷺ وما منا أحد يرى أنه أحق بديناره ودرهمه من أخيه المسلم [٣]، رواه ابن ماجه.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وقال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦] **قال: المودة** [٤]).

ش: هذا الأثر رواه عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه.

---

(١) صحيح: أبو داود: (٤٦٨٠) في سننه وصححه الألباني هناك - ط الريان.

(٢) رواه مسلم (١٤٥/ ٢٣٢) في الإيمان عن أبي هريرة رضي الله عنه و(١٤٦) في الإيمان عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٣) ضعيف الإسناد: أحمد (٢/ ٨٤) في المسند، وضعفه العلامة شاكر برقم (٥٥٦٢) وأعله بأبي خباب الكلبي، وبشهر بن حوشب وهما ضعيفان.

(٤) صحيح: الحاكم (٢/ ٢٧٢) في المستدرك وصححه ووافقه الذهبي.

قوله: (قال: المودة) أي: التي كانت بينهم في الدنيا، خانتهم أحوج ما كانوا إليها، وتبرأ بعضهم من بعض، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥].

قال العلامة ابن القيم في قوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦].

فهؤلاء المتبوعون كانوا على الهدى وأتباعهم ادعوا أنهم على طريقهم ومنهاجهم، وهم مخالفون لهم سالكون غير طريقهم، ويزعمون أن محبتهم لهم تنفعهم مع مخالفتهم، فيتبرءون منهم يوم القيامة، فإنهم اتخذوهم أولياء من دون الله.

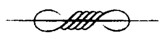
وهذا حال كل من اتخذ من دون الله وليجة وأولياء، يوالي لهم، ويعادي لهم، ويرضى لهم، ويغضب لهم، فإن أعماله كلها باطلة، يراها يوم القيامة حسرات عليه مع كثرتها وشدة تعبه فيها ونصبه، إذ لم يجرد موالاته ومعاداته وحبه وبغضه وانتصاره وإيثاره لله ورسوله، فأبطل الله عز وجل ذلك العمل كله. وقطع تلك الأسباب.

فينقطع يوم القيامة كل سبب وصلة ووسيلة ومودة كانت لغير الله، ولا يبقى إلا السبب الواصل بين العبد وربه. وهو حظه من الهجرة إليه وإلى رسوله وتجريده عبادته لله وحده ولوازمها: من الحب والبغض، والعطاء والمنع، والموالاة والمعاداة، والتقريب والإبعاد، وتجريد متابعة رسول الله ﷺ تجريدًا محضًا بريئًا من شوائب الالتفات إلى غيره، فضلاً عن الشرك بينه وبين غيره، فضلاً عن تقديم قول غيره عليه.

فهذا السبب هو الذي لا ينقطع بصاحبه. وهذه هي النسبة التي بين العبد وربه، وهي نسبة العبودية المحضة، وهي آخيته التي يجول ما يجول وإليها مرجعه، ولا تتحقق إلا بتجريده متابعة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، إذ هذه العبودية إنما جاءت على ألسنتهم، وما عرفت إلا بهم، ولا سبيل إليها إلا بمتابعتهم.

وقد قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]، فهذه هي الأعمال التي كانت في الدنيا على غير سنة رسله وطريقتهم ولغير وجهه،

يجعلها الله هباءً منثورًا لا ينتفع منها صاحبها بشيء أصلاً . وهذا من أعظم الحسرات على العبد يوم القيامة : أن يرى سعيه ضائعًا . وقد سعد أهل السعي النافع بسعيهم . انتهى ملخصًا .



(٣١)

باب

قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران :١٧٥]

قال المصنف رحمه الله تعالى: (باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[آل عمران :١٧٥]) .

ش: الخوف من أفضل مقامات الدين وأجلها، وأجمع أنواع العبادة التي يجب إخلاصها لله تعالى.

قال الله تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾[النحل :٥٠] وقال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾[الرحمن :٤٦] وقال تعالى: ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾[الأنبياء :٢٨] وقال تعالى: ﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾[البقرة: ٤٠] وقال تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ﴾[المائدة :٤٤] وأمثال هذه الآيات في القرآن كثير.

والخوف من حيث هو على ثلاثة أقسام:

أحدها: خوف السر، وهو أن يخاف من غير الله، من وثن أو طاغوت أن يصيبه بما يكره، كما قال تعالى عن قوم هود عليه السلام إنهم قالوا له: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ۗ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِ ۖ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾[هود :٥٤-٥٥] وقال تعالى: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾[الزمر :٣٦] ، وهذا هو الواقع من عُبّاد القبور ونحوها من الأوثان يخافونها، ويخوّفون بها أهل التوحيد إذا أنكروا عبادتها وأمروا بإخلاص العبادة لله، وهذا ينافي التوحيد.

الثاني: أن يترك الإنسان ما يجب عليه، خوفًا من بعض الناس، فهذا محرم وهو

نوع من الشرك بالله المنافي لكمال التوحيد . وهذا هو سبب نزول هذه الآية . كما قال تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ۝ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ۝ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٣-١٧٥].

وفي الحديث : «**إن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة : ما منعك إذ رأيتَ المنكر أن لا تغيره؟ فيقول : رب خشيتُ الناس . فيقول : إياي كنت أحق أن تخشى**» [(١)].

الثالث : الخوف الطبيعي، وهو الخوف من عدو أو سبع أو غير ذلك . فهذا لا يذم . كما قال تعالى في قصة موسى عليه السلام : ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص: ٢١].

ومعنى قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٧٥] أي : يخوِّفكم أولياءه ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥] وهذا نهيٌ من الله تعالى للمؤمنين أن يخافوا غيره، وأمر لهم أن يقصروا خوفهم على الله تعالى، فلا يخافون إلا إياه .

وهذا هو الإخلاص الذي أمر به عباده، ورضيه منهم . فإذا أخلصوا له الخوف وجميع العبادة، أعطاهم ما يرجون، وأمنهم من مخاوف الدنيا والآخرة، قال تعالى : ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٣٦].

قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى : ومن كيد عدو الله : أنه يخوف المؤمنين من جنده وأوليائه، لئلا يجاهدوهم، ولا يأمروهم بمعروف، ولا ينهوهم عن منكر . وأخبر تعالى أن هذا من كيد الشيطان وتخويفه . ونهانا أن نخافهم .

قال : والمعنى عند جميع المفسرين : يخوفكم بأوليائه .

قال قتادة : يعظمهم في صدوركم . فكلما قوى إيمان العبد زال خوف أولياء

---

(١) **حسن الإسناد** : ابن ماجه (٤٠١٧) في سننه وحسنه الألباني هناك - ط الريان وهو عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

الشيطان من قلبه، وكلما ضعف إيمانه قوي خوفه منهم. فدلت هذه الآية على أن إخلاص الخوف من كمال شروط الإيمان.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: ١٨]).

ش: أخبر تعالى أن مساجد الله لا يعمرها إلا أهل الإيمان بالله واليوم الآخر، الذين آمنوا بقلوبهم وعملوا بجوارحهم، وأخلصوا له الخشية دون من سواه.

فأثبت لهم عمارة المساجد بعد أن نفاها عن المشركين؛ لأن عمارة المساجد بالطاعة والعمل الصالح، والمشرك وإن عمل فعمله: ﴿كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾ [النور: ٣٩] أو ﴿كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ [إبراهيم: ١٨] وما كان كذلك فالعدم خير منه، فلا تكون المساجد عامرة إلا بالإيمان الذي معظمه التوحيد مع العمل الصالح الخالص من شوائب الشرك والبدع، وذلك كله داخل في مسمى الإيمان المطلق عند أهل السنة والإجماع.

قوله: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [التوبة: ١٨] قال ابن عطية: يريد خشية التعظيم والعبادة والطاعة، ولا محالة أن الإنسان يخشى المحاذير الدنيوية، وينبغي أن يخشى في ذلك كله قضاء الله وتصريفه.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: الخوف عبودية القلب. فلا يصلح إلا لله، كالذل والإنابة والمحبة والتوكل والرجاء وغيرها من عبودية القلب.

قوله: ﴿فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: ١٨] قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما: يقول: إن أولئك هم المهتدون، وكل ﴿عسى﴾ في القرآن فهي واجبة [(١)].

وفي الحديث: «**إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان قال الله**

(١) ضعيف الإسناد: وفيه انقطاع بين ابن أبي طلحة وابن عباس رضي الله عنهما وفيه أبو صالح كاتب الليث وهو ضعيف، ورواه الطبري (١٦٥٦٩).

تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ [التوبة:١٨] »[1] رواه أحمد والترمذي والحاكم.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت:١٠]) .

ش: قال ابن كثير رحمه الله تعالى: يقول تعالى مخبرًا عن صفات قوم من المكذبين الذين يدَّعون الإيمان بألسنتهم، ولم يثبت في قلوبهم: إنهم إذا جاءتهم محنة وفتنة في الدنيا اعتقدوا أنها من نقمة الله بهم، فارتدوا عن الإسلام. قال ابن عباس رضي الله عنهما: يعني فتنته أن يرتد عن دينه إذا أوذي في الله.

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى: الناس إذا أرسل إليهم الرسل بين أمرين: إما أن يقول أحدهم: آمنا، وإما أن لا يقول ذلك. بل يستمر على السيئات والكفر، فمن قال: آمنا امتحنه ربه وابتلاه وفتنه. والفتنة: الابتلاء والاختبار، ليتبين الصادق من الكاذب، ومن لم يقل: آمنا، فلا يحسب أنه يعجز الله ويفوته ويسبقه.

فمن آمن بالرسل وأطاعهم عاداه أعداؤهم وآذوه وابتلى بما يؤلمه، ومن لم يؤمن بهم ولم يطعهم عوقب في الدنيا والآخرة وحصل له ما يؤلمه، وكان هذا الألم أعظم وأدوم من ألم أتباعهم.

فلا بد من حصول الألم لكل نفس، آمنت أو رغبت عن الإيمان، لكن المؤمن يحصل له الألم في الدنيا ابتداء ثم تكون له العاقبة في الدنيا والآخرة.

والمعرض عن الإيمان تحصل له اللذة ابتداء ثم يصير في الألم الدائم.

والإنسان لا بد أن يعيش مع الناس، والناس لهم إرادات وتصورات، فيطلبون منه أن يوافقهم عليها، وإن لم يوافقهم آذوه وعذبوه، وإن وافقهم حصل له العذاب تارة منهم وتارة من غيرهم.

---

(١) ضعيف: الترمذي (٢٦١٧) في الإيمان عن أبي سعيد وفيه رواية دراج أبي السمح عن أبي الهيثم وهي ضعيفة وبه أعله الألباني هناك.

كمن عنده دين وتقي حل بين قوم فجار ظلمة لا يتمكنون من فجورهم وظلمهم إلا بموافقته لهم أو سكوته عنهم، فإن وافقهم أو سكت عنهم سلم من شرهم في الابتداء، ثم يتسلطون عليه بالإهانة والأذى أضعاف ما كان يخافه ابتداء لو أنكر عليهم وخالفهم، وإن سلم منهم فلا بد أن يهان ويعاقب على يد غيرهم.

فالحزم كل الحزم بما قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها لمعاوية رضي الله عنه: «**من أرضى الله بسخط الناس كفاه الله مئونة الناس. ومن أرضى الناس بسخط الله لم يغنوا عنه من الله شيئًا**»[1].

فمن هداه الله وألهمه رشده ووقاه الله شر نفسه امتنع من الموافقة على فعل المحرم وصبر على عداوتهم، ثم تكون له العاقبة في الدنيا والآخرة، كما كانت للرسل وأتباعهم.

ثم أخبر تعالى عن حال الداخل في الإيمان بلا بصيرة وأنه إذا أوذي في الله جعل فتنة الناس له، وهي أذاهم ونيلهم إياه بالمكروه، وهو الألم الذي لا بد أن ينال الرسل وأتباعهم ممن خالفهم، جعل ذلك في فراره منه وتركه السبب الذي يناله به: كعذاب الله الذي فر منه المؤمنون بالإيمان.

فالمؤمنون لكمال بصيرتهم فروا من ألم عذاب الله إلى الإيمان، وتحملوا ما فيه من الألم الزائل المفارق عن قرب.

وهذا لضعف بصيرته فر من ألم أعداء الرسل إلى موافقتهم ومتابعتهم، ففر من ألم عذابهم إلى ألم عذاب الله. فجعل ألم فتنة الناس في الفرار منه بمنزلة عذاب الله. وغبن كل الغبن إذ استجار من الرمضاء بالنار. وفر من ألم ساعة إلى ألم الأبد، وإذا نصر الله جنده وأولياءه قال: إني كنت معكم، والله أعلم بما انطوى عليه صدره من النفاق. انتهى.

---

(١) **صحيح مرفوعًا وموقوفًا**: والموقوف عند الترمذي (٢٤١٤ مكرر) بترقيم الألباني وتصحيحه، وإن كان في النفس شيء من تصحيحه مرفوعًا، فالصواب وقفه والله أعلم. وانظر في ذلك الزهد لأحمد ص (٢٠٥).

وفي الآية رد على المرجئة والكرَّامية، ووجهه: أنه لم ينفع هؤلاء قولهم: آمنا بالله، مع عدم صبرهم على أذى من عاداهم في الله، فلا ينفع القول والتصديق بدون العمل. فلا يصدق الإيمان الشرعي على الإنسان إلا باجتماع الثلاثة: التصديق بالقلب وعمله، والقول باللسان، والعمل بالأركان. وهذا قول أهل السنة والجماعة سلفًا وخلفًا، والله سبحانه وتعالى أعلم.

وفيه الخوف من مداهنة الخلق في الحق. والمعصوم من عصمه الله.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (عن أبي سعيد رضي الله عنه مرفوعًا: «إن من ضعف اليقين أن ترضى الناس بسخط الله، وأن تحمدهم على رزق الله، وأن تذمهم على ما لم يؤتك الله، إن رزق الله لا يجره حرص حريص، ولا يرده كراهية كاره»)[1].

ش: هذا الحديث رواه أبو نعيم في الحلية والبيهقي، وأعله بمحمد بن مروان السدى وقال: ضعيف، وفي إسناده أيضًا: عطية العوفي، ذكره الذهبي في (الضعفاء). وموسى بن بلال، قال الأزدي: ساقط.

وتمام الحديث: «وإن الله بحكمته جعل الروح والفرح في الرضى واليقين، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط».

قوله: (إن من ضعف اليقين) الضعف يضم ويحرك، ضد القوة، ضعُف ككرم ونصر، ضعفًا، وضعفة، وضعافية، فهو ضعيف وضعوف وضعفان، والجمع: ضعاف وضعفاء وضعفة وضَعَفى وضعافى.

أو الضعف - بالفتح - في الرأي وبالضم في البدن، فهي ضعيفة وضعوف.

و«**اليقين**» المراد به الإيمان كله، كما قال ابن مسعود: «**اليقين الإيمان كله، والصبر نصف الإيمان**»[2] رواه الطبراني بسند صحيح، رواه أبو نعيم فى الحلية، والبيهقي في الزهد من حديثه مرفوعًا.

---

(١) ضعيف: ضعفه المصنف هنا بعلتين وتضعيفه صحيح، ورواه أبو نعيم في الحلية (٥/ ١٠٦) وقال الألباني (٤٩٩) في الضعيفة: منكر.

(٢) صحيح موقوفًا: علقه البخاري باب (١) في كتاب الإيمان ووصله الحافظ (١/ ٤٨) في الفتح وصحح إسناده ووجدته في السُّنة لعبد الله بن أحمد (رقم ٧٩٧).

قال: ويدخل في ذلك تحقيق الإيمان بالقدر السابق، كما في حديث ابن عباس مرفوعًا: «**فإن استطعت أن تعمل بالرضى في اليقين فافعل، فإن لم تستطع فإن في الصبر على ما تكره خيرًا كثيرًا**»(١) وفي رواية: قلت: يا رسول الله كيف أصنع باليقين؟ قال: «**أن تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك**»(٢).

قوله: (أن ترضى الناس بسخط الله) أي: تؤثر رضاهم على رضى الله، بأن توافقهم على ترك ما أمر الله به، وفعل ما نهى عنه، استجلابًا لرضاهم.

وهذا ينافي قوة اليقين، وكمال الإيمان في إيثار ما يُرضي الله على ما تهواه النفوس، والصبر على مخالفة هواها، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ [الأحزاب: ٣٩].

وذلك إذا لم يقم بقلبه من إعظام الله وإجلاله وهيبته ما يمنعه من استجلاب رضى المخلوق بما يجلب له سخط خالقه وربه ومليكه، الذي يتصرف في القلوب ويفرج الكروب ويغفر الذنوب.

وبهذا الاعتبار يدخل في نوع من الشرك؛ لأنه آثر رضى المخلوق على رضى الله. وتقرب إليه بما يسخط الله. ولا يسلم من هذا إلا من سلمه الله. ووفقه لمعرفته ومعرفة ما يجوز على الله من إثبات صفاته على ما يليق بجلاله، وتنزيهه تعالى عن كل ما ينافي كماله، ومعرفة توحيده في ربوبيته وإلهيته وبالله التوفيق.

قوله: (وأن تحمدهم على رزق الله) أي على ما وصل إليك من أيديهم، بأن تضيفه إليهم وتحمدهم عليه. فإن المتفضل في الحقيقة هو الله وحده الذي قدره لك

---

(١) **ضعيف جدًا**: الحاكم (٣/ ٥٤١) وصححه، وتعقبه الذهبي وأعله بـ(عبد الله بن ميمون القداح) وهو: متروك، وبـ(ابن خراس) وهو: مختلف فيه. ورواه أبو نعيم (١/ ٣١٤) في الحلية بسند فيه مجاهيل.

(٢) للحديث أصل عن الترمذي (٢٥١٦) في صفة القيامة وأوله: (يا غلام. إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك...) الحديث. ورواية المصنف ضعيفة، وبذلك حكم الحافظ ابن رجب في جامع العلوم والحكم فى شرح حديث (١٩) ص (٢٨٢).

وأوصله إليك، وإذا أراد أمرًا قيض له أسبابًا.

ولا ينافي هذا حديث: «**من لا يشكر الناس لا يشكر الله**» [١] لأن شكرهم إنما هو بالدعاء لهم لكون الله ساقه على أيديهم فتدعو لهم أو تكافئهم، لحديث: «**من صنع إليكم معروفًا فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه**» [٢]. فإضافة الصنيعة إليهم لكونهم صاروا سببًا في إيصال المعروف إليك، والذي قدره وساقه هو الله وحده.

قوله: (وأن تذمهم على ما لم يؤتك الله) لأنه لم يقدر لك ما طلبته على أيديهم، فلو قدره لك لساقته المقادير إليك. فمن علم أن المتفرد بالعطاء والمنع هو الله وحده وأنه هو الذي يرزق العبد بسبب وبلا سبب، ومن حيث لا يحتسب، لم يمدح مخلوقًا على رزق ولم يذمه على منع، ويفوض أمره إلى الله، ويعتمد عليه في أمر دينه ودنياه.

وقد قرر النبي هذا المعنى بقوله في الحديث: «**إن رزق الله لا يجره حرص حريص ولا يرده كراهية كاره**» كما قال تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢].

قال شيخ الإسلام رحمه الله: اليقين يتضمن اليقين في القيام بأمر الله وما وعد الله أهل طاعته، ويتضمن اليقين بقدر الله وخلقه وتدبيره، فإذا أرضيتهم بسخط الله لم تكن موقنًا لا بوعده ولا برزقه، فإنه إنما يحمل الإنسان على ذلك: إما ميل إلى ما في أيديهم فيترك القيام فيهم بأمر الله لما يرجوه منهم، وإما ضعف تصديقه بما وعد الله أهل طاعته من النصر والتأييد والثواب في الدنيا والآخرة. فإنك إذا أرضيت الله نصرك ورزقك وكفاك مئونتهم.

وإرضاؤهم بما يسخطه إنما يكون خوفًا منهم ورجاءً لهم وذلك من ضعف اليقين. وإذا لم يقدر لك ما تظن أنهم يفعلونه معك فالأمر في ذلك إلى الله لا لهم. فإنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فإذا ذممتهم على ما لم يقدر كان ذلك من ضعف يقينك.

---

(١) صحيح: سبق تخريجه.

(٢) صحيح: أبو داود (١٦٧٢) في الزكاة عن ابن عمر رضي الله عنهما.

فلا تخفهم ولا ترجهم ولا تذمهم من جهة نفسك وهواك، ولكن من حَمدَه الله ورسوله منهم فهو المحمود، ومن ذمه الله ورسوله منهم فهو المذموم.

ولما قال بعض وفد بني تميم: أي محمد أعطني. فإن حمدي زين وذمي شين، قال النبي ﷺ: «ذاك الله» [١] انتهى.

ودل الحديث على أن الإيمان يزيد وينقص وأن الأعمال من مسمى الإيمان.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «من التمس رضا الله بسخط الناس رضي الله عنه وأرضى عنه الناس، ومن التمس رضا الناس بسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس» [٢] **رواه ابن حبان في صحيحه).**

ش: هذا الحديث رواه ابن حبان بهذا اللفظ، ورواه الترمذي عن رجل من أهل المدينة قال: كتب معاوية رضي الله عنه إلى عائشة رضي الله عنها: أن اكتبي لي كتابًا توصيني فيه، ولا تكثري علي، فكتبت عائشة رضي الله عنها: إلى معاوية: سلام عليك، أما بعد: فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله مئونة الناس، ومن التمس رضا الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس. والسلام عليك**» ورواه أبو نعيم في الحلية.

قوله: (من التمس) أي طلب.

قال شيخ الإسلام: وكتبت عائشة إلى معاوية، وروي أنها رفعته: «**من أرضى الله بسخط الناس كفاه الله مئونة الناس، ومن أرضى الناس بسخط الله لم يغنوا عنه من الله شيئًا**» هذا لفظ المرفوع.

ولفظ الموقوف: «**من أرضى الله بسخط الناس رضي الله عنه وأرضى عنه الناس، ومن أرضى الناس بسخط الله عاد حامده من الناس له ذامًا**» [٣].

وهذا من أعظم الفقه في الدين فإن من أرضى الله بسخطهم كان قد اتقاه وكان

---

(١) **حسن بشواهده**: أحمد (٣/ ٤٨٨) في المسند وقد حسنه في الجامع لأسباب النزول.

(٢) انظر ما قبل سبعة تخريجات.

(٣) انظر التخريج السابق.

عبده الصالح، والله يتولى الصالحين، والله كاف عبده: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢-٣] . والله يكفيه مؤنة الناس بلا ريب.

وأما كون الناس كلهم يرضون عنه فقد لا يحصل ذلك، لكن يرضون عنه إذا سلموا من الأغراض وإذا تبين لهم العاقبة. ومن أرضى الناس بسخط الله لم يغنوا عنه من الله شيئًا كالظالم الذي يعض على يديه.

وأما كون حامده ينقلب ذامًّا، فهذا يقع كثيرًا ويحصل في العاقبة. فإن العاقبة للتقوى لا تحصل ابتداء عند أهوائهم. انتهى.

وقد أحسن من قال:

إذا صح منك الود يا غاية المنى   فكل الذي فوق التراب تراب

قال ابن رجب رحمه الله: فمن تحقق أن كل مخلوق فوق التراب فهو تراب فكيف يقدم طاعة من هو تراب على طاعة رب الأرباب؟ أم كيف يرضى التراب بسخط الملك الوهاب؟ إن هذا لشيء عجاب.

وفي الحديث: عقوبة من خاف الناس وآثر رضاهم على الله، وأن العقوبة قد تكون في الدين. عياذًا بالله من ذلك. كما قال تعالى: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾ [التوبة: ٧٧] .



(٣٢)

باب

قول الله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾

قال المصنف رحمه الله تعالى:(باب قوله الله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة :٢٣]) .

ش: قال أبو السعادات : يقال : توكل بالأمر . إذا ضمن القيام به ، ووكلت أمري إلى فلان . إذا اعتمدت عليه ، ووكل فلان فلانًا إذا استكفاه أمره ثقة بكفايته ، أو عجزًا عن القيام بأمر نفسه . انتهى .

وأراد المصنف رحمه الله بهذه الترجمة بالآية بيان أن التوكل فريضة يجب إخلاصه لله تعالى ، فإن تقديم المعمول يفيد الحصر . أي وعلى الله فتوكلوا لا على غيره ، فهو من أجمع أنواع العبادة وأعظمها ، لما ينشأ عنه من الأعمال الصالحة ، فإنه إذا اعتمد على الله في جميع أموره الدينية والدنيوية ، دون كل من سواه صح إخلاصه ومعاملته مع الله تعالى .

فهو من أعظم منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة :٥]فلا يحصل كمال التوحيد بأنواعه الثلاثة إلا بكمال التوكل على الله ، كما في هذه الآية ، وكما قال تعالى : ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ [يونس :٨٤]وقوله : ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل :٩]والآيات في الأمر به كثيرة جدًا .

قال الإمام أحمد رحمه الله : التوكل عمل القلب .

وقال ابن القيم في معنى الآية المترجم بها : فجعل التوكل على الله شرطًا في الإيمان فدل على انتفاء الإيمان عند انتفائه ، وفي الآية الأخرى : ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن

﴿كُنتُمْ ءَامَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [يونس: ٨٤] فجعل دليل صحة الإسلام التوكل، وكلما قوى إيمان العبد كان توكله أقوى، وإذا ضعف الإيمان ضعف التوكل وإذا كان التوكل ضعيفًا كان دليلاً على ضعف الإيمان ولا بد. والله تعالى يجمع بين التوكل والعبادة، وبين التوكل والإيمان، وبين التوكل والتقوى، وبين التوكل والإسلام، وبين التوكل والهداية.

فظهر أن التوكل أصل لجميع مقامات الإيمان والإحسان، ولجميع أعمال الإسلام، وأن منزلته منها كمنزلة الجسد من الرأس، فكما لا يقوم الرأس إلا على البدن فكذلك لا يقوم الإيمان ومقاماته وأعماله إلا على ساق التوكل.

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: وما رجا أحد مخلوقًا ولا توكل عليه إلا خاب ظنه فيه، فإنه مشرك: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١].

قال الشارح رحمه الله تعالى: قلت: لكن التوكل على الله قسمان:

أحدهما: التوكل في الأمور التي لا يقدر عليها إلا الله، كالذين يتوكلون على الأموات والطواغيت في رجاء مطالبهم من نصر، أو حفظ أو رزق أو شفاعة. فهذا شرك أكبر.

الثاني: التوكل في الأسباب الظاهرة، كمن يتوكل على أمير أو سلطان فيما أقدره الله تعالى عليه من رزق، أو دفع أذى ونحو ذلك، فهو نوع شرك أصغر.

والوكالة الجائزة هي توكيل الإنسان الإنسان في فعل ما يقدر عليه نيابة عنه، لكن ليس له أن يعتمد عليه في حصول ما وكل فيه، بل يتوكل على الله في تيسير أمره الذي يطلبه بنفسه أو نائبه، وذلك من جملة الأسباب التي يجوز فعلها، ولا يعتمد عليها بل يعتمد على المسبب الذي أوجد السبب والمسبب.

قال المصنف رحمه الله تعالى:(وقوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢]).

ش: قال ابن عباس في الآية: المنافقون لا يدخل في قلوبهم شيء من ذكر الله عند

أداء فرائضه ولا يؤمنون بشيء من آيات الله، ولا يتوكلون على الله، ولا يصلون إذا غابوا، ولا يؤدون زكاة أموالهم، فأخبر الله أنهم ليسوا بمؤمنين، ثم وصف المؤمنين فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢] فأدوا فرائضه [(١)]، رواه ابن جرير وابن أبي حاتم.

ووجل القلب من الله يستلزم القيام بفعل ما أمر به وترك ما نهى عنه.

قال السدي: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢]: هو الرجل يريد أن يظلم، أو قال يهم بمعصية، فيقال له: اتق الله، فيجل قلبه [(٢)]. رواه ابن أبي شيبة وابن جرير.

قوله: (﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢]) استدل الصحابة رضي الله عنهم والتابعون ومن تبعهم من أهل السنة بهذه الآية ونظائرها على زيادة الإيمان ونقصانه.

قال عمير بن حبيب الصحابي: إن الإيمان يزيد وينقص، فقيل له: وما زيادته ونقصانه؟ قال: إذا ذكرنا الله وخشيناه فذلك زيادته. وإذا غفلنا ونسينا وضيعنا فذلك نقصانه [(٣)]. رواه ابن سعد.

وقال مجاهد: الإيمان يزيد وينقص وهو قول وعمل [(٤)]. رواه ابن أبي حاتم. وحكى الإجماع على ذلك الشافعي وأحمد وأبو عبيد وغيرهم رحمهم الله تعالى.

قوله: (﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢]) أي يعتمدون عليه بقلوبهم مفوضين إليه أمورهم فلا يرجون سواه ولا يقصدون إلا إياه، ولا يرغبون إلا إليه، يعلمون أن ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه المتصرف في الملك وحده، والمعبود وحده لا شريك له.

---

(١) **منقطع**: بين ابن أبي طلحة وابن عباس، وفي السند أبو صالح، والأثر عند الطبري (٦/ ٧٩) واللالكائي (١٦٠٢) في شرح أصول الاعتقاد.

(٢) **صحيح**: ابن أبي حاتم (٨٧٧٨) في تفسيره، والطبري برقم (١٥٧٠٢) في تفسيره.

(٣) **ضعيف**: اللالكائي (١٧٢١) في شرح الأصول، ابن أبي شيبة (٣٠٣٢٧) في المصنف، الطبري (١/ ٢٥-٢٨) في صريح السنة.

(٤) **ضعيف الإسناد**: فيه يزيد بن أبي زياد وهو ضعيف، ورواه اللالكائي (١٧٢٨) في شرح أصول الاعتقاد، والبخاري (٦/ ١٠٥) في التاريخ الكبير، والبيهقي (٥٨) في شُعب الإيمان.

وفي الآية وصف المؤمنين حقًا بثلاث مقامات من مقامات الإحسان، وهي: الخوف، وزيادة الإيمان، والتوكل على الله وحده. وهذه المقامات تقتضي كمال الإيمان وحصول أعماله الباطنة والظاهرة. مثال ذلك الصلاة، فمن أقام الصلاة وحافظ عليها وأدى الزكاة كما أمره الله استلزم ذلك العمل بما يقدر عليه من الواجبات وترك جميع المحرمات، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَآءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٤]).

ش: قال ابن القيم رحمه الله: أي الله وحده كافيك وكافي أتباعك: فلا تحتاجون معه إلى أحد، وهذا اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله.

وقيل: المعنى حسبك الله وحسبك المؤمنون.

قال ابن القيم رحمه الله: وهذا خطأ محض لا يجوز حمل الآية عليه، فإن الحسب والكفاية لله وحده كالتوكل والتقوى والعبادة. قال الله تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٢].

ففرق بين الحسب والتأييد، فجعل الحسب له وحده وجعل التأييد له بنصره وبعباده، وأثنى على أهل التوحيد من عباده حيث أفردوه بالحسب، فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣] ولم يقولوا: حسبنا الله ورسوله. ونظير هذا قوله سبحانه: ﴿وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى اللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾ [التوبة: ٥٩].

فتأمل كيف جعل الإيتاء لله والرسول، وجعل الحسب له وحده. فلم يقل: وقالوا حسبنا الله ورسوله، بل جعله خالص حقه، كما قال: ﴿إِنَّآ إِلَى اللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾ [التوبة: ٥٩] فجعل الرغبة إليه وحده، كما قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب﴾ [الشرح: ٨] فالرغبة والتوكل والإنابة والحسب لله وحده، كما أن العبادة والتقوى والسجود والنذر والحلف لا يكون إلا له سبحانه وتعالى. انتهى.

وبهذا يتبين مطابقة الآية للترجمة . فإذا كان هو الكافي لعبده وجب ألا يتوكل إلا عليه ، ومتى التفت بقلبه إلى سواه وكله الله إلى من التفت إليه ، كما في الحديث : «من تعلق شيئا وُكِل إليه» (١).

قال المصنف رحمه الله تعالى:(وقول الله تعالى : ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق :٣]) .

ش: **قال ابن القيم رحمه الله وغيره** : أي كافيه . ومن كان الله كافيه وواقيه فلا مطمع فيه لعدوه ولا يضره إلا أذى لا بد منه ، كالحر والبرد والجوع والعطش . وأما أن يضره بما يبلغ به مراده منه فلا يكون أبدًا ، وفرق بين الأذى الذي هو فى الظاهر إيذاء وفي الحقيقة إحسان وإضرار بنفسه ، وبين الضرر الذي يتشفى به منه .

قال بعض السلف : جعل الله لكل عمل جزاء من نفسه ، وجعل جزاء التوكل عليه نفس كفايته ، فقال : ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق :٣]فلم يقل : فله كذا وكذا من الأجر كما قال في الأعمال ، بل جعل نفسه سبحانه كافي عبده المتوكل عليه وحسبه وواقيه . فلو توكل العبد على الله حق توكله ، وكادته السموات والأرض ومن فيهن ، لجعل الله له مخرجًا وكفاه رزقه ونصره . انتهى .

وفي أثر رواه أحمد في الزهد عن وهب بن منبه قال : «**قال الله عز وجل في بعض كتبه : بعزتي إنه من اعتصم بي فكادته السموات بمن فيهن والأرضون بمن فيهن ، فإني أجعل له من ذلك مخرجًا ، ومن لم يعتصم بي فإني أقطع يديه من أسباب السماء وأخسف من تحت قدميه الأرض ، فأجعله في الهواء ثم أكله إلى نفسه . كفى بي لعبدي مآلاً . إذا كان عبدي في طاعتي أعطيه قبل أن يسألني ، وأستجيب له قبل أن يدعوني . فأنا أعلم بحاجته التي ترفق به منه**» (٢).

وفي الآية دليل على فضل التوكل ، وأنه أعظم الأسباب في جلب المنافع ودفع

---

(١) حسن : سبق تخريجه .

(٢)خبر من الإسرائيليات ، وقال الألباني : موضوع ، والحديث فيه ابن السّفر وهو وضّاع وانظر جامع المسانيد (٢/ ١٢٣) والكنز (٥٦٩٢) للمتقى الهندي .

المضار؛ لأن الله تعالى علق الجملة الأخيرة على الأولى تعليق الجزاء على الشرط. فيمتنع أن يكون وجود الشرط كعدمه؛ لأنه الله تعالى رتب الحكم على الوصف المناسب له، فعلم أن توكله هو سبب كون الله حسبًا له.

وفيه: تنبيه على القيام بالأسباب مع التوكل، لأنه تعالى ذكر التقوى ثم ذكر التوكل، كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [المائدة: ١١] فجعل التوكل مع التقوى الذي هو قيام بالأسباب المأمور بها. فالتوكل بدون القيام بالأسباب المأمور بها عجز محض، وإن كان مشوبًا بنوع من التوكل.

فلا ينبغي للعبد أن يجعل توكله عجزًا ولا عجزه توكلاً، بل يجعل توكله من جملة الأسباب التي لا يتم المقصود إلا بها كلها. ذكره ابن القيم بمعناه.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾، قالها إبراهيم ﷺ حين ألقي في النار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا له: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣][(١)] رواه البخاري والنسائي).

ش: قوله: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾ أي كافينا. فلا نتوكل إلا عليه. قال تعالى ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦].

قوله: ﴿وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ أي نعم الموكول إليه، كما قال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٨] ومخصوص نعم محذوف تقديره هو.

قال ابن القيم رحمه الله: هو حسب من توكل عليه وكافي من لجأ إليه، وهو الذي يؤمن خوف الخائف، ويجير المستجير، فمن تولاه واستنصر به وتوكل عليه، وانقطع بكليته إليه، تولاه وحفظه وحرسه وصانه. ومن خافه واتقاه، أمنه مما يخاف ويحذر، ويجلب إليه ما يحتاج إليه من المنافع.

قوله: (قالها إبراهيم ﷺ حين ألقي في النار) قال تعالى: ﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ

---

(١) رواه البخاري (٤٥٦٣) في التفسير.

ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ۝ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۝ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾ [الأنبياء: ٦٨-٧٠] .

قوله: (وقالها محمد ﷺ حين قالوا له: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣] .

وذلك بعد منصرف قريش والأحزاب من أحد بلغه أن أبا سفيان ومن معه قد أجمعوا الكرة عليهم، فخرج النبي ﷺ في سبعين راكبًا حتى انتهى إلى حمراء الأسد، فألقى الله الرعب في قلب أبي سفيان. فرجع إلى مكة بمن معه، ومر به ركب من عبد القيس فقال: أين تريدون؟ قالوا: نريد المدينة. قال: فهل أنتم مبلغون محمدًا عني رسالة؟ قالوا: نعم. قال: فإذا وافيتموه فأخبروه أنا قد أجمعنا السير إليه وإلى أصحابه لنستأصل بقيتهم. فمر الركب برسول الله ﷺ وهو بحمراء الأسد، فأخبروه بالذي قال أبو سفيان. فقال: «**حسبنا الله ونعم الوكيل**» (١).

ففي هاتين القصتين فضل هذه الكلمة العظيمة وأنها قول الخليلين عليهما الصلاة والسلام في الشدائد. وجاء في الحديث: «**إذا وقعتم في الأمر العظيم فقولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل**» (٢).



(١) القصة رواها الطبري (٨٢٤٣) بسند ضعيف، لكنها مشهورة عند أهل السير.

(٢) **ضعيف**: وقد ضعفه الألباني (٨٢٩) في صحيح الجامع بناءً على تضعيف ابن كثير - رحمه الله - فقد قال في تفسيره (٢/ ١٢١): هذا حديث غريب من هذا الوجه.

(٣٣)



قول الله: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾

قال المصنف رحمه الله تعالى: (باب قول الله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف:٩٩]).

ش: قصد المصنف رحمه الله بهذه الآية التنبيه على أن الأمن من مكر الله من أعظم الذنوب وأنه ينافي كمال التوحيد، كما أن القنوط من رحمة الله كذلك وذلك يرشد إلى أن المؤمن يسير إلى الله بين الخوف والرجاء، كما دل على ذلك الكتاب والسنة وأرشد إليه سلف الأمة والأئمة.

ومعنى الآية: أن الله تبارك وتعالى لما ذكر حال أهل القرى المكذبين للرسل بيّن أن الذي حملهم على ذلك هو الأمن من مكر الله وعدم الخوف منه، كما قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ۝ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف:٩٧-٩٩]. أي الهالكون.

وذلك أنهم أمنوا مكر الله لما استدرجهم بالسراء والنعيم، فاستبعدوا أن يكون ذلك مكرًا.

قال الحسن رحمه الله: من وسَّع الله عليه فلم ير أنه يمكر به فلا رأى له[1].

وقال قتادة: بغت القوم أمرُ الله، وما أخذ الله قومًا قط إلا عند سَلْوتهم ونعمتهم

(١) رواه ابن أبي حاتم (٧٢٩٣) في تفسيره وفيه رجل مبهم فهو ضعيف.

وغرتهم . فلا تغتروا بالله [١] .

وفي الحديث : «**إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب فإنما هو استدراج**» [٢] رواه أحمد وابن جرير وابن أبي حاتم .

وقال إسماعيل بن رافع : «**من الأمن من مكر الله إقامة العبد على الذنب يتمنى على الله المغفرة**» [٣] رواه ابن أبي حاتم .

وهذا هو تفسير المكر في قول بعض السلف : يستدرجهم الله بالنعم إذا عصوه ، ويملي لهم ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر . وهذا هو معنى المكر والخديعة ونحو ذلك ، ذكره ابن جرير بمعناه .

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وقول الله تعالى : ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحجر :٥٦]) .

ش: القنوط : استبعاد الفرج واليأس منه . وهو يقابل الأمن من مكر الله . وكلاهما ذنب عظيم . وتقدم ما فيه لمنافاته لكمال التوحيد .

وذكر المصنف رحمه الله ، تعالى هذه الآية مع التي قبلها تنبيهًا على أنه لا يجوز لمن خاف الله أن يقنط من رحمته ، بل يكون خائفًا راجيًا ، يخاف ذنوبه ويعمل بطاعته ، ويرجو رحمته ، كما قال تعالى : ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ [الزمر : ٩] وقال : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة :٢١٨] .

فالرجاء مع المعصية وترك الطاعة غرور من الشيطان ، ليوقع العبد في المخاوف مع ترك الأسباب المنجية من المهالك ، بخلاف حال أهل الإيمان الذين أخذوا بأسباب النجاة خوفًا من الله تعالى وهربًا من عقابه ، وطمعًا في المغفرة ورجاء لثوابه .

---

(١) صحيح الإسناد : ابن أبي حاتم (٧٢٩٤) في تفسيره .

(٢) صحيح : أحمد (٤/ ١٤٥) في المسند وصححه الألباني (٤١٣) في الصحيحة عن عقبة بن عامر رضي الله عنه .

(٣) ضعيف : ابن أبي حاتم (٨٧٧٣) من طريق أيوب بن سويد وهو : ضعيف .

والمعنى: أن الله تعالى حكى قول خليله إبراهيم عليه السلام، لما بشرته الملائكة بابنه إسحاق: ﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ [الحجر: ٥٤] لأن العادة أن الرجل إذا كبر سنه وسن زوجته استبعد أن يولد له منها. والله على كل شيء قدير، فقالت الملائكة: ﴿بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [الحجر: ٥٥] الذي لا ريب فيه. فإن الله إذا أراد شيئًا إنما يقول له كن فيكون: ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ﴾ [الحجر: ٥٥] أي من الآيسين، فقال عليه السلام: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦] فإنه يعلم من قدرة الله ورحمته ما هو أبلغ من ذلك وأعظم، لكنه - والله أعلم - قال ذلك على وجه التعجب.

قوله: ﴿إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦] قال بعضهم: إلا المخطئون طريق الصواب، أو إلا الكافرون. كقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ سئل عن الكبائر، فقال: «الشرك بالله، واليأس من روح الله، والأمن من مكر الله» [١]).

ش: هذا الحديث رواه البزار وابن أبي حاتم من طريق شبيب بن بشر عن عكرمة عن ابن عباس ورجاله ثقات إلا شبيب بن بشر. فقال ابن معين: ثقة. ولينه أبو حاتم. وقال ابن كثير: في إسناده نظر. والأشبه أن يكون موقوفًا.

قوله: (الشرك بالله) هو أكبر الكبائر.

قال ابن القيم رحمه الله: الشرك بالله هضم للربوبية وتنقص للإلهية، وسوء ظن برب العالمين. انتهى. ولقد صدق ونصح.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١] وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] ولهذا لا يغفره الله إلا بالتوبة منه.

قوله: (واليأس من روح الله) أي قطع الرجاء والأمل من الله فيما يخافه ويرجوه، وذلك إساءة ظن بالله، وجهل به وبسعة رحمته وجوده ومغفرته.

---

(١) ضعيف: قال ابن كثير (٢/ ١٩٩) في تفسيره: وفي إسناده نظر، والأشبه أن يكون موقوفًا، فقد رُوي عن ابن مسعود نحو ذلك. اهـ.

قوله: (والأمن من مكر الله) أي من استدراجه للعبد وسلبه ما أعطاه من الإيمان، نعوذ بالله من ذلك. وذلك جهل بالله وبقدرته، وثقة بالنفس وعجب بها.

واعلم أن هذا الحديث لم يرد به حصر الكبائر في الثلاث، بل الكبائر كثيرة وهذه الثلاث من أكبر الكبائر المذكورة في الكتاب والسنة، وضابطها:

ما قاله المحققون من العلماء: كل ذنب ختمه الله بنار أو لعنة أو غضب أو عذاب. زاد شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: أو نفي الإيمان.

قلت: ومن برئ منه رسول الله ﷺ، أو قال: «**ليس منا من فعل كذا وكذا**».

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: هي إلى سبعمائة أقرب منها إلى سبع، غير أنه لا كبيرة مع الاستغفار ولا صغيرة مع الإصرار [١].

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «أكبر الكبائر الإشراك بالله. والأمن من مكر الله، والقنوط من رحمة الله، واليأس من روح الله» [٢] **رواه عبد الرزاق)**.

ش: ورواه ابن جرير بأسانيد صحاح عن ابن مسعود رضي الله عنه.

قوله: (أكبر الكبائر: الإشراك بالله) أي: في ربوبيته أو عبادته. وهذا بالإجماع.

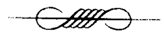
قوله: (والقنوط من رحمة الله) قال أبو السعادات: هو أشد اليأس.

وفيه: التنبيه على الرجاء والخوف، فإذا خاف فلا يقنط ولا ييأس، بل يرجو رحمة الله. وكان السلف يستحبون أن يقوى في الصحة الخوف، وفي المرض الرجاء. وهذه طريقة أبي سليمان الداراني وغيره. قال: وينبغي للقلب أن يكون الغالب عليه الخوف، فإذا غلب الرجاء الخوف فسد القلب. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك: ١٢] وقال: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [النور: ٣٧] وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ

---

(١) رواه ابن كثير (٢/ ٢٠٢) في تفسيره بسند حسن، وعزاه لابن جرير الطبري في تفسيره.
(٢) صحيح: ابن كثير (٢/ ١٩٩) في تفسيره وقال: وهو صحيح إليه بلا شك.

رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠-٦١] وقال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْآخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٩] الآية . قدم الحذر على الرجاء في هذه الآية .



(٣٤)



من الإيمان بالله الصبر على أقدار الله

قال المصنف رحمه الله تعالى: (باب من الإيمان بالله: الصبر على أقدار الله).

ش: قال الإمام أحمد: ذكر الله تعالى الصبر في تسعين موضعًا من كتابه. وفي الحديث الصحيح: «**الصبر ضياء**» [(١)] رواه أحمد ومسلم.

وللبخاري ومسلم مرفوعًا: «**ما أعطى أحد عطاء خيرًا أوسع من الصبر**» [(٢)] قال عمر رضي الله عنه: وجدنا خير عيشنا بالصبر [(٣)] رواه البخاري.

قال علي رضي الله عنه: (إن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد - ثم رفع صوته - فقال: ألا إنه لا إيمان لمن لا صبر له) [(٤)].

واشتقاقه: من صبر إذا حبس ومنع. والصبر حبس النفس عن الجزع، وحبس اللسان عن التشكي والتسخط، والجوارح عن لطم الخدود وشق الجيوب ونحوهما. ذكره ابن القيم رحمه الله.

---

(١) رواه مسلم (٢٢٣) في الطهارة من حديث عن أبي مالك الحارث الأشعري.

(٢) رواه البخاري (١٤٦٩) في الزكاة، مسلم (١٠٥٣/ ١٢٤) في الزكاة عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٣) علقه البخاري باب (٢٠) في الرقاق، ووصله الحافظ في الفتح (١١/ ٣٠٤) وعزاه لأحمد في الزهد بسند صحيح عن مجاهد قال: قال عمر... وللحاكم عن سعيد بن المسيب عن عمر، قلت: وسعيد وإن كان قد اختلف في سماعه من عمر إلا أن مراسيله مقبولة.

(٤) ضعيف جدًا: ابن أبي شيبة (٧/ ١٠١) في المصنف، والجامع (١١/ ١٦٩) لمعمر بن راشد عن الحكم بن أبان عن عكرمة عن علي وضعفه الألباني مرفوعًا (٣٥٣٥) في ضعيف الجامع.

واعلم أن الصبر ثلاثة أقسام: صبر على ما أمر الله به، وصبر عما نهى عنه، وصبر على ما قدره من المصائب.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وقول الله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التغابن: ١١]).

ش: وأول الآية: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ﴾ [التغابن: ١١] أي بمشيئته وإرادته وحكمته، كما قال في الآية الآخرى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢] وقال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧].

قوله: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ﴾ [التغابن: ١١] قال ابن عباس في قوله: ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ﴾ [التغابن: ١١] إلا بأمر الله يعني عن قدره ومشيئته ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ﴾ [التغابن: ١١] أي من أصابته مصيبة فعلم أنها بقدر الله فصبر واحتسب واستسلم لقضاء الله هدى الله قلبه وعوضه عما فاته من الدنيا هدى في قلبه، ويقينًا صادقًا. وقد يخلف عليه ما كان أخذ منه.

قوله: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التغابن: ١١] تنبيه على أن ذلك إنما يصدر عن علمه المتضمن لحكمته. وذلك يوجب الصبر والرضا.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (قال علقمة: هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم) (١).

ش: هذا الأثر رواه ابن جرير وابن أبي حاتم.

وعلقمة: هو ابن قيس بن عبد الله النخعي الكوفي. ولد في حياة النبي ﷺ، وسمع من أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وسعد وابن مسعود وعائشة وغيرهم رضي الله عنهم. وهو من كبار التابعين، وأجلائهم وعلمائهم وثقاتهم مات بعد الستين.

---

(١) **رجاله ثقات:** عبد الرزّاق (٣٢٢٨) في تفسيره.

قوله: (هو الرجل تصيبه المصيبة) إلخ. هذا الأثر رواه الأعمش عن أبي ظبيان. قال: كنا عند علقمة فقرئ عليه هذه الآية: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن: ١١] قال هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم. هذا سياق ابن جرير، وفي هذا دليل على أن الأعمال من مسمى الإيمان.

قال سعيد بن جبير: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن: ١١] يعني يسترجع [١]. يقول: إنا لله وإنا إليه راجعون.

وفي الآية بيان أن الصبر سبب لهداية القلوب وأنها من ثواب الصابرين.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «اثنتان في الناس هما بهم كفر: الطعن في النسب، والنياحة على الميت» [٢]).

ش: أي هما بالناس كفر حيث كانتا من أعمال الجاهلية، وهما قائمتان بالناس ولا يسلم منهما إلا من سلمه الله تعالى ورزقه علمًا وإيمانًا يستضيء به. لكن ليس من قام به شعبة من شعب الكفر يصير كافرًا كالكفر المطلق. كما أنه ليس من قام به شعبة من شعب الإيمان يصير مؤمنًا الإيمان المطلق. وفرق بين الكفر المعرف باللام كما في قوله: «**ليس بين العبد وبين الكفر أو الشرك إلا ترك الصلاة**» [٣] وبين كفر منكر في الإثبات.

قوله: (الطعن في النسب) أي عيبه، يدخل فيه أن يقال: هذا ليس ابن فلان مع ثبوت نسبه.

قوله: (والنياحة على الميت) أي رفع الصوت بالندب وتعداد فضائل الميت، لما فيه من التسخط على القدر المنافي للصبر، كقول النائحة: وا عضداه، وا ناصراه، ونحو ذلك.

---

(١) ابن كثير (٨/ ١١٠) في تفسيره.
(٢) رواه مسلم (٦٧) في الإيمان.
(٣) رواه مسلم (٨٢) في الإيمان عن جابر مرفوعًا، وهذا لفظ ابن ماجه (١٠٨٠) في إقامة الصلاة.

وفيه دليل على أن الصبر واجب، وأن من الكفر ما لا ينقل عن الملة.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (ولهما عن ابن مسعود مرفوعًا: «ليس منا من ضرب الخدود، وشق الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية» [(١)]).

ش: هذا من نصوص الوعيد، وقد جاء عن سفيان الثوري وأحمد كراهية تأويلها ليكون أوقع في النفوس، وأبلغ في الزجر، وهو يدل على أن ذلك ينافي كمال الإيمان الواجب.

قوله: (من ضرب الخدود) وقال الحافظ: خص الخد لكونه الغالب وإلا فضرب بقية الوجه مثله.

قوله: (وشق الجيوب) هو الذي يدخل فيه الرأس من الثوب، وذلك من عادة أهل الجاهلية حزنًا على الميت.

قوله: (ودعا بدعوى الجاهلية) قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: هو ندب الميت. وقال غيره: هو الدعاء بالويل والثبور. وقال ابن القيم رحمه الله: الدعاء بدعوى الجاهلية كالدعاء إلى القبائل والعصبية، ومثله التعصب إلى المذاهب والطوائف والمشايخ، وتفضيل بعضهم على بعض، يدعو إلى ذلك ويوالي عليه ويعادي، فكل هذا من دعوى الجاهلية.

وعند ابن ماجه وصححه ابن حبان عن أبي أمامة: أن رسول الله ﷺ لعن الخامشة وجهها، والشاقة جيبها، والداعية بالويل والثبور [(٢)].

وهذا يدل على أن هذه الأمور من الكبائر، وقد يعفى عن الشيء اليسير من ذلك إذا كان صدقًا وليس على وجه النوح والتسخط نص عليه أحمد رحمه الله، لما وقع لأبي بكر وفاطمة رضي الله عنهما لما توفي رسول الله ﷺ.

وليس في هذه الأحاديث ما يدل على النهي عن البكاء، لما في الصحيح أن رسول الله ﷺ لما مات ابنه إبراهيم قال: «**تدمع العين ويحزن القلب، ولا نقول إلا ما**

---

(١) رواه البخاري (١٢٩٤) في الجنائز، مسلم (١٠٣) في الإيمان.
(٢) حسن الإسناد: ابن ماجه (١٥٨٥) في الجنائز وحسنه الألباني هناك - ط الرياض.

يرضي الرب، وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون» [١] .

وفي الصحيحين عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ انطلق إلى إحدى بناته ولها صبي في الموت، فرفع إليه ونفسه تقعقع كأنها شن، ففاضت عيناه، فقال سعد: ما هذا يا رسول الله؟ قال: «**هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء**» [٢] .

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أراد الله بعبده الخير عجل له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد بعبده الشر أمسك عنه بذنبه حتى يوافى به يوم القيامة» [٣]) .

ش: هذا الحديث رواه الترمذي والحاكم وحسنه الترمذي. وأخرجه الطبراني والحاكم عن عبد الله بن مغفل وأخرجه ابن عدي عن أبي هريرة، والطبراني عن عمار بن ياسر.

قوله: (إذا أراد الله بعبده الخير عجل له العقوبة في الدنيا) أي يصب عليه البلاء والمصائب لما فرط من الذنوب منه، فيخرج منها وليس عليه ذنب يوافى به يوم القيامة.

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: المصائب نعمة؛ لأنها مكفرات للذنوب، وتدعو إلى الصبر فيثاب عليها. وتقتضي الإنابة إلى الله والذل له، والإعراض عن الخلق، إلى غير ذلك من المصالح العظيمة.

فنفس البلاء يكفر الله به الذنوب والخطايا. وهذا من أعظم النعم. فالمصائب رحمة ونعمة في حق عموم الخلق إلا أن يدخل صاحبها بسببها في معاصي أعظم مما كان قبل ذلك فيكون شرًّا عليه من جهة ما أصابه في دينه، فإن من الناس من إذا ابتلى

---

(١) رواه البخاري (١٣٠٣) في الجنائز، مسلم (٢٣١٥) في الفضائل عن أنس رضي الله عنه.
(٢) رواه البخاري (١٢٨٤) في الجنائز، مسلم (٩٢٣) في الجنائز.
(٣) حسن صحيح: كذلك قال الألباني (٢٣٩٦) في الزهد - من سنن الترمذي ص (٥٤٠) ط الرياض. وجوّد الهيثمي إسناده (١٠/ ١٩٢) وعزاه للطبراني في الكبير.

بفقر أو مرض أو وجع حصل له من النفاق والجزع ومرض القلب والكفر الظاهر وترك بعض الواجبات وفعل بعض المحرمات ما يوجب له الضرر في دينه، فهذا كانت العافية خيرًا له من جهة ما أورثته المصيبة لا من جهة نفس المصيبة، كما أن من أوجبت له المصيبة صبرًا وطاعة، كانت في حقه نعمة دينية، فهي بعينها فعل الرب عز وجل ورحمة للخلق والله تعالى محمود عليها.

فمن ابتلي فرزق الصبر كان الصبر عليه نعمة في دينه، وحصل له بعد ما كفر من خطاياه رحمة، وحصل له بثنائه على ربه صلاة ربه عليه، قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ﴾ [البقرة:١٥٧] وحصل له غفران السيئات ورفع الدرجات. فمن قام بالصبر الواجب حصل له ذلك انتهى ملخصًا.

قوله: (وإذا أراد بعبده الشر أمسك عنه) أي أخر عنه العقوبة بذنبه حتى يوافى به يوم القيامة وهو بضم الياء وكسر الفاء منصوبًا بحتى مبنيًّا للفاعل.

قال العزيزي: أي لا يجازيه بذنبه في الدنيا حتى يجيء في الآخرة مستوفي الذنوب وافيها، فيستوفى ما يستحقه من العقاب.

وهذه الجملة هي آخر الحديث.

فأما قوله: وقال النبي ﷺ: «**إن عظم الجزاء مع عظم البلاء**» إلى آخره فهو أول حديث آخر، لكن لما رواهما الترمذي بإسناد واحد وصحابي واحد جعلهما المصنف كالحديث الواحد.

وفيه: التنبيه على حسن الرجاء وحسن الظن بالله فيما يقضيه لك، كما قال تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة:٢١٦].

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وقال النبي ﷺ: «إن عظم الجزاء مع عظم البلاء. وإن الله تعالى إذا أحب قومًا ابتلاهم، فمن رضي فله الرضى، ومن سخط فله السخط» [١]

---

(١) حسن بالسابق: الترمذي (٢٣٩٦ مكرر) بترقيم الألباني وتحسينه، وابن ماجه (٤٠٣١) في الزهد بترقيم الألباني وتحسينه.

حسنه الترمذي).

ش: قال الترمذي: حدثنا قتيبة حدثنا الليث عن يزيد بن أبي حبيب عن سعد بن سنان عن أنس، فذكر الحديث السابق.

ثم قال: وبهذا الإسناد عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن عظم الجزاء...**» الحديث. ثم قال: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه.

ورواه ابن ماجه. وروى الإمام أحمد عن محمود بن لبيد رفعه: «**إذا أحب الله قومًا ابتلاهم، فمن صبر فله الصبر، ومن جزع فله الجزع**»[1] قال المنذري: رواته ثقات.

قوله: (إن عظم الجزاء) بكسر العين وفتح الظاء فيها. ويجوز ضمها مع سكون الظاء. أي من كان ابتلاؤه أعظم كمية وكيفية.

وقد يحتج بهذا الحديث من يقول: إن المصائب يثاب عليها مع تكفير الخطايا، ورجح ابن القيم أن ثوابها تكفير الخطايا فقط، إلا إذا كانت سببًا لعمل صالح، كالصبر والرضا والتوبة والاستغفار.

فإنه حينئذ يثاب على ما تولد منها، وعلى هذا يقال في معنى الحديث: إن عظم الجزاء مع عظم البلاء إذا صبر واحتسب.

قوله: (وإن الله تعالى إذا أحب قومًا ابتلاهم) ولهذا ورد في حديث سعد: سئل النبي ﷺ: أي الناس أشد بلاء؟ قال: «**الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، يبتلي الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة ابتلى على قدر دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة**»[2] رواه الدارمي وابن ماجه والترمذي وصححه.

وهذا الحديث ونحوه من أدلة التوحيد، فإذا عرف العبد أن الأنبياء والأولياء

---

(١) حسن: انظر السابق.

(٢) صحيح: الترمذي (٢٣٩٨) في الزهد، ابن ماجه (٤٠٢٣) في الزهد، وصححه الألباني.

يصيبهم البلاء في أنفسهم الذي هو في الحقيقة رحمة ولا يدفعه عنهم إلا الله، عرف أنهم لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا دفعًا، فلأن لا يملكوه لغيرهم أولى وأحرى.

فيحرم قصدهم والرغبة إليهم في قضاء حاجة أو تفريج كربة، وفي وقوع الابتلاء بالأنبياء والصالحين من الأسرار والحكم والمصالح وحسن العاقبة ما لا يحصى.

قوله: (فمن رضى فله الرضا) أي من الله تعالى، والرضاء قد وصف الله تعالى به نفسه في مواضع من كتابه كقوله تعالى: ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [البينة: ٨].

ومذهب السلف وأتباعهم من أهل السنة: إثبات الصفات التي وصف الله بها نفسه ووصفه بها رسول الله ﷺ على ما يليق بجلاله وعظمته إثباتًا بلا تمثيل وتنزيهًا بلا تعطيل: فإذا رضي الله تعالى عنه حصل له كل خير، وسلم من كل شر.

والرضا: هو أن يسلم العبد أمره إلى الله، ويحسن الظن به، ويرغب في ثوابه، وقد يجد لذلك راحة وانبساطًا محبة لله وثقة به؛ كما قال ابن مسعود رضي الله عنه: إن الله بقسطه وعدله جعل الروح والفرح في اليقين والرضا، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط [١].

قوله: (ومن سخط) وهو بكسر الخاء.

قال أبو السعادات: السخط الكراهية للشيء وعدم الرضا به. أي من سخط على الله فيما دبره فله السخط، أي من الله، وكفى بذلك عقوبة.

وقد يستدل به على وجوب الرضا وهو اختيار ابن عقيل. واختار القاضي عدم الوجوب، ورجحه شيخ الإسلام وابن القيم.

قال شيخ الإسلام: ولم يجئ الأمر به كما جاء الأمر بالصبر. وإنما جاء الثناء على أصحابه. قال: وأما ما يروى: من لم يصبر على بلائي ولم يرض بقضائي فليتخذ ربًّا

---

(١) منقطع: رواه أبو هارون المدني عن ابن مسعود ولم يدركه كما في الشعب (٢٠٩)، ورواه مرفوعًا (٢٠٨) بسند ضعيف وعن ابن مسعود رضي الله عنه.

سواي [١] . فهذا إسرائيلي لم يصح عن النبي ﷺ .

قال شيخ الإسلام: وأعلى من ذلك - أي من الرضا - أن يشكر الله على المصيبة لما يرى من إنعام الله عليه بها . اهـ والله أعلم .



(١) موضوع وهو من الإسرائيليات: وقال الهيثمي (٧/ ٢٠٧) في المجمع: رواه الطبراني وفيه سعيد بن زياد بن هند وهو: متروك.

(٣٥)



ما جاء في الرياء

قال المصنف رحمه الله تعالى: (باب : ما جاء في الرياء).

ش: أي من النهي والتحذير . قال الحافظ : هو مشتق من الرؤية . والمراد بها إظهار العبادة لقصد رؤية الناس لها فيحمدون صاحبها .

والفرق بينه وبين السمعة : أن الرياء لما يرى من العمل كالصلاة . والسمعة لما يسمع كالقراءة والوعظ والذكر ، ويدخل في ذلك التحدث بما عمله .

قول المصنف رحمه الله تعالى: وقول الله تعالى: (﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠]).

ش: قوله : (وقول الله تعالى : ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [الكهف: ١١٠] أي ليس لي من الربوبية ولا من الإلهية شيء ، بل ذلك كله لله وحده لا شريك له أوحاه إليّ ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ [الكهف: ١١٠] أي يخافه ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠] .

قوله : ﴿أَحَدًۢا﴾ نكرة في سياق النهي تعم ، وهذا العموم يتناول الأنبياء والملائكة والصالحين والأولياء وغيرهم .

قال شيخ الإسلام رحمه الله : أما اللقاء فقد فسره طائفة من السلف والخلف بما يتضمن المعاينة ، وقالوا : لقاء الله يتضمن رؤيته سبحانه وتعالى يوم القيامة ، وذكر الأدلة على ذلك .

قال ابن القيم رحمه الله تعالى في الآية: أي كما أن الله واحد لا إله سواه، فكذلك ينبغي أن تكون العبادة له وحده لا شريك له، فكما تفرد بالإلهية يجب أن يفرد بالعبودية، فالعمل الصالح: هو الخالص من الرياء المقيد بالسنة. انتهى.

وفي الآية دليل على أن أصل الدين الذي بعث الله به رسوله الله ﷺ والمرسلين قبله، هو إفراده تعالى بأنواع العبادة، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

والمخالف لهذا الأصل من هذه الأمة أقسام: إما طاغوت ينازع الله في ربوبيته وإلهيته، ويدعو الناس إلى عبادته، أو طاغوت يدعو الناس إلى عبادة الأوثان، أو مشرك يدعو غير الله ويتقرب إليه بأنواع العبادة أو بعضها، أو شاك في التوحيد: أهو حق أم يجوز أن يجعل لله شريك في عبادته؟ أو جاهل يعتقد أن الشرك دين يقرب إلى الله، وهذا هو الغالب على أكثر العوام لجهلهم وتقليدهم من قبلهم، لما اشتدت غربة الدين ونسي العلم بدين المرسلين.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وعن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا: «قال الله تعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك. من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه» [(١)] **رواه مسلم).**

ش: قوله: (من عمل عملاً أشرك فيه غيري) أي من قصد بعمله غيري من المخلوقين تركته وشركه.

ولابن ماجه **«فأنا بريء وهو للذى أشرك»** [(٢)] قال الطيبي: الضمير المنصوب في قوله: «تركته» يجوز أن يرجع إلى العمل.

قال ابن رجب رحمه الله: واعلم أن العمل لغير الله أقسام فتارة يكون رياء محضًا كحال المنافقين. كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢] وهذا الرياء المحض لا يكاد يصدر عن مؤمن في فرض

(١) رواه مسلم (٢٩٨٥/٤٦) في الزهد والرقائق.

(٢) صحيح: ابن ماجه (٤٢٠٢) في الزهد وصححه الألباني هناك.

الصلاة والصيام . وقد يصدر في الصدقة أو الحج الواجب أو غيرهما من الأعمال الظاهرة أو التي يتعدى نفعها ، فإن الإخلاص فيها عزيز ، وهذا العمل لا يشك مسلم أنه حابط ، وأن صاحبه يستحق المقت من الله والعقوبة ، وتارة يكون العمل لله ويشاركه الرياء ، فإن شاركه من أصله فالنصوص الصحيحة تدل على بطلانه .

-وذكر أحاديث تدل على ذلك منها : هذا الحديث وحديث شداد بن أوس مرفوعًا **«من صلى يرائي فقد أشرك ، ومن صام يرائي فقد أشرك ، ومن تصدق يرائي فقد أشرك ، وإن الله عز وجل يقول : أنا خير قسيم لمن أشرك بي ، فمن أشرك بي شيئًا فإن جدة عمله وقليله وكثيره لشريكه الذي أشرك به . وأنا عنه غني»** [١] رواه أحمد .

-**وذكر أحاديث في المعنى ثم قال** : فإن خالط نية الجهاد مثلاً نية غير الرياء ، مثل أخذ أجرة الخدمة أو أخذ شيء من الغنيمة أو التجارة نقص بذلك أجر جهاده ولم يبطل بالكلية .

قال ابن رجب : وقال الإمام أحمد رحمه الله : التاجر والمستأجر والمكرى أجرهم على قدر ما يخلص من نياتهم في غزواتهم ، ولا يكونون مثل من جاهد بنفسه وماله لا يخلط به غيره .

وقال أيضًا فيمن يأخذ جعل الجهاد : إذا لم يخرج لأجل الدراهم فلا بأس كأنه خرج لدينه إن أعطى شيئًا أخذه .

وروى عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : **«إذا أجمع أحدكم على الغزو فعوضه الله رزقًا فلا بأس بذلك ، وأما إن كان أحدكم إن أعطى دراهم غزا وإن لم يعط لم يغز فلا خير في ذلك»** [٢] .

وروى عن مجاهد رحمه الله أنه قال في حج الجمال وحج الأجير ، وحج التاجر : هو تام لا ينقص من أجرهم شيء [٣] أي لأن قصدهم الأصلي كان هو الحج دون

---

(١) ضعيف : أحمد (٤/ ١٢٥) في حديث طويل وفيه شهر بن حوشب ، قال الحافظ في التقريب : صدوق كثير الإرسال والأوهام .

(٢) ، (٣) هكذا رواهما ابن رجب الحنبلي ص (٣٠) في شرح الحديث (١) في جامع العلوم والحكم .

التكسب. قال: وأما إن كان أصل العمل لله ثم طرأ عليه نية الرياء، فإن كان خاطرًا ثم دفعه فلا يضره بغير خلاف، وإن استرسل معه فهل يحبط عمله أم لا فيجازى على أصل نيته؟ في ذلك اختلاف بين العلماء من السلف قد حكاه الإمام أحمد وابن جرير، ورجحا أن عمله لا يبطل بذلك، وأنه يجازى بنيته الأولى، وهو مروى عن الحسن وغيره. فأما إذا عمل العمل لله خالصًا ثم ألقى الله له الثناء الحسن في قلوب المؤمنين بذلك، ففرح بفضل الله ورحمته، واستبشر بذلك، لم يضره بذلك.

وفي هذا المعنى جاء حديث أبي ذر عن النبي ﷺ: **«أنه سئل عن الرجل يعمل العمل من الخير يحمده الناس عليه، فقال: تلك عاجل بشرى المؤمن»** [(١)] رواه مسلم. انتهى ملخصًا.

قلت: وتمام هذا المقام يتبين في شرح حديث أبي سعيد إن شاء الله تعالى.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وعن أبي سعيد مرفوعًا «ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال؟» قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «الشرك الخفي: يقوم الرجل فيصلي فيزين صلاته لما يرى من نظر رجل» [(٢)] **رواه أحمد).**

ش: وروى ابن خزيمة في صحيحه عن محمود بن لبيد قال: خرج علينا رسول الله ﷺ فقال: **«أيها الناس، إياكم وشرك السرائر»** [(٣)]، قالوا: يا رسول الله وما شرك السرائر؟ قال: **«يقوم الرجل فيصلي فيزين صلاته لما يرى من نظر الرجل إليه. فذلك شرك السرائر»**.

قوله: (عن أبي سعيد الخدري) تقدم.

قوله: (الشرك الخفي) سماه خفيًا؛ لأن صاحبه يظهر أن عمله لله وقد قصد به غيره، وأشركه فيه بتزيين صلاته لأجله. وعن شداد بن أوس قال: كنا نعد الرياء على

---

(١) رواه مسلم (٢٦٤٢) في البر والصلة.

(٢) ضعيف وله شواهد تحسنه: ابن ماجه في الزهد برقم (٤٢٠٤) وحسنه الألباني هناك ص (٦٩٨) - ط الرياض.

(٣) صحيح: ابن خزيمة (٩٣٧) في صحيحه، وبنحوه صححه الهيثمي (١/ ١٠٢) في المجمع.

عهد رسول الله ﷺ الشرك الأصغر [(١)]. رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الإخلاص، وابن جرير في التهذيب، والطبراني والحاكم وصححه.

قال ابن القيم: وأما الشرك الأصغر فكيسير الرياء والتصنع للخلق والحلف بغير الله، وقول الرجل للرجل: ما شاء الله وشئت، وهذا من الله ومنك، وأنا بالله وبك، وما لي إلا الله وأنت، وأنا متوكل على الله وعليك، ولولا الله وأنت لم يكن كذا وكذا. وقد يكون هذا شركًا أكبر بحسب حال قائله ومقصده، انتهى ولا خلاف أن الإخلاص شرط لصحة العمل وقبوله، وكذلك المتابعة، كما قال الفضيل ابن عياض رحمه الله في قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧، الملك: ٢] قال: أيكم أخلصه وأصوبه.

قيل: يا أبا علي، ما أخلصه وأصوبه؟ قال: إن العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يقبل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يقبل حتى يكون خالصًا صوابًا، فالخالص ما كان لله، والصواب ما كان على السنة.

وفي الحديث من الفوائد: شفقة النبي ﷺ على أمته ونصحه لهم، وأن الرياء أخوف على الصالحين من فتنة الدجال. فإذا كان النبي ﷺ يخافه على سادات الأولياء مع قوة إيمانهم وعلمهم فغيرهم ممن هو دونهم بأضعاف أولى بالخوف من الشرك أصغره وأكبره.



---

(١) **حسن الإسناد**: الهيثمي (١٠/ ٢٢٢) في مجمع الزوائد وقال: رواه الطبراني في الأوسط والبزار، ورجالهما رجال الصحيح إلا يعلى بن شداد وهو ثقة.

(٣٦)



من الشرك إرادة الإنسان بعمله الدنيا

قال المصنف رحمه الله تعالى: (باب: من الشرك إرادة الإنسان بعمله الدنيا)

ش: فإن قيل: فما الفرق بين هذه الترجمة وبين ترجمة الباب قبله؟

قلت: بينهما عموم وخصوص مطلق، يجتمعان في مادة، وهو ما إذا أراد الإنسان بعمله التزين عند الناس والتصنع لهم والثناء، فهذا رياء كما تقدم بيانه، كحال المنافقين. وهو أيضًا إرادة الدنيا بالتصنع عند الناس، وطلب المدحة منهم والإكرام. ويفارق الرياء بكونه عمل عملاً صالحًا، أراد به عرضًا من الدنيا، كمن يجاهد ليأخذ مالاً، كما في الحديث: **«تعس عبد الدينار»** [(١)] أو يجاهد للمغنم أو غير ذلك من الأمور التي ذكرها شيخنا عن ابن عباس رضي الله عنهما وغيره من المفسرين في معنى قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ [هود: ١٥].

وأراد المصنف رحمه الله بهذه الترجمة وما بعدها: أن العمل لأجل الدنيا شرك ينافي كمال التوحيد الواجب، ويحبط الأعمال، وهو أعظم من الرياء، لأن مريد الدنيا قد تغلب إرادته تلك على كثير من عمله، وأما الرياء فقد يعرض له في عمل دون عمل، ولا يسترسل معه، والمؤمن يكون حذرًا من هذا وهذا.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٥-١٦]).

---

(١) انظر ما بعد ثلاثة تخريجات.

ش: قال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ [هود:١٥] أي ثوابها. ﴿وَزِينَتَهَا﴾، أي مالها. ﴿نُوَفِّ﴾، أي نوفر لهم ثواب أعمالهم بالصحة والسرور في المال والأهل والولد: ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ [هود:١٥] لا ينقصون، ثم نسختها: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ [الإسراء:١٨][1] الآيتين. رواه النحاس في ناسخه.

قوله: (ثم نسختها) أي قيدتها. فلم تبق الآية على إطلاقها.

وقال قتادة: من كانت الدنيا همه وطلبته ونيته جازاه الله بحسناته في الدنيا ثم يفضي إلى الآخرة وليس له حسنة يعطى بها جزاء، وأما المؤمن فيجازى بحسناته في الدنيا ويثاب عليها في الآخرة [2] ذكره ابن جرير بسنده.

ثم ساق حديث أبي هريرة عن ابن المبارك عن حيوة بن شريح قال: حدثني الوليد بن أبي الوليد أبو عثمان أن عقبة بن مسلم حدثه أن شُفَيَّ بن ماتع الأصبحي حدثه: (أنه دخل المدينة فإذا هو برجل قد اجتمع عليه الناس، فقال: من هذا؟ فقالوا: أبو هريرة. قال: فدنوت منه حتى قعدت بين يديه، وهو يحدث الناس. فلما سكت وخلا. قلت: أنشدك بحق وبحق لما حدثتني حديثًا سمعته من رسول الله ﷺ عقلته وعلمته. قال: فقال أبو هريرة: أفعل، لأحدثنك حديثًا حدثنيه رسول الله ﷺ في هذا البيت ما فيه أحد غيري وغيره ثم نشغ أبو هريرة نشغة، ثم أفاق فقال: لأحدثنك حديثًا حدثنيه رسول الله ﷺ في هذا البيت ما فيه أحد غيرى وغيره. ثم نشغ أبو هريرة نشغة أخرى، ثم مال خارًّا على وجهه، واشتد به طويلاً. ثم أفاق فقال: حدثني رسول الله ﷺ: «**إن الله تبارك وتعالى إذا كان يوم القيامة نزل إلى القيامة ليقضي بينهم، وكل أمة جاثية. فأول من يدعو به رجل جمع القرآن، ورجل قتل في سبيل الله، ورجل كثير المال. فيقول الله تبارك وتعالى للقارئ: ألم أعلمك ما أنزلت على رسولي؟ قال: بلى يا رب. قال: فماذا عملت فيما علمت؟ قال: كنت أقوم آناء**

---

(١) ضعيف جدًا واهٍ: فيه جويبر وهو تالف، واهٍ، والضحاك لم يلق ابن عباس كما عند النحاس (٧٨١) في ناسخه والطبري (٣٠٦٥٧) من طريق العوفي عن ابن عباس وهي سلسلة الضعفاء.

(٢) رجاله ثقات: الطبري (١٨٠٣٣) في تفسيره.

الليل وآناء النهار. فيقول الله له: كذبت، وتقول له الملائكة: كذبت، ويقول الله له: بل أردت أن يقال فلان قارئ فقد قيل ذلك.

ويؤتي بصاحب المال فيقول الله له: ألم أوسع عليك حتى لم أدعك تحتاج إلى أحد؟ قال: بلى يا رب، قال: فما عملت فيما آتيتك؟ قال له: كنت أصل الرحم وأتصدق، فيقول الله له: كذبت، وتقول له الملائكة: كذبت، ويقول الله: بل أردت أن يقال فلان جواد، فقد قيل ذلك.

ويؤتي بالذي قتل في سبيل الله فيقال له: فبماذا قتلت؟ فيقول: أُمرت بالجهاد في سبيلك فقاتلت حتى قتلت، فيقول الله له: كذبت، وتقول له الملائكة: كذبت، ويقول الله له: بل أردت أن يقال فلان جريء فقد قيل ذلك».

ثم ضرب رسول الله ﷺ على ركبتي فقال: **«يا أبا هريرة، أولئك الثلاثة أول خلق الله تسعر بهم النار يوم القيامة»** (١).

وقد سئل شيخنا المصنف رحمه الله عن هذه الآية فأجاب بما حاصله: ذكر عن السلف فيها أنواع مما يفعله الناس اليوم ولا يعرفون معناه.

فمن ذلك: العمل الصالح الذي يفعله كثير من الناس ابتغاء وجه الله: من صدقة وصلاة، وصلة وإحسان إلى الناس، وترك ظلم، ونحو ذلك مما يفعله الإنسان أو يتركه خالصًا لله، لكنه لا يريد ثوابه في الآخرة، إنما يريد أن يجازيه الله بحفظ ماله وتنميته، أو حفظ أهله وعياله، أو إدامة النعمة عليهم، ولا همة له في طلب الجنة والهرب من النار، فهذا يُعطي ثواب عمله في الدنيا وليس له في الآخرة من نصيب. وهذا النوع ذكره ابن عباس.

النوع الثاني: وهو أكبر من الأول وأخوف، وهو الذي ذكره مجاهد في الآية: أنها نزلت فيه وهو أن يعمل أعمالاً صالحة ونيته رياء الناس، لا طلب ثواب الآخرة.

---

(١) رواه الترمذي (٢٣٨٢) في الزهد وسنده صحيح. كما قال الألباني - رحمه الله - وللفائدة: فالحديث مروي عند مسلم (١٩٠٥) في الإمارة بسند آخر عن أبي هريرة رضي الله عنه أيضًا وبمعنى آخر.

النوع الثالث: أن يعمل أعمالاً صالحة يقصد بها مالاً، مثل أن يحج لمال يأخذه أو يهاجر لدنيا يصيبها، أو امرأة يتزوجها، أو يجاهد لأجل المغنم، فقد ذكر أيضًا هذا النوع في تفسير هذه الآية، كما يتعلم الرجل لأجل مدرسة أهله أو مكسبهم أو رياستهم، أو يتعلم القرآن ويواظب على الصلاة لأجل وظيفة المسجد، كما هو واقع كثيرًا.

النوع الرابع: أن يعمل بطاعة الله مخلصًا في ذلك لله وحده لا شريك له لكنه على عمل يكفره كفرًا يخرجه عن الإسلام، مثل اليهود والنصارى إذا عبدوا الله، أو تصدقوا أو صاموا ابتغاء وجه الله والدار الآخرة.

ومثل كثير من هذه الأمة الذين فيهم كفر أو شرك أكبر يخرجهم من الإسلام بالكلية، إذا أطاعوا الله طاعة خالصة يريدون بها ثواب الله في الدار الآخرة، لكنهم على أعمال تخرجهم من الإسلام وتمنع قبول أعمالهم.

فهذا النوع أيضًا قد ذكر في هذه الآية عن أنس بن مالك وغيره، وكان السلف يخافون منها.

قال بعضهم: لو أعلم أن الله تقبل مني سجدة واحدة لتمنيت الموت؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧].

ثم قال: بقي أن يقال: إذا عمل الرجل الصلوات الخمس والزكاة والصوم والحج ابتغاء وجه الله، طالبًا ثواب الآخرة، ثم بعد ذلك عمل أعمالاً قاصدًا بها الدنيا، مثل أن يحج فرضه لله، ثم يحج بعده لأجل الدنيا كما هو واقع، فهو لما غلب عليه منهما.

وقد قال بعضهم: القرآن كثيرًا ما يذكر أهل الجنة الخُلَّص وأهل النار الخُلَّص، ويسكت عن صاحب الشائبتين، وهو هذا وأمثاله انتهى.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد الخميصة، تعس عبد الخميلة، إن أُعطِي رضي، وإن لم يعط سَخِط، تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش. طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله أشعث رأسه، مغبرة قدماه، إن كان**

في الحراسة كان في الحراسة، وإن كان في الساقة كان في الساقة. إن استأذن لم يؤذن له، وإن شفع لم يشفع له» [(١)] .

ش: قوله: في الصحيح أي: صحيح البخاري.

قوله: (تعس) هو بكسر العين ويجوز الفتح أي: سقط، والمراد هنا: هلك. قاله الحافظ، وقال في موضع آخر: وهو ضد سعد. أي: شقي.

وقال أبو السعادات: يقال: تعس يتعس إذا عثر وانكب لوجهه. وهو دعاء عليه بالهلاك.

قوله: (عبد الدينار) هو المعروف من الذهب كالمثقال في الوزن، زنته: درهم وثُمن درهم.

قوله: (تعس عبد الدرهم) وهو من الفضة، قدره الفقهاء بالشعير وزنًا، وعندنا منه درهم من ضرب بني أمية، وهو زنة خمسين حبة شعير وخمسا حبة. سماه عبدًا له؛ لكونه هو المقصود بعمله، فكل من توجه بقصده لغير الله فقد جعله شريكًا له في عبوديته كما هو حال الأكثر.

قوله: (تعس عبد الخميصة) قال أبو السعادات: هي ثوب خز أو صوف معلم، وقيل: لا تسمى خميصة إلا أن تكون سوداء معلمة، وتجمع على خمائص. والخميلة - بفتح الخاء المعجمة - قال أبو السعادات: ذات الخمل، ثياب لها خَمَل من أي شيء كان.

قوله: (تعس وانتكس) قال الحافظ: هو بالمهملة، أي: عاوده المرض. وقال أبو السعادات: أي انقلب على رأسه. وهو دعاء عليه بالخيبة. قال الطيبي: فيه الترقي بالدعاء عليه؛ لأنه إذا تعس انكب على وجهه. وإذا انتكس انقلب على رأسه بعد أن سقط.

قوله: (وإذا شيك) أي: أصابته شوكة. (فلا انتقش) أي: فلا يقدر على إخراجها

---

(١) رواه البخاري (٢٨٨٦) في الجهاد والسير.

بالمنقاش قاله أبو السعادات .

والمراد : أن من كانت هذه حاله فإنه يستحق أن يدعى عليه بما يسوءه في العواقب ، ومن كانت هذه حاله فلا بد أن يجد أثر هذه الدعوات من الوقوع فيما يضره في عاجل دنياه وآجل أخراه .

قال شيخ الإسلام رحمه الله : فسماه النبي ﷺ عبد الدينار والدرهم وعبد القطيفة وعبد الخميصة . وذكر فيه ما هو دعاء بلفظ الخبر وهو قوله : «**تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش**» وهذه حال من إذا أصابه شر لم يخرج منه ولم يفلح ، لكونه تعس وانتكس ، فلا نال المطلوب ، ولا خلص من المكروه .

وهذا حال من عبد المال ، وقد وصف ذلك بأنه : «**إن أعطى رضى ، وإن منع سخط**» كما قال تعالى : ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ [التوبة :٥٨] .

فرضاؤهم لغير الله ، وسخطهم لغير الله ، وهكذا حال من كان متعلقًا منها برياسة أو صورة ونحو ذلك من أهواء نفسه ، إن حصل له رضِي ، وإن لم يحصل له سخط ، فهذا عبد ما يهواه من ذلك وهو رقيق له ، إذ الرق والعبودية في الحقيقة هو رق القلب وعبوديته ، فما استرق القلب واستعبده فهو عبده .

- إلى أن قال : - وهكذا أيضًا طالب المال ، فإن ذلك يستعبده ويسترقه وهذه الأمور نوعان :

فمنها : ما يحتاج إليه العبد ، كما يحتاج إلى طعامه وشرابه ومنكحه ومسكنه ونحو ذلك ، فهذا يطلبه من الله ويرغب إليه فيه . فيكون المال عنده يستعمله في حاجته بمنزلة حماره الذي يركبه ، وبساطه الذي يجلس عليه من غير أن يستعبده فيكون هلوعًا .

ومنها : ما لا يحتاج إليه العبد ، فهذا ينبغي أن لا يعلق قلبه بها ، فإذا تعلق قلبه بها صار مستعبدًا لها ، وربما صار مستعبدًا ومعتمدًا على غير الله فيها ، فلا يبقى معه حقيقة العبودية لله ولا حقيقة التوكل عليه ، بل فيه شعبة من العبادة لغير الله وشعبة من

التوكل على غير الله .

وهذا من أحق الناس بقوله ﷺ : **«تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد الخميصة، تعس عبد الخميلة»** وهذا هو عبد لهذه الأمور ولو طلبها من الله، فإن الله إذا أعطاه إياها رضي، وإن منعه إياها سخط .

وإنما عبد الله من يرضيه ما يرضي الله ويسخطه ما يسخط الله ويحب ما أحبه الله ورسوله ويبغض ما أبغضه الله ورسوله، ويوالي أولياء الله ويعادي أعداء الله فهذا الذي استكمل الإيمان، انتهى ملخصًا .

قوله: (طوبى لعبد) قال أبو السعادات : طوبى : اسم الجنة، وقيل : هي شجرة فيها ويؤيد هذا : ما روى ابن وهب بسنده عن أبي سعيد قال : قال رجل : يا رسول الله وما طوبى؟ قال : **«شجرة في الجنة مسيرة مائة سنة، ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها»**[(١)] .

ورواه الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى سمعت عبد الله بن لهيعة حدثنا دراج أبو السمح أن أبا الهيثم حدثه أبو سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ أن رجلاً قال : يا رسول الله، طوبى لمن رآك وآمن بك، قال : **«طوبى لمن رآني وآمن بي، وطوبى ثم طوبى ثم طوبى لمن آمن بي ولم يرني»** . قال له رجل : وما طوبى؟ قال : **«شجرة في الجنة مسيرة مائة عام، ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها»**[(٢)] وله شواهد في الصحيحين وغيرهما .

وقد روى ابن جرير عن وهب بن منبه هاهنا أثرًا غريبًا عجيبًا . قال وهب رحمه الله : إن في الجنة شجرة يقال لها : طوبى يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها زهرها رياط، وورقها بُرود، وقضبانها عنبر، وبطحاؤها ياقوت، وترابها كافور، ووحلها مسك .

---

(١) ضعيف الإسناد: الطبري (٢٠٣٩٤) -ط العلمية وفيه علة رواية أبي السمح وهو دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد.

(٢) ضعيف الإسناد: فيه نفس العلة السابقة، ورواه أحمد (٣/ ٧١) في المسند.

يخرج من أصلها أنهار الخمر واللبن والعسل، وهي مجلس لأهل الجنة، فبينما هم في مجلسهم إذ أتتهم الملائكة من ربهم يقودون نُجُبًا مزمومة بسلاسل من ذهب، وجوهها كالمصابيح من حسنها، ووبرها كخز المِرعزَّى من لينه، عليها رحال ألواحها من ياقوت، ودفوفها من ذهب، وثيابها من سندس وإستبرق، فينيخونها ويقولون: إن ربنا أرسلنا إليكم لتزوروه وتسلموا عليه قال: فيركبونها.

قال: فهي أسرع من الطائر، وأوطأ من الفراش. نُجُبًا من غير مهنة، يسير الراكب إلى جنب أخيه وهو يكلمه ويناجيه، لا تصيب أذن راحلة منها أذن صاحبتها، ولا برك راحلة برك صاحبتها، حتى إن الشجرة لتنتحي عن طريقهم لئلا تفرق بين الرجل وأخيه.

قال: فيأتون إلى الرحمن الرحيم فيسفر لهم عن وجهه الكريم حتى ينظروا إليه، فإذا رأوه قالوا: اللهم أنت السلام ومنك السلام، وحق لك الجلال والإكرام، قال: فيقول تبارك وتعالى عند ذلك: «**أنا السلام ومني السلام وعليكم حقت رحمتي ومحبتي، مرحبًا بعبادي الذين خشوني بالغيب وأطاعوا أمري**».

قال: فيقولون: ربنا إنا لم نعبدك حق عبادتك، ولم نقدرك حق قدرك، فائذن لنا بالسجود قدامك. قال: فيقول الله: «**إنها ليست بدار نصب ولا عبادة، ولكنها دار ملك ونعيم، وإني قد رفعت عنكم نصب العبادة، فسلوني ما شئتم، فإن لكل رجل منكم أمنيته**». فيسألونه، حتى إن أقصرهم أمنية ليقول: ربي، تنافس أهل الدنيا في دنياهم فتضايقوا فيها، رب فآتني من كل شيء كانوا فيه من يوم خلقتها إلى أن انتهت الدنيا، فيقول الله تعالى: «**لقد قصرت بك اليوم أمنيتك. ولقد سألت دون منزلتك. هذا لك مني وسأتحفك بمنزلتي؛ لأنه ليس في عطائي نكد ولا قصر يد**».

قال: ثم يقول: «**اعرضوا على عبادي ما لم تبلغ أمانيهم ولم يخطر على بال**». قال: فيعرضون عليهم حتى تقصر بهم أمانيهم التي في أنفسهم، فيكون فيما يعرضون عليهم براذين مقرنة على كل أربعة منها سرير من ياقوتة واحدة. على كل سرير منها قبة من ذهب مفرغة. في كل قبة منها فرش من فرش الجنة مُظاهرة. في كل قبة منها جاريتان من الحور العين. على كل جارية منهن ثوبان من ثياب الجنة. وليس في الجنة

لون إلا وهو فيهما، ولا ريح طيب إلا قد عبق بهما. ينفذُ ضوء وجوههما غلظ القبة. حتى يظن من يراهما أنهما دون القبة يرى مخهما من فوق سوقهما كالسلك الأبيض في ياقوتة حمراء. يريان له من الفضل على صاحبته كفضل الشمس على الحجارة أو أفضل. ويُرى لهما مثل ذلك. ثم يدخل عليهما فيحييانه ويقبلانه ويعانقانه ويقولان له: والله ما ظننا أن الله يخلق مثلك. ثم يأمر الله تعالى الملائكة فيسيرون بهم صفًّا في الجنة حتى ينتهي كل رجل منهم إلى منزلته التي أعدت له[١].

وقد روى هذا الأثر ابن أبي حاتم بسنده عن وهب بن منبه وزاد: فانظروا إلى مواهب ربكم الذي وهب لكم، فإذا بقباب في الرفيق الأعلى، وغرف مبنية بالدر والمرجان، أبوابها من ذهب وسررها من ياقوت، وفرشها من سندس وإستبرق، ومنابرها من نور، يفور من أبوابها وعراصها نور مثل شعاع الشمس، عنده مثل الكوكب الدري في النهار المضيء.

وإذا بقصور شامخة في أعلى عليين من الياقوت يزهو نورها. فلولا أنه مسخر إذًا لالتمع الأبصار، فما كان من تلك القصور من الياقوت الأبيض فهو مفروش بالحرير الأبيض، وما كان منها من الياقوت الأخضر فهو مفروش بالسندس الأخضر، وما كان منها من الياقوت الأصفر فهو مفروش بالأرجوان الأصفر، مبوبة بالزمرد الأخضر والذهب الأحمر والفضة البيضاء، قوائمها وأركانها من الجوهر، وشرفها من قباب من لؤلؤ، وبروجها غرف من المرجان.

فلما انصرفوا إلى ما أعطاهم ربهم قربت لهم براذين من ياقوت أبيض، منفوخ فيها الروح، تحتها الولدان المخلدون، بيد كل وليد منهم حَكَمة برذون من تلك البراذين ولُجُمها وأعنتها من فضة بيضاء منظومة بالدر والياقوت، سروجها سرر موضونة مفروشة بالسندس والإستبرق.

فانطلقت بهم تلك البراذين تزف بهم فينظرون رياض الجنة فلما انتهوا إلى

---

(١) منكر المتن وهو حسن إلى وهب: الطبري (٢٠٣٨٩) في تفسيره، ولا يعني صحة السند في الإسرائيليات صحة المتن أبدًا، ووهب من أكثر الناس رواية من كتب السابقين؛ لأنه كان من الأحبار فأسلم فنقل من كتبهم إلى كتبنا فاحذر يرحمك الله.

منازلهم وجدوا الملائكة قعودًا على منابر من نور ينتظرونهم ليزوروهم ويصافحوهم ويهنئوهم كرامة ربهم، فلما دخلوا قصورهم وجدوا فيها جميع ما تطاول به عليهم وما سألوا وما تمنوا، وإذا على باب كل قصر من تلك القصور أربعة جنان: جنتان ذواتا أفنان، وجنتان مدهامتان، وفيهما عينان نضاختان، وفيهما من كل فاكهة زوجان، وحور مقصورات في الخيام.

فلما تبوءوا منازلهم واستقروا قرارهم قال لهم ربهم: ﴿فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا﴾[الأعراف: ٤٤] قالوا: نعم وربنا. قال: هل رضيتم ثواب ربكم؟ قالوا: ربنا رضينا فارض عنا، قال: فبرضائي عنكم أحللتكم داري ونظرتم إلى وجهي، فعند ذلك قالوا: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾[فاطر: ٣٤-٣٥][(١)] وهذا سياق غريب وأثر عجيب ولبعضه شواهد في الصحيحين.

وقال خالد بن مَعْدان: إن في الجنة شجرة يقال لها: طوبى، ضروع كلها، ترضع صبيان أهل الجنة، وإن سقط المرأة يكون في نهر من أنهار الجنة يتقلب فيه حتى تقوم القيامة فيبعث ابن أربعين سنة[(٢)]. رواه ابن أبي حاتم.

قوله: (آخذ بعنان فرسه في سبيل الله) أي: في جهاد المشركين.

قوله: (أشعث) مجرور بالفتحة؛ لأنه اسم لا ينصرف للوصفية ووزن الفعل، و(رأسه) مرفوع على الفاعلية، وهو طائر الشعر، شغله الجهاد في سبيل الله عن التنعم بالادهان وتسريح الشعر.

قوله: (مغبرة قدماه) هو بالجر صفة ثانية لعبد.

قوله: (إن كان في الحراسة) هو بكسر الحاء أي: حماية الجيش عن أن يهجم العدو عليهم.

---

(١) ضعيف جدًا وهو منكر المتن: ابن عدي (٦/ ٣١٥) في الكامل وحكم عليه بنكارة المتن وبأنه غير محفوظ وأعله بـ (مسلمة بن علي الخشني).

(٢) عزاه السيوطي (٤/ ١١٢) في الدر -ط العلمية- إلى ابن أبي حاتم.

قوله: (كان في الحراسة) أي غير مقصِّر فيها ولا غافل، وهذا اللفظ يستعمل في حق من قام بالأمر على وجه الكمال.

قوله: (وإن كان في الساقة كان في الساقة) أي: في مؤخرة الجيش، يقلب نفسه في مصالح الجهاد، فكل مقام يقوم فيه إن كان ليلاً أو نهارًا، رغبة في ثواب الله وطلبًا لمرضاته ومحبة لطاعته.

قال ابن الجوزي رحمه الله: وهو خامل الذكر، لا يقصد السمو.

وقال الخلخالي: المعنى: ائتماره بما أمر، وإقامته حيث أقيم. لا يُفقد من مقامه، وإنما ذكر الحراسة والساقة؛ لأنهما أشد مشقة. انتهى. وفيه: فضل الحراسة في سبيل الله.

قوله: (إن استأذن لم يؤذن له) أي إن استأذن على الأمراء ونحوهم لم يأذنوا له؛ لأنه لا جاه له عندهم ولا منزلة. لأنه ليس من طلابها. وإنما يطلب ما عند الله لا يقصد بعمله سواه.

قوله: (وإن شفع) بفتح أوله وثانيه.

قوله: (لم يشفع) بفتح الفاء مشددة. يعني: لو ألجأته الحال إلى أن يشفع في أمر يحبه الله ورسوله لم تقبل شفاعته عند الأمراء ونحوهم.

وروى الإمام أحمد ومسلم عن أبي هريرة مرفوعًا: «**رب أشعث مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره**» (١).

قال الحافظ: فيه ترك حب الرياسة والشهرة، وفضل الخمول والتواضع. انتهى.

وروى الإمام أحمد أيضًا عن مصعب بن ثابت أن عبد الله بن الزبير قال: قال عثمان رضي الله عنه - وهو يخطب على منبره -: إني محدثكم حديثًا سمعته من رسول الله ﷺ لم يكن يمنعني أن أحدثكم به إلا الظن بكم. سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**حرس ليلة في سبيل الله أفضل من ألف ليلة يقام ليلها ويصام نهارها**» (٢).

---

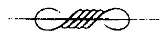
(١) رواه مسلم (٢٦٢٢ / ١٣٨) في البر والصلة.

(٢) **ضعيف جدًا**: ضعفه الألباني (٢٧٦٦) في سنن ابن ماجه - كتاب الجهاد ص (٤٧٠) ط- الرياض.

وروى الحافظ ابن عساكر - في ترجمة عبد الله بن المبارك - قال عبد الله بن محمد قاضي نصيبين: حدثني محمد بن إبراهيم بن أبي سكينة أنه أملى عليه عبد الله بن المبارك هذه الأبيات بطرسوس وواعده الخروج. وأنشدها معه إلى الفضيل بن عياض في سنة سبع وسبعين ومائة. قال:

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا	لعلمت أنك في العبادة تلعب
من كان يخضب خده بدموعه	فنحورنا بدمائنا تتخضب
أو كان يتعب خيله في باطل	فخيولهم يوم الصبيحة تتعب
ريح العبير لكم ونحن عبيرنا	رهج السنابك والغبار الأطيب
ولقد أتانا من مقال نبينا	قول صحيح صادق لا يكذب
لا يستوي غبار خيل الليل في	أنف امرئ ودخان نار تلهب
هذا كتاب الله ينطق بيننا	ليس الشهيد بميت لا يكذب

قال: فلقيت الفضيل بكتابه في المسجد الحرام فلما قرأه ذرفت عيناه فقال: صدق أبو عبد الرحمن ونصحني، ثم قال: أنت ممن يكتب الحديث؟ قلت: نعم قال لي: اكتب هذا الحديث[1]، وأملى علي الفضيل بن عياض: حدثنا منصور بن المعتمر عن أبي صالح عن أبي هريرة: أن رجلاً قال: يا رسول الله علمني عملاً أنال به ثواب المجاهدين في سبيل الله، فقال: «**هل تستطيع أن تصلي فلا تفتر، وتصوم فلا تفطر؟**» فقال: يا رسول الله أنا أضعف من أن أستطيع ذلك، ثم قال النبي ﷺ: «**فو الذي نفسي بيده لو طُوّقت ذلك ما بلغت فضل المجاهدين في سبيل الله، أما علمت أن فرس المجاهد ليستن في طوله فيكتب له بذلك حسنات؟**»[2].



(١) رواه البخاري (٢٧٨٥) في الجهاد عن أبي هريرة رضي الله عنه (يستن في طِوَلِه): أي: يمرح في الحبل الطِّوَل، إذ الطول: حبل طويل يربط به الفرس فيمرح ولا يهرب. والله أعلم.

(٢) القصة بكاملها رواها ابن عساكر (٣٨/ ٣٥٤) في تاريخه وابن كثير (٢/ ١٤٤-١٤٥) في تفسيره.

(٣٧)



من أطاع العلماء والأمراء في تحريم ما أحل الله أو تحليل ما حرم الله، فقد اتخذهم أربابًا من دون الله

قال المصنف رحمه الله تعالى:(باب: من أطاع العلماء والأمراء في تحريم ما أحل الله أو تحليل ما حرم الله، فقد اتخذهم أربابًا من دون الله).

ش: قول الله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١] وتقدم تفسير هذا في أصل المصنف رحمه الله لما ذكر حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه.

قال المصنف رحمه الله تعالى:(وقال ابن عباس رضي الله عنهما: يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء. أقول: قال رسول الله ﷺ: وتقولون: قال أبو بكر وعمر؟[١]**).**

ش: قوله: يوشك بضم أوله وكسر الشين المعجمة أي يقرب ويسرع.

وهذا القول من ابن عباس رضي الله عنهما جواب لمن قال: إن أبا بكر وعمر رضي الله عنهما لا يريان التمتع بالعمرة إلى الحج، ويريان أن إفراد الحج أفضل، أو

(١) **صحيح الإسناد**: أحمد (١/ ٣٣٧) في المسند برقم (٣١٢١) وصححه العلامة شاكر هناك، ولم أر فيه قوله: (يوشك أن تنزل...) ولقد رُوي بأكثر من لفظ، وانظر جامع بيان العلم (٢٣٧٨) لابن عبد البر.

ما هو معنى هذا . وكان ابن عباس يرى أن التمتع بالعمرة إلى الحج واجب ويقول : إذا طاف بالبيت وسعى بين الصفا والمروة سبعة أشواط فقد حل من عمرته شاء أم أبى لحديث سراقة بن مالك حين أمرهم النبيﷺ أن يجعلوها عمرة ويحلوا إذا طافوا بالبيت وسعوا بين الصفا والمروة، فقال سراقة : يا رسول الله ألعامنا هذا أم للأبد؟ فقال : «**بل للأبد**»[١] والحديث في الصحيحين .

وحينئذ فلا عذر لمن استُفْتِيَ أن ينظر في مذاهب العلماء وما استدل به كل إمام ويأخذ من أقوالهم ما دل عليه الدليل إذا كان له ملكة يقتدر بها على ذلك . كما قال تعالى : ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾[النساء :٥٩] .

وللبخاري ومسلم وغيرهما أن النبيﷺ قال : «**لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما أهديت ولولا أن معي الهدي لأحللت**»[٢] هذا لفظ البخاري في حديث عائشة رضي الله عنها .

ولفظه في حديث جابر : «**افعلوا ما أمرتكم به فلولا أني سقت الهدي لفعلت مثل الذي أمرتكم**»[٣] في عدة أحاديث تؤيد قول ابن عباس .

وبالجملة فلهذا قال ابن عباس لما عارضوا الحديث برأي أبي بكر وعمر رضي الله عنهما : يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء . . . . الحديث .

وقال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى : أجمع العلماء على أن من استبانت له سنة رسول اللهﷺ لم يكن له أن يدعها لقول أحد[٤] .

وقال الإمام مالك رحمه الله تعالى : ما منا إلا راد ومردود عليه، إلا صاحب هذا

---

(١) رواه البخاري (١٧٨٥) في العمرة، مسلم (١٢١٦/ ١٤١ - ١٤٦) في الحج عن جابر رضي الله عنه، والسائل هو سراقة رضي الله عنه .
(٢) رواه البخاري (٧٢٢٩) في التمني، مسلم (١٢١١) في الحج .
(٣) رواه البخاري (١٦١٥) عن عائشة وانظر الحديث قبل السابق .
(٤) رواه البيهقي (١/ ٤٧١) في مناقب الشافعي، وهو بنحوه (١/ ٥٠) في الأم، وعزاه الألباني في مقدمة (صفة الصلاة) إلى العلائي في (إيقاظ همم أولي الأبصار) ص (٦٨) .

القبر ﷺ [١]. وكلام الأئمة في هذا المعنى كثير.

وما زال العلماء رحمهم الله يجتهدون في الوقائع: فمن أصاب منهم فله أجران، ومن أخطأ فله أجر، كما في الحديث [٢].

لكن إذا استبان لهم الدليل أخذوا به وتركوا اجتهادهم. وأما إذا لم يبلغهم الحديث أو لم يثبت عن النبي ﷺ عندهم فيه حديث، أو ثبت وله معارض أو مخصص ونحو ذلك فحينئذ يسوغ للإمام أن يجتهد.

وفي عهد الأئمة الأربعة رحمهم الله تعالى إنما طلبوا الأحاديث ممن هي عنده باللقى والسماع، ويسافر الرجل في طلب الحديث إلى الأمصار عدة سنين.

ثم اعتنى الأئمة بالتصانيف ودونوا الأحاديث ورووها بأسانيدها، وبينوا صحيحها من حسنها من ضعيفها. والفقهاء صنفوا في كل مذهب، وذكروا حجج المجتهدين. فسهل الأمر على طالب العلم. وكل إمام يذكر الحكم بدليله عنده.

وفي كلام ابن عباس رضي الله عنهما ما يدل على أن من بلغه الدليل فلم يأخذ به - تقليدًا لإمامه - فإنه يجب الإنكار عليه بالتغليظ لمخالفته الدليل.

وقال الإمام أحمد: حدثنا أحمد بن عمرو البزار، حدثنا زياد بن أيوب، حدثنا أبو عبيدة الحداد عن مالك بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس قال: ليس منا أحد إلا يؤخذ من قوله ويدع غير النبي ﷺ [٣].

وعلى هذا: فيجب الإنكار على من ترك الدليل لقول أحد من العلماء كائنًا من كان، ونصوص الأئمة على هذا، وأنه لا يسوغ التقليد إلا في مسائل الاجتهاد التي لا

(١) في مقدمة (صفة الصلاة) قال الألباني - رحمه الله-. نسبة هذا إلى مالك هو المشهور عند المتأخرين وصححه ابن عبد الهادي (١/ ٢٢٧) في (إرشاد السالك) وابن عبد البر (٢/ ٩١) في الجامع وأورده تقي الدين السبكي في الفتاوى (١/ ١٤٨) من قول ابن عباس متعجبًا من حسنه ثم قال: وأخذها الكلمة من ابن عباس مجاهد، وأخذ هنا منه مالك رحمه الله واشتهرت عنه. اهـ.

(٢) رواه البخاري (٧٣٥٢) في الاعتصام، مسلم (١٧١٦) في الأقضية عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه.

(٣) هذا سند حسن.

دليل فيها يرجع إليه من كتاب ولا سنة، فهذا هو الذي عناه بعض العلماء بقوله: لا إنكار في مسائل الاجتهاد.

وأما ما خالف الكتاب والسنة: فيجب الرد عليه كما قال ابن عباس والشافعي ومالك وأحمد، وذلك مجمع عليه، كما تقدم في كلام الإمام الشافعي رحمه الله تعالى.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وقال الإمام أحمد: عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحته، ويذهبون إلى رأي سفيان. والله تعالى يقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣] أتدرون ما الفتنة؟ الفتنة: الشرك، لعله إذا رد بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك).

ش: هذا الكلام من الإمام أحمد رحمه الله رواه عنه الفضل بن زياد وأبو طالب. قال الفضل عن أحمد: نظرت في المصحف فوجدت طاعة الرسول ﷺ في ثلاثة وثلاثين موضعًا، ثم جعل يتلو: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

فذكر من قوله: الفتنة: الشرك، إلى قوله: فيهلك. ثم جعل يتلو هذه الآية: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

وقال أبو طالب عن أحمد وقيل له: إن قومًا يَدَّعون الحديث ويذهبون إلى رأي سفيان وغيره، فقال: أعجب لقوم سمعوا الحديث وعرفوا الإسناد وصحته يَدَعونه ويذهبون إلى رأي سفيان وغيره، قال الله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣] أتدري ما الفتنة؟ الفتنة: الكفر. قال الله تعالى: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ [البقرة: ٢١٧] فيدعون الحديث عن رسول الله ﷺ وتغلبهم أهواؤهم إلى الرأي ذكر ذلك عنه شيخ الإسلام رحمه الله تعالى.

قوله: عرفوا الإسناد أي: إسناد الحديث وصحته، فإن صح إسناد الحديث فهو صحيح عند أهل الحديث وغيرهم من العلماء.

وسفيان: هو الثوري، الإمام الزاهد، العابد الثقة الفقيه، وكان له أصحاب يأخذون عنه، ومذهبه مشهور يذكره العلماء رحمهم الله في الكتب التي يذكر فيها مذاهب الأئمة، كالتمهيد لابن عبد البر، والاستذكار له، وكتاب الإشراف على مذاهب الأشراف لابن المنذر، والمحلى لابن حزم، والمغنى لأبي محمد عبد الله بن أحمد بن قدامة الحنبلي. وغير هؤلاء.

فقول الإمام أحمد رحمه الله: عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحته... إلخ إنكار منه لذلك. وأنه يئول إلى زيغ القلوب الذي يكون به المرء كافرًا. وقد عمت البلوى بهذا المنكر خصوصًا ممن ينتسب إلى العلم، نصبوا الحبائل في الصد عن الأخذ بالكتاب والسنة، وصدوا الناس عن متابعة الرسول ﷺ وتعظيم أمره ونهيه.

فمن ذلك قولهم: لا يستدل بالكتاب والسنة إلا المجتهد. والاجتهاد قد انقطع ويقول: هذا الذي قلَّدته أعلم منك بالحديث وبناسخه ومنسوخه، ونحو ذلك من الأقوال التي غايتها ترك متابعة الرسول ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى، والاعتماد على قول من يجوز عليه الخطأ، وغيره من الأئمة يخالفه، ويمنع قوله بدليل، فما من إمام إلا والذي معه بعض العلم لا كله.

فالواجب على كل مكلف إذا بلغه الدليل من كتاب الله وسنة رسوله وفهم معنى ذلك: أن ينتهي إليه ويعمل به، وإن خالفه من خالفه، كما قال تعالى: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٣] وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥١].

وقد تقدم حكاية الإجماع على ذلك، وبيان أن المقلد ليس من أهل العلم، وقد حكى أيضًا أبو عمر بن عبد البر وغيره الإجماع على ذلك.

قلت: ولا يخالف في ذلك إلا جهال المقلدة، لجهلهم بالكتاب والسنة، ورغبتهم عنهما، وهؤلاء وإن ظنوا أنهم اتبعوا الأئمة، فإنهم في الحقيقة قد خالفوهم، واتبعوا غير سبيلهم. كما قدمنا من قول مالك والشافعي وأحمد.

لكن في كلام أحمد رحمه الله إشارة إلى أن التقليد قبل بلوغ الحجة لا يذم وإنما

ينكر على من بلغته الحجة وخالفها لقول إمام من الأئمة، وذلك إنما نشأ عن الإعراض عن تدبُّر كتاب الله وسنة رسوله والإقبال على كتب من تأخر والاستغناء بها عن الوحيين، وهذا يشبه ما وقع من أهل الكتاب الذين قال الله فيهم: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة :٣١]كما سيأتي بيان ذلك في حديث عدي بن حاتم [١].

فيجب على من نصح نفسه إذا قرأ كتب العلماء ونظر فيها وعرف أقوالهم فليعرضها على ما في الكتاب والسنة، فإن كل مجتهد من العلماء ومن تبعه وانتسب إلى مذهبه لا بد أن يذكر دليله.

والحق في المسألة واحد، والأئمة مثابون على اجتهادهم، فالمصنف يجعل النظر في كلامهم وتأمله طريقًا إلى معرفة المسائل واستحضارها ذهنًا وتمييزًا للصواب من الخطأ بالأدلة التي ذكرها المستدلون، ويتعرف بذلك من هو أسعد بالدليل من العلماء فيتبعه.

والأدلة على هذا الأصل في كتاب الله أكثر من أن تحصر وفي السنة كذلك، كما أخرج أبو داود بسنده عن أناس من أصحاب معاذ: أن رسول الله ﷺلما أراد أن يبعث معاذًا إلى اليمن قال: «**كيف تقضي إذا عرض لك قضاء؟**» قال: أقضي بكتاب الله تعالى، قال: «**فإن لم تجد في كتاب الله؟**» قال: فبسنة رسول الله ﷺقال: «**فإن لم تجد في سنة رسول الله ﷺولا في كتاب الله؟**» قال: أجتهد رأيي ولا آلو، فضرب رسول الله ﷺصدره وقال: «**الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضي رسول الله**» [٢]وساق بسنده عن الحارث بن عمرو عن أناس من أصحاب معاذ عن معاذ بن جبل رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺلما بعثه إلى اليمن - بمعناه.

والأئمة رحمهم الله لم يقصروا في البيان، بل نهوا عن تقليدهم إذا استبانت السنة، لعلمهم أن من العلم شيئًا لم يعلموه، وقد يبلغ غيرهم، وذلك كثير كما لا يخفى على من نظر في أقوال العلماء.

(١) سبق تصحيح الحديث.
(٢) منكر: وسبق تخريجه.

قال أبو حنيفة رحمه الله: إذا جاء الحديث عن رسول الله ﷺ فعلى الرأس والعين، وإذا جاء عن الصحابة رضي الله عنهم فعلى الرأس والعين، وإذا جاء عن التابعين فنحن رجال وهم رجال.

وقال: إذا قلت قولاً وكتاب الله يخالفه، فاتركوا قولي لكتاب الله. قيل: إذا كان قول الرسول ﷺ يخالفه؟ قال: اتركوا قولي لخبر رسول الله ﷺ. وقيل: إذا كان قول الصحابة يخالفه؟ قال: اتركوا قولي لقول الصحابة.

وقال الربيع: سمعت الشافعي رحمه الله يقول: إذا وجدتم في كتابي خلاف سنة رسول الله ﷺ، فخذوا سنة رسول الله ﷺ ودعوا ما قلت.

وقال: إذا صح الحديث بما يخالف قولي، فاضربوا بقولي الحائط.

وقال مالك: كل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ [(١)].

وتقدم له مثل ذلك، فلا عذر لمقلد بعد هذا. ولو استقصينا كلام العلماء في هذا لخرج بنا عما قصدناه من الاختصار، وفيما ذكرناه كفاية لطالب الهدى.

قوله: (لعله إذا رد بعض قوله: أي قول الرسول ﷺ، أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك). نبه رحمه الله أن رد قول الرسول ﷺ سبب لزيغ القلب، وذلك هو الهلاك في الدنيا والآخرة كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ [الصف: ٥].

قال شيخ الإسلام رحمه الله في معنى قول الله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ [النور: ٦٣] فإذا كان المخالف عن أمره قد حُذِّرَ من الكفر والشرك، أو من العذاب الأليم، دل على أنه قد يكون مفضيًا إلى الكفر والعذاب الأليم، ومعلوم أن إفضاءه إلى العذاب الأليم هو مجرد فعل المعصية، فإفضاؤه إلى الكفر إنما هو لما يقترن به من الاستخفاف في حق الآمر، كما فعل إبليس لعنه الله تعالى انتهى.

وقال أبو جعفر بن جرير رحمه الله تعالى: عن الضحاك: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ

(١) انظر ما قبل أربعة تخريجات، ومناقب الشافعي (١/ ٤٧١) للبيهقي.

عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ [النور:٦٣] قال: يطبع على قلبه فلا يؤمن أن يظهر الكفر بلسانه فتضرب عنقه [١].

قال أبو جعفر: أدخلت عن؛ لأن معنى الكلام: فليحذر الذين يلوذون عن أمره ويدبرون عنه معرضين.

قوله: (أو يصيبهم) في عاجل الدنيا عذاب من الله موجع، على خلافهم أمر رسول الله ﷺ.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (عن عدي بن حاتم رضي الله عنه: أنه سمع النبي ﷺ يقرأ هذه الآية: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة:٣١] الآية. فقلت: إنا لسنا نعبدهم. قال: «أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه ويحلون ما حرم الله فتحلونه؟» فقلت: بلى، قال: «فتلك عبادتهم» [٢] رواه أحمد والترمذي وحسنه).

ش: هذا الحديث قد روى من طرق، فرواه ابن سعد وعبد بن حميد، وابن المنذر وابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني، وأبو الشيخ، وابن مردويه، والبيهقي.

قوله: عن عدي بن حاتم أي الطائي المشهور. وحاتم هو ابن عبد الله بن سعد بن الحشرج - بفتح الحاء المهملة - المشهور بالسخاء والكرم. قدم عدي على رسول الله ﷺ في شعبان سنة تسع من الهجرة. فأسلم وعاش مائة وعشرين سنة.

وفي الحديث دليل على أن طاعة الأحبار والرهبان في معصية الله عبادة لهم من دون الله، ومن الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله لقوله تعالى في آخر الآية: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة:٣١] يظهر ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام:١٢١] هذا قد وقع فيه كثير

---

(١) فيه جويبر وهو واه، تالف الإسناد، وانظر الطبري (٢٦٢٦٥) في تفسيره.

(٢) صحيح الإسناد وقد سبق.

من الناس مع من قلدوهم، لعدم اعتبارهم الدليل إذا خالف المقلد، وهو من هذا الشرك.

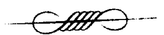
ومنهم من يغلو في ذلك واعتقد أن الأخذ بالدليل والحالة هذه - يكره، أو يحرم، فعظمت الفتنة. ويقول: هم أعلم منا بالأدلة. ولا يأخذ بالدليل إلا المجتهد، وربما تفوَّهوا بذم من يعمل بالدليل، ولا ريب أن هذا من غُربة الإسلام كما قال شيخنا رحمه الله تعالى في المسائل:

فتغيرت الأحوال، وآلت إلى هذه الغاية فصار عند الأكثر عبادة الرهبان هي أفضل الأعمال، ويسمونها ولاية، وعبادة الأحبار هي العلم والفقه. ثم تغيرت الحال إلى أن عبد من ليس من الصالحين، وعبد بالمعنى الثاني من هو من الجاهلين.

وأما طاعة الأمراء ومتابعتهم فيما يخالف ما شرعه الله ورسوله فقد عمت به البلوى قديمًا وحديثًا في أكثر الولاة بعد الخلفاء الراشدين وهلم جرًّا. وقد قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[القصص: ٥٠].

وعن زياد بن حدير قال: قال لي عمر رضي الله عنه: هل تعرف ما يهدم الإسلام؟ قلت: لا، قال: يهدمه زلة العالم، وجدال المنافق بالكتاب والسنة، وحكم الأئمة المضلين. رواه الدارمي [1].

جعلنا الله وإياكم من الذين يهدون بالحق، وبه يعدلون.



(١) صحيح الإسناد إلى عمر: الدارمي (١٠/ ٨٢) في سننه، والحلية (٤/ ١٩٦).

(٣٨)

باب

قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾

قال المصنف رحمه الله تعالى: (باب قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾﴾[النساء: ٦٠-٦٢]).

ش: قال العماد ابن كثير: والآية ذامة لمن عدل عن الكتاب والسنة وتحاكم إلى ما سواهما من الباطل، وهو المراد بالطاغوت ههنا.

وتقدم ما ذكره ابن القيم رحمه الله في حده للطاغوت، وأنه كل ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع.

فكل مَنْ حاكم إلى غير كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فقد حاكم إلى الطاغوت الذي أمر الله تعالى عباده المؤمنين أن يكفروا به، فإن التحاكم ليس إلا إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ومن كان يحكم بهما. فمن حاكم إلى غيرهما فقد تجاوز به حده، وخرج عما شرعه الله ورسوله ﷺ وأنزله منزلة لا يستحقها.

وكذلك من عبد شيئًا دون الله فإنما عبد الطاغوت، فإن كان المعبود صالحًا صارت عبادة العابد له راجعة إلى الشيطان الذي أمره بها، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا

تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ ۚ وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ [يونس:٢٨-٣٠] وكقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبأ:٤٠-٤١].

وإن كان ممن يدعو إلى عبادة نفسه أو كان شجرًا أو حجرًا أو قبرًا وغير ذلك مما يتخذه المشركون أصنامًا على صور الصالحين أو الملائكة أو غير ذلك، فهي من الطاغوت الذي أمر الله تعالى عباده أن يكفروا بعبادته، ويتبرءوا منه، ومن عبادة كل معبود سوى الله كائنًا من كان، وهذا كله من عمل الشيطان وتسويله، فهو الذي دعا إلى كل باطل وزينه لمن فعل، وهذا ينافي التوحيد الذي هو معنى شهادة أن لا إله إلا الله.

فالتوحيد: هو الكفر بكل طاغوت عبده العابدون من دون الله، كما قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة:٤] وكل من عبد غير الله فقد جاوز به حده، وأعطاه من العبادة ما لا يستحقه.

قال الإمام مالك رحمه الله: الطاغوت: ما عبد من دون الله.

وكذلك من دعا إلى تحكيم غير الله تعالى ورسوله: فقد ترك ما جاء به الرسول ﷺ ورغب عنه، وجعل لله شريكًا في الطاعة وخالف ما جاء به الرسول ﷺ فيما أمره الله تعالى به في قوله: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة:٤٩] وقوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء:٦٥].

فمن خالف ما أمر الله به ورسوله ﷺ بأن حكم بين الناس بغير ما أنزل الله، أو طلب ذلك اتباعًا لما يهواه ويريده، فقد خلع ربقة الإسلام والإيمان من عنقه. وإن زعم أنه مؤمن.

فإن الله تعالى أنكر على من أراد ذلك، وأكذبهم في زعمهم الإيمان لما في ضمن

قوله: ﴿يَزْعُمُونَ﴾ من نفى إيمانهم، فإن ﴿يَزْعُمُونَ﴾ إنما يقال غالبًا لمن ادعى دعوى هو فيها كاذب لمخالفته لموجبها وعمله بما ينافيها، يحقق هذا قوله: ﴿وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ﴾ [النساء: ٦٠] لأن الكفر بالطاغوت ركن التوحيد، كما في آية البقرة فإذا لم يحصل هذا الركن لم يكن موحدًا.

والتوحيد هو أساس الإيمان الذي تصلح به جميع الأعمال وتفسد بعدمه. كما أن ذلك بين في قوله تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾ [البقرة: ٢٥٦] الآية. وذلك أن التحاكم إلى الطاغوت إيمان به.

وقوله: ﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ٦٠] يبين تعالى في هذه الآية: أن التحاكم إلى الطاغوت مما يأمر به الشيطان ويزينه لمن أطاعه، ويبين أن ذلك مما أضل به الشيطان من أضله، وأكده بالمصدر، ووصفه بالبعد. فدل على أن ذلك من أعظم الضلال وأبعده عن الهدى.

ففي هذه الآية أربعة أمور:

الأول: أنه من إرادة الشيطان.

الثاني: أنه ضلال.

الثالث: تأكيده بالمصدر.

الرابع: وصفه بالبعد عن سبيل الحق والهدى.

فسبحان الله ما أعظم هذا القرآن وما أبلغه، وما أدله على أنه كلام رب العالمين، أوحاه إلى رسوله الكريم، وبلغه عبده الصادق الأمين. صلوات الله وسلامه عليه.

قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ [النساء: ٦١] بين تعالى أن هذه صفة المنافقين، وأن من فعل ذلك أو طلبه، وإن زعم أنه مؤمن فإنه في غاية البعد عن الإيمان.

قال العلامة ابن القيم: هذا دليل على أن من دُعِيَ إلى تحكيم الكتاب والسنة فأبى، أنه من المنافقين.

قوله: ﴿يَصُدُّونَ﴾ لازم وهو بمعنى: يعرضون؛ لأن مصدره صدودًا. فما أكثر من اتصف بهذا الوصف، خصوصًا ممن يدعى العلم، فإنهم صدوا عما توجبه الأدلة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ إلى أقوال من يخطئ كثيرًا ممن ينتسب إلى الأئمة الأربعة: في تقليدهم من لا يجوز تقليده، واعتمادهم على قول من لا يجوز الاعتماد على قوله، ويجعلون قوله المخالف لنص الكتاب والسنة وقواعد الشريعة هو المعتمد عندهم الذي لا تصح الفتوى إلا به. فصار المتبع للرسول ﷺ بين أولئك غريبًا، كما تقدم التنبيه على هذا في الباب الذي قبل هذا.

فتدبر هذه الآيات وما بعدها يتبين لك ما وقع فيه غالب الناس من الإعراض عن الحق وترك العمل به في أكثر الوقائع. والله المستعان.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [البقرة:١١]).

ش: قال أبو العالية في الآية: يعني: لا تعصوا في الأرض؛ لأن من عصى الله في الأرض أو أمر بمعصية الله فقد أفسد في الأرض؛ لأن صلاح الأرض والسماء إنما هو بطاعة الله ورسوله (١).

وقد أخبر تعالى عن إخوة يوسف عليه السلام في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ [يوسف:٧٠] إلى قوله: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾ [يوسف:٧٣] فدلت الآية على أن كل معصية فساد في الأرض.

ومناسبة الآية للترجمة: أن التحاكم إلى غير الله ورسوله من أعمال المنافقين، وهو الفساد في الأرض.

وفي الآية: التنبيه على عدم الاغترار بأقوال أهل الأهواء وإن زخرفوها بالدعوى. وفيها: التحذير من الاغترار بالرأي ما لم يقم على صحته دليل من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ. فما أكثر من يصدق بالكذب ويكذب بالصدق إذ جاءه، وهذا من الفساد في الأرض ويترتب عليه من الفساد أمور كثيرة، تخرج صاحبها من الحق وتدخله في

---

(١) حسن الإسناد: الطبري (٣٤٠) في تفسيره.

الباطل . نسأل الله العفو والعافية والمعافاة الدائمة في الدين والدنيا والآخرة .

فتدبر تجد ذلك في حال الأكثر إلا من عصمه الله ومَنَّ عليه بقوة داعي الإيمان، وأعطاه عقلاً كاملاً عند ورود الشهوات، وبصرًا نافذًا عند ورود الشبهات، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

قال المصنف رحمه الله تعالى:(﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف :٥٦]) .

ش:قال أبو بكر بن عياش في الآية : إن الله بعث محمدًا ﷺإلى أهل الأرض وهم في فساد، فأصلحهم الله بمحمد ﷺفمن دعا إلى خلاف ما جاء به محمد ﷺ فهو من المفسدين في الأرض .

وقال ابن القيم : قال أكثر المفسرين : لا تفسدوا فيها بالمعاصي، والدعاء إلى غير طاعة الله بعد إصلاح الله إياها ببعث الرسل، وبيان الشريعة والدعاء إلى طاعة الله، فإن عبادة غير الله والدعوة إلى غيره والشرك به : أعظم فساد في الأرض، بل فساد الأرض في الحقيقة إنما هو بالشرك به ومخالفة أمره، فالشرك والدعوة إلى غير الله وإقامة معبود غيره، ومطاع متبع غير رسول الله ﷺ: هو أعظم الفساد في الأرض، ولا صلاح لها ولا لأهلها إلا : أن يكون الله وحده هو المعبود المطاع، والدعوة له لا لغيره، والطاعة والاتباع لرسوله ليس إلا، وغيره إنما تجب طاعته إذا أمر بطاعة الرسول ﷺ. فإذا أمر بمعصيته وخلاف شريعته فلا سمع له ولا طاعة .

ومن تدبر أحوال العالم وجد كل صلاح في الأرض، فسببه توحيد الله وعبادته وطاعة رسوله، وكل شر في العالم وفتنة وبلاء وقحط وتسليط عدو وغير ذلك فسببه مخالفة رسوله والدعوة إلى غير الله ورسوله . انتهى .

ووجه مطابقة هذه الآية للترجمة : أن التحاكم إلى غير الله ورسوله من أعظم ما يفسد الأرض من المعاصي، فلا صلاح لها إلا بتحكيم كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وهو سبيل المؤمنين، كما قال تعالى : ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء :١١٥] .

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وقول الله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]).

ش: قال ابن كثير رحمه الله: ينكر تعالى على من خرج عن حكم الله تعالى المشتمل على كل خير، والناهي عن كل شر وعدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله، كما كان أهل الجاهلية يحكمون بها من الجهالات والضلالات كما يحكم بها التتار من السياسات المأخوذة عن جنكيز خان الذي وضع لهم كتابًا مجموعًا من أحكام أقيسة من شرائع شتى، وفيها كثير من الأحكام أخذها عن مجرد نظره. وصار في بنيه شرعًا يقدمونه على الحكم بكتاب الله وسنة رسوله، ومن فعل ذلك فهو كافر يجب قتاله حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله، فلا يحكم بسواه في قليل ولا كثير.

قوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠] استفهام إنكار أي لا حكم أحسن من حكمه تعالى. وهذا من باب استعمال أفعل التفضيل فيما ليس له في الطرف الآخر مشارك، أي: ومن أعدل من الله حكمًا لمن عقل عن الله شرعه وآمن وأيقن أن الله تعالى: أحكم الحاكمين، وأرحم بعباده من الوالدة بولدها، العليم بمصالح عباده، القادر على كل شيء، الحكيم في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره؟.

وفي الآية: التحذير من حكم الجاهلية، واختياره على حكم الله ورسوله. فمن فعل ذلك فقد أعرض عن الأحسن، وهو الحق، إلى ضده من الباطل.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به»[1] قال النووي: حديث صحيح رويناه في كتاب الحجة بإسناد صحيح).

ش: هذا الحديث: رواه الشيخ أبو الفتح، نصر بن إبراهيم المقدسي الشافعي في

---

(١) **ضعيف وله شواهد تحسنه:** ابن أبي عاصم (١٥) في السنة وضعفه الألباني هناك، وصححه النووي، وأعله ابن رجب الحنبلي حديث رقم (٤١) ضمن جامع العلوم والحكم وحكم عليها بالضعف وحسّن معناه.

كتاب: الحجة على تارك المحجة بإسناد صحيح كما قاله المصنف عن النووي.

ورواه الطبراني وأبو بكر بن عاصم، والحافظ أبو نعيم في الأربعين التي شرط لها أن تكون في صحاح الأخبار، وشاهده في القرآن:

قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء: ٦٥] الآية. وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦] وقوله: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [القصص: ٥٠] ونحو هذه الآيات.

قوله: (لا يؤمن أحدكم): لا يكون من أهل كمال الإيمان الواجب الذي وعد الله أهله عليه بدخول الجنة والنجاة من النار، وقد يكون في درجة أهل الإساءة والمعاصي من أهل الإسلام.

قوله: (حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به). الهوى بالقصر، أي: ما يهواه وتحبه نفسه وتميل إليه.

فإن كان الذي يحبه وتميل إليه نفسه ويعمل به تابعًا لما جاء به الرسول ﷺ لا يخرج عنه إلا ما يخالفه. فهذه صفة أهل الإيمان المطلق.

وإن كان بخلاف ذلك أو في بعض أحوانه أو أكثرها انتفى عنه من الإيمان كماله الواجب، كما في حديث أبي هريرة: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن**»[١] يعني أنه بالمعصية ينتفي عنه كمال الإيمان الواجب وينزل عنه في درجة الإسلام وينقص إيمانه، فلا يطلق عليه الإيمان إلا بقيد المعصية أو الفسوق، فيقال: مؤمن عاصٍ، أو يقال: مؤمن بإيمانه، فاسق بمعصيته، فيكون معه مطلق الإيمان الذي لا يصح إسلامه إلا به. كما قال تعالى: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ [النساء: ٩٢].

والأدلة على ما عليه سلف الأمة وأئمتها - أن الإيمان قول وعمل ونية يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية - من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ أكثر من أن تحصر.

(١) رواه البخاري (٥٥٧٨) في الأشربة، مسلم (٥٧) في الإيمان عن أبي هريرة رضي الله عنه.

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾[البقرة:١٤٣] أي: صلاتكم إلى بيت المقدس قبل تحويل القبلة، وقول النبي ﷺ لوفد عبد القيس: «**آمركم بالإيمان بالله وحده، أتدرون ما الإيمان بالله وحده؟ شهادة أن لا إله إلا الله......**» الحديث، وهو في الصحيحين والسنن.

والدليل على أن الإيمان يزيد قوله تعالى: ﴿وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾[المدثر:٣١] الآية. وقوله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾[التوبة:١٢٤] الآية. خلافًا لمن قال: إن الإيمان هو القول، وهم المرجئة، ومن قال: إن الإيمان هو التصديق كالأشاعرة.

ومن المعلوم عقلاً وشرعًا أن نية الحق تصديق، والعمل به تصديق وقول الحق تصديق فليس مع أهل البدع ما ينافي قول أهل السنة والجماعة. ولله الحمد والمنة.

قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾[البقرة:١٧٧] إلى قوله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾[البقرة:١٧٧] أي فيما عملوا به في هذه الآية من الأعمال الظاهرة والباطنة. وشاهده في كلام العرب قولهم: حملة صادقة.

وقد سمي الله تعالى الهوى المخالف لما جاء به الرسول ﷺ إلهًا، فقال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ﴾[الفرقان:٤٣] قال بعض المفسرين: لا يهوى شيئًا إلا ركبه.

قال ابن رجب [(١)]: أما معنى الحديث: فهو أن الإنسان لا يكون مؤمنًا كامل الإيمان الواجب حتى تكون محبته تابعة لما جاء به الرسول ﷺ من الأوامر والنواهي وغيرها. فيحب ما أُمر به ويكره ما نُهِيَ عنه، وقد ورد القرآن: مثل هذا المعنى في غير موضع، وذم سبحانه من كره ما أحبه الله، أو أحب ما كرهه الله كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾[محمد:٢٨].

فالواجب على كل مؤمن أن يحب ما أحبه الله، محبة توجب له الإتيان بما أوجب عليه منه، فإن زادت المحبة حتى أتى بما ندب إليه منه كان ذلك فضلاً.

وأن يكره ما يكرهه الله كراهة توجب له الكف عما حرم عليه منه، فإن زادت

---

(١) رواه البخاري (٥٣) في الإيمان، مسلم (١٧) في الإيمان عن ابن عباس رضي الله عنهما.

الكراهة حتى أوجبت الكف عما كرهه تنزيهًا كان ذلك فضلاً .

فمن أحب الله ورسوله محبة صادقة من قلبه أوجب ذلك له أن يحب بقلبه : ما يحبه الله ورسوله ويكره ما يكرهه الله ورسوله ، فيرضى : ما يرضي به الله ورسوله ، ويَسخط ما يُسخط الله ورسوله ، ويعمل بجوارحه بمقتضى هذا الحب والبغض ، فإن عمل بجوارحه شيئًا يخالف ذلك ، بأن ارتكب بعض ما يكرهه الله ورسوله وترك ما يحبه الله ورسوله مع وجوبه والقدرة عليه ، دل ذلك على نقص محبته الواجبة ، فعليه أن يتوب من ذلك ويرجع إلى تكميل المحبة الواجبة التي هي ركن العبادة إذا كملت فجميع المعاصي تنشأ من تقديم هوى النفس على محبة الله ورسوله .

وقد وصف الله المشركين باتباع الهوى في مواضع من كتابه ، فقال تعالى : ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ﴾ [القصص :٥٠] .

وكذلك البدع إنما تنشأ من تقديم الهوى على الشرع . ولهذا سمي أهلها أهل الأهواء . وكذلك المعاصي إنما تقع من تقديم الهوى على محبة الله ومحبة ما يحبه الله .

وكذلك حب الأشخاص : الواجب فيه أن يكون تبعًا لما جاء به الرسول ﷺ، فيجب على المؤمن محبة من يحبه الله [(١)] من الملائكة والرسل والأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين عمومًا ، ولهذا كان من علامات وجود حلاوة الإيمان : أن يحب المرء لا يحبه إلا لله فتحرم موالاة أعداء الله ومن يكرهه الله عمومًا ، وبهذا يكون الدين كله لله وحده . ومن أحب لله وأبغض لله ، وأعطى لله ومنع لله : فقد استكمل الإيمان ، ومن كان حبه وبغضه وعطاؤه ومنعه لهوى نفسه : كان ذلك نقصًا في إيمانه الواجب . فيجب التوبة من ذلك : انتهى ملخصًا .

ومناسبة الحديث للترجمة : بيان الفرق بين أهل الإيمان وأهل النفاق والمعاصي في أقوالهم وأفعالهم وإراداتهم .

---

(١) سبق تخريج حديث : «ثلاث من كُنَّ فيه . . .» عن أنس رضي الله عنه في الصحيحين .

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وقال الشعبي: كان بين رجل من المنافقين ورجل من اليهود خصومة، فقال اليهودي: نتحاكم إلى محمد، عرف أنه لا يأخذ الرشوة. وقال المنافق: نتحاكم إلى اليهود؛ لعلمه أنهم يأخذون الرشوة. فاتفقا أن يأتيا كاهنًا في جُهينة فيتحاكما إليه، فنزلت: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾[النساء:٦٠] الآية[(١)]).

وقيل: نزلت في رجلين اختصما، فقال أحدهما: نترافع إلى النبي ﷺ. وقال الآخر: إلى كعب بن الأشرف. ثم ترافعا إلى عمر بن الخطاب، فذكر له أحدهما القصة. فقال للذي لم يرض برسول الله ﷺ أكذلك؟ قال: نعم، فضربه بالسيف فقتله[(٢)].

ش: قوله: وقال الشعبي، هو عامر بن شراحيل الكوفي، عالم أهل زمانه، وكان حافظًا علاّمة ذا فنون. كان يقول: ما كتبت سوداء في بيضاء، وأدرك خلقًا من الصحابة وعاش بضعًا وثمانين سنة. قاله الذهبي.

وفيما قاله الشعبي ما يبين أن المنافق يكون أشد كراهة لحكم الله ورسوله من اليهود والنصارى. ويكون أشد عداوة منهم لأهل الإيمان. كما هو الواقع في هذه الأزمنة وقبلها: من إعانة العدو على المسلمين، وحرصهم على إطفاء نور الإسلام والإيمان.

ومن تدبر ما في التاريخ وما وقع منهم من الوقائع عرف أن هذا حال المنافقين قديمًا وحديثًا، وقد حذر الله نبيه ﷺ من طاعتهم والقرب منهم، وحضه على جهادهم في مواضع من كتابه، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾[التحريم:٩].

وفي قصة عمر وقتله المنافق الذي طلب التحاكم إلى كعب بن الأشرف اليهودي

---

(١) مرسل الإسناد: الطبري (٩٨٩٦ - ٩٨٩٨) في تفسيره، والشَّعْبي تابعي جليل - رحمه الله -.

(٢) موضوع: في سنده أبو صالح وهو متروك ولم يسمع من ابن عباس، والكلبي وهو متهم بالكذب، وانظر الدر المنثور (٢/ ٣١٠) ط العلمية وعزاه للثعلبي، ولباب النقول ص (٥٥) للسيوطي وضعفه هناك. وصحّ السبب إلى ابن عباس رضي الله عنهما وأخبر أن اسم من أراد التحاكم إليه هو (أبو برزة الأسلمي) وانظر الجامع لأسباب النزول ص (٥٧).

دليل على قتل من أظهر الكفر والنفاق .

وكان كعب بن الأشرف هذا شديد العداوة للنبي ﷺ والأذى له وإظهار عداوته فانتقض به عهده . وحل به قتله . وروى مسلم في صحيحه عن عمر : سمعت جابرًا يقول : قال رسول الله ﷺ : **«من لكعب بن الأشرف؟ فإنه قد آذى الله ورسوله»**، قال محمد بن سلمة : يا رسول الله ، أتحب أن أقتله؟ قال : **«نعم»** . قال : ائذن لي فلأقل ، قال : **«قل»** .

فأتاه فقال له ، وذكر ما بينهم وقال : إن الرجل قد أراد صدقة وقد عَنَّانا . فلما سمعه قال : وأيضًا والله لتملنه ، قال : إنا قد اتبعناه الآن ، ونكره أن ندعه حتى ننظر إلى أي شيء يصير أمره ، قال : وقد أردت أن تسلفني سلفًا ، قال : فما ترهنني؟ قال : ما تريده؟ . قال : ترهنني نساءكم؟ قال : أنت أجمل العرب ، أنرهنك نساءنا؟ قال : ترهنوني أولادكم؟ قال : يسب ابن أحدنا فيقال : رهن في وسقين من تمر . ولكن نرهنك اللأمة - يعني السلاح - قال : نعم . وواعده أن يأتيه بالحارث ، وأبي عبس بن جبر ، وعباد بن بشر . قال : فجاءوا فدعوه ليلاً فنزل إليهم - قال سفيان : قال غير عمرو : قالت له امرأته : إني لأسمع صوتًا كأنه صوت دم ، قال : إنما هذا محمد بن مسلمة ورضيعه وأبو نائلة إن الكريم لو دُعِيَ إلى طعنة ليلاً لأجاب ، قال محمد : إني إذا جاء فسوف أمد يدي إلى رأسه ، فإذا استمكنت منه فدونكم قال : فلما نزل ، نزل وهو متوشح . فقالوا : نجد منك ريح الطيب ، قال : نعم ، تحتى فلانة أعطر نساء العرب ، قال : فتأذن لي أن أشم منه؟ قال : نعم فشم ، فتناوله فشم ، ثم قال : أتأذن لي أن أعود؟ قال : فاستمكن من رأسه . ثم قال : دونكم . قال : فقتلوه [1] .

وفي قصة عمر : بيان أن المنافق المغموص بالنفاق إذا أظهر نفاقه قُتل ، كما في الصحيحين وغيرهما : أن النبي ﷺ إنما ترك قتل من أظهر نفاقه منهم تأليفًا للناس ، فإنه قال : **«لا يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه»** [2] فصلوات الله وسلامه عليه .

---

(١) رواه مسلم (١٨٠١/١١٩) في الجهاد والسير . والبخاري بنحوه (٤٠٣٧) في المغازي عن جابر رضي الله عنه .

(٢) رواه البخاري (٣٥١٨) في المناقب ، مسلم (٢٥٨٤) في البر والصلة عن جابر رضي الله عنه .

(٣٩)

باب

من جحد شيئًا من الأسماء والصفات

قال المصنف رحمه الله تعالى: (من جحد شيئًا من الأسماء والصفات وقول الله تعالى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾[الرعد: ٣٠]).

ش: سبب نزول هذه الآية معلوم مذكور في كتب التفسير وغيرها. وهو أن مشركي قريش جحدوا اسم ﴿الرحمن﴾ عنادًا[١] .

وقال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾[الإسراء: ١١٠] والرحمن: اسمه وصفته، دل هذا الاسم على أن الرحمة وصفه سبحانه، وهي من صفات الكمال.

فإذا كان المشركون جحدوا اسمًا من أسمائه تعالى، وهو من الأسماء التي دلت على كماله سبحانه وبحمده: فجحود معنى هذا الاسم ونحوه من الأسماء يكون كذلك، فإن جهم بن صفوان ومن تبعه: يزعمون أنها لا تدل على صفة قائمة بالله تعالى. وتبعهم على ذلك طوائف من المعتزلة والأشاعرة وغيرهم. فلهذا كفرهم كثيرون من أهل السنة. قال ابن القيم رحمه الله تعالى:

ولقد تقلد كفرهم خمسون في ... عشر من العلماء في البلدان
واللالكائيُّ الإمام حكاه عنـ ... ـهم بل حكاه قبله الطبراني

فإن هؤلاء الجهمية ومن وافقهم على التعطيل: جحدوا ما وصف الله به نفسه،

---

(١) سيأتي التفصيل لهذه الرواية في آخر الباب إن شاء الله من رواية قتادة، ومجاهد، وابن عباس رضي الله عنهما.

ووصفه به رسوله من صفات كماله ونعوت جلاله، وبنوا هذا التعطيل على أصل باطل أصَّلوه من عند أنفسهم، فقالوا: هذه الصفات هي صفات الأجسام. فيلزم من إثباتها أن يكون الله جسمًا.

هذا منشأ ضلال عقولهم، لم يفهموا من صفات الله إلا ما فهموه من خصائص صفات المخلوقين، فشبهوا الله في ابتداء رأيهم الفاسد بخلقه ثم عطلوه من صفات كماله، وشبهوه بالناقصات والجمادات والمعدومات.

فشبهوا أولاً وعطلوا ثانيًا، وشبهوا ثالثًا بكل ناقص أو معدوم، فتركوا ما دل عليه الكتاب والسنة من إثبات ما وصف الله به نفسه ووصفه به رسوله على ما يليق بجلاله وعظمته.

هذا هو الذي عليه سلف الأمة وأئمتها، فإنهم أثبتوا لله ما أثبته لنفسه وأثبته له رسولهﷺ إثباتًا بلا تمثيل، وتنزيهًا بلا تعطيل، فإن الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات يحتذى حذوه. فكما أن هؤلاء المعطلة يثبتون لله ذاتًا لا تشبه الذوات، فأهل السنة يقولون ذلك، ويثبتون ما وصف الله به نفسه ووصفه به رسوله من صفات كماله ونعوت جلاله لا تشبه صفات خلقه.

فإنهم آمنوا بكتاب الله وسنة رسولهﷺ ولم يتناقضوا، وأولئك المعطلة: كفروا بما في الكتاب والسنة من ذلك، فتناقضوا.

فبطل قول المعطلين بالعقل والنقل ولله الحمد والمنة، وإجماع أهل السنة من الصحابة والتابعين وتابعيهم وأئمة المسلمين.

وقد صنف العلماء رحمهم الله تعالى في الرد على الجهمية والمعطلة والمعتزلة والأشاعرة وغيرهم في إبطال هذه البدع وما فيها من التناقض والتهافت: كالإمام أحمد رحمه الله تعالى في رده المشهور، وكتاب السنة لابنه عبد الله، وصاحب الحيدة عبد العزيز الكتاني في رده على بشر المريسي، وكتاب السنة لأبي عبد الله المروزي، ورد عثمان بن سعيد على الكافر العنيد وهو بشر المريسي، وكتاب التوحيد لإمام الأئمة محمد بن خزيمة الشافعي، وكتاب السنة لأبي بكر الخلال، وأبي عثمان الصابوني الشافعي، وشيخ الإسلام الأنصاري، وأبي عمر بن عبد البر النمري، وخلق

كثير من أصحاب الأئمة الأربعة وأتباعهم، وأهل الحديث.

ومن متأخريهم أبو محمد، عبد الله بن أحمد بن قدامة، وشيخ الإسلام ابن تيمية وأصحابه وغيرهم رحمهم الله تعالى. فلله الحمد والمنة على بقاء السنة وأهلها مع تفرق الأهواء وتشعب الآراء. والله أعلم.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وفي صحيح البخاري قال علي: حدثوا الناس بما يعرفون، أتريدون أن يكذب الله ورسوله [١]**).**

ش: علي: هو أمير المؤمنين أبو الحسن، علي بن أبي طالب، وأحد الخلفاء الراشدين. وسبب هذا القول - والله أعلم - ما حدث في خلافته من كثرة إقبال الناس على الحديث، وكثرة القُصاص وأهل الوعظ. فيأتون في قصصهم بأحاديث لا تعرف من هذا القبيل، فربما استنكرها بعض الناس وردها وقد يكون لبعضها أصل أو معنًى صحيح، فيقع بعض المفاسد لذلك، فأرشدهم أمير المؤمنين رضي الله عنه إلى أنهم لا يحدثون عامة الناس إلا بما هو معروف ينفع الناس في أصل دينهم وأحكامه، من بيان الحلال من الحرام الذي كُلِّفوا به علمًا وعملاً، دون ما يشغل عن ذلك مما قد يؤدي إلى رد الحق وعدم قبوله فيفضي بهم إلى التكذيب، لا سيما مع اختلاف الناس في وقته، وكثرة خوضهم وجدلهم.

وقد كان شيخنا المصنف رحمه الله لا يحب أن يقرأ على الناس إلا ما ينفعهم في أصل دينهم وعبادتهم ومعاملاتهم الذي لا غنى لهم عن معرفته، وينهاهم عن القراءة في مثل كتب ابن الجوزي: كالمنعش، والمرعش، والتبصرة؛ لما في ذلك من الإعراض عما هو أوجب وأنفع، وفيها ما الله به أعلم مما لا ينبغي اعتقاده. والمعصوم من عصمه الله، وقد كان أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان ينهى القُصَّاص عن القَصَص؛ لما في قصصهم من الغرائب والتساهل في النقل وغير ذلك، ويقول: لا يقص إلا أمير أو مأمور [٢].

---

(١) رواه البخاري (١٢٧) في العلم.

(٢) **صحيح مرفوعًا:** أحمد (١/ ١٧٨) برقم (٦٦٦١) وصححه العلامة شاكر هناك عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

وكل هذا محافظة على لزوم الثبات على الصراط المستقيم علمًا وعملاً ونية وقصدًا، وترك كل ما كان وسيلة إلى الخروج عنه من البدع ووسائلها، والله الموفق للصواب، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وروى عبد الرزاق عن معمر عن ابن طاوس عن أبيه عن ابن عباس: أنه رأى رجلاً انتفض لما سمع حديثًا عن النبي ﷺ في الصفات - استنكارًا لذلك - فقال: ما فَرَقُ هؤلاء؟ يجدون رقة عند محكمه، ويهلكون عند متشابهه[1]. انتهى).

ش: قوله: (وروى عبد الرزاق) هو ابن همام الصنعاني المحدِّث، محدِّث اليمن صاحب التصانيف، أكثر الرواية عن معمر بن راشد صاحب الزهري. وهو شيخ عبد الرزاق، يروي عنه كثيرًا.

ومَعْمَر - بفتح الميمين وسكون العين - أبو عروة بن أبي عمرو، راشد الأزدي الحراني ثم اليماني، أحد الأعلام من أصحاب محمد بن شهاب الزهري يروي عنه كثيرًا.

قوله: (عن ابن طاوس) هو عبد الله بن طاوس اليماني. قال معمر: كان من أعلم الناس بالعربية. وقال ابن عيينة: مات سنة اثنتين وثلاثين ومائة.

قوله: (عن أبيه) هو طاوس بن كيسان الجندي - بفتح الجيم والنون - الإمام العَلَم، قيل: اسمه ذكوان، قاله ابن الجوزي.

قلت: وهو من أئمة التفسير ومن أوعية العلم، قال في تهذيب الكمال: عن الوليد المُوقَّري عن الزهري قال: قدمت على عبد الملك بن مروان فقال: من أين قدمت يا زهري؟ قال: قلت: من مكة، قال: ومن خَلَّفت يسودها وأهلها؟ قلت: عطاء بن أبي رباح، قال: فمن العرب أم من الموالي؟ قلت: من الموالي، قال: فَبِمَ سادهم؟ قال: قلت: بالديانة والرواية. قال: إن أهل الديانة والرواية لينبغي أن يسودوا. قال: فمن

---

(١) صحيح الإسناد: عبد الرزّاق (٢٠٨٩٥) في المصنف، ابن أبي عاصم (٤٨٥) في السُّنة وصححه الألباني هناك.

يسود أهل اليمن؟ قلت: طاوس بن كيسان، قال: فمن العرب أم من الموالي؟ قال: قلت: من الموالى، قال: فبم سادهم؟ قلت: بما ساد به عطاء، قال: إنه لينبغي ذلك. قال: فمن يسود أهل مصر؟ قلت: يزيد بن أبي حبيب، قال: فمن العرب أم من الموالى؟ قال: قلت: من الموالى، قال: فمن يسود أهل الشام؟ قلت: مكحول، قال: فمن العرب أم من الموالي؟ قلت: من الموالي، عبد نوبي أعتقته امرأة من هذيل. قال: فمن يسود أهل الجزيرة؟ قلت: ميمون بن مهران، قال: فمن العرب أم من الموالي؟ قال: قلت: من الموالي. قال: فمن يسود أهل خراسان؟ قال: قلت: الضحاك بن مزاحم، قال: فمن العرب أم من الموالي؟ قال: قلت: من الموالي، قال: فمن يسود أهل البصرة؟ قال: قلت: الحسن البصري، قال: فمن العرب أم من الموالي؟ قال: قلت: من الموالي. قال: ويلك، ومن يسود أهل الكوفة؟ قال: قلت: إبراهيم النخعي، قال: فمن العرب أم من الموالي؟ قال: قلت: من العرب. قال: ويلك يا زهري فرجت عني، والله لتسودن الموالي على العرب في هذا البلد حتى يخطب لها على المنابر والعرب تحتها. قال: قلت: يا أمير المؤمنين، إنما هو دين، من حفظه ساد ومن ضيعه سقط [١].

قوله: (عن ابن عباس) قد تقدم، وهو حبر الأمة وترجمان القرآن، ودعا له النبي ﷺقال: «**اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل**» [٢] وروى عنه أصحابه أئمة التفسير: كمجاهد، وسعيد بن جبير، وعطاء بن أبي رباح، وطاوس، وغيرهم.

قوله: (ما فرق هؤلاء) يستفهم من أصحابه، يشير إلى أناس ممن يحضر مجلسه من عامة الناس، فإذا سمعوا شيئًا من محكم القرآن ومعناه، حصل معهم فرق أي خوف. فإذا سمعوا شيئًا من أحاديث الصفات انتفضوا كالمنكرين له، فلم يحصل منهم الإيمان الواجب الذي أوجبه الله تعالى على عباده المؤمنين.

قال الذهبي: حديث وكيع عن إسرائيل بحديث: إذا جلس الرب على الكرسي

(١) في سنده الوليد المُوقري وهو: متروك كذبه أهل العلم، ويروى عن الزهري أحاديث ليس لها أصول كما في أحوال الرجال (١/ ١٦١) وكذبه أبو زرعة وابن معين كما في الجرح والتعديل (٩/ ١٥).

(٢) سبق تخريجه صحيحًا.

فاقشعر رجل عند وكيع . فغضب وكيع ، وقال : أدركنا الأعمش وسفيان يحدثون بهذه الأحاديث ولا ينكرونها [١] أخرجه عبد الله بن أحمد في كتاب الرد على الجهمية .

وربما حصل معهم من عدم تلقيه بالقبول ترك ما وجب من الإيمان به ، فتشبه حالهم حال من قال الله فيهم : ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة: ٨٥] فلا يسلم من الكفر إلا من عمل بما وجب عليه في ذلك ، من الإيمان بكتاب الله كله واليقين كما قال تعالى : ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ٧] .

فهؤلاء الذين ذكرهم ابن عباس - رضي الله عنهما - تركوا ما وجب عليهم من الإيمان بما لم يعرفوا معناه من القرآن ، وهو حق لا يرتاب فيه مؤمن .

وبعضهم يفهم منه غير المراد من المعنى الذي أراد الله فيحمله على غير معناه ، كما جرى لأهل البدع ، كالخوارج والرافضة والقدرية ، ونحوهم ممن يتأول بعض آيات القرآن على بدعته .

وقد وقع منهم ما وقع ، من الابتداع والخروج عن الصراط المستقيم . فإن الواقع من أهل البدع وتحريفهم لمعنى الآيات يبين معنى قول ابن عباس .

وسبب هذه البدع جهل أهلها وقصورهم في الفهم ، وعدم أخذ العلوم الشرعية على وجهها ، وتلقيها من أهلها العارفين لمعناها الذين وفقهم الله تعالى : لمعرفة المراد ، والتوفيق بين النصوص ، والقطع بأن بعضها لا يخالف بعضًا ، ورد المتشابه إلى المحكم . وهذه طريقة أهل السنة والجماعة في كل زمان ومكان ، فلله الحمد لا نحصي ثناء عليه .

ذكر ما ورد عن علماء السلف في المتشابه :

قال في الدر المنثور : أخرج الحاكم - وصححه - عن ابن مسعود عن النبي ﷺ

---

(١) ضعيف الإسناد : عبد الله بن الإمام أحمد (٩٥٨٥ ، ٩٥٨٧) في السنة وفيه عبد الله بن خليفة وهو مجهول ، وأوقفه على عمر رضي الله عنه .

قال: «كان الكتاب الأول ينزل من باب واحد على حرف واحد، فنزل القرآن من سبعة أبواب على سبعة أحرف: زجر، وأمر، وحلال، وحرام، ومحكم، ومتشابه، وأمثال. فأحلوا حلاله، وحرموا حرامه، وافعلوا ما أمرتم به، وانتهوا عما نُهيتم عنه، واعتبروا بأمثاله، واعملوا بمُحكَمه، وآمنوا بمتشابهه، وقولوا: آمنا به، كل من عند ربنا»[١].

قال: وأخرج عبد بن حميد عن قتادة في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾[آل عمران: ٧]. قال: طلب القوم التأويل، فأخطئوا التأويل وأصابوا الفتنة، وطلبوا ما تشابه منه فهلكوا بين ذلك.

وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ﴾[آل عمران: ٧] قال: من هنا قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟﴾[الأنعام: ١٥١] إلى ثلاث آيات، ومن هنا: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾[الإسراء: ٢٣] إلى ثلاث آيات بعدها[٢]، وأخرج ابن جرير من طريق أبي مالك، عن أبي صالح، عن ابن عباس، وعن مرة عن ابن مسعود وناس من الصحابة: المحكمات الناسخات التي يعمل بهن، والمتشابهات: المنسوخات[٣].

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن إسحاق بن سويد أن يحيى بن يعمر وأبا فاختة تراجعا هذه الآية ﴿هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾[آل عمران: ٧] فقال أبو فاختة: هن فواتح السور. منها يستخرج القرآن: ﴿الٓمٓ ۞ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾[البقرة: ١-٢] منها استخرجت البقرة و﴿الٓمٓ ۞ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾[آل عمران: ١-٢] منها استخرجت آل عمران. وقال يحيى: هن اللاتي فيهن الفرائض، والأمر والنهي والحلال والحرام. والحدود وعماد الدين[٤].

---

(١) ضعيف: الحاكم (١/ ٥٥٣) في المستدرك، من طريق أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف عن ابن مسعود رضي الله عنه، وكذلك ضعفه الحافظ (٩/ ٢٩) في الفتح.

(٢) مضطرب: الطبري (٦٥٧٠) في تفسيره، وفيه عبد الله بن قيس، وفي بعضها عبد الله بن أبي قُلابة، وفيه: عمّن حدثه، ففيه جهالة واضطراب.

(٣) حسّن بعض أهل العلم هذا السند، ونحن على تضعيفه وانظر الطبري (٦٥٧٣) في تفسيره.

(٤) حسن الإسناد: الطبري (٦٥٨٦، ٦٥٨٨) في تفسيره.

وأخرج ابن جرير عن محمد بن جعفر بن الزبير قال: الـ ﴿مُّحۡكَمَٰتٌ﴾ فيهن حجة الرب وعصمة العباد، ودفع الخصوم والباطل، ليس فيها تصريف ولا تحريف عما وضعت عليه ﴿وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞ﴾ في الصدق، لهن تصريف وتحريف وتأويل، ابتلى الله بهن العباد كما ابتلاهم بالحلال والحرام، لا يصرفن إلى الباطل ولا يحرفن عن الحق [١].

وأخرج ابن أبي حاتم مقاتل بن حيان إنما قال: ﴿هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [آل عمران: ٧] لأنه ليس من أهل دين لا يرضي بهن: ﴿وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞ﴾ [آل عمران: ٧] يعني فيما بلغنا ﴿الٓمٓ﴾ و﴿الٓمٓصٓ﴾ و﴿الٓمٓرۚ﴾ [٢].

قلت: وليس في هذه الآثار ونحوها ما يشعر بأن أسماء الله تعالى وصفاته من المتشابه، وما قاله النفاة من أنها من المتشابه دعوى بلا برهان.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (ولما سمعت قريش رسول الله ﷺ يذكر الرحمن أنكروا ذلك فأنزل الله فيهم: ﴿وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِۚ﴾ [الرعد: ٣٠]).

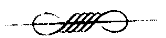
ش: روى ابن جرير عن قتادة: ﴿وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِۚ﴾ [الرعد: ٣٠] ذكر لنا أن نبي الله ﷺ زمن الحديبية حين صالح قريشًا كتب: هذا ما صالح عليه محمد رسول الله، فقال مشركو قريش: لئن كنت رسول الله ثم قاتلناك لقد ظلمناك، ولكن اكتب: هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله. فقال أصحاب رسول الله ﷺ: يا رسول الله دعنا نقاتلهم. فقال: لا. اكتبوا كما يريدون: إني محمد بن عبد الله فلما كتب الكاتب: بسم الله الرحمن الرحيم قالت قريش: أما الرحمن فلا نعرفه. وكان أهل الجاهلية يكتبون: باسمك اللهم. فقال أصحابه: يا رسول الله دعنا نقاتلهم. قال: «**لا. ولكن اكتبوا كما يريدون**» [٣].

---

(١) **ضعيف**: الطبري (٦٥٨٦، ٦٥٨٨) في تفسيره وفيه محمد بن حميد شيخ الطبري وهو: ضعيف.
(٢) **ضعيف**: ابن أبي حاتم (٣١٧٦) ومقاتل ضعيف، والراوي عنه محمد بن مزاحم: مجهول أو لين.
(٣) **صحيح إلى قتادة وهو مرسل**: الطبري (٢٠٣٩٦) في تفسيره وهو بهذا معضل لكن صح عند البخاري (٢٧٣١، ٢٧٣٢) في الشروط في حديث الحديبية الطويل عن المِسْوَر بن مَخرمة، ومروان بن الحكم رضي الله عنهما.

وروى أيضًا عن مجاهد قال: قوله: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ﴾ [الرعد: ٣٠] قال: هذا ما كاتب عليه رسول الله ﷺ قريشًا في الحديبية، كتب: بسم الله الرحمن الرحيم قالوا: لا تكتب الرحمن، لا ندري ما الرحمن؟ لا نكتب إلا باسمك اللهم. قال تعالى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [الرعد ٣٠][1].

وروى أيضًا عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ يدعو ساجدًا: «يا رحمن يا رحيم». فقال المشركون: هذا يزعم أنه يدعو واحدًا وهو يدعو مثنى مثنى. فأنزل الله: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء ١١٠][2].



(١) ضعيف: ومجاهد لم يسمع منه ابن جريج - الراوي عنه - إلا أحرفًا قليلة، وانظر تفسير الطبري (٢٠٣٩٧).

(٢) ضعيف: الطبري (٢٢٨٠١) في تفسيره عن ابن عباس بسند فيه محمد بن كثير المصيصي وهو: ضعيف.

(٤٠)



قول الله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾

قال المصنف رحمه الله تعالى: (باب قول الله تعالى: (﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾[النحل:٨٣] .

قال مجاهد - ما معناه-: هو قول الرجل: هذا مالي، ورثته عن آبائي. وقال عون بن عبد الله: يقولون: لولا فلان لم يكن كذا. وقال ابن قتيبة: يقولون: هذا بشفاعة آلهتنا).

ش: ذكر المصنف رحمه الله ما ذكر بعض العلماء في معناها.

وقال ابن جرير: فإن أهل التأويل اختلفوا في المعنيِّ بالنعمة. فذكر عن سفيان عن السدي: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾[النحل:٨٣] قال: محمد ﷺ. وقال آخرون: بل معنى ذلك: أنهم يعرفون أن ما عدد الله تعالى ذكره في هذه السورة من النعم من عند الله، وأن الله هو المنعم عليهم بذلك، ولكنهم ينكرون ذلك، فيزعمون أنهم ورثوه عن آبائهم.

وأخرج عن مجاهد: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾[النحل:٨٣]، قال: هي المساكن والأنعام وما يُرزقون منها والسرابيل من الحديد والثياب، تعرف هذا كفار قريش ثم تنكره، بأن تقول: هذا كان لآبائنا فورثنا إياه[1] وقال آخرون: معنى ذلك أن الكفار إذا قيل لهم: من رزقكم؟ أقروا بأن الله هو الذي رزقهم ثم ينكرونه بقولهم: رزقنا ذلك: شفاعة آلهتنا[2].

---

(١) حسن الإسناد: الطبري (٢١٨٤١) في تفسيره.

(٢) الطبري (٢١٨٤٢) في تفسيره بسند ضعيف بسبب ليث بن أبي سليم وهو مدلس جدًا.

وذكر المصنف مثل هذا عن ابن قتيبة: وهو أبو محمد، عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري قاضي مصر النحوي اللغوي، صاحب المصنفات البديعة المفيدة المحتوية على علوم جمة، اشتغل ببغداد وسمع الحديث على إسحاق بن راهَويْه وطبقته. توفي سنة ست وسبعين ومائتين.

وقال آخرون: ما ذكره المصنف، عن عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود الهذلي - أبو عبد الله الكوفي الزاهد [روى]: عن أبيه وعائشة وابن عباس وعنه قتادة وأبو الزبير والزهري، وثقه أحمد وابن معين قال البخاري: مات بعد العشرين ومائة ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ [النحل: ٨٣] قال: إنكارهم إياها: أن يقول الرجل: لولا فلان ما كان كذا وكذا، ولولا فلان ما أصبت كذا وكذا [١].

واختار ابن جرير القول الأول، واختار غيره أن الآية تعم ما ذكره العلماء في معناها. وهو الصواب والله أعلم.

قوله: (قال مجاهد) هو شيخ التفسير: الإمام الرباني، مجاهد بن جبر المكي مولى بني مخزوم. قال الفضل بن ميمون: سمعت مجاهدًا يقول: عرضت القرآن على ابن عباس ثلاث مرات، أقفه عند كل آية وأسأله: فِيمَ نزلت؟ وكيف نزلت؟ وكيف معناها؟ توفي سنة اثنتين ومائة. وله ثلاث وثمانون سنة رحمه الله.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وقال أبو العباس) - بعد حديث زيد بن خالد الذي فيه: أن الله تعالى قال: «أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر» الحديث [٢] - وقد تقدم، وهذا كثير في الكتاب والسنة، يذم سبحانه من يضيف إنعامه إلى غيره ويشرك به.

قال بعض السلف هو كقولهم: كانت الريح طيبة، والملاح حاذقًا. ونحو ذلك مما هو جارٍ على ألسنة كثير).

ش: قوله: (وقال أبو العباس): هو شيخ الإسلام، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية، الإمام الجليل.

---

(١) **حسن الإسناد**: أبو نعيم (٣/ ٢٧٩) في حلية الأولياء.
(٢) رواه البخاري (٨٠٦) مسلم (٧١) وسبق تخريجه.

(بعد حديث زيد بن خالد) . قد تقدم في باب ما جاء في الاستسقاء بالأنواء .

قال: (وهذا كثير في الكتاب والسنة ، يذم سبحانه من يضيف إنعامه إلى غيره ويشرك به .

قال بعض السلف: هو كقولهم : كانت الريح طيبة ، والملاح حاذقًا . ونحو ذلك مما هو جارٍ على ألسنة كثير . انتهى .

وكلام شيخ الإسلام يدل على أن حكم هذه الآية عام فيمن نسب النعم إلى غير الله الذي أنعم بها ، وأسند أسبابها إلى غيره ، كما هو مذكور في كلام المفسرين المذكور بعضه هنا .

قال شيخنا رحمه الله: وفيه اجتماع الضدين في القلب ، وتسمية هذا الكلام إنكارًا للنعمة .



(٤١)

باب

قول الله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

قال المصنف رحمه الله تعالى:(باب قول الله تعالى : ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٢]) .

ش:الند : المثل والنظير . وجعل الند لله : هو صرف أنواع العبادة أو شيء منها لغير الله ، كحال عبدة الأوثان الذين يعتقدون فيمن دعوه ورجوه أنه ينفعهم ويدفع عنهم ، ويشفع لهم .

وهذه الآية في سياق قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢١-٢٢] .

قال العماد ابن كثير رحمه الله في تفسيره : قال أبو العالية : ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة:٢٢]أي عدلاء شركاء . وهكذا قال الربيع بن أنس وقتادة والسدى وأبو مالك وإسماعيل بن أبي خالد .

وقال ابن عباس : ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٢]أي : لا تشركوا بالله شيئًا من الأنداد التي لا تنفع ولا تضر ، وأنتم تعلمون أنه ربكم لا رب لكم يرزقكم غيره ، وقد علمتم أن الذي يدعوكم الرسول إليه من توحيده هو الحق الذي لا شك فيه [١] . وكذلك قال قتادة .

(١) ضعيف الإسناد : وهذا سند شهير يروى بالشك عن محمد بن أبي محمد مولى زيد ابن ثابت عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس ، ومولى زيد مجهول وانظر الطبري (٤٨٦) في تفسيره .

وعن قتادة ومجاهد: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[البقرة: ٢٢] قال: أكفاء من الرجال تطيعونهم في معصية الله(١).

وقال ابن زيد: الأنداد هي الآلهة التي جعلوها معه وجعلوا لها مثل ما جعلوا له(٢).

وعن ابن عباس: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾[البقرة: ٢٢] قال: أشباهًا(٣).

وقال مجاهد: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[البقرة: ٢٢] قال: تعلمون أنه إله واحد في التوراة والإنجيل(٤).

وذكر حديثًا في معنى هذه الآية الكريمة: وهو ما في مسند الإمام أحمد عن الحارث الأشعري: أن نبي الله ﷺ قال: «**إن الله أمر يحيى بن زكريا عليه السلام بخمس كلمات أن يعمل بهن وأن يأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن، وأنه كاد أن يبطئ بها. فقال له عيسى عليه السلام: إن الله أمرك بخمس كلمات أن تعمل بهن وتأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن فإما أن تبلغهن وإما أن أبلغهن، فقال: يا أخي، إني أخشى إن سبقتني أن أعذب أو يخسف بي. قال: فجمع يحيى بن زكريا بني إسرائيل في بيت المقدس، حتى امتلأ المسجد وقعد على الشرف. فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إن الله أمرني بخمس كلمات أن أعمل بهن وآمركم أن تعملوا بهن: أولاهن: أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا، فإن مثل ذلك مثل رجل اشترى عبدًا من خالص ماله بذهب أو وَرِق، فجعل يعمل ويؤدي غلته إلى غير سيده، فأيكم يسره أن يكون عبده كذلك؟ وإن الله خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيئًا، وآمركم بالصلاة فإن الله ينصب وجهه لوجه عبده ما لم يلتفت. فإذا صليتم فلا تلتفتوا، وآمركم**

---

(١) الرواية عن قتادة صحيحة كما عند الطبري (٤٨٧) وضعيف عن مجاهد بسبب الجهالة كما عند الطبري (٤٨٨) في تفسيره.

(٢) صحيح إلى ابن زيد: الطبري (٤٨٣) في تفسيره.

(٣) ضعيف: فيه بشر بن عمارة عن أبي روق عن الضحاك عن ابن عباس، وفيه علة ضعف بشر بن عمارة، وعدم سماع الضحاك من ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) فيه جهالة الراوي عن مجاهد: الطبري (٤٨٨) في تفسيره.

بالصيام، فإن مثل ذلك كمثل رجل معه صرة من مسك في عصابة كلهم يجد ريح المسك. وإن خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك، وآمركم بالصدقة. فإن مثل ذلك كمثل رجل أسره العدو فشدوا يديه إلى عنقه، وقدموه ليضربوا عنقه. فقال لهم: هل لكم أن أفتدي نفسي منكم؟ فجعل نفسه يفتدى بالقليل والكثير حتى فك نفسه، وآمركم بذكر الله كثيرًا: فإن مثل ذلك كمثل رجل طلبه العدو سراعًا في أثره، فأتى حصنًا حصينًا فتحصن فيه، وإن العبد أحصن ما يكون من الشيطان إذا كان في ذكر الله».

قال: وقال رسول الله ﷺ: «وأنا آمركم بخمس، الله أمرني بهن: الجماعة، والسمع، والطاعة، والهجرة والجهاد في سبيل الله، فإنه من خرج من الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه إلا أن يراجع، ومن دعا بدعوى الجاهلية فهو من جُثى جهنم». قالوا: يا رسول الله وإن صلى وصام؟ فقال: «وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم، فادعوا المسلمين بأسمائهم التي سماهم الله عز وجل: المسلمين المؤمنين عباد الله» [1].

وهذا حديث حسن، والشاهد منه في هذه الآية قوله: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء: ٣٦].

وهذه الآية دالة على توحيد الله تعالى بالعبادة وحده لا شريك له.

وقد استدل بها كثير من المفسرين على وجود الصانع، وهي دالة على ذلك بطريق الأولى. والآيات الدالة على هذا المقام في القرآن كثيرة جدًا.

وسئل أبو نواس عن ذلك فأنشد:

تأمل في نبات الأرض وانظر ... إلى آثار ما صنع المليك
عيون من لجين فاترات ... بأحداق هي الذهب السبيك
على قُضب الزبرجد شاهدات ... بأن الله ليس له شريك

(١) صحيح الإسناد: الترمذي (٢٨٦٣ - ٢٨٦٤) في الأمثال أحمد (٤/ ١٣٠، ٢٠٢) في المسند بسند صححه الألباني.

وقال ابن المعتز :

فيا عجبًا كيف يعصى الإلـ ـــه أم كيف يجحده الجاحد
وفـي كـل شـيء لـه آيـة تـدل عـلـى أنـه واحـد

قال المصنف رحمه الله تعالى: (**وعن ابن عباس رضي الله عنهما في الآية: الأنداد هو الشرك، أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء في ظلمة الليل. وهو أن تقول: والله، وحياتك يا فلانة. وحياتي، وتقول: لولا كليبة هذا لأتانا اللصوص. ولولا البط في الدار لأتانا اللصوص. وقول الرجل لصاحبه: ما شاء الله وشئت وقول الرجل: لولا الله وفلان. لا تجعل فيها فلانًا. هذا كله به شرك**[(١)] **رواه ابن أبي حاتم**).

ش: بين ابن عباس رضي الله عنهما أن هذا كله من الشرك، وهو الواقع اليوم على ألسن كثير ممن لا يعرف التوحيد ولا الشرك.

فتنبه لهذه الأمور، فإنها من المنكر العظيم، الذي يجب النهي عنه والتغليظ فيه لكونه من أكبر الكبائر.

وهذا من ابن عباس رضي الله عنهما تنبيه بالأدنى من الشرك على الأعلى.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (**وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك»**[(٢)] **رواه الترمذي وحسنه وصححه الحاكم**).

ش: قوله: (فقد كفر أو أشرك) يحتمل أن يكون شكًّا من الراوي ويحتمل أن تكون أو بمعنى الواو فيكون قد كفر وأشرك. ويكون من الكفر الذي هو دون الكفر الأكبر. كما هو من الشرك الأصغر. وورد مثل هذا عن ابن مسعود بهذا اللفظ.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (**وقال ابن مسعود: لأن أحلف بالله كاذبًا أحب إليَّ من**

---

(١) حسن: ابن أبي حاتم (٢٢٩) في تفسيره، وفي سنده (شبيب بن بشر) وشبيب مختلف فيه، لكن التساهل في الأثر معلوم.

(٢) صحيح: الترمذي (١٥٣٥) في النذور والأيمان، أبو داود (٣٢٥١) في الأيمان، وصححه الألباني (٢٠٤٢) في الصحيحة.

أن أحلف بغيره صادقًا) [(١)].

ش: ومن المعلوم أن الحلف بالله كاذبًا كبيرة من الكبائر، لكن الشرك أكبر من الكبائر. وإن كان أصغر كما تقدم بيان ذلك.

فإذا كان هذا حال الشرك الأصغر فكيف بالشرك الأكبر الموجب للخلود في النار؟ كدعوة غير الله والاستغاثة به، والرغبة إليه، وإنزال حوائجه به، كما هو حال الأكثر من هذه الأمة في هذه الأزمان وما قبلها: من تعظيم القبور، واتخاذها أوثانًا، والبناء عليها، واتخاذها مساجد، وبناء المشاهد باسم الميت لعبادة من بُنيت باسمه وتعظيمه، والإقبال عليه بالقلوب والأقوال والأعمال.

وقد عظمت البلوى بهذا الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله، وتركوا ما دل عليه القرآن العظيم من النهي عن هذا الشرك وما يوصل إليه.

قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓا۟ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: ٣٧] كفرهم الله تعالى بدعوتهم من كانوا يدعونه من دونه في دار الدنيا. وقد قال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨] وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ۝ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ۝﴾ [الجن: ٢٠-٢١].

وهؤلاء المشركون عكسوا الأمر فخالفوا ما بلَّغ به الأمة وأخبر به عن نفسه ﷺ فعاملوه بما نهاهم عنه: من الشرك بالله والتعلق على غير الله حتى قال قائلهم:

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به ... سواك عند حلول الحادث العمم
إن لم تكن في معادي آخذًا بيدي ... فضلًا وإلا فقل يا زلة القدم
فإن من جودك الدنيا وضرتها ... ومن علومك علم اللوح والقلم

فانظر إلى هذا الجهل العظيم حيث اعتقد أنه لا نجاة له إلا بعياذه ولياذه بغير الله.

---

(١) ضعيف: المصنف (٨/ ٤٦٩) لعبد الرزّاق، ورواه الهيثمي (٤/ ١٧٧) في المجمع وقال: رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح.

وانظر إلى هذا الإطراء العظيم الذي تجاوز الحد في الإطراء الذي نهى عنه ﷺ بقوله: «**لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبد فقولوا: عبد الله ورسوله**»[1] رواه مالك وغيره.

وقد قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ﴾ [الأنعام: ٥٠]. فانظر إلى هذه المعارضة العظيمة للكتاب والسنة والمحادة لله ورسوله. وهذا الذي يقوله هذا الشاعر هو الذي في نفوس كثير، خصوصًا ممن يدعون العلم والمعرفة. ورأوا قراءة هذه المنظومة ونحوها لذلك وتعظيمها من القربات فإنا لله وإنا إليه راجعون.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وعن حذيفة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لا تقولوا: ما شاء الله وشاء فلان، ولكن قولوا: ما شاء الله، ثم شاء فلان»[2] رواه أبو داود بسند صحيح).

ش: وذلك لأن المعطوف بالواو يكون مساويًا للمعطوف عليه، لكونها إنما وضعت لمطلق الجمع فلا تقتضي ترتيبًا ولا تعقيبًا. وتسوية المخلوق بالخالق شرك، إن كان في الأصغر - مثل هذا - فهو أصغر، وإن كان في الأكبر فهو أكبر. كما قال تعالى عنهم في الدار الآخرة: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٩٧-٩٨].

بخلاف المعطوف بثم، فإن المعطوف بها يكون متراخيًا عن المعطوف عليه بمهلة. فلا محذور لكونه صار تابعًا.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وعن إبراهيم النخعي: أنه يكره أن يقول الرجل: أعوذ بالله وبك. ويجوز أن يقول: بالله ثم بك. قال: ويقول: لولا الله ثم فلان[3]. ولا يقل: لولا الله وفلان).

---

(١) رواه البخاري (٣٤٤٥) في أحاديث الأنبياء عن عمر رضي الله عنه.
(٢) صحيح الإسناد: أبو داود (٤٩٨٠) في الأدب، ابن السني (٦٦٦) في عمل اليوم والليلة - بترقيمي - وهو صحيح.
(٣) في إسناده ضعف: ابن أبي الدنيا (٢٣٤) في الصمت.

ش: قد تقدم الفرق بين ما يجوز وما لا يجوز من ذلك . هذا إنما هو في الحي الحاضر الذي له قدرة وسبب في الشيء . وهو الذي يجري في حقه مثل ذلك . وأما في حق الأموات الذين لا إحساس لهم بمن يدعونهم ولا قدرة لهم على نفع ولا ضر . فلا يقال في حقهم شيء من ذلك . فلا يجوز التعلق عليه بشيء ما بوجه من الوجوه .

والقرآن يبين ذلك وينادي بأنه يجعلهم آلهة إذا سئلوا شيئًا من ذلك ، أو رغب إليهم أحد بقوله أو عمله الباطن أو الظاهر .

فمن تدبر القرآن ورزق فهمه صار على بصيرة من دينه وبالله التوفيق .

والعلم لا يؤخذ قسرًا وإنما يؤخذ بأسباب ذكرها بعضهم في قوله :

أخي، لن تنال العلم إلا بستة ... سأنبيك عن تفصيلها ببيان
ذكاء وحرص واجتهاد وبلغة ... وإرشاد أستاذ وطول زمان

وأعظم من هذه الستة : من رزقه الله تعالى الفهم والحفظ ، وأتعب نفسه في تحصيله فهو الموفق لمن شاء من عباده . كما قال تعالى : ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء :١١٣] .

ولقد أحسن العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى، حيث قال :

والجهل داء قاتل وشفاؤه ... أمران في التركيب متفقان
نص من القرآن أو من سنة ... وطبيب ذاك العالم الرباني
والعلم أقسام ثلاث ما لها ... من رابع والحق ذو تبيان
علم بأوصاف الإله وفعله ... وكذلك الأسماء للرحمن
والأمر والنهي الذي هو دينه ... وجزاؤه يوم المعاد الثاني
والكل في القرآن والسنن التي ... جاءت عن المبعوث بالقرآن
والله ما قال امرؤ متحذلق ... بسواهما إلا من الهذيان



(٤٢)



ما جاء فيمن لم يقنع بالحلف بالله

قال المصنف رحمه الله تعالى:(باب ما جاء فيمن لم يقنع بالحلف بالله .

عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «لا تحلفوا بآبائكم . من حلف بالله فليصدق . ومن حلف له بالله فليرض . ومن لم يرض فليس من الله» [1]. رواه ابن ماجه بسند حسن) .

ش: قوله : «**لا تحلفوا بآبائكم**» تقدم النهي عن الحلف بغير الله عمومًا .

قوله : من حلف بالله فليصدق هذا مما أوجبه الله على عباده وحضهم عليه في كتابه . قال تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة :١١٩]وقال : ﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ﴾ [الأحزاب :٣٥] وقال : ﴿فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [محمد :٢١] .

وهو حال أهل البر ، كما قال تعالى : ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وقوله : «**ومن حلف له بالله فليرض ، ومن لم يرض فليس من الله**» أما إذا لم يكن له بحكم الشريعة على خصمه إلا اليمين فأحلفه فلا ريب أنه يجب عليه الرضا .

---

(١) صححه الألباني : كما في سنن ابن ماجه (٢١٠١) في الكفارات ص (٣٦٣) ط الرياض وله شاهد عند البخاري (٦٦٤٨) ومسلم (١٦٤١) عن ابن عمر رضي الله عنهما أيضًا .

وأما إذا كان فيما يجري بين الناس مما قد يقع في الاعتذارات من بعضهم لبعض ونحو ذلك . فهذا من حق المسلم على المسلم : أن يقبل منه إذا حلف له معتذرًا أو متبرئًا من تهمة ومن حقه عليه : أن يحسن به الظن إذا لم يتبين خلافه ، كما في الأثر عن عمر رضي الله عنه : ولا تظنن بكلمة خرجت من مسلم شرًا وأنت تجد لها في الخير محملاً [١] .

وفيه : من التواضع والألفة والمحبة وغير ذلك من المصالح التي يحبها الله ما لا يخفى على من له فهم . وذلك من أسباب اجتماع القلوب على طاعة الله ، ثم إنه يدخل في حسن الخلق الذي هو أثقل ما يوضع في ميزان العبد ، كما في الحديث [٢] وهو من مكارم الأخلاق .

فتأمل أيها الناصح لنفسه ما يصلحك مع الله تعالى : من القيام بحقوقه وحقوق عباده ، وإدخال السرور على المسلمين ، وترك الانقباض عنهم والترفع عليهم . فإن فيه من الضرر ما لا يخطر بالبال ولا يدور بالخيال . وبسط هذه الأمور وذكر ما ورد فيها مذكور في كتب الأدب وغيرها . فمن رزق ذلك والعمل بما ينبغي العمل به منه وترك ما يجب تركه من ذلك ، دل على وفور دينه ، وكمال عقله . والله الموفق والمعين لعبده الضعيف المسكين . والله أعلم .



(١) انظر الأمالي (١/ ٣٩٥) للمحاملي عن عمر رضي الله عنه ط المكتبة الإسلامية تحقيق د. إبراهيم القيس، ورواه البيهقي (٦/ ٣٢٣) في شعب الإيمان عن سعيد بن المسيب قال: كتب لي أحد أصحاب النبي ﷺ وذكره.

(٢) صحيح الإسناد: رواه أبو الدرداء مرفوعًا وقد سبق.

(٤٣)



قول: ما شاء الله وشئت

قال المصنف رحمه الله تعالى: (**باب ما شاء الله وشئت عن قتيلة: أن يهوديًا أتى النبيﷺ، فقال: إنكم تشركون. تقولون: ما شاء الله وشئت، وتقولون: والكعبة. فأمرهم النبيﷺ إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا: «ورب الكعبة». وأن يقولوا: «ما شاء الله ثم شئت»**[1] **رواه النسائي وصححه**).

ش: قوله: (عن قتيلة) بمثناة مصغرة بنت صيفي الأنصارية صحابية مهاجرة، لها حديث في سنن النسائي، وهو المذكور في الباب. ورواه عنها عبد الله بن يسار الجعفي.

وفيه: قبول الحق مما جاء به كائنًا من كان.

وفيه: بيان النهي عن الحلف بالكعبة، مع أنها بيت الله التي حجها وقصدها بالحج والعمرة فريضة.

وهذا يبين أن النهي عن الشرك بالله عام لا يصلح منه شيء، لا لملك مقرب ولا لنبي مرسل. ولا للكعبة التي هي بيت الله في أرضه.

وأنت ترى ما وقع من الناس اليوم من الحلف بالكعبة وسؤالها ما لا يقدر عليه إلا الله. ومن المعلوم أن الكعبة لا تضر ولا تنفع. وإنما شرع الله لعباده الطواف بها والعبادة عندها وجعلها للأمة قبلة. فالطواف بها مشروع والحلف بها ودعاؤها ممنوع.

(١) صحيح: انظر ما قبل سبعة تخريجات.

فميز أيها المكلف بين ما يشرع وما يمنع، وإن خالفك من خالفك من جهة الناس الذين هم كالأنعام، بل هم أضل سبيلاً.

قوله: (إنكم تشركون. تقولون: ما شاء الله وشئت) والعبد وإن كانت له مشيئة فمشيئته تابعة لمشيئة الله، ولا قدرة له على أن يشاء شيئًا إلا إذا كان الله قد شاءه، كما قال تعالى: [التكوير: ٢٨-١]وقوله: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝﴾ [التكوير: ٢٨-٢٩]وقوله: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ۝ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝﴾ [الإنسان: ٢٩-٣٠].

وفي هذه الآيات والحديث: الرد على القدرية والمعتزلة، نفاة القدر الذين يثبتون للعبد مشيئة تخالف ما أراده الله تعالى من العبد وشاءه.

وسيأتي ما يبطل قولهم في: باب ما جاء في منكري القدر إن شاء الله تعالى، وأنهم مجوس هذه الأمة.

وأما أهل السنة والجماعة فتمسكوا بالكتاب والسنة في هذا الباب وغيره. واعتقدوا أن مشيئة العبد تابعة لمشيئة الله تعالى في كل شيء مما يوافق ما شرعه الله وما يخالفه: من أفعال العباد وأقوالهم. فالكل بمشيئة الله وإرادته. فما وافق ما شرعه رضيه وأحبه. وما خالفه كرهه من العبد، كما قال تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ﴾ [الزمر: ٧]الآية. وفيه: بيان أن الحلف بالكعبة شرك. فإن النبي ﷺأقر اليهودي على قوله: إنكم تشركون.

قال المصنف رحمه الله تعالى:(وله أيضًا عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن رجلاً قال للنبي ﷺما شاء الله وشئت، قال: «أجعلتني لله ندًا؟ بل ما شاء الله وحده» [(١)]).

ش:هذا يقرر ما تقدم من أن هذا شرك، لوجود التسوية في العطف بالواو.

وقوله: (أجعلتني لله ندًا) فيه بيان أن من سوى العبد بالله ولو في الشرك الأصغر فقد جعله ندًا لله شاء أم أبى، خلافًا لما يقوله الجاهلون، بما يختص بالله تعالى من

(١) حسن صحيح: هكذا قال الألباني (٢١١٧) في سنن ابن ماجه كتاب الكفارات وانظر الصحيحة (١٣٦، ١٣٩، ١٠٩٣).

عبادته، وما يجب النهي عنه من الشرك بنوعيه. ومن يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين [١].

قال المصنف رحمه الله تعالى: (**ولابن ماجه: عن الطفيل أخي عائشة لأمها قال: رأيت فيما يرى النائم كأني أتيت على نفر من اليهود، فقلت: من أنتم؟ قالوا: نحن اليهود، قلت: إنكم لأنتم القوم، لولا أنكم تقولون عزير ابن الله. قالوا: وإنكم لأنتم القوم، لولا أنكم تقولون: ما شاء الله وشاء محمد. ثم مررت بنفر من النصارى فقلت: من أنتم؟ قالوا: نحن النصارى. قلت: إنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون: المسيح ابن الله، قالوا: وإنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون: ما شاء الله وشاء محمد، فلما أصبحت أخبرت بها من أخبرت ثم أتيت النبي ﷺ فأخبرته، فقال: «هل أخبرت بها أحدًا؟» قلت: نعم. قال: فحمد الله وأثنى عليه. ثم قال: «أما بعد، فإن طفيلاً رأى رؤيا أخبر بها من أخبر منكم، وإنكم قلتم كلمة كان يمنعني كذا وكذا أن أنهاكم عنها. فلا تقولوا: ما شاء الله وشاء محمد، ولكن قولوا: ما شاء الله وحده»** [٢]).

ش: قوله: (عن الطفيل أخي عائشة لأمها) هو الطفيل بن عبد الله بن سخبرة أخو عائشة لأمها، صحابي له حديث عند ابن ماجه، وهو ما ذكره المصنف في الباب.

وهذه الرؤيا حق أقرها رسول الله ﷺ وعمل بمقتضاها. فنهاهم أن يقولوا: ما شاء الله وشاء محمد، وأمرهم أن يقولوا: ما شاء الله وحده.

وهذا الحديث والذي قبله أمرهم فيه أن يقولوا: ما شاء الله وحده ولا ريب أن هذا أكمل في الإخلاص وأبعد عن الشرك من أن يقولوا: ثم شاء فلان؛ لأن فيه التصريح بالتوحيد المنافي للتنديد من كل وجه. فالبصير يختار لنفسه أعلى مراتب الكمال في مقام التوحيد والإخلاص.

قوله: «كان يمنعني كذا وكذا أن أنهاكم عنها» ورد في بعض الطرق: أنه كان

---

(١) رواه البخاري (٧١) في العلم، مسلم (١٠٣٧/ ١٠٠) في الزكاة مرفوعًا عن معاوية رضي الله عنه.

(٢) صحيح: ابن ماجه (٢١١٨) في الكفارات، أحمد (٥/ ٧٢) وقال الألباني: صحيح.

يمنعه الحياء منهم وبعد هذا الحديث الذي حدثه به الطفيل عن رؤياه خطبهم ﷺ فنهى عن ذلك نهيًا بليغًا .

فما زال ﷺ يبلغهم حتى أكمل الله له الدين وأتم له به النعمة ، وبلغ البلاغ المبين ، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه أجمعين .

وفيه معنى قوله ﷺ: **«الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة»** [١] .

قلت : وإن كانت رؤيا منام فهي وحي يثبت بها ما يثبت بالوحي أمرًا ونهيًا . والله أعلم .



(١) رواه البخاري (٦٩٨٩) في التعبير عن أبي سعيد رضي الله عنه والبخاري (٦٩٨٧) ومسلم (٢٢٦٤/٧) في الرؤيا عن أنس رضي الله عنه والبخاري (٦٩٨٨) ومسلم (٢٢٦٥/٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٤٤)



باب من سب الدهر فقد آذى الله

قال المصنف رحمه الله تعالى:(باب من سب الدهر فقد آذى الله .

وقول الله تعالى:﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية :٢٤] . **في الصحيح : عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال : «قال الله تعالى : يؤذيني ابن آدم، يسب الدهر وأنا الدهر ، أقلب الليل والنهار» وفي رواية : «لا تسبوا الدهر ، فإنَّ الله هو الدهر»)** .

ش: قال العماد ابن كثير في تفسيره : يخبر تعالى عن دهرية الكفار ومن وافقهم من مشركي العرب في إنكار المعاد : ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ [الجاثية :٢٤] ما ثم إلا هذه الدار ، يموت قوم ويعيش آخرون ، وما ثم معاد ولا قيامة .

وهذا يقوله مشركو العرب المنكرون للمعاد، ويقوله الفلاسفة الإلهيون منهم ، وهم ينكرون البداءة والرجعة .

وتقوله الفلاسفة الدهرية الدورية ، المنكرون للصانع ، المعتقدون أن في كل ستة وثلاثين ألف سنة يعود كل شيء إلى ما كان عليه . وزعموا أن هذا قد تكرر مرات لا تتناهى ، فكابروا المعقول وكذبوا المنقول ، ولهذا قالوا : ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [الجاثية :٢٤] قال الله تعالى : ﴿وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية :٢٤] أي يتوهمون ويتخيلون .

فأما الحديث الذي أخرجه صاحب الصحيح وأبو داود والنسائي من رواية سفيان بن عيينة عن الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة قال : قال

رسول الله ﷺ: «**يقول الله تعالى: يؤذيني ابن آدم، يسب الدهر وأنا الدهر، بيدي الأمر، أقلب الليل والنهار**» (١) وفي رواية: «**لا تسبوا الدهر فإنَّ الله هو الدهر**» (٢) وفي رواية: «**لا يقل ابن آدم: يا خيبة الدهر، فإني أنا الدهر، أرسل الليل والنهار، فإذا شئت قبضتهما**» (٣).

قال في شرح السنة: حديث متفق على صحته أخرجاه من طريق معمر من أوجه عن أبي هريرة قال: ومعناه أن العرب كان من شأنها ذم الدهر وسبه عند النوازل، لأنهم كانوا ينسبون إليه ما يصيبهم من المصائب والمكاره فيقولون: أصابتهم قوارع الدهر وأبادهم الدهر، فإذا أضافوا إلى الدهر ما نالهم من الشدائد سبوا فاعلها، فكان مرجع سبها إلى الله عزوجل، إذ هو الفاعل في الحقيقة للأمور التي يصنعونها فنهوا عن سب الدهر. انتهى باختصار.

وقد أورده ابن جرير بسياق غريب جدًّا بهذا الطريق. قال: كان أهل الجاهلية يقولون: إنما يهلكنا الليل والنهار وهو الذي يهلكنا ويميتنا ويحيينا، فقال الله في كتابه: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤]. ويسبون الدهر. فقال الله عز وجل: «**يؤذيني ابن آدم، يسب الدهر وأنا الدهر، بيدي الأمر، أقلب الليل والنهار**» (٤)، وكذا رواه ابن أبي حاتم عن أحمد بن منصور عن شريح بن النعمان عن ابن عيينة مثله.

ثم روى: عن يونس عن ابن وهب عن الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يقول الله تعالى: يسب ابن آدم الدهر وأنا الدهر، بيدي الليل والنهار**» (٥) وأخرجه صاحب الصحيح والنسائي من حديث يونس بن يزيد به.

---

(١) رواه البخاري (٤٨٢٦) في التفسير، مسلم (٢٢٤٦) في الألفاظ من الأدب وغيرها.

(٢) رواه مسلم (٢٢٤٦/ ٥) في الألفاظ من الأدب.

(٣) رواه مسلم (٢٢٤٦/ ٣) في الألفاظ من الأدب.

(٤) صحيح: الطبري (٢٠٧/ ٣) في تفسيره عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) انظر السابق وما قبله من أحاديث.

وقال محمد بن إسحاق عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**يقول الله عز وجل: استقرضت عبدي فلم يعطني، وسبني عبدي، يقول: وا دهراه، وأنا الدهر**»[(١)].

قال الشافعي وأبو عبيد وغيرهما من الأئمة في تفسير قوله: «**لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر**» كانت العرب في جاهليتها إذا أصابهم شدة أو بلاء أو نكبة قالوا: يا خيبة الدهر فيسندون تلك الأفعال إلى الدهر ويسبونه، وإنما فاعلها هو الله تعالى. فكأنما إنما سبوا الله سبحانه، لأنه فاعل ذلك في الحقيقة، فلهذا نهى عن سب الدهر بهذا الاعتبار لأن الله هو الدهر الذي يعنونه ويسندون إليه تلك الأفعال. هذا أحسن ما قيل في تفسيره - وهو المراد - والله أعلم.

وقد غلط ابن حزم ومن نحا نحوه من الظاهرية في عدهم الدهر من الأسماء الحسنى أخذًا من هذا الحديث. انتهى.

وقد تبين معناه في الحديث بقوله: «أقلب الليل والنهار» وتقليبه تصرفه تعالى فيه بما يحبه الناس ويكرهونه.

وفي هذا الحديث زيادة لم يذكرها المصنف رحمه الله تعالى، وهي قوله: «**بيدي الأمر**».

قوله: وفي رواية: «لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر».

ومعنى هذه الرواية: هو ما صرح به في الحديث من قوله: «**وأنا الدهر، أقلب الليل والنهار**» يعني: أن ما يجري فيه من خير وشر بإرادة الله وتدبيره، بعلم منه تعالى وحكمة، لا يشاركه في ذلك غيره. ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فالواجب عند ذلك حمده في الحالتين وحسن الظن به سبحانه وبحمده، والرجوع إليه بالتوبة والإنابة. كما قال الله تعالى: ﴿وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٨] وقال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

---

(١) صحيح: أحمد (٢/ ٣٠، ٥٠٦) والحاكم (٧/ ٢٦٠) وصححه العلامة شاكر في مسند أحمد رقم (٧٩٧٥)، وحسنه الأرناءوط في تحقيقه على المسند (٧٩٨٨).

ونسبة الفعل إلى الدهر ومسبته كثيرة، كما في أشعار المولدين، كابن المعتز والمتنبي وغيرهما .

وليس منه وصف السنين بالشدة ونحو ذلك لقوله تعالى : ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ﴾ [يوسف : ٤٨] .

وقال بعض الشعراء :

إن الليالي من الزمان مهولة   تُطوَى وتُنشر بينها الأعمار
فقصارهن مع الهموم طويلة   وطوالهن مع السرور قصار

وقال أبو تمام :

أعوام وصل كاد يُنسى طيبها   ذكر النوى فكأنها أيام
ثم انبرت أيام هجر أعقبت   نحوى أسًى فكأنها أعوام
ثم انقضت تلك السنون وأهلها   فكأنها وكأنهم أحلام



(٤٥)



التسمي بقاضي القضاة ونحوه

قال المصنف رحمه الله تعالى: باب (التسمي بقاضي القضاة ونحوه).

ش: ذكر المصنف رحمه الله هذه الترجمة إشارة إلى النهي عن التسمي بقاضي القضاة قياسًا على ما في حديث الباب؛ لكونه شبهه في المعنى فينهى عنه.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن أخنع اسم عند الله رجل تسمى ملك الأملاك، لا مالك إلا الله»[1].

قال سفيان: مثل شاهان شاه)[2].

ش: لأن هذا اللفظ إنما يصدق على الله تعالى. فهو ملك الأملاك لا ملك أعظم ولا أكبر منه. مالك الملك ذو الجلال والإكرام. وكل ملك يؤتيه الله من يشاء من عباده فهو عارية يسرع ردها إلى المعير. وهو الله تعالى، ينزع الملك من ملكه تارة وينزع الملك منه تارة فيصير لا حقيقة له سوى اسم زال مسماه.

وأما رب العالمين فملكه دائم كامل لا انتهاء له بيده القسط يخفضه ويرفعه، يحفظ على عباده أعمالهم بعلمه سبحانه وتعالى، وما تكتبه الحفظة عليهم. فيجازي كل عامل بعمله إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر.

كما ورد في الحديث: «**اللهم لك الحمد كله، ولك الملك كله، وبيدك الخير**

---

(١) رواه البخاري (٦٢٠٦) في الأدب، مسلم (٢١٤٣) في الآداب.

(٢) انظر رواية البخاري (٦٢٠٦) في الأدب.

كله، وإليك يرجع الأمر كله، أسألك من الخير كله، وأعوذ بك من الشر كله»[(١)] .

قوله : (قال سفيان - يعني ابن عيينة - مثل شاهان شاه) عند العجم عبارة عن ملك الأملاك . ولهذا مثل به سفيان؛ لأنه عبارة عنه بلغة العجم .

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وفي رواية : **«أغيظ رجل على الله يوم القيامة وأخبثه»**[(٢)] .

قوله: «أخنع» يعني : أوضع) .

ش: «**أغيظ**» من الغيظ وهو مثل الغضب والبغض . فيكون بغيضًا إلى الله مغضوبًا عليه . والله أعلم .

قوله : «**وأخبثه**» وهو يدل أيضًا على أن هذا خبيث عند الله فاجتمعت في حقه هذه الأمور لتعاظمه في نفسه وتعظيم الناس له بهذه الكلمة التي هي من أعظم التعظيم، فتعظمه في نفسه وتعظيم الناس له بما ليس له بأهل، وضعه عند الله يوم القيامة . فصار أخبث الخلق وأبغضهم إلى الله وأحقرهم؛ لأن الخبيث البغيض عند الله يكون يوم القيامة أحقر الخلق وأخبثهم، لتعاظمه في نفسه على خلق الله بنعم الله .

قوله : (أخنع : يعني أوضع) هذا هو معنى : أخنع فيفيد ما ذكرنا في معنى : أغيظ أنه يكون حقيرًا بغيضًا عند الله .

وفيه التحذير من كل ما فيه تعاظم . كما أخرج أبو داود عن أبي مجلز قال : خرج معاوية رضي الله عنه على ابن الزبير وابن عامر . فقام ابن عامر وجلس ابن الزبير . فقال معاوية لابن عامر : اجلس، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : «**من أحب أن يتمثل له الرجال قيامًا فليتبوأ مقعده من النار**»[(٣)] أخرجه الترمذي أيضًا، وقال : حسن .

---

(١) هذا سند موضوع : البيهقي (٤٠٠) في الشُّعب من طريق خالد بن يزيد العمري عن أبي سعيد وهو - أي العمري - : كذّاب .

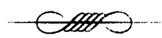
(٢) رواه مسلم (٢١٤٣) في الآداب .

(٣) صحيح : أبو داود (٢٧٥٥) في الأدب وصححه الألباني هناك .

وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال: خرج علينا رسول الله ﷺ متكئًا على عصا، فقمنا إليه. فقال: **«لا تقوموا كما تقوم الأعاجم، يعظم بعضهم بعضًا»** [(١)] رواه أبو داود.

قوله: «**أغيظ رجل**» هذا من الصفات التي تمر كما جاءت، وليس شيء مما ورد في الكتاب والسنة إلا ويجب اتباع الكتاب والسنة في ذلك وإثباته على وجه يليق بجلال الله وعظمته تعالى، إثباتًا بلا تمثيل وتنزيهًا بلا تعطيل كما تقدم، والباب كله واحد. وهذا هو قول أهل السنة والجماعة من الصحابة والتابعين فمن بعدهم من الفرق الناجية من الثلاث والسبعين فرقة.

وهذا التفرق والاختلاف إنما حدث في أواخر القرن الثالث وما بعده كما لا يخفى على من له معرفة بما وقع في الأمة من التفرق والاختلاف والخروج عن الصراط المستقيم، والله المستعان.



(١) ضعيف مضطرب: أبو داود (٥٢٣٠) في الأدب، وضعفه الشيخ ناصر الدين الألباني وأعله بالاضطراب، وبجهالة الراوي (أبي العَدَبَّس) ولين راوٍ آخر وهو (أبو مرزوقٍ).

(٤٦)



احترام أسماء الله وتغيير الاسم لأجل ذلك

قال المصنف رحمه الله تعالى: (باب احترام أسماء الله تعالى، وتغيير الاسم لأجل ذلك.

عن أبي شريح: **أنه كان يكنى أبا الحكم. فقال له النبي ﷺ: «إن الله هو الحكم. وإليه الحكم»، فقال: إن قومي إذا اختلفوا في شيء أتوني فحكمت بينهم فرضى كلا الفريقين. فقال: «ما أحسن هذا. فما لك من الولد؟» قلت: شريح ومسلم وعبد الله. قال: «فمن أكبرهم؟» قلت: شريح. قال: «فأنت أبو شريح»**[1] **رواه أبو داود وغيره)**.

ش: قوله: (عن أبي شريح) قال في خلاصة التهذيب: هو أبو شريح الخزاعي اسمه خويلد بن عمرو أسلم يوم الفتح، له عشرون حديثًا، واتفقا على حديثين وانفرد البخاري بحديث، وروى عنه أبو سعيد المقبري ونافع بن جبير وطائفة. قال ابن سعد: مات بالمدينة سنة ثمانٍ وستين. وقال الشارح: اسمه هانئ بن يزيد الكندي قاله الحافظ، وقيل: الحارث الضبابي. قاله المزي.

قوله: (يكنى) الكنية: ما صُدِّرَ بأب أو أم ونحو ذلك واللقب: ما ليس كذلك كزين العابدين ونحوه.

وقول النبي ﷺ: **«إن الله هو الحكم وإليه الحكم»** فهو سبحانه الحكم في الدنيا والآخرة، يحكم بين خلقه في الدنيا بوحيه الذي أنزله على أنبيائه ورسله، وما من

---

(١) صحيح الإسناد: أبو داود (٤٩٥٥) في الأدب، النسائي (٥٣٨٧) وصححه الألباني في الموضعين ط الرياض.

قضية إلا ولله فيها حكم بما أنزل على نبيه من الكتاب والحكمة .

وقد يسر الله معرفة ذلك لأكثر العلماء من هذه الأمة، فإنها لا تجتمع على ضلالة، فإن العلماء وإن اختلفوا في بعض الأحكام فلا بد أن يكون المصيب فيهم واحدًا .

فمن رزقه الله تعالى قوة الفهم وأعطاه ملكة يقتدر بها على فهم الصواب من أقوال العلماء يسر له ذلك بفضله ومنه عليه وإحسانه إليه، فما أجلها من عطية، فنسأل الله من فضله .

وقوله : «**وإليه الحكم في الدنيا والآخرة**» كما قال تعالى : ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾[الشورى: ١٠] وقال تعالى : ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾[النساء: ٥٩] .

فالحكم إلى الله: هو الحكم إلى كتابه، والحكم إلى رسوله : هو الحكم إليه في حياته وإلى سنته بعد وفاته .

وقد قال ﷺ لمعاذ لما بعثه إلى اليمن : «**بم تحكم؟**» قال : بكتاب الله قال : «**فإن لم تجد؟**» قال : بسنة رسول الله ﷺ قال : «**فإن لم تجد؟**» قال : أجتهد رأيي . فقال : «**الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله إلى ما يرضى رسول الله**» .

فمعاذ من أجل علماء الصحابة بالأحكام ومعرفة الحلال من الحرام، ومعرفة أحكام الكتاب والسنة . ولهذا ساغ له الاجتهاد إذا لم يجد للقضية حكمًا في كتاب الله، ولا في سنة رسوله ﷺ ، بخلاف ما يقع اليوم وقبله من أهل التفريط في الأحكام ممن يجهل حكم الله في كتابه وسنة رسوله، فيظن أن الاجتهاد يسوغ له مع الجهل بأحكام الكتاب والسنة وهيهات!!

وأما يوم القيامة فلا يحكم بين الخلق إلا الله عز وجل إذا نزل لفصل القضاء بين العباد، فيحكم بين خلقه بعلمه . وهو الذي لا يخفى عليه خافية من أعمال خلقه : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[النساء: ٤٠]
والحكم يوم القيامة إنما هو بالحسنات والسيئات، فيؤخذ للمظلوم من الظالم، من

حسناته بقدر ظلامته إن كان له حسنات، وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات المظلوم، فطرح على سيئات الظالم [1] لا يزيد على هذا مثقال ذرة ولا ينقص هذا عن حقه بمثقال ذرة.

قوله: فإن قومي إذا اختلفوا في شيء أتوني فحكمت بينهم فرضي كلا الفريقين فقال: «**ما أحسن هذا**» فالمعنى - والله أعلم - أن أبا شريح لما عرف منه قومه أنه صاحب إنصاف وتحرٍّ للعدل بينهم ومعرفة ما يرضيهم من الجانبين صار عندهم مرضيًّا.

وهذا هو الصلح؛ لأن مداره على الرضى لا على الإلزام، ولا على أحكام الكهان وأهل الكتاب من اليهود والنصارى، ولا على الاستناد إلى أوضاع أهل الجاهلية: من أحكام كبرائهم وأسلافهم التي تخالف حكم الكتاب والسنة. كما قد يقع اليوم كثيرًا، كحال الطواغيت الذين لا يلتفتون إلى حكم الله ولا إلى حكم رسوله. وإنما المعتمد عندهم ما حكموا به بأهوائهم وآرائهم.

وقد يلتحق بهذا بعض المقلدة لمن لم يسغ تقليده فيعتمد على قول من قلده ويترك ما هو الصواب الموافق لأصول الكتاب والسنة. والله المستعان.

وقول رسول الله ﷺ: «**فما لك من الولد؟**» قال شريح، ومسلم، وعبد الله. قال: «**فمن أكبرهم؟**» قلت: شريح. قال: «**فأنت أبو شريح**» فيه: تقديم الأكبر في الكنية وغيرها غالبًا. وجاء هذا المعنى في غير ما حديث والله أعلم.



(١) هذا حديث المفلس، ورواه مسلم (٢٥٨١) في البر والصلة عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤٧)



من هزل بشيء فيه ذكر الله أو القرآن أو الرسول

قال المصنف رحمه الله تعالى: (باب من هزل بشيء فيه الله أو القرآن أو الرسول).

ش: أي فقد كفر.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وقول الله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾[التوبة:٦٥] .

عن ابن عمر، ومحمد بن كعب، وزيد بن أسلم، وقتادة -دخل حديثُ بعضهم في بعض - أنه قال رجلٌ في غزوة تبوك: ما رأينا مثل قُرّائنا هؤلاء أرغبَ بطونا، ولا أكذَب ألسُنا، ولا أجبن عند اللقاء، - يعني رسول اللهﷺ وأصحابَه القُراء - فقال له عوفُ بن مالك: كذبت، ولكنك منافق، لأخبرنَّ رسول اللهﷺ فذهب عوف إلى رسول اللهﷺ ليخبره، فوجد القرآن قد سبقه. فجاء ذلك الرجلُ إلى رسول اللهﷺ، وقد ارتحل وركب؛ نقطع به عنا الطريق. قال ابن عمر: كأني انظر إليه متعلِّقًا بِنسْعَة ناقة رسول اللهﷺ وإنَّ الحجارة تنكبُ رجليه، وهو يقول: إنما كنا نخوض ونلعب. فيقول له رسول اللهﷺ: ﴿أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ۝ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾[التوبة: ٦٥-٦٦] . ما يلتفت إليه، وما يزيده عليه).

ش: قال العماد ابن كثير رحمه الله في تفسيره: قال أبو معشر المدني عن محمد بن كعب القرظي وغيره: قالوا: قال رجل من المنافقين: ما أرى مثل قرائنا هؤلاء إلا أرغبنا بطونًا، وأكذبنا ألسنةً، وأجبننا عند اللقاء، فرفع ذلك إلى رسول اللهﷺ وقد ارتحل وركب ناقته. فقال: يا رسول الله، إنما كنا نخوض

ونلعب، ونتحدث حديث الركب نقطع به عنا الطريق. فقال: ﴿أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾ [التوبة: ٦٥-٦٦] وإن رجليه ليسفعان الحجارة، وما يلتفت إليه رسول الله ﷺ وهو متعلق بنسعة [١] ناقة رسول الله ﷺ [٢].

وقال عبد الله بن وهب: أخبرني هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن عبد الله بن عمر قال: قال رجل في غزوة تبوك في مجلس يومًا: ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطونًا، ولا أكذب ألسنًا، ولا أجبن عند اللقاء. فقال رجل في المجلس: كذبت، ولكنك منافق، لأخبرن رسول الله ﷺ. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ونزل القرآن. قال عبد الله بن عمر: وأنا رأيته متعلقًا بحقب ناقة رسول الله ﷺ تنكبه الحجارة، وهو يقول: يا رسول الله، إنما كنا نخوض ونلعب، ورسول الله ﷺ يقول: ﴿أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥-٦٦] [٣] وقد رواه الليث عن هشام بن سعد بنحو هذا.

وقال ابن إسحاق: وقد كان جماعة من المنافقين منهم: وديعة بن ثابت أخو بني أمية بن زيد بن عمرو بن عوف، ورجل من أشجع، حليف لبني سلمة يقال له: مخشي بن حمير، يشيرون إلى رسول الله ﷺ وهو منطلق إلى تبوك، فقال بعضهم لبعض: أتحسبون جلاد بني الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضًا؟ والله لكأنا بكم غدًا مقرنين في الجبال، إرجافًا وترهيبًا للمؤمنين. فقال مخشي بن حمير: والله لوددت أني أقاضي على أن يضرب كل رجل منا مائة جلدة، وإنا نتفلَّت أن ينزل فينا قرآن لمقالتكم هذه.

وقال رسول الله ﷺ فيما بلغني لعمار بن ياسر: «أدرك القوم فإنهم قد احترقوا،

---

(١) نَسْعة: سير صفور يُجعل زمامًا للبعير (النهاية ٥/ ٤٧).

(٢) ضعيف جدًا: رواه ابن كثير، وفيه أبو معشر المدني وهو أبو نجيح: ضعيف، وفيه إرسال محمد بن كعب.

(٣) صحيح: صححه الشيخ مقبل بن هادي ص (٧١) في الصحيح المسند من أسباب النزول، وانظر تفسير الطبري (١٦٩٢٨) ط العلمية. وهو حديث الباب.

فسلهم عما قالوا، فإن أنكروا فقل: بلى قلتم كذا وكذا»، فانطلق إليهم عمار، فقال ذلك لهم، فأتوا رسول الله ﷺ يعتذرون إليه. فقال وديعة بن ثابت - ورسول الله واقف على راحلته - فجعل يقول وهو آخذ بحقبها: يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب، فقال مخشي بن حمير: يا رسول الله قعد بي اسمي واسم أبي، فكأن الذي عناه أي بقوله تعالى: ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً﴾ [التوبة:٦٦] في هذه الآية: مخشي بن حمير فسمى عبد الرحمن، وسأل الله أن يقتل شهيدًا لا يعلم بمكانه، فقتل يوم اليمامة فلم يوجد له أثر [١].

وقال عكرمة في تفسير هذه الآية: كان رجل ممن - إن شاء الله - عفا عنه يقول: اللهم إني أسمع آية أنا أعنى بها تقشعر منها الجلود، وتجل منها القلوب. اللهم فاجعل وفاتي قتلاً في سبيلك، لا يقول أحد أنا غسلت، أنا كفنت، أنا دفنت. قال: فأصيب يوم اليمامة، فما أحد من المسلمين إلا وقد وجد غيره [٢].

وقوله: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة:٦٦] أي بهذه المقالة التي استهزأتم بها ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً﴾ [التوبة:٦٦] أي مخشي بن حمير ﴿نُعَذِّبْ طَآئِفَةً﴾ [التوبة:٦٦] أي: لا يعفى عن جميعكم، ولا بد من عذاب بعضكم ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [التوبة:٦٦] أي: مجرمين بهذه المقالة الفاجرة الخاطئة. انتهى.

قال شيخ الإسلام: وقد أمره الله تعالى أن يقول لهم: ﴿قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة:٦٦] وقول من يقول: إنهم كفروا بعد إيمانهم بلسانهم مع كفرهم أولاً بقلوبهم: لا يصح لأن الإيمان باللسان مع كفر القلب قد قارنه الكفر، فلا يقال: قد كفرتم بعد إيمانكم، فإنهم لم يزالوا كافرين في نفس الأمر، وإن أريد أنكم أظهرتم الكفر بعد إظهاركم الإيمان، فهم لم يظهروا للناس إلا لخواصهم، وهم مع خواصهم ما زالوا كذلك. ولا يدل اللفظ على أنهم ما زالوا منافقين.

وقال رحمه الله في موضع آخر: فقد أخبر أنهم كفروا بعد إيمانهم مع قولهم: إنما تكلمنا بالكفر من غير اعتقاد له، بل إنما كنا نخوض ونلعب.

---

(١) رواه ابن إسحاق هكذا بلاغًا كما في سيرة ابن هشام (٤/ ٥٢٤).

(٢) **صحيح إلى عكرمة**: الطبري (١٦٩٢٩) في تفسيره.

وبين أن الاستهزاء بآيات الله كفر، ولا يكون هذا إلا ممن شرح صدرًا بهذا الكلام، ولو كان الإيمان في قلبه لمنعه أن يتكلم بهذا الكلام، والقرآن يبين أن إيمان القلب يستلزم العمل الظاهر بحسبه. كقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾﴾ [النور: ٤٧-٥١] فنفى الإيمان عمن تولى عن طاعة الرسول، وأخبر أن المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم سمعوا وأطاعوا، فبين أن هذا من لوازم الإيمان، انتهى.

وفيه: بيان أن الإنسان قد يكفر بكلمة يتكلم بها أو عمل يعمل به. وأشدها خطرًا إرادات القلوب. فهي كالبحر الذي لا ساحل له. ويفيد الخوف من النفاق الأكبر. فإن الله تعالى أثبت لهؤلاء إيمانًا قبل أن يقولوا ما قالوه، كما قال ابن أبي مليكة: أدركت ثلاثين من أصحاب رسول الله ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه [(١)].

نسأل الله السلامة والعفو والعافية في الدنيا والآخرة.



(١) تالف الإسناد: علقه البخاري في كتاب الإيمان، وقد ضعفه الحافظ (١/ ١٣٦) في فتح الباري، ووصله، ووجدته عند المروزي (٦٨٨) في تعظيم قدر الصلاة بسند فيه (أبو شعيب المجنون وهو متروك).

(٤٨)



قول الله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي﴾

قال المصنف رحمه الله تعالى: (باب قول الله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ۝﴾ [فصلت: ٥٠]).

ش: ذكر المصنف رحمه الله تعالى عن ابن عباس وغيره من المفسرين في معنى هذه الآية وما بعدها ما يكفي في المعنى ويشفي.

قال المصنف رحمه الله تعالى: قال مجاهد: هذا بعملي وأنا محقوق به [(١)]. وقال ابن عباس: يريد من عندي [(٢)]. وقوله: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ﴾ [القصص: ٧٨].

قال قتادة: على علم مني بوجوه المكاسب [(٣)]. وقال آخرون: على علم من الله أني له أهل [(٤)] وهذا معنى قول مجاهد: أوتيته على شرف.

ش: وليس فيما ذكروه اختلاف وإنما هي أفراد المعنى.

قال العماد ابن كثير رحمه الله في معنى قوله تعالى: ﴿إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا

---

(١) حسن الإسناد: الطبري (٣٠٥٩٩) في تفسيره.
(٢) لم أجده عن ابن عباس رضي الله عنهما فيما بين يدي من مصادر.
(٣) صحيح الإسناد إلى قتادة: الطبري (٣٠١٧٠) في تفسيره.
(٤) حسن: الطبري (٣٠١٧١) في تفسيره - ط العلمية.

﴿أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ﴾[الزمر: ٤٩] يخبر أن الإنسان في حالة الضر يضرع إلى الله تعالى وينيب إليه ويدعوه، ثم إذا خوله نعمة منه طغى وبغى و﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾[القصص: ٧٨] أي لما يعلم الله من استحقاقي له، ولولا أني عند الله خصيصٌ لما خولني هذا. قال تعالى: ﴿بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ﴾[الزمر: ٤٩] أي ليس الأمر كما زعم بل إنما أنعمنا عليه بهذه النعمة لنختبره فيما أنعمنا عليه أيطيع أم يعصى؟ مع علمنا المتقدم بذلك ﴿بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ﴾[الزمر: ٤٩] أي: اختبار ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[الأنعام: ٣٧] فلهذا يقولون ما يقولون، ويدَّعون ما يدَّعون: ﴿قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾[الزمر: ٥٠] أي: قد قال هذه المقالة وزعم هذا الزعم وادعى هذه الدعوى كثير ممن سلف من الأمم ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾[الحجر: ٨٤] أي: فما صح قولهم ولا نفعهم جمعهم، وما كانوا يكسبون. كما قال تعالى مخبرًا عن قارون: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾﴾[القصص: ٧٦-٧٨] وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾[سبأ: ٣٥] انتهى.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن ثلاثة من بني إسرائيل: أبرص وأقرع وأعمى. فأراد الله أن يبتليهم، فبعث إليهم مَلَكًا. فأتى الأبرص، فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: لون حسن، وجلد حسن، ويذهب عني الذي قد قذرني الناس به. قال: فمسحه فذهب عنه قذره، فأُعطي لونًا حسنًا وجلدًا حسنًا. قال: أي المال أحبُّ إليك؟ قال: الإبل أو البقر -شك إسحاق- فأُعطي ناقةً عُشراء، فقال: بارك الله لك فيها. قال: فأتى الأقرع، فقال: أيُّ شيء أحب إليك؟ قال: شعر حسن، ويذهب عني الذي قد قذرني الناس به. فمسحه، فذهب عنه، وأُعطي شعرًا حسنًا. قال: أي المال أحبُّ إليك؟ قال: البقرة أو الإبل، فأُعطي بقرة حاملًا. فقال: بارك الله لك فيها. فأتى الأعمى، فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: أن يرد الله عليَّ بصري، فأُبصر به الناس. فمسحه، فرد الله إليه بصره، قال: فأي المال أحب إليك؟ قال: الغنم، فأُعطي شاةً والدًا، فأُنتج هذان، وولَّد هذا. فكان لهذا واد من الإبل، ولهذا واد من البقر،

ولهذا واد من الغنم. قال: ثم إنه أتى الأبرص في صورته وهيئته، فقال: رجل مسكين وابن سبيل، قد انقطعت بي الحبال في سفرى هذا، فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال بعيرًا أتبلَّغ به في سفري، فقال: الحقوق كثيرة! فقال له: كأني أعرفك، ألم تكن أبرص يقذرُك الناس، فقيرًا، فأعطاك الله المال؟ فقال: إنما ورثتُ هذا المال كابرًا عن كابر، قال: إن كنت كاذبًا فصيرك الله إلى ما كنت. قال: وأتى الأقرع في صورته وهيئته، فقال له مثل ما قال لهذا، ورد عليه مثل ما رد عليه هذا، فقال له: إن كنت كاذبًا فصيرك الله إلى ما كنت، قال: فأتى الأعمى في صورته وهيئته، فقال: رجل مسكين، وابن سبيل. قد انقطعت بي الحبال في سفري. فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك. أسألك بالذي رد عليك بصرك شاةً أتبلغ بها في سفري، فقال: قد كنت أعمى فرد الله علي بصري، فخذ ما شئت، ودع ما شئت، فوالله لا أجهَدُك اليوم بشيء أخذته لله. فقال: أمسك مالك، فإنما ابتُليتم، فقد رضي الله عنك، وسخط على صاحبيك» أخرجاه[1]).

ش: (أخرجاه) أي البخاري ومسلم.

والناقة العشراء - بضم العين وفتح الشين وبالمد - هي الحامل.

قوله: (أنتج) وفي رواية: فنتج معناه: تولي نتاجها، والناتج للناقة كالقابلة للمرأة.

قوله: (ولد هذا) هو بتشديد اللام، أي تولى ولادتها، وهو بمعنى: أنتج في الناقة، فالمولد والناتج والقابلة بمعنى واحد، لكن هذا للحيوان، وذلك لغيره.

وقوله: (انقطعت بي الحبال) هو بالحاء المهملة والباء الموحدة، هي الأسباب.

وقوله: (لا أجهدك) معناه: لا أشق عليك في رد شيء تأخذه، أو تطلبه من مالي ذكره النووي.

وهذا حديث عظيم، وفيه معتبر: فإن الأولين جحدا نعمة الله، فما أقرا لله

---

(١) رواه البخاري (٣٤٦٤) في أحاديث الأنبياء، مسلم (٢٩٦٤/ ١٠) في الزهد والرقائق.

بنعمة، ولا نسبا النعمة إلى المنعم بها، ولا أديا حق الله فيها بنعمه، فحل عليهما السخط.

وأما الأعمى: فاعترف بنعمة الله، ونسبها إلى من أنعم عليه بها، وأدى حق الله فيها، فاستحق الرضا من الله بقيامه بشكر النعمة لما أتى بأركان الشكر الثلاثة التي لا يقوم الشكر إلا بها. وهي: الإقرار بالنعمة ونسبتها إلى المنعم، وبذلها فيما يحب.

قال العلامة ابن القيم رحمه الله: أصل الشكر: هو الاعتراف بإنعام المنعم على وجه الخضوع له، والذل والمحبة، فمن لم يعرف النعمة بل كان جاهلاً بها لم يشكرها، ومن عرفها ولم يعرف المنعم بها لم يشكرها أيضًا، ومن عرف النعمة والمنعم لكن جحدها كما يجحد المنكر لنعمة المنعم عليه بها فقد كفرها. ومن عرف النعمة والمنعم، وأقر بها ولم يجحدها، ولكن لم يخضع له ولم يحبه ويرض به وعنه، لم يشكرها أيضًا، ومن عرفها وعرف المنعم بها وأقر بها، وخضع للمنعم بها، وأحبه ورضي به وعنه، واستعملها في محابه وطاعته، فهذا هو الشاكر لها، فلا بد في الشكر من علم القلب، وعمل يتبع العلم، وهو الميل إلى المنعم ومحبته والخضوع له.

قوله: (قذرني الناس) بكراهة رؤيته وقربه منهم.



(٤٩)



قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٠]

قال المصنف رحمه الله تعالى: (باب قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٠]).

ش: قال الإمام أحمد رحمه الله في معنى هذه الآية: حدثنا عبد الصمد، حدثنا عمر بن إبراهيم، حدثنا قتادة، عن الحسن، عن سمرة عن النبي ﷺ قال: «**لما ولدت حواء طاف بها إبليس وكان لا يعيش لها ولد فقال: سميه عبد الحارث فإنه يعيش، فسمته عبد الحارث فعاش. وكان ذلك من وحي الشيطان وأمره**» [1].

وهكذا رواه ابن جرير عن محمد بن بشار بندار عن عبد الصمد بن عبد الوارث به.

ورواه الترمذي في تفسير هذه الآية عن محمد ابن المثنى عن عبد الصمد به، وقال: هذا حديث حسن غريب، لا نعرفه إلا من حديث عمر بن إبراهيم، ورواه بعضهم عن عبد الصمد ولم يرفعه.

---

(١) ضعيف جدًا: الترمذي (٣٠٧٧) في التفسير، والطبري (١٥٥٢٤) في التفسير وذهب العلامة أبو شهبة إلى أنه من الموضوعات والإسرائيليات في كتب التفسير، وأعله ابن كثير في تفسيره بثلاث علل (٣/ ٣٧٩) وذهب إلى ما ذهب إليه الحسن بأنه وقع في بعض أهل الملل ولم يكن بآدم عليه السلام. قلت: وهو الصحيح إذ كيف يتوصل الشيطان إلى فراش نبي، وكيف يقبل آدم وهو نبي أن يعبد ولده لغير الله؟! ولمن؟ أللشيطان عدوه؟! فاحذر يرحمك الله.

ورواه الحاكم في مستدركه من حديث عبد الصمد مرفوعًا، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه. ورواه الإمام أبو محمد بن أبي حاتم في تفسيره عن أبي زرعة الرازي عن هلال بن فياض عن عمر بن إبراهيم به مرفوعًا.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا سهيل بن يوسف عن عمرو عن الحسن ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ﴾ [الأعراف: ١٩٠] قال: كان هذا في بعض أهل الملل ولم يكن بآدم [١].

وحدثنا بشر بن معاذ قال: حدثني يزيد، حدثنا سعيد عن قتادة قال: كان الحسن يقول: هم اليهود والنصارى، رزقهم الله أولادًا فهودوا ونصروا [٢]. وهذا إسناد صحيح عن الحسن رحمه الله.

قال العماد ابن كثير في تفسيره: وأما الآثار: فقال: محمد بن إسحاق عن داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس قال: كانت حواء تلد لآدم عليه السلام أولادًا فتُعبِّدهم لله وتسميهم: عبد الله وعبيد الله ونحو ذلك، فيصيبهم الموت، فأتاهما إبليس فقال: أما إنكما لو تسميانه بغير الذي تسميانه به لعاش، فولدت له رجلًا فسماه عبد الحارث، ففيه أنزل الله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [الأعراف: ١٨٩] إلى آخر الآية [٣].

وقال العوفي عن ابن عباس: فأتاهما الشيطان فقال: هل تدريان ما يولد لكما؟ أم هل تدريان ما يكون، أبهيمة أم لا؟ وزين لهما الباطل، إنه لغوي مبين، وقد كانت قبل ذلك ولدت ولدين فماتا، فقال لهما الشيطان: إنكما إن لم تسمياه بي لم يخرج سويًا، ومات كما مات الأول. فسميا ولدهما عبد الحارث، فذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٠] [٤].

---

(١) **ضعيف ويحسن بما بعده**: الطبري (١٥٥٣٧) في تفسيره وهو صحيح.

(٢) **رجاله ثقات**: الطبري (١٥٥٣٨) في التفسير وهو الصحيح أيضًا.

(٣) **ضعيف الإسناد**: الطبري (١٥٥٢٧) في تفسيره.

(٤) سند العوفي هذا مسلسل بالضعفاء والمجاهيل رواه الطبري (١٥٥٢٨) في التفسير.

وذكر مثله عن سعيد بن جبير عن ابن عباس . ورواه ابن أبي حاتم[١] .

وقد تلقى هذا الأثر عن ابن عباس جماعة من أصحابه :

كمجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير[٢] .

ومن الطبقة الثانية : قتادة والسدى[٣] وجماعة من الخلف .

ومن المفسرين والمتأخرين جماعات لا يحصون كثرة .

قال العماد ابن كثير : وكأن أصله - والله أعلم - مأخوذ من أهل الكتاب .

قلت : وهذا بعيد جدًّا .

قال المصنف رحمه الله تعالى: (قال ابن حزم : اتفقوا على تحريم كل اسم معبد لغير الله : كعبد عمرو ، وعبد الكعبة ، وما أشبه ذلك ، حاشى عبد المطلب)[٤] .

ش: ابن حزم : هو عالم الأندلس ، أبو محمد ، على بن أحمد بن سعيد بن حزم القرطبي الظاهري . صاحب التصانيف ، توفي سنة ست وخمسين وأربعمائة . وله اثنتان وسبعون سنة .

وعبد المطلب هذا : هو جد رسول الله ﷺ . وهو ابن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان ، وما فوق عدنان مختلف فيه . ولا ريب أنهم من ذرية إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما السلام .

حكى رحمه الله اتفاق العلماء على تحريم كل ما عُبِّد لغير الله ؛ لأنه شرك في الربوبية والإلهية ؛ لأن الخلق كلهم ملك لله وعبيد له ، استعبدهم لعبادته وحده ، وتوحيده في ربوبيته وإلهيته ، فمنهم من عبد الله ووحده في ربوبيته وإلهيته ، ومنهم من أشرك به في إلهيته وأقر له بربوبيته وأسمائه وصفاته ، وأحكامه القدرية جارية

---

(١) ضعيف الإسناد وانظر ما بعد أربعة تخريجات .

(٢) ،(٣) انظر تفسير الطبري على الترتيب (١٥٥٣٠ - ١٥٥٣٥) .

(٤) ابن حزم ص (١٥٤) في مراتب الإجماع .

عليهم ولا بد، كما قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣] فهذه هي العبودية العامة. وأما العبودية الخاصة فإنها تختص بأهل الإخلاص والطاعة، كما قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦] ونحوها.

قوله: (حاشى عبد المطلب) هذا استثناء من العموم المستفاد من كل. وذلك أن تسميته بهذا الاسم لا محذور فيه؛ لأن أصله من عبودية الرق.

وذلك أن المطلب أخو هاشم قدم المدينة، وكان ابن أخيه شيبة هذا قد نشأ في أخواله بني النجار من الخزرج؛ لأن هاشمًا تزوج فيهم امرأة، فجاءت منه بهذا الابن، فلما شب في أخواله، وبلغ سن التمييز سافر به عمه المطلب إلى مكة بلد أبيه وعشيرته فقدم به مكة وهو رديفه، فرآه أهل مكة وقد تغير لونه بالسفر، فحسبوه عبدًا للمطلب، فقالوا: هذا عبد المطلب، فعلق به هذا الاسم وركبه، فصار لا يذكر ولا يدعى إلا به، فلم يبق للأصل معنى مقصود. وقد قال النبي ﷺ: **«أنا ابن عبد المطلب»** (١).

وقد صار معظمًا في قريش والعرب، فهو سيد قريش وأشرفهم في جاهليته، وهو الذي حفر زمزم وصارت له السقاية وفي ذريته من بعده.

وعبد الله: والد رسول الله ﷺ أحد بني عبد المطلب، وتوفي في حياة أبيه. قال الحافظ صلاح الدين العُلائي في كتاب الدرة السنية في مولد خير البرية: كان سن أبيه عبد الله حين حملت منه آمنة برسول الله ﷺ نحو ثمانية عشر عامًا، ثم ذهب إلى المدينة ليمتار منها تمرًا لأهله فمات بها عند أخواله بني عدي بن النجار، والنبي ﷺ حملٌ على الصحيح. انتهى.

قلت: وصار النبي ﷺ لما وضعته أمه في كفالة جده عبد المطلب.

قال الحافظ الذهبي: وتوفي أبوه عبد الله وللنبي ثمانية وعشرون شهرًا، وقيل أقل من ذلك، وقيل: وهو حمل. توفي بالمدينة، وكان قد قدمها ليمتار تمرًا، وقيل: بل مر بها راجعًا من الشام، وعاش خمسًا وعشرين سنة.

قال الواقدي: وذلك أثبت الأقاويل في سنه ووفاته.

---

(١) جزء من حديث رواه البخاري (٢٨٦٤) في الجهاد، مسلم (١٧٧٦) في الجهاد قصة غزوة حنين.

وتوفيت أمه آمنة بالأبواء وهي راجعة به ﷺ إلى مكة من زيارة أخوال أبيه بني عدي بن النجار، وهو يومئذ ابن ست سنين ومائة يوم، وقيل: ابن أربع سنين.

فلما ماتت أمه حملته أم أيمن مولاته إلى جده، فكان في كفالته إلى أن توفي جده، وللنبي ﷺ ثماني سنين فأوصى به إلى عمه أبي طالب. انتهى كلام الحافظ.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وعن ابن عباس رضي الله عنهما في الآية، قال: لما تَغشَّاها آدمُ حملت، فأتاهما إبليسُ. فقال: إنى صاحبُكما الذى أخرجتكما من الجنة، لَتُطيعُنني أو لأجعلنَّ له قَرْنى أيِل، فيخرج من بطنك فيشقه. ولأفعلنَّ ولأفعلنَّ، يخوِّفهما. سمِّياه عبد الحارث. فأبيا أن يُطيعاه، فخرج ميتًا. ثم حملت، فأتاهما فقال مثل قوله، فأبيا أن يطيعاه، فخرج ميتًا. ثم حملت فأتاهما، فذكر لهما فأدركهما حُبُّ الولد، فسمياه عبد الحارث، فذلك قوله: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَآ﴾ [الأعراف: ١٩٠][1] رواه ابنُ أبي حاتم).

ش: قد قدمنا نظيره عن ابن عباس في المعنى.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وله بسند صحيح عن قتادة قال: شركاء في طاعته ولم يكن في عبادته[2]. وله بسند صحيح، عن مجاهد في قوله: ﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا﴾ [الأعراف: ١٨٩] قال: أشفقا أن لا يكون إنسانا[3]. وذكر معناه عن الحسن، وسعيد، وغيرهما[4]).

ش: قال شيخنا رحمه الله: إن هذا الشرك في مجرد تسمية، لم تُقصد حقيقتها.

وهو محمل حسن يبين أن ما وقع من الأبوين، من تسميتهما ابنهما عبد الحارث إنما هو مجرد تسمية لم يقصدا تعبيده لغير الله وهذا معنى قول قتادة: شركاء في طاعته ولم يكن في عبادته.

---

(١) **ضعيف الإسناد:** فيه شريك وهو ابن عبد الله النخعي سيئ الحفظ، وقد رواه الطبري (١٥٥٢٩) في تفسيره، وابن أبي حاتم (٨٦٥٤) في تفسيره وفيه خصيف وهو سيئ الحفظ وهو من الإسرائيليات ولو حسن سنده فلا يعني صحة متنه فهو منكر.

(٢) **صحيح:** الطبري (١٥٥٣١) في تفسيره.

(٣) **حسن:** ابن أبي حاتم (٨٦٤٨) في تفسيره.

(٤) **حسن:** ابن أبي حاتم (٨٦٥٠) في تفسيره.

(٥٠)

باب

قول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ﴾ [الأعراف: ١٨٠]

قال المصنف رحمه الله تعالى: (باب قول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠] الآية. ذكر ابن أبي حاتم، عن ابن عباس: ﴿يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ﴾ [الأعراف: ١٨٠] يشركون [١]. وعنه: سموا اللات من الإله، والعزى من العزيز [٢]. وعن الأعمش: يدخلون فيها ما ليس منها [٣].

ش: عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن لله تسعة وتسعين اسمًا، مائة إلا واحدًا، من أحصاها دخل الجنة، وهو وتر يحب الوتر» [٤] أخرجاه في الصحيحين من حديث سفيان بن عيينة. ورواه البخاري عن أبي اليمان عن أبي الزناد عن الأعرج عنه [٥].

وأخرجه الترمذي عن الجوزجاني عن صفوان بن صالح عن الوليد بن مسلم عن شعيب بسنده مثله.

---

(١) منقطع وفيه ضعف: الطبري (١٥٤٦٦) في تفسيره من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس وفيه أبو صالح كاتب الليث.

(٢) ضعيف: الطبري (١٥٤٦٤) في تفسيره من طريق العوفي عن ابن عباس وهو مسلسل بالضعفاء والمجاهيل.

(٣) ضعيف جدًا: وفيه مبشر بن عبيد القرشي، متروك ورواه ابن أبي حاتم (٨٥٨٧) في تفسيره.

(٤) رواه البخاري (٦٤١٠) في الدعوات، مسلم (٢٦٧٧) في الذكر والدعاء.

(٥) رواه البخاري (٧٣٩٢) في التوحيد.

وزاد بعد قوله: «**يحب الوتر** -: هو الله الذي لا إله إلا هو، الرحمن، الرحيم، الملك، القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبر، الخالق، البارئ، المصور، الغفار، القهار، الوهاب، الرزاق، الفتاح، العليم، القابض، الباسط، الخافض، الرافع، المعز، المذل، السميع، البصير، الحكم، العدل، اللطيف، الخبير، الحليم، العظيم، الغفور، الشكور، العلي، الكبير، الحفيظ، المقيت، الحسيب، الجليل، الكريم، الرقيب، المجيب، الواسع، الحكيم، الودود، المجيد، الباعث، الشهيد، الحق، الوكيل، القوي، المتين، الولي، الحميد، المحصي، المبدئ، المعيد، المحيي، المميت، الحي، القيوم، الواجد، الماجد، الواحد، الأحد، الفرد، الصمد، القادر، المقتدر، المقدم، المؤخر، الأول، الآخر، الظاهر، الباطن، الوالي، المتعالي، البر، التواب، المنتقم، العفو، الرءوف، مالك الملك، ذو الجلال والإكرام، المقسط، الجامع، الغني، المغني، المعطي، المانع، الضار، النافع، النور، الهادي، البديع، الباقي، الوارث، الرشيد، الصبور»[(١)].

ثم قال الترمذي: هذا حديث غريب. وقد روى من غير وجه عن أبي هريرة، ولا نعلم في كثير من الروايات ذكر الأسماء إلا في هذا الحديث.

والذي عول عليه جماعة من الحفاظ أن سرد الأسماء في هذا الحديث مدرج فيه. وإنما ذلك كما رواه الوليد بن مسلم وعبد الملك بن محمد الصنعاني عن زهير بن محمد: أنه بلغه عن غير واحد من أهل العلم أنهم قالوا ذلك. أي: أنهم جمعوها من القرآن كما روى عن جعفر بن محمد وسفيان وأبي زيد اللغوي والله أعلم.

هذا ما ذكره العماد ابن كثير في تفسيره. ثم قال: ليعلم أن الأسماء الحسنى ليست منحصرة في تسعة وتسعين. بدليل ما رواه أحمد عن يزيد بن هارون عن فضيل بن

(١) ضعيف: الترمذي (٣٥٠٧) في الدعوات وأجمع أهل العلم على تضعيفه حيث وقع فيه عدة علل منها: تدليس الوليد بن مسلم، وفيه اضطراب، ثم ضعفه ابن كثير وأعله بـ (عبد الملك بن محمد الصنعاني) وجزم بأن راوى هذه الأسماء قد أدرجها في الحديث وجمعها من قول: جعفر بن محمد، وسفيان بن عيينة، وأبي زيد اللغوي، وانظر تفسير ابن كثير (٤/ ١٦٦) ط دار الفجر.

مرزوق عن أبي سلمة الجهني عن القاسم بن عبد الرحمن عن أبيه عن عبد الله بن مسعود عن رسول الله ﷺ قال: «**ما أصاب أحدًا قط هم ولا حزن فقال: اللهم إني عبدك ابن عبدك، بن أمتك، ناصيتي بيدك. ماضٍ فيَّ حكمك. عدل فيَّ قضاؤك. أسألك اللهم بكل اسم هو لك. سميت به نفسك. أو أنزلته في كتابك. أو علمته أحدًا من خلقك. أو استأثرت به في علم الغيب عندك: أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي وغمي، إلا أذهب الله همه وحزنه. وأبدله مكانه فرحًا**». فقيل: يا رسول الله: ألا نتعلمها؟ فقال: «**بلى. ينبغي لمن سمعها أن يتعلمها**» (١) وقد أخرجه أبو حاتم ابن حبان في صحيحه.

وقال العوفي عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ [الأعراف: ١٨٠] قال: إلحاد الملحدين: أن دعوا اللات في أسماء الله (٢).

وقال ابن جريج عن مجاهد: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ [الأعراف: ١٨٠] قال: اشتقوا اللات من الله. واشتقوا العزى من العزيز (٣).

وقال قتادة: يلحدون: يشركون (٤). وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: الإلحاد: التكذيب (٥).

وأصل الإلحاد في كلام العرب: العدول عن القصد، والميل والجور والانحراف. ومنه اللحد في القبر؛ لانحرافه إلى جهة القبلة عن سمت الحفر.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى:

وحقيقة الإلحاد فيها الميل بالـ إشـراك والـتـعـطـيـل والـنـكـران

وأسماء الرب تعالى كلها أسماء وأوصاف تعرف بها تعالى إلى عباده، ودلت على

(١) **صحيح الإسناد**: أحمد (١/ ٣٩١) وصححه العلامة شاكر، وكذا صححه الألباني (١٩٩) في الصحيحة.
(٢) **ضعيف**: الطبري (١٥٤٦٤) بسند العوفي.
(٣) **ضعيف**: الطبري (١٥٤٦٥) بسند فيه تدليس ابن جريج.
(٤) **حسن**: الطبري (١٥٤٦٧) في تفسيره.
(٥) منقطع بين ابن أبي طلحة وابن عباس: الطبري (١٥٤٦٦) في تفسيره.

كمال جل وعلا .

وقال رحمه الله تعالى : فالإلحاد : إما بجحدها وإنكارها ، وإما بجحد معانيها وتعطيلها ، وإما بتحريفها عن الصواب وإخراجها عن الحق بالتأويلات .

وإما بجعلها أسماء لهذه المخلوقات كإلحاد أهل الاتحاد . فإنهم جعلوها أسماء هذا الكون محمودها ومذمومها . حتى قال زعيمهم : هو المسمى بمعنى كل اسم ممدوح عقلاً وشرعًا وعرفًا . وبكل اسم مذموم عقلاً وشرعًا وعرفًا . تعالى عما يقولون علوًّا كبيرًا ، انتهى .

قلت : والذي عليه أهل السنة والجماعة قاطبة . متقدمهم ومتأخرهم : إثبات الصفات التي وصف الله بها نفسه ووصفه بها رسول الله ﷺ على ما يليق بجلال الله وعظمته . إثباتًا بلا تمثيل . وتنزيهًا بلا تعطيل . كما قال تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى : ١١] .

وأن الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات يحتذى حذوه ومثاله . وكما أنه يجب العلم بأن لله ذاتًا حقيقة لا تشبه شيئًا من ذوات المخلوقين .

فله صفات حقيقة لا تشبه شيئًا من صفات المخلوقين ، فمن جحد شيئًا مما وصف الله به نفسه أو وصفه به رسوله ، أو تأوله على غير ما ظهر من معناه : فهو جهمي قد اتبع غير سبيل المؤمنين . كما قال تعالى : ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ [النساء : ١١٥] .

وقال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى أيضًا : **(فائدة جليلة)** : ما يجري صفة أو خبرًا على الرب تبارك وتعالى أقسام :

أحدها : ما يرجع إلى نفس الذات ، كقولك : ذات ، وموجود .

الثاني : ما يرجع إلى صفاته ونعوته ، كالعليم والقدير ، والسميع والبصير .

الثالث : ما يرجع إلى أفعاله : كالخالق والرازق .

الرابع : التنزيه المحض . ولا بد من تضمنه ثبوتًا ، إذ لا كمال في العدم المحض ،

كالقدوس والسلام.

الخامس - ولم يذكره أكثر الناس -: وهو الاسم الدال على جملة أوصاف عديدة لا تختص بصفة معينة، بل دال على معانٍ، نحو المجيد، العظيم، الصمد. فإن المجيد: من اتصف بصفات متعددة، من صفات الكمال، ولفظه يدل على هذا. فإنه موضوع للسعة والزيادة والكثرة، فمنه: استمجد المرخ والعفار وأمجد الناقة: علفها. ومنه: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ﴾ صفة للعرش لسعته وعظمته وشرفه.

وتأمل كيف جاء هذا الاسم مقترنًا بطلب الصلاة من الله على رسوله كما علمناه ﷺ لأنه في مقام طلب المزيد والتعرض لسعة العطاء، وكثرته ودوامه. فأتى في هذا المطلوب باسم يقتضيه، كما تقول: اغفر لي وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم، فهو راجع إلى التوسل إليه بأسمائه وصفاته. وهو من أقرب الوسائل وأحبها إليه. ومنه الحديث الذي في الترمذي: **«ألظوا بيا ذا الجلال والإكرام»**(١) ومنه: **«اللهم إني أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت المنان، بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام»**(٢).

فهذا سؤال له وتوسل إليه بحمده وأنه لا إله إلا هو المنان. فهو توسل إليه بأسمائه وصفاته. وما أحق ذلك بالإجابة وأعظمه موقعًا عند المسئول.. وهذا باب عظيم من أبواب التوحيد.

السادس: صفة تحصل من اقتران أحد الاسمين والوصفين بالآخر. وذلك قدر زائد على مفرديهما نحو: الغني الحميد، الغفور القدير، الحميد المجيد، وهكذا عامة الصفات المقترنة والأسماء المزدوجة في القرآن. فإن الغِنَي صفة كمال ولحمد كذلك، واجتماع الغني مع الحمد كمال آخر، فله ثناء من غناه، وثناء من حمده، وثناء من اجتماعهما، وكذلك الغفور القدير، والحميد المجيد، والعزيز الحكيم، فتأمله فإنه أشرف المعارف.

---

(١) صحيح: أحمد (٤/ ١٧٧) عن عامر بن ربيعة مرفوعًا وهو صحيح. وألِظُّوا: (داوِمُوا).
(٢) صحيح: سبق تخريجه.

(٥١)



لا يقال: السلام على الله

قال المصنف رحمه الله تعالى: (باب لا يقال: السلام على الله).

في الصحيح، عن ابن مسعود رضي الله عنه، قال: كنا إذا كنا مع النبيﷺ في الصلاة، قلنا: السلام على الله من عباده، السلام على فلان، فقال النبيﷺ: «لا تقولو: السلام على الله، فإن الله هو السلام».

ش: هذا الحديث رواه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجه من حديث شقيق بن سلمة عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: كنا إذا جلسنا مع رسول اللهﷺ في الصلاة قلنا: السلام على الله قبل عباده، السلام على فلان وفلان - الحديث[١] وفي آخره ذكر التشهد الأخير.

ورواه الترمذي من حديث الأسود بن يزيد عن ابن مسعود[٢]. وذكر في الحديث سبب النهي عن ذلك بقوله: **«فإن الله هو السلام ومنه السلام»**[٣].

وقد كان النبيﷺ إذا انصرف من الصلاة المكتوبة استغفر ثلاثًا ويقول: **«اللهم أنت السلام ومنك السلام، تباركت يا ذا الجلال والإكرام»**[٤].

وفي الحديث: **«إن هذا هو تحية أهل الجنة لربهم تبارك وتعالى»**[٥].

(١) رواه البخاري (٨٣٥) في الأذان، مسلم (٤٠٢/٥٨) في الصلاة.
(٢) صحيح الإسناد: الترمذي (٢٨٩) في الصلاة، النسائي (٢/ ٣٣٧ - ٣٣٨).
(٣) انظر التخريج قبل السابق فهو هو.
(٤) رواه مسلم (٥٩١/ ١٣٥) في المساجد ومواضع الصلاة عن ثوبان رضي الله عنه.
(٥) رفعه منكر: كذلك قال المنذري (٤/ ٥٤٨) في الترغيب. وجاء مرفوعًا بسند أحمد عن عبد الله بن

وفي التنزيل: ما يدل على أن الرب تبارك وتعالى يسلم عليهم في الجنة. كما قال تعالى: ﴿سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ﴾ [يس: ٥٨].

ومعنى قوله: «**إن الله هو السلام**»: إن الله سالم من كل نقص ومن كل تمثيل. فهو الموصوف بكل كمال، المنزه عن كل عيب ونقص.

قال العلامة ابن القيم في بدائع الفوائد: السلام اسم مصدر. وهو من ألفاظ الدعاء. يتضمن الإنشاء والإخبار، فجهة الخبرية فيه لا تناقض الجهة الإنشائية. وهو معنى السلام المطلوب عند التحية. وفيه قولان مشهوران:

الأول: أن السلام هنا هو الله عز وجل. ومعنى الكلام: نزلت بركته عليكم ونحو ذلك. فاختير في هذا المعنى من أسمائه عز وجل اسم السلام دون غيره من الأسماء.

الثاني: أن السلام مصدر بمعنى السلامة. وهو المطلوب المدعو به عند التحية ومن حجة أصحاب هذا القول: أنه يأتي منكرًا، فيقول المسلم: سلام عليكم ولو كان اسمًا من أسماء الله لم يستعمل كذلك. ومن حجتهم: أنه ليس المقصود من السلام هذا المعنى، وإنما المقصود منه الإيذان بالسلامة خبرًا ودعاءً.

قال العلامة ابن القيم رحمه الله: وفصل الخطاب أن يقال: الحق في مجموع القولين. فكل منهما بعض الحق، والصواب في مجموعهما.

وإنما يتبين ذلك بقاعدة، وهي: أن حق من دعا الله بأسمائه الحسنى أن يسأل في كل مطلوب ويتوسل بالاسم المقتضي لذلك المطلوب، المناسب لحصوله، حتى إن الداعي متشفع إلى الله تعالى متوسل به إليه.

فإذا قال: رب اغفر لي وتب علي إنك أنت التواب الغفور. فقد سأله أمرين وتوسل إليه باسمين من أسمائه، مقتضيين لحصول مطلوبه.

وقال ﷺ لأبي بكر رضي الله عنه وقد سأله ما يدعو به: «**قل: اللهم إني ظلمت نفسي ظلمًا كثيرًا، وإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لي مغفرة من عندك، وارحمني**

أبي أوفى، وموقوفًا من حديث ابن عباس (١١/ ٣) في الفتح.

إنك أنت الغفور الرحيم»(١) . فالمقام لما كان مقام طلب السلامة التي هي أهم عند الرجل، أتى في طلبها بصيغة اسم من أسماء الله تعالى وهو السلام الذي تطلب منه السلامة . فتضمن لفظ السلام معنيين :

أحدهما: ذكر الله .

والثاني: طلب السلامة . وهو مقصود المسلم .

فقد تضمن : سلام عليكم اسمًا من أسماء الله وطلب السلامة منه . فتأمل هذه الفائدة .

وحقيقته: البراءة والخلاص والنجاة من الشرور والعيوب . وعلى هذا المعنى تدور تصاريفه، فمن ذاك قولهم : سلمك الله، ومنه دعاء المؤمنين على الصراط : رب سلم سلم (٢) ومنه سَلِمَ الشيء لفلان، أي : خلص له وحده . قال تعالى : ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾ [الزمر : ٢٩] .

أي : خالصًا له وحده لا يملكه معه غيره . ومنه السلم ضد الحرب؛ لأن كل واحد من المتحاربين يخلص ويسلم من أذى الآخر، ولهذا بُني فيه على المفاعلة، فقيل : المسالمة مثل المشاركة . ومنه القلب السليم وهو النقي من الدَّغَل والعيب .

وحقيقته: الذي قد سلم لله وحده، فخلص من دغل الشرك وغله، ودغل الذنوب والمخالفات، فهو مستقيم على صدق حبه وحسن معاملته . وهذا هو الذي ضمن له النجاة من عذاب الله والفوز بكرامته .

ومنه أخذ الإسلام، فإنه من هذه المادة، لأنه الاستسلام والانقياد لله، والتخلص من شوائب الشرك، فسلم لربه وخلص له، كالعبد الذي سلم لمولاه ليس له فيه شركاء متشاكسون . ولهذا ضرب سبحانه هذين المثلين للمسلم الخالص لربه وللمشرك به .

---

(١) رواه البخاري (٧٣٨٧) في التوحيد، مسلم (٢٧٠٥) في الذكر والدعاء، عن عبد الله بن عمرو عن أبي بكر رضي الله عنهم .

(٢) رواه مسلم (١٨٣) في الإيمان، وبنحوه البخاري (٧٤٣٩) في التوحيد عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

(٥٢)

باب

قول: اللهم اغفر لي إن شئت

قال المصنف رحمه الله تعالى:(باب قول: اللهم اغفر لي إن شئت).

ش: يعني أن ذلك لا يجوز لورود النهي عنه في حديث الباب.

قال المصنف رحمه الله تعالى:(في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا يقولنَّ أحدكم: اللهم اغفر لي إن شئت، اللهم ارحمني إن شئت، ليعزم المسألة فإن الله لا مكره له» [(١)].

ولمسلم:«وليُعظِّم الرغبة، فإن الله لا يتعاظمه شيء أعطاه»).

ش: بخلاف العبد، فإنه قد يعطي السائل مسألته؛ لحاجته إليه، أو لخوفه منه أو رجائه، فيعطيه مسألته وهو كاره.

فاللائق بالسائل للمخلوق أن يعلق حصول حاجته على مشيئة المسئول، مخافة أن يعطيه وهو كاره، بخلاف رب العالمين، فإنه تعالى لا يليق به ذلك لكمال غناه عن جميع خلقه، وكمال جوده وكرمه، وكلهم فقير إليه، محتاج لا يستغني عن ربه طرفة عين وعطاؤه كلام.

وفي الحديث: **«يمين الله ملأى لا يغيضها نفقة، سحَّاء الليل والنهار. أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض؟ فإنه لم يغض ما في يمينه، وفي يده الأخرى القسط يخفضه ويرفعه»** [(٢)] يعطي تعالى لحكمة ويمنع لحكمة وهو الحكيم الخبير.

---

(١) رواه البخاري (٦٣٣٩) في الدعوات، مسلم (٢٦٧٩) في الذكر والدعاء.

(٢) رواه البخاري (٤٦٨٤) في التفسير، مسلم (٩٩٣) في الزكاة عن أبي هريرة رضي الله عنه.

فاللائق بمن سأل الله أن يعزم المسألة، فإنه لا يعطي عبده شيئًا عن كراهة ولا عن عظم مسألة.

وقد قال بعض الشعراء فيمن يمدحه:

ويعظم في عين الصغير صغارها ويصغر في عين العظيم العظائم

وهذا بالنسبة إلى ما في نفوس أرباب الدنيا، وإلا فإن العبد يعطي تارة ويمنع أكثر، ويعطي كرهًا، والبخل عليه أغلب. وبالنسبة إلى حاله هذه فليس عطاؤه بعظيم.

وأما ما يعطيه الله تعالى عباده فهو دائم مستمر، يجود بالنوال قبل السؤال من حين وضعت النطفة في الرحم. فنعمه على الجنين في بطن أمه دارة، يربيه أحسن تربية، فإذا وضعته أمه عطَّف عليه والديه ورباه بنعمه حتى يبلغ أشده، يتقلب في نعم الله مدة حياته، فإن كانت حياته على الإيمان والتقوى ازدادت نعم الله تعالى عليه إذا توفاه أضعاف أضعاف ما كان عليه في الدنيا من النعم التي لا يقدر قدرها إلا الله، مما أعده الله تعالى لعباده المؤمنين المتقين. وكل ما يناله العبد في الدنيا من النعم وإن كان بعضها على يد مخلوق فهو بإذن الله وإرادته وإحسانه إلى عبده.

فالله تعالى هو المحمود على النعم كلها، فهو الذي شاءها وقدرها وأجراها عن كرمه وجوده وفضله. فله النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن. قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ [النحل: ٥٣].

وقد يمنع سبحانه عبده إذا سأله لحكمة وعلم بما يصلح عبده من العطاء والمنع، وقد يؤخر ما سأله عبده لوقته المقدر، أو ليعطيه أكثر. فتبارك الله رب العالمين.

وقوله: ولمسلم: «**وليعظم الرغبة**» [١] أي: في سؤاله ربه حاجته، فإنه يعطي العظائم كرمًا وجودًا وإحسانًا. فإن الله تعالى لا يتعاظمه شيء أعطاه، أي ليس شيء عنده يعظم، وإن عظم في نفس المخلوق. لأن سائل المخلوق لا يسأله إلا ما يهون عليه بذله بخلاف رب العالمين، فإن عطاءه كلام: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢] فسبحان من لا يقدر الخلق قدره، لا إله غيره ولا رب سواه.

(١) رواه مسلم (٢٦٧٩) في الذكر والدعاء.

(٥٣)



لا يقول: عبدي وأمتي

قال المصنف رحمه الله تعالى: (باب لا يقول: عبدي وأمتي.

في الصحيح: عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا يقولن أحدكم: أطعم ربك. وضئ ربك. وليقل: سيدي ومولاي. ولا يقل أحدكم: عبدي وأمتي، وليقل: فتاي وفتاتي وغلامي» [(١)]).

ش: قوله: (باب لا يقول: عبدي وأمتي). ذَكَر الحديث الذي في الصحيح، عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «لا يقولنَّ أحدكم: أطعم ربَّك، وضئ ربك، وليقل: سيدي ومولاي، ولا يقل أحدكم: عبدي وأمتي، وليقل: فتاي وفتاتي وغُلامي».

هذه الألفاظ المنهي عنها. وإن كانت تطلق لغة. فالنبي ﷺ نهى عنها تحقيقًا للتوحيد وسدًّا لذرائع الشرك لما فيها من التشريك في اللفظ. لأن الله تعالى هو رب العباد جميعهم.

فإذا أطلق على غيره شاركه في الاسم. فينهى عنه لذلك. وإن لم يقصد بذلك التشريك في الربوبية التي هي وصف الله تعالى. وإنما المعنى أن هذا مالك له. فيطلق عليه هذا اللفظ بهذا الاعتبار. فالنهي عنه حسمًا لمادة التشريك بين الخالق والمخلوق. وتحقيقًا للتوحيد. وبعدًا عن الشرك حتى في اللفظ.

---

(١) رواه البخاري (٢٥٥٢) في العتق، مسلم (٢٢٤٩/ ١٥) في الألفاظ من الأدب.

وهذا من أحسن مقاصد الشريعة . لما فيه من تعظيم الرب تعالى، وبعده عن مشابهة المخلوقين، فأرشدهم ﷺ إلى ما يقوم مقام هذه الألفاظ . وهو قوله : سيدي ومولاي وكذا قوله : «**ولا يقل أحدكم عبدي وأمتي**» لأن العبيد عبيد الله . والإماء إماء الله . قال الله تعالى : ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم:٩٣] ففي إطلاق هاتين الكلمتين على غير الله تشريك في اللفظ، فنهاهم عن ذلك تعظيمًا لله تعالى وأدبًا وإبعادًا عن الشرك وتحقيقًا للتوحيد، وأرشدهم إلى أن يقولوا : «**فتاي وفتاتي وغلامي**» .

وهذا من باب حماية المصطفى ﷺ جناب التوحيد، فقد بلغ ﷺ أمته كل ما فيه لهم نفع، ونهاهم عن كل ما فيه نقص في الدين . فلا خير إلا دلهم عليه، خصوصًا في تحقيق التوحيد، ولا شر إلا حذرهم منه، خصوصًا ما يقرب من الشرك لفظًا وإن لم يقصد به . وبالله التوفيق .



(٥٤)



لا يرد من سأل بالله

قال المصنف رحمه الله تعالى: (باب لا يرد من سأل بالله.

عن ابن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ : «من استعاذ بالله فأعيذوه، ومن سأل بالله فأعطوه، ومن دعاكم فأجيبوه، ومن صنع إليكم معروفًا فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له حتى تُروا أنكم قد كافأتموه»[1] . رواه أبو داود، والنسائي بسند صحيح).

ش: ظاهر الحديث النهي عن رد السائل إذا سأله بالله. لكن هذا العموم يحتاج إلى تفصيل بحسب ما ورد في الكتاب والسنة، فيجب إذا سأل السائل ما له فيه حق كبيت المال أن يجاب فيعطى منه على قدر حاجته وما يستحقه وجوبًا، وكذلك إذا سأل المحتاج من في ماله فضل فيجب أن يعطيه على حسب حاله ومسألته.

وأما إذا سأل من لا فضل عنده، فيستحب أن يعطيه على قدر حال المسئول ما لا يضر به ولا يضر عائلته، وإن كان مضطرًا وجب أن يعطيه ما يدفع ضرورته.

ومقام الإنفاق من أشرف مقامات الدين، وتفاوت الناس فيه بحسب ما جبلوا عليه من الكرم والجود وضدهما من البخل والشح. فالأول: محمود في الكتاب والسنة. والثاني: مذموم فيهما.

وقد حث الله تعالى عباده على الإنفاق لعظم نفعه وتعديه وكثرة ثوابه. قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَلَا

(١) صحيح: أبو داود (١٦٧٢) في الزكاة وسبق تصحيحه.

تَيَمَّمُوا ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ٱلشَّيْطَـٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾﴾ [البقرة: ٢٦٧-٢٦٨] وقال تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧] وذلك الإنفاق من خصال البر المذكورة في قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَـٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَـٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

فذكره بعد ذكر أصول الإيمان وقبل ذكر الصلاة. ذلك - والله أعلم - لتعدي نفعه.

وذكره تعالى في الأعمال التي أمر الله بها عباده. وتعبدهم بها ووعدهم عليها الأجر العظيم. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَـٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَٱلْقَـٰنِتِينَ وَٱلْقَـٰنِتَـٰتِ وَٱلصَّـٰدِقِينَ وَٱلصَّـٰدِقَـٰتِ وَٱلصَّـٰبِرِينَ وَٱلصَّـٰبِرَٰتِ وَٱلْخَـٰشِعِينَ وَٱلْخَـٰشِعَـٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَـٰتِ وَٱلصَّـٰٓئِمِينَ وَٱلصَّـٰٓئِمَـٰتِ وَٱلْحَـٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَـٰفِظَـٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥].

وكان النبي ﷺ يحث أصحابه على الصدقة حتى النساء. نصحًا للأمة وحثًّا لهم على ما ينفعهم عاجلاً وآجلاً.

وقد أثنى الله سبحانه على الأنصار رضي الله عنهم بالإيثار، فقال تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحشر: ٩] والإيثار من أفضل خصال المؤمن كما تفيده هذه الآية الكريمة، وقد قال تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٨-٩].

والآيات والأحاديث في فضل الصدقة كثيرة جدًّا، ومن كان سعيه للدار للآخرة رَغِبَ في هذا ورَغَّبَ، وبالله التوفيق.

قوله: (من دعاكم فأجيبوه) هذا من حقوق المسلمين بعضهم على بعض: إجابة

دعوة المسلم، وتلك من أسباب الألفة والمحبة بين المسلمين.

قوله: (ومن صنع إليكم معروفًا فكافئوه) ندبهم ﷺ على المكافأة على المعروف، فإن المكافأة على المعروف من المروءة التي يحبها الله ورسوله، كما دل عليه هذا الحديث ولا يهمل المكافأة على المعروف إلا اللئام من الناس، وبعض اللئام يكافئ على الإحسان بالإساءة، كما يقع كثيرًا من بعضهم.

نسأل الله العفو والعافية في الدنيا والآخرة.

بخلاف حال أهل التقوى والإيمان فإنهم يدفعون السيئة بالحسنة طاعة لله ومحبة لما يحبه لهم ويرضاه، كما قال تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ۝ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ۝ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٦-٩٨] وقال تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤-٣٥] وهم الذين سبقت لهم من الله تعالى السعادة.

قوله: (فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له) أرشدهم ﷺ إلى أن الدعاء في حق من لم يجد المكافأة مكافأة للمعروف، فيدعو له على حسب معروفه.

قوله: (حتى تُروا - بضم التاء: تظنوا - أنكم قد كافأتموه) ويحتمل أنها مفتوحة بمعنى تعلموا. ويؤيده ما في سنن أبي داود من حديث ابن عمر: **«حتى تعلموا»** فتعين الثاني للتصريح به. وفيه: **«ومن سألكم بالله فأجيبوه»** أي: إلى ما سأل. فيكون بمعنى: أعطوه، وعند أبي داود في رواية أبي نهيك عن ابن عباس: **«من سألكم بوجه الله فأعطوه»** (١) وفي رواية عبيد الله القواريري لهذا الحديث: **«ومن سألكم بالله»** كما في حديث ابن عمر (٢).



(١) **حسن صحيح**: أبو داود: (٥١٠٨) في الأدب وصححه الألباني هناك.
(٢) **صحيح**: انظر التخريج قبل السابق.

(٥٥)



لا يسأل بوجه الله إلا الجنة

قال المصنف رحمه الله تعالى: باب (لا يسأل بوجه الله إلا الجنة).

عن جابر، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يُسأل بوجه الله إلا الجنة». رواه أبو داود).

ش: قوله: (باب لا يسأل بوجه الله إلا الجنة).

ذكر فيه حديث جابر - رواه أبو داود عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا يسأل بوجه الله إلا الجنة»** (١).

وهنا سؤال: وهو أنه قد ورد في دعاء النبي ﷺ عند منصرفه من الطائف حين كذبه أهل الطائف ومن في الطائف من أهل مكة، فدعا النبي ﷺ بالدعاء المأثور: **«اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس. أنت رب المستضعفين وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني، أو إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يك بك غضب علي فلا أبالي، غير أن عافيتك هي أوسع لي»** وفي آخره: **«أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة: أن يحل على غضبك، أو ينزل بي سخطك. لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بالله»**.

والحديث المروي في الأذكار: **«اللهم أنت أحق من ذُكر وأحق من عُبد - وفي آخره - أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له السموات والأرض»** (٢).

---

(١) ضعيف: أبو داود (١٦٧١) في الزكاة وضعفه الألباني.

(٢) ضعيف: قال الهيثمي (١٠/ ١١٧) في المجمع وعزاه للطبراني في الكبير وقال: فيه فضال بن جبير وهو ضعيف، مجمع على ضعفه.

وفي حديث آخر: «**أعوذ بوجه الله الكريم، وباسم الله العظيم وبكلماته التامة من شر السامة واللامة، ومن شر ما خلقت أي رب، ومن شر هذا اليوم ومن شر ما بعده، ومن شر الدنيا والآخرة**»[١] . وأمثال ذلك في الأحاديث المرفوعة بالأسانيد الصحيحة أو الحسان.

فالجواب: أن ما ورد من ذلك فهو في سؤال ما يقرب إلى الجنة أو ما يمنعه من الأعمال التي تمنعه من الجنة، فيكون قد سأل بوجه الله وبنور وجهه ما يقرب إلى الجنة كما في الحديث الصحيح: «**اللهم إن أسألك الجنة وما يقرب إليها من قول أو عمل، وأعوذ بك من النار وما يقرب إليها من قول أو عمل**»[٢] .

بخلاف ما يختص بالدنيا كسؤال المال والرزق والسعة في المعيشة رغبة في الدنيا، مع قطع النظر عن كونه أراد بذلك ما يعينه على عمل الآخرة. فلا ريب أن الحديث يدل على المنع من أن يسأل حوائج دنياه بوجه الله.

وعلى هذا فلا تعارض بين الأحاديث. كما لا يخفى. والله أعلم.

وحديث الباب: من جملة الأدلة المتواترة في الكتاب والسنة على إثبات الوجه لله تعالى. فإنه صفة كمال: وسلبه غاية النقص والتشبيه بالناقصات. كسلبهم جميع الصفات أو بعضها. فوقعوا في أعظم مما فروا منه. تعالى الله عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا.

وطريقة أهل السنة والجماعة سلفًا وخلفًا: الإيمان بما وصف الله به نفسه في كتابه ووصفه به رسولهﷺ في سنته على ما يليق بجلال الله وعظمته، فيثبتون له ما أثبته لنفسه في كتابه وأثبته له رسولهﷺ ، وينفون عنه مشابهة المخلوق. فكما أن ذات الرب لا تشبه الذوات، فصفاته كذلك لا تشبه الصفات، فمن نفاها فقد سلبه الكمال.

---

(١) **ضعيف مرفوعًا**: البيهقي (٦٦٣، ٦٦٤) في الأسماء والصفات عن ابن مسعود رضي الله عنه، وموقوفًا على ابن مسعود وعلي، وصحّ عن سعيد بن المسيب.

(٢) **صحيح**: ابن ماجه (٣٨٤٦) في الدعاء عن عائشة رضي الله عنها وصححه الألباني.

(٥٦)



ما جاء في اللو

قال المصنف رحمه الله تعالى: باب (ما جاء في اللو).

ش: أي من الوعيد والنهي عنه عند الأمور المكروهة، كالمصائب إذا جرى بها القدر لما فيه من الإشعار بعدم الصبر والأسى على ما فات، مما لا يمكن استدراكه.

فالواجب التسليم للقدر، والقيام بالعبودية الواجبة وهو الصبر على ما أصاب العبد مما يكره. والإيمان بالقدر أصل من أصول الإيمان الستة.

وأدخل المصنف رحمه الله أداة التعريف على لو وهذه في هذا المقام لا تفيد تعريفًا كنظائرها، لأن المراد هذا اللفظ كما قال الشاعر:

رأيت الوليد بن اليزيد مباركًا شديدًا بأعباء الخلافة كاهله

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وقول الله عز وجل: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾[آل عمران: ١٥٤]).

ش: قاله بعض المنافقين يوم أحد، لخوفهم وجزعهم وخورهم.

قال بن إسحاق: فحدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه عن عبد الله بن الزبير قال: قال الزبير: لقد رأيتني مع رسول الله ﷺ حين اشتد الخوف علينا أرسل الله علينا النوم.

فما منا من رجل إلا ذقنه في صدره، قال: فوالله إني لأسمع قول معتب بن قشير ما أسمعه إلا كالحلم: لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ها هنا. فحفظتها منه، وفي ذلك أنزل الله عز وجل: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾[آل عمران: ١٥٤]

لقول معتب [١] رواه ابن أبي حاتم .

قال الله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ [آل عمران:١٥٤] أي هذا قدر مقدر من الله عز وجل وحكم حتم لازم لا محيد عنه ولا مناص منه .

قال المصنف رحمه الله تعالى: (﴿ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟﴾ [آل عمران:١٦٨] **قال العماد ابن كثير:** ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟﴾ **أي: لو سمعوا مشورتنا عليهم بالقعود وعدم الخروج ما قتلوا مع من قتل. قال الله تعالى:** ﴿قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [آل عمران:١٦٨] **أي إذا كان القعود يسلم به الشخص من القتل والموت، فينبغي لكم أن لا تموتوا، والموت لا بد آتٍ إليكم، ولو كنتم في بروج مشيدة، فادفعوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين)** .

قال مجاهد عن جابر بن عبد الله: نزلت هذه الآية في عبد الله بن أبي وأصحابه [٢] يعني أنه هو الذي قال ذلك .

وأخرج البيهقي عن أنس أن أبا طلحة قال: غشينا النعاس ونحن في مصافنا يوم أحد، فجعل سيفي يسقط وآخذه. قال: والطائفة الأخرى - المنافقون - ليس لها هم إلا أنفسهم، أجبن قوم، وأرعبه، وأخذله للحق ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ [آل عمران:١٥٤] إنما هم أهل ريب وشك بالله عز وجل [٣] .

قوله: ﴿قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ [آل عمران:١٥٤] يعني: لا يغشاهم النعاس عن القلق والجزع والخوف: ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ [آل عمران:١٥٤] .

قال شيخ الإسلام رحمه الله: لما ذكر ما وقع من عبد الله بن أبي في غزوة أحد قال: فلما انخزل يوم أحد وقال: يدع رأيي ورأيه ويأخذ برأي الصبيان؟ أو كما قال . . . انخزل معه خلق كثير، كان كثير منهم لم ينافق قبل ذلك. فأولئك كانوا

(١) **حسن:** البيهقي (٣/ ٢٧٣) في الدلائل، وابن أبي حاتم (٤٣٧٣) في تفسيره.

(٢) **ضعيف:** الطبري (٨٢٠٢) في تفسيره وفيه ابن جريج وهو مدلس.

(٣) **صحيح:** هذه رواية البيهقي (٣/ ٢٧٣) في الدلائل، وله رواية عند البخاري (٤٠٦٨) في المغازي.

مسلمين وكان معهم إيمان، هو الضوء الذي ضرب الله به المثل. فلو ماتوا قبل المحنة والنفاق ماتوا على الإسلام، ولم يكونوا من المؤمنين حقًّا الذين امتحنوا فثبتوا على المحنة، ولا من المنافقين حقًّا الذين ارتدوا عن الإيمان بالمحنة.

وهذا حال كثير من المسلمين في زماننا أو أكثرهم إذا ابتلوا بالمحنة التي يتضعضع فيها أهل الإيمان ينقص إيمانهم كثيرًا وينافق كثير منهم. ومنهم من يظهر الردة إذا كان العدو غالبًا.

وقد رأينا من هذا ورأى غيرنا من هذا ما فيه عبرة. وإذا كانت العافية، أو كان المسلمون ظاهرين على عدوهم كانوا مسلمين، وهم مؤمنون بالرسل باطنًا وظاهرًا، لكنه إيمان لا يثبت على المحنة، ولهذا يكثر في هؤلاء ترك الفرائض وانتهاك المحارم وهؤلاء من الذين قالوا: آمنا، فقيل لهم: ﴿لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤] أي: الإيمان المطلق الذي أهله هم المؤمنون حقًّا، فإن هذا هو الإيمان إذا أطلق في كتاب الله تعالى، كما دل عليه الكتاب والسنة، فلم يحصل لهم ريب عند المحن التي تقلقل الإيمان في القلوب، انتهى.

قوله: (وقد رأينا من هذا ورأى غيرنا ما فيه عبرة).

قلت: ونحن كذلك رأينا من ذلك ما فيه عبرة عند غلبة العدو، من إعانتهم العدو على المسلمين، والطعن في الدين، وإظهار العداوة والشماتة، وبذل الجهد في إطفاء نور الإسلام، وذهاب أهله، وغير ذلك مما يطول ذكره. والله المستعان.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (في الصحيح أي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «احرص على ما ينفعُك، واستعن بالله ولا تعجزن. وإن أصابك شيء فلا تقل: لو فعلت كذا لكان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل؛ فإن لو تفتح عمل الشيطان»).

ش: قوله: (في الصحيح) أي: صحيح مسلم (عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «احرص») الحديث [1].

(١) رواه مسلم (٢٦٦٤/ ٣٤) في القدر عن أبي هريرة رضي الله عنه.

اختصر المصنف رحمه الله هذا الحديث، وتمامه: عن النبي ﷺ أنه قال: **«المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير. احرص على ما ينفعك»** أي في معاشك ومعادك. والمراد: الحرص على فعل الأسباب التي تنفع العبد في دنياه وأخراه مما شرعه الله تعالى لعباده من الأسباب الواجبة والمستحبة والمباحة، فيكون العبد في حال فعله السبب مستعينًا بالله وحده دون كل ما سواه ليتم له سببه وينفعه. ويكون اعتماده على الله تعالى في ذلك، لأن الله تعالى هو الذي خلق السبب والمسبب، ولا ينفعه سبب إلا إذا نفعه الله به، فيكون اعتماده في فعل السبب على الله تعالى. ففعل السبب سنة، والتوكل على الله توحيد. فإذا جمع بينهما تم له مراده.

قوله: (ولا تعجزن) النون: نون التأكيد الخفيفة. نهاه ﷺ عن العجز وذمه، والعجز مذموم شرعًا وعقلاً.

وفي الحديث: **«الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني»** [(١)].

فأرشده ﷺ في هذا الحديث إذا أصابه ما يكره أن لا يقول: لو أني فعلت كذا لكان كذا وكذا. ولكن يقول: قدر الله وما شاء فعل، أي: هذا قدر الله والواجب التسليم للقدر، والرضى به، واحتساب الثواب عليه.

قوله: **«فإن لو تفتح عمل الشيطان»** أي: لما فيها من التأسف على ما فات والتحسر ولوم القدر، وذلك ينافي الصبر والرضى، والصبر واجب، والإيمان بالقدر فرض، قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: ٢٢-٢٣].

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه: الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد [(٢)].

---

(١) **ضعيف**: سبق تخريجه.

(٢) **ضعيف**: سبق تخريجه ضعيفًا مرفوعًا وموقوفًا.

وقال الإمام أحمد: ذكر الله الصبر في تسعين موضعًا من القرآن .

قال شيخ الإسلام رحمه الله - وذكر حديث الباب بتمامه - ثم قال في معناه: لا تعجز عن مأمور، ولا تجزع من مقدور، ومن الناس من يجمع كلا الشرين، فأمر النبي ﷺ بالحرص على النافع والاستعانة بالله .

والأمر يقتضي الوجوب، وإلا فالاستحباب، ونهى عن العجز وقال: «**إن الله يلوم على العجز**» [1] والعاجز ضد: الذين هم ينتصرون فالأمر بالصبر والنهي عن الجزع مأمور به في مواضع كثيرة، وذلك لأن الإنسان بين أمرين: أمْر أُمِرَ بفعله، فعليه أن يفعله ويحرص عليه ويستعين بالله ولا يعجز، وأمر أصيب به من غير فعله . فعليه أن يصبر عليه ولا يجزع منه .

ولهذا قال بعض العقلاء - ابن المقفع أو غيره - الأمور أمران: أمر فيه حيلة فلا تعجز عنه، وأمر لا حيلة فيه فلا تجزع منه .

وهذا في جميع الأمور لكن عند المؤمن: الذي فيه حيلة هو ما أمر الله به، وأحبه له . فإن الله لم يأمره إلا بما فيه حيلة له، إذ لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها، وقد أمره بكل خير له فيه حيلة . وما لا حيلة له فيه هو ما أصيب به من غير فعله . واسم الحسنات والسيئات يتناول قسمين:

فالأفعال: مثل قوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠]ومثل قوله تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ﴾ [الإسراء: ٧]ومثل قوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ﴾ [الشورى: ٤٠]ومثل قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾ [البقرة: ٨١]إلى آيات كثيرة من هذا الجنس والله أعلم .

والقسم الثاني: ما يجري على العبد بغير فعله من النعم والمصائب . كما قال تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ﴾ [النساء: ٧٩]والآية قبلها،

---

(١) **ضعيف**: أبو داود (٣٦٢٧) في الأقضية، أحمد (٦/ ٢٤) في المسند وضعفه الألباني في (تخريج الكلم) رقم (٣٧). وضعفه في عمل اليوم والليلة (٣٤٩) بترقيمي - عند ابن السني.

فالحسنة في هاتين الآيتين : النعم، والسيئة : المصائب، هذا هو الثاني من القسمين .

وأظن شيخ الإسلام رحمه الله ذكره في هذا الموضع ولعل الناسخ أسقطه والله أعلم .

ثم قال رحمه الله : فإن الإنسان ليس مأمورًا أن ينظر إلى القدر عندما يؤمر به من الأفعال ولكن عندما يجري عليه من المصائب التي لا حيلة له في دفعها، فما أصابك بفعل الآدميين أو بغير فعلهم فاصبر عليه وارض وسلم . قال تعالى : ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥۚ﴾ [التغابن :١١] ولهذا قال آدم لموسى : «**أتلومني على أمر قدره الله علي قبل أن أخلق بأربعين سنة؟ فحج آدم موسى**»؛ لأن موسى قال له : «**لماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة؟**» [(١)] فلامه على المصيبة التي حصلت بسبب فعله، لا لأجل كونها ذنبًا . وأما كونها لأجل الذنب - كما يظنه طوائف من الناس - فليس مرادًا بالحديث، فإن آدم عليه السلام كان قد تاب من الذنب . والتائب من الذنب كمن لا ذنب له . ولا يجوز لوم التائب باتفاق الناس، انتهى .

قال العلامة ابن القيم رحمه الله : فتضمن هذا الحديث أصولاً عظيمة من أصول الإيمان .

أحدها : أن الله سبحانه موصوف بالمحبة وأنه يحب حقيقة .

الثاني : أنه يحب مقتضى أسمائه وصفاته وما يوافقها، فهو القوي ويحب المؤمن القوي، وهو وتر يحب الوتر، وجميل يحب الجمال، وعليم يحب العلماء، ونظيف يحب النظافة، ومؤمن يحب المؤمنين، ومحسن يحب المحسنين، وصابر يحب الصابرين، وشاكر يحب الشاكرين .

ومنها : أن محبته للمؤمنين تتفاضل، فيحب بعضهم أكثر من بعض .

ومنها : أن سعادة الإنسان في حرصه على ما ينفعه في معاشه ومعاده، والحرص : هو بذل الجهد واستفراغ الوسع . فإذا صادف ما ينتفع به الحرص كان حرصه محمودًا

(١) رواه البخاري (٣٤٠٩) في أحاديث الأنبياء، مسلم (٢٦٥٢/ ١٥) في القدر عن أبي هريرة رضي الله عنه .

وكماله كله في مجموع هذين الأمرين: أن يكون حريصًا وأن يكون حرصه على ما ينتفع به، فإن حرص على ما لا ينفعه أو فعل ما ينفعه من غير حرص فاته من الكمال بقدر ما فاته من ذلك، فالخير كله في الحرص على ما ينفع.

ولما كان حرص الإنسان وفعله إنما هو بمعونة الله ومشيئته وتوفيقه أمره أن يستعين بالله ليجتمع له مقام: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] فإن حرصه على ما ينفعه عبادة لله تعالى. ولا يتم إلا بمعونته فأمره أن يعبده وأن يستعين به. فالحريص على ما ينفعه، المستعين بالله ضد العاجز، فهذا إرشاد له قبل وقوع المقدور إلى ما هو من أعظم أسباب حصوله، وهو الحرص عليه مع الاستعانة بمن أزمة الأمور بيده ومصدرها منه ومردها إليه. فإن فاته ما لم يقدر له فله حالتان: عجز. وهو مفتاح عمل الشيطان، فيلقيه العجز إلى «لو» ولا فائدة من «لو» ههنا بل هي مفتاح اللوم والعجز والسخط والأسف والحزن، وذلك كله من عمل الشيطان فنهاه ﷺ عن افتتاح عمله بهذا الافتتاح، وأمره بالحالة الثانية. وهي النظر إلى القدر وملاحظته وأنه لو قدر له لم يفته ولم يغلبه عليه أحد، فلم يبق له ها هنا أنفع من شهود القدر ومشيئة الرب النافذة التي توجب وجوب المقدور، وإن انتفت امتنع وجوده، ولهذا قال: «**فإن غلبك أمر فلا تقل: لو أني فعلت لكان كذا وكذا ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل**» فأرشده إلى ما ينفعه في الحالتين: حالة حصول المطلوب، وحالة فواته، فلهذا كان هذا الحديث مما لا يستغنى عنه العبد أبدًا، بل هو أشد إليه ضرورة، وهو يتضمن إثبات القدر والكسب والاختيار والقيام بالعبودية ظاهرًا وباطنًا في حالتي المطلوب وعدمه، وبالله التوفيق انتهى.



(٥٧)



النهي عن سب الريح

قال المصنف رحمه الله تعالى: باب (النهي عن سب الريح .

عن أبي بن كعب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تسبوا الريح فإذا رأيتم ما تكرهون فقولوا: اللهم إنا نسألك من خير هذه الريح وخير ما فيها وخير ما أمرت به، ونعوذ بك من شر هذه الريح وشر ما فيها وشر ما أمرت به» (١) . صححه الترمذي) .

ش: لأنها - أي الريح - إنما تهب عن إيجاد الله تعالى وخلقه لها وأمره . لأنه هو الذي أوجدها وأمرها، فمسبتها مسبة للفاعل، وهو الله سبحانه . كما تقدم في النهي عن سب الدهر وهذا يشبهه، ولا يفعله إلا أهل الجهل بالله ودينه وبما شرعه لعباده، فنهى ﷺ أهل الإيمان عما يقوله أهل الجهل والجفاء وأرشدهم إلى ما يجب أن يقال عند هبوب الرياح فقال: «إذا رأيتم ما تكرهون فقولوا: اللهم إنا نسألك من خير هذه الريح وخير ما فيها وخير ما أمرت به» يعني: إذا رأيتم ما تكرهون من الريح إذا هبت فارجعوا إلى ربكم بالتوحيد وقولوا: «اللهم إنا نسألك من خير هذه الريح وخير ما فيها، وخير ما أمرت به . ونعوذ بك من شر هذه الريح وشر ما فيها وشر ما أمرت به» .

ففي هذا عبودية لله وطاعة له ولرسوله، واستدفاع للشرور به، وتعرض لفضله ونعمته وهذه حال أهل التوحيد والإيمان، خلافًا لحال أهل الفسوق والعصيان الذين حرموا ذوق طعم التوحيد الذي هو حقيقة الإيمان .

---

(١) صحيح: الترمذي (٢٢٥٢) في الفتن وصححه الألباني وقال الترمذي: حسن صحيح وفي الباب عن عائشة، وأبي هريرة، وعثمان بن أبي العاص وأنس، وابن عباس، وجابر رضي الله عنهم جميعًا .

(٥٨)

باب

قول الله تعالى: ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ [آل عمران: ١٥٤]

قال المصنف رحمه الله تعالى: (باب قول الله تعالى: ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

وقوله: ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [الفتح: ٦].

قال ابن القيم في الآية الأولى: فُسِّر هذا الظن بأنه سبحانه لا ينصر رسوله، وأن أمره سيضمحل، وفُسِّر بأن ما أصابه لم يكن بقدر الله وحكمته، وفُسِّر بإنكار الحكمة، وإنكار القدر، وإنكار أن يتم أمر رسوله، وأن يُظهره الله على الدين كله.

وهذا هو ظن السوء الذي ظن المنافقون والمشركون في سورة الفتح، وإنما كان هذا ظن السوء؛ لأنه ظن غير ما يليق به سبحانه، وما يليق بحكمته وحمده ووعده الصادق. فمن ظن أنه يُديل الباطل على الحق إدالة مستقرة يضمحلُّ معها الحق، أو أنكر أن يكون ما جرى بقضائه وقدره، أو أنكر أن يكون لحكمة بالغة يستحق عليها الحمد، بل زعم أن ذلك لمشيئة مجردة. فذلك ظن الذين كفروا، فويل للذين كفروا من النار.

أكثر الناس يظنون بالله ظن السوء فيما يختص بهم وفيما يفعله بغيرهم، ولا يَسْلَمُ من ذلك إلا من عرف الله وأسماءه وصفاته، وموجب حكمته وحمده. فلْيَعْتَنِ اللبيب

الناصحُ لنفسه بهذا، وليتُب إلى الله وليَستَغفِره من ظنه بربه ظنَّ السوء.

ولو فتشت من فتشت لرأيت عنده تعنُّتًا على القدر وملامة له، وأنه كان ينبغي أن يكون كذا وكذا. فمستقل ومستكثر، وفتش نفسك: هل أنت سالم؟!

فإن تَنجُ منها تَنجُ من ذي عظيمة ... وإلا فإني لا إخالُك ناجيًا)

ش: قوله: باب قول الله تعالى: ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٖۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ﴾ [آل عمران: ١٥٤] الآية.

هذه الآية ذكرها الله في سياق قوله تعالى في ذكر وقعة أحد ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنۢ بَعۡدِ ٱلۡغَمِّ أَمَنَةٗ نُّعَاسٗا يَغۡشَىٰ طَآئِفَةٗ مِّنكُمۡۖ﴾ [آل عمران: ١٥٤] يعني أهل الإيمان والثبات والتوكل الصادق، وهم الجازمون بأن الله تعالى ينصر رسوله ﷺ وينجز له مأموله، ولهذا قال: ﴿وَطَآئِفَةٞ قَدۡ أَهَمَّتۡهُمۡ أَنفُسُهُمۡ﴾ [آل عمران: ١٥٤] يعني لا يغشاهم النعاس من الجزع والقلق والخوف ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِۖ﴾ [آل عمران: ١٥٤] كما قال تعالى: ﴿بَلۡ ظَنَنتُمۡ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهۡلِيهِمۡ أَبَدٗا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمۡ وَظَنَنتُمۡ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِ وَكُنتُمۡ قَوۡمَۢا بُورٗا﴾ [الفتح: ١٢].

وهكذا هؤلاء اعتقدوا أن المشركين لما ظهروا تلك الساعة ظنوا أنها الفيصلة، وأن الإسلام قد باد وأهله. وهذا شأن أهل الريب والشك إذا حصل أمر من الأمور الفظيعة تحصل لهم هذه الأمور الشنيعة.

عن ابن جريج قال: قيل لعبد الله بن أبي: قتل بنو الخزرج اليوم؟ قال: وهل لنا من الأمور من شيء؟ [(١)].

قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى في الكلام على ما تضمنته وقعة أحد: وقد فسر هذا الظن الذي لا يليق بالله سبحانه بأنه لا ينصر رسوله، وأن أمره سيضمحل وأنه يسلمه للقتل، وفسر بظنهم أن ما أصابهم لم يكن بقضاء الله وقدره ولا حكمة له فيه. ففسر بإنكار الحكمة. وإنكار القدر، وإنكار أن يتم أمر رسول الله ﷺ وأن يظهره على الدين كله.

---

(١) مرسل ضعيف: الطبري (٨٠٩٢) في تفسيره.

وهذا هو ظن السوء الذي ظنه المنافقون والمشركون في سورة الفتح حيث يقول: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [الفتح: ٦].

وإنما كان هذا هو ظن السوء وظن الجاهلية - وهو المنسوب إلى أهل الجهل - وظن غير الحق، لأنه ظن غير ما يليق بأسمائه الحسنى وصفاته العليا وذاته المبرأة من كل عيب وسوء، وخلاف ما يليق بحكمته وحمده وتفرده بالربوبية والإلهية، وما يليق بوعده الصادق الذي لا يخلفه، وبكلمته التي سبقت لرسله أنه ينصرهم ولا يخذلهم. ولجنده بأنهم هم الغالبون.

فمن ظن به أنه لا ينصر رسوله ولا يتم أمره ولا يؤيده ويؤيد حزبه ويعليهم ويظفرهم بأعدائهم ويظهرهم، وأنه لا ينصر دينه وكتابه، وأنه يديل الشرك على التوحيد، والباطل على الحق إدالة مستقرة، يضمحل معها التوحيد والحق اضمحلالاً لا يقوم بعده أبدًا: فقد ظن بالله ظن السوء، ونسبه إلى خلاف ما يليق بجلاله وكماله وصفاته ونعوته، فإن حمده وعزته وحكمته وإلهيته تأبى ذلك وتأبى أن يذل حزبه وجنده، وأن تكون النصرة المستقرة والظفر الدائم لأعدائه المشركين به العادلين به.

فمن ظن به ذلك فما عرفه ولا عرف أسماءه ولا عرف صفاته وكماله. وكذلك من أنكر أن يكون ذلك بقضائه وقدره. فما عرفه ولا عرف ربوبيته وملكه وعظمته. وكذلك من أنكر أن يكون قدر ما قدره من ذلك وغيره لحكمة بالغة وغاية محمودة يستحق الحمد عليها، وأن ذلك إنما صدر عن مشيئة مجردة عن حكمة وغاية مطلوبة هي أحب إليه من فواتها. وأن تلك الأسباب المكروهة له المفضية إليها، لا يخرج تقديرها عن الحكمة، لإفضائها إلى ما يحب وإن كانت مكروهة له، فما قدرها سدى ولا شاءها عبثًا ولا خلقها باطلاً: ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص: ٢٧].

وأكثر الناس يظنون بالله غير الحق ظن السوء فيما يختص بهم، وفيما يفعله بغيرهم، ولا يسلم من ذلك إلا من عرف الله وعرف أسماءه وصفاته، وعرف موجب حكمته وحمده.

فمن قنط من رحمته وأيس من روحه فقد ظن به ظن السوء. ومن جوز عليه أن

يعذب أولياءه مع إحسانهم وإخلاصهم ويسوي بينهم وبين أعدائه: فقد ظن به ظن السوء. ومن ظن أن يترك خلقه سدى معطلين عن الأمر والنهي، ولا يرسل إليهم رسله ولا ينزل عليهم كتبه بل يتركهم هملاً كالأنعام فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن أنه لن يجمع عبيده بعد موتهم للثواب والعقاب في دار يجازى المحسن فيها بإحسانه والمسيء بإساءته، ويبين لخلقه حقيقة ما اختلفوا فيه ويظهر للعالمين كلهم صدقه وصدق رسله، وأن أعداءه كانوا هم الكاذبين فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن أنه يضيع عليه عمله الصالح الذي عمله خالصًا لوجهه على امتثال أمره، ويبطله عليه بلا سبب من العبد، وأنه يعاقبه بما لا صنع له فيه ولا اختيار له ولا قدرة ولا إرادة له في حصوله، بل يعاقبه على فعله هو سبحانه به، أو ظن به أنه يجوز عليه أن يؤيد أعداءه الكاذبين عليه بالمعجزات التي يؤيد بها أنبياءه ورسله ويجريها على أيديهم ليضلوا بها عباده، وأنه يحسن منه كل شيء حتى تعذيب من أفنى عمره في طاعته فيخلده في الجحيم في أسفل سافلين، وينعم من استنفد عمره في عداوته وعداوة رسله ودينه فيرفعه إلى أعلى عليين، وكلا الأمرين في الحسن عنده سواء، ولا يعرف امتناع أحدهما ووقوع الآخر إلا بخبر صادق، وإلا فالعقل لا يقضي بقبح أحدهما وحسن الآخر: فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن أنه أخبر عن نفسه وصفاته وأفعاله بما ظاهره باطل وتشبيه وتمثيل، وترك الحق لم يخبر به وإنما رمز إليه رموزًا بعيدة، وأشار إليه إشارات ملغز لم يصرح به وصرح دائمًا بالتشبيه والتمثيل والباطل، وأراد من خلقه أن يتعبوا أذهانهم وقواهم وأفكارهم في تحريف كلامه عن مواضعه، وتأويله على غير تأويله، ويتطلبوا له وجوه الاحتمالات المستكرهة والتأويلات التي هي بالألغاز والأحاجي أشبه منها بالكشف والبيان، وأحالهم في معرفة أسمائه وصفاته على عقولهم وآرائهم لا على كتابه. بل أراد منهم ألا يحملوا كلامه على ما يعرفونه من خطابهم ولغتهم، مع قدرته على أن يصرح لهم بالحق الذي ينبغي التصريح به، ويريحهم من الألفاظ التي توقعهم في اعتقاد الباطل فلم يفعل، بل سلك بهم خلاف طريق الهدى والبيان. فقد ظن به ظن السوء، فإنه إن قال: إنه غير قادر على التعبير عن الحق باللفظ الصريح الذي عبر به هو

وسلفه: فقد ظن بقدرته العجز، وإن قال: إنه قادر ولم يبين، وعدل عن البيان وعن التصريح بالحق إلى ما يوهم، بل يوقع في الباطل المحال والاعتقاد الفاسد: فقد ظن بحكمته ورحمته ظن السوء.

ومن ظن أنه هو وسلفه عبروا عن الحق بصريحه دون الله ورسوله. وأن الهدى والحق في كلامهم وعباراتهم وأما كلام الله فإنما يؤخذ من ظاهره التشبيه والتمثيل والضلال وظاهر كلام المتهوكين والحيارى هو الهدى والحق فهذا أسوأ الظن بالله.

فكل هؤلاء من الظانين بالله ظن السوء ومن الظانين بالله غير الحق ظن الجاهلية.

ومن ظن به أن يكون في ملكه ما لا يشاء ولا يقدر على إيجاده وتكوينه، فقد ظن بالله ظن السوء.

ومن ظن أنه كان معطلاً من الأزل إلى الأبد عن أن يفعل، ولا يوصف حينئذ بالقدرة على الفعل ثم صار قادرًا عليه بعد أن لم يكن قادرًا، فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن به أنه لا يسمع ولا يبصر ولا يعلم الموجودات، ولا عدد السموات ولا النجوم، ولا بني آدم وحركاتهم وأفعالهم، ولا يعلم شيئًا من الموجودات في الأعيان، فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن به أنه لا سمع له ولا بصر ولا علم ولا إرادة، ولا كلام يقوم به، وأنه لا يكلم أحدًا من الخلق ولا يتكلم أبدًا، ولا قال، ولا يقول، ولا له أمر ولا نهي يقوم به، فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن به أنه ليس فوق سمواته على عرشه، بائنًا من خلقه، وأن نسبة ذاته إلى عرشه كنسبتها إلى أسفل سافلين، وإلى الأمكنة التي يُرغَب عن ذكرها، وأنه أسفل كما أنه أعلى، وأنه من قال: سبحان ربي الأسفل كان كمن قال: سبحان ربي الأعلى. فقد ظن به أقبح الظن وأسوأه.

ومن ظن أنه يحب الكفر والفسوق والعصيان، ويحب الفساد كما يحب الإيمان والبر والطاعة والإصلاح، فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن به أنه لا يحب ولا يرضى، ولا يغضب ولا يسخط، ولا يوالي ولا

يعادي، ولا يقرب من أحد من خلقه، ولا يقرب منه أحد. وأن ذوات الشياطين في القرب من ذاته كذوات الملائكة المقربين وأوليائه المفلحين. فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن به أنه يسوي بين المتضادين، أو يفرق بين المتساويين من كل وجه، أو يحبط طاعات العمر المديد الخالصة الصواب بكبيرة واحدة تكون بعدها، فيخلد فاعل تلك الطاعات في الجحيم أبد الآبدين بتلك الكبيرة، ويحبط بها جميع طاعاته ويخلده في العذاب كما يخلد من لم يؤمن به طرفة عين، واستنفد ساعات عمره في مساخطه ومعاداة رسله ودينه، فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن به أن له ولدًا أو شريكًا، أو أن أحدًا يشفع عنده بدون إذنه، أو أن بينه وبين خلقه وسائط يرفعون حوائجهم إليه، وأنه نصب لعباده أولياء من دونه يتقربون بهم إليه، ويتوسلون بهم إليه، ويجعلونهم وسائط بينه وبينهم، فيدعونهم ويخافونهم ويرجونهم فقد ظن به أقبح الظن وأسوأه.

ومن ظن به أنه ينال ما عنده بمعصيته ومخالفته، كما يُنال بطاعته والتقرب إليه، فقد ظن به خلاف حكمته وخلاف موجب أسمائه وصفاته وهو من ظن السوء.

ومن ظن به أنه إذا ترك شيئًا من أجله لم يعوضه خيرًا منه، أو من فعل شيئًا لأجله لم يعطه أفضل منه، فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن به أنه يغضب على عبده ويعاقبه ويحرمه بغير جرم ولا سبب من العبد إلا بمجرد المشيئة ومحض الإرادة فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن به أنه إذا صدقه في الرغبة والرهبة وتضرع إليه وسأله واستعان به وتوكل عليه أنه يخيبه ولا يعطيه ما سأله، فقد ظن به ظن السوء. وظن به خلاف ما هو أهله.

ومن ظن أنه يثيبه إذا عصاه كما يثيبه إذا أطاعه، وسأله ذلك في دعائه، فقد ظن به خلاف ما تقتضيه حكمته وحمده، وخلاف ما هو أهله وما لا يفعله.

ومن ظن به أنه إذا أغضبه وأسخطه وأوضع في معاصيه ثم اتخذ من دونه أولياء ودعا من دونه ملكًا أو بشرًا حيًا أو ميتًا يرجو بذلك أن ينفعه عند ربه ويخلصه من عذابه، فقد ظن به ظن السوء.

فأكثر الخلق بل كلهم - إلا من شاء الله - يظنون بالله غير الحق وظن السوء، فإن غالب بني آدم يعتقد أنه مبخوس الحق ناقص الحظ، وأنه يستحق فوق ما شاءه الله وأعطاه. ولسان حاله يقول: ظلمني ربي ومنعني ما أستحقه ونفسه تشهد عليه بذلك، وهو بلسانه ينكره ولا يتجاسر على التصريح به.

ومن فتش نفسه وتغلغل في معرفة طواياها رأي ذلك فيها كامنًا كمون النار في الزناد، فاقدح زناد من شئت ينبئك شراره عما في زناده، ولو فتشت من فتشت لرأيت عنده تعنتًا وتعتبًا على القدر وملامة له واقتراحًا عليه خلاف ما جرى به، وأنه كان ينبغي أن يكون كذا وكذا. فمستقل ومستكثر، وفتش نفسك هل أنت سالم؟

فإن تنج منها تنج من ذي عظيمة   وإلا فإني لا إخالك ناجيًا

فليعتن اللبيب الناصح لنفسه بهذا الموضع، وليتب إلى الله ويستغفره في كل وقت من ظنه بربه ظن السوء، وليظن السوء بنفسه التي هي مادة كل سوء ومنبع كل شر، المركبة على الجهل والظلم. فهي أولى بظن السوء من أحكم الحاكمين، وأعدل العادلين، وأرحم الراحمين، الغني الحميد، الذي له الغنى التام، والحمد التام، والحكمة التامة، المنزه عن كل سوء في ذاته وصفاته وأفعاله وأسمائه، فذاته لها الكمال المطلق من كل وجه، وصفاته كذلك، وأفعاله كلها حكمة ومصلحة ورحمة وعدل، وأسماؤه كلها حسنى.

فلا تظنن بربك ظن سوء   فإن الله أولى بالجميل
ولا تظنن بنفسك قط خيرًا   فكيف بظالم جانٍ جهول
وقل يا نفس مأوى كل سوء   أترجو الخير من ميت بخيل؟!
وظن بنفسك السوآى تجدها   كذاك وخيرها كالمستحيل
وما بك من تُقّي فيها وخير   فتلك مواهب الرب الجليل
وليس لها ولا منها ولكن   من الرحمن فاشكر للدليل

قوله: ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِ﴾ [الفتح: ٦] قال ابن جرير في تفسيره: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِ﴾ [الفتح: ٦] الظانين بالله أنه لن ينصرك وأهل الإيمان بك على أعدائك، ولن يظهر كلمته فيجعلها العليا على كلمة

الكافرين به . وذلك كان السوء من ظنونهم التي ذكرها الله في هذا الموضع .

يقول تعالى ذكره : على المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الذين ظنوا هذا الظن : دائرة السوء . يعني : دائرة العذاب تدور عليهم به .

واختلف القراء في قراءة ذلك : فقرأته عامة قراء الكوفة : ﴿دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۖ﴾ بفتح السين . وقرأ بعض قراء البصرة : ﴿دَائِرَةُ السُّوءِ﴾ بضم السين . وكان الفراء يقول : الفتح أفشى في السين . وقلَّ ما تقول العرب : «دَائِرَةُ السُّوءِ» بضم السين .

قوله : ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾ يعني : ونالهم الله بغضب منه . ﴿وَلَعَنَهُمۡ﴾ يقول : وأبعدهم فأقصاهم من رحمته ﴿وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَهَنَّمَۖ﴾ يقول : وأعد لهم جهنم يصلونها يوم القيامة ﴿وَسَآءَتۡ مَصِيرٗا﴾ يقول : وساءت جهنم منزلاً يصير إليه هؤلاء المنافقون والمنافقات والمشركون والمشركات .

وقال العماد ابن كثير رحمه الله تعالى : ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِۚ﴾ [الفتح :٦]أي : يتهمون الله في حكمه ويظنون بالرسول ﷺ وأصحابه أن يقتلوا ويذهبوا بالكلية . ولهذا قال تعالى : ﴿عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۖ﴾ وذكر في معنى الآية الأخرى نحوًا مما ذكره ابن جرير رحمهما الله تعالى .

قوله : (قال ابن القيم رحمه الله تعالى) الذي ذكره المصنف في المتن قدمته لاندراجه في كلامه الذي سقته من أوله إلى آخره .



(٥٩)



ما جاء في منكري القدر

قال المصنف رحمه الله تعالى: باب (ما جاء في منكري القدر).

ش: أي من الوعيد الشديد ونحو ذلك.

أخرج أبو داود عن عبد العزيز بن أبي حازم عن أبيه عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «**القدرية مجوس هذه الأمة، إن مرضوا فلا تعودوهم. وإن ماتوا فلا تشهدوهم**»(١).

وعن عمر مولى غفرة عن رجل من الأنصار عن حذيفة - وهو ابن اليمان - رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**لكل أمة مجوس، ومجوس هذه الأمة الذين يقولون: لا قدر، من مات منهم فلا تشهدوا جنازته، ومن مرض منهم فلا تعودوه، وهم شيعة الدجال، وحق على الله أن يلحقهم بالدجال**»(٢).

قال المصنف رحمه الله تعالى: (قال ابن عمر: والذي نفس ابن عمر بيده، لو كان لأحدهم مثل أحد ذهبًا، ثم أنفقه في سبيل الله ما قبله الله منه، حتى يؤمن بالقدر. ثم استدل بقول النبي ﷺ: «الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته، وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره». رواه مسلم).

---

(١) ضعيف: أبو داود (٤٦٩٢) في السُّنة وضعفه الألباني هناك ورواه ابن أبي عاصم (١/ ١٤٢) عن معاذ في السنة وضعفه الألباني، وعن أبي هريرة (١/ ١٤٧) وضعفه الألباني، وعن عائشة (١/ ١٤٦) وضعفه الألباني، وعن جابر كما عند ابن ماجه (٩٢) في المقدمة. قلت: والصواب وقفه.
(٢) ضعيف: أحمد (٥/ ٤٠٦ - ٤٠٧) في المسند، أبو داود (٤٦٩٢) في السُّنة وضعفه الألباني.

ش: حديث ابن عمر هذا: أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه عن يحيى بن يعمر قال: كان أول من تكلم في القدر بالبصرة معبد الجهني، فانطلقت أنا وحميد بن عبد الرحمن الحميري حاجين، أو معتمرين. فقلنا: لو لقينا أحدًا من أصحاب رسول الله ﷺ فسألناه عما يقول هؤلاء في القدر؟ فوفق الله تعالى لنا عبد الله بن عمر داخلاً في المسجد، فاكتنفته أنا وصاحبي، فظننت أن صاحبي سيكل الكلام إليَّ، فقلت: أبا عبد الرحمن، إنه قد ظهر قبلنا أناس يقرءون القرآن، ويتقفرون العلم يزعمون أن لا قدر، وأن الأمر أُنف، فقال: إذا لقيت أولئك فأخبرهم أني منهم بريء، وأنهم مني برآء. والذي يحلف به عبد الله بن عمر لو أن لأحدهم مثل أحد ذهبًا فأنفقه في سبيل الله ما قبله الله منه، حتى يؤمن بالقدر.

ثم قال: حدثني عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد. حتى جلس إلى النبي ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه. وقال: يا محمد أخبرني عن الإسلام. قال رسول الله ﷺ: «**الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً**». قال: صدقت. فعجبنا له يسأله ويصدقه. قال: فأخبرني عن الإيمان. قال: «**أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره**»، قال: صدقت. قال: فأخبرني عن الإحسان، قال: «**أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك**». قال: فأخبرني عن الساعة، قال: «**ما المسئول عنها بأعلم من السائل**». قال: فأخبرني عن أماراتها قال: «**أن تلد الأمة ربتها، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان**». قال: فانطلق. فلبثت ثلاثًا، وفي رواية مليًا، ثم قال: «**يا عمر أتدري من السائل؟**» قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «**فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم**» [١].

ففي هذا الحديث: أن الإيمان بالقدر من أصول الإيمان الستة المذكورة، فمن لم يؤمن بالقدر خيره وشره فقد ترك أصلاً من أصول الدين وجحده، فيشبه من قال الله

---

(١) رواه مسلم (٨) في الإيمان.

فيهم: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة:٨٥].

قال المصنف رحمه الله تعالى: وعن عُبادة بن الصامت، أنه قال لابنه: يا بُني، إنك لن تجد طَعْمَ الإيمان، حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك؛ سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب، فقال: ربِّ وماذا أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة» يا بُني، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من مات على غير هذا فليس مني» [(١)].

وفي رواية لأحمد: «إن أول ما خلق الله تعالى القلم، فقال له: اكتب فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة» [(٢)].

وفي رواية لابن وهب، قال رسول الله ﷺ: «فمن لم يؤمن بالقدر خيره وشره: أحرقه الله بالنار» [(٣)].

ش: قوله: (وعن عبادة)، قد تقدم ذكره في باب فضل التوحيد، وحديثه هذا رواه أبو داود.

ورواه الإمام أحمد بكماله قال: حدثنا الحسن بن سوار حدثنا ليث عن معاوية عن أيوب بن زياد، حدثني عبادة بن الوليد بن عبادة حدثني أبي قال: دخلت على عبادة وهو مريض أتخايل فيه الموت، فقلت: يا أبتاه أوصني واجتهد لي، فقال: أجلسوني. قال: يا بني إنك لن تجد طعم الإيمان، ولن تبلغ حقيقة العلم بالله حتى تؤمن بالقدر خيره وشره، قلت: يا أبتاه فكيف لي أن أعلم ما خير القدر وشره؟ قال: تعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك، يا بني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب، فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة**». يا بني، إن مت ولست على ذلك دخلت النار [(٤)].

---

(١) **صحيح**: أبو داود (٤٧٠٠) في السُّنة وصححه الألباني هناك.

(٢) هذه رواية أحمد (٥/٣١٧) ويشهد له السابق.

(٣) رواه ابن أبي عاصم (١١١) في السنة وهو صحيح.

(٤) **صحيح**: الترمذي (٢١٤٤) في القدر وصححه الألباني هناك.

ورواه الترمذي بسنده المتصل إلى عطاء بن أبي رباح عن الوليد بن عبادة عن أبيه، وقال: حسن صحيح وغريب.

وفي هذا الحديث ونحوه: بيان شمول علم الله تعالى وإحاطته بما كان وما يكون في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق: ١٢].

وقد قال الإمام أحمد رحمه الله لما سئل عن القدر قال: القدر: قدرة الرحمن واستحسن ابن عقيل هذا من أحمد رحمه الله.

والمعنى: أنه لا يمنع عن قدرة الله شيء. ونفاة القدر قد جحدوا كمال قدرة الله تعالى فضلوا عن سواء السبيل.

وقد قال بعض السلف: ناظروهم بالعلم، فإن أقروا به خُصموا، وإن جحدوه كفروا.

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: والناس في باب خلق الرب وأمره، ولِمَ فعل ذلك، على طرفين ووسط:

فالقدرية من المعتزلة وغيرهم قصدوا تعظيم الرب تعالى؛ بتنزيهه عما ظنوه قُبحًا من الأفعال وظلمًا. فأنكروا عموم قدرته ومشيئته، ولم يجعلوه خالقًا لشيء، ولا أنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن. بل قالوا: يشاء ما لا يكون، ويكون ما لا يشاء. ثم إنهم وضعوا لربهم شريعة فيما يجب عليه ويحرم بالقياس على أنفسهم، وتكلَّموا في التقدير والتجويز بهذا القياس الفاسد الذي شبَّهوا فيه الخالق بالمخلوق، فضلُّوا وأضلوا!!.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وفي (المسند)، و(السنن)، عن ابن الديلمي، قال: أتيتُ أُبَيَّ بن كعب، فقلت: في نفسي شيء من القدر، فحدثني بشيء لعل الله يُذهبه من قلبي، فقال: لو أنفقت مثل أحد ذهبًا ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقدر، وتعلم أنَّ ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك. ولو مُت على غير هذا لكنت من أهل النار، قال: فأتيت عبد الله بن مسعود، وحذيفة بن اليمان، وزيد بن ثابت،

فكلهم حدثني بمثل ذلك عن النبيﷺ . حديثٌ صحيح، رواه الحاكم في صحيحه) .

ش: قوله : (وفي المسند وسنن أبي داود عن ابن الديلمي) وهو أبو بسر - بالسين المهملة، وبالباء المضمومة . ويقال: أبو بشر - بالشين المعجمة وكسر الباء - وبعضهم صحح الأول . واسمه عبد الله بن فيروز .

ولفظ أبي داود قال: لو أن الله عذب أهل سمواته وأهل أرضه، عذبهم وهو غير ظالم لهم . ولو رحمهم لكانت رحمته خيرًا لهم من أعمالهم . ولو أنفقت مثل أحد ذهبًا ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقدر، وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك، ولو مت على غير هذا لكنت من أهل النار . قال: فأتيت عبد الله بن مسعود فقال مثل ذلك قال: ثم أتيت حذيفة بن اليمان فقال مثل ذلك، قال: ثم أتيت زيد بن ثابت، قال: فحدثني عن النبيﷺ مثل ذلك وأخرجه ابن ماجه[1] .

وقال العماد ابن كثير رحمه الله: عن سفيان عن منصور عن ربعي بن حراش عن رجل عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال رسول اللهﷺ : «**لا يؤمن عبد حتى يؤمن بأربع: يشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله بعثني بالحق، ويؤمن بالبعث بعد الموت، ويؤمن بالقدر خيره وشره**»[2] وكذا رواه الترمذي عن النضر بن شميل عن شعبة عن منصور به . ورواه من حديث أبي داود الطيالسي عن شعبة عن ربعي عن علي فذكره .

وقد ثبت في صحيح مسلم من رواية عبد الله بن وهب وغيره عن أبي هانئ الخولاني عن أبي عبد الرحمن الحُبُلي عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول اللهﷺ : «**إن الله كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة - زاد ابن وهب - وكان عرشه على الماء**»[3] رواه الترمذي وقال:

---

(١) **صحيح:** أبو داود (٤٦٩٩) في السنة وصححه الألباني.

(٢) **صحيح:** الترمذي (٢١٤٥ مكرر) في القدر موقوفًا، و (٢١٤٥) في القدر مرفوعًا وصححه الألباني.

(٣) مسلم (٢٦٥٣) في القدر.

حديث حسن غريب .

وكل هذه الأحاديث وما في معناها فيها : الوعيد الشديد على عدم الإيمان بالقدر وهي الحجة على نفاة القدر من المعتزلة وغيرهم . ومن مذهبهم : تخليد أهل المعاصي في النار . وهذا الذي اعتقدوه من أكبر الكبائر وأعظم المعاصي .

وفي الحقيقة : إذا اعتبرنا إقامة الحجة عليهم بما تواترت به نصوص الكتاب والسنة من إثبات القدر فقد حكموا على أنفسهم بالخلود في النار إن لم يتوبوا . وهذا لازم لهم على مذهبهم هذا، وقد خالفوا ما تواترت به أدلة الكتاب والسنة من إثبات القدر، وعدم تخليد أهل الكبائر من الموحدين في النار .



(٦٠)



ما جاء في المصورين

قال المصنف رحمه الله تعالى: (باب ما جاء في المصورين.

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى: ومَن أظلمُ ممن ذهب يخلقُ كخلقي، فليخلقوا ذرَّة أو ليخلقوا حبةً، أو ليخلقوا شَعيرة»[1] أخرجاه.

ولهما: عن عائشة: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «أشدُّ الناس عذابًا يوم القيامة الذين يُضاهئون بخلق الله»[2].

ولهما: عن ابن عباس: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كل مصوِّر في النار، يُجعل له بكل صورةٍ صوَّرها نفسٌ يعذب بها في جهنم»[3].

ولهما: وعنه مرفوعًا: «من صوَّر صورةً في الدنيا كُلِّف أنْ ينفخ فيها الروح، وليس بنافخ»[4]).

ش: قوله: (بابُ ما جاء في المصوِّرين).

أي: من عظيم عقوبة الله لهم وعذابه. وقد ذكر النبي ﷺ العلة: وهي المضاهاة بخلق الله، لأن الله تعالى له الخلق والأمر، فهو رب كل شيء ومليكه، وهو خالق كل شيء وهو الذي صور جميع المخلوقات، وجعل فيها الأرواح التي تحصل بها

(١) رواه البخاري (٥٩٥٣) في اللباس، مسلم (٢١١١) في اللباس والزينة.
(٢) رواه البخاري (٥٩٥٤) في اللباس، مسلم (٢١٠٧) في اللباس والزينة.
(٣) رواه البخاري (٢٢٢٥) في البيوع، مسلم (٢١١٠/ ١٠٠، ١٠٠ مكرر) في اللباس والزينة.
(٤) رواه البخاري (٥٩٦٣) في اللباس، مسلم (٢١١٠) في اللباس.

الحياة، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [السجدة: ٧-٩].

فالمصور لما صور الصورة على شكل ما خلقه الله تعالى من إنسان وبهيمة صار مضاهيًا لخلق الله. فصار ما صوره عذابًا له يوم القيامة، وكلف أن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ. فكان أشد الناس عذابًا، لأن ذنبه من أكبر الذنوب.

فإن كان هذا فيمن صور صورة على مثال ما خلقه الله تعالى من الحيوان، فكيف بحال من سوى المخلوق برب العالمين وشبهه بخلقه، وصرف له شيئًا من العبادة التي ما خلق الله الخلق إلا ليعبدوه وحده بما لا يستحقه غيره من كل عمل يحبه الله من العبد ويرضاه؟

فتسوية المخلوق بالخالق بصرف حقه لمن لا يستحقه من خلقه، وجعله شريكًا له فيما اختص به تعالى وتقدس، هو أعظم ذنب عُصي الله تعالى به. ولهذا أرسل رسله وأنزل كتبه لبيان هذا الشرك والنهي عنه، وإخلاص العبادة بجميع أنواعها لله تعالى. فنجى الله تعالى رسله ومن أطاعهم. وأهلك من جحد التوحيد، واستمر على الشرك والتنديد، فما أعظمه من ذنب: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨] ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١].

قال المصنف رحمه الله تعالى: ولمسلم، عن أبي الهيَّاج، قال: قال لي عليٌّ: ألا أبعثُك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ؟ «أن لا تَدَعَ صورةً إلا طمَسْتها، ولا قَبْرًا مُشرِفًا إلا سوَّيته» [(١)].

ش: قوله: (ولمسلم عن أبي الهياج) الأسدي حيان بن حصين.

قال: قال لي علي رضي الله عنه، هو أمير المؤمنين على بن أبي طالب رضي الله عنه.

---

(١) رواه مسلم (٩٦٩) في الجنائز.

قوله: ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ؟ أن لا تدع صورة إلا طمستها ولا قبرًا مشرفًا إلا سويته.

فيه: تصريح بأن النبي ﷺ بعث عليًا لذلك. أما الصور: فلمضاهاتها لخلق الله. وأما تسوية القبور: فلما في تعليتها من الفتنة بأربابها وتعظيمها، وهو من ذرائع الشرك ووسائله. فصرف الهمم إلى هذا وأمثاله من مصالح الدين ومقاصده وواجباته. ولما وقع التساهل في هذه الأمور وقع المحذور، وعظمت الفتنة بأرباب القبور، وصارت محطًا لرحال العابدين المعظمين لها. فصرفوا لها جل العبادة: من الدعاء والاستعانة والاستغاثة، والتضرع لها، والذبح لها، والنذور، وغير ذلك من كل شرك محظور.

قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى: ومن جمع بين سنة رسول الله ﷺ في القبور وما أمر به ونهى عنه وما كان عليه أصحابه، وبين ما عليه أكثر الناس اليوم. رأى أحدهما مضادًا للآخر، مناقضًا له بحيث لا يجتمعان أبدًا.

فنهى رسول الله ﷺ عن الصلاة إلى القبور، وهؤلاء يصلون عندها وإليها.

ونهى عن اتخاذها مساجد، وهؤلاء يبنون عليها المساجد، ويسمونها مشاهد مضاهاة لبيوت الله. ونهى عن إيقاد السرج عليها وهؤلاء يوقفون الوقوف على إيقاد القناديل عليها.

ونهى عن أن تتخذ عيدًا، وهؤلاء يتخذونها أعيادًا ومناسك، ويجتمعون لها كاجتماعاتهم للعيد أو أكثر. وأمر بتسويتها، كما روى مسلم في صحيحه عن أبي الهياج الأسدي - فذكر حديث الباب - وحديث ثمامة بن شُفي وهو عند مسلم أيضًا قال: كنا مع فَضالة بن عبيد بأرض الروم برُودس، فتوفي صاحب لنا، فأمر فضالة بقبره فسوي، ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يأمر بتسويتها.

وهؤلاء يبالغون في مخالفة هذين الحديثين، ويرفعونها عن الأرض كالبيت، ويعقدون عليها القباب. ونهى عن تجصيص القبر والبناء عليه. كما روى مسلم في صحيحه عن جابر رضي الله عنه قال: نهى رسول الله ﷺ عن تجصيص القبر وأن يقعد عليه، وأن يبني عليه.

ونهى عن الكتابة عليها، كما روى أبو داود في سننه عن جابر: أن رسول الله ﷺ: (نهى عن تجصيص القبور، وأن يكتب عليها) قال الترمذي: حديث حسن صحيح. وهؤلاء يتخذون عليها الألواح، ويكتبون عليها القرآن وغيره!

ونهى أن يزاد عليها غير ترابها. كما روى أبو داود عن جابر أيضًا: أن رسول الله ﷺ نهى أن يجصص القبر، أو يكتب عليه، أو يزاد عليه وهؤلاء يزيدون عليه الآجر والجص والأحجار. قال إبراهيم النخعي: كانوا يكرهون الآجر على قبورهم.

والمقصود: أن هؤلاء المعظمين للقبور المتخذينها أعيادًا، الموقدين عليها السرج، الذين يبنون عليها المساجد والقباب - مناقضون لما أمر به رسول الله ﷺ محادون لما جاء به، وأعظم ذلك اتخاذها مساجد، وإيقاد السرج عليها. وهو من الكبائر. وقد صرح الفقهاء من أصحاب أحمد وغيرهم بتحريمه.

قال أبو محمد المقدسي: ولو أبيح اتخاذ السرج عليها لم يلعن من فعله. ولأن فيه تضييعًا للمال في غير فائدة وإفراطًا في تعظيم القبور أشبه تعظيم الأصنام.

قال: ولا يجوز اتخاذ المساجد على القبور لهذا الخبر، ولأن النبي ﷺ قال: «**لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**». يحذر ما صنعوا. متفق عليه (١).

ولأن تخصيص القبور بالصلاة عندها يشبه تعظيم الأصنام بالسجود لها والتقرب إليها، وقد روينا أن ابتداء عبادة الأصنام تعظيم الأموات باتخاذ صورهم، والتمسح بها والصلاة عندها. انتهى.

وقد آل الأمر بهؤلاء الضُّلَّال المشركين إلى أن شرعوا للقبور حجًّا. ووضعوا لها مناسك حتى صنف بعض غلاتهم في ذلك كتابًا وسماه: مناسك حج المشاهد مضاهاة منه للقبور بالبيت الحرام.

---

(١) رواه البخاري (٤٣٥ - ٤٣٦) في الصلاة، مسلم (٥٣١/ ٢٢) في المساجد ومواضع الصلاة عن عائشة وابن عباس رضي الله عنهم.

ولا يخفى أن هذا مفارقة لدين الإسلام، ودخول في دين عباد الأصنام، فانظر إلى هذا التباين العظيم: بين ما شرعه رسول الله ﷺ وقصده، من النهي عما تقدم ذكره في القبور، وبين ما شرعه هؤلاء وقصدوه.

ولا ريب أن في ذلك من المفاسد ما يعجز عن حصره.

فمنها: تعظيمها الموقع في الافتتان بها.

ومنها: اتخاذها أعيادًا.

ومنها: السفر إليها.

ومنها: مشابهة عبادة الأصنام بما يفعل عندها من العكوف عليها والمجاورة عندها وتعليق الستور عليها وسدانتها، وعبادها يرجحون المجاورة عندها على المجاورة عند المسجد الحرام، ويرون سدانتها أفضل من خدمة المساجد، والويل عندهم لقيمها ليلة يطفئ القنديل المعلق عليها!.

ومنها: النذر لها ولسدنتها.

ومنها: اعتقاد المشركين فيها أن بها يكشف البلاء وينصر على الأعداء، ويستنزل غيث السماء، وتفرج الكروب، وتقضى الحوائج، وينصر المظلوم، ويجار الخائف إلى غير ذلك.

ومنها: الدخول في لعنة الله ورسوله باتخاذ المساجد عليها وإيقاد السرج عليها.

ومنها: الشرك الأكبر الذي يُفعل عندها.

ومنها: إيذاء أصحابها بما يفعله المشركون بقبورهم. فإنهم يؤذيهم ما يفعل عند قبورهم، ويكرهونه غاية الكراهية، كما أن المسيح عليه السلام يكره ما يفعله النصارى عند قبره.

وكذلك غيره من الأنبياء والأولياء والمشايخ يؤذيهم ما يفعله أشباه النصارى عند قبورهم. ويوم القيامة يتبرءون منهم، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى

لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴾ [الفرقان: ١٧-١٨] .

قال الله تعالى للمشركين: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ﴾ [الفرقان: ١٩] وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ﴾ [المائدة: ١١٦] الآية وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ۞ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤٠-٤١] .

ومنها: إماتة السنن وإحياء البدع.

ومنها: تفضيلها على خير البقاع وأحبها إلى الله، فإن عُباد القبور يقصدونها مع التعظيم والاحترام والخشوع ورقة القلب، والعكوف بالهمة على الموتى بما لا يفعلونه في المساجد ولا يحصل لهم فيها نظيره ولا قريب منه.

ومنها: أن الذي شرعه الرسول ﷺ عند زيارة القبور إنما هو تذكر الآخرة، والإحسان إلى المزور بالدعاء له، والترحم عليه، والاستغفار له. وسؤال العافية له، فيكون الزائر محسنًا إلى نفسه وإلى الميت.

فقلب هؤلاء المشركون الأمر وعكسوا الدين، وجعلوا المقصود بالزيارة الشرك بالميت، ودعاءه والدعاء به، وسؤال حوائجهم، واستنزال البركة منه، ونصره لهم على الأعداء. ونحو ذلك. فصاروا مسيئين إلى أنفسهم وإلى الميت.

وكان رسول الله ﷺ قد نهى الرجال عن زيارة القبور سدًا للذريعة فلما تمكن التوحيد في قلوبهم أذن لهم في زيارتها على الوجه الذي شرعه، ونهاهم أن يقولوا هجرًا، ومن أعظم الهجر: الشرك عندها قولاً وفعلاً.

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«زوروا القبور، فإنها تذكر الموت»**(١) .

---

(١) رواه مسلم (٩٧٦) في الجنائز وقد سبق.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: مر رسول الله ﷺ بقبور المدينة، فأقبل عليهم بوجهه فقال: «**السلام عليكم يا أهل القبور، يغفر الله لنا ولكم، أنتم سلفنا ونحن بالأثر**» [١]رواه أحمد والترمذي وحسنه.

فهذه الزيارة التي شرعها رسول الله ﷺ لأمته، وعلمهم إياها، هل تجد فيها شيئًا مما يعتمده أهل الشرك والبدع؟ أم تجدها مضادة لما هم عليه من كل وجه؟ وما أحسن ما قال مالك بن أنس رحمه الله: لن يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها [٢]ولكن كلما ضعف تمسك الأمم بعهود أنبيائهم ونقص إيمانهم عوضوا عن ذلك بما أحدثوه من البدع والشرك.

ولقد جرد السلف الصالح التوحيد وحموا جانبه، حتى كان أحدهم إذا سلم على النبي ﷺ ثم أراد الدعاء استقبل القبلة، وجعل ظهره إلى جدار القبر ثم دعا.

ونص على ذلك الأئمة الأربعة: أنه يستقبل القبلة وقت الدعاء حتى لا يدعو عند القبر، فإن الدعاء عبادة. وفي الترمذي وغيره: «**الدعاء هو العبادة**» [٣]فجرد السلف العبادة لله ولم يفعلوا عند القبور منها إلا ما أذن فيه رسول الله ﷺ من الدعاء لأصحابها والاستغفار لهم والترحم عليهم.

وأخرج أبو داود عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تجعلوا بيوتكم قبورًا، ولا تجعلوا قبري عيدًا، وصلوا علي فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم**» [٤] وإسناده جيد ورواته ثقات مشاهير.

قوله: «**لا تجعلوا بيوتكم قبورًا**» أي: لا تعطلوها عن الصلاة فيها والدعاء والقرآن فتكون بمنزلة القبور.

---

(١) ضعيف: الترمذي (١٠٥٣) في الجنائز، وصح عند مسلم (٩٧٥) في الجنائز من حديث بريدة (مرفوعًا) بلفظ: «السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين وإنا إن شاء الله للاحقون أسأل الله العافية».

(٢)سبق تخريجه.

(٣) صحيح: أبو داود (١٤٧٩) وقد سبق.

(٤) حسن: أبو داود (٢٠٤٢) وقد سبق.

فأمر بتحري النافلة في البيوت ونهى عن تحري النافلة عند القبور، وهذا ضد ما عليه المشركون من النصارى وأشباههم.

ثم إن في تعظيم القبور واتخاذها أعيادًا من المفاسد العظيمة التي لا يعلمها إلا الله، مما يغضب لأجله كل من في قلبه وقار لله وغيرة على التوحيد وتهجين وتقبيح للشرك، ولكن ما لجرح بميت إيلام.

فمن المفاسد: اتخاذها أعيادًا والصلاة إليها والطواف بها وتقبيلها واستلامها وتعفير الخدود على ترابها وعبادة أصحابها، والاستغاثة بهم، وسؤالهم النصر والرزق والعافية، وقضاء الدين، وتفريج الكربات، وإغاثة اللهفات وغير ذلك من أنواع الطلبات التي كان عباد الأوثان يسألونها أوثانهم.

فلو رأيت غلاة المتخذين لها عيدًا، وقد نزلوا عن الأكوار والدواب إذا رأوها من كل مكان بعيد، فوضعوا لها الجباه، وقبلوا الأرض، وكشفوا الرءوس، وارتفعت أصواتهم بالضجيج، وتباكوا حتى تسمع لهم النشيج، ورأوا أنهم قد أربوا في الربح على الحجيج، فاستغاثوا بمن لا يبدئ ولا يعيد، ونادوا ولكن من مكان بعيد.

حتى إذا دنوا منها صلوا عند القبر ركعتين، ورأوا أنهم قد أحرزوا من الأجر ولا أجر من صلى إلى القبلتين!!- فتراهم حول القبر ركعًا سجدًا يبتغون فضلاً من الميت ورضوانًا، وقد ملأوا أكفهم خيبة وخسرانًا.

فلغير الله - بل الشيطان - ما يراق هناك من العبرات، ويرتفع من الأصوات، ويطلب من الميت من الحاجات، ويسأل من تفريج الكربات، وإغاثة اللهفات، وإغناء ذوي الفاقات، ومعافاة ذوي العاهات والبليات.

ثم انثنوا بعد ذلك حول القبر طائفين، تشبيهًا له بالبيت الحرام الذي جعله الله مباركًا وهدى للعالمين. ثم أخذوا في التقبيل والاستلام. أرأيت الحجر الأسود وما يفعل به وفد البيت الحرام. ثم عفروا لديه تلك الجباه والخدود، التي يعلم الله أنها لم تعفر كذلك بين يديه في السجود.

ثم كملوا مناسك حج القبر بالتقصير هناك والحلاق واستمتعوا بخلاقهم من ذلك

الوثن إذ لم يكن لهم عند الله خلاق .

وقد يُعطى لذلك الوثن القرابين وكانت صلاتهم ونسكهم وقربانهم لغير الله رب العالمين ، فلو رأيتهم يهنئ بعضهم بعضًا ويقول : أجزل الله لنا ولكم أجرًا وافرًا وحظًّا !

فإن رجعوا سألهم غلاة المتخلفين أن يبيع أحدهم ثواب حجة القبر بحجة المتخلف إلى البيت الحرام ، فيقول : لا ولا بحجك كل عام !

هذا ، ولم نتجاوز فيما حكيناه عنهم ، ولا استقصينا جميع بدعهم وضلالهم ، إذ هي فوق ما يخطر بالبال ، ويدور في الخيال ، وهذا مبدأ عبادة الأصنام في قوم نوح كما تقدم .

وكل من شم أدنى رائحة من العلم والفقه يعلم أن من أهم الأمور ، سد الذريعة إلى هذا المحظور . وأن صاحب الشرع أعلم بعاقبة ما نهى عنه وما يئول إليه ، وأحكم في نهيه عنه وتوعده عليه ، وأن الخير والهدى في اتباعه وطاعته ، والشر والضلال في معصيته ومخالفته . ا هـ كلامه رحمه الله تعالى .



(٦١)



ما جاء في كثرة الحلف

قال المصنف رحمه الله تعالى: (باب ما جاء في كثرة الحلف).

ش: أي من النهي عنه والوعيد.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وقول الله تعالى: ﴿وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَـٰنَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٩]).

ش: قال ابن جرير: لا تتركوها بغير تكفير [١]. وذكر غيره من المفسرين عن ابن عباس يريد لا تحلفوا. وقال آخرون: احفظوا أيمانكم عن الحنث فلا تحنثوا [٢].

والمصنف أراد من الآية المعنى الذي ذكره ابن عباس، فإن القولين متلازمان، فيلزم من كثرة الحلف كثرة الحنث مع ما يدل عليه من الاستخفاف، وعدم التعظيم لله، وغير ذلك مما ينافى كمال التوحيد الواجب أو عدمه.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الحلف منفقة للسلعة، ممحقة للكسب» أخرجاه) [٣].

ش: أي البخاري ومسلم. وأخرجه أبو داود والنسائي.

والمعنى: أنه إذا حلف على سلعته أنه أعطي فيها كذا وكذا، أو أنه اشتراها بكذا وكذا، وقد يظنه المشتري صادقًا فيما حلف عليه فيأخذها بزيادة على قيمتها، والبائع

---

(١) التفسير للطبري (٥/ ٣٢ - ٣٣) ط العلمية.

(٢) تفسير البغوي (٢/ ٦٢).

(٣) رواه البخاري (٢٠٨٧) في البيوع، مسلم (١٦٠٦/ ١٣١) في المساقاة.

كذاب وحلف طمعًا في الزيادة، فيكون قد عصى الله تعالى، فيعاقب بمحق البركة.

فإذا ذهبت بركة كسبه دخل عليه من النقص أعظم من تلك الزيادة التي دخلت عليه بسبب حلفه، وربما ذهب ثمن تلك السلعة رأسًا. وما عند الله لا ينال إلا بطاعته وإن تزخرفت الدنيا للعاصي فعاقبتها اضمحلال وذهاب وعقاب.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وعن سلمان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاثة لا يكلمهم الله ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: أشيمط زان، وعائل مستكبر، ورجل جعل الله بضاعته، لا يشتري إلا بيمينه، ولا يبيع إلا بيمينه»[١] رواه الطبراني بسند صحيح).

ش: وسلمان لعله سلمان الفارسي أبو عبد الله، أسلم مقدم النبي ﷺ المدينة، وشهد الخندق، روى عنه أبو عثمان النهدي وشرحبيل بن السمط وغيرهما. قال النبي ﷺ: **«سلمان منا أهل البيت»**[٢]، **إن الله يحب من أصحابي أربعة: عليًا، وأبا ذر، وسلمان، والمقداد»**[٣] أخرجه الترمذي وابن ماجه.

قال الحسن: كان سلمان أميرًا على ثلاثين ألفًا يخطب بهم في عباءة يفترش نصفها ويلبس نصفها[٤]. توفي في خلافة عثمان رضي الله عنه. قال أبو عبيدة: سنة ست وثلاثين عن ثلاثمائة وخمسين سنة. ويحتمل أنه سلمان بن عامر بن أوس الضبي.

قوله: (ثلاثة لا يكلمهم الله) نفي كلام الرب تعالى وتقدس عن هؤلاء العصاة دليل على أنه يكلم من أطاعه. وأن الكلام صفة من صفات كماله.

والأدلة على ذلك من الكتاب والسنة أظهر شيء وأبينه. وهذا هو الذي عليه أهل السنة والجماعة من المحققين: قيام الأفعال بالله سبحانه، وأن الفعل يقع بمشيئته

(١) صحيح: الهيثمي (٤/ ٧٨) في المجمع وعزاه للطبراني في الثلاثة وقال: ورجاله رجال الصحيح، والألباني (٣٠٧٢) في صحيح الجامع.

(٢) ضعيف جدًا: الحاكم (٣/ ٥٩٨) في المستدرك وفيه كثير بن عبد الله المزني وهو ضعيف، ورُوي موقوفًا كما في الحلية (١/ ١٨٧) عن علي رضي الله عنه.

(٣) ضعيف: الترمذي (٣٧١٨) في المناقب وضعفه الألباني.

(٤) فيه انقطاع بين الحسن وسلمان الفارسي رضي الله عنه: ابن سعد (٤/ ٦٥) في الطبقات.

تعالى وقدرته شيئًا فشيئًا ولم يزل متصفًا به .

فهو حادث الآحاد قديم النوع، كما يقول ذلك أئمة أصحاب الحديث .

وغيرهم من أصحاب الشافعي وأحمد وسائر الطوائف، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢] فأتى بالحروف الدالة على الاستقبال والأفعال الدالة على الحال والاستقبال أيضًا . وذلك في القرآن كثير .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: فإذا قالوا لنا يعني النفاة: فهذا يلزمه أن تكون الحوادث قائمة به؟ قلنا: ومن أنكر هذا قبلكم من السلف والأئمة؟ ونصوص القرآن والسنة تتضمن ذلك مع صريح العقل .

ولفظ الحوادث مجمل، فقد يراد به الأعراض والنقائص، والله تعالى منزه عن ذلك - ولكن يقوم به ما يشاء من كلامه وأفعاله ونحو ذلك، مما دل عليه الكتاب والسنة .

والقول الصحيح هو قول أهل العلم والحديث الذين يقولون: لم يزل الله متكلمًا إذا شاء، كما قال ابن المبارك وأحمد بن حنبل وغيرهما من أئمة السنة، انتهى .

قلت: ومعنى قيام الحوادث به تعالى: قدرته عليها وإيجاده لها بمشيئته وأمره . والله أعلم .

قوله: (ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم) لما عظم ذنبهم عظمت عقوبتهم، فعوقبوا بهذه الثلاث التي هي أعظم العقوبات .

قوله: (أشيمط زانٍ) صغره تحقيرًا له وذلك لأن داعي المعصية ضعف في حقه، فدل على أن الحامل له على الزنا: محبة المعصية والفجور، وعدم خوفه من الله .

وضعف الداعي إلى المعصية مع فعلها يوجب تغليظ العقوبة عليه، بخلاف الشاب، فإن قوة داعي الشهوة منه قد تغلبه مع خوفه من الله، وقد يرجع على نفسه بالندم، ولومها على المعصية فينتهي ويراجع .

وكذلك العائل المستكبر ليس له ما يدعوه إلى الكبر؛ لأن الداعي إلى الكبر في الغالب كثرة المال والنعم والرياسة . والعائل الفقير لا داعي له إلى أن يستكبر،

فاستكباره مع عدم الداعي إليه يدل على أن الكبر طبيعة له، كامن في قلبه، فعظمت عقوبته لعدم الداعي إلى هذا الخلق الذميم الذي هو من أكبر المعاصي.

قوله: (ورجل جعل الله بضاعته) بنصب الاسم الشريف، أي الحلف به، جعله بضاعته لملازمته له وغلبته عليه.

وهذه أعمال تدل على أن صاحبها إن كان موحدًا فتوحيده ضعيف وأعماله ضعيفة بحسب ما قام بقلبه وظهر على لسانه وعمله من تلك المعاصي العظيمة على قلة الداعي إليها. نسأل الله السلامة والعافية، ونعوذ بالله من كل عمل لا يحبه ربنا ولا يرضاه.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وفي الصحيح، عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «خير أمتي قرني ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم - قال عمران: فلا أدري أذكر بعد قرنه مرتين أو ثلاثًا؟ - ثم إن بعدكم قومًا يشهدون ولا يستشهدون، ويخونون ولا يؤتمنون، وينذرون ولا يوفون، ويظهر فيهم السمن» [(1)]).

ش: قوله: وفي الصحيح أي صحيح مسلم. وأخرجه أبو داود والترمذي، ورواه البخاري بلفظ (خيركم).

قوله: (خير أمتي قرني) لفضيلة أهل ذلك القرن: في العلم والإيمان والأعمال الصالحة التي يتنافس فيها المتنافسون، ويتفاضل فيها العاملون، فغلب الخير فيها وكثر أهله، وقل الشر فيها وأهله واعتز فيها الإسلام والإيمان، وكثر فيها العلم والعلماء.

(ثم الذين يلونهم) فضلوا على من بعدهم لظهور الإسلام فيهم وكثرة الداعي إليه والراغب فيه والقائم به. وما ظهر فيه من البدع أُنكر واستُعظم وأُزيل، كبدعة الخوارج والقدرية والرافضة، فهذه البدع وإن كانت قد ظهرت، فأهلها في غاية الذل والمقت والهوان والقتل فيمن عاند منهم ولم يتب.

قوله: (فلا أدري أذكر بعد قرنه مرتين أو ثلاثًا؟) هذا شك من راوي الحديث

---

(١) رواه البخاري (٣٦٥٠) في فضائل الصحابة، مسلم (٢٥٣٥/ ٢١٤) في فضائل الصحابة.

عمران بن حصين رضي الله عنه . والمشهور في الروايات : أن القرون المفضلة ثلاثة ، الثالث دون الأولين في الفضل ، لكثرة ظهور البدع فيه ، لكن العلماء متوافرون والإسلام فيه ظاهر والجهاد فيه قائم ، ثم ذكر ما وقع بعد القرون الثلاثة من الجفاء في الدين ، وكثرة الأهواء .

فقال : (ثم إن بعدكم قومًا يشهدون ولا يستشهدون) لاستخفافهم بأمر الشهادة وعدم تحريهم الصدق ، وذلك لقلة دينهم وضعف إسلامهم .

قوله : (ويخونون ولا يؤتمنون) يدل على أن الخيانة قد غلبت على كثير منهم أو أكثرهم .

قوله : (وينذرون ولا يوفون) أي : لا يؤدون ما وجب عليهم ، فظهور هذه الأعمال الذميمة يدل على ضعف إسلامهم وعدم إيمانهم .

قوله : (ويظهر فيهم السمن) لرغبتهم في الدنيا ، ونيل شهواتهم والتنعم بها ، وغفلتهم عن الدار الآخرة والعمل لها .

وفي حديث أنس : «لا يأتي على الناس زمان إلا والذي بعده شر منه حتى تلقوا ربكم» قال أنس : سمعته من نبيكم ﷺ [1] ، فما زال الشر يزيد في الأمة حتى ظهر الشرك والبدع في كثير منهم حتى فيمن ينتسب إلى العلم ويتصدر للتعليم والتصنيف .

قال المصنف رحمه الله تعالى:(وفيه عن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : «خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم يجيء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه ويمينه شهادته» [2] .

قال إبراهيم : كانوا يضربوننا على الشهادة والعهد ونحن صغار [3] .

ش: قلت : وهذه حال من صرف رغبته إلى الدنيا ونسي المعاد ، فخف أمر الشهادة واليمين عنده تحملاً وأداء ، لقلة خوفه من الله وعدم مبالاته بذلك .

---

(١) رواه البخاري (٧٠٦٨) في الفتن .

(٢) رواه البخاري (٣٦٥١) في فضائل الصحابة ، مسلم (٢٥٣٣) في فضائل الصحابة .

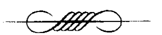
(٣) رواه البخاري ومسلم عقب الحديث السابق .

وهذا هو الغالب على الأكثر . والله المستعان . فإذا كان هذا قد وقع في صدر الإسلام الأول فما بعده أكثر بأضعاف . فكن من الناس على حذر .

قوله : (قال إبراهيم) . هو النخعي .

(كانوا يضربوننا على الشهادة والعهد ونحن صغار) ، وذلك لكثرة علم التابعين ، وقوة إيمانهم ومعرفتهم بربهم ، وقيامهم بوظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، لأنه من أفضل الجهاد ولا يقوم الدين إلا به .

وفي هذا رغبة في تمرين الصغار على طاعة ربهم ونهيهم عما يضرهم . وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .



(٦٢)



ما جاء في ذمة الله وذمة رسوله

قال المصنف رحمه الله تعالى: (باب ما جاء في ذمة الله وذمة نبيه).

وقول الله تعالى: (﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [النحل: ٩١] **الآية).**

ش: قال العماد بن كثير: وهذا مما يأمر الله تعالى به وهو الوفاء بالعهود والمواثيق، والمحافظة على الأيمان المؤكدة. ولهذا قال: ﴿وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ [النحل: ٩١] ولا تعارض بين هذا وقوله: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٤] وبين قوله: ﴿ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٩] أي: لا تتركوها بلا تكفير، وبين قوله ﷺ في الصحيحين: **«إني والله إن شاء الله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيرًا منها إلا أتيت الذي هو خير منها وتحللتها - وفي رواية - وكفرت عن يميني»** [1].

لا تعارض بين هذا كله وبين الآية المذكورة هنا وهي: ﴿وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ [النحل: ٩١] لأن هذه الأيمان المراد بها الداخلة في العهود والمواثيق، لا الأيمان الواردة على حث أو منع، ولهذا قال مجاهد في هذه الآية: يعني الحلف أي حلف الجاهلية.

ويؤيده ما رواه الإمام أحمد عن جبير بن مطعم قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا حلف في الإسلام، وإنما حلف كان في الجاهلية لم يزده الإسلام إلا شدة»** [2].

(١) رواه البخاري (٦٧١٨، ٦٧١٩) في الأيمان، مسلم (١٦٤٩) في الأيمان.
(٢) رواه البخاري (٢٥٣٠) في العتق.

وكذا رواه مسلم، ومعناه أن الإسلام لا يحتاج معه إلى الحلف الذي كان أهل الجاهلية يفعلونه، فإن في التمسك بالإسلام كفاية عما كانوا فيه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [النحل: ٩١] تهديد ووعيد لمن نقض الأيمان بعد توكيدها.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وعن بريدة، قال: كان رسول الله ﷺ، إذا أمر أميرًا على جيشٍ أو سريةٍ، أوصاه في خاصته بتقوى الله، ومن معه من المسلمين خيرًا. فقال: «اغزوا باسم الله، في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله. اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليدًا. وإذا لقيت عدوك من المشركين، فادعهم إلى ثلاث خصالٍ - أو خلالٍ - فأيتهن ما أجابوك، فاقبل منهم وكف عنهم. ثم ادعهم إلى الإسلام، فإن أجابوك فاقبل منهم، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين. وأخبرهم: أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين، وعليهم ما على المهاجرين. فإن أبوا أن يتحولوا منها، فأخبرهم: أنهم يكونون كأعراب المسلمين، يجري عليهم حكم الله تعالى، ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء، إلا أن يجاهدوا مع المسلمين. فإن هم أبوا، فاسألهم الجزية. فإن هم أجابوك، فاقبل منهم وكف عنهم. فإن هم أبوا فاستعن بالله، وقاتلهم. وإذا حاصرت أهل حصنٍ، فأرادوك أن تجعل لهم ذمة نبيه. فلا تجعل لهم ذمة الله ولا ذمة نبيه. ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك. فإنكم إن تخفروا ذممكم وذمم أصحابكم، أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة نبيه. وإذا حاصرت أهل حصنٍ، فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله. فلا تنزلهم، ولكن أنزلهم على حكمك. فإنك لا تدري: أتصيب حكم الله أم لا» رواه مسلم [(١)].

ش: قوله: عن بريدة هو ابن الحصيب الأسلمي. وهذا الحديث من رواية ابنه سليمان عنه. قاله في المفهم.

قوله: (كان رسول الله ﷺ إذا أمر أميرًا على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله تعالى) [(٢)] فيه من الفقه: تأمير الأمراء ووصيتهم.

(١) رواه مسلم (١٧٣١/ ٢ -٣ -٤ -٥) في الجهاد والسِّير.
(٢) رواه مسلم (١٧٣١) في الجهاد والسير.

قال الحربي: السرية: الخيل تبلغ أربعمائة ونحوها. والجيش: ما كان أكثر من ذلك. وتقوى الله: التحرز بطاعته من عقوبته.

قلت: وذلك بالعمل بما أمر الله به والانتهاء عما نهى عنه.

قوله: (ومن معه من المسلمين خيرًا) أي: ووصاه بمن معه منهم أن يفعل معهم خيرًا: من الرفق بهم، والإحسان إليهم، وخفض الجناح لهم، وترك التعاظم عليهم.

قوله: (اغزوا باسم الله) أي: اشرعوا في فعل الغزو مستعينين بالله مخلصين له. قلت: فتكون الباء في: بسم الله هنا للاستعانة والتوكل على الله.

قوله: (قاتلوا من كفر بالله) هذا العموم يشمل جميع أهل الكفر المحاربين وغيرهم. وقد خصص منهم من له عهد والرهبان والنسوان، ومن لم يبلغ الحلم، وقد قال متصلاً به: (ولا تقتلوا وليدًا) وإنما نهى عن قتل الرهبان والنسوان لأنه لا يكون منهم قتال غالبًا. وإن كان منهم قتال أو تدبير قتلوا.

قلت: وكذلك الذراري والأولاد.

قوله: (ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا) الغلول: الأخذ من الغنيمة من غير قسمتها. الغدر: نقض العهد. والتمثيل هنا: التشويه بالقتيل، كقطع أنفه وأذنه والعبث به. ولا خلاف في تحريم الغلول والغدر. وفي كراهية المُثلة.

قوله: (وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خلال أو خصال) الرواية بـ «أو» للشك وهو من بعض الرواة. ومعنى الخلال والخصال واحد.

قوله: (فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم) قيدناه عمن يوثق بعلمه.

وتقييده بنصب أيتهن على أن يعمل فيها أجابوك لا على إسقاط حرف الجر. وما: زائدة. ويكون تقدير الكلام: فإلى أيتهن أجابوك فاقبل منهم. كما تقول: جئتك إلى كذا وفي كذا. فيعدى إلى الثاني بحرف جر.

قلت: فيكون في ناصب (أيتهن) وجهان ذكرهما الشارح: الأول: منصوب على الاشتغال. والثاني: على نزع الخافض.

قوله : (ثم ادعهم إلى الإسلام) كذا وقعت الرواية في جميع نسخ كتاب مسلم : ثم ادعهم بزيادة ثم والصواب إسقاطها . كما روى في غير كتاب مسلم ، كمصنف أبي داود [١] ، وكتاب الأموال لأبي عبيد ؛ لأن ذلك هو ابتداء تفسير الثلاث الخصال .

وقوله : (ثم ادعهم إلى التحول إلى دار المهاجرين) يعني : المدينة . وكان هذا في أول الأمر وقت وجوب الهجرة إلى المدينة على كل من دخل في الإسلام . وهذا يدل على أن الهجرة واجبة على كل من آمن من أهل مكة وغيرها .

قوله : (فإن أبوا أن يتحولوا) يعني : أن من أسلم ولم يهاجر ولم يجاهد لا يعطى من الخمس ولا من الفيء شيئًا .

وقد أخذ الشافعي رحمه الله بالحديث في الأعراب ، فلم ير لهم من الفيء شيئًا . إنما لهم الصدقة المأخوذة من أغنيائهم فترد على فقرائهم . كما أن أهل الجهاد وأجناد المسلمين لا حق لهم في الصدقة عنده ، ومصرف كل مال في أهله . وسَوَّى مالك رحمه الله وأبو حنيفة رحمه الله بين المالين ، وجوزا صرفهما للضعيف .

قوله : (فإن هم أبوا فاسألهم الجزية) فيه : حجة لمالك وأصحابه والأوزاعي في أخذ الجزية من كل كافر : عربيًّا كان أو غيره ، كتابيًّا كان أو غيره .

وذهب أبو حنيفة رحمه الله إلى أنها تؤخذ من الجميع إلا من مشركي العرب ومجوسهم .

وقال الشافعي : لا تؤخذ إلا من أهل الكتاب عربًا كانوا أو عجمًا . وهو قول الإمام أحمد في ظاهر مذهبه ، وتؤخذ من المجوس .

قلت : لأن النبي ﷺ أخذها منهم . وقال : «**سنوا بهم سنة أهل الكتاب**» [٢] .

وقد اختلفوا في القدر المفروض من الجزية : فقال مالك : أربعة دنانير على أهل الذهب ، وأربعون درهمًا على أهل الورق . وهل ينقص منها الضعيف أو لا؟ قولان .

---

(١) كذا رواه أبو داود (٢٦١٣) في الجهاد .

(٢) منقطع : مالك (١/ ٢٧٨) في الموطأ من طريق جعفر بن محمد عن أبيه عن عمر ، وله رواية في البخاري في أول كتاب الجزية والموادعة .

قال الشافعي: فيه دينار على الغني والفقير. وقال أبو حنيفة رحمه الله، والكوفيون: على الغني ثمانية وأربعون درهمًا والوسط أربعة وعشرون درهمًا. والفقير اثنا عشر درهمًا. وهو قول أحمد بن حنبل رحمه الله.

قال يحيى بن يوسف الصرصري الحنبلي رحمه الله:

وقاتل يهودًا والنصارى وعصبة الـ ... ـمجوس فإن هم سلموا الجزية اصدد
على الأدون اثني عشر درهمًا افرضن ... وأربعة من بعد عشرين زيِّد
لأوسطهم حالاً ومن كان موسرًا ... ثمانية مع أربعين لتنقد
وتسقط عن صبيانهم ونسائهم ... وشيخ لهم فانٍ وأعمى ومقعد
وذي الفقر والمجنون أو عبد مسلم ... ومن وجبت منهم عليه فيهتدي

وعند مالك وكافة العلماء: على الرجال الأحرار البالغين العقلاء دون غيرهم، وإنما تؤخذ ممن كان تحت قهر المسلمين لا ممن نأى بداره، ويجب تحويلهم إلى بلاد المسلمين أو حربهم.

قوله: (وإذا حاصرت أهل حصن) الكلام إلى آخره فيه حجة لمن يقول من الفقهاء وأهل الأصول: إن المصيب في مسائل الاجتهاد واحد. وهو المعروف من مذهب مالك وغيره.

ووجه الاستدلال به أنه ﷺ قد نص على أن الله تعالى قد حكم حكمًا معينًا في المجتهدات. فمن وافقه فهو المصيب، ومن لم يوافقه فهو المخطئ.

قوله: (وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه) الحديث.

الذمة: العهد، وتخفر: تنقض يقال: أخفرت الرجل إذا نقضت عهده، وخفرته: أجرته.

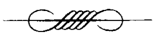
ومعناه: أنه خاف من نقض من لم يعرف حق الوفاء بالعهد، كجملة الأعراب. فكأنه يقول: إن وقع نقض من معتدٍّ كان نقض عهد الخلق أهون من نقض عهد الله تعالى. والله أعلم.

قوله [١] : وقول نافع وقد سئل عن الدعوة قبل القتال [٢] .

ذكر فيه أن مذهب مالك يجمع بين الأحاديث في الدعوة قبل القتال .

قال : وهو أن مالكًا قال : لا يقاتل الكفار قبل أن يدعوا ولا تلتمس غرتهم إلا أن يكونوا قد بلغتهم الدعوة . فيجوز أن تلتمس غرتهم .

وهذا الذي صار إليه مالك هو الصحيح لأن فائدة الدعوة أن يعرف العدو أن المسلمين لا يقاتلون للدنيا ولا للعصبية وإنما يقاتلون للدين فإذا علموا بذلك أمكن أن يكون ذلك سببًا مميلاً لهم إلى الانقياد إلى الحق، بخلاف ما إذا جهلوا مقصود المسلمين . فقد يظنون أنهم يقاتلون للملك وللدنيا فيزدادون عتوًّا وبغضًا [٣] . والله أعلم .



(١) يقصد : القرطبي في «المفهم شرح صحيح مسلم» .
(٢) صحيح : أبو داود (٢٦٣٣) وسبق تخريجه عند البخاري .
(٣) والدعاء قبل القتال هو الأفضل كما نص على ذلك الأئمة .

(٦٣)



ما جاء في الإقسام على الله

قال المصنف رحمه الله تعالى: باب (ما جاء في الإقسام على الله.

عن جندب بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قال رجل: والله لا يغفر الله لفلان. فقال الله عز وجل: من ذا الذي يتألى عليَّ أن لا أغفر لفلان؟ إني قد غفرت له وأحبطت عملك» [1] **رواه مسلم.**

وفي حديث أبي هريرة: أنَّ القائل رجلٌ عابد. وقال أبو هريرة: تكلَّم بكلمة، أوبقت دنياه وآخرتَه).

ش: قوله: (باب ما جاء في الإقسام على الله). ذكر المصنفُ فيه حديث جُندب بن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ: **«قال رجل: والله لا يغفر الله لفلان. قال الله عز وجل: من ذا الذي يتألى عليَّ أن لا أغفر لفلان، إني قد غفرت له وأحبطت عملك»** رواه مسلم.

قوله: (يتألى) أي يحلف. والألية بالتشديد: الحلف. وصح من حديث أبي هريرة.

قال البغوي في شرح السنة: وساق بالسند إلى عكرمة بن عمار - قال: دخلت مسجد المدينة فناداني شيخ قال: يا يمامي، تعال، وما أعرفه، قال: لا تقولن لرجل: والله لا يغفر الله لك أبدًا ولا يدخلك الجنة.

قلت: ومن أنت يرحمك الله؟ قال: أبو هريرة، فقلت: إن هذه كلمة يقولها أحدنا

(١) رواه مسلم (٢٦٢١) في البر والصلة والآداب.

لبعض أهله إذا غضب، أو لزوجته، أو لخادمه، قال: فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن رجلين كانا في بني إسرائيل متحابين، أحدهما مجتهد في العبادة، والآخر كأنه يقول مذنب، فجعل يقول: أقصر عما أنت فيه. قال فيقول: خلني وربي، قال: فوجده يومًا على ذنب استعظمه فقال: أقصر، فقال: خلني وربي، أبعثت عليَّ رقيبًا، فقال: والله لا يغفر الله لك ولا يدخلك الجنة أبدًا. قال: فبعث الله إليهما ملكًا، فقبض أرواحهما، فاجتمعا عنده، فقال للمذنب: ادخل الجنة برحمتي، وقال للآخر: أتستطيع أن تحظر على عبدي رحمتي؟ قال: لا يا رب، قال: اذهبوا به إلى النار**». قال أبو هريرة: والذي نفسي بيده لتكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته [1].

ورواه أبو داود في سننه، وهذا لفظه عن أبي هريرة رضي الله عنه يقول: «**كان رجلان في بني إسرائيل متآخيين فكان أحدهما يذنب، والآخر مجتهد في العبادة. فكان لا يزال المجتهد يرى الآخر على الذنب فيقول: أقصر، فوجده يومًا على ذنب فقال له: أقصر، فقال: خلني وربي أبعثت عليَّ رقيبًا؟ فقال: والله لا يغفر الله لك ولا يدخلك الجنة، فقبضت أرواحهما، فاجتمعا عند رب العالمين، فقال لهذا المجتهد: أكنت بي عالمًا، أو كنت على ما في يدي قادرًا؟ وقال للمذنب: اذهب فادخل الجنة برحمتي وقال للآخر: اذهبوا به إلى النار**» [2] إلى آخره.

قوله: (وفي حديث أبي هريرة أن القائل رجل عابد) [3] يشير إلى قوله في هذا الحديث: «**أحدهما مجتهد في العبادة**».

وفي هذه الأحاديث: بيان خطر اللسان، وذلك يفيد التحرز من الكلام، كما في حديث معاذ قلت: يا رسول الله، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ قال: «**ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس في النار على وجوههم - أو قال: على مناخرهم - إلا حصائد ألسنتهم؟**» [4]. والله أعلم.



(١)، (٢)، (٣) صحيح: أبو داود (٤٩٠١) في الأدب وصححه الألباني.
(٤) صحيح: الترمذي (٢٦١٦) في الإيمان، ابن ماجه (٣٩٧٣) في الفتن، أحمد (٥/ ٢٣١) في المسند.

(٦٤)



لا يُستشفع بالله على خلقه

قال المصنف رحمه الله تعالى: باب (لا يستشفع بالله على خلقه.

عن جبير بن مطعم، قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله نُهِكَت الأنفس، وجاع العيال، وهلكت الأموال فاستسق لنا ربك فإنا نستشفع بالله عليك وبك على الله، فقال رسول الله ﷺ: «سبحان الله سبحان الله» فما زال يسبح حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه، ثم قال: «ويحك أتدري ما الله؟ إن شأن الله أعظم من ذلك، إنه لا يُستشفع بالله على أحد» وذكر الحديث رواه أبو داود).

ش: قوله: (باب لا يُستشفع بالله على خلقه). وذكر الحديث وسياق أبي داود في سننه أتم مما ذكره المصنف رحمه الله ولفظه: عن جبير بن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه عن جده قال: أتى رسول الله ﷺ أعرابي فقال: يا رسول الله، جُهدت الأنفس، وضاعت العيال، ونُهكت الأموال، وهلكت الأنعام، فاستسق الله لنا، فإنا نستشفع بك على الله، ونستشفع بالله عليك، قال رسول الله ﷺ: «ويحك، أتدري ما تقول؟» وسبح رسول الله ﷺ فما زال يسبح حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه، ثم قال: «ويحك، إنه لا يستشفع بالله على أحد من خلقه، شأن الله أعظم من ذلك، ويحك أتدري ما الله؟ إن عرشه على سمواته لهكذا - وقال بأصابعه مثل القبة عليه - وإنه ليئط به أطيط الرحل بالراكب».

قال ابن يسار في حديثه: «إن الله فوق عرشه، وعرشه فوق سماواته» [١].

(١) ضعيف: أبو داود (٤٧٢٦) في السُّنة وضعفه الألباني.

قال الحافظ الذهبي: رواه أبو داود بإسناد حسن عنده في الرد على الجهمية من حديث محمد بن إسحاق بن يسار.

قوله: (ويحك إنه لا يستشفع بالله على أحد من خلقه) فإنه تعالى رب كل شيء ومليكه، والخير كله بيده، لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع، ولا راد لما قضى، وما كان الله ليعجزه من شيء في السموات ولا في الأرض إنه كان عليمًا قديرًا.

إنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون. والخلق وما في أيديهم ملكه يتصرف فيهم كيف يشاء وهو الذي يشفع الشافع إليه، ولهذا أنكر على الأعرابي.

قوله: (وسبح الله كثيرًا وعظمه)؛ لأن هذا القول لا يليق بالخالق سبحانه وبحمده إن شأن الله أعظم من ذلك.

وفي هذا الحديث: إثبات علو الله على خلقه، وأن عرشه فوق سماواته. وفيه تفسير الاستواء بالعلو كما فسره الصحابة والتابعون والأئمة.

خلافًا للمعطلة والجهمية والمعتزلة ومن أخذ عنهم، كالأشاعرة ونحوهم ممن ألحد في أسماء الله وصفاته وصرفها عن المعنى الذي وضعت له ودلت عليه من إثبات صفات الله تعالى التي دلت على كماله جل وعلا.

كما عليه السلف الصالح والأئمة ومن تبعهم ممن تمسك بالسنة، فإنهم أثبتوا ما أثبته الله لنفسه وأثبته له رسوله من صفات كماله على ما يليق بجلاله وعظمته إثباتًا بلا تمثيل، وتنزيهًا بلا تعطيل.

قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى في مفتاح دار السعادة - بعد كلام سبق فيما يعرف العبد بنفسه وبربه من عجائب مخلوقاته. قال بعد ذلك:

والثاني: أن يتجاوز هذا إلى النظر بالبصيرة الباطنة فتفتح له أبواب السماء، فيجول في أقطارها وملكوتها وبين ملائكتها.

ثم يفتح له باب بعد باب حتى ينتهي به سير القلب إلى عرش الرحمن فينظر سعته وعظمته وجلاله ومجده ورفعته، ويرى السموات السبع والأرضين السبع بالنسبة إليه كحلقة ملقاة بأرض فلاة، ويرى الملائكة حافين من حول العرش، لهم زجل بالتسبيح

والتحميد والتقديس والتكبير .

والأمر ينزل من فوقه بتدبير الممالك والجنود التي لا يعلمها إلا ربها ومليكها .

فينزل الأمر بإحياء قوم وإماتة آخرين ، وإعزاز قوم وإذلال آخرين ، وإنشاء مُلك وسلب مُلك ، وتحويل نعمة من محل إلى محل .

وقضاء الحاجات على اختلافها وتبيانها وكثرتها : من جبر كسير ، وإغناء فقير ، وشفاء مريض ، وتفريج كرب ، ومغفرة ذنب ، وكشف ضر ، ونصر مظلوم ، وهداية حيران ، وتعليم جاهل ، ورد آبق ، وأمان خائف ، وإجارة مستجير ، ومدد لضعيف ، وإغاثة لملهوف ، وإعانة لعاجز ، وانتقام من ظالم ، وكف لعدوان .

فهي مراسيم دائرة بين العدل والفضل ، والحكمة والرحمة ، تنفذ في أقطار العوالم ، لا يشغله سمع شيء منها عن سمع غيره ، ولا تغلطه كثرة المسائل والحوائج على اختلاف لغاتها وتباينها واتحاد قوتها ، ولا يتبرم بإلحاح الملحين ، ولا تنقص ذرة من خزائنه ، لا إله إلا هو العزيز الحكيم .

فحينئذ يقوم القلب بين يدي الرحمن مطرقًا لهيبته خاشعًا لعظمته عانيًا لعزته ، فيسجد بين يدي الملك الحق المبين ، سجدة لا يرفع رأسه منها إلى يوم المزيد ، فهذا سفر القلب ، وهو في وطنه وداره ومحل ملكه ، وهذا من أعظم آيات الله وعجائب صنعه ، فيا له من سفر ما أبركه وأروحه ، وأعظم ثمرته وربحه ، وأجل منفعته وأحسن عاقبته ، سفر هو حياة الأرواح ، ومفتاح السعادة ، وغنيمة العقول والألباب ، لا كالسفر الذي هو قطعة من العذاب . انتهى كلامه رحمه الله .

وأما الاستشفاع بالرسول ﷺ في حياته فالمراد به : استجلاب دعائه ، وليس خاصًا به ﷺ بل كل حي صالح يرجى أن يستجاب له فلا بأس أن يطلب منه أن يدعو للسائل بالمطالب الخاصة والعامة ، كما قال النبي ﷺ لعمر لما أراد أن يعتمر من المدينة : **«لا تنسنا يا أخي من صالح دعائك»** (١) .

---

(١) ضعيف : أبو داود (١٤٩٨) في الوتر ، الترمذي (٣٥٦٢) في المناقب عن عمر وضعفه الألباني هناك .

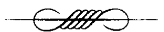
وأما الميت فإنما يشرع في حقه الدعاء له على جنازته وعلى قبره وفي غير ذلك. وهذا هو الذي يشرع في حق الميت، وأما دعاؤه: فلم يشرع، بل قد دل الكتاب والسنة على النهي والوعيد عليه، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ۝ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ۝﴾ [فاطر: ١٣-١٤] فبين الله تعالى أن دعاء من لا يسمع ولا يستجيب شرك يكفر به المدعو يوم القيامة.

أي: ينكره ويعادي من فعله، كما في آية الأحقاف: ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٦] فكل ميت أو غائب لا يسمع ولا يستجيب ولا ينفع ولا يضر.

والصحابة رضي الله عنهم، لا سيما أهل السوابق منهم كالخلفاء الراشدين، لم ينقل عن أحد منهم ولا عن غيره أنهم أنزلوا حاجتهم بالنبي ﷺ بعد وفاته، حتى في أوقات الجدب، كما وقع لعمر رضي الله عنه لما خرج ليستسقي بالناس خرج بالعباس عم النبي ﷺ فأمره أن يستسقي لأنه حي حاضر يدعو ربه [(١)] فلو جاز أن يُستسقى بأحد بعد وفاته لاستسقى عمر رضي الله عنه والسابقون الأولون بالنبي ﷺ.

وبهذا يظهر الفرق بين الحي والميت؛ لأن المقصود من الحي دعاؤه إذا كان حاضرًا. فإنهم في الحقيقة إنما توجهوا إلى الله بطلب الدعاء فمن يدعوه ويتضرع إليه، وهم كذلك يدعون ربهم.

فمن تعدى المشروع إلى ما لا يشرع ضل وأضل. ولو كان دعاء الميت خيرًا لكان الصحابة إليه أسبق وعليه أحرص، وبهم أليق، وبحقه أعلم وأقوم. فمن تمسك بكتاب الله نجا، ومن تركه واعتمد على عقله هلك. وبالله التوفيق.



---

(١) رواه البخاري (١٠١٠) في الاستسقاء.

(٦٥)



ما جاء في حماية المصطفى ﷺ حمى التوحيد وسده طرق الشرك

قال المصنف رحمه الله تعالى: باب (ما جاء في حماية المصطفى ﷺ حمى التوحيد، وسد طرق الشرك).

عن عبد الله بن الشخِّير، قال: انطلقتُ في وفد بني عامر إلى رسول الله ﷺ فقلنا: أنت سيِّدُنا. فقال: «السيدُ الله تبارك وتعالى»، قلنا: وأفضلنا فضلاً، وأعظمنا طولاً، فقال: «قولوا بقولكم، أو بعض قولكم، ولا يستجرينَّكم الشيطان». رواه أبو داود بسندٍ جيد.

وعن أنس، أنَّ ناسًا قالوا: يا رسول الله، يا خيرنا، وابن خيرنا، وسيدنا وابن سيدنا، فقال: «يا أيها الناس، قولوا بقولكم ولا يستهوينكم الشياطين، أنا محمدٌ عبد الله ورسوله، ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله عزَّ وجل» رواه النسائي بسندٍ جيد).

ش: قوله: (بابُ ما جاء في حماية المصطفى ﷺ حمى التوحيد وسدِّه طرق الشرك) حمايته ﷺ حمى التوحيد عما يشوبه من الأقوال والأعمال التي يضمحل معها التوحيد أو ينقص وهذا كثير في السنة الثابتة عنه ﷺ كقوله: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم إنما أنا عبد فقولوا: عبد الله ورسوله» (١) وتقدم. وقوله: «إنه لا يستغاث بي وإنما يستغاث بالله عز وجل» (٢) ونحو ذلك.

---

(١) رواه البخاري (٣٤٤٥) في أحاديث الأنبياء عن عمر.
(٢) انظر حديث الباب السابق.

ونهى عن التمادح وشدد القول فيه، كقوله لمن مدح إنسانًا: **«ويلك قطعت عنق صاحبك. . .»** [١] الحديث أخرجه أبو داود عن عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه: أن رجلاً أثنى على رجل عند النبي ﷺ فقال له: **«قطعت عنق صاحبك ثلاثًا»** [٢].

وقال: **«إذا لقيتم المداحين فاحثوا في وجوههم التراب»** [٣]. أخرجه مسلم والترمذي وابن ماجه عن المقداد بن الأسود.

وفي هذا الحديث: نهى عن أن يقولوا: أنت سيدنا وقال: **«السيد الله تبارك وتعالى»** ونهاهم أن يقولوا: وأفضلنا فضلاً وأعظمنا طولاً وقال: **«لا يستجرينكم الشيطان»** [٤].

وكذلك قوله في حديث أنس: أن ناسًا قالوا: يا رسول الله يا خيرنا وابن خيرنا. . . إلخ [٥]. كره ﷺ أن يواجهوه بالمدح فيفضي بهم إلى الغلو.

وأخبر ﷺ أن مواجهة المادح للممدوح بمدحه - ولو بما هو فيه - من عمل الشيطان لما تفضي محبة المدح إليه من تعاظم الممدوح في نفسه وذلك ينافي كمال التوحيد.

فإن العبادة لا تقوم إلا بقطب رحاها الذي لا تدور إلا عليه، وذلك غاية الذل في غاية المحبة، وكمال الذل يقتضي: الخضوع والخشية والاستكانة لله تعالى، وأن لا يرى نفسه إلا في مقام الذم لها والمعاتبة لها في حق ربه، وكذلك الحب لا تحصل غايته إلا إذا كان يحب ما يحبه الله، ويكره ما يكرهه الله من الأقوال والأعمال والإرادات.

ومحبة المدح من العبد لنفسه تخالف ما يحبه الله منه والمادح يغره من نفسه

---

(١) رواه البخاري (٦٠٦١) في الأدب، مسلم (٣٠٠٠/ ٦٥ - ٦٦) في الزهد والرقائق.
(٢) صحيح: أبو داود (٤٨٠٥) في السُّنة.
(٣) رواه مسلم (٣٠٠٢) في الزهد والرقائق.
(٤) صحيح: أبو داود (٤٨٠٦) في السنة وصححه الألباني وهو حديث الباب.
(٥) صحيح: أحمد (٣/ ١٥٣، ٢٤١، ٢٤٩) في المسند.

فيكون آثمًا، فمقام العبودية يقتضي كراهة المدح رأسًا، والنهي عنه صيانة لهذا المقام، فمتى أخلص العبد الذل لله والمحبة له خلصت أعماله وصحت ومتى أدخل عليها ما يشوبها من هذه الشوائب دخل على مقام العبودية بالنقص أو الفساد.

وإذا أداه المدح إلى التعاظم في نفسه والإعجاب بها وقع في أمر عظيم ينافي العبودية الخاصة كما في الحديث: **«الكبرياء ردائي والعظمة إزاري، فمن نازعني شيئًا منهما عذبته»** (١): وفي الحديث: **«لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر»** (٢).

وهذه الآفة قد تكون محبة المدح سببًا لها وسلمًا إليها، والعُجب يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب.

وأما المادح فقد يفضي به المدح إلى أن ينزل الممدوح منزلة لا يستحقها، كما يوجد كثيرًا في أشعارهم من الغلو الذي نهى عنه الرسول ﷺ وحذر أمته أن يقع منهم، فقد وقع الكثير منه حتى صرحوا فيه بالشرك في الربوبية والإلهية والملك، كما تقدمت الإشارة إلى شيء من ذلك.

والنبي ﷺ لما أكمل الله له مقام العبودية صار يكره أن يمدح، صيانة لهذا المقام، وأرشد الأمة إلى ترك ذلك نصحًا لهم، وحماية لمقام التوحيد عن أن يدخله ما يفسده، أو يضعفه من الشرك ووسائله: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾ [البقرة: ٥٩] ورأوا أن فعل ما نهاهم ﷺ عن فعله قربة من أفضل القربات، وحسنة من أعظم الحسنات.

وأما تسمية العبد بالسيد فاختلف العلماء في ذلك:

قال العلامة ابن القيم في بدائع الفوائد: اختلف الناس في جواز إطلاق السيد على البشر. فمنعه قوم، ونقل عن مالك، واحتجوا بقول النبي ﷺ لما قيل له: يا سيدنا قال: **«السيد الله»**.

---

(١) رواه مسلم (٢٦٢٠) في البر والصلة عن أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) رواه مسلم (٩١) في الإيمان عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

وجوزه قوم، واحتجوا بقول النبي ﷺ للأنصار: «**قوموا إلى سيدكم**» [(١)] وهذا أصح من الحديث الأول.

قال هؤلاء: السيد أحد ما يضاف إليه، فلا يقال للتميمي سيد كندة، ولا يقال: الملك سيد البشر. قال: وعلى هذا فلا يجوز أن يطلق على الله هذا الاسم.

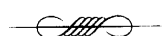
وفي هذا نظر، فإن السيد إذا أطلق عليه تعالى فهو في منزلة المالك، والمولى والرب. لا بمعنى الذي يطلق على المخلوق. انتهى.

قلت: فقد صح عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في معنى قول الله تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا﴾ [الأنعام: ١٦٤] أي: إلهًا وسيدًا [(٢)].

وقال في قول الله تعالى: ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ [الإخلاص: ٢] أنه السيد الذي كَمُلَ في جميع أنواع السؤدد [(٣)].

وقال أبو وائل: هو السيد الذي انتهى سؤدده [(٤)].

وأما استدلالهم بقول النبي ﷺ للأنصار: «**قوموا إلى سيدكم**» فالظاهر أن النبي ﷺ لم يواجه سعدًا به، فيكون في هذا المقام تفصيل والله أعلم.



---

(١) رواه البخاري (٣٠٤٣) في الجهاد والسير، مسلم (١٧٦٨/ ٦٤) في الجهاد عن أبي سعيد الخدري.

(٢) ذكره البغوي (٢/ ١٤٧) في تفسيره.

(٣) **منقطع الإسناد**: علي بن أبي طلحة لم يسمع من ابن عباس، وفي المسند أبو صالح كاتب الليث، ورواه ابن أبي حاتم (٣٨٣٢٩) في تفسيره.

(٤) **صحيح الإسناد**: البخاري معلقًا ووصله الحافظ (٨/ ٧٣٩) في الفتح من طريق الطبري والفريابي بإسناد صحيح.

(٦٦)

باب

ما جاء في قول الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾

قال المصنف رحمه الله تعالى: (بابُ ما جاء في قول الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧].

عن ابن مسعود، قال: جاء حبرٌ من الأحبار إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا محمد، إنا نجد أن الله يجعل السموات على إصبع، والأرضين على إصبع، والشجر على إصبع، والماء على إصبع، والثرى على إصبع، وسائر الخلق على إصبع. فيقول: أنا الملكُ فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذُه؛ تصديقًا لقول الحبر، ثم قرأ: «﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الزمر: ٦٧]» الآية. متفق عليه.

وفي رواية لمسلم: «والجبال والشجر على إصبع، ثم يهزهُنَّ، فيقول: أنا الملك، أنا الله».

وفي رواية للبخاري: «يجعل السموات على إصبع، والماء والثرى عل إصبع، وسائر الخلق على إصبع». أخرجاه [(١)].

ش: قول الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧].

(١) رواه البخاري (٤٨١١) في التفسير، مسلم (٢٧٨٦/ ١٩) في صفة القيامة والجنة والنار.

أي من الأحاديث والآثار في معنى هذه الآية الكريمة .

قال العماد ابن كثير رحمه الله تعالى : يقول تعالى : ما قدر المشركون الله حق قدره حتى عبدوا معه غيره ، وهو العظيم الذي لا أعظم منه ، القادر على كل شيء المالك لكل شيء ، وكل شيء تحت قهره وقدرته .

قال مجاهد : نزلت في قريش [١] .

وقال السدي : ما عظموه حق عظمته [٢] . وقال محمد بن كعب : لو قدروه حق قدره ما كذبوه [٣] .

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : هم الكفار الذين لم يؤمنوا بقدرة الله عليهم فمن آمن أن الله على كل شيء قدير ، فقد قدر الله حق قدره ، ومن لم يؤمن بذلك فلم يقدر الله حق قدره [٤] .

وقد وردت أحاديث كثيرة متعلقة بهذه الآية ، الطريق فيها وفي أمثالها من مذهب السلف ، هو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تحريف .

-وذكر حديث ابن مسعود كما ذكره المصنف رحمه الله في هذا الباب قال : ورواه البخاري في غير موضع من صحيحه . والإمام أحمد ومسلم والترمذي والنسائي كلهم من حديث سليمان بن مهران وهو الأعمش عن إبراهيم عن عبيدة عن ابن مسعود بنحوه .

قال الإمام أحمد : حدثنا معاوية ، حدثنا الأعمش ، عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله قال : جاء رجل من أهل الكتاب إلى النبي ﷺ فقال : يا أبا القاسم أبلغك أن الله تعالى يجعل الخلائق على إصبع ، والسموات على إصبع ، والأرضين على

---

(١) رواه ابن كثير (٧/ ٨٤) في تفسيره دون سند .

(٢) ضعيف : الطبري (٣٠٢١٠) في تفسيره وأسباط : ضعيف .

(٣) ابن كثير (٧/ ٨٤) في تفسيره .

(٤) ضعيف منقطع : ابن أبي طلحة لم يلق ابن عباس ، وفيه أبو صالح كاتب الليث وهو ضعيف ، ورواه الطبري (٣٠٢٠٩) في تفسيره .

إصبع، والشجر على إصبع، والثرى على إصبع، وسائر الخلق على إصبع. فيقول: «**أنا الملك**». فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه تصديقًا لقول الحبر. قال: وأنزل الله: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧] الآية. وهكذا رواه البخاري ومسلم والنسائي من طرق عن الأعمش به [(١)].

وقال الإمام أحمد: حدثنا الحسين بن حسن الأشقر، حدثنا أبو كدينة عن عطاء، عن أبي الضحى عن ابن عباس قال: مر يهودي برسول الله ﷺ وهو جالس، فقال: كيف تقول يا أبا القاسم يوم يجعل الله السموات على ذه - وأشار بالسبابة - والأرض على ذه، والجبال على ذه وسائر الخلق على ذه؟ كل ذلك يشير بأصابعه، فأنزل الله: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ [الأنعام: ٩١][(٢)] وكذا رواه الترمذي في التفسير بسنده عن أبي الضحى مسلم بن صبيح به. وقال: حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

ثم قال البخاري: حدثنا سعيد بن عفير حدثنا الليث حدثني عبد الرحمن بن خالد بن مسافر عن ابن شهاب عن أبي سلمة بن عبد الرحمن أن أبا هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يقبض الله الأرض ويطوي السماء بيمينه، فيقول: أنا الملك أين ملوك الأرض؟**» تفرد به من هذا الوجه، ورواه مسلم من وجه آخر [(٣)].

وقال البخاري في موضع آخر: حدثنا مقدم بن محمد حدثنا عمى القاسم بن يحيى عن عبيد الله عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: إن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله تعالى يقبض يوم القيامة الأرضين على إصبع وتكون السماء بيمينه ثم يقول: أنا الملك**» تفرد به أيضًا من هذا الوجه. ورواه مسلم من وجه آخر [(٤)].

وقد رواه الإمام أحمد من طريق آخر بلفظ أبسط من هذا السياق وأطول فقال:

---

(١) انظر الحديث السابق.

(٢) ضعيف وله شواهد تحسنه: الترمذي (٣٢٤٠)، في التفسير، وضعفه الألباني هناك، لكن يشهد له الحديث السابق.

(٣) رواه البخاري (٤٨١٢) في التفسير، مسلم (٢٧٨٧/ ٢٣) في صفات المنافقين.

(٤) رواه البخاري (٧٤١٢) في التوحيد، مسلم (٢٧٨٨/ ٢٤) في صفات المنافقين.

حدثنا عفان حدثنا حماد بن سلمة، أنبأنا إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة عن عبيد الله بن مقسم عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية ذات يوم على المنبر: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧] ورسول الله ﷺ يقول هكذا بيده يحركها، يقبل بها ويدبر: «**يمجد الرب تعالى نفسه: أنا الجبار، أنا المتكبر، أنا الملك، أنا العزيز، أنا الكريم**»، فرجف برسول الله ﷺ المنبر حتى قلنا: ليخرن به انتهى [(١)].

قال المصنف رحمه الله تعالى: (ولمسلم، عن ابن عمر مرفوعًا: «يطوي الله السماوات يوم القيامة، ثم يأخذُهن بيده اليمنى، ثم يقول: أنا المَلك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ ثم يطوي الأرضين السبع، ثم يأخذُهن بشماله، ثم يقول: أنا الملكُ، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟» [(٢)].

ورُوي عن ابن عباس، قال: ما السمواتُ السبع والأرضون السبع في كفّ الرحمن إلا كخردلةٍ في يد أحدكم.

وقال ابن جرير: حدثني يونس، أخبرنا ابن وهب، قال ابن زيد: حدثني أبي، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما السماوات السبع في الكرسي، إلا كدراهم سبعة ألقيت في ترسٍ» [(٣)].

قال: وقال أبو ذر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما الكرسيُ في العرش إلا كحلقة من حديد ألقيت بين ظَهرَي فلاةٍ من الأرض» [(٤)].

وعن ابن مسعود، قال: بين السماء الدنيا والتي تليها خمسمائة عام، وبين كل سماء

---

(١) صحيح: رواه أحمد (٢/ ٧٢) والنسائي (٧٦٩٦) في الكبرى.

(٢) صحيح الألفاظ (بشماله): مسلم (٢٧٨٨) في صفات المنافقين.

(٣) ضعيف منقطع: الطبري (٣/ ١٠) في تفسيره، وابن زيد هو عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وكان يقلب الأحاديث وهو ضعيف جدًا.

(٤) هذا الجزء المرفوع صححه الألباني (١٠٩) في الصحيحة وقال: واعلم أنه لا يصح في صفة الكرسي غير هذا الحديث.

خمسمائة عام، وبين السابعة وبين الكرسي خمسمائة عام، وبين الكرسي والماء خمسمائة عام، والعرش فوق الماء. والله فوق العرش، لا يخفى عليه شيء من أعمالكم [(١)]. **أخرجه ابن مهدي، عن حماد بن سلمة عن عاصم، عن ذر، عن عبد الله. ورواه بنحوه المسعودي، عن عاصم، عن أبي وائل، عن عبد الله.**

قاله الحافظ الذهبي، قال: وله طرق.

وعن العباس بن عبد المطلب، قال: قال رسول الله ﷺ: «هل تدرون كم بين السماء والأرض؟» قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: «بينهما مسيرة خمسمائة سنة، ومن كل سماء إلى سماء مسيرة خمسمائة سنة، وكثف كل سماء مسيرة خمسمائة سنة، وبين السماء السابعة والعرش بحر. بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض، والله تعالى فوق ذلك، وليس يخفى عليه شيء من أعمال بني آدم» [(٢)]. **أخرجه أبو داود وغيره).**

ش: قوله: ولمسلم عن ابن عمر - الحديث كذا في رواية مسلم. قال الحميدي وهي أتم، وهي عند مسلم من حديث سالم عن أبيه.

وأخرجه البخاري من حديث عبيد الله عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «**إن الله يقبض يوم القيامة الأرضين وتكون السماء بيمينه**» [(٣)] وأخرجه مسلم من حديث عبيد الله بن مقسم.

قلت: وهذه الأحاديث وما في معناها تدل على عظمة الله وعظيم قدرته وعظم مخلوقاته. وقد تعرف سبحانه وتعالى إلى عباده بصفاته وعجائب مخلوقاته.

وكلها تعرف وتدل على كماله، وأنه هو المعبود وحده، لا شريك له في ربوبيته وإلهيته وتدل على إثبات الصفات له على ما يليق بجلال الله وعظمته، إثباتًا بلا تمثيل، وتنزيهًا بلا تعطيل، وهذا هو الذي دلت عليه نصوص الكتاب والسنة وعليه سلف الأمة وأئمتها ومن تبعهم بإحسان، واقتفى أثرهم على الإسلام والإيمان.

---

(١) حسن: ابن خزيمة ص (١٠٥ - ١٠٦) في التوحيد، الذهبي ص (٣٩) في مختصر العلو.
(٢) ضعيف: الترمذي (٣٣٢٠) في التفسير، أبو داود (٤٧٢٣) في السُّنة وضعفه الألباني.
(٣) هو حديث الباب.

وتأمل ما في هذه الأحاديث الصحيحة من تعظيم النبي ﷺ ربه بذكر صفات كماله على ما يليق بعظمته وجلاله وتصديقه اليهود فيما أخبروا به عن الله من الصفات التي تدل على عظمته .

وتأمل ما فيها من إثبات علو الله تعالى على عرشه ، ولم يقل النبي ﷺ في شيء منها : إن ظاهرها غير مراد ، وإنها تدل على تشبيه صفات الله بصفات خلقه ، فلو كان هذا حقًّا بلغه أمينه أمته ، فإن الله أكمل به الدين وأتم له النعمة فبلغ البلاغ المبين . صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه ومن تبعهم إلى يوم الدين .

وتلقى الصحابة رضي الله عنهم عن نبيهم ﷺ ما وصف به ربه من صفات كماله ونعوت جلاله ، فآمنوا به وآمنوا بكتاب الله وما تضمنه من صفات ربهم جل وعلا ، كما قال تعالى : ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران :٧] .

وكذلك التابعون لهم بإحسان وتابعوهم ، والأئمة من المحدثين والفقهاء : كلهم وصف الله بما وصف به نفسه ووصفه به رسول الله ﷺ ولم يجحدوا شيئًا من الصفات ، ولا قال أحد منهم : إن ظاهرها غير مراد ولا إنه يلزم من إثباتها التشبيه ، بل أنكروا على من قال ذلك غاية الإنكار ، وصنفوا في رد هذه الشبهات المصنفات الكبار المعروفة الموجودة بأيدي أهل السنة والجماعة .

قال شيخ الإسلام أحمد بن تيمية رحمه الله تعالى : وهذا كتاب الله من أوله إلى آخره وسنة رسول الله ﷺ ، وكلام الصحابة والتابعين ، وكلام سائر الأئمة مملوءة كلها بما هو نص أو ظاهر : أن الله تعالى فوق كل شيء ، وأنه فوق العرش فوق السموات مستوٍ على عرشه ، مثل قوله تعالى : ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر :١٠] .

وقوله تعالى : ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾ [آل عمران : ٥٥] وقوله تعالى : ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء :١٥٨] وقوله تعالى : ﴿ذِى ٱلْمَعَارِجِ ۞ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج: ٣-٤] .

وقوله تعالى : ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ [السجدة :٥] .

وقوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠].

وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ [البقرة: ٢٩].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٣] فذكر التوحيدين في هذه الآية.

وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الرعد: ٢].

وقوله تعالى: ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ۞ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٤-٥].

وقوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ۞ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٨-٥٩].

وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ۞ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة: ٤-٥].

وقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤] فذكر عموم علمه، وعموم قدرته، وعموم إحاطته، وعموم رؤيته.

وقوله تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ۞ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ [الملك: ١٦-١٧].

وقوله تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

وقوله: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [الزمر: ١].

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ۝ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ [غافر: ٣٦-٣٧]. انتهى كلامه رحمه الله.

قلت: وقد ذكر الأئمة رحمهم الله تعالى فيما صنفوه في الرد على نفاة الصفات من الجهمية والمعتزلة والأشاعرة ونحوهم أقوال الصحابة والتابعين.

فمن ذلك: ما رواه الحافظ الذهبي في كتاب العلو وغيره بالأسانيد الصحيحة عن أم سلمة زوج النبي ﷺ أنها قالت في قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] قالت: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإقرار به إيمان، والجحود به كفر رواه ابن المنذر واللالكائي وغيرهما بأسانيد صحاح [(١)].

قال: وثبت عن سفيان بن عيينة رحمه الله تعالى أنه قال: لما سئل ربيعة بن أبي عبد الرحمن: كيف الاستواء؟ قال: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، ومن الله الرسالة، وعلى الرسول البلاغ، وعلينا التصديق [(٢)].

وقال ابن وهب: كنا عند مالك فدخل رجل فقال: يا أبا عبد الله ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] كيف استوى؟ فأطرق مالك رحمه الله وأخذته الرحضاء وقال: الرحمن على العرش استوى، كما وصف نفسه ولا يقال: كيف؟ وكيف عنه مرفوع، وأنت صاحب بدعة، أخرجوه. رواه البيهقي بإسناد صحيح عن ابن وهب.

ورواه عن يحيى بن يحيى أيضًا، ولفظه، قال: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة [(٣)].

قال الذهبي: فانظر إليهم كيف أثبتوا الاستواء لله، وأخبروا أنه معلوم لا يحتاج

---

(١) ضعيف: اللالكائي (٦٦٣) في أصول الاعتقاد، وفيه أبو كنانة - محمد بن أشرس الأنصاري، في الميزان (٣/ ٤٨٥) متهم في الحديث.

(٢) صحيح: اللالكائي (٦٦٥) في أصول الاعتقاد، الفتح (١٣/ ٤٠٦) للحافظ ابن حجر وقال: نقل أبو إسماعيل في كتاب (الفاروق) بسنده وذكره.

(٣) صحيح موقوف: البيهقي (١/ ١١٦) في الاعتقاد، وأبو نعيم (٦/ ٣٢٥) في الحلية، اللالكائي (٦٦٤) في الاعتقاد، وابن عبد البر (٧/ ١٥١) في التمهيد.

لفظه إلى تفسير، ونفوا عنه الكيفية.

قال البخاري في «صحيحه»: قال مجاهد: ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾ علا على العرش [(١)].

وقال إسحاق بن راهويه: سمعت غير واحد من المفسرين يقول: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] أي: ارتفع [(٢)].

وقال محمد بن جرير الطبري في قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] أي: علا وارتفع [(٣)].

وشواهده في أقوال الصحابة والتابعين وأتباعهم، فمن ذلك قول عبد الله بن رواحة رضي الله عنه:

شهدت بأن وعد الله حق ... وأن النار مثوى الكافرينا
وأن العرش فوق الماء طاف ... وفوق العرش رب العالمينا
وتحمله ملائكة شداد ... ملائكة الإله مسومينا [(٤)]

وروى الدارمي والحاكم والبيهقي بأصح إسناد، إلى علي بن الحسين بن شقيق، قال: سمعت عبد الله بن المبارك يقول: نعرف ربنا بأنه فوق سبع سماواته على العرش استوى، بائن من خلقه، ولا نقول كما قالت الجهمية [(٥)].

قال الدارمي: حدثنا الحسن بن الصباح البزار حدثنا علي بن الحسين بن شقيق عن ابن المبارك: قيل له: كيف نعرف ربنا؟ قال: بأنه فوق السماء السابعة على العرش، بائن من خلقه [(٦)].

---

(١) صحيح: البخاري معلقًا (١٣/٤٠٣) في الفتح ووصله الحافظ هناك.
(٢) حسن: اللالكائي (٦٦٢) في أصول الاعتقاد وفيه بشر بن عمر وثقه ابن حجر والذهبي، وانظر الفتح (١٣/٤٠٦).
(٣) الطبري (٨/ ٣٩١) في تفسيره - ط العلمية.
(٤) رواه ابن عبد البر (٣/ ٩٠٠ - ٩٠١) في الاستيعاب، وابن كثير (١/١٦) في البداية والنهاية.
(٥) صحيح: عبد الله بن الإمام أحمد (٤٢) في السُّنة.
(٦) حسن: الدارمي (٦٧) في الرد على الجهمية.

وقد تقدم قول الأوزاعي : كنا - والتابعون متوافرون - نقول : إن الله تعالى ذكره بائن من خلقه، ونؤمن بما وردت به السنة [١] .

وقال أبو عمر الطلمنكي في كتاب الأصول : أجمع المسلمون من أهل السنة على أن الله استوى على عرشه بذاته .

وقال في هذا الكتاب أيضًا : أجمع أهل السنة على أن الله تعالى استوى على عرشه على الحقيقة لا على المجاز، ثم ساق بسنده عن مالك قوله : الله في السماء وعلمه في كل مكان .

ثم قال في هذا الكتاب : أجمع المسلمون من أهل السنة أن معنى قوله : ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾[الحديد:٤] ونحو ذلك من القرآن : أن ذلك علمه، وأن الله فوق السماوات بذاته، مستوٍ على عرشه كيف شاء . وهذا لفظه في كتابه [٢] .

وهذا كثير في كلام الصحابة والتابعين والأئمة، أثبتوا ما أثبته الله في كتابه وعلى لسان رسوله على الحقيقة على ما يليق بجلال الله وعظمته، ونفوا عنه مشابهة المخلوقين، ولم يمثلوا ولم يكيفوا، كما ذكرنا ذلك عنهم في هذا الباب .

وقال الحافظ الذهبي : وأول وقت سمعت مقالة من أنكر أن الله فوق عرشه : هو الجعد بن درهم . وكذلك أنكر جميع الصفات . فقتله خالد بن عبد الله القسري وقصته مشهورة [٣] .

فأخذ هذه المقالة عنه الجهم بن صفوان إمام الجهمية، فأظهرها واحتج لها بالشبهات، وكان ذلك في آخر عصر التابعين فأنكر مقالته أئمة ذلك العصر مثل : الأوزاعي، وأبي حنيفة، ومالك، والليث بن سعد، والثوري، وحماد بن زيد، وحماد بن سلمة، وابن المبارك ومن بعدهم من أئمة الهدى .

فقال الأوزاعي إمام أهل الشام على رأس الخمسين ومائة عند ظهور هذه المقالة :

---

(١) لين : البيهقي في الأسماء والصفات (٨٦٥) وفيه محمد بن كثير المصيصي وهو كثير الخطأ .
(٢) انظر العلو (٢٦٤) للذهبي .
(٣) القصة شهيرة وانظرها في التاريخ الكبير (١/ ٦٤) وغيره .

ما أخبرنا عبد الواسع الأبهري بسنده إلى أبي بكر البيهقي: أنبأنا أبو عبد الله الحافظ، أخبرني محمد بن علي الجوهري - ببغداد - حدثنا إبراهيم بن الهيثم، حدثنا محمد بن كثير المصيصي سمعت الأوزاعي يقول: كنا - والتابعون متوافرون - نقول: إن الله فوق عرشه. ونؤمن بما وردت به السنة من صفاته [١].

أخرجه البيهقي في الصفات ورواته أئمة ثقات.

وقال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى: لله أسماء وصفات لا يسع أحدًا ردها.

ومن خالف بعد ثبوت الحجة عليه كفر، وأما قبل قيام الحجة فإنه يعذر بالجهل.

ونثبت هذه الصفات وننفي عنه التشبيه، كما نفى عن نفسه فقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] انتهى من «فتح الباري» [٢].

قوله: (عن العباس بن عبد المطلب) ساقه المصنف رحمه الله مختصرًا، والذي في سنن أبي داود: عن العباس بن عبد المطلب قال: كنت في البطحاء في عصابة فيهم رسول الله ﷺ، فمرت بهم سحابة فنظر إليها فقال: **«ما تسمون هذه؟»** قالوا: السحاب قال: **«والمزن»**، قالوا: والمزن. قال: **«والعنان»**، قالوا: والعنان - قال أبو داود: لم أتقن العنان جيدًا - قال: **«هل تدرون ما بُعد ما بين السموات والأرض؟»** قالوا: لا ندري قال: **«إن بُعد ما بينهما إما واحدة أو اثنتان أو ثلاث وسبعون سنة، ثم السماء التي فوقها كذلك، - حتى عد سبع سموات -، ثم فوق السابعة بحر بين أسفله وأعلاه مثل ما بين سماء إلى سماء، ثم فوق ذلك ثمانية أوعال، بين أظلافهم وركبهم مثل ما بين سماء إلى سماء. ثم على ظهورهم العرش بين أسفله وأعلاه كما بين سماء إلى سماء، ثم الله تعالى فوق ذلك»** [٣] وأخرجه الترمذي وابن ماجه وقال الترمذي: حسن غريب.

وقال الحافظ الذهبي: رواه أبو داود بإسناد حسن وروى الترمذي نحوه من حديث

---

(١) ضعيف: سبق تخريجه.

(٢) رواه الحافظ (١٣/ ٤٠٧) في الفتح وعزاه لابن أبي حاتم في مناقب الشافعي.

(٣) ضعيف: سبق تخريجه.

أبي هريرة وفيه: «**بُعد ما بين سماء إلى سماء خمسمائة عام**» ولا منافاة بينهما. لأن تقدير ذلك بخمسمائة عام هو على سير القافلة مثلاً، ونيف وسبعون سنة على سير البريد؛ لأنه يصح أن يقال: بيننا وبين مصر عشرون يومًا باعتبار سير العادة، وثلاثة أيام باعتبار سير البريد. وروى شريك بعض هذا الحديث عن سماك فوقفه. هذا آخر كلامه.

قلت: فيه التصريح بأن الله فوق عرشه كما تقدم في الآيات المحكمات، والأحاديث الصحيحة وفي كلام السلف من الصحابة والتابعين وتابعيهم.

وهذا الحديث له شواهد في الصحيحين وغيرهما، ولا عبرة بقول من ضعفه لكثرة شواهده التي يستحيل دفعها وصرفها عن ظواهرها.

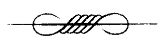
وهذا الحديث كأمثاله يدل على عظمة الله وكماله وعظيم مخلوقاته، وأنه المتصف بصفات الكمال التي وصف بها نفسه في كتابه ووصفه بها رسول الله ﷺ.

وعلى كمال قدرته وأنه هو المعبود وحده لا شريك له دون كل ما سواه.

وبالله التوفيق، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

تم كتاب (فتح المجيد) بعون الله الحميد [(١)].



(١) قال محققه أبو أنس السلفي عفا الله عنه: تم التحقيق ليلة الجمعة التاسع من شوال ١٤٢٦ هـ الحادي عشر من نوفمبر ٢٠٠٥. فاللهم اغفر وارحم وتجاوز عن الزلات والتقصير!.

الفهرس

